المركز القومى للترجمة



ذيميتريس س. ستيفاناكيس

أيام الإسكندرية

ترجمة وتقديم: محمد خليل رشدى

مراجعة: عادل سعيد النحاس

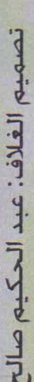
2171

سلسلة الإبداع القصصى



هذه الرواية تدور أحداثها فى خمسين عاما فى مدينة الإسكندرية العالمية، فى بدايات القرن العشرين؛ حيث ينشأ الصدام بين الحرب والتجارة، وبين السياسة والحب، وبين الاستعمار والوطنية؛ مما ينتج عنه نتائج غير متوقعة.

تتألف الرواية من العديد من الشخصيات التى تنتمى إلى جنسيات مختلفة: أندونيس خاراميس الذى يعيش مع زوجته وولديه بالحى اليونانى الأرستقراطى بالإسكندرية، مقيدا بتقاليد الجالية اليونانية الصارمة، والذى يتمكن من خلال علاقة العمل التى تربطه باللبنانى الغامض إلياس خورى من أن يوقع تعاقدا مع قيادة الجيش البريطانى بالشرق الأوسط، فى اليوم الذى أعلن فيه قيام الحرب العالمية الأولى، والذى كان له فضل كبير فى تحريره من التزاماته الأخلاقية تجاه أسرته، وبفضل وساطة صديقه خورى تصير له علاقة ناجحة مع الجميلة، ذات الأصول الفرنسية السويسرية، إيڤيت شانتون.



أيام الإسكندرية

رواية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2171
- أيام الإسكندرية
- ذيميتريس س. ستيفاناكيس
- محمد خليل رشدى
- عادل النحاس
- اللغة: اليونانية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:

ΜΕΡΕΣ ΑΔΕΞΑΝΔΡΕΙΑΣ
ΔΗΜΗΤΡΗΣ Γ. ΣΤΕΦΑΝΑΚΗΣ

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

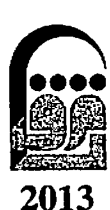
أيام الإسكندرية

رواية

تــألــيــف : ذيميتريس س. ستيفاناكيس

ترجمة وتقديم : مـحـمـد خليل رشـدى

مـراجـعـة : عـادل سـعـيـد النحـاس



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ستيفاناكيس، ذيميتريس س.
أيام الإسكندرية (رواية)/ تأليف: ذيميتريس س. ستيفاناكيس،
ترجمة وتقديم: محمد خليل رشدى، مراجعة: عادل سعيد النحاس.
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
٦٨٨ ص؛ ٢٤ سم
١- القصص اليونانية.
(أ) رشدى، محمد خليل (مترجم ومقدم).
(ب) النحاس، عادل سعيد (مراجع).
(جـ) العنوان ٨٨٣

رقم الإيداع ٧٣٠٢ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 216 - 034 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

إهـــــداء 7

شكر وتقـــدير 9

تقـديم المتـرجم 13

الفصـــل الأول : لطفاء كالزائرين (لاو تسى) 23

الفصل الثـانى : كل الأسر السعيدة تتشابه فيما بينها - وكل أسرة تعيسة ليست سوى حالة فريدة ("أنا كارنينا" ليو تولتسوى) 235

الفصل الثالـث : أخطو بثقة السائر أثناء نومه - على الدرب الذى سمته لى العناية الإلهية (هتلر، ١٤ مارس ١٩٣٦) 465

إهـــــــــــداء

إلى من منحني رحلة العلم في اليونان

إلى من علمني إنسانية الأستاذ

إلى الأستاذ الدكتور/ يحيى عبد الله

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر والتقدير للمثقف والقارئ الأستاذ الدكتور. أحمد عبد العزيز جلال – عميد كلية الطب بجامعة الأزهر بأسيوط – سابقًا، على ما أمدنا به من مراجع مهمة من مكتبته الشخصية، ساعدتنا فى التعرف على العديد من أحداث الحياة السياسية والاجتماعية وتطورها فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين.

كما أتوجه بالشكر والتقدير للأستاذ الدكتور عادل النحاس – أستاذ الأدب اليونانى بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب – جامعة القاهرة، لتفضُّله بمراجعة هذا العمل حتى وصل إلى هذا القدر من الدقة والإتقان.

وأود أن أتوجه بالتقدير والعرفان لزوجتى، على مساعدتها وتفضلها بترجمة الفقرات المكتوبة باللغة الفرنسية فى الرواية، إلى اللغة العربية.

كما أتوجه بالشكر للأستاذ ستيفانوس ستيفانو – رئيس الجالية اليونانية بالسويس وبور توفيق – لاهتمامه الشخصى بهذا العمل، وتقديم ما كنا بحاجة إليه من معلومات عن اليونانيين الذين أقاموا فى هذه المنطقة من مصر.

وأخيرًا أتوجه بالشكر للسيدة الفاضلة رومانيا ستافرو، على إهدائنا كتابها "كافالا قديمًا واليوم" وعلى حديثها الممتع حول مدينة كافالا ومدى العرفان الذى تدين به المدينة لمحمد علىّ، لما أقامه فيها من مشروعات عكست حبه لكافالا، المدينة التى ولد فيها. كما أتوجه بالشكر للسيدة ماجدة باباثاناسيو، التى تفضلت بمرافقتنا لزيارة منزل محمد علىّ بمدينة كافالا، ذلك المنزل الذى ولد وعاش فيه واحد من أعظم القادة فى العصر الحديث، والذى يعد مؤسسًا لنهضة مصر الحديثة، والذى مازالت مصر تدين له بالكثير إلى اليوم.

.... وكل ما هو حقيقى

(يحدث) لمرة واحدة

(وفى) مكان واحد

(من قصيدة: "أربعاء الرماد" لـ ت. س. إليوت)

تقديم المترجم

تأتى رواية أيام الإسكندرية بوصفها محاولة من مؤلفها لرسم ملامح المجتمع المصرى، بوجه عام، ومجتمع الإسكندرية بوجه خاص فى الحقبة الزمنية التى تغطى النصف الأول من القرن العشرين، وتنتهى بالثورة المصرية عام ١٩٥٢ والإطاحة بالملك فاروق، آخر ملوك مصر.

وقد جاء تركيز المؤلف فى رسم ملامح الطبقة الأرستقراطية اليونانية بالإسكندرية، تلك الطبقة التى سكنت القصور وارتادت أرقى الأماكن الخاصة بالجاليات الأوربية، وعلاقة تلك الطبقة بعضها ببعض، وعلاقتها بطبقة أخرى من اليونانيين التى جاورت المصريين البسطاء فى الأحياء الشعبية من جهة، ثم علاقة الجالية اليونانية بالمصريين من جهة أخرى.

فى الرواية ظهرت شخصيات تمثل الطبقة البرجوازية اليونانية مثل أندونيس خاراميس، رجل صناعة الدخان اليونانى الثرى، وأسرته. ثم شخصيات تنتمى لجذور عربية يستفيدون من أوضاع مصر فى تلك الحقبة إبان الاحتلال الإنجليزى لمصر، مثل اللبنانى الأصل الفرنسى الجنسية إلياس خورى، الذى لم يجد حرجًا فى إظهار ولائه للإنجليز من خلال تأسيس أحد بيوت البغاء لخدمة الإنجليز والطبقات الثرية من الأوربيين، وكذلك من الفاسدين من أثرياء مصر وباشاواتها، وقد قام بذلك بالتعاون مع السيدة الفرنسية الجميلة إيفيت شانتون، التى ظل مصيرها مرتبطًا بإلياس خورى حتى النهاية، وكذلك شخصية صمويل عظيمان، ذلك اليهودى الذى كان رمزًا قويًا

لدعم اليهود الأثرياء لقضية تأسيس الدولة اليهودية بفلسطين، وما لعبه من دور مؤثر في دعم هذه القضية في تلك المرحلة التاريخية الحرجة من تاريخ مصر والأمة العربية.

كما يقدم المؤلف بعض النماذج من الفئات الفاسدة في المجتمع المصري، تلك التي لم تجد حرجاً في التعامل مع طبقة المستغلين لمصر وشعبها سواء من الإنجليز أم من غيرهم، مثل ضابط الشرطة فريد. في حين يظهر السواد الأعظم من المصريين في صورة أناس بسطاء يعملون في وظائف بسيطة - سائقين، شيالين، خدماً - لتصبح صورتهم عبارة عن أمواج متلاحمة من العمائم والجلاليب.

وقد جاء اهتمامنا بترجمة رواية "أيام الإسكندرية" لعدة أسباب، منها: تناولها لأهم الجاليات الأجنبية في مصر، وهي الجالية اليونانية، التي لم يكن المصريون - في واقع الأمر - ينظرون إلى مواطنيها بالنظرة نفسها التي ينظرون بها إلى مواطني الجاليات الأوربية الأخرى من الإنجليز والفرنسيين أو الإيطاليين وغيرهم، التي كانت في معزل عن أبناء الشعب المصري وطبقاته الكادحة، التي كان المصريون ينظرون إليهم باعتبارهم مستغلين لثروات مصر.

كان المصريون يكنون كل الاحترام لليونانيين الذين أقاموا في مصر، وبخاصة في الإسكندرية، بل أطلقوا عليهم لقب: Αιγυπτιώτες "أيجيبتيوتيس" أو "المصاروة"، وربما يرجع ذلك لملامحهم الشخصية التي تتشابه مع ملامح المصريين، وكذلك لوجود العديد من العناصر المشتركة التي كانت ولا تزال تجمع بين المصريين واليونانيين.

كانت البداية الحقيقية لوجود اليونانيين في مصر في بدايات القرن العشرين في فترة حكم محمد علي، ثم استمرت على امتداد حكم خلفائه من بعده. وكان المهاجر اليوناني يترك اليونان متوجهاً إلى الأراضي المصرية؛ لكي ينوء بنفسه عن الواقع التركي السائد في بلاده على أمل أن يجد في وطنه الجديد، مصر، مستوى معيشة أفضل، وقدرا من الأمان لا يجده في وطنه الأصلي، اليونان. فقد كانت مصر، التي تقع على مقربة من اليونان، تمتلك ثروات كبيرة غير مستغلة، يحكمها محمد علي، الذي ينحدر من مدينة كافالا اليونانية، ويعرف العديد من اليونانيين، بل وتربطه مع بعضهم

علاقات صداقة وروابط طيبة [1]. وبالطبع كان أهل كافالا يهاجرون بشكل خاص إلى مصر، وهم يعلمون أنهم يهاجرون إليها ليبقوا تحت حمايته [2].

وعلى الرغم من أن اليونانيين بمصر كانوا يعيشون فى حال أفضل مما كانوا عليه باليونان. فإن بعضهم كان يواجه ظروفًا غير مواتية، ولم يكن بوسع الجميع الحصول على الثراء المادى. كان الأثرياء من اليونانيين يمثلون القلة، أما الغالبية العظمى منهم فكانوا يعملون من أجل كسب لقمة العيش[3]، حتى إن طبقة العمال اليونانيين كانت أحيانا ما تنضم إلى نظيرتها من المصريين فى إضراباتهم، مثلما حدث فى عام ١٩٠٢، عندما قام عمال شركة الغزل الأهلية بالإسكندرية بالإضراب للمطالبة بتعديل نظام الأجور التى كانت تحتسب بالقطعة، وكانوا خليطًا من المصريين واليونانيين[4].

كان الوجود الأغلب لليونانيين بمصر يتركز فى مدينة الإسكندرية، وكذلك فى مدن القناة الثلاث: بورسعيد، السويس، الإسماعيلية، إلى جانب الجالية اليونانية بالقاهرة، والقليل منهم كان يعيش فى بعض مدن الصعيد. وقد أثبت تاريخ مصر الحديثة أن اليونانيين فى مصر كان لهم ما كان للأجانب بوجه عام من امتيازات أجنبية، واستغل الأجانب تلك الامتيازات مخالفين بذلك القوانين المحلية، كما كانوا لا يمتثلون لأوامر الحكومة المصرية على الدوام. ومن الثابت أيضًا أنهم عاشوا فى حماية قناصلهم وتمتعوا بالامتيازات التى وصلت إلى حد المطالبة بإلغاء بعض قوانين الدولة[5]. وبذلك

---

(١) إفثيميوس سولويانيس. اليونانيون بمصر فى العصر الحديث. ترجمة صموئيل بشارة. أثينا. ٢٠٠٨ ، ص١٠٧ .

(٢) Σταυρου, P. Η Καβαλα αλλοτε και τωρα. Καβαλ. 1972. P. 64.

(٣) فثيميوس سولويانيس. أثينا. ٢٠٠٨ . ص , ٧٥

(٤) لويس جريس. يوميات من التاريخ المصرى الحديث. (١٧٧٥-١٩٥٢). الهيئه المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٨ ص ٢٥٦ .

(٥) زين العابدبن شمس الدين نجم. بورسعيد. تاريخها وتطورها منذ نشاتها عام ١٨٥٩ حتى عام ,١٨٨٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب. ,١٩٨٧ ص ص (٥٩-٦١).

فقد أصبحت الامتيازات الأجنبية ذات صفة هجومية، بعد ما كانت لمجرد الحماية، وكانت السلطات القنصلية هي التى تنظر فى قضايا الرعايا الأجانب التابعين لها، فأفلت المجرمون الأجانب من القصاص، ومن هنا تزايد تدفق الأجانب الباحثين عن الثروة على الإسكندرية، مما جعل مجتمعها مجتمعًا غير جدير بالاحترام(٦).

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، كان النشاط الاقتصادى فى قبضة العناصر الأجنبية التى كانت تموله وتشرف عليه وتنهض بشئونه؛ ذلك أن العشرين سنة التى سبقت الحرب شهدت تفوقًا لرؤوس الأموال الأجنبية، وعلى الرغم من ذلك فقد خلقت الحرب المناخ الذى هيأ للرأسمالية المصرية النمو، فأصبحت تتطلع خلال الحرب إلى الصناعة(٧)، ولم يكن ذلك مقصورًا فقط على ما كانت مصر تمتلكه بالفعل من مقومات زراعية وصناعية، ولكن مصر عرفت نوعًا جديدًا من الزراعة، وهى زراعة الدخان، فقد شجع ما أصاب البلاد الأخرى التى تقوم بتصنيع السجائر - من عطل فى سنى الحرب - هذه الصناعة فى مصر على النهوض، مما أباح زراعة الدخان، فكان الإنتاج يكفى مصر بل وأصبح هناك فائض للتصدير إلى بريطانيا وأستراليا وفرنسا وإيطاليا، وزادت القيمة المصدرة فى كل سنة من سنوات الحرب على الأخرى(٨). والحديث عن الحرب العالمية الأولى يوضح العلاقة المتوترة بين مصر وبريطانيا أثناء الحرب وبعدها. فقد قدمت مصر كل ما قدمت لجيش إنجلترا وحليفاتها من خدمات، وتحلت بالصبر والهدوء، إسهامًا منها فى مساعدة الإنجليز وحلفائهم على إحراز النصر، أملاً فى اعترافهم بهذا الفضل، ورد الجميل لها بمنحها حريتها واستقلالها، وظن المصريون أن إعلان بريطانيا فرض الحماية على مصر مع بداية الحرب ما هو إلا ضرورة من ضرورات الحرب تزول بزوالها (٩).

---

(٦) محمد صبرى السوربونى. نشأة الروح القومية المصرية (١٨٣٦- ١٨٨٢). ترجمة ناجى رمضان عطية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ٢٠٠٩ . صـ ١٢٧

(٧) لطيفة محمد سالم. مصر فى الحرب العالمية الأولى. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ,١٩٨٤ ص ص (١٢٤-١٢٦).

(٨) لطيفة محمد سالم. مصر ١٩٨٤ . ص ١٣٩ .

(٩) شحاته عيسى إبراهيم. عظماء الوطنية فى مصر فى العصر الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٧ . ص٢٦٤ .

ومن الأسباب التى جعلتنا نهتم بترجمة رواية "أيام الإسكندرية"، ذلك المزيج من الحقيقة والخيال الذى تحمله فى طياتها، ولعل أبرز ما ينتمى إلى عالم الحقيقة هو؛ ذلك التأريخ لبعض الأحداث العالمية التى كان لبعضها تأثير مباشر على مصر من ناحية، وعلى اليونان من ناحية أخرى، كذلك الإشارة إلى ما يسمى بنكسة آسيا الصغرى عام ١٩٢٢، التى نتجت عنها هجرة اليونانيين إلى مصر، حيث توافدت أعداد كبيرة من المراكب المحملة باللاجئين القادمين من مدينة زميرنى على الحدود بين تركيا واليونان. كما تعرض المؤلف للإحتلال الإنجليزى لمصر عام ١٨٨٢، وضرب الإسكندرية بمدافع البحرية الإنجليزية، ثم ثورة عرابى، وصولاً إلى مراسم تولى الملك فاروق عرش مصر، مروراً باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، باعتبارها أحد أهم الاكتشافات الأثرية فى القرن العشرين، إلى جانب إبراز الحالة التى كانت عليها الحياة السياسية باليونان والصراع بين مؤيدى الملكية وأنصار الجمهورية، وتأثير هذا الصراع على الجالية اليونانية بمصر، مع الإشارة لوصول رئيس الوزراء اليونانى إليفثيريوس فينيزيلوس إلى مصر بهدف حشد تأييد الجالية اليونانية له فى عام ١٩١٥. باعتبارة زعيمًا للأمة اليونانية، وفقًا لأنصاره.

لم ينس المؤلف أيضًا أن يشير إلى الشاعر اليونانى الشاب كونسطنطينوس كافافيس الذى عاش بالإسكندرية فى تلك الفترة، قبل أن يصبح شاعراً عالميًا للشعر الأوربى الحديث كما هو معروف عنه الآن، وقد كان يلقى نوعًا من السخرية من قبل نساء الطبقة الراقية اليونانية فى مصر فى بداية حياته بوصفه شاعراً مغموراً. ومن الأحداث العالمية المهمة التى يتعرض لها المؤلف: قيام الحرب العالمية الأولى، ثم الحرب العالمية الثانية، ووضع مصر الشائك فى الحربين خاصةً وهى تعانى من الاحتلال الإنجليزى، واستغلال موارد البلاد. ثم رصد أهم ملامح مرحلة الحرب العالمية الثانية، مثل منع الإنجليز عزف الموسيقى الألمانية فى مصر، وزيارة وجهاء اليهود، وعلى رأسهم حاييم وايزمان، لمصر بهدف طلب المزيد من الدعم الإنجليزى لإنشاء دولة إسرائيل، وانعكاس ظلال الحرب العالمية الثانية على الوجود الأجنبى فى مصر بوجه عام، واليونانى بوجه خاص.

كما يشير المؤلف إلى قرار الإنجليز، مع نهاية الحرب العالمية الثانية، بالرحيل عن مصر، وتفكيك القواعد العسكرية المقامة على أرضها، مع الاحتفاظ بما يمتلكونه من امتيازات فى إدارة قناة السويس.الأمر الذى دفع الكثير من الأجانب، وبخاصة الأثرياء منهم، إلى التفكير والشروع فى مغادرة مصر التى لم يعد الوضع بالنسبة لهم أمنًا للبقاء فيها، ثم جاءت ثورة عام ١٩٥٢، ليؤكد هذه المخاوف وبخاصة بعد قرار الزعيم جمال عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس للملاحة البحرية، وهنا تجدر الإشارة إلى أن اليونانيين كان يحدوهم الأمل فى أن لا يكون مصيرهم مثل مصير أى أجنبى آخر عاش على أرض مصر، وبخاصة بعد أن وقف المرشدون اليونانيون بجانب المرشدين المصريين فى بداية تولى مصر مهمة الملاحة وتسيير السفن فى قناة السويس، وهو ما مدحه جمال عبد الناصر نفسه فى خطابه الذى ألقاه مباشرة بعد عبور أول سفينة بعد تنفيذ قرار التأميم(١٠).

---

(١٠) فى بداية خطابه قال جمال عبد الناصر بفخر وعزة : «اليوم هو أول يوم لتنفيذ المؤامرة الفرنسية الإنجليزية فى قناة السويس وصلت إلى القناة ٥٠ سفينة مرة واحدة، واستطاع المرشدون المصريون واليونانيون أن يقوموا بالعمل كله فى القناة». وإذا كان جمال عبد الناصر قد ذكر فى خطابه أن النجاح يعود للمرشدين المصريين واليونانيين فقد أصاب عين الحقيقة. فقد ذاب الشعب اليونانى فى الشعب المصرى." بلد الجريج " الذين كانوا يملؤون مدن القناة والإسكندرية والقاهرة.هؤلاء الناس الطيبون الذين أحبهم الشعب المصرى ودخلوا فى نسيجه هم من رفضوا الانسحاب مع المرشدين الأجانب، وكان عددهم أحد عشر مرشداً، وتعاونوا مع زملائهم من المرشدين المصريين بكل ما استطاعوا، وكان لهم دور فاعل فى إفساد تلك المؤامرة. انظر:

محمد الشافعى – محمد يوسف. قناة السويس.ملحمة شعب – تاريخ أمة. الهيئة العامة لقصور الثقافة. ٢٠٠٦ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ . ومن الملاحظ أن اليونانيين كانوا قد أظهروا حسن النية تجاه ثورة عام ١٩٥٢، بل وكانوا يأملون أن ينجيهم موقفهم من التغير السياسى فى مصر، وتأميم قناة السويس من أن يصبحوا هم أنفسهم من ضحايا ذلك التغير، بيد أن الأمر لم يكن كذلك، فقد عانى اليونانيون مثلهم مثل غيرهم من الأجانب من الهجوم عليهم وحرق محلاتهم وفقدوا الشعور بالأمان فى مصر، وباتت فكرة العودة إلى الوطن الأم، اليونان، هى طوق النجاة بالنسبة لهم، أو حتى السفر إلى أمريكا أو أستراليا أو إلى أى من الدول الأوربية الأخرى.

ثم جاء قرار تأميم للملكيات الخاصة للأجانب والمصريين على السواء بعد قرار تأميم قناة السويس، وهو الحدث الذى تنتهى عنده الرواية بتأميم مصنع خاراميس للسجائر، فى مشهد يربط بين التأميم وبين وفاة كوستيس خاراميس، الابن الأكبر لأندونيس خاراميس، فى سيارته قبل لحظات من تلقيه نبأ التأميم من أحد ممثلى الجيش المصرى أمام بوابة المصنع.

لقد استطاعت رواية "أيام الإسكندرية" أن تسبر أغوار المجتمع المصرى، فرسمت للقارئ صورة واضحة لبعض تفاصيل الحياة لدى البسطاء من الناس، حتى إنها تطرقت إلى وصف الحلوى والأطعمة الشعبية كالعسلية، ووصف طريقة صناعتها، والفول والفلافل والهريسة والأرز باللبن والجلاش والعرقسوس، حتى وصف الطبلية التى تتناول عليها الأسر البسيطة طعامها. كما جعل المؤلف من الأحياء الشعبية وما بداخلها من تفاصيل وكأنها عالم آخر يختلف بل ويتناقض مع العالم الذى تعيش فيه الجالية اليونانية، وبخاصة الطبقة الأرستقراطية منها. مما يوضح تلك الهوّة السحيقة التى كانت تفصل بين تلك الطبقة وبين باقى أفراد المجتمع المصرى البسيط من جهة، وبين تلك الطبقة وبين أبناء الطبقة الكادحة من اليونانيين أنفسهم من جهة أخرى.

كما ألقى المؤلف الضوء على زراعة القطن فى مصر وكيفية جمعه، ومكافحة إصابته بدودة القطن؛ ثم انتقل بنا من الزراعة إلى الصناعة، وصولاً إلى دمياط مركز صناعة الأثاث فى مصر؛ كما تطرق لطرق العلاج بما سمّاه المؤلف "الطب الشعبى"، والذى وصف المؤلف طريقة العلاج به من خلال استخدام الكئوس الهوائية المفرّغة، وهو يقصد بذلك العلاج "بالحجامة"، تماما مثلما هو متبع فى هذا النوع من العلاج إلى يومنا هذا[١١].

(١١) لقراءة تفاصيل العلاج بالحجامة انظر: خالد حسن أبو سيف.الحجامة سنّة وسلامة. الإمارات العربية المتحدة. ٢٠٠٤ .

ومن اللافت للنظر فى رواية "أيام الإسكندرية" تكرار بعض الألفـــاظ، مـــثل "Αραπακια" "أرابيس" والجمع منها "Αραπης" "أرابازيس" وصيغة التصغير "Αραπαδες" "أراباكيا"، وهو اللفظ الذى كان يستخدمه اليونانيون إشارة إلى العامة من المصريين. ويلاحظ أن هذا اللفظ فى اللغة اليونانية يشير إلى أصحاب البشرة السوداء، باعتبارهم من طبقة العبيد، وكان يستخدم لوصف المصريين بشكل عام بصرف النظر عن لون بشرتهم، وكأنه نوع من التحقير أو التقليل من شأن من يطلق عليهم هذا اللفظ [١٢].

وعلى الرغم من تدهور الأحوال المعيشية للسواد الأعظم من المصريين، واستفادة الأقلية الأجنبية من ثروات مصر[١٣]، فإن رواية "أيام الإسكندرية" قد ألقت الضوء على ما يمكن أن نسميه "بنبوءة ثورة المصريين القادمة"، وكيف أن أصحاب العمائم والجلاليب سوف يملكون زمام الأمور فى وقت ما، ووقتها لن يجد الأجانب لأنفسهم مكانًا ليعيشوا بينهم، وهى النبوءة التى بدأت تتحقق بنهاية الحرب العالمية الثانية، وأصبحت واقعًا بقيام الانقلاب العسكرى عام ١٩٥٢ .

كانت مصر فى ذلك الحين ملاذًا لليونانيين، فى وقت كانت دائمًا مطمعًا لمن أراد رغد العيش، وتسابق الأجانب فيها للفوز بما يستطيعون من خيراتها. فى الوقت الذى كانت اليونان تعانى من تردى أوضاعها الاقتصادية والسياسية تحت وطأة الاحتلال العثمانى، وصولاً إلى التدخل الألمانى فى اليونان أثناء الحرب العالمية الثانية.

---

(١٢) مرجعنا فى التحليل اللغوى لمعنى لفظ "Αραπης" فى اللغة اليونانية هو القاموس التالى :

Μπαμπινιωτη, Γ. Λεξικο Της Νεας Ελληνικης Γ Εκδοση. Αθηνα., 2008, P. 267.

(١٣) كانت القاهرة تعانى من تزايد السكان بنحو ضعف معدل البلاد ككل. كما تزايدت حركة السكان داخل المدينة، وكان وصول المستوطنين الأوربيين، وأوربة الأحياء التى يشترون فيها ممتلكات، وارتفاع الإيجارات، سببًا فى دفع الفقراء أكثر فأكثر إلى الشوارع المزدحمة وإلى ما يسمى بـ"المدينة القديمة". انظر: تيموثى ميتشيل. استعمار مصر. ترجمة بشير السباعى – أحمد حسان. دار سينا للنشر. ١٩٩٠ . ص٢٥٢ .

ولعل وجود نموذج مثل ماخوس خاراميس، الابن الأصغر لأندونيس خاراميس، الذى اعتقد وآمن، بعد دراسته بألمانيا والحياة فيها، أنه قد أصبح جزءًا من نظامها، ولم يجد لنفسه قيمة سوى فى خدمة النظام النازى حتى لو كان ذلك ضد مصلحة وطنه الأصلى، اليونان، الأمر الذى أدى إلى مقتله بعد هروبه من اليونان إلى مصر بطريقه تعكس حجم خيانته لوطنه. والمدقق فى الأمر يجد أن ماخوس خاراميس، مثله مثل أخيه كوستيس بل وكل اليونانيين فى مصر، لم يعرف لنفسه وطنًا غير مصر.

وفى النهاية، فإننا نرى أن رواية "أيام الإسكندرية" كانت فى مجملها تعبيراً عن رؤية خاصة بالإسكندرية، التى وُلدَت مدينة عالمية، والتى وإن كانت تشكل جزءًا رئيسيًا من مصر فإنها كانت غريبة عنها. حيث كانت الإسكندرية تطل على عالم مختلف يصوِّر ما كانت مصر تصبو إلى أن تكون عليه، لا ما هى عليه بالفعل(١٤).

---

(١٤) جمال حمدان. شخصية مصر. دراسة فى عبقرية المكان. الجزء الرابع. دار الهلال. ١٩٩٥ . ص ٤٥٨ .

لقد كانت الإسكندرية هى المدينة الأكثر فرنجة بين المدن المصرية منذ عصر محمد على، وخلال عشرينيات القرن الماضى. ومعلوم أن التمثيل الأجنبى فى مصر قد بدأ منذ ذلك العصر وحتى عصر الخديو إسماعيل، وكانت نواته فى الأساس فى الإسكندرية، حتى إن وزارة الخارجية المصرية أول ما نشأت تحت اسم "ديوان التجارة والأمور الأفرنجية" قد اتخذت من مدينة الإسكندرية مقرًا لها. انظر:

يونان لبيب رزق. الأهرام ديوان الحياة المعاصرة. الجزء الأول (١٨٧٦ ـ ١٨٨٢) مركز تاريخ الأهرام. ١٩٩٥. صـ ٢٣ .

الفصل الأول

لطفاء كالزائرين

(لاو تسى)

«الحرب والتجارة هما المحور الرئيسى الذى ترتكز عليه حضارتنا، ولذلك فإننى أتساءل: من منا يستطيع أن يعيش بدونهما»؟ كانت تلك ملاحظة إلياس خورى التى حاول من خلال ذكرها أن يقول شيئًا فى أثناء انتظار المستشار الخاص للمندوب السامى. وقد تمكن بتلك الملاحظة من إيقاظ أندونيس خاراميس من غفوته، حيث كان يفكر بدوره كيف تمكن خورى من حضور هذه المقابلة، فلم تكن الحرب أو التجارة من ضمن أنشطة هذا الرجل الغامض. وفى السنوات الأخيرة، لم يستطع أندونيس أن يعقد اتفاقية واحدة مهمة دون وساطة من إلياس خورى، هذا الرجل الذى كان يُعرف باسم "اللبنانى". كان خورى نحيف الجسد ذا بشرة فاتحة، يروق له ارتداء القمصان الغالية والقبعات الفاخرة، حيث كان يتردد بصفة مستمرة على المحلات المنتشرة فى شارع شريف باشا لمتابعة سير الحركة التجارية فى المدينة.

اعتاد "اللبنانى" أن يعقد لقاءاته مع الضابط البريطانى فى إحدى هذه المحلات وبالتحديد فى حانة "دانييل"(دوِّنها بالإيطالية)، هناك – كما يقول "اللبنانى" – تستطيع أن تحتسى أجود أنواع البيرة الألمانية الأصلية. أما أندونيس، الذى كان نادر الوجود فى مثل هذه الأماكن، فقد ترك لعينيه العنان لتتجول فى المكان الذى يكتظ بالأثاث الخشبى الضخم والمرايا والأباليك المثبتة على الحوائط، ولاحظ كيف كانت الستائر

المنتشرة بطول الواجهة عاجزة عن حجب أشعة الشمس عن الانتشار داخل المكان، مما دفع أندونيس للاعتقاد أن لون الأثاث الخشبى الداكن كان يستحوذ على أشعة الشمس جميعها، ويحول دون استقراره فى أركان المكان أو على السقف المرتفع، حتى إن أندونيس بذل جهداً كبيراً فى تبين ملامح وجه ذلك الرجل الواقف خلف البار الخشبى فى نهاية الحانة أثناء تقديمه المشروبات للزبائن، ولم يستطع أن يلحظ منه سوى بطنه المنتفخ وهو يهتز أثناء قيامه بتلميع البار بالفوطة البيضاء، بينما كان يغنى مستخدماً خليطا من اللغات الممزوجة بلهجته الإيطالية. علقّ خورى على هذا المشهد بقوله:

- «دانييل، هو مدير المحل، "بطل هذا العرض" (قال ذلك بالإيطالية)، شخصية كوميدية، يقدم عرضه لزبائن المحل بشكل يومى من خلف هذا البار».

كانت الأضواء تغمر البار الذى تعلوه قبة زجاجية مكونة من أكواب البيرة المعلقة. وقد سأل أندونيس خورى بشكل عفوى، قائلاً:

- «ومن كل هؤلاء الزبائن؟».

- «إنهم "سماسرة البورصة "(قال ذلك بالإنجليزية)، فقد أوشكت البورصة على الإغلاق، وكوب من البيرة المثلجة من لدن دانييل، بعد نهاية يوم عمل شاق، كالبلسم. هل سبق لك أن رأيتهم من قبل وهم يصيحون مهرولين ذهاباً وإياباً، وهم يتصببون عرقاً فى الممرات الخشبية للبورصة أثناء متابعتهم أسعار القطن التى تظهر على اللوحات السوداء، فالبورصة تحتاج للجرأة، يا صديقى "وهذا كل ما فى الأمر"(قال ذلك بالفرنسية)؛ ثم يأتى إلى الحانة من بعدهم المحامون وموظفو البنوك، "وأناس كثيرون، أؤكد لك ذلك "(قال ذلك بالفرنسية)».

جال بخاطر أندونيس كيف أن إلياس نفسه كان يستعد ليقدم عرضه الخاص أمام كل هؤلاء الناس، وأنه كان يفضل إبرام هذا الاتفاق فى مكتب هادئ بلا ضجيج، بعيداً عن أعين الناس، وكيف أن إصرار إلياس على أن يلتقوا فى مثل هذا المكان المزدحم قد بدأ يزعجه، تماماً مثلما أزعجه تأخر المبجل البريطانى عن الحضور. لقد زاد "اللبنانى"،

الذى شعر بهذا الضيق، من عصبية أندونيس كثيرًا بمحاولاته التماس الأعذار له، بقوله: «"على أية حال"(قالها بالفرنسية) فنحن ننتظر المستشار الكبير للمندوب السامى ذاته وليس شخصًا عاديًا.

كادت هذه الجملة أن تُخرج أندونيس عن شعوره، وردد مستنكرًا: «المستشار الكبير! هذاالرجل الذى لم يتعلم احترام المواعيد»، ثم استطرد قائلاً: «أرجو أن تتوقف عن إخراج الساعة من جيبك وإدخالها مرة أخرى، فلقد سئمت من ذلك». نظر إلياس إلى أندونيس مندهشًا وأسرع بدس الساعة فى جيبه، فى حين عقد أندونيس يديه وظل فى مكانه جالسًا.

كان أندونيس يشعر بالغضب لأنه سمح لإلياس باستغلاله، فمنذ اللحظة الأولى لدخولهما الحانة، أشار إلياس إلى دانييل إشارة ذات مغزى فاستجاب له الأخير كما لو كان ممثلاً حقيقيًا يرتدى قميصه الأبيض وحمالات البنطلون والبابيون. كان أندونيس على يقين من أن دانييل سيلقى على مسامع رواد الحانة فيما بعد قصة زيارة أندونيس خاراميس صاحب مصنع السجائر ومستشارالمندوب السامى.

كان الهدف من هذا اللقاء المنتظر، أن يصبح أندونيس خاراميس مورد السجائر الرئيسى للجيش البريطانى، مما سيجعله، بكل تأكيد، أغنى رجل يونانى فى مصر، أما البقية الباقية من تفاصيل هذا الاتفاق فهى مجرد بنود سيقوم المحامون بالترتيب لها. أصبحت السجائر من ماركة خاراميس التى تحمل اسم "سجائر خاراميس المصرية: "-Charamis- Cigarette Egyptiennes"، والتى تم طبع أعمدة كليوباترا – رمز الإسكندرية – على غلافها، ذات شهرة عالمية واسعة، فانتشرت فى إنجلترا وألمانيا وهولندا وحتى فى السويد والنرويج. ولا شك فى أن مستشار المندوب السامى قد أعد نفسه جيدًا بجمع العديد من المعلومات عن أندونيس، ومن ذلك، أن أندونيس دونًا عن غيره كان قبل ذلك هو المورد الرئيسى للسجائر لسلطان مصر، وأيضا لقنسطنطينوس أمير اليونان. ولذلك فكر أندونيس فى أن يحمل معه الصورة التى تحمل توقيع الممثلة المشهورة سارة برنار، أثناء قيامها منذ خمس سنوات مضت بزيارة مصنعه الجديد فى محرم بك،

وأبدت إعجابها بالمصنع ويمنشآته؛ وكانت هذه الزيارة حدثًا معروفًا بين أوساط المهتمين بالتدخين. وسواء أكان حدثًا معروفًا أم لا، فقد سأل " اللبناني " أندونيس بمجرد أن التقاه قائلاً:

«وماذا عن الصورة؟ هل أحضرتها معك؟» (قال ذلك بالفرنسية)، ثم طلب منه رؤية صورة المطربة المشهورة التى كانت تحمل توقيعها على خلفية الصورة.

كان إلياس خورى مواطنًا فرنسيًا ينحدر من أسرة لبنانية، مسيحيًا مارونيًا، من مواليد بيروت، اشتهر باهتمامه الشديد بمظهره، "إنه دائم الاهتمام بملبسه" (دوّن ذلك بالفرنسية)- يهتم بتصفيف شعره، الأمر الذى كان مسار حديث المدينة؛ وكان أندونيس يحبه لنفس الأسباب التى كان يكرهه من أجلها. فكيف يمنع نفسه من الإعجاب بذلك الشاب الذى يتميز بضحكته الرنانة المفعمة بالحيوية، وكيف لا يكرهه للسبب نفسه بعد أن تخطى الآن الخمسين من عمره. أدرك أندونيس أن بإمكانه الوثوق بإلياس بعض الشىء، ولكنه لا يستطيع أن يمنحه ثقته المطلقة؛ وفى كل مرة يشعر فيها برغبته فى توجيه السباب لإلياس، مثلما يشعر الآن، يتصادف أن يكون بحاجة إليه؛ ولكن حتى عندما لا يكون فى احتياج إليه لم يكن باستطاعة أندونيس أن يفعل شيئًا، وقد تملكه شعور دائم بأن هذا " اللبنانى" يقوم باستغلاله، وفى واقع الأمر كان أندونيس هو من يستغل إلياس فى قضاء مصالحه؛ حتى ذلك الإصرار من جانب إلياس على الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة كان يتسبب فى غضب أندونيس، غير أن دقة ملاحظة أندونيس جعلته يشعر بنشوة الانتصار على إلياس، فقد اكتشف هفوتين تدلان على إهمال إلياس لمظهره. فعلى الرغم من حرص إلياس الشديد على تصفيف شعره ودهانه بالزيت، وحرصه كذلك على ترك السلسلة الفضية تتدلى من جيب ردائه. فإنك إن أمعنت النظر فى شاربه فسوف تلحظ بعض الشعيرات الطويلة المتناثرة فوق شفته، مما كان يدفعه إلى رفعها بحركة من شفته السفلى. ويرى أندونيس أن الأكثر سوءاً من ذلك - وهى الهفوة الثانية- هو نسيان "شخص كامل" (دون ذلك بالفرنسية) مثل "اللبنانى" وضع منديلاً فى جيب الجاكيت، لكى يستخدمه فى مسح قطرات العرق التى كانت

تتساقط مــن جبهتــه، وبدلاً من ذلك كان يستخدم منديل المائدة الأبيض، مردداً قوله: «يا له من جو حار» (قال ذلك بالفرنسية)، وكان هذا اليوم من الأيام الحارة بالفعل التى لم تكن معتادة فى شهر مايو؛ فى الوقت الذى كانت الأمطار تتساقط فيه بلا انقطا ع فى الأسبوع الماضى. وهذه هى الحال دائما فى الإسكندرية.

استيقظ أندونيس مبكرًا اليوم، على العكس من إلياس، حتى يتمكن من ملاقاة الحلاق اليونانى كيكينوس، الذى ينحدر نسله من جزيرة كيفالونيا، وقد توجه مباشرة إلى منزل أندونيس فى الحى اليونانى قبل ذهابه إلى صالون الحلاقة الخاص به، والكائن فى حى سوتير خلف حدائق الشلالات، كما قام أندونيس كذلك بتلميع حذائه عند ماسح الأحذية الأرمينى فى ميدان محمد على.

وبينما جلس أندونيس فى مواجهة خورى، نحّى خورى بوجهه جانبًا وركز بصره فى إحدى مرايا الحانة، فتملكته حالة من الرضا وهو يرى كيف أتقن الحلاق عمله بغض النظر عما أصاب شاربه. فى اللحظة نفسها سُمع صوت الجرس المعلق بالباب، ولكن القادم لم يكن هو ذلك الشخص الذى ينتظرونه؛ وفجأة امتلأ المكان برائحة عطر نفاذ دفع أندونيس للاستدارة والنظر حوله، فلاحت من خلف الحاجز الخشبى الموجود عند المدخل امرأة جميلة ترتدى قبعة، وقد غطت كتفيها بوشاح خفيف، ويصل رداؤها إلى ما فوق ركبتيها ويكشف عن ساقين جميلتين. توقفت المرأة لحظات لتعطى قبعتها لصبى الحانة - الذى كان يعانى من حوَل فى عينيه. فى حين قام فوزى، الجرسون، بإرشادها إلى منضدة مجاورة بحركة تمثيلية، وهى تسير بخطوات رشيقة من خلفه، جلست ثم خلعت قفازها ووضعته فى حقيبة يدها، ثم أخرجت مروحتها وقذفت شعرها المموج بأطراف أصابعها إلى الوراء؛ فى تلك اللحظة، لمح أندونيس تلك المرأة وقد ابتسمت له، فسارع برفع الكأس بيده محييًا إياها، لقد وقع أسيرًا لجمال هذه المرأة الأوربية، ولم يعد يفكر فى شىء آخر سواها "يا لها من امرأة جميلة" (قال ذلك بالفرنسية).

أشـار له إليـاس خورى بأن تلك المرأة التى شـدت انتبـاهه هـى: «إيفيت شـانتون، فرنسيـة- سـويسـرية، تنحـدر من أم فـرنسـيـة وأب سـويسـرى أو من أم سـويسـرية وأب فرنسى»، ثم أكمل إلياس حديثه هامسًا:«يقولون إن فيليب جاكو هو من أتى بها إلى مـصـر. تظاهرت لبـعض الوقت أنها زوجته، فى حين يعلم الجميع أن جاكو مـتزوج وله أولاد. إنه رجل عجوز نذل، " يا صديقى (قالها بالفرنسية)».

كان أندونيس خاراميس يعرف جاكو جيدًا، فـقد كان يشـبه خورى تمـامًا فى صـفقاته المشبوهة فى الخمس سنوات الماضية، وهو ليس أفـضل أو أسـوأ من خـورى. أما بالنسبة لإيفيت فتولدت لديه النية للتعرف إليها لاحقًا. أما الآن فيكفيه أن يتخيلها فى أحضانه على ضفاف بحيرة مريوط أو فى جناح فى فندق شبرد بـالقاهرة بعيدًا عن أعين الفضوليين فى الإسكندرية.

بدخـول الضـابط البريطانى إلى الحـانة، عـاد أندونيس إلى أرض الواقع، لم يكن الضـابط بمفـرده ولكن كـان يرافقـه شـخص آخـر أكـثـر منه طـولاً، ذو شـعـر أحـمـر، تنتشر على وجهه بعض البثور، قدم نفسه على أنه المستشار الخاص للمندوب السامى لشئون الشرق الأوسط، وقد أثارت مرافقته للضابط البريطانى ضجر إلياس خورى؛ أمـا بالنسـبـة لأندونيس فـقـد رأى أنه من الطـبـيـعـى أن يكون هناك من يرافق الضـابط البريطانى، فإن لم يكن هناك سـبب حـقيقى لوجوده، فلا أقل من أن يكون ذلك بغرض الإبهار. لم يكن أندونيس يعرف ماذا يستخدم من ألقاب أثناء توجيه الخطاب للضابط البريطانى، ولهذا فقد قرر بعد أن قدم كل منهما نفسه للآخر أن يستخدم لقب مستر كوشنر. ظهر كـوشنر منذ الوهلة الأولى بفكرة المتعـجرف الجاهل بمشكلات المنطقة، وبدت شـخصـيته مزيجًا من رقة الإنجليزى الجنتلمان والإنجليزى الإمبريالى. كانت للضـابط البـريطانى أذنـان مضـحكتـان تبـرزان من رأسـه المربع، وكـان يحـاول جـاهدًا تهذيب الفارق فى منتصف شعره بأطراف أصابعه. لم يكد مستر كوشنر يجلس حتى عبر عن استيائه من نوّة الربيع بالإسكندرية معزيًا نفسه ومذكرًا إياها بالشتاء الرائع الذى قضـاه فى القاهرة. وكان كوشنر قد وصل إلى الإسكندرية منذ يومين، وقد أثار

إعجابه ذلك المنظر الرائع للمدينة الذى شاهده من أعلى المبنى. عدا ذلك فلا تمثل الإسكندرية بالنسبة له أكثر من مجرد مدينة صغيرة تبعث على الملل بسبب عدم وجود أماكن للترفيه فيها، وقلة أهميتها الأثرية مقارنة بالقاهرة التاريخية. فمن الواضح تجاهل كوشنر لتاريخ الإسكندرية، وبخاصة تاريخها الحديث؛ ومن خلال حديث كوشنر عن اغتيال رئيس الوزراء بطرس غالى باشا، أدرك أندونيس أنه ليس على دراية كافية بوقت وقوع الجريمة أو بالظروف المحيطة بها. أما الرجل صاحب الشعر الأحمر، فكان حديثه مقتضبًا طوال فترة تناولهم للغداء، ولسبب غير معلوم فضل كوشنر فى البداية أن يكون حديثهم بالفرنسية، وهو ما يعنى عدم فهم مستشار المندوب السامى لشئون الشرق لما يقولون. كل ذلك لم يكن له أدنى أهمية بالنسبة لأندونيس، ولكن كان المهم هو إبرام الاتفاق الذى اجتمعوا من أجله، ذلك الاتفاق الذى أدرك أندونيس، الذى يعمل فى صناعة الدخان، أنه قد حُسم بالفعل، ولم يكن اللقاء الذى جمع بينهم فى حانة دانييل سوى غداء عمل شكلى، كان الغرض منه تأمين النسبة التى سيحصل عليها إلياس خورى. طلب مستر كوشنر تدخين بعض سجائر ماركة خاراميس أثناء جلوسهم بدلاً من استخدام غليونه. عندما أيقن أندونيس أن الاتفاق قد تم بالفعل، لم يكلف نفسه بإخراج صورة سارة برنار من الجيب الداخلى لبذلته. وشعر بأن من حقه الآن أن يرتاح، فجلس مسترخيًا على مقعده وأخذ يمتع نفسه بالنظر إلى أطباق الطعام التى كان يضعها فوزى على المائدة، ويمتع عينيه أيضًا بديكور الحانة الفخم، بانعكاس لون الخشب الداكن على قميص دانييل، بلون شارب كوشنر الفاتح والمشذب بطريقة جيدة وفقًا لما كان سيقوله الحلاق كيكينوس، بشراب البيرة صفراء اللون، والأهم من ذلك فقد أخذ يمتع نظره بجمال الآنسة شانتون التى لمحها تنظر لمرآتها الصغيرة وهى تتزين بأدوات التجميل.

إن كان خورى صادقًا فيما ذكره من قبل، فسوف تعج الحانة بعد قليل بطوفان من البشر، وعندئذ حدثته نفسه قائلةً " الآن سيأتى سماسرة البورصة وكذلك المحامون وموظفو البنوك "، وفجأة بدأت فكرة اختيار هذه الحانة بوصفه مكانًا مبهجًا لهذا اللقاء

تراوده. حتى إنه فكر فى أن يعقـد كل اتفاقياته فى المستقبل وكذلك علاقاته الخاصة فى أماكن مماثلة، على أن يرتدى الناس ملابسهم بطريقة أكثر بساطة، وأن يوجد فى هذا المكان شخص مثل خورى- يتحكم فى كل شىء، وشخصية فاتنة تثير الخيال مثل إيفيت. ومع توارد هذه الأفكار فى رأسه رفع أندونيس كأسه مرة أخرى محييًا إيفيت التى استجابت له بكل ترحاب، وكان أندونيس قد همس فى أذن فوزى بكلمات محددة، وقام فوزى، مرتديًا جلبابه الأخضر المزركش بإبلاغ إيفيت أن كل طلباتها على حساب ذلك السيد الأنيق ذى الشارب المهذب والشعر الرمادى. كانت الأمور إذن تسير بشكل طيب، وسوف تكلل مغازلة أندونيس لإيفيت بالنجاح، متوجةً للصفقة الضخمة التى أتمها اليوم، والتى تمت تقريبا بيسر ودون عناء، وكان إتمامها انعكاسًا لرغبة المدينة فى النهوض من الناحية اقتصادية.

كانت "الحناطير"(ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) تنتشر فى الطريق بينما كانت السيارات قليلة العدد، كما كانت تختلط بأمواج البشر من كل الأجناس وكل الأعمار. وفى الوقت الذى يؤدى بك الباب الخلفى للحانة إلى زقاق ضيق ترى فيه سحر مصر وأهلها، كانت البيرة الصفراء تلمع فى أكوابها وترتفع إلى شفاههم، يضرب أحدها الآخر. وفى الطريق يؤدى بك الباب الرئيسى للحانة مباشرة إلى ما يشبه أوربا، فالملابس الأوربية تنتشر فى كل مكان واللغتان الإنجليزية والفرنسية - هما الأكثر تداولاً. شاهد أندونيس بطرف عينيه أحد موظفيه اليونانيين فى شارع شريف باشا وهو يسرع إلى عمله متأبطًا بعض الأوراق، مما جعل أندونيس يشعر بالرضا.

فى النهاية، كان أندونيس يستمتع بالحياة فى هذه المدينة، حيث الأجناس واللغات وحتى الطوائف المختلفة تتآلف جميعها فى تناغم يومى، ولم يستطع أن يفكر فى مكان آخر يجتمع فيه الباحثون عن الثروات، مثله ومثل إلياس خورى ومثل إيفيت شانتون. فى ذلك الحين كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف.

* * * * *

"لم تكن الحرب أو التجارة فقط السبب الذى دفعنى للحضور إلى هذا المكان"، كان هذا ما جال بفكر أندونيس بعد أن وجد السبيل إلى العالم الخفى لجسد إيفيت، وكانت المرات الأولى التى لامس فيها جسدها تجعله يفقد إحساسه بالمكان وبالزمان، ولم يكن واثقًا إذا ما كان حقًا موجودًا بشقة إلياس خورى الفاخرة بشارع رشدى، على السرير العريض ذى الأعمدة المطعمة بالذهب، فى أحضان تلك المرأة التى أسكرت مخيلته. ثم أصواتها المتحشرجة وأناتها وهى تحثه قائلة بالفرنسية "أدخل.. أدخل"(*)، كل ذلك جعله يشعر بأنه قد عثر على اللذة الحقيقية: فوق ثدييها المستديرين كثمرتى ليمون، فى شعرها المموج الذى كانت تختفى أطرافه خلف قضبان الفراش، وقبل أن يدرك ما يحدث، كانت عاطفته الجياشة تندفع نحوها فى قوة وعنف، وكان يعبر عن ذلك بالصراخ بصوت عالٍ، مثل الصراخ تقريبًا، أما هى فكانت تغلق عينيها فى سعادة ورضا.

لم يكن هناك شك فى أن تلك النهاية الطبيعية لإعجابه بإيفيت كانت تحمل بصمات إلياس خورى. فقد فعل "اللبنانى" المستحيل ليكبل خصمه، ويلقى بشباكه حول ضحيته، كما اعتاد أن يطلق على فيليب جاكو. إن قيامه بتوفير الشقة للعاشقين هو أقل ما يمكن أن يفعله، بعد التعويض المادى الضخم الذى حصل عليه من خاراميس. لقد نجح فى إغوائها بمساعدة إلياس نفسه الذى قدم له شقته الفخمة فى رشدى باعتبارها مكانًا ليسرق فيه العاشقان لحظات من السعادة بعيدًا عن أعين الناس.

اندهش أندونيس من منزل "اللبنانى" الأنيق. وكان أندونيس نفسه يعيش فى قصر بمعنى الكلمة، فى حين أنه قد ارتاد أكثر المنازل ثراءً بالإسكندرية، ولذلك فقد كان من الصعب أن يصاب بالانبهار من مجرد شقة عادية بشارع رشدى، إلا أن ديكور المنزل كان يحتوى على بعض القطع الفنية والتى ربما كان سيوليها خبير فنى اهتمامًا عظيمًا لما لها من قيمة فنية. قطع من الفن العربى جنبًا إلى جنب مع لوحات فنية حديثة من الفن التجريدى، وأثاث فرنسى موضوع فى تجانس مع الفسيفساء الشرقية.

(*) تشير هذه العلامة إلى إعادة صياغة الجملة أو حذفها نظرًا لما تحتويه من ألفاظ أو تعبيرات لا تتلاءم مع مجتمعنا. (المراجع).

وبفضل ما يتمتع به من ذوق رفيع، استطاع أن يجمع فى تناغم بين الفن الشرقى والغربى.

من ناحية أخرى، فقد كانت غرفة النوم بالمنزل تبعث على الإحباط: حيث كانت تحتوى على أثاث ثقيل وضخم، وكانت مغطاة بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ بالمرايا، كما كان السقف أيضًا مغطى بالمرايا. ربما يكون إلياس قد أراد أن يستمتع بمشاهدة نفسه وهو نائم معها من كل الزوايا. أما أندونيس فعلى العكس من ذلك، لم يشعر بالراحة منذ البداية تجاه كل تلك المرايا. فقد كان يشعر وكأن هناك من يرقبه. ولذلك ازداد اضطرابه أثناء محاولة خلع رداء إيڤيت، وظل يعانى لبضع ثوانٍ مع كل هذه المرايا فى فك تلك الأزرار الخفية الموجودة فى رداء إيڤيت من الخلف، وبدا كالعاشق الأخرق الذى يتعثر أمام أكثر الأشياء بساطة. فصب جام غضبه على الملابس النسائية وعلى تقيدها بالقيود الأخلاقية، وعندما سقطت فى النهاية آخر الحصون، كان جمال عشيقته الغض ينعكس ويلقى بأشعته على المرايا وملأ الغرفة بصور متعددة لامرأة ملفوفة القوام(*)، وكاد أن يفزع منها فقد ذكرته (أحضانها) ببئر مسعود أو "بئر الشيطان"، كما كان يُطلق عليه فى اليونانية، تلك البئر التى يقع على شاطئ سيدى بشر، وتمتلئ بمياه البحر. وكان لزامًا على كل من يغوص به أن يقفزوا قفزة كبيرة، ثم يعبروا من خلال شق الصخرة لكى يخرجوا إلى البحر المفتوح. وكانت الأمواج العنيفة فى كثير من المرات ما تحتجز هؤلاء الغواصين المغامرين والعديد منهم دفن فى البحر بسيدى بشر. لقد أحس أندونيس لوهلة أنه قام بقفزة جريئة مماثلة لتلك التى يقوم بها الغواصون. ولكى يتجنب هذا الأمر بدأ يفكر فى أمور أخرى، فأخذ يتذكر قصة ثاناسيس – ابن عم زوجته – مثلما سمعها من زوجته، فكان قادرًا على استرجاع كل تفاصيل هروبه من جزيرة ميتيلينى باليونان، وأن يتبع مسيرته حتى وصوله إلى مصر. وكان يطلق عليها "ملحمة ثاناسيس".

كان ثاناسيس ينحدر، كما يقولون، من أسرة عريقة، وكون ثروة الأسرة عن طريق قيامه بنقل منتجات من جزيرة ميتيلينى على مراكبه الخاصة، كالكمثرى وزيت الزيتون، إلى السواحل التركية. ولكن سوء حظه قاده للوقوع فى حب فتاة تركية من مدينة إيفالى. لقد أحبها ثاناسيس لدرجة أنه رغب فى الزواج منها بأية طريقة. وقد تسبب إصراره على الزواج منها فى إحداث شرخ بين العائلتين، وأصبحت حياته على جزيرة

ميتيلينى مهددة بالخطر. أما إخوته، فلكى ينقذوه من هذا الخطر، فقد ساعدوه على الهرب فى جنح الليل تحت حمولة شحنة من الكمثرى المتجهة إلى الإسكندرية. ها هو إذن، شخص آخر وجد نفسه فى مصر بسبب الحب، هكذا فكر أندونيس ثم أخذ يصيح قائلاً (بالفرنسية) بصوت مرتفع «إنه الحب، إنه الحب».

* * * * *

فى اليوم الرابع من شهر أغسطس عام ١٩١٤، وهو اليوم الذى أعلنت فيه إنجلترا الحرب على ألمانيا، غادر أندونيس الإسكندرية وتوجه إلى القاهرة لتوقيع اتفاقية توريد السجائر للجيش الإنجليزى، مستقلاً إحدى عربات الدرجة الأولى للقطار السريع، وقد اتخذ قراراً جريئًا باصطحاب ستراتيس ميخيليس، محاميه الخاص، معه فى القطار، وكان ميخيليس على صلة قرابة بزوجة أندونيس، وقد تولى في العامين الماضيين جميع القضايا التجارية الخاصة به. كان لوجود ستراتيس مع أندونيس أهمية كبرى، فقد كان يهدئ من مخاوفه بشأن احتمال رحيل المندوب السامى واستبداله بآخر.

اشتهر ميخيليس بين أقرانه بأنه "ذئب المحاكم المختلطة"، وكان يتمتع بسمعة طيبة باعتباره محامياً متميزاً وأيضا باعتباره واحداً من أكثر المتحمسين لنظام الحكم الملكى، وكثيراً ما تحين الفرصة (أثناء وجودهما فى القطار) لتمجيد الملك والملكة، بل وكل أصحاب الدماء الزرقاء، ومنهم أندونيس مورد السجائر المعتمد لدى العائلة المالكة. لم تكن لدى أندونيس الرغبة فى الاستماع لهجوم ميخيليس على فينيزيلوس والتحالف الإنجليزى الفرنسى، وعندما كان ميخيليس يحتد فى هجومه كان يبادر بإيقافه بلهجة صارمة قائلاً: «يا ميخيليس، " يكفى ذلك "(قالها بالفرنسية)»، وعندئذ يكتسى وجه ستراتيس بحمرة الخجل، ويتململ فى مقعده، فإنه كان يعاود الكرة مرة أخرى للخوض فى نفس الموضوع وكأنه قد تذكر شيئًا مهمًا، قائلاً: «إنهم يتملقون الملك ويقودون البلد بأسرها إلى كارثة، حتى إن فينيزيلوس الأحمق ينوى تدمير شعبنا بأكمله فى سبيل

تحقيق أغراضه الشخصية»، وعندما لم يعلق أندونيس معترضًا على هذه العبارة، قرر ميخيليس أن يستكمل حديثه بقوله: «فيما بيننا، أنا لا أصدق كلمة واحدة مما كتبته الصحف، والآن ستصبح اليد العليا للإنجليز، ولعلمك لن تستطيع أية جريدة الوصول إلينا فى أثينا، كما لن يرى النور أى خبر معارض للتحالف، " نعم هذا أمر أكيد " (قال ذلك بالفرنسية)».

اعتبر ميخيليس أن نظرة خاراميس الجامدة دليل على التسليم بصدق معلوماته، فقرر استكمال حديثه قائلاً: «أمِن الصواب أن يقوم أعضاء الجالية الآن بمهاجمة القنصل اليونانى واتهامه بموالاة الألمان؟. إنهم يطلبون من السلطات الإنجليزية نفى كل موظفى القنصلية إلى مالطة». وعندئذ تمتم أندونيس قائلاً «ليتهم يطردونهم جميعًا لنستريح منهم»، غير أنه لم يفصح بذلك، حيث يتولى ميخيليس كل قضاياه منذ عامين ويؤدى عمله على أكمل وجه، على الرغم من أن أتعابه ليست باهظة؛ فى الوقت الذى يحصل فيه محامو القضايا التجارية فى الآونة الأخيرة على أتعاب تفوق الخيال. كان ميخيليس إذن يتميز بالنزاهة العالية، وفى الوقت ذاته يحصل على أتعاب بسيطة، كما كان يتمتع بالمهارة فى عمله وبالالتزام تجاه أسرته، يتعامل بحكمة مع ما يواجهه من مشكلات دون مبالغة فى طلباته. والآن لسنا بحاجة لخيال واسع لكى ندرك أن ميخيليس كان يستغل وضعه باعتباره محاميًا خاصًا لأندونيس، وكان ذلك بمثابة التوافق الذى يربط بين شخصيتهما، فلم تكن المنفعة المادية محط اهتمامهما بقدر اهتمامهما بالجوانب الأخلاقية. تلك المنفعة التى كانت تمثل لميخيليس الشهرة على المستوى الاجتماعى والعملى، وهو ما يدركه أندونيس جيدًا، حيث كانت لميخيليس بعض السلوكيات التى كانت تجعله يتشابه مع أندونيس فى بخله، تلك السلوكيات التى كان أندونيس يتجاهلها إما عن قصد أو عن غير قصد. كل ذلك كان يدفع أندونيس للصبر على ثرثرة ميخيليس التى كانت تشعره بالملل، بل وتصبح أكثر إزعاجًا عندما يتعلق الأمر بالسياسة؛ ولكن دائمًا للصبر حدود.

كان أندونيس يدير ظهره لميخيليس لبعض الوقت حتى يريح عينيه بالنظر إلى

الحقول الشاسعة التى تداخلت مع اهتزاز القطار فى مداعبة مشاعره، مما جعله لا يدرك إذا كان ما يراه حلماً أم أنه يرى بالفعل منظراً " للفلاحين" (ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) وهم فى حقولهم ينحنون فوق أغصان القطن بأزهاره المتفتحة، ذات اللون الأصفر، وهناك أيضاً أعداد غفيرة من الفلاحين فى حقول القمح وآخرون فى حقول القصب والفاكهة، حتى إن أشجار النخيل بثمارها التى مازالت خضراء كان لها تأثير كبير على هذا المشهد الحالم، أما قنوات المياه فكانت تسرع فى كل اتجاه بينما يحرث الفلاحون الأرض بمحاريث خشبية تجرها الأبقار والجمال والخيول. وتبادر إلى ذهن أندونيس هذا السؤال: "لماذا لا تتم زراعة التبغ على أرض مصر الخصبة"؟ غير أنه تدارك الأمر وشعر بالامتنان لأولئك الذين منعوا زراعة التبغ فى مصر عام ١٨٨٣، فبفضل هذا القرار نمت تجارة الدخان وأصبحت صناعته حكراً على اليونانيين فى مصر.

شاهد أندونيس حماراً وهو يدور حول الساقية معصوب العينين بإحكام، كما شاهد الفلاحات يحملن السلال فوق رؤوسهن، ويسرن فى صفوف متراصة، وعندئذ بادر ميخيليس بالسؤال عن السبب الذى من أجله يتم عصب عيون هذا الحيوان فأجابه قائلاً:

«حتى لا يصاب بالدوار»، كانت إجابة غير متوقعة لأندونيس الذى لم يكن على دراية بأن الحمير تصاب بالدوار. وكلما اقترب القطار من محطة الوصول كلما ازداد إحساسه بهواء الصحراء الحارة، على العكس من الإسكندرية التى تشعر دائماً فيها بنسمات البحر.

وأخيراً، وصل القطار إلى محطة القاهرة، وعندئذ أحس أندونيس بحرقة فى عينيه وبجفاف أنفه وباختناقة من حرارة الجو، فتمتم قائلاً: «لابد إنه طابع العاصمة». غير أنه شعر بشىء من الراحة نتيجه ابتعاده عن ميخيليس ولو لبعض الوقت. كانت المدينة مترامية الأطراف تذكره بالمستودع الكبير .

مع وصول القطار، كانت المحطة تكتظ بالعديد من البشر والجنود الذين كانوا فى استقبال القادمين، فاندفعوا جميعا نحو أبواب القطار، محاصرين ركابه المنهكين، واختلط الحابل بالنابل، الرجال المتأنقون بحللهم وأحذيتهم اللامعة بالفلاحين الذين يرتدون "الجلاليب"(ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية)، بأصوات الدجاج الذى يصيح مذعوراً من داخل الأقفاص. فى هذا الموج المتلاطم من البشر يمكنك أن تلمح ملابس الجنود البريطانيين ورجال الشرطة المصريين، كما يمكنك أن تلمح أيضاً بعض الصبية الذين يجوبون رصيف المحطة ويبيعون الصحف المصرية والإنجليزية والفرنسية، وهم يصيحون بجميع اللغات " الحرب ".

أصيب أندونيس بالذعر وتوقف للحظة وبحث عن إلياس وسط الزحام. إلى أن وجده يقف مع أندرياس سيستانيس، مدير أحد فروعه فى القاهرة. ظهر أندرياس وقد امتلأ جسمه على ما كان عليه منذ آخر لقاء بينهما. وعندما لمح أندرياس مديره وجد أنه من اللائق أن ينادى على اثنين من الشيالين المصريين الذين يرتدون الجلباب و"الطربوش" (ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية). قام أندونيس مسرعًا برفع حقيبته الجلدية الصغيرة ليراها أندرياس الذى بادر فى التو بجمع الحقائب، وجذب الحمالات على ظهر اثنين من الشيالين، فأسرعا فى خفة بحمل الحقائب وكأنهما يطيران بها ثم منحهما أندرياس بعض النقود نظير ما قاما به من عمل، فانصرفا دون أن يتفوها بكلمة واحدة. كان أندرياس، ذا أصول أوربية، واحداً من أكثر اليونانيين كفاءة فى القاهرة. وعندما رأى أندونيس يشير إلى ميخيليس ثم يغمز له بعينيه، أدرك أندرياس أن أندونيس يريد التخلص من ميخيليس، فما كان من أندرياس إلا أن أسرع بحمل حقيبته قائلاً: «تفضل معى، يا سيد ميخيليس». نظر ميخيليس حائرًا إلى أندونيس، الذى بادر بطمأنته قائلاً: «نلتقى بعد نصف ساعة»، عندئذ تنفس أندونيس الصعداء وهو يشاهدهما يبتعدان ثم استدار إلى إلياس وقال: «الآن يمكننا مغادرة هذا المكان أيضاً».

أشــار إلياس إلى بائعى الجرائد ووجه حديثه لأندونيس قائلاً:« لقد فاض الكيل، يا صديقى»، وافقه أندونيس على ذلك ولم يستطع أن يخفى دهشته، وقال: «نعم، لقد كنتَ على حق، يا إلياس» ، فقد سبق لإلياس أن توقع حدوث كل ذلك، ومنذ الربيع الماضى كان دائم الحديث عن حدوث اغتيال سياسى فى أوربا، وكأنه يدرك أن الألمان يمكنهم الضغط على النمساويين لدخول الحرب، وعندئذ فلن ينقضى الصيف دون أن تدخل إنجلترا هى الأخرى فى الحرب .

وفى طريقهم للخروج من المحطة، كان بانتظارهم جندى إنجليزى يقود سيارة سوداء اللون، وكان يستند على باب السيارة وفى يده سيجارة، ولكن بمجرد أن وقع بصره عليهم متجهين نحوه، ألقى بالسيجارة ثم أسرع بفتح باب السيارة لهما. وكان مظهره مضحكًا فى زيه العسكرى الصيفى وبنطاله القصير. وقد لاحظ أندونيس أن سيقان هذا الرجل تخلو من الشعر. كان منظر سيقانه سيبدو مقززًا إذا ما امتلأت بالشعر الأصفر الفاقع مثل لون شعر رأسه.

اتجه أندونيس وإلياس بعد ذلك إلى شارع نوبار باشا، كان بانتظارهما القائد العام للجيش البريطانى، وبصحبته الملازم أول ماكفيل. وإلى جانب حرارة الجو المرتفعة، كان الزحام شديداً، فكل أنواع الحاويات، من سيارات وعربات كارو كانت تختلط بأمواج البشر متعددى الجنسيات: من مصريين وجنود إنجليز وأوربيين. كان الطريق جيداً، غير أن إصرار إلياس على أن يسرع السائق بالسيارة كاد أن يتسبب فى وقوع حادث. كانت صفوف الأشجار المتراصة تشير إلى وجود ميادين مزودة بحدائق صغيرة وإلى وجود حدائق عامة، تتبعها صفوف أخرى متراصة من الأشجار تنتهى بحديقة كبيرة. وقد أضفى المصريون بجلاليبهم مختلفة الألوان لمسة من الجمال على هذا المشهد. وهنا جال بخاطر أندونيس كيف أضاع الأوربيون من أيديهم فرصة التمتع بتنوع الألوان، وذلك بإصرارهم على ارتداء الملابس ذات الألوان الغامقة فقط.

أخرج إلياس من جيبه علبة سجائر من ماركة خاراميس المشهورة وقدم سيجارة لأندونيس، ثم قال له مداعبًا: «هيا، انفث هذه السيجارة وأخبرنى برأيك»، ثم قدم

سيجارة للسائق وأشعل ثلاثتهم السجائر بالقدّاحة الفضية التى تحمل الحروف الأولى من إسم إلياس خورى. أبدى أندونيس دهشته من سلوك إلياس، فبادره إلياس بقوله:

- «ماذا دهاك؟ (قالها بالفرنسية) أهى المرة الأولى التى ترانى فيها أدخن سجائر؟».

- «لا، ولكن كنت أظنك تدخن ماركات أخرى ».

- «إنها متعة حقيقية عندما تقوم بتغيير ماركة السجائر بصفة مستمرة، ولكن على أية حال، هناك الكثيرون ممن يقومون بتصنيع السجائر الجيدة فى مصر»، ثم استطرد قائلاً: «المهم من هو الأفضل».

- «ألهذا السبب تقوم بالعمل معى؟».

- «أنا أفضل العمل دائمًا مع الناجحين».

- «يا إلياس، أنا لا أعتبر نفسى ناجحًا، فأنا مجرد إنسان تخطى الخمسين من عمره وما زال يعمل دون كلل، وكانت متعتى الوحيدة منذ فترة فى الماضى هى الكد والتعب. ولك أن تعرف أن اضطرارى للسفر إلى القاهرة لتسليم البضائع إلى الإنجليز يعد عملاً فاشلاً، فأنا أعمل وأعيش فى مدينة مصرية صغيرة، وتلك المدينة التى لم تقدم لى شيئًا سوى خوض أهلها فى سيرتى، إنهم يتحدثون حتى عن ابنى، هذا الصبى الصغير: مع من يتحدث ولمن لا يتحدث؟ "إنه شىء مقزز "(قال ذلك بالفرنسية).

بعد مضى وقت قليل عرجت السيارة إلى الشارع العريض الكائن على النيل والذى يؤدى إلى واحدة من أكبر مشاريع أندونيس التجارية الناجحة. وفى ذلك الوقت كانت مياه النيل تميل إلى الاحمرار بينما تظهر مراكب الصيد والعوامات الراسية من خلف الأشجار الموجودة على ضفاف النيل، تلك العوامات التى يقصدها كثير من الأغنياء فى فصل الصيف، وقد هبت بعض النسمات الرطبة القادمة من ناحية النيل. وقد أعرب أندونيس عن أنه كان يفضل الإقامة فى فندق شبرد.

«كيف بدى فندق شبرد لإيفيت؟»، ألقى أندونيس هذا السؤال على إلياس وهوعلى يقين من أنه سيعبر عن إعجاب إيفيت به. لكن إلياس أجابه مقاطعًا: «ليست تلك هى اللحظة المناسبة لكى تفكر فى إيفيت، "فالعمل أولاً" (قالها بالإنجليزية)»

انزعج أندونيس من حدة إلياس فى الرد عليه، فهو لا ولن يقبل التوجيه ممن كان مشرداً بالأمس، ورد عليه بحدة قائلاً: «أنت لا تملك الحق فى توجيهى، ولى مطلق الحرية فيمن أفكر» عندئذ أسرع إلياس بالاعتذار موضحًا أنه لم يكن يقصد ذلك أبداً.

– «سامحنى، ولكن أخبرنى، فأنا أتخيل أن الفندق قد أعجبها، أليس كذلك؟».

– «"أتعرف!" (قالها بالفرنسية)، لقد فكرت أنه بدلاً من شبرد، حيث يمكن لأى شخص أن يراك هناك، ما رأيك فى الذهاب إلى شقة أحد الأصدقاء فى هليوبوليس، ولا تقلق إنه من موطنى، ولذلك أنت لا تعرفه كما أنه لا يعرفك، وأرى أن ذلك هو أفضل، " أؤكد لك ذلك "(قالها بالفرنسية)».

رد أندونيس بقوله: «ما هذا؟ " أهى مفاجأة؟ "(قالها بالفرنسية)، لتعلم أنى لا أحب المفاجآت».

فبادره إلياس قائلاً: «ينبغى عليك أن تعترف بإصرارك الغريب على شبرد، على الرغم من وجود العديد من الفنادق الأخرى الفاخرة فى القاهرة. وإذا أردت أن تأخذ برأيى فى المرة القادمة، فأنصحك أن تجرب تحفة المدينة الجديدة، فندق "هليوبوليس بالاس"(قالها بالإنجليزية)، إنه جوهرة حقيقية وسط الصحراء، فخم وعظيم، لست أدرى من أين يبدأ المرء فى إبداء إعجابه به، من الأعمدة المرمرية، أم من الممرات المتناهية الطول. وفى هذا الفندق يقدمون الشاى وقت الغروب فى قاعات فارهة، حيث تعزف الأوركسترا مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية للترفيه عن نزلاء الفندق المميزين. إنه حقًا رائع. أؤكد لك ذلك».

– «وأنا يعجبنى شبرد. أهنالك مشكلة فى ذلك؟».

عندئذ أسرع خورى قائلاً (بالفرنسية): «لا توجد مشكلة، يا عزيزى، لا توجد مشكلة».

وفى الطريق وجدوا أنفسهم أمام قافلة إنجليزية من الجمال، يحمل كل جمل وعاءين أسطوانيين من الماء، بينما تعدو بعض الجمال التى تخلفت عن القطيع خلفه حتى تلحق به. كانت الجمال تمد أرجلها للأمام مثيرة ضوضاء عالية، وكان المشهد بشكل عام طريفًا أندونيس: «أتعتقد أنه من الضرورى التوقف لرؤية إيفيت؟»، «هكذا سأله بتردد».

– «هل تطلب رأيى؟».

– «نعم أطلب منك الرأى».

– «الأمر متروك لك» (قال ذلك بالإنجليزية).

– «هذا ليس برأى، ثم إننى أرى أنه إن لم أكن حريصًا فسوف تنتشر تعليقات الناس فى الإسكندرية».

– «الناس فى الإسكندرية تتحدث دائمًا، بسبب وبدون سبب، فإذا ما تحدثوا عنك بسبب فإنهم على الأقل لم يظلموك».

– «لم أكن أعتقد أننى كنت سأعيش تلك اللحظات الرومانسية بدونك يا إلياس، أعنى بدون مساعدتك، أنت تعلم ذلك، إليس كذلك؟ ولو أنك............».

فى تلك اللحظة كانت السيارة التى تقلهم تسير بمحازاة أول جمل فى القافلة الإنجليزية، وقام قائد الجمل الإنجليزى بتحية قائد السيارة، فأخرج رأسه بدوره من السيارة ورد التحية، وقد لاحظ أندونيس وجود ندبة عميقة فى خلفية رأس الضابط الذى يميل لونه للاحمرار، وكان يحاول تغطيتها برفع ياقة القميص (عندئذ تذكر إلياس حديث أندونيس الذى لم يستكمله فاستطرد إلياس قائلاً: «ولو أنك...؟ ماذا».

– «نعم، لم تخبرنى كيف تخلى فيليب جاكو عن إيفيت عندما تعرفتُ أنا إليها».

- «أعتقد أنه قد بالغ قليلاً فى الأمر، ولكنى أظنه لن يطأ مصر بقدمه مرة أخرى».
- «وهل ظهرت زوجته الحقيقية ونجلاه؟».
- «نعم من المحتمل» (قال ذلك بالفرنسية).
- «هذا يعنى أن إيفيت بقيت وحيدة بلا سند، كشمعة فى مهب الريح».
- «"آه يا عزيزى" (قالها بالفرنسية)، أتعلم أننا - نحن الشوام - لا يجب أن يثق فينا أحد؟» قالها خورى ضاحكًا ثم استطرد: «إنك لم تسمع المصريين وهم يقولون إن اللبنانيين كالفحم" (قالها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، لا ينبغى عليك إمساكه بيديك، لأنه إن كان مطفأ فسوف تسوَد يداك، وإن كان مشتعلاً فسوف يحرقك»

ضحك أندونيس حتى بدت نواجزه بوضوح، فقد كان على علم بأن "اللبنانى" عن حق فيما يقوله، ففى علاقته بإيفيت كان يعى جيداً ما قدمه له إلياس من خدمات، على الرغم من أنها خدمات مكلفة، مما ساعده على الاستمتاع بكل لحظة قضاها مع إيفيت. وجد أندونيس نفسه فى القاهرة، عاصمة مصر التى كانت تحت الاحتلال البريطانى، داخل سيارة يقودها جندى إنجليزى، وكان حديثه مع "اللبنانى" إما باليونانية أو بالفرنسية أو بالعربية، كل ذلك حول إيفيت الفرنسية - السويسرية. لقد تذكر ما قاله إلياس من أن التجارة والحرب هما النشاط الإنسانى الذى يمكن أن يفسر معجزة "التجمع متعدد الأعراق"، وقرر أن يبادر إلياس بسؤال عن الحرب.

- «ما قولك فى الحرب؟».
- «"الحرب، الحرب" (رددها باليونانية ثم بالإنجليزية ثم بالفرنسية)، قل عنها ما شئت، الحرب طريق، أو سوق، مثل سوق خان الخليلى، فيها من يتلاعب بأعمار الناس وفيها من يتلاعب بالمال، مثلك أنت. وأرى أنه لا ينبغى علينا أن نقلق يا صديقى، إنها بمثابة القنبلة التى تكاد أن تنفجر بعيداً، وبالطبع، أنا لا أخفى عليك، كيف أننا نحن العرب غير المصريين نتحيَّن الفرصة لكى نطيح بالحكم العثمانى».

- «لا تروق لى فكرة أن أصبح من أثرياء الدمار والخراب، "فهذا الأمر يقلقنى بعض الشىء، أتعلم ذلك! "(قال ذلك بالفرنسية)".

- «لم أكن أعرف أنك من محبى السلام».

- «أنا مجرد رجل يعمل فى صناعة الدخان ويسعى للعيش فى هدوء».

- «سعادتك فى هذه الأرض، سواء تشتريها بسعر مقبول أم غير مقبول، لكنك تحصل عليها فى النهاية مقابل تعاسة كثير من البشر الآخرين».

ثم سأل إلياس أندونيس إذا ما كان هذا الكلام تعبيراً عن مذهب مطلق أم نموذج لنفس إنسانية حالمة: فأجابه أندونيس:

« "دعك" (قالها بالفرنسية) من هذه الفلسفة غير المجدية، أريدك أن تحدثنى عن كيتشنر، يُقال إنه سيرحل».

- « "إنه احتمال قائم"(قال ذلك بالفرنسية)، فهم يُعدونه لتولى منصب وزير الجيش، أما كيتشنر نفسه فقد كان يفضل بالطبع أن يستمر فى عمله باعتباره مندوباً سامياً فى مصر. ولكنك تعرف كيف تجرى الأمور».

- «وماذا عن تابعنا....... كوشنر؟».

- «تابعنا، كان من الممكن له أن يصبح خليفته، ولكن لا، كيف تضع شخصاً فى منصب المندوب السامى فى حين أنه لا يستطيع أن يكبح جماح مشاعره تجاه من حوله من الشباب. هل تتذكر هذا الرجل ذا الشعر الأحمر فى لقائنا السابق فى شارع شريف باشا؟ إنهم فى القاهرة يطلقون عليه اسم الآنسة كوشنر، فهو رجل جاهل بأمور السياسة. ولكن عندما تنام وتستيقظ فى أحضان كوشنر فكل شىء وارد أن يحدث».

- «لقد انتابنى شعور بالقلق، فربما نكون قد أسندنا المهمة للرجل غير المناسب؟».

- «يا عزيزى أندونيس، الوجوه تتغير ولكن الاتفاقيات هى الاتفاقيات، وبالإضافة إلى ذلك، فلم يقم الإنجليز باختيار أندونيس خاراميس بالمصادفة ليعمل معهم هنا فى مصر على الرغم من وجود العديد من مصانع الدخان التى تنتج سجائر ذات جودة عالية. فليست الجودة فقط هى ما يمكن أن تضمنه، ولكن الكم له أيضًا أهمية قصوى».

- «لقد أحضرت معى الرسومات الخاصة بتوسعة مصنع محرم بك».

- « "شىء رائع"(قالها بالفرنسية)، فربما لم تكن هناك إذن حاجة ماسة لإحضار صورة سارة برنار، أما بالنسبة للرسومات فسوف يطلبون منك مشاهدتها"، أنا واثق من ذلك "(قالها بالفرنسية)».

مضت دقيقتان منذ أن تركوا طريق الكورنيش، ودخول السيارة فى أحد الشوارع الضيقة، ثم تبع ذلك حدوث اهتزاز قوى للسيارة، تبعه انطلاق صوت النفير بشكل تسبب فى الإزعاج الشديد. فقد انقلبت إحدى عربات الكارو وتبعثرت حمولتها من ثمار التين على الطريق المهد بالحصى. أخرج السائق الإنجليزى رأسه من نافذة السيارة، ثم أطلق سيلاً من الشتائم على سائق العربة الكارو، وكان أسود البشرة يخلو فمه من الأسنان، فقد حاول السائق منذ قليل قطع الطريق بعربته الكارو بصورة مفاجئة مما تسبب فى انقلابها. بصق سائق العربة الكارو على الأرض، وبدأ فى فاصل من السباب لحصانه، فى حين شرعت امرأة فلاحة تجلس بجواره فى النحيب واللطم على خديها. وفجأة امتلأ الشارع بأناس يرتدون جلاليب متعددة الألوان وطرابيش. حاول أحد رجال الشرطة المصريين أن يعيد النظام مرة أخرى. غير أن السيارة أصبحت محاصرة من كل جانب وقد تسمرت فى مكانها.

بعد انفراج الطريق وصلت السيارة إلى شارع نوبار باشا، وتوقفوا أمام مبنى مكون من ثلاثة طوابق، حيث يرفرف العلم الإنجليزى فى الطابق الأول، وقد تولى ضابط إنجليزى مهمة إرشادهم إلى مكتب العقيد ماكفيل، القائد العام للجيش البريطانى، كانت خطوات الرجال الثلاثة وهم يصعدون السلم الخشبى العريض تشبه

دقات الطبول. وقد تلاحظ وجود بعض القبعات المعلقة على الشماعة فى المدخل، وكانت تخص ميخيليس وسيستانيس. وقد بدا أن الضابط ضخم الجثة الذى كان يقف بجوار ميخيليس هو العقيد ماكفيل، وعلى الجانب الآخر كان ميخيليس يتحاور فى نقاش حاد دار بين الرجلين واضعًا البايب فى فمه، وكانا يطفئان بواقى التبغ الملقاة على الأرض بأقدامهم، ومن فوقهم كانت المروحة الضخمة المعلقة فى السقف تثير الهواء الساخن والدخان معًا. أشار ماكفيل بأصابع يده بالرقم ثلاثة، صائحًا (بالإنجليزية) «ثلاثة أيام على الأكثر» فى حين حرك ميخيليس سبابته رافضًا، مبديًا اعتراضه (بالإنجليزية) بقوله: «أسبوع واحد، يا سيدى، أسبوع واحد على الأقل». عندئذ توجه خاراميس بالسؤال إلى سيستانيس هامسًا: «أندرياس، ماذا هنالك؟» فأجابه بدوره هامسًا: «هناك مشكلة تتعلق بالبنود يا سيد خاراميس، ويحاول ميخيليس أن يستجليها».

فى اللحظة ذاتها استدار المحامى تجاه أندونيس ونحّاه جانبًا، ثم قال:

«إنهم يعطوننا مهلة ثلاثة أيام، وبالطبع سوف تدفعون ثروة طائلة عن كل يوم تأخير "وبدون نقاش" (قالها بالفرنسية) لا ينبغى توقيع هذا العقد بأى حال من الأحوال، يا سيد خاراميس، إنه بمثابة انتحار».

لاحظ أندونيس كيف تحول وجه ميخيليس إلى اللون الأحمر. ومما لا شك فيه أن المحامى كان يأخذ الموضوع كله على محمل الجد، أما أندونيس الذى كانت لديه القدرة أكثر من أى شخص آخر على التقليل من شأن شركائه. فقد قرر أن يتولى المباحثات بنفسه، فنحى ميخيليس جانبًا وتوجه نحو الضابط ثم تحدث معه بلهجة إنجليزية رصينة قائلاً :

«سيدى، أرجو أن تغفر للمحامى الخاص بى، فقد تصرف بطريقة عفوية، وأحب أن تعلم أن خمسة عشر يومًا تعد فترة كافية بالنسبة لنا. فالتأخير لمدة أسبوعين فى وقت الحرب يعد منطقيًا. يمكنكم بعد هذه المدة احتساب نصف الشرط الجزائى. فإذا نال هذا العرض رضاكم، فنحن على استعداد للتوقيع فورًا، وعدا ذلك فيمكنكم أن

تبحثوا عن مورد آخر، ولديكم الوقت حتى المساء للوصول إلى حل لهذا الموضوع، وبإمكانكم أن تستشيروا رؤساءكم ثم نعاود الحديث مرة أخرى».

شعر أندونيس بانهيار هذا الرجل الضخم أمامه، بما يحمله جسده من عضلات ودهون، تمامًا مثل انهيار أحد الأبراج الضخمة. ارتسمت ابتسامة حائرة معلقة على وجه ماكفيل، في حين عض كوشنر على البايب من فرط انبهاره، أما إلياس فقد تغير وجهه إلى ألف لون. أما سيستانيس وميخيليس فقد تبادلا ابتسامات النصر.

«مات الملك» إنه أفضل تعبير عن تلك الحركة المتميزة التي قام بها صاحب العمل (أندونيس) على رقعة الشطرنج التي يقفون جميعهم عليها، والآن يمكنه السير متأبطًا ذراع "اللبناني" الذي بدت على وجهه الدهشة من هول ما حدث. ثم وجه أندونيس تعليماته إلى أندرياس سيستانيس قائلاً:

«أترك الآن ستراتيس في رعايتك، لا أريده أن يشكو لي بعد استضافتك إياه، وسوف نجتمع نحن الأربعة في المساء».

توجهت السيارة بصحبة الضابط الإنجليزي إلى فندق شبرد، حيث تناول أندونيس مع إلياس طعام الغداء في قاعة المطعم الكبرى، التي تتدلى الثريا من سقفها تمامًا مثلما تتدلى عناقيد العنب. كان هناك عدد كبير من الخدم الذين يقومون بتلبية رغباتهم، فبدأوا بتقديم الطبق الرئيسي في أوانٍ فضية مغطاة، وفي نفس الوقت، بادر اثنان من الجرسونات بكشف الغطاء بطريقة مثيرة للإعجاب. وكان إلياس قد احتفظ بسيجارين غاليين من مجموعته لما بعد الغداء، فأخذوا يستمتعان بهما وهما يتناقشان في النتائج المنتظرة من نشوب الحرب.

لم يعرف أندونيس كيف مر الوقت سريعًا، واحتاج أن يذكره إلياس بأنهما قد تخلفا عن موعد مهم في شارع نوبار باشا. وفي طريق العودة أراد " اللبناني " أن يعبر عما حدث في اللقاء، فقال بشكل مفاجئ: «كان ذلك تصرفًا موفقًا منك (قالها بالفرنسية) يا أندونيس، وفي كل الأحوال أنت رجل أعمال بمعنى الكلمة (قالها بالإنجليزية)». فقد تمكن هذا الرجل اليوناني القدير من التلاعب بالقائد البريطاني

كيفما شاء، من خلال وضع شروط صعبة. وكان على يقين بما سيحدث فى اللقاء المنتظر فى المساء مع الإنجليز، فقد أخبره ماكفيل بالشروط الجديدة المعدلة، التى تنص على تخفيض مدة الشرط الجزائى إلى عشرة أيام، كما أخبره بأنه لم يكن من الصواب أن يختبر أحد صبره. كان هناك اتفاق غير معلن بين كل تلك العناصر، فتشدد ماكفيل كان مرتبًا مع وسطاء كوشنر، نظير حصوله على مبلغ كبير بالطبع من الجنيهات الإسترلينى "فى الخفاء"(دونّها بالإنجليزية)، وقد حصل عليها من أندرياس سيستانيس تنفيذًا لأوامر أندونيس، غير أن تلك التفصيلات الدقيقة لم يكن من المهم أن يلم بها كل من هو غير ذى أهمية مثل خورى أو حتى كوشنر. كانت مس جريس، سكرتيرة الضابط ماكفيل صاحبة السيقان الممتلئة، قد إتخذت مكانها أمام الآلة الكاتبة، وبدأت فى كتابة الشروط الإضافية التى سوف تُلحق بالعقد. وكان الرضا باديًا على وجوه الجميع بإبرام ذلك الاتفاق. كان ماكفيل يشعر بشىء من الخوف والفزع من القيام بأى نوع من المخاطرة يمكن أن تؤدى إليها هذه المبادرة الصباحية، مثل كوشنر الذى اصطحب معه مستشار وزير شئون الشرق الأوسط ذا الشعر الأحمر، وميخيليس الذى عارض بقوة الشروط الأولى، وسيستانيس الذى أنهى مهمته بنجاح ونفذ أوامر رئيسه فى العمل؛ وقد حضر اللقاء أيضًا كل من المحامى وخورى الذى ضمن لنفسه عمولة ضخمة. وقبل كل هؤلاء حضر خاراميس الذى انتابته حالة من السعادة البالغة .

كان أندونيس يجلس محتسيًا كوب الشاى الذى قدموه له، مستمتعًا فى الوقت ذاته بكل سعادة لطرقعة أزرار الآلة الكاتبة. ولم يكن هناك ما يمكن أن يبعده عن عشيقته سوى قيامه بجولة سريعة فى محل بيع التبغ فى شارع عبد العزيز، ذلك المحل الضيق، الذى ما تلبث أن تدخله حتى تكاد تخرج من الناحية الأخرى. وفى اللحظة التى أمسك فيها بريشة الكتابة وغمسها فى الحبر ثم خط على الورق إمضاءه بحروف عريضة، أحس وكأنه قد طبع أول قبلة على جسد إيفيت المرمرى.

على أية حال، كان الليل قد أرخى سدوله عندما تحركوا فى الطريق إلى هليوبوليس، حيث بدأت أنوار القاهرة تضىء الواحدة تلو الأخرى، وتنعكس على صفحة

المياه الراكدة فى صفوف طويلة غير منتظمة. كانت السيارة تتحرك بسرعة على الطريق المهد بالأسفلت، وكان أندونيس يبدى إعجابه بصفة مستمرة بما لاحظه من نظام وتقدم واضحين فى نواحى الحياة المختلفة فى العاصمة وضواحيها، ولم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فى ذلك التناقض الواضح بين رغد الحياة وبين بؤس الفلاحين، وتعد منطقة هليوبوليس الجديدة، التى استقبلتهم بمبانيها ذات الطراز العربى البيزنطى والممتدة فوق التلال الصحراوية، تأكيداً على ذلك الرخاء الذى ينعم به أهل القاهرة. وقد علق إلياس، بصوت رخيم ومرهق من صخب أحداث اليوم والكم الهائل من السجائر، على الانطباع المؤثر للمدينة قائلا: «لابد لنا أن نعبر عن امتناننا للإنجليز بهذه المعجزة، فأسلوبهم المنظم هو خير ضامن لهذه المشاريع العظيمة، إنهم بلا شك أفضل قادة فى العالم».

عندئذ قاطعه أندونيس الذى لم تكن لديه أدنى رغبة فى الاستماع لشىء آخر عن الإنجليز قائلاً:

«أخبرنى على الأقل، هل المنزل الذى تصحبنى إليه جيد أم أنه............»، فبادره إلياس قائلاً: «ثق بى (قالها بالفرنسية)، يا أندونيس، فهل سبق لى أن خذلتك من قبل؟»، قال أندونيس: «وإيفيت، ألم تقل لى إنها ستنتظرنى هناك؟» ثم قال مرة أخرى «ياله من جمال»، وما إن انتهى من ذلك أندونيس حتى استقبلته إيفيت مرتدية روباً من الحرير كريمى اللون، وكانت تضع سيجارة فى طرف فلتر طويل. كانت الشقة تشبه إلى حد كبير شقة إلياس الكائنة فى رشدى، حتى إن أندونيس كاد يجزم بأن مالك الشقة المجهول هو خورى نفسه. ففيها اللمسات الفنية الغربية والشرقية، مع وجود اختلاف وحيد، حيث كانت جدران غرفة النوم مغطاه بمشاهد فاضحة من الحضارة الفرعونية بدلاً من المرايا التى كانت تغطى شقة إلياس، وكان أندونيس قد شاهد مثيلتها فى أحد بيوت البغاء فى الإسكندرية. تناول أندونيس وإيفيت طعام العشاء واحتسيا معًا الكثير من أكواب النبيذ، ثم قاما بتدخين الشيشة، بعد ذلك عرضت إيفيت على أندونيس ألبومًا لكروت السجائر، يحتوى على صور لنساء عاريات كانت توضع على أغلفة السجائر حتى تجذب المدخنين. ثم قالت: «كما ترى فأنا دؤوب على جمع الصور،

مما يعنى أننى متحيزة لصنف السجائر التى تنتجها، لقد جمعت بالفعل ألبوماً كاملاً منها وأتساءل عن الجائزة التى سأربحها» وقاما معًا بفتح الألبوم، وربما كان غرض إيفيت من كل هذه الصور الفاضحة لنساء عاريات هى استثارة أندونيس وغوايته، تلك الصور التى كانت تحتوى على أوضاع ساخنة تتعارض مع أخلاقيات العصر. توقفت إيفيت عند إحدى الصور وسألت أندونيس بصوت مرتجف إذا ما كان يعرف صاحبة تلك الصورة، فكانت إجابته:«كيف لى أن أعرف ذلك؟ فتلك الصور تأتينا من الخارج لموديلات وراقصات، وممثلات مشهورات....... وغيرهن الكثيرات والكثيرات». أحس أندونيس بإيفيت وقد استشاطت غضباً، وتوهجت وجنتاها وأصاب البلل شفتيها. كيف حدث ذلك وقد اعتاد من تلك الشفتين التلفظ بكلمات فرنسية رقيقة، لقد أيقن أندونيس أنه لا ينبغى عليه أن يتأخر عليها مرة أخرى. وبعد انقضاء شهرين على أول لقاء بينهما، توافقا فيها معًا فى لقاءاتهما العاطفية بشكل فاعل شعر خلالها أندونيس معها بالراحة، مما جعله يبوح لها بقصة ثاناسيس القادم من جزيرة ميتيلينى والدور المؤثر الذى كان يلعبه فى علاقتهما عندما يرغب فى إعادة السكون إلى نفسه. لقد أثار هذا السر إيفيت إلى حدٍ كبير، لدرجة أنها أجبرته أن يعيد على مسامعها القصة مرة أخرى بصوت مرتفع باللغة الفرنسية خلال تبادلهما الغرام. وبعد انقضاء شهرين على لقاءاتهما لم يكن السحر بينهما قد زال. فكانت تلقاه وقد عطرت جسدها بأفخم العطور، مما يجعله يقبل عليها بكل شوق ورغبة(*)، لا يتناسبان مع عمره. مما جعلها تسأله (بالفرنسية): «هل تبلغ الخمسين من عمرك؟ هل أنت متأكد؟ هذا ليس صحيحًا!».

لقد فعلا كل ما يحلو لهما حتى اقترب فجر الخامس من شهر أغسطس عام ١٩١٤، وارتفع صوت " المؤذن" (ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) من فوق المئذنة. وبينما كانت البشرية كلها تعانى من ويلات الحرب العالمية الأولى، كان أندونيس خاراميس بعيداً كل البعد عن ذلك، فقد أصبح أكثر ثراءً وأكثر سعادة عما كان عليه من قبل، غير أن هناك ما تسبب فى تعكير صفوه.

* * * * *

أطلقت إيفيت دعابة تعبر بها عن رغبتها فى العودة إلى الإسكندرية، فقالت «العودة إلى الأسر». ويبدو أنها لم تكن سعيدة فى قفصها الذهبى، فى الشقة التى استأجرها من أجلها خاراميس فى شارع السلطان حسين، على الرغم مما بها من أثاث فاخر؛ كما لم تكن جولاتها التى تقوم بها فى أرقى محلات المدينة لشراء الملابس غالية الثمن كافية لكى تخفف من حدة معاناتها. لم يساور أندونيس الشك فى أنه قد تمكن من تعويضها عن كل ساعة ضاعت من حياتها معتمداً على ثقته فى الصائغ الأرمينى كيفورك كيفوركيان الذى يقع محله فى شارع فرانكاس، وليس فى شارع شريف الراقى المستوى، ورغم ذلك فقد كانت لديه الخبرة فى التعامل مع زبائنه من الأغنياء كما كانت لديه القدرة على كسب ثقتهم بما لديه من مشغولات ذهبية لها طابع فريد ومتميز، والأهم من كل ذلك، ما كان معروفاً عنه من تكتم. ومن ناحيتها كانت إيفيت تقبل الهدايا غير المتوقعة، متظاهرة بالمفاجأة، تماماً مثلما كانت تتظاهر باللهفة والنشوة فى اللحظات التى كانا يقضيانها معاً، مما جعل أندونيس يتشكك فى صدق مشاعرها تجاهه. لم تنس إيفيت أن تذكر أندونيس بأن كل مجوهرات الدنيا مهما بلغت قيمتها، لن تعوضها عن غياب أعظم الجواهر وأغلاها، وهى عشيقها الحنون، كانت تلك هى الطريقة التى تبدى بها إيفيت فى كل مرة تبرمها من غياب أندونيس المتكرر وغير المبرر من حياتها، عندئذ أدرك أندونيس - مثل أى إنسان آخر - أنه قد جاء عليه الوقت الذى يشعر فيه بالغرق تحت وطأة هذه الحياة المزدوجة. فأخذ يبحث عن بضع لحظات يقضيها بعيداً عن ذلك العذاب المزدوج المتمثل فى الزوجة والعشيقة؛ كان أندونيس يأمل أن تتفهم إيفيت موقفه الحرج، وكان يحزنه أن يبحث عنها فى شقة السلطان حسين بعد فترة غياب عنها لبضعة أيام تنقطع خلالها لقاءاتهما الغرامية دون أن يجدها، ولكن سرعان ما تتبدد مخاوفه مع وجود روب النوم الخاص بها معلقاً فى الدولاب ويطمئن لعودتها. ورغم ذلك فقد قامت إيفيت بتعبئة كل شىء نفيس يخصها: من ملابس غالية الثمن وأحذية وملابس داخلية وأدوات التجميل، وبكل تأكيد المجوهرات، وضعتها جميعاً داخل حقيبتين كبيرتين من الجلد، كانت قد اشترتهما من القاهرة، فمن الواضح أن الآنسة إيفيت قد قررت الهروب لبعض الوقت من قفصها

الذهبى، وكانت الطريقة الوحيدة لمعرفة مكانها هى سؤال رمزى البواب الذى أغدق عليه أندونيس الكثير من الأموال ليتتبع خطاها، أسرع رمزى بإخبار أندونيس أنه قد رافق بنفسه الآنسة إيفيت إلى محطة القطار بالقاهرة، ووضع حقائبها فى القطار المتجه لمدينة السويس، ولكن كيف عرف رمزى المكان الذى ستتجه إليه إيفيت؟ لأنها بكل بساطة، كانت قد سألته فى الطريق قائلة:«أخبرنى، هل سبق لك الذهاب إلى مدينة السويس؟». ومن المفترض أن لها صديقة قديمة تعيش هناك، امرأة متزوجة من موظف يعمل فى شركة قناة السويس. وفى الوقت الذى كانت فيه إيفيت على دراية بأن رمزى يحصل من أندونيس على المال ليشى بها، كان أندونيس يعتبر تلك المعلومات بمثابة تقرير شفهى يشعره بالارتياح ولو بشكل مؤقت.

كان غياب خورى فى الوقت نفسه هو أكثر ما كان يثير الشك والريبة فى نفس أندونيس، فقد بحث عنه فى كل مكان: فى محلات شارع شريف، فى نادى محمد على، على شاطئ ستانلى، فى نادى سبورتنج، فى شقة رشدى، ويوم الأربعاء فى شقة صامويل عظيمان - اليهودى - حيث كانوا يلعبون الورق. لم يظهر أى أثر "للبنانى" فى الأيام الأولى للحرب، وهى الفترة التى كانت الإسكندرية تعيش فيها فى حالة ترقب، ربما اتباعًا لسياسة الصبر. وكان جليًا اهتمام البعض بالعطلات الصيفية أكثر من اهتمامهم بالتصادم الوشيك (بين ألمانيا وإنجلترا). كان وقوع مصر تحت الوصاية البريطانية دائمًا فى البال، لأنها لو أرادت دخول الحرب بشكل جاد، فسوف يتم ذلك من خلال الإمكانات الهائلة للمراكب الحربية الخاصة بالأسطول "الملكى البريطانى" الراسية فى الميناء الغربية لمدينة الإسكندرية. أما بالنسبة لأندونيس فكان حريًا به ألا يشغل باله بمكان كل من إيفيت وخورى، ولكن بالنقص المتوقع للورق فى قادم الأيام وكيفية تأمين نقل الدخان إلى مصر.

وبعد عشرين يومًا من الترقب والشكوك، وصلت رسالة من خورى إلى أندونيس تحتوى بضع كلمات لم يستطع هو أو من معه تفسيرها، كانت الرسالة تقول: «لقاؤنا فى الواحدة من بعد ظهر الغد فى حانة دانييل (كتب ذلك بالفرنسية)، لدى الكثير

لأقصُّه عليك». وفى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى كان " اللبنانى" يجلس منتظراً على مائدتهم المعتادة فى حانة دانييل، حيث شاهد أندونيس قادماً، وكان المكان مكتظًا بالسياح، مما يؤكد أنهم لا ينوون مغادرة الإسكندرية، وفى أثناء دخوله، قدم له صاحب الحانة اعتذاره عن هذا الصخب الخارج عن إرادته؛ ولم يكن المكان يعج فقط بالموظفين ورجال الأعمال القادمين من القاهرة الذين تدافعوا إلى شواطئ البحر المتوسط، ولكن كان هناك أيضا أولئك الذين منعهم إعلان الحرب من الهرب ولو لفترة وجيزة إلى أوربا. لم يهتم أندونيس بذلك، بل كانت الأجواء مناسبة له حتى يستطيع قضاء وقته دون أن يلحظ وجوده أحد.

لم يسرع الصبى، الذى يعانى من حوَل فى عينيه، كالعادة بأخذ القبعة من أندونيس بل أخذتها فتاة شعرها فاتح اللون، مصفف على شكل ذيل حصان، ترتدى زيًا شعبيًا مصريًا، وهى تشبه فوزى إلى حد كبير، لأنها شقيقته، طبقًا لما ذكره إلياس لاحقًا. ومن ملامحها يمكنك أن تستشف العرق الأوربى الذى خلفته حملة نابليون فى السكان الأصليين فى منطقة رشيد. طلب أندونيس مشروب البيرة، فقدمته له فتاة جميلة من أصل نمساوى، تضع عطراً جذابًا؛ وفى الجانب الآخر من الحانة كان ريناتو الفتى الرشيق، وهو ابن دانييل، يقوم بتقديم الطلبات. وفى كل مرة يتجه فيها للبار كان يتبادل عبارات حادة باللغة الإيطالية مع أبيه .

وبدلاً من الدخول فى مقدمات، قام إلياس بإخراج مسبحة ضخمة من الذهب والكهرمان، كان قد اشتراها خصيصًا لتتناسب مع مكتب أندونيس، وحاول جاهداً إقناعه بأنه قد اشتراها من إسطنبول: «لماذا لا تصدقنى؟» قال ذلك "اللبنانى" وهو يعض على نواجزه كالطفل الصغير، «وكيف ذهبت، يا إلياس، إلى إسطنبول، بالطائرة؟ على الرغم من حظر الطيران، أتظننى كروديو!» قالها أندونيس بنفس الطريقة التى اعتاد أن ينطق بها خورى، بدلاً من كورويذو، وهى الطريقة الصحيحة لنطقها باليونانية (وتعنى مغفلا). «تمكنتُ من السفر قبل حظر الطيران بيوم واحد» أصر إلياس على رأيه ونادى على دانييل مستشهداً به، تفحص دانييل - البارمان الإيطالى- المسبحة

بدقة، بعد أن أبدى استياءه من الزبائن المزعجين، ثم صاح قائلاً (بالإيطالية): «يا للجمال، يا للضخامة، شيء مذهل!»، ثم ذكر أنه لم يسبق له رؤية مسبحة مشابهة لها في الإسكندرية، وزاد على ذلك بأنه على يقين من أن السيد خوري قد جلبها من إسطنبول. وعندئذ قال إلياس: «أندونيس، كان عليَّ أن أذهب قبل دخول تركيا الحرب "وإلا سأخسر أموالي، ألا ترى ما يحدث في العالم؟" (قال ذلك بالفرنسية)». كانت لدى خاراميس الرغبة في تصديقه أكثر من أي شيء آخر، وعندما أخرج خوري تذاكر السفر، دون أن يطلب منه خاراميس ذلك، ارتسمت في عقل خاراميس خريطة للمكان، استطاع من خلالها أن يحسب المسافة بين السويس وإسطنبول، وعندئذ فقط شعر براحه لم يجد لها تفسيراً، وقال: «لم يكن هناك داعٍ لكي تبرز لي تذاكر السفر، فأنا أصدقك، " ومن جهة أخرى" (قالها بالفرنسية)، فأنا لست بحاجة لتقديم تقرير مفصل عن كل خطوة تخطوها». في هذه اللحظة تحول عقل أندونيس للتفكير في إيفيت، وفضل أن لا يتناقش مع " اللبناني " في موضوع اختفائها، طالما أنه، كما يبدو، لم تكن لديه فكرة عن ذلك.

- «هل ذكرت أنك أوشكت على خسارة مبلغ كبير من المال ؟».

- «مبلغ كبير جداً، يا أندونيس، "وسيكون ذلك بمثابة الكارثة!"(قال ذلك بالفرنسية)، فلا ينبغي لأحد أن يستثمر نقوده في إسطنبول في هذا التوقيت، ما لم يكن مستغنياً عن نقوده».

- «وهل تم تأكيد دخول الأتراك في الحرب؟».

- «لنرى ما سيحدث بين أمير باشا والأتراك الجدد، أولئك "اللقطاء" (قالها بالفرنسية)».

ومن البار كان يمكن سماع صوتريناتو الحاد مازحًا مع دانييل، كان الأب والابن يلعبان دورا رئيسيًا بشكل مسرحي بصوتيهما وسط أصوات زبائن الفترة الصباحية الصاخبة.

أدركت إيفيت أن أول صيف لها فى الإسكندرية سيكون مختلفًا. وقد بدت رحلتها إلى أرض النيل فى البداية كحلم شاب، فلم تكن على يقين إذا ما كانت قد وصلت إلى مصر متتبعة خطى فيليب جاكو أم أنها جاءت تنفيذًا لرغبة إلياس خورى والمخابرات البريطانية. وكان من المفترض أن تعود إلى أوربا بعد انتهاء علاقتها بفيليب. فهى، على الأقل، لم تسع بأى حال من الأحوال لاستبداله برجل آخر مثل أندونيس خاراميس، بل والأكثر من ذلك أن تظل حبيسة أربعة جدران. لقد تم كل شىء تماما مثلما خطط له "اللبنانى". والآن، كلما دخل منزلها، يدرك أنها قد تخلت عن فكرة العودة إلى أوربا، والرغبة فى الاستقرار فى باريس أو فى أى مكان آخر تستطيع أن تستكمل فيه حياتها من حيث توقفت، تلك االرغبة التى كانت مقرونة بتخليها عن رجلين مرموقين، فمن قبل كان هناك جاكو والآن خاراميس، وفى واقع الأمر، لم تكن إيفيت تشعر بوجود فارق كبير بينها وبين كل هذه "القطع الفنية"(قالتها بالفرنسية) الموجودة داخل شقتها فى شارع السلطان حسين، تقضى بينها الساعات الطوال. وبين كل زيارة وأخرى من زيارات أندونيس، أو أنطوان - كما كان يحلو لها أن تناديه - كانت تعاقبه (على تأخيره) بالقيام بجولات مفاجئة فى المحلات الراقية: مثل سلسلة محلات "هانو" و"شتاين "وبالطبع "بازار ليونيز" و"صالون" (ذكر أسماء المحلات بالفرنسية)، ثم تعود بعدها إلى المنزل وهى محملة بتلال من صناديق المشتروات فى عربتين من عربات الحنطور. كل هذا الكم من المشتريات كانت تجمعه لاحقا، فقد اعتادت إيفيت أن تجمع إيصالات مشترواتها المتعددة وتضعها على المائدة فى غرفة المعيشة، حتى يراها أنطوان فيتقبل الأمر، ويقابل ذلك بابتسامة. كان البواب يحاول جاهدا حمل كل هذه المشتريات، فى حين كانت إيفيت تفرك يدها دليلاً على رضاها، ولكن سرعان ما يتغير الوضع بمجرد أن تغلق الباب على نفسها مرة أخرى وتعود سجينة لوحدة الانتظار، تراودها أفكار مشوشة ومشاعر متبلدة .

لم تكن هذه هى الحال مع فيليب، فقد كانت على علم بأنه متزوج ولديه أولاد، غير أن أسرته كانت تعيش بعيداً طوال المدة التى أمضياها معًا، وكانت إيفيت تقدم نفسها على أنها عشيقته رسميًا. كان يرافقها فى كل مكان، وكانا يفعلان كل ما يحلو لهما.

وقد عاشا حياتهما دون أن يقدما كشف حساب لأحد فى يوم من الأيام. ولكن منذ اللحظة الأولى التى دخل فيها مسيو خاراميس حياتها، أصبحت تشعر أن المدينة كلها تنظر إليها، فاختارت أن تبقى محبوسة فى المنزل على أن تسمح لأحد بانتقادها أو أن تورط معها حبيبها الوسيم. وتعد المرات التى ذهبت فيها للاستحمام فى البحر سواء فى سان ستيفانو أو فى ستانلى بيه أو فى جليم على أصابع اليد الواحدة. كان باستطاعة إيفيت أن تستأجر غرفة فى " فندق كازينو سان ستيفانو" (دونها بالإنجليزية) الفاخر أو شاليهاً من الشاليهات الخشبية على أحد شواطئ الإسكندرية، التى كانت تشبه الموانىء البحرية فى التقائها بالكورنيش. ولكنها لم تفعل، فقد أصبحت حبيسة جدران المنزل الأربعة. هل هذه حياة؟ وفى النهاية فقد سئمت النظر إلى البواب ذى الرأس المربعة وزوجته السمينة بعينيها الخبيثتين وقرطها الضخم. ولكى تستطيع التواصل مع الناس اعتادت إيفيت أن تبعث فى طلب فيرونيكا (الخياطة) من وقت لآخر لحياكة ملابس جديدة، تلك الملابس التى كانت تظل حبيسة الدولاب دون أن تستخدمها، كل ذلك كان من أجل وفقط أن تضمن بقاء فيرونيكا معها لمدة ثلاثة أيام متواصلة. كانت فيرونيكا، التى يرجع أصلها إلى جزيرة مالطة، تتعهد بالبقاء معها، وكذلك مساعدتها، فى المنزل يومياً منذ الصباح حتى المساء إلى أن تنتهى من حياكة الملابس وتسليمها قبل الموعد. ولكن كل ذلك لم يكن حلاً لمشكلتها، فهى، مثل أية امرأة أخرى، كانت ترغب فى القيام بجولاتها فى الشوارع والمحلات وأن تلفت أنظار الرجال والنساء وأن تصغى لكلمات الإعجاب والإطراء من المعجبين من الرجال. أما الآن فكل ما تسمعه الآن من كلمات كانت على سبيل المجاملة من فيرونيكا. شعرت إيفيت أنها لن تستطيع تحمل هذا الأسر لمدة طويلة، الأمر الذى كانت قد حذرت منه إلياس من قبل، وعندئذ قال إلياس متسائلا: «هل يزعجك أن يكون أنطوان أكبر سناً مما كنت ترغبين؟» لمحت إيفيت فى سؤال إلياس انتهاكًا لخصوصيتها الأمر الذى تسبب فى أزعجها. وعلى أية حال، فقد كانت على وشك أن تجيب عن سؤاله بالنفى، للتأكيد على قوة ونشاط رجل الصناعة ذى الخمسين عاماً، وقالت " «من المؤكد أن السن لا تبدو عليه على الإطلاق، فأنطوان يقوم بكل ما ينبغى عليه القيام به، إذا كان هذا هو المقصود من

سؤالك». لم يكن إلياس يقصد شيئًا، أوعلى الأقل فهو لم يصرح بهذا الأمر، ولكن كل ما أراده هو؛ التأكد إذا ما كان أندونيس هو المتحكم فى حياتها أم لا، فى حين شعرت إيفيت بالغضب الشديد تجاهه، فقد أدرك إلياس أن المشكلات التى وصفتها إيفيت تحتم عليه باعتباره رجلاً أن يداعب غروره. أحست إيفيت لمرتين بأنها أصبحت على وشك أن تتخلى عن كل شىء والعودة إلى أوربا، وفى المرتين كان إلياس يردها إلى صوابها فى آخر لحظة، مذكرًا إياها بالحرب القادمة، حتى قامت الحرب فى النهاية. وفجأة قرر" اللبنانى" أن يقوما معًا برحلة إلى إسطنبول.

سألته إيفيت: «ألم يكن من الممكن تأجيل هذه الرحلة؟».

فأجابها إلياس: «لابد أنك تمزحين، فبين ليلة وضحاها سيتم فرض حظر الطيران، وأشك فى أننا سوف نتمكن من القيام بهذه الرحلة فى وقت لاحق».

إيفيت : «وماذا عن أنطوان؟ "يا له أمر مثير للسخرية" (قالت ذلك بالفرنسية)».

إلياس: «اتركى له رسالة تقولين فيها إنك ذاهبة لقضاء بضعة أيام عند صديقة لك فى مدينة السويس، "هذا كل ما فى الأمر"(قال ذلك بالفرنسية)».

- «وهل سيتقبل هذا الأمر؟».

- «بكل تأكيد».

كانت تلك، امرأة (السويس) هى المخرج الذى تركته مفتوحًا فى علاقتها بخاراميس والذى سريعًا ما أصبح فاعلاً. إنها صديقة قديمة تقيم فى مدينة السويس، وكانت ستسعد باستضافتها، لو لم تضطرها الحادثة التى وقعت لزوجها إلى العودة سريعًا إلى فرنسا. تلك الملاحظة الصغيرة لم يكن أحد بحاجة لكى يعرفها حتى خورى نفسه.

قالت إيفيت مداعبة إلياس: «وما تلك الرحلة، يا إلياس، أهى رحلة شهر عسل؟». فأجابها :«فليكن الأمر كذلك، إذا كانت ستجعلك أفضل حالاً».

وإذا افترضنا أن هذه الرحلة كانت هروباً للاستجمام فقط، وفكر خورى بطريقة خبيثة أن يصطحبها معه لتستجم، عندئذ فلن يكون وجودها فى إسطنبول ذات أهمية .

* * * * *

لقد حدث كل شىء بسرعة، حتى إن إيفيت كان لديها الإحساس بأنها قد نامت فى الإسكندرية ثم استيقظت فى إسطنبول، فى غرفة عالية السقف بفندق "بيرا بالاس"، وسائدها محشوة بريش النعام وملاءاتها ناعمة. جلست إيفيت على السرير الضخم المصنوع من خشب الماهوجنى ثم نظرت إلى نفسها فى مرآة الدولاب بالغرفة؛ عندئذ تطلعت بنوع من الدهشة إلى إلياس خورى الذى كان لايزال يغط فى نوم عميق إلى جوارها. وما بين الواقع والخيال، كانت تحاول جاهدة أن تستعيد تفاصيل هذه الرحلة، بداية من حشرجة صوت رمزى البواب المميزة، وهو يضع حقائبها فى القطار المتجه إلى مدينة السويس، وفى اللحظة التالية كان أحد الحمالين يقوم بإنزال الحقائب من الجهة الأخرى، وفى حين دخلت من أحد أبواب القطار خرجت من الباب الآخر حيث كانت فى انتظارها عربة حنطور أقلتها مباشرة إلى الميناء البحرية، لتبدأ رحلتها مع إلياس بالصعود إلى الباخرة المتجهة إلى إسطنبول. حدث كل ذلك فى إطار من السرية، وهو ما شجعها على الاقتناع بفكرة هذه الرحلة. فقد انتهت كل الإجراءات المعتادة فى المكتب الصحى بمكالمة تليفونية. كما تم توفير كابينة خاصة بها بالدرجة الأولى. إلا أنها قد أصابها دوار البحر بسبب الاضطرابات الصيفية فى البحر الليبى وفى بحر إيجة، كل ذلك جعلها تشعر بأنها لم يسبق لها مغادرة أرض مصر الرحبة. كانت الباخرة تزحف بعيداً عن سواحلها، وكلما نظرت من نافذة الكابينة شاهدت موجات البحر المتلاطمة المحملة بالزبد تضرب الباخرة بضراوة، كما هو معتاد دائماً فى السواحل الأفريقية، وكان دخان المركب وحده يذكرها بطريقة حزينة أنها قد أصبحت فى عرض البحر. وهناك لحظات تملك الدوار جسدها كله مما جعلها تشعر بأن هناك شيئاً ما يغلى بداخلها، وأنها على وشك الانفجار. هكذا كانت حالها وهى تجلس القرفصاء مغمضة العينين وكأنها تصلى. أمامها جلس إلياس ممسكاً بكيس من الورق يداعب به شعرها

غير عابئ باضطراب البحر. استمرت رحلة السفر المزعجة لمدة ثلاثة أيام، ولكنها مرت كالكابوس، حتى إنها فى منتصف الرحلة فقدت الرغبة فى معرفة اسم الميناء اليونانية التى توقفا فيها، وهى ميناء بيريه. بعد كل تلك المعاناه، عبرت الباخرة من الدردنيل ورست فى مدخل كيراتيو، ولم تصدق إيفيت أن ما تشاهده من منظر أسطورى لقمة كابى بإسطنبول وكنيسة القديسة صوفيا والمساجد الإسلامية من ناحية، وبرج جالاتا من ناحية أخرى هى مشاهد حقيقية بل مجرد خيال طفولي. وفيما بعد، كانت قعقعة الخيول التى تعدو فى طرقات منطقة بيرا قد جعلتها تشعر بالنعاس، فاستلقت على كتف إلياس، حتى إنها عبرت، وكأنها منوَّمة تنويمًا مغناطيسيًا، من المدخل الضخم لفندق "بيرا بالاس" دون أن تلقى بالاً إلى الواجهة ذات الطراز المعمارى الذى يجمع بين التراث التركى والفن الأوربى بنوافذها الضخمة وديكورها الرصين، تجاهلت إيفيت الثريا والسلالم المرمرية وارتمت على أريكة فى قاعة الاستقبال، تلقى النظرة بعد الأخرى من مكانها إلى خورى الذى لم تنحنِ قامته من التعب، ولم تبدُ عليه علامات الإرهاق. استندت إيفيت على مكتب الاستقبال بالفندق بينما كان إلياس يرتب تفاصيل إقامتهم بالفندق. كان موظف الإستقبال يرتدى الملابس الأوربية ويضع طربوشًا فوق رأسه، وعلى الرغم من كل ما مرت به حتى الآن فإن إيفيت كانت متوهمة بأنها لم تغادر مصر. (وفى غرفة الفندق) وصل إلى أسماعها صوت المؤذن من مئذنة مسجد جالاتا يؤذن للصلاة. بعد ذلك تذكرت صرير الأسانسير وهو يصعد للطوابق العليا. فى تلك اللحظة الحالمة، مددت إيفيت ساقيها على الفراش فى استرخاء تام، تاركة مشاعرها فى أحضان مورفياس، متظاهرة بعدم الاهتمام بمغازلة خورى لها، مما جعله يشعر بالإحباط واستدار للجهة الأخرى حتى يغلبه النوم .

لم يكن الواقع أقل ألمًا بالنسبة لإيفيت، فقد شعرت للحظة أن قمرة الكابينة بالباخرة قد تم استبدالها بباب الشرفة الضخم المطلة على كيراتيو، وأن فندق "بيرا بالاس" نفسه يشبه إلى حد كبير المركب الضخمة التى بدأت بها رحلتها إلى مدن بعيدة. ولم يسبب لها ذلك التفكير فى ابتعادها كل تلك المسافة عن شقتها فى شارع

السلطان حسين. فى الشعور فقط بالخوف وعدم الأمان، ولكنه جعلها تشعر بالذنب تجاه أنطوان، ذلك الشعور الذى لم يراودها طوال فترة وجودها فى الإسكندرية. وربما كان ذلك سببًا، إلى جانب إحساسها المستمر بالدوار، فى عدم استسلامها لأحضان إلياس خورى. استيقظ إلياس مبكرًا، ثم اتكأ على السرير وأشعل سيجارة، وكانت لديه من الفطنة ما جعله لا يشعل سيجارة ماركة خاراميس أمام إيفيت. قدم لها سيجارة غير أنها لم تحتمل رائحتها؛ لم يظهر عليه الضيق بسبب رفضها للمرة الثانية قبول ما يعرضه عليها، ولكنه بادرها قائلاً: «هيا استردى عافيتك بسرعة، يا إيفيت، فلدينا الكثير لنفعله (قالها بالفرنسية)».

وهكذا، يبدو الأمر وكأنهما سيقضان أسبوعًا صعبًا فى عاصمة الإمبراطورية العثمانية.

* * * * *

" يمكنك التعرف بسهولة على الأرستقراطيين والفضوليين من طريقتهم المعتادة فى الهمس" تذكرت إيفيت هذه الكلمات التى أخبرها بها إلياس خورى بينما كانت تغوص بأقدامها فى السجاد الكثيف الممتد إلى قاعة الطعام بفندق "بيرا بالاس". وعلى الرغم من أن النادل الذى قادها إلى المائدة كان يرتدى حلة وبابيونًا ويضع على رأسه طربوشًا فإنها لم تنتبه لوجودها فى تركيا.

كانت إيفيت تتوقع أن تلتقى على المائدة بإلياس خورى وشخص آخر، ولكنها وجدت إلياس يتحدث هامسًا مع شاب صغير. وازدادت دهشتها بعد أن تعرفت إليه.

«أأنت حقا بانايوتيس أرابيذيس؟».

وعلى الرغم من محاولات إيفيت جاهدة التحدث بصوت منخفض، فقد انتابها الشعور بأن صوتها يصل إلى أسماع كل من فى القاعة، غير أنها لم تكن على صواب فلم يكن هناك من يهتم بوجودها فى قاعة الطعام.

أرابيـذيـس: «نعم، يا أنسة إيفيت» (أجابها بالفرنسية).

إيفـيـــــت: «عذرا، فقد كنت أتوقع شخصاً آخر...... ماذا أقول؟».

أرابيـذيـس: «ربما أكبر سناً؟».

إيفـيـــــت: «نعم، إلى حد ما» وكانا ما زالا واقفين.

فقال إلياس: «لنجلس إذن».

فى حقيقة الأمر، فقد كان الهدوء الذى يسود المكان يبعث على الضيق. فالخدم يجوبون المكان فى صمت تام، بينما يتناول الرجال والنساء المتأنقون طعامهم فى هدوء تام.

وفيما عدا الأصوات التى كانت تصدر عن الشوك والسكاكين التى يمسكون بها ويستخدمونها فى تقطيع الطعام – فيما يشبه ما يفعله الجراحون – فقد تداركت إيفيت هذا الأمر، وبدأت تضع فى اعتبارها بقدر المستطاع أن يكون كلامها همساً.

أرابيذيس: «هل تعلمين أننى قد بلغت الحادية والعشرين من عمرى؟» قال ذلك أرابيذيس فى محاولة منه لإبهارها.

إيفيت: «فى الحقيقة، لا يبدو عليك أنك فى هذه السن أيضاً، حتى إنك تبدو أصغر من ذلك بكثير. لا أريد أن أسبب لك إحباطاً، ولكن معرفتى المسبقة بمكانتك جعلتنى أنتظر رجلاً أكبر بعشرين عاماً على الأقل».

أرابيذيس: «وما أهمية السنين. ماذا ترى يا إلياس، هل للسنين أهمية؟» قال ذلك بشكل يدل بوضوح على الإحباط. وكأنه يطلب المساندة من خورى .

إيفيت: «على أية حال، فمن المؤكد أن الإنسان يكتسب خبرته عبر السنين، وهذه الخبرة لها أهميتها الكبرى فى مجال العمل» هكذا أصرت إيفيت على رأيها. وعندئذ قال إلياس متباهياً، ومشاركاً إياهما فى ذلك النقاش بصوته الخفيض الرخيم:

إليـاس: «لم تكن إذن بداية جيدة، وعلى أية حال، فلسنا هنا لكى نتحرى فيمن قام بوضع بانايوتيس فى هذه المكانة، ولماذا».

كانت إيفيت قد بدأت منذ الوهلة الأولى لوجودها بالمطعم فى عقد مقارنة بين إسطنبول والإسكندرية، فكانت ترى من حولها فى كل مكان بالقاعة أعمده مزينة مربعة الشكل بخطوط مستقيمة، تلك الأشكال كانت مرسومة أيضًا على الموائد والأبواب وعلى خلفية المقاعد. أما المصابيح المستديرة بالثريا الضخمة، فكانت تتزين برسومات لنباتات، تلك الرسومات التى كانت تخفف من برودة تلك الخطوط الجامدة، فى حين كانت النقوش العالية ذات الزهور والخلفية الخضراء تلعب دورًا أكبر بوصفها ستائر تغطى القاعة.

لاحظ أرابيذيس أن إيفيت تتجول بنظرها متفحصة المكان وقال:

أرابيذيس: «بالتأكيد يذكّرك هذا المكان بالإسكندرية، "يا آنسة إيفيت" (قالها بالفرنسية)».

إيفيت: «أبدًا بالعكس فالأمر مختلف تمامًا» (أجابته بالفرنسية).

أرابيذيس: «إجابتك جعلتنى أشعر بالإحباط، فقد ظننت أن الإسكندرية وإسطنبول مدينتين متشابهتين. بل وكنت على قناعة تامة بأن الإسكندرية هى المكان الأمثل إذا ما فكرت يومًا فى الانتقال للعيش فى مكان آخر».

بدى بانايوتيس أرابيذيس محبطًا من كلامها، فأسرع إلياس مصححًا:

«أنت تبالغين بعض الشىء "يا عزيزتى" (قالها بالفرنسية) فالمدينتان ليستا على هذه الدرجة من الاختلاف».

تولد لدى إيفيت شعور بأنهما كانا بالفعل يناقشان بجدية مسألة هجرة أرابيذيس إلى الإسكندرية. ولبرهة من الزمن جال بخاطرها أنه من الخطر أن يشهد شخص آخر غير إلياس على رحلتها هذه إلى إسطنبول.

«هل تفكر جديًا فى ترك إسطنبول؟».

هكذا سألته إيفيت (بالفرنسية) بشكل مباشر، وكان من الواضح أن صوتها بدأ يرتفع على الحد المسموح به، حتى إن بانايوتيس قد أمسك بيدها بشكل لا إرادى، وقال متوسلاً:

«اخفضى صوتك، يا آنسة شانتون! فتركيا ليست بالمكان الآمن لمثل تلك المناقشات فى هذه الظروف. يجب أن تعلموا أن هناك من يراقبنا فى هذه اللحظة».

إيفيت: «الآن! ألا تعتقد أنك تبالغ بعض الشىء يا بانايوتيس»

انتظر أرابيذيس قليلاً حتى ابتعد النادل، وفى اللحظة ذاتها، أمسك بيدى خورى وإيفيت معًا، وقال فى نبرة تعتريها الغموض: «يا أصدقائى، يجب أن أعترف لكم بأننى فى هذه اللحظة أقف واضعًا ظهرى تجاه الحائط. ففى الفترة الأخيرة ظهر فى تركيا العديد من الواشين، ولم يقف الأمر عن هذا الحد فقط، ففى مثل هذه الظروف غير المطمئنة أضيفت لى مشكلة خطيرة وشخصية. ولا أخفى عليكم أن حياتى فى خطر».

إليــــاس: «ما الذى يحدث، يا أرابيذيس؟».

أرابيذيس: «أه يا إلياس، أنت باعتبارك رجلاً ستفهمنى بشكل أفضل». قال ذلك متنهداً، ثم استطرد قائلاً بصوته الرفيع الناعم الذى يتناسب أكثر مع صبى فى العاشرة من عمره:

«أخطأت ووقعت فى غرام فتاة من إحدى العائلات التركية المعروفة».

فقالت إيفيت متعجبة: «وهل هذا أمر سيئ؟».

أرابيذيس: «ماذا تقولين، يا آنسة إيفيت، إنهم يعتبرونها جريمة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقط فهذه المرأة بالتحديد......» عندئذ تردد أرابيذيس فى استكمال حديثه.

حاول إلياس مساعدته لاستكمال حديثه قائلاً: «حسنا وماذا بعد؟»، فقال أرابيديس:

«أعرف، أنكم سوف تقولون إننى غبى، فمن الغباء الوقوع فى حب امرأة تركية، ومتزوجة» قال الكلمة الأخيرة بصوت لا يكاد يسمعه أحد، بل وربما لم يسمعها هو نفسه.

إيفيت: «آه، الأمر كذلك إذن» هكذا همهمت إيفيت (بالفرنسية) فى اندهاش وهى تتطلع إلى هذا الشاب ذى العينين الخضراوين ووجهه المستدير، ثم تساءلت: «ما الذى يمكن أن تفعله امرأة أمام هذا الجمال؟»، ثم ابتسمت بطريقة ساخرة فرمقها إلياس بنظرة حادة.

رغم ذلك لم يهتم أرابيذيس بما قالت وأكمل حديثه قائلاً:

«لقد نشأت وترعرعت مع هذه الفتاه منذ نعومة أظفارنا، وتعرفون ما يحدث. ولكن دعونا من كل هذا، ولنتحدث الآن فى العمل. بعد قليل سوف يفتعل الرجل الذى يجلس على المائدة الثالثة، مرتدياً نظارة وتوكة شعر، مشاجرة. مما سيمنحنا عشر دقائق فقط حتى يسود الهدوء مرة أخرى، عندئذ، استمعوا إلىَّ جيداً ولا تقاطعونى».

لم تكن المشاجرة المفتعلة التى تحدث عنها أرابيذيس بصوت عالٍ ولم يصحبها صياح، فقد قام الرجل الذى يجلس على المائدة الثالثة بالطرق بشوكة الطعام ثلاث مرات على وعائه بشكل ينم عن عصبيته، واستطاع بذلك أن يلقى اهتمام كل العاملين بالمطعم والزبائن. أحاط الندلاء بمائدته وانتهى هذا الحدث بما ينم عن وجود مؤامرة وليس سوء فهم.

فى الوقت نفسه، أسرع أرابيذيس بتوجيه الحديث لهما باللغة الفرنسية قائلاً:

«فى البداية يجب أن نقلل من تحركاتكما فى إسطنبول» ، ثم فتح حقيبة أوراقه اللامعه وقال: «تفضل يا إلياس، تلك هى شهادة عضويتك بالنادى اليونانى المسمى "بدائرة الشرق"(قالها بالفرنسية). هناك سوف تلتقى بالعديد من الضباط من كل الرتب، بداية من الوزير حتى أقل رجال السلك الدبلوماسى مكانة وأيضا برجال البنوك وكبار التجار، كل الصفوة فى مدينة بيرا. وبالإضافة إلى مكانة هؤلاء الأعضاء المرموقة فى المجتمع، يعد النادى اليونانى مكاناً لتبادل المعلومات ولعب الورق، وأعتقد أنك ستشعر بأنك فى مكانك الصحيح».

ضحك خورى ضحكة مصطنعة، ثم إستكمل باناليوتيس حديثه قائلاً:

«وها هى دعوة لشخصين لحضور حفل بالسفارة الفرنسية الذى سيقام بعد غد. فى هذا الحفل يسعى الملحقون الدبلوماسيون الأوربيون للدخول فى منافسة قوية لضمان دعم تركيا فى الحرب. سوف تتاح لكما الفرصة لمشاهدة القاعة الذهبية ذات الألف مرآة. وحتى لا أنسى، ستقوم روكسانى الصغيرة وشقيقتها بالرقص على شرف المدعوين. وهما من خريجات مدرسة زابيو، أو "فتيات زابيو" كما يطلق عليهما فى إسطنبول، أما الآن فقد احترفتا الرقص، حصلت أمهما على الجنسية التركية بعد وفاة أبيهما - ولعلكم تدركون أننى لست الحالة الوحيدة هنا فى إسطنبول - فى حين قررت الفتاتان الانتقام من تركيا بهذه الطريقة، من خلال نشر الفساد فى مقهى شانتان، فلدينا فتيات جميلات فى إسطنبول. وسوف تدركون ذلك بمجرد مشاهدتهن. روكسانى تعمل معنا، وسيكون الحفل فرصة مناسبة لكى تتعارفن، يا إيفيت. وسوف تخبركما بما لم أتمكن من قوله لكم . آه ، وحتى ذلك الحين ينبغى أن تستمتعى بوقتك، فجولة واحدة فى الشارع الكبير لمدينة بيرا ستشعرك بأنك فى مكان ما بين باريس ولندن وفيينا. لقد أحضرت لك قائمة بأرقى الأماكن الجديرة بالزيارة. أما الجلوس فى الخامسة مساءً (قالها بالإنجليزى) فى مقهى " ليبون" فهو شىء آخر. وأنا على يقين من أنه بعد أسبوع واحد سيتغير رأيك فى مدينتنا. ولأن الكل هنا يبحث الآن عمن يمكن تجنيدهم من الجواسيس، فلا تندهشى إذا ما اقترب شخص منك (لتجنيدك) وإبداء إعجابه بك فقط، "فامرأة جميلة مثلك" (قالها بالفرنسية) ستجذب بالتأكيد نظرات كل من حولها».

كان لقوله "امرأة جميلة" (بالفرنسية) وقعًا كاذبًا من فمه لكل من قد يتم إبلاغه عن جمال إيفيت شانتون ولم يرها فى هذه الحظة بعينى رأسه.

عندئذ قاطعه إلياس قائلا «الخبر الأهم لم نسمعه منك حتى الآن، يا باناليوتيس، هل ستدخل تركيا الحرب، "نعم أم لا؟" (قالها بالفرنسية)»، فأجابه أرابيذيس: «هذا ما نتساءل جميعًا عنه، وفى هذا الوقت تتجه كل الأنظار هنا فى إسطنبول إلى

"قصر الطيور"، فمنذ اللحظة التى أعلنت فيها إنجلترا الحرب على ألمانيا، وهناك شعور عام بالجمود يسيطر على الجميع. بالتأكيد أنتما أيضا شعرتما به، وبالتأكيد فقد رأيتما السفينتين الحربيتين "جيبين"، و"بريسلاو" وهما تعبران نهر الدردنيل. فالألمان يرغبون فى بيعهما بسعر مناسب للأتراك. إنها بلاشك رشوة لضمان إعلان تركيا تأييدها لألمانيا فى الحرب. وهنا تجدد الإشارة إلى محاولات الإنجليز والفرنسيين المستميتة للحيلولة دون ذلك، مما سيزج بنا فى المشاكل»

استطاع أرابيذيس أن يخبرهما بكل تلك المعلومات قبل بداية المشاجرة المفتعلة بالمطعم، والآن فقد انكب على طعامه يأكله بنهم. كما لو كان حديثه المسترسل قد فتح شهيته للطعام.

عادت إيفيت لتتمتم قائلة: " يا له من طفل صغير"، ثم أخذت تحدث نفسها: "ولكن ربما بهذا الشكل لن يشك به أحد". بعد مضى بعض الوقت، أصبحا بمفردهما، عندئذ قال لها إلياس:

«ألم أقل لك من قبل؟ إنه فيليب جاكو جديد فى ثوب سياسى».

لكن إيفيت كان لها رأى آخر، فعلى الأقل كان فيليب جاكو كما عرفته، رجلاً وليس صبيًا، لكنها احتفظت بتلك الملاحظة لنفسها لإدراكها أن ملاحظة كتلك ستؤدى إلى تعكير صفو خورى. فاكتفت بقولها: «نعم، ولكن ألا ترى أنه صغير جداً على هذا العمل؟».

أجابها خورى قائلاً: «يا عزيزتى"(قالها بالفرنسية)، فى مثل هذا النوع من الأعمال من الأفضل أن تكونى صبية صغيرة، مما يجعلك بعيدة عن الخطر. أتتخيلين ماذا لو كان صديقنا هذا أكبر عشرين عاما؟».

تساءلت إيفيت قائلة: «وما المقصود "بقصر الطيور" الذى يتطلع إليه الجميع أخيراً؟». فأجابها إلياس: «السفارة الألمانية»

* * * * *

كانت المرة الأولى التى تجولت فيها إيفيت بجمالها الفتَّان فى الشارع الكبير فى مدينة بيرا اكتشافًا حقيقيًا لكل المواطنين، فجسدها الملفوف داخل ردائها الحريرى ورأسها المغطاة بقبعتها الحريرية الأنيقة، جعلت قلوب الرجال تخفق فى إيقاع متناغم مع خطواتها الرشيقة على جانب الطريق، تلك الخطوات التى تركت بصماتها الساحرة فى شارع باساز دى أوربا، حيث تجولت فى محل "باجونيس" للذهب ومحل مدام تروفى للقبعات ومحل موريايس للأحذية، وفى ممر روميلياس فى مدخل شارع "سيتى دى بيرا "- وهو شارع السفارات - وفى محلات "كارل مان" ومحلات العطور، بالإضافة إلى قاعات محلات الحلويات الضخمة. أصبحت إيفيت محط أنظار الجميع، من سفراء ووزراء ورجال بنوك، وجعلت المتباهين يطلبون ودها، والجذابين يسعون خلفها، كما أدت شدة الانبهار بها إلى سقوط النظارات من وجوه رجال يتسمون بالجدية، وجعلت الشوارب تتراقص من فرط الإعجاب بها، والشفاه تبتسم من سحرها، والعيون تلاحقها أينما ذهبت فى أكثر لحظاتها خصوصية. لقد ألهب ظل هذه المرأة مشاعر مجتمع يجمع فى سماته بين القرية والمدينة الكبيرة. كان مقهى "ليبون" يكتظ بالصبية والرجال والشيوخ لمجرد رؤيتها وهى تحتسى الشاى فى المساء. لقد غطى وجود إيفيت على شبح نشوب الحرب، فى حين أخذت نساء الطبقة الراقية بالمجتمع يرددن بأسلوب ينم عن الغيرة: «يا فتيات، أرأيتن ذلك الرداء الذى يدخل محل " ليبون"؟».

كانت إيفيت تشعر بالخجل وأحيانًا بالارتباك من إشارات الإعجاب بها وتحاول تجاهلها بشق الأنفس. والآن أصبح من الصعب عليها العودة مرة أخرى إلى عزلتها فى شقة شارع السلطان حسين. ومنذ ذلك اليوم الذى كانت إيفيت وإلياس يعبران المهبط المؤدى إلى السفارة الفرنسية، ذلك المبنى الذى يحتوى على أعمدة وأروقة وملامح من الفن الحديث، أصبحت إيفيت وإلياس بالفعل مادة للحديث فى أوساط الطبقة الراقية فى مدينة بيرا.

وإذا كانت إيفيت الجميلة قد استطاعت أن تصبح محط أنظار الجميع، فقد كان إلياس هو ذلك الرجل النحيف ذو العينين السوداوين، الذى كان على دراية كافية بكيفية

التحرك فى أماكن عديدة، مثل نادى "دائرة الشرق" (قالها بالفرنسية) حاملاً معه حضارة مدينة الإسكندرية، وكانت لديه القدرة على التعامل مع كل صغيرة وكبيرة مزوداً بعدة لغات عالمية. لقد غامر بالسفر إلى إسطنبول للحصول على بذور القطن مع بانايوتيس أرابيذيس ليبيعها لتاجر الزيوت اليونانى باندليس أرابيذيس، ذلك الشاب المستهتر الذى كان يتعجل الوصول لمكانة رفيعة، والإحلال مكان والده فى إدارة الأعمال. ولكن مازالت فضائحه تهز مجتمع مدينة بيرا المتحفظ حتى الآن.

لقد أضفى وجود كل من إيفيت وإلياس إيقاعاً أكثر جدية على ذلك الملل، وتلك الثرثرة الفارغة الناتجة عن التعارف والمجاملات المبالغ فيها. كان الجميع يعلق على مظهر إلياس الرائع وسترته الأنيقة، وأيضا على أسلوبه السلس فى الانتقال بالحديث من لغة إلى أخرى. أما إيفيت فكان يبدو عليها أنها امرأة مغلوبة على أمرها، كانت لديها من الكياسة وحسن التصرف ما يمكنها من تقبل مجاملات الرجال ولكن دون أن تمنحهم الجرأة فى الحديث معها. كان رداؤها الحريرى ينساب على تفاصيل جسدها فيبدى من مفاتنها مع كل حركة تقوم بها أكثر مما يخفى. أحست وسط كل تلك المناقشات، والضحكات، تحت الأضواء المبهرة وأصوات الكئوس الكريستالية وصوت الأوركسترا وهى تعزف تلك الموسيقى الرائعة، وكأنها فى أمسية رائعة بالإسكندرية. وقد أعطى العازفون الذين يرتدون سترات وطرابيش، ويجلسون على قاعدة أسطوانية متحركة، الانطباع بأنهم آلات جامدة فى صندوق الموسيقى. تلقت إيفيت العديد من الدعوات للرقص ولم تستطع أن تخذل أيًا من معجبيها، حتى إنها لم تعد تتذكر عدد من رقصت معهم. " إنها فترة نقاهة قصيرة من ذلك السجن الذى أعيش به فى الإسكندرية"، هكذا كانت إيفيت دائمًا ما تحدث نفسها. لقد أصبحت بالفعل جوهرة الحفل لولا حضور روكساني، راقصة مقهى شانتان، التى طغت عليها. رقصت روكسانى فى القاعة الذهبية ذات الألف مرآة، فألهبت أكف الحاضرين بالتصفيق المتواصل، غير أن إيفيت لم تر فى حضور روكسانى نوعًا من المنافسة لها فى تلك الأمسية، كانت تتابع رقصها الشرقى بشغف كبير وانبهار شديد، فجسدها يتلوى إلى

مئات الأشكال، كما لو كان كل جزء من ثنيات جسدها ينعكس من مرآة لأخرى، وذهبت بفكرها إلى غرفة نوم إلياس فى الإسكندرية فى شارع رشدى، وأحست لأول مرة بما يسببه لها تشتتها بين كل من إلياس وأندونيس من ألم، وفجأة عادت مرة أخرى لمطاردة جسد روكسانى الوردى فى كل تلك المرايا الموجودة فى القاعة الذهبية، التى لم يكن لها تأثير عليها من قبل.

استسلمت إيفيت لهذه الرغبة الكسول التى لم تجد لها تفسيراً والتى لم تفكر حتى فى إبعادها عن ذهنها، إلى أن وصلت إلى اللحظة التى وقفت فيها الراقصة فى وسط القاعة ثم إنحنت لكى تحيى الحاضرين، وعندما رفعت عينيها، أدركت إيفيت أن روكسانى الصغيرة، ليست بصغيرة، ولكنها تلك الراقصة التى طبعت صورتها على علب السجائر من ماركة خاراميس، وتحدثت مع أندونيس حولها من قبل. وفى الوقت الذى كانت روكسانى تقف ثابتة فى منتصف القاعة، انتاب إيفيت شعور بأن شخصاً ما يجعل القاعة تدور. ولكن سرعان ما تداركت الأمر وأيقنت استحالة دوران القاعة فى هذا المكان بأى نوع من الآلات، لكنها كانت تشعر بدوار لا يحتمل، فقد أحست وكأنها عادت مرة أخرى إلى الباخرة التى أقلتها من الإسكندرية. وأمام شعورها الذى لا يحتمل بالدوار، أحست بالرغبة فى الصراخ قائلة: «أوقفوها (قالتها بالفرنسية)، أوقفوا تلك القاعة عن الدوران». وحتى تمنع تلك الرغبة، اندفعت تجاه باب الخروج. لم تدرك إيفيت كيف استطاعت الخروج من تلك القاعة والوصول إلى الفناء الخارجى، ومن ثم إلى العربة التى أقلتها إلى فندق "بيرا بالاس". ربما تكون قد أخبرت قائد العربة بوجهتها، ولكن لكى تكون صادقة تماماً مع نفسها، فإنها لا تتذكر أنها قد فعلت لذلك.

طوال هذه الليلة حاولت إيفيت جاهدة الخروج فى أحلامها من غابة المرايا التى تحيط بها، ولكنها عندما استيقظت فى الصباح لم يتبق لها من المرايا سوى تلك الموجودة فى دولاب الملابس وتلك الموجودة فى الحمام. كما وجدت إلياس بجوارها يمسح بيده على شعرها ويسألها: «هل أنت بخير؟»، ابتسمت إيفيت ابتسامة باهتة قبل أن يستطرد: "اللبنانى" قائلاً: «أهناك ما أزعجك بالأمس، هيا أخبرينى، أهى

الشمبانيا، أم أنها تلك الرقصات التى شاركك فيها العديد من الرجال، أم أنها روكسانى التى خطفت منك الأضواء؟». وهكذا حاول إلياس أن يجعلها تبتسم، لكنها كانت قد فقدت القدرة على ذلك، غير أن إلياس كان مصراً على الترويح عن نفسها فبادرها بقوله:

«أظن أنه السبب الأخير، فقد تعودتِ أن تكونى دائمًا فى المرتبة الأولى لا الثانية، ولكن يا عزيزتى، ربما كان من الأفضل لك أن تبدئى فى التعود على ذلك، وبخاصة وأنك تكبرين فى السن».

لم تعر إيفيت مداعبات إلياس أدنى اهتمام، فقد كانت تعرف " اللبنانى" جيداً، فشخصيته تتسم بالقسوة مثل الجِمال الأفريقية، ولم يكن من الصواب أبدا أن تجرحه، لأنه لن ينسى ذلك فيما بعد وسيسعى للانتقام منها فى أول فرصة تسنح له. آثرت إيفيت النظر إليه فى صمت ثم أفسحت له مكانًا بجوارها وربتت بيدها اليمين على السرير. تردد إلياس للحظة ثم تمدد ببطء على السرير، وفى اللحظة التى كان فيها مستعداً لأى شىء فاجأته إيفيت المتهالكة بالتحول إلى قطة شرسة، وبحركة واحدة أصبحت فوقه. تظاهر إلياس بمحاولة تجنبها، غير أن ذلك لم يكن أمرًا سهلاً، وكان جسده يهتز بشدة وهو يقهقه من الضحك، غير أن إيفيت استطاعت أن تقيد حركته. فلا يوجد رجل واحد يشعر بالراحة فى هذا الوضع غير المريح. ما تلى ذلك لم يكن تبادلاً للحب بقدر ما كان أشبه بالصراع، فكان إلياس حريصًا ليس فقط على أن لا يسقطان معًا على الأرض، ولكن أيضا على تفادى يدى إيفيت القابضة على رقبته. وفى نهاية الأمر أطلقت إيفيت صيحة ابتهاج وألقت بجسدها على السرير، وكأنها فارس سقط من فوق جواده، وأخذت تتنهد بقوة.

كانت تلك هى المرة الأولى التى يرى فيها خورى إيڤيت فى هذه الحالة. فسألها بقلق:

«ما الذى يحدث؟».

إيفيت: «فلنغادر هذا البلد، يا إلياس، "أرجوك "(قالتها بالفرنسية)، فلنرحل اليوم، لم يكن من الصواب الحضور إلى هنا أبدا. فلنرحل، أريد أن نرحل».

إلياس: «"اهدئى، يا حبيبتى"(قالها بالفرنسية)، تعرفين أننا لا نستطيع الرحيل الآن. اهدئى، أرجوكى، ما الذى يحدث لك؟».

- «أرغب فى الرحيل» قالتها صارخة وهى تهزه من كتفيه، فى حين قرر إلياس السيطرة على الموقف واضعًا كفه على فمها، وابتسم مهدئًا إياها، ثم همس فى أذنها:

«سنرحل، سنكون فى الإسكندرية فى غضون أيام قليلة».

- «أريدك أن تأخذنى بعيدا عن كل شىء، فلنذهب إلى بيروت، إلى باريس، إلى أى مكان، أتتذكر الأوقات السعيدة التى قضيناها معًا هناك؟».

ألم يكن من الأفضل لو لم تقل العبارة الأخيرة؟ فقد تحول إلياس بعدها إلى شخص متباه يشعر برجولته، واعتقد متفاخراً بأنها قد أصبحت لقمة سائغة بين يديه، عندئذ انحنى إلياس أمامها قائلاً: «هناك أشياء لا تتكرر، "يا صغيرتى" (قالها بالفرنسية)، وأراكِ على علم بها، أليس كذلك؟ "عليك أن تصبرى" (قالها بالفرنسية). ماذا أقول أنا أيضاً، كل ما ينبغى عليك أن تفعليه الآن هو: التجول فى محلات ومقاهى المدينة. اهدئى أرجوكى، ولا تفكرى فى شىء آخر سوى أن مدينة الإسكندرية فى هذه اللحظة هى أكثر بقاع الأرض أمانًا. هذا ما أريدك أن تفكرى فيه، وعندما تستعيدين هدوءك سنقوم بترتيب موعد لك مع روكسانى،"اتفقنا "؟ (قالها بالفرنسية)».

فى تلك اللحظة تمنت إيفيت لو استطاعت أن توجه له لكمة فى أنفه. ماذا كان يظن نفسه هذا " اللبنانى" القذر؟ وحتى لا تسمح له بنشوة الانتصار أكثر من ذلك، فقد فاجأته بقولها:

«ربما لم تفهم حديثى جيداً، فقد انتابنى شعور بالخوف، يا إلياس، هذا كل ما يؤرقنى. صدقنى، فمنذ يومين راودتنى فكرة أن الشعور بالأمان الذى يوفره لى أنطوان

لا يعادله شعور آخر ولا يقدر بثمن، ولأول مرة فى حياتى أشعر بمثل هذا الأمان. لابد أنه قد أصابنى مس من الجنون لكى أتخلى عن كل هذا وأتبعك إلى هنا؛ لا تنس أننا فى حالة حرب، وأنك قد أحضرت امرأة إلى بلد من المتوقع أن يدخل الحرب بين لحظة وأخرى. ما الذى سيحدث إذا لم نستطع العودة وتم إغلاق الحدود؟ عندئذ فلن نستطيع العودة، أخبرنى ماذا سيحدث؟».

كاد إلياس أن يجيبها ولكنها لم تترك له الفرصة للحديث وبادرته قائلة: «بالفعل، لابد أننى قد أصبت بالجنون». وحتى تمنح نفسها الفرصة لاستعادة كرامتها المجروحة، نهضت ثم ألقت ببعض الماء على وجهها، كما لو كان ذلك سيساعدها على التفكير بشكل أوضح. كان إلياس على حق، فتلك الفترة التى عاشاها معًا فى باريس باعتبارهما عاشقين، أصبحت الآن بعيدة المنال، كما لو كانت تنتمى إلى زمن آخر، وعالم مختلف. وكان هناك أكثر من أمر يعوق تفكيرها: جاكو، خاراميس والآن هذا الاهتمام المفاجئ بروكسانى. لقد كانت على حق فلا شىء يمكن أن يحدث كما حدث فى الماضى.

* * * * *

«لقد أخبرونى أننا كنا سنلتقى فى حفل السفارة الفرنسية الراقص» قالت روكسانى ذلك، بينما كانت تغرس الشوكة الفضية فى فطيرة الشيكولاته التى أمامها؛ وقد نالت طريقة تحدثها باللغة الفرنسية إعجاب إيفيت التى قالت:

«لقد شعرت بوعكة بسيطة.. فأحيانا يحدث ما هو غير متوقع»، ثم أخذت روكسانى تتتبع نظرات إيفيت وهى ترفع فنجانها. وتساءلت إيفيت فى نفسها إذا ما كان رداء روكسانى المصنوع من الحرير ويستر جسدها بالكامل حتى عنقها، وكذلك قبعتها المصنوعة من القش والمزينة بالزهور، هو نوع من أنواع التنكر.

روكسانى: «لو أخذت برأيى، كنت سأقترح عليك محل مولاتى، فالفطائر هناك لا تقارن».

إيفيـــت: «هل تحبين الشيكولاتة (قالتها بالفرنسية)، يا صغيرتى؟».

– «بل أعشقها» قالت ذلك بصوت يملؤه اللهفة.

ضحكت إيفيت من ردة فعل روكسانى التلقائية، ثم عادت إلى حديثها قائلة:

«قبل كل شيء، أخبرينى إذا ما كان قد تم تصويرك باعتبارك موديل عارية من قبل».

– «مرات عديدة.... ولكن لماذا؟».

– «هل تعلمين فى أى غرض استخدمت هذه الصور؟».

– «ماذا هنالك؟ أهناك مشكلة تجاه هذا الأمر ولا أعرفها؟».

– «أجيبينى من فضلك عما أسألك عنه».

– «"لا أعرف" (قالتها بالفرنسية)، فأنا أقف للتصوير، أقبض الثمن، ثم أغادر المكان. هذا كل ما فى الأمر. ليس لدى أدنى فكرة أين تذهب هذه الصور بعد ذلك».

ارتسمت فوق وجنتى روكسانى المتوهجتين علامات القلق، فالصغيرة روكسانى كانت تستحق كل إعجاب. وعندما شعرت إيفيت بأنها قد تسببت فى إخافتها أكثر مما ينبغى، ابتسمت مهدئة إياها، وقالت:

«لا داعى للقلق، إنه مجرد إشباع للفضول، لا شيء أكثر من ذلك. ماذا كنت تقولين من قبل؟ آه، نعم، عن "مولاتى". أنا شخصيًا يعجبنى "ليبون"، فهو أفضل محلات الحلوى فى إسطنبول».

أجابتها روكسانى بطريقة تنم عن ضيقها قائلة:

«إنه واحد من أشهر المحلات ولا تأخذى بالمقولة السائدة " فى ليبون كل شيء جميل" (قالتها بالفرنسية)».

– «على كل الأحوال"(قالتها بالفرنسية)، نستطيع هنا التحدث بحرية. فحركة الدخول والخروج أكثر نشاطًا، والناس، حمداً لله، يتحدثون فيما بينهم بشكل طبيعى. ولك أن تتخيلى أنك تخجلين حتى من الهمس فى مطعم "بيرا بالاس"».

لم تعلق روكسانى على ذلك فبادرتها إيفيت بقولها:

«أتعلمين أنك ترقصين ببراعة؟».

صاحت روكسانى بصوت عالٍ، وكأنها قد عادت إلى طبيعتها مرة أخرى.

«"حقا" (قالتها بالفرنسية) ، هل أعجبك رقصى؟».

– «نعم (قالتها بالفرنسية)، ولكن أين تعلمت هذا الرقص؟».

– «إنه شىء غريزى، ألا تعتقدين ذلك؟».

– «إنك محقة فى ذلك. هناك أيضا شقيقتك، كما سمعت».

– «آه، ذانائى! ستبهرين عندما تشاهدين رقصها، وعندها ستعرفين ماذا تعنى كلمة رقص. إنها أيضًا تغنى بشكل رائع، وهى بكل تأكيد أجمل منى بكثير» قالت ذلك وهى تضحك.

– «أجمل منك؟ لا أستطيع أن أتخيل فى هذه اللحظة أن هناك امرأة أجمل منك»، ذكرت إيفيت تلك الملاحظة بصوت منخفض وهى تشعر بالخجل من ذلك التعليق الذى ذكرته.

– «ولكنى أؤكد لك أنها أجمل منى بكثير. فلنقل مثلاً إننى أشبه الإسكندرية أما هى فتشبه إسطنبول».

– «هذا مَثل غير ملائم، يا صغيرتى، استمعى إلىَّ، فقد شاهدت بنفسى المدينتين. إن فندق " بيرا بالاس" يعد بكل تأكيد فندقًا أسطوريًا، ولا جدال فى ذلك، وكذلك جسر جالاتا، المساجد، قمة كابى، القديسة صوفيا، سحر البوسفور. كل ذلك جميل. لكن، صدقينى، لا شىء يضاهى سحر سماء الإسكندرية، فالإسكندرية تماثل باريس وفيينا ولندن وروما معًا. ومن الصعب أن أصف لك كل ذلك، ولكن لابد أن تعيشيه بنفسك»

التهمت روكسانى أخر قطعة من الشيكولاته، ثم قالت بنبرة مترددة:

«منذ صغر سنى وأنا أردد أننى لن أغادر مدينة إسطنبول. عندئذ كانت أمى......».

- «أمك؟».

- «الآن، أرغب فى السفر بعيداً أكثر من أى وقت مضى. فالحرب تخيفنى. ولكن فى المقابل، هنا كل حياتى. فالليالى فى كافيه شانتان رائعة. أريد أن أدعوك، للحضور ولكن لسوء الحظ فكل الذين يرتادون هذا المكان هم فقط من الرجال. ومنذ زمن بعيد وأنا أرقص فى كوزمو بوليتان!». قالت ذلك وهى تلعق ملعقتها.

اصطبغت حافة شفتها بلون الشيكولاتة، وعندئذ أسرعت إيفيت لتزيلها بمنديلها. أمسكت روكسانى بالمنديل الأبيض فى يدها وأخذت تشم رائحته، وقالت: «يا لها من رائحة عطرة!».

وعندئذ سألتها إيفيت (بالفرنسية) دون اهتمام منها (بتعليقها على رائحة المنديل): «أترغبين فى قطعة أخرى؟».

- «سوف تتسببين فى زيادة وزنى».

- «فليكن إذن، قطعة صغيرة أخرى، "قطعة صغيرة جداً" (قالتها بالفرنسية)».

- «أقول لك الحقيقة، فى "مولاتى" أتناول فى كل مرة ثلاث قطع من الشيكولاتة، لكن هذا يحدث فقط فى "مولاتى". فهل توجد فى الإسكندرية أنواع لذيذة من الشيكولاتة بالفعل؟».

- «لا يمكن لك أن تتخيلى ذلك. أؤكد لك أنك سوف تنسين اسمك بمجرد أن تتذوقى طعم الشيكولاتة من "بودرو"».

ضحكت روكسانى، ولكن سرعان ما عادت لجديتها وقالت معلقة:

« "انتبهى جيداً" (قالتها بالفرنسية) وأخبرينى بالحقيقة، فالشيكولاته بالنسبة لى سبب قوى للهجرة»، قالت ذلك بمنتهى الجدية ثم عادت تضحك مرة أخرى.

أمسكت إيفيت بيدها وأجابت بنبرة مترددة:

«ما أستطيع تأكيده لك، أن فى الإسكندرية توجد فرصة لكل إنسان»؛ ولأنها شعرت بالضحك من حماستها، ضحكت إيفيت هى الأخرى وأكملت قائلة: «بالتأكيد بها شيكولاتة أفضل».

تردد صدى صوت إيفيت فى القاعة وهى تنادى(بالفرنسية): «جرسون، من فضلك».

ولأن القلق الذى تشعر به بداخلها لم يهدأ بعد، فقد أخرجت إيفيت مروحتها من حقيبتها وأخذت تحركها، وهى تنظر فى عينى روكسانى بنظرات ذات مغزى.

* * * *

غادرت إيفيت المكان بعد لقائها بروكسانى، وقد حصلت منها على معلومات بالغة الأهمية للمخابرات البريطانية، ولكن الأهم من ذلك هو حصولها على وعد غير مؤكد بأن الصغيرة روكسانى سوف تتبعها قريبًا إلى الإسكندرية. وأثناء سيرها هائمة على وجهها وسط الشارع الأعظم بمدينة بيرا، وبينما كانت تفكر فى النهاية السعيدة التى آلت إليها إقامتهم فى إسطنبول، إذا بصوت قرقعة حوافر أقدام الخيول يقترب منها بشدة، ولكن توافقًا مع غريزتها الأنثوية، لم تستدر إيفيت لمعرفة ماذا هنالك، ولكن الله وحده يعلم ما الذى كان يمكن أن يحدث لها لو لم تنتبه لصوت أرابيذيس من الناحية المقابلة وهو يصيح محذراً إياها، قائلاً (بالفرنسية): «إيفيت، انتبهى، انتبهى!». ودون أن تدرى فقد اندفعت محتضنة عمود الإنارة، كما لو كانت تحتضن رجلاً تنشد الأمان بين أحضانه، ثم أغلقت عينيها وشعرت بقشعريرة الموت تسرى فى جسدها. وعندما

زال الخطر وابتعد صوت قرقعة الخيول مخلفًا وراءه صدى بعيدًا يتردد فى أرجاء الطريق، لم تستطع إيفيت التعبير عما بداخلها، أما زالت على قيد الحياة أم لا. ولذلك فلم تفتح عينيها على الفور، بل آثرت تلاوة بعض الصلوات بداخلها حتى استجمعت قواها لمشاهدة ما يحدث، وبالكاد شاهدت مؤخرة العربة الفاخرة وهى تبتعد بسرعة جنونية. وحتى تلك اللحظة لم تكن على دراية كافية بما حدث، لكن ما سبب لها الإزعاج الشديد هو رؤية وجه أرابيذيس الشاحب. وأصبح كعب حذائها المكسور هو الشىء الوحيد الذى سيذكرها بتلك المغامرة التى شعرت بعدها بالحاجة لتوجيه أسمى آيات الشكر لله، خاصة بعد أن استمعت إلى إحدى سيدات المجتمع تقول للأخرى:

«كان يمكن لهذه المسكينة أن تسقط صريعة!».

فى ذلك الوقت، كان أرابيذيس فى صالون فندق "بيرا بالاس"، وقد توجه بالشكر إلى الله لوجوده فى ذلك المكان فى تلك اللحظة، وكان على يقين من أن ما حدث مجرد مصادفة.

لم يتعرض إلياس لذلك الشعور بالقلق الذى تعرض له أرابيذيس، لأنه لم يشهد تلك الحادثة المفزعة، وقال مداعبًا إياها:

«ها هو شخص آخر لم يُعجب بجمالك، يا عزيزتى»؛ وربما كان إلياس يشعر بالقلق أكثر مما كان يبدو عليه. ولكن الأكثر أهمية أنهم لم يتركوها بعد ذلك بمفردها. فى صباح اليوم التالى استيقظت إيفيت وبدأت يومها بطريقة جعلتها تتذكر المرة الأولى التى تعرفت فيها إلى إلياس فى باريس. فقد كان خورى يجلس واضعًا ساقه فوق الأخرى فى الحمام متشحًا بفوطة كبيرة بيضاء اللون، فى حين كانت إيفيت تقوم بحلاقة ذقنه، وقد وضعت طبقة سميكة من الصابون على وجهه ورقبته. وكان هذا الوضع إحدى الطرق التى كانت تؤدى فى النهاية لملاطفات ساخنة بينهما. غير أن إلياس لم يستفد من هذا الوضع سوى استمتاعه بتدليل إيفيت له. فى ذلك الوقت، وجدت إيفيت الفرصة سانحة لتحدثه عن لقائها بروكسانى؛ معتقدة أن خورى سيوجه لها اللوم بسبب مبادرتها بتوجيه الدعوة للفتيات للانتقال إلى الإسكندرية، غير أنها تفاجأت

عندما عرض عليها من جديد فكرة كان قد عرضها عليها من قبل، وهى افتتاح بيت للبغاء على مستوى رفيع فى الإسكندرية، وقال:

«يا لها من "فكرة جيدة "(قالها بالفرنسية)، أليس كذلك؟ فالفتاتان هما أفضل شىء يمكن أن نفتح به "بيتًا للبغاء" (قالها بالفرنسية)؟».

فأجابته إيفيت على مضض: «أرى أن لديك أفكارًا جيدة للفتاتين»، وعندئذ تبادرت إلى ذهن إيفيت صورة روكسانى وهى فى أحضان العديد من الرجال فشعرت بنيران الغيرة تشب بداخلها، وسحبت شفرة الحلاقة بحدة على وجه إلياس حتى صرخ فيها قائلا (بالفرنسية):

«رويدًا رويدًا»، فقد كادت أن تسبب له جرحًا، وحتى تهدئ من روعه، طبعت على جبهته قبله ذات طابع أخوى. استمر إلياس فى حديثة قائلاً:

«ولكن لماذا؟ هل تعتقدين أن حياتهم فى مقهى شانتان ستكون أفضل؟».

– «لا أدرى، فلم أذهب من قبل إلى هذا المقهى المشهور فى إسطنبول، وليس لدىَّ ما أقوله لك، ولكن ينبغى عليك أن تستشير أرابيذيس فى هذا الأمر. فلا يمكنك أن تحرض من يخصونه على الرحيل»، ثم وضعت طبقة أخرى من الصابون على وجهه وقامت ضاحكة برسم خط أبيض على أنفه.

– «أود أن أخبرك أن أرابيذيس هو أول من سيرحل من هنا»، ولكنه سرعان ما توقف عن الكلام، وكأنه قال شيئًا لم يكن ينبغى عليه أن يقوله.

– «لكن هذا أمر غريب» قالت ذلك، ثم بدأت فى تحريك شفرة الحلاقة على وجنتيه.

– «ما الأمر الغريب؟».

– «أتعرف، هناك قصة مشابهة تمامًا لقصة أرابيذيس كان أنطوان قد رواها لى من قبل. ولكن الاختلاف الوحيد أنها قد حدثت فى إيڤالى».

- «هل تعرفين أنتِ بأن خاراميس كان يعيش فى إسطنبول قبل أن يأتى إلى الإسكندرية؟».

- «هذا أمر غير حقيقى» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «بالطبع حقيقى. فقد روى لى حكايته كاملة يوم وصوله إلى القاهرة لتوقع العقد مع الإنجليز».

- «لعله كان يعيش هنا فى مكان راقٍ بمدينة بيرا؟».

- «ماذا تقولين، أنطوان كان فتى فقيراً، تنبعث من فمه رائحة كريهة من شدة الجوع. أقول لك ذلك حتى تعرفى حقيقة أنطوان». كان صوت إلياس يحمل نبرة مفعمة بالكراهية، وقد نالت رضا إيفيت وقالت:

«لكنه أخبرنى بأنه ينحدر من إحدى المدن اليونانية، لكننى لا أتذكر اسمها......» قالت ذلك بينما كانت تتظاهر بأنها لا تبالى بما يشعر به إلياس من غيرة.

- « مدينة كافالا؟»

- « نعم، تلك هى........» (هكذا أجابته بالفرنسية).

- «إنها قصة طويلة حقًا اطلبى منه أن يقصها عليك يومًا ما، ولكن، لم تخبرينى حقًا كيف كانت؟».

- «كيف كانت... ماذا؟».

- «أقصد كيف كانت الأمور تسير مع رجال من أمثال جاكو وأندونيس».

هزت إيفيت رأسها مستنكرة، فقد شعرت بأن إلياس قد امتلك زمام الأمور مرة أخرى، وقالت:

«أنتم يا معشر الرجال، كلكم فى النهاية سواء».

* * * * *

كان شعوراً غريباً ذلك الذى انتاب إيفيت عندما تنكرت فى هيئة الرجال، مرتدية حلة رجالية، فكانت أكتافها الناصعة البياض تائهة داخل ثنايا ردائها، وكان البنطال يرفرف كراية خفاقة حول ساقيها النحيفتين. وقد حاولت جاهدة جاهدة إخفاء ارتباكها من هذا الوضع، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد فقط، فلم تكن ياقة القميص متناسقة بشكل جيد مع رقبتها الصغيرة، حتى إنها اعتقدت أن رابطة العنق، التى تعلمت كيف تربطها بشكل جيد حول رقبة إلياس، على وشك أن تنحل عقدتها وتسقط من رقبتها. أما الشىء الوحيد الذى يبدو وكأنها قد أتقنته فهو؛ طريقة وضع إبهام اليد اليمنى فى جيب الجاكت الذى ترتديه، وهو سلوك رجالى صرف، ثم أخذت تداعب ساعة الجيب التى كانت قد وضعتها بجيبها لتلحظها عيون الناس. أما عن محاولة تقليد طريقة مشى الرجال، فكان عليها أن تعتاد أولاً على ارتداء الأحذية الرجالى والتى تصادف أنها كانت أكبر بدرجة أو درجتين من حجم قدمها. وعندما حاولت أن تضع السيجارة بين شفتيها الرقيقتين كما يفعل الرجال، انتابها إحساس بأنها تدخن لأول مرة. ناهيك عن محاولتها أن تشرب كأسًا على دفعة واحدة. كانت تدفع برأسها للخلف لكى لا ينساب شعرها الكثيف المحتجز داخل الطربوش وينسدل على ظهرها، وبالتأكيد كان الكحول يجعلها تشعر وكأن حلقها يحترق، حتى الشارب الذى قامت بلصقه فوق شفتيها لم يكن متوافقًا مع بشرتها المتوهجة، أما المسبحة الصغيرة التى منحوها إياها فقد أزعجها ارتباك حباتها بين أصابعها. فى النهاية، ولأنها مهما حاولت أن تخفض من صوتها، فلن ينخدع أحد بصوتها، وجدت أنه من الأفضل لها أن تتنحنح من حين لآخر بدلاً من الكلام. وعلى الرغم من كل ذلك، فعندما سألها إلياس عن قدرتها على الخروج معه بهذا الشكل أومأت برأسها بالموافقة، بل ورفضت أن يساعدها فى الصعود إلى العربة. سلك قائد العربة طريقين مرصوفين للخروج إلى الميدان بجوار مكتب البريد العمومى، ثم هبط مرة أخرى فى اتجاه جالاتا. كان أرابيذيس يجلس أمامها ضاحكًا طوال الوقت، ولكنها لم تكن تعرف هل يضحك لكى يمنحها الشجاعة أم ساخراً من حالها المزرية. مرت العربة أمام أشهر مقاهى منطقة شانتان – وهو مقهى "أمريكا " ومقهى "أوربا" – الذى كانت الفاتنة إفثاليا تغنى وأيضًا فيرجينيا جالايتانى،

غير أنهم توقفوا عند "كوزموبوليتان"، حيث تخطف الأختان روكساني وذانائي الأضواء من الجميع. بدأت إيفيت تخطو خطواتها الأولى بثبات، واضعة في ذهنها أن ظلمة الليل كفيلة بعدم كشف سترها. كان المكان يعج بالكثير من الرجال المتأنقين من أهل إسطنبول، ومن الأرمن والأتراك واليونانيين واليهود. وكانوا يدخنون النارجيلة بطريقة توحي بالوجاهة والعظمة. ويبدو أن أرابيذيس كان من الرواد المعروفين في هذا المكان ولذلك استطاعوا الحصول على مائدة مميزة. بدى الجو العام داخل المقهى مخيفًا، فقد كان المكان عبارة عن محاولة لنقل الجو المعروف داخل كباريهات باريس، ولكن يبدو أن من قام بهذه المحاولة لم ير من قبل أيًا من هذه الكباريهات. لذلك جاءت النتيجة بوصفها تقليدًا مشوهًا في كل شيء: فالإضاءة السيئة، ومفارش الموائد تبدو من النوع الرخيص، والأباجورات، حتى المرايات والأباليك المعلقة على الحوائط جميعها كان بحالة مزرية.

وهناك، كانت الأوركسترا الموسيقية تجلس وسط المسرح، وتتكون من خمسة عازفين: للكمان، الكلارنيت، الترومبيت، وكانوا يعزفون ألحانًا أوربية بإيقاعات البولكا (وهي موسيقى صاخبة) والفالس. يرتدي العازفون الملابس الأنيقة والبابيون، ويبدو شعرهم لامع وبراق. إلا أن ملامحهم كانت جامدة، تعلوها مسحة ساخرة من الأرستقراطية، أما النادل فكان متأنقًا ذو نظرة بلهاء، تعلو جبينه شامة، وكلما ابتسم ظهرت أسنانه الأمامية البيضاء بحجمها الضخم، وكأنها قطع حلوى متراصة جنبًا إلى جنب. قام مساعده بتوزيع النارجيلة، وكان أرابيذيس يتابع إيفيت بدهشة وهي تدخن النارجيلة بشراهة ولم يعد هناك فارق بينهما في ذلك، لذلك لم تكن إيفيت تشعر بالغيرة من الرجال الموجودين في هذا المكان. ثم قدموا لهم الخمر في كئوس رخيصة، وكم كان ذلك غريبًا، فالخمر كانت من أرقى أنواع الخمور، وربما تسبب دخان الشيشة الذي أصاب إيفيت بالدوار في هذا الشعور. صعدت على المسرح مغنيتان كانتا تغنيان معًا، ولم تستطع إيفيت أن تتعرف على اللغة التي كانتا تغنيان بها، لكنها كانت مزيجًا من اليونانية والتركية، ولهذا فلم تشارك الحضور إعجابهم بالغناء، غير أنها بشكل عام استطاعت فهم ما يدور على المسرح، فقد كان نوعًا من العروض المسرحية "المبتذلة"، التي يسخرون فيها من السلوكيات اليومية ومن الوقوع في الحب.

كان من الصعب وصف تلك اللحظة التى ظهرت فيها روكسانى وذانائى على المسرح، فقد هب كل هؤلاء الرجال المتأنقين واقفين وهم يملأون المكان تصفيقًا وصفيرًا؛ كان البعض منهم يقفز فى مكانه من فرط الإعجاب، والبعض الآخر يهتز وكأنهم يرقصون بإيقاع تركى، محركين بطونهم الضخمة. كانت الفتاتان ترتديان رداءين قصيرين بلا أكمام، يلمعان عند منطقة الصدر. وعندما رأت إيفيت ذانائى، أدركت لماذا استثنت روكسانى جمال أختها. كانت ذانائى أقصر بقليل من روكسانى، لها شعر مموج رائع وجسم ممتلئ، يعد بكل تأكيد، نموذجًا للجمال بالنسبة لرجال إسطنبول. وبمجرد أن بدأت فى الغناء تحول كل هذا الصخب إلى لا شىء، وكانت تشدو بمقامات تشبه مقامات المؤذنين. ازداد اشتعال النارجيلة وألقت عزلة الشرق بظلالها على وجوه الحاضرين. وقفت روكسانى على جانب المسرح فى انتظار انتهاء أختها من وصلتها الغنائية، ولكن بمجرد أن أعطت الأوركسترا الإشارة بدأت الأختان معًا فى رقصة ساخنة ألهبت مشاعر الحاضرين، فاعتلى رجل شديد البدانة مقعدة، وكان يجلس فى المائدة المجاورة لهم، ثم حاول تقليدهما فى الرقص غير أن محاولته باءت بالفشل وجعلته أشبه ببرميل يتدحرج من مكان مرتفع؛ وأخذ رجل آخر فى التصفيق والتهليل بلا انقطاع على أنغام الموسيقى. وعندما استدارت إيفيت إذا برجل يجلس خلفها يغمز لها بعينه. ولم تكن "باعتبارها رجلاً" لتقبل مثل هذا الأمر، ولذلك نظرت إليه نظرة حادة متحسسة شاربها المستعار بأصابع يدها، مثلما كان خاراميس يفعل وهو غاضب. فى ذلك الوقت تعلقت أنظار كل من إلياس وأرابيذيس بروكسانى وهى ترقص وقد أمسكت بيدها دفًا وأخذت تضرب به مؤخرتها بشىء من الدلال. كان رقص روكسانى مزيجًا من رقصة "بحيرة البجع" والرقص البلدى، غير أنه لم يكن يشبه على الإطلاق ما تقدمه راقصات الإسكندرية فى الكباريهات. ومن المضحك أن تسمع كل هؤلاء السكارى وهم يصيحون " زابيذيس، زابيذيس"(أى فتيات مدارس زابيو)، فقد استطاعت الأختان، بطريقة ما، الحفاظ على ما كانت تضفيه مدارس "زابيو للفتيات" من سمعه طيبة على خريجاتها، على الرغم من الطابع غير الأخلاقى لمقاهى شانتان. أحست إيفيت برعشة تسرى فى جسدها عندما ظنت أن روكسانى استدارت وهى

ترقص ثم نظرت إليها نظرة ذات مغزى. لقد أصبحت الحالة فى مقهى " كوزموبوليتان" خارج نطاق السيطرة، وربما سيكون الأمر أسوأ بكثير فى مقهى " بيبيناس" بأرتاكيا، الذى كان أرابيذيس يعتزم اصطحابهما إليه بعد ذلك للاستماع إلى الموسيقى والأغانى الشعبية.

* * * * *

قال والد أرابيذيس (لإيفيت) «زوجك مريض إذن، شىء مؤسف، فقد كنت أنتظره لكى نوقع الأوراق اليوم لكن لا يهم. فإن غداً لناظره قريب، ولكنى أشعر بالسعادة لأننى سأحتفى بك بنفسى». وبينما كان يأخذ الصينية المستديرة الصغيرة ذات اللون القاتم وعليها كأسان رفيعتان من أحد العاملين.

كانت رائحة العفن تعبئ المكان، حتى إن إيفيت ظنت أنها صادرة من داخل الخزانة المظلمة المليئة بالعديد من الصناديق. ولهذا السبب كان والد أرابيذيس الذى يمشى وكأنه بارون حقيقى يعطر يديه وجبهته بشكل مستمر بعطر الليمون، ذلك العطر الذى كان يقدمه أيضاً لزبائنه. كانت الأرضية الخشبية مغطاة ببقع كثيرة من الزيت، أما داخل المحل فكانت الأرضية مفروشة بورق جرائد، وبمجرد أن تطأ عليه أقدام البشر يصدر عنه صوت يشبه صوت الحطب وهو يحترق. صب والد أرابيذيس كأساً لنفسه وصب آخر لإيفيت، فى حين استدار لابنه الواقف بجواره وقال: «لِمَ تقف أمامى كالأبله؟ إذا أردت أن تكون مفيداً فلتساعد فى أى شىء داخل المحل!». احمر وجه باناپوتيس خجلاً، وقد بدى فى تلك اللحظة كطفل صغير يعجز عن فعل أى شىء بشكل لم يشعر به من قبل، وقد شعر بغصة فى حلقه غير أنه لم يتفوه بكلمة، وفى الوقت نفسه لم يتركهما بمفردهما. «ما الذى أصاب هذا الفتى؟ لا أستطيع فهمه منذ أن ماتت أمه!» هكذا قال ذلك والد أرابيذيس ثم استدرك على الفور قائلاً:

«زوجك يشعر بالقلق من مصير بذور القطن، إنه يصر على أن الكمية كبيرة. فالحرب ترعبه. وعموماً، فى أسوأ الظروف، فسوف أقوم ببيع زيت القطن إلى الجيش

التركي، ستكون لدينا أعمال ناجحة، أضمن لكم ذلك». لم يدرك والد أرابيذيس أن إيفيت ليس لديها أدنى فكرة عما يحدث، غير أنها لم تشأ أن تحبطه، فاكتفت برسم ابتسامة مجاملة على شفتيها. وفي الواقع لم يملؤ المحل عينيها. فحتى الآن لم تر في منطقة بيرا كلها سوى واجهات زجاجية ضخمة وأماكن واسعة ونظيفة. ولكنها فكرت في أنه ليس من الضروري لمحل لبيع الزيت أن يثير إعجاب زبائنه.

«إنك فرنسية إذن، أليس كذلك؟» هكذا سألها والد أرابيذيس، وكانت لغته الفرنسية جيدة، ثم استطرد قائلاً: «آه، باريس. أجمل النساء، أجمل المتع».

كان من الصعب على إيفيت أن تتخيله لاهيًا في باريس في القرن الماضي، كما لا يبدو أنه أكبر سنًا من أنطوان. هكذا.. فله بطن كبير تحمل طابع رجال إسطنبول، ورقبة منتفخة وشعر رأس مصفف بطريقة هزلية، في محاولة منه لتغطية أكبر قدر من رأسه الصلعاء، كل ذلك جعله يشبه مرتادي مقهى " كوزموبوليتان". كان للشراب الذي قدمه لها مذاق القرفة في فمها. انفرط عقد المسبحة في يده وأخذت حبات الكهرمان تتساقط الواحدة تلو الأخرى. كانت مقلتاه تميلان إلى الاصفرار، أما الحدقتان فلهما بريق يشبه بريق الكهرمان. كان حديثه معها مغلفًا بإعجاب خفي، قد يعود السبب في ذلك إلى جمالها الأخاذ. قبل يدها مرتين قائلاً " فرصة سعيدة "(قالها بالفرنسية)، أصر أرابيذيس الأب بشدة على تناول طعام الغذاء معها، ولكن لحسن الحظ لبس بانايوتيس ثوب الشجاعة واستطاع إخراجها من المأزق، بحجة أنه وعد إيفيت بالخروج معها في جولة بإسطنبول. استطاعت إيفيت، بما تعرفة من كلمات بسيطة من اللغة اليونانية، أن تفهم أن الابن يتحدث مع أبيه بصيغة الاحترام. أما الأب فكان يرمقه باستمرار بنظرات حادة، كما لو كان يريد أن يقول له: "انتبه لما تقول!".

كان إلياس على حق إذن عندما أخبرها أن تاجر الزيت يسيطر تمامًا على ابنه، أما معها فكان سلوك تاجر الزيت مختلفًا تمامًا، فقد ساعدها في الصعود إلى العربة ثم أمسك بيدها حتى تحرك السائق، عندئذ تذكر أن يرسل أمنياته بالشفاء لزوجها. أرادت أن تشرح له كيف أن السهر طوال الليل مع الشرب والتدخين يؤديان إلى

الخمول والكسل فى اليوم التالى، كما يؤدى إلى عدم الرغبة فى مغادرة الفراش، وكذلك ادعاء المرض حتى يتجنب ملاقاة أرابيذيس الابن، الذى احترم موعده وحضر لاصطحابها من الفندق فى جولة بالمدينة. لكنها لم تقل شيئًا من هذا واكتفت بإلقاء التحية عليه .

قالت إيفيت لأرابيذيس: «أكان من الضرورى أن تخبره بأننا متزوجان؟».

فأجابها أرابيذيس: «هل جننت؟ ألم تر ماذا فعل الرجل العجوز معك؟ تخيلى لو لم أخبره أنكما متزوجان!»

إيفيت: «إنك تخافه بعض الشىء».

أرابيذيس: «من قال ذلك؟ أنا لا أخافه على الإطلاق!». ثم استدار من مجلسه وكأنه يشعر بالإهانة ثم قال: «ولكنى أحترمه كما يجب أن يحترم الابن أباه»، ثم بدى على أرابيذيس الشعور بالرضا مما أضافه من حديث، ثم ارتدى قبعته التى كانت معلقة على فانوس العربة.

إيفيت: «حسنًا إذن أنت لا تخافه» ولكنها كانت على يقين من أن بانايوتيس، الذى يهفو لكى يصبح أكبر سنًا ، يخلط بين الخوف والاحترام؛ ثم أضافت: «هل فكرت أين سنذهب؟».

كانت لدى إيفيت فكرة مسبقة عن المدينة وعن العربات التى تجرها الخيول والعربات الفخمة، وكانت تتوق لدخول هذا العالم الخيالى الذى يفتنها بسحره فى أمسيات الصيف، بما فيه من قباب ومآذن شاهقة للمساجد، عندما يصطبغ الأفق باللون الأرجوانى وقت الظهيرة. ثم توجها بعد ذلك إلى جسر جالاتا الجديد، وتذكرت مقولة إلياس بأن ضاحية جالاتا شديدة الشبه بالسويس، ولذلك فقد استطاعت أن ترسم صورة مسبقة فى خيالها للمكان الذى ستذهب إليه. فالأرصفة على جانبى الجسر يسير فوقها الحمالون بحمولاتهم وكأنهم يرقصون كما ترقص أشرعة المراكب فى عرض البحر. لقد بدا لها الجسر كبيراً للغاية فى ضوء شمس أغسطس الساطعة، حتى إن هذا الخليط المتدفق من البشر على الجهة الأخرى بدا وكأنه قطيع من النمل.

تحولت جولة إيفيت الرائعة بداية من السوق المصرية التى تباع فيها العطارة والزيوت العطرية من الشرق كله، ثم انتهت بمغامرة غير سارة فى أزقة المدينة التركية، فقد أصبح بانايوتيس أكثر حذراً، بعد ذلك الحادث الذى تعرضت له منذ يومين فى شارع مدينة بيرا الكبير، ولذلك فقد كان يضطر للشجار، بما تعنيه الكلمة، لكى يخلصها من كل أولئك الباعة العالقين بالعربة، لكى يتمكنوا من بيع أى شىء يمكن أن تتخيله. ومن حولهم كانت المحلات التى تبيع مختلف البضائع، مما أعطاها الشعور بتضخم حالة البطالة فى البلد. فالحمالون الذين يكدون تحت نير العمل يتهادهن محملين بالبضائع على ظهورهم، بينما يمد التنابلة (المتسكعون) أقدامهم ويجلسون على السلالم والأرصفة تحت وهج الشمس، أجراس تدق دون سبب واضح، بائع السحلب المتجول يصب المشروب بحركات أكروباتية لأولئك الرجال الذين يمرون عليه وهم يرتدون الطرابيش ويمسكون بالمسابح فى أيديهم.

أخذ أحد تجار الفاكهة يضرب حماره بشكل جنونى، فقد تسمر الحمار فى مكانه بلا حراك. إلا أنه تحرك بعد ضربات عديدة وعاد لجر العربة على الطريق المرصوف. وفى أثناء انتظارها كانت إيفيت تتابع زوجين أوربيين يشتريان سجادة ويساومان البائع لشرائها منه بسعر بخس قدر الإمكان، وفى كل مرة يرفض البائع بيعها لهما يتظاهران بمغادرة المحل دون شراء فيتوسل إليهما البائع ويعيدهما مرة أخرى. وفى إحدى زوايا السوق فى " بيزيستينى"، حيث تباع أنواع مختلفة من البضائع، لاحظت إيفيت أن التحف يتم وزنها بالأوقية، وتقدر قيمتها بالوزن مثل العملات، والمجوهرات، والمشغولات الذهبية الصغيرة .

قال أرابيذيس موضحاً الأمر: «أغلب هذه الاشياء "فالصو"(قالها بالفرنسية)، أما البعض فقد تكون له قيمة عالية».

«وأنى لى معرفة ذلك؟»، كان هذا هو السؤال الطبيعى الذى وجهته إيفيت، فأجابها أرابيذيس برفع إصبع يده مشيراً للسماء. كان لابد لهما فى كل خطوة يخطوانها أن يتخلصا من العديد من البائعين الذين كانوا على استعداد أن يبيعوا لهما

أى شىء حتى أنفسهم. تمتمت إيفيت قائلة: "الشرق هو الشرق"، وأخذت تتذكر خان الخليلى بالقاهرة، فالشرق يبيع لك ويشترى منك، يضحك لك وتضحك له، يمنحك ويسلب منك، وفى النهاية أنت دائمًا الخاسر الأكبر! لكن لماذا توجد الأسواق الكبيرة دائمًا داخل أزقة ضيقة، ربما لكى يذكرنا هذا الاختناق بأن الحياة الواقعية ليس بها الكثير من الخيارات. نظرات خبيثة، تلمح منها انعكاس إدمان المال. البازار فى الشرق يشبه أرض المعركة الحقيقية، تشعر فيها وكأنك حاربت وحوشًا وحيوانات أسطورية، فإذا ما خرجت بعد ذلك بإصابات وجروح بسيطة، فإنك تشعر بالرضا.

خرجت إيفيت إذن دون إصابات؛ أما أرابيذيس، فقد لمحته فجأة وهو يغطى أنفه بمنديل، وإذا ببقعة حمراء تغطى قماش المنديل الأبيض، فسألته وهى تشعر بالفزع:

«ماذا هنالك؟».

– «"لا تنزعجى"(قالها بالفرنسية)، لقد نزف أنفى ليس أكثر» هكذا حاول أن يهدئ من روعها.

– «هل يحدث لك ذلك كثيراً؟».

– «نعم، لكنه ليس بالأمر المهم».

– «ينبغى عليك أن تسرع بزيارة Toubib؟» (قالت ذلك بالفرنسية).

– «.... Toubib؟» هكذا تساءل أرابيذيس لأنه لا يعرف معنى هذه الكلمة.

– «أعنى طبيبًا.، يا بانايوتيس».

– «آه، طبيب، ليس هناك ما يدعو للقلق، فهو أمر يحدث لى منذ الطفولة».

– «لا أريد أن أسبب لك الذعر، ولكن أعتقد أنه من الضرورى أن تقوم بزيارة للطبيب».

– «"حسنًا"(قالها بالفرنسية)، طالما كانت هذه رغبتك فسوف أقوم بزيارة للطبيب فى وقت لاحق».

وفى شارع الكورنيش، شاهدت جدران المملكة القديمة، وعند كنيسة القديسة صوفيا انحنى أرابيذيس وهمس فى أذن إيفيت قائلاً: «هنا تستطيعين أن تدركى ما الذى فعله هؤلاء الشياطين فى حضارتى وشعبى». وعند الجامع الأزرق عرفت إيفيت كيف يعبّر أصحاب الديانات الأخرى عن وجهات نظرهم فى الفن المعمارى. ثم عادت بعد كل ذلك إلى الفندق ومعها علبة من الحلوى من ماركة "خادزى بكير"(أى الحاج بكير)، التى كان خورى يعشقها، وكان قد استيقظ من نومه منتظراً عودتهما.

* * * * *

عندما جالت بخاطر إيفيت فكرة عودتها من رحلتها المفاجئة إلى إسطنبول، وتصبح فى الإسكندرية التى تشعر فيها دائمًا بالأمان وبخاصة فى شقتها بشارع السلطان حسين، ستكون لديها القدرة - بفضل نعمة النسيان - أن تمحو من ذاكرتها كابوس دوار البحر الذى اصابها بالإعياء خلال إبحارها عبر بحر إيجة، لكنها ستحتفظ فقط باللحظات الجميلة التى مرت بها وبالمشاعر الطيبة التى غمرتها، وكان هناك خط رفيع يربط بين فترة وجودها فى إسطنبول وبين العديد من التغيرات المهمة التى غيرت مجرى حياتها فى المستقبل.

وعندما كانت تستحضر فى ذهنها، على سبيل المثال، تلك اللحظة التى وصلت فيها الباخرة إلى خليج ثيرابيون، تذكرت كيف انتابها شعور بالارتياح، بينما كانت الرياح الشمالية تهب من البحر الأسود وتتسبب فى اضطراب مياهه مما يؤدى إلى سقوط أشجار السرو والصنوبر على ضفاف نهر البوسفور، كما ذكرتها منازل الأغنياء الفخمة المطلة على النهر فى صف واحد بحى مصطفى باشا بالإسكندرية. وكذلك بحديقه منزل أرابيذيس التى تعد من الحدائق المتميزة؛ حيث يحتفظ أرابيذيس فى مخيلته بذكريات طفولته مع نيهير، وكذلك حبه لها. ذلك الحب الذى تفتح بين العديد من الزهور الأخرى فى الحديقة، وقد ملك قلبه وكل جوارحه، مما جعله يُخرج من جيبه خطاباً كانت قد أرسلته له ثم أخذ يتلوه عليهم: **«أدين لك بحبٍ خالدٍ كما تدين لى،**

ما أرواحنا إلا ضفتا نهر البوسفور، يربط بينهما جسر خفى، وليس بمقدورنا أن نفعل شيئًا سوى العدو حتى نلتقى فى مكان ما فى منتصف الجسر». فكرت إيفيت كم هو رائع بالنسبة لامرأة لم تكمل بعد عامها العشرين أن تعبِّر عن حبها بهذه الطريقة، وأحست بالغيرة من ذلك؛ ولكن ربما كان من الأفضل لها أن تتأمل كيف كان أرابيذيس ينظر إلى نهر البوسفور فى ليلة وداعهما، لكنها تعجبت كيف يمكن لهذا الشاب صاحب الوجه الطفولى أن يتخلى، بلا تردد، عن هذه الحياة التى يُحسد عليها فى واحدة من أجمل مدن العالم، بحثًا عن بداية جديدة، غريبًا فى أرض غريبة؛ ولم يخطر ببال إيفيت ولو للحظة واحدة، أن خدعة تنكرها فى مقهى شانتان فى مدينة جالاتا كانت بمثابة البروفة الأخيرة لهم قبل اختطاف نيهير، ولم تكن لتشترك فى مثل هذا الجنون الذى كاد أن يعرض مهمتها للخطر لو كانوا قد أخبروها منذ البداية بما كانوا يعتزمون القيام به. لكن يبدو أن الأمر برمته قد تم بمباركة من المخابرات البريطانية حتى تعبر نيهير تحت أعين الأتراك بجواز سفر مزيف وتستقل الباخرة إلى الإسكندرية مع حبيبها.

لقد اضطرت نيهير أن تتحول بشكل مؤقت من امرأة إلى رجل؛ قبلت بقص شعرها الغزير دون أن تبدى أى اعتراض، وأن تضع شاربًا مستعارًا وترتدى ملابس الرجال، بل وتحملت على نفسها ووضعت عطرًا رجاليًا نفاذًا ورديئًا، من تلك العطور التى يضعها الحلاقون على الوجه بعد حلاقة سيئة للرجال من مواطنى إسطنبول فى محلات الحلاقة الرخيصة؛ لكن الأمر الوحيد الذى جعلها تبدى تذمرها هى؛ تلك اللفائف المصنوعة من النحاس التى كانت تضغط بها صدرها حتى تبدو كالرجال. كان جنونًا حقيقيًا، فقد تركت وراءها، بغض النظر عن أى شىء آخر، زوجًا ينتظر عودتها بلا جدوى إلى المنزل هذا اليوم وفى الأيام التالية؛ والأهم من ذلك أيضًا، أنها تركت خلفها ديانة ووطنًا وحضارة بأكملها، فى سبيل حبها. لقد اتخذت قرارها بالفعل، وتشهد على ذلك خطوات أقدامها التى تطأ بها أرض ميناء جالاتا الخشبية. كان يمكنها أن تتراجع ولو بشكل غير ملحوظ، وهى تخطو خطوتها الأولى نحو حياة جديدة مرتدية حذاءها

اللامع، لكن خطواتها السريعة أكدت عزمها على المضى فيما أقدمت عليه. ويبدو أن رحلة الحب النبيلة كانت رحلة مباركة، فقد هبت رياح أيولوس المواتية لتدفع الباخرة إلى وجهتها.

نزل العاشقان إلى كابينتهما الفخمة بالدرجة الأولى المكسوة بخشب الماهوجنى، والمزوَّدة بأباليك للإضاءة ولوحات فنية معلقة، كما كانت مزودة أيضًا بفراش وثير، مما أضفى لمحة من الفخامة، فى حين كانت إيفيت فى الكابينة المجاورة تحاول أن تسترق السمع لأصوات العشق والغرام: ضحكات وضحكات، تأوُّهات وأنات، أصوات لقبلات. ذلك الغرام المتبادل بين الزوجين؛ جعلهما لا يفكران حتى فى الخروج من قمرتهما عند توقف السفينة فى ميناءى بيريه وخانيا ، بالإضافة إلى حركة السفينة الشديدة التى أدت إلى اهتزاز الأباليك واللوحات بشدة.

كانت رحلة ممتعة فى بحر هادئ تحوم فى آفاقه طيور النورس المحلقة، حدث ذلك فى بدايات الحرب العالمية الأولى. عاشت إيفيت فى عالمها الصغير بلا خوف – فى قمرتها، على ظهر السفينة، فى صالون الدرجة الأولى – يجاورها أشخاص لا يرغبون فى التفكير فى أى شىء آخر. وفى خانيا شاهدت الجنود بقوامهم الرياضى المشوق وهم يسبحون فى البحر أسفل القلعة الإيطالية القديمة. مَن مِن هؤلاء الجنود كان يفكر فى الحرب فى ذلك الوقت. لقد أدى شعور إيفيت بالإسترخاء واللامبالاة، إلى عدم التفكير فيما يمكن أن ينتظرها فى الإسكندرية، أو (التفكير) فى استقرار أمورها سواء فى شقتها بشارع السلطان حسين أو فى قلعة أندونيس خاراميس، أو (حتى التفكير) فى علاقتها بإلياس وبالمخابرات البريطانية. كل ما كانت تفعله بين الحين والآخر هو فتح وقراءة خطاب روكسانى المرة تلو الأخرى: **«سوف نحضر أنا وشقيقتى لرؤيتك فى الإسكندرية فى الأيام القادمة، أحلُم بحياة جديدة شيقة»**. ذلك الوعد جعلها تنظر لنفسها فى المرآة داخل الكابينة وتبتسم، وعندئذ لمحت لمعانًا غريبًا ينعكس فى المرآة، لمعانًا يشبه انعكاس ضوء الشمس على صفحة مياه البحر الهادئ، فانتابتها رجفة غريبة، كتلك التى انتابتها ذلك المساء عندما جلست بجوار روكسانى فى مقهى "ليبون"؛

وحتى تتغلب على هذا الشعور فقد بللت صدرها العارى بقطرات من ماء الخوخ، وفتحت مروحة يدها، ثم ألقت بنظرة حالمة على هذا الشبح الماثل أمامها فى المرآة، نعم لقد تجسد أمامها شبح روكسانى فى المرآة، أهى صورة روكسانى تقف أمامها أم أنه مجرد شبح يصور انعكاساً لرغبة محمومة اعترتها فى تلك اللحظة؟

* * * * *

«أخيراً عاد العصفور إلى القفص!» هكذا همس أندونيس فى أذن إيفيت، وأخذ يطبع قبلات على أماكن متفرقة من ظهرها العارى. فى حين كانت إيفيت مستلقية على الفراش، مغمضة العينين، تتلقى تلك القبلات بنوع من الرضا؛ ربما كانت حدته معها التى سبقت تلك الملاطفة هى نوع من العقاب على غيابها المفاجئ. وما بين الجد والهزل، سألها أندونيس أكثر من مرة إذا ما كان قد حدث شيء يستحق الذكر أثناء فترة غيابها، ولكن إيفيت كانت تقاطعه بسؤاله إذا ما كان قد وجد السلوى فى أحضان زوجته السيدة خاراميس أثناء غيابها. بخلاف ذلك، فقد حرص كل منهما على التعبير عن غضبه وضيقه من طول فترة الغياب بطريقة عنيفة أثناء مداعبتهما كل منهما للآخر، حيث كانت يغلف اللقاء برمته أجواء قتالية، إلا أنهما كانا يعاودان من جديد التعامل برقة ولطف حتى يطفئا نيران الشوق المتأججة بداخلهما.

تجنب أندونيس أن يسأل إيفيت أسئلة كثيرة، ومما رفع عن كاهلها عناء البحث عن إجابات كثيرة. كانت سعادتها لا توصف لرؤيتها سماء الإسكندرية مرة أخرى، ووجدت فى أحضان أندونيس – ملك صناعة الدخان – ملاذاً مؤقتًا يجعلها تنسى إعجابها الخفى بروكسانى. كان كل منهما يشعر فى أعماق نفسه بالراحة، حيث يستطيع التفكير والتخطيط للغد واضعاً فى اعتباره وجود الطرف الآخر بجانبه. وأثناء ذلك دار بينهما الحوار التالى:

إيفيت: «بالأمس استوقفتنى جنازة رجل مصرى».

- «آه، يا لسوء حظك، يا صغيرتى إيفيت! أتخيل كم تسبب هذا فى تأخيرك».

- «هل من الضرورى أن يسدُّوا الطريق فى كل مرة وهم ينوحون؟ لقد مزق ذلك قلبى».

- «"أعرف ذلك"(قالها بالفرنسية)، ولكن لابد أن تضعى فى اعتبارك أن النائحات يتم استئجارهن فى مصر، لهذا يقمن بعملهن على أكمل وجه».

- «أحقا ما تقول!».

- «هذا شىء يثير الدهشة، "أليس كذلك" (قالها بالفرنسية)»، ثم استمر يطبع قبلاته على ظهر عشيقته.

- «لقد اضطررت للنزول من الحنطور، والعودة إلى المنزل سيراً على الأقدام».

- «لو أنك مصرية ووافتك المنية كانوا سيحملونك سيراً على الأقدام إلى مثواكِ الأخير. الآن أصابك بعض الإرهاق، ولكن على كل حال، أنت أوربية ومازلت على قيد الحياه».

- «حمداً لله».

- «هل كان الميت رجلاً أم امرأة؟».

- «وأنّى لى معرفة ذلك! لقد كان النعش مغطى بقطعة من القماش».

- «ألم تلحظى وجود نموذج خشبى لرأس آدمى عليه؟».

- «كان ملفوفًا كأنه مومياء؟».

- «تمام، هل لفت انتباهك وجود شىء من فوقه؟».

- «نعم، طربوش على ما أظن».

- «بالضبط، إذن فالميت كان رجلاً».

- «ولماذا يأخذ النعش شكل القارب؟».

- «ألا تعرفى أن الميت لا يدفن داخل النعش؟ ومن خلال نفس القارب، كما تصفينه، يتم سفر مئات الموتى، ثم يتم دفن الجثث التى فاضت أرواحها فيما بعد ملفوفة فى أكفان، إنها عادات الشرق».

- «يا لهم من محظوظين. فمنذ الوهلة الأولى التى أدركت فيها أننى سأموت، كانت ترعبنى فكرة أنه سوف يغلق على تابوت خشبى» ثم تذكرت إيفيت مغامرتها مع الحنطور فى إسطنبول وسألته: «اصدقنى القول، يا أنطوان، ماذا ستفعل من أجلى إذا ما مت غداً؟».

- «سأستأجر لك أفضل العربات الفرنسية التى تجرها ستة خيول لنقل جثمانك، وسوف تكون جنازة مسيحية " كما ينبغى" (قالها بالفرنسية)».

- «يا عزيزى، كنت أفضل أن تصنع لى محرقة وتشعل النار فى جسدى».

- «أرى أن مناقشتنا تتحول شيئًا فشيئًا إلى نوع من الكآبة. ما رأيك فى أن نشعل سيجارة بدلاً من كل ذلك؟».

شعرت إيفيت ببرودة علبة السجائر الفضية وهى تتحرك فوق جسدها. وكان دخان السيجارة المعطر الكثيف يسبب لها نوعًا من النشوة، ففتحت عينيها ووجهت بصرها تجاه عشيقها الذى كان يبدو شديد الثقة من نفسه. وعندئذ حدّثت إيفيت نفسها قائلة: "كيف يمكن لشخص أن يشعر بكل هذه الثقة فى مثل هذه الظروف؟ "، ثم بادرت بسؤاله:

«حسب اعتقادك، ماذا يمكن أن يحدث من الآن فصاعداً؟».

- «أتقصدين بخصوص الحرب؟».

- «وماذا غير ذلك؟».

- «"لا تشغلى بالك"(قالها بالفرنسية)، فالحرب مثل السيجارة، تنطفئ بمجرد أن تشتعل». وعندئذ جال بفكر إيفيت أنها نفس فلسفة إلياس الجوفاء.

ثم هدأ أندونيس من روعها قائلاً: «"على كل حال"(قالها بالفرنسية)، ليس هناك ثمة تغيير».

- «ولكن كيف ذلك، هناك أمور كثيرة قد تغيرت. فالبورصة قد أغلقت أبوابها، كما قلت المواد الأغذية، كما ترفض البنوك كل أنواع الائتمان، أما البواخر فترسو فى الموانئ دون حراك، ألم يحدث ذلك؟».

- «تغييرات كثيرة إذن»، هكذا علق أندونيس على حديثها، ثم نظر إليها متعجباً وقال:

«ولكنك لا تضاربين فى البورصة، وحمداً لله على وجود أنطوان لتوفير الطعام والشراب، أما عن منع السفن من الإبحار، فما الذى يعنيك فى ذلك؟ إلا إذا كانت لديك الرغبة فى أن تتركينى مرة أخرى، ولم يمر وقت طويل على وصولك» .

- «لا ليس الأمر كذلك»

- «اذن، لا يوجد ما يشغل بالك»، قال ذلك ثم أطفأ سيجارته فى مطفأة السجائر وهو يشير إليها بقوله: «أترين ذلك.. هكذا ستنطفئ نار الحرب فى يوم من الأيام».

* * * * *

اتسم استقرار أرابيذيس بالإسكندرية بالهدوء، وكأن هناك يداً خفية تفتح له مرة واحدة كل الأبواب المغلقه وتغدق عليه من خلال تردده على النوادى الأرستقراطية بالمدينة وعلى منازل الأثرياء، وكذلك بدخوله بورصة القطن وتردده على كل مكان كان يتوسم فيه وجود المال والسلطة. ومع مرور الوقت استطاع الشاب أرابيذيس أن يضع نفسه فى مصاف الأجانب الذين عاشوا حياة مرفهة، كما أصبح من أصحاب الممتلكات

المشكوك فى أصولها فى مدينة لم يحمل لها مكانة فى قلبه، (تلك المدينة التى) كلما تحدث عنها، يتذكر الرائحة الكريهة المنبعثة من إحدى العربات المحملة "بالجوافة" (ذكرها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) فى يومه الأول بها، كما كانت تذكّره أيضًا بالحشرات القارصة.

لا يمكن للشخص العادى أن يلحظ وجود فوارق كبيرة بين مدينتى الإسكندرية وإسطنبول. فمن فوق مآذن الجوامع يرفع المؤذنون الأذان مكبرين الله؛ والطربوش، تاج يعلو كل الرؤوس – وإن اختلف اسم الطربوش فى كلتا المدينتين – والمواطنون لا يتوانون فى تعاملاتهم وفى مناقشاتهم عن استخدام تعبيراتهم المحببة لديهم، مثل: "الله أكبر" و"ما شاء الله" (ذكرها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية)، والأحياء الشعبية تمتلئ برائحة البخور، ومثلما هى الحال فى إسطنبول، تضع النساء المنديل على رؤوسهن ليخفين من زينتهن عن أى إنسان؛ وهناك أيضًا عربات الكارو، الحمالون، الزحام، السوق، عيد الأضحى، رمضان. كانت كل تلك العناصر المتشابهة تسحر الأوربيين المقيمين فى أى من المدينتين. ورغم كل ذلك فقد كان بانايوتيس يفتقد الشوارع المرصوفة بالبلاط، كما كان يفتقد شتاء إسطنبول القارص.

أرادت إيفيت أن تجعل من رحلتها إلى إسطنبول سرًا (لا ينبغى إفشاؤه)، ولذلك فقد كانت تتجنب – قدر المستطاع – الاتصال بأرابيذيس ونيهير، حتى التقويا بالمصادفة فى "جراند تريانون" فأصابها الفزع بمجرد تعرفها إلى نيهير بقبعتها البيضاء وردائها الأبيض الحريرى وعطرها الفرنسى النفاذ ومروحتها وقفازها، بوجهها وعينيها الواسعتين الخضراوين وبشرتها الفاتحة وشعرها القصير الأسود الناعم؛ لكنها شعرت بالسعادة عندما سمعت أرابيذيس يقدم نيهيرًا للناس باسم ماريانثى. لقد ودع الزوجان ماضيهما للأبد، ولعل الطريقة السلسة التى كانا يتحدثان بها اليونانية خير دليل على ذلك. استقر الزوجان فى إحدى الشقق الفاخرة فى شارع مارسيليا، بمحطة الرمل؛ وهكذا كانا يقيمان بالقرب من وسط المدينة والسوق، وعلى بعد خطوات من المكان الذى يلتقان فيه بعلية القوم بالإسكندرية، مثل "مقهى تريانون" (دونّها بالفرنسية).

كان باناتيوتيس قد اهتم فى وقت سابق بتعميد نيهير، بمساعدة من خورى، فى كنيسة سان نيكوس بالإبراهيمية، ثم تزوجها. وقد تولد لدى إيفيت الشعور بأن "اللبنانى" يرى فى ذلك الشاب خليفة له- بشكل أو بآخر- على ساحة الإسكندرية، وكان واضحًا أنه لعب دورًا مهمًا فى مساعدة أرابيذيس على الاستقرار بشكلٍ سريع، ولكنها لم تسع لمعرفة المزيد تقديرًا لالتزام إلياس بالسرية تجاه الطرفين، تلك السرية التى كانت تحميها هى شخصيًا فى كل الأحوال.

وضعت نيهير خطة لتتوافق مع الحياة فى مصر، كان من أهم عناصرها أن تتحول من نيهير إلى ماريانثى، ذلك الحدث الذى كان محور اهتمام إيفيت، وقررت أن تبحث فيه بتعمق لتعرف كيف حدث ذلك. بحلول خريف عام ١٩١٤، كان هناك العديد من الأمور التى تغيرت فى حياة إيفيت، فالفترة التى قضتها " أسيرة " فى شقتها بشارع السلطان حسين قد ولت بلا رجعة، وكان لزامًا عليها تقسيم وقتها الثمين بالتساوى بين عشيقها صعب الإرضاء، وبين الشقيقتين روكسانى وذانائى،اللتين حضرتا إلى الإسكندرية على أمل أن تفى إيفيت بوعودها لهما بإقامة رائعة فى الإسكندرية، وفقًا لما أكده إلياس لأرابيذيس. قبلت إيفيت دعوة مدام أرابيذيس لزيارتها فى إحدى الأمسيات التى تكون فيها بمفردها فى المنزل عندما يذهب باناتيوتيس إلى النادى اليونانى.

ذهبت إيفيت إليها فى إحدى أمسيات نهاية شهر سبتمبر الباردة، تحمل علبة حلوى من محل " بودرو"، ولكنها فوجئت بأن مكان اللقاء قد تغير وسيتم فى الشقة التى انتقل إليها الزوجان للإقامة أخيرًا، وعندما شاهدت إيفيت الحمالين وهم يكافحون أثناء صعودهم سلم العمارة المظلم حاملين على ظهورهم قطع الأثاث الضخمة، أدركت أن حمولة عربة النقل التى تقف أمام "بوابة"(ذكرها باللغة العربية ودوّنتها بحروف يونانية) العمارة كانت تخص هذين الزوجين. ترددت إيفيت فى الصعود إلى الشقة لبرهة، لكنها عادت وفكرت أنه إذا كان هذا الأمر قد يسبب حرجًا فلن يكون لها ولكن لربة المنزل. دخلت الأسانسير أمام البواب الكسول الغارق فى النعاس، ثم خرجت منه أمام باب الشقة فى ذات الوقت الذى وصل فيه الحمالون. ظهرت شغالة مصرية تضع قرط أذن

شعبى على شكل هلال، تبعتها سيدتها حسنة الملبس والمظهر، مما يؤكد أنه على الرغم من صغر سنها فإنها استطاعت التعامل مع هذا الظرف الصعب.

«يا لها من مفاجأة سعيدة، تفضلي بالدخول مدام إيفيت» (قالت ذلك مدام بانايوتيس بالفرنسية)، ثم تابعت «لا تنزعجي مما يحدث فهو أمر طبيعي»، لقد ساعدتها لغتها الفرنسية على الخروج دائمًا من المواقف المحرجة بطريقة رائعة وبكلمات راقية.

فى البداية شعرت إيفيت بنوع من الحرج، حيث بدا لها من المضحك أن تنادى نيهير باسم ماريانثى، وكانت على وشك أن تناديها لمرتين أو ثلاث باسم نيهير، غير أن المرأة الشابة كانت تصحح لها الاسم بشكلٍ طبيعى، تمامًا مثلما قدمت لها الشاى بدلاً من القهوة. كل ذلك جعل إيفيت تتساءل إذا ما كانت قد فهمت خطأ، فربما كانت قصة هذه المرأة التركية مختلقة من وحى خيال زوجها. وعلى الرغم من شعور مدام أرابيذيس بالراحة فى تعاملها مع شخصية ماريانثى، وكأنها كانت تجرب لعب دور سيدة من الإسكندرية فى أحد المنازل التى يتصارع فيها الطابع الشرقى مع الطابع الغربى للفوز بالإعجاب من خلال أثاث وديكور المكان، فقد كانت اللمسات الشرقية بالمنزل تخفف من وطأة الأثاث المصنوع من ماركة لوى سيز. كانت نيهير تتحدث الفرنسية بتكلف واضح، وهى ترفع فنجانها بين الحين والآخر وتقربه من شفتيها، مستمتعة بصوت ارتطام الفنجان بالطبق البورسليني. غير أن نظرتها كانت تحمل انعكاسًا زائفًا. وعلى حين غرة، أمسكت إيفيت بيدها وقالت:

«يمكنك أن تثقى بى، يا ماريانثى».

ماريانثى: «ولكنى أثق بك بالفعل، يا آنسة إيفيت. فأنت، على أية حال، تعرفين عني الكثير».

إيفيت: «يا فتاتى المسكينة، أنا على يقين من أنه يصعب على فتاة مثلك أن تغير فجأة الوطن والأهل».

– «ليس الأمر كذلك (قالتها بالفرنسية)، فأنا بكل صدق، أحب بانايوتيس وبوسعى أن أفعل أى شىء من أجله».

عندئذ تساءلت إيفيت محدثة نفسها "وهل هناك ما لم تفعليه حتى الآن؟"

– «لكن على أية حال، آنسة إيفيت، فقد كان الحب هو كل شىء بالنسبة لنا. سأخبرك الآن بأمر لا يعرفه بانايوتيس نفسه. إن والدتى على علم بكل ما يدور منذ وقت طويل. ولكنها لم تفضح أمرى أبداً. بل وسمحت لى بالرحيل معه»

– «ماذا تقولين؟ يا له من أمر مؤثر، لابد أن "ماما" (قالتها بالفرنسية) تحبك كثيراً».

– «لم يكن للحب دور فيما فعلته أمى من أجلى. فلدى شعور بأنها تخفى سراً ما. ففى مرات عديدة كانت تقول لى: "لا تترددى إذا ما اضطررت يوماً ما لفعل أى شىء من أجل الحب، حتى إذا وصل بك الأمر للاختيار بين حبك وبين إيمانك بالله"، تلك المرأة لم تكن تحب والدى قط. وكان ذلك أمراً معروفاً، حيث قام إخوتها بتزويجها من أبى لكى ترحل فى أسرع وقت من مدينة أيفالى وتنسى عشيقها. "الملعون"(قالتها بالفرنسية) الذى كان يعيش فى الجزيرة المقابلة والذى كان قد سلبها عقلها، ويبدو أن هذا الأمر كالميكروب المعدى فى الأسرة».

عندئذ أجابتها إيفيت بتأثر شديد: «ربما» ثم همست بداخلها " ماذا لو تعرف تلك الفتاة التركية أن المرأة، الفرنسية– السويسرية التى أمامها تعرف كل تفاصيل قصة الحب التى جمعت أمها بذلك العاشق "الملعون" بعد أن تصادف وأبلغها بذلك أحد أقربائه، وكان يصر على أن يروى لها تلك القصة فى كل مرة كان يجمعهما فراش.

"كم هو صغير هذا العالم بشكل ساحر!" هكذا تمتمت إيفيت، ثم أمسكت مرة أخرى بيد ماريانثى أو نيهير وهمست فى تأثر قائلة:

«أريد أن نصبح صديقتين حميمتين، يا عزيزتي ماريانثي».

أجابت المرأة الشابة بطريقة قاطعة: «وأنا أرغب في ذلك أيضًا، يا آنسة إيفيت».

* * * * *

«كيف تمنح هذه المدينة فرصًا فقط "للصعاليك"؟(قالتها بالفرنسية)» هكذا قالت السيدة خاراميس وهي تشعر بالمرارة، ثم ألقت بنفسها على إحدى أرائك لوي فيليب الموجودة في صالون المنزل الضخم، وقد أمسكت بيدها ذلك الخطاب الذي أرسله شقيقها لوكاس سينجوس، من إحدى قرى دلتا نهر النيل، طالبًا منها، بطريقة تبعث على الأسى، أن تمد له يد العون، حيث كتب لها: **«لا تبك على حالي وعلى الظروف التي أعانيها، لقد بدا لي الانتحار وكأنه الخروج المشرف من الحياة»**. وكان لوكاس قد انتقل إلى كفر الزيات منذ عدة أعوام، وأنفق كل ما لديه من مال لبناء معصرة للزيوت، ثم عقد اتفاقًا مع مزارعي القطن لإمداده بالبذور التي يحتاجها إنتاج زيت القطن. اعتمد لوكاس على هذا المشروع لإنقاذ ثروة أسرته، ولكن يبدو أن حساباته كانت خاطئة لأنه منذ ذلك الحين، وبعد وقت قصير، أصبح يرسل خطابات استغاثة يائسة إلى كل أصدقائه وأقاربه، طالبًا منهم المساعده المالية. وحتى نكون صادقين، فقد كان أندونيس الوحيد الذي ساعده من بين كل الذين أرسل لهم، ولكن إلى متى سيستمر ذلك؟

أيقنت ذافني أن أفضل طريقة للحصول على المال من زوجها هي: الانتظار حتى تتغير فصول السنة، حيث يقوم أندونيس بحياكة قمصانه وبذلاته الجديدة، فكانت تتحين الفرصة في إحدى البروفات التي كانت دائمًا ما ترهقه، لكي تحصل منه على وعد (بإمدادها بالمال). ويبدو أن أندونيس قد فطن لهذا الأمر بعد أن تمادت زوجته في هذا الطلب كثيرًا، ولعل ذلك كان سببًا في تجنبه لتلك البروفات، حتى كاد يصبح بلا ملابس جديدة، وعندئذ كانت تعاود الكرة لتعويض ما فات من الوقت. على أية حال، فقد كانت على دراية بأن الأمر برمته أصبح ثقيلاً بالنسبة لزوجها بشكل أو بآخر، حتى لو تمت البروفات في المنزل، فقد كان أندونيس يحتد بشدة على بيير، حائك الملابس الخاص به، بسبب حجر البنطلون الواسع، الذي أثار حفيظته لأنه يُدخل الكثير من الهواء في قمصانه الحرير، وعلى الرغم من ذلك فلم يقم أندونيس باستبداله أو استبدال

أنيستى الحائك الخاص بقمصانه، ذلك الرجل الذى استطاع أن ينقل فن الحياكة الخاص بالإخوة لازاريذيس من الشارع الكبير فى إسطنبول إلى الإسكندرية، وكان يعد أحد عباقرة حياكة القمصان الحريرية. كان ينبغى على ذافنى الوجود لكى تهدئ من روعه وتقوم بتقريب وجهات النظر بينه وبين الحائكين. وعلى العكس من ذلك، كان الجاكت الذى يقول عنه فى البروفة «إنه يجعلنى أبدو أرفع حجمًا، كيف أوضح لكِ الأمر، "إنها تعتصرنى"(قالها بالفرنسية)»، تبدو عليه مثل كيس البلاستيك، كما ستصبح دستة من القمصان بلا فائدة، إذا لم تقم ذافنى بإقناع أنيستى بالتروى قليلاً حتى يستطيع إقناعه بتليين الياقات وتوسيع الأكمام. أما أندونيس فكانت له طرق أخرى: حيث كان لا يمانع فى القيام بعمل البروفات الخاصة بالحلل أمام إحدى المرايا الضخمة الموجودة فى الطابق السفلى، أما بالنسبة القمصان فكان عنيداً، حيث كان يغلق الباب على نفسه، قبل اتخاذ القرار، ويقوم بعمل العديد من البروفات أمام المرآة الموجودة بغرفة النوم. وهكذا فمن يستطع تحمل كل هذا العناء، ستكون لديه القدرة على فهم السبب الذى من أجله يحتاج أندونيس ثلاثة أضعاف الوقت الذى يستغرقه الزبون العادى. ورغم ذلك فلم تفهم ذافنى لماذا كان أندونيس شديد التذمر من استغراق البروفات كل هذا الوقت. بعد كل ما عانته معه هذه المرة، فقد اعتبرت أن لامبالاته بمأساة لوكاس تعد نوعًا من الجحود.

– «أندونيس، لابد أن نفعل شيئًا من أجل لوكاس، إنه أخى».

تصرف أندونيس وكأنه لم يسمع شيئًا، وأخذ يصيح فى بيير:

«على رسلك يا بنى، كن رقيقًا، فسوف تخنقنى، ليس بهذا الضيق، هيا يا ذافنى، قولى له شيئًا».

– «أندونيس، يبدو الجاكت جيداً، بالنسبة للوكاس ماذا سنفعل؟».

– «ماذا تريدين أن نفعل؟ لقد أنقذت أخاكى العديد من المرات حتى إننى لا أذكر عددها، فلينقذه أعمامك ولو لمرة واحدة، هذا إذا كان لديهم إحساس» هكذا أجابها ثم عاد لينشغل بمشكلته قائلاً: «انتبه أين تضع هذه الدبابيس، سوف تقتلنى بوخزاتك».

- «أصبح الأمر مقلقًا بالنسبة لثروة العائلة»، قالت ذلك بصوت مرتفع وقد اختلط صوتها بصوت قرقعة الصحون البورسلين على الصينية التى تحملها الخادمة فوزية، قادمة من الحديقة حيث كانا قد تناولا وجبة الإفطار.

عند ذلك الحد تذمر أندونيس بسبب شدة اتساع «الجيليه» مما تسبب فى كرمشة الجاكت. ثم قال:

«أرجو أن تسدى لى صنيعًا أخيرًا، يا صغيرتى ذافنى، ثم عن أى ثروة عائلية تتحدثين؟ عندما تزوجتك تزوجت معك طاقمًا من الأكواب الزجاجية عديمة القيمة، وخادمة عديمة النفع لم أستطع أن أتخلص منها».

عندئذ حاولت ذافنى أن ترد له هذه الإساءة فقالت:

«ماذا نفعل، فالمدينة لا تمنح الفرصة إلا للصعاليك فقط (vagabonds)! (قالتها بالإنجليزية)».

- «قلت لك مرارًا وتكرارًا، عندما توجهى لى الإهانة عليك أن تفعلى ذلك بلغتنا اليونانية، فهذا يعطينى شعورًا أفضل، ثم ماذا تعنى كلمة (vagabonds)، ألا يوجد لها مقابل فى اللغة اليونانية؟».

- «لا أتذكرها الآن. يا عزيزى».

- «أرأيتِ، هذا ما كنت أقوله لكِ من قبل، ملليمتران أو ثلاثة أطول هو كل ما أردت. ما رأيك فى هذا؟».

- «ماذا عساى أن أفعل؟ (قالتها بالفرنسية)، ففى المنزل كانت الخادمات تتحدث معنا بالإنجليزية والفرنسية، وكانت كل الطبقات الراقية بالإسكندرية تتحدث بتلك اللغات».

فى تلك اللحظة، استدار أندونيس طالبًا من ذافنى طلبًا عجيبًا:

«حسنًا، أخبرينى فقط معنى هذه الكلمة وسوف أنفذ لكِ كل ما تطلبين، هذه الكلمة فقط، يا ذافنى، ولا تدعونى (vagabond)».

- «هذا أمـر سـخيف، أنت متعِب، تعلم ذلك بالطبع (قالت ذلك بالفرنسية)، ولكن يا سيدى، فى أيام ثرائنا .....».

قاطعها أندونيس قائلاً: «أعرف ذلك، ستتحدثين ثانية عن والدك الذى كان يركب عـربتكم الفـاخـرة، وأنت بجـواره طفلة غضـة صـغيـرة، ربما كـان عـمـرك ست سنوات. وكنتم تقطعون الشـوارع الإسفلتيـة. وكـان سـائق العـربة يرتدى قبـعة عـاليـة وحلة بـأزرار ذهبـيـة وبنطلونًا أبيض. ثم كـان هنـاك ذلك الرجل حـافى القـدمـين الذى كـان يجـرى أمـام العـربة وهـو يصـيـح مـرددًا اسم سـيـدة: كاليمـاخـوس سينجـوس، كاليمـاخـوس سينجـوس، إنه أمـر مؤثر جدًا. مثل ذلك الذى كُتِبَ فى إعلان زواجنا- فى جريدة تاخيذروموس (أى البوسطجى)- لقد حفظته عن ظهر قلب: " بكل فخر، تم مسـاء أمس (٢٨/١١/١٨٩٨) عقد قرآن الآنسة ذافنى سينجـوس ابنة الأسرة المحبوبة، سليلة عائلة تاجر القطن المعروف كاليماخوس سينجوس... إلخ إلخ". إذا كان هذا مؤثر فقد تأثرت».

- «حسنًا يا سيدى، وإذا أردت أن تعرف أكثر فقد كان منزلنا فى صلاح الدين أفضل منازل حى كارتييه (الحى اليونانى) بأكمله، " نخبـة النخبة كما يقولون" (قالتها بالفرنسية)».

كانت إشارة ذافنى الدائمة لمنزل العائلة فى صلاح الدين تجعل أندونيس يتساءل دائمًا: «أخبرينى بالله عليك، ولماذا إذن لم نذهب لنعيش هناك فى " نخبة النخبة " (قالها بالفرنسية)، لأن فيلتكم التى تتحدثين عنها بشكل مستمر، والتى نال مهندسها جائزة على تصميمها، كانت مرهونة أيتها المسكينة الصغيرة».

ذافنـــى: «لا تكن فظًا»، أجابته ذافنى (بالإنجليزية) وهى تكبح جماح غضبها تجاه أسلوبه المهين.

عندئذ صاح أندونيس متذمرًا، بارمًا شاربه من الغضب:

«باليونانية أرجوكى، تحدثى باليونانية!».

ذافنى: «ولكن يا عزيزى أندونيس، لوكاس،، أنت تعرف كم يحبك لوكاس».

أندونيس: «نعم أعرف، فهو يناديني دائما بـ "محمد على" فى صعودى، "محمد على" أثناء هبوطى».

كان لقب "محمد على" هو الكنية التى عُرف بها أندونيس خاراميس فى الإسكندرية منذ عام ١٨٨٠، حيث حضر صغيراً من مدينة كافالا، وأصبح بائعًا للسجائر والدخان يعلق صندوقه الصغير فى رقبته وعليه نقش للفارس محمد على. كان يتجول فى أحياء المنطقة اليونانية: من منطقة الجمارك القديمة حتى شارع النهضة ومن القبارى حتى اللبان ومن العطارين حتى باب سيدرا ومن ميسالا حتى الأزاريطة.

ذافنى :«يقوم لوكاس المسكين بمحاولات حثيثة فى السنوات الأخيرة حتى ينقذ ما تبقى، وينبغى أن نعترف جميعًا بذلك»، قالت ذلك، بينما كانت تساعده على خلع الجاكت الذى كان يقوم بعمل بروفته.

أندونيس:«مما لا شك فيه أن لوكاس شخص أحمق، فهو يتوسل للجميع، أقارب وأصدقاءً، باسم ثروة العائلة. هذا هو لوكاس الذى تدافعين عنه». قال ذلك وهو يخلع الجاكت الذى يرتديه ولم يبق سوى كُم واحد فقط فقام بالتخلص منه بحركة عنيفة، وعندئذ صاح بيير:

«يا سيد خاراميس، يجب أن نكمل بروفة الجاكت».

فأجابه :«أعطه لها لكى تجرِّبه، لقد سئمت منكما أنتما الاثنين».

رحل أندونيس بعد ذلك بخمس دقائق متوجهًا إلى عمله، وانسحب بيير ومساعده أملين أن تكون البروفة القادمة أفضل، فى حين بقيت ذافنى فى مكانها ولديها إحساس مرير بالإهانة، واحتاجت لوقت طويل حتى تستعيد حالتها الطبيعية واحترامها لذاتها. فى تلك الحالة، كانت رحلة قصيرة للماضى ضرورية حتى يعود كل شىء لحالته الطبيعية. كان باستطاعتها القيام بجولة فى أروقة المنزل، وهناك تظهر آثار الأتربة فى أركان المنزل غير المستخدمة وأعلى الأثاثات، وفى التجاويف الخشبية وعلى الإطارات الذهبية التى كانت تحيط بمرايا المنزل، وهى تلك الأماكن التى لم تكن أعين الشغالات

الناعسات تصل إليها. كل ذلك كان يمنحها الفرصة لكى تصب جام غضبها على كل من فوزية وفاطمة، وبالأخص فاطمة لأنها المسئولة عن نظافة المنزل، مما يساعدها على التخلص من عصبيتها. غير أنها لم تكن لديها الرغبة الآن فى ذلك، ولذلك فقد فضلت أن تغوص بجسدها فى الكرسى الوثير بالصالون وأن تسترجع ذكريات عطرة تعنى لها الكثير.

أخذت ذافنى تسترجع ذكرياتها، مثلما كانت تفعل دائمًا، بداية من حفل التخرج الراقص فى الحفل التنكرى عام ١٨٩٧، حيث رافقها أندونيس للرقص للمرة الأولى. ولكن ماذا عن حال الشاب أندونيس. فى ذلك الوقت، كان رجلاً شابًا قد تعدى الثلاثين من عمره، لم يكن بارعًا فى الرقص، وكانت المرة الأولى التى يشاركها شخص ليست له دراية بأبسط قواعد الرقص؛ والأكثر من ذلك أنه قد أعادها إلى المنزل قبل أن تدق الساعة الثانية عشرة مساءً بقليل. أما السبب فى ذلك فقد أوضحه لها بقوله: «إنه ليس من اللائق (قالها بالفرنسية) أن يتسبب فى تأخير زميلته فى "مدرسة كوراسيديس" عن المنزل»؛ ولكن ما الذى " كان يفكر فيه على أية حال؟ كانت ذافنى فة الرابعة والعشرين من عمرها: فتاة محبة للحياة، للمتعة، للرقص، ترغب فى تكوين صدقات، والوقوع فى براثن الحب. كانت اللحظات الوحيدة التى تشعر فيها بالسعادة هى تلك التى تقضيها مع الخادمات المصريات وهن يداعبنها، مداعبات غير بريئة فى بعض الأحيان، وأيضًا عندما تستمع إليهن وهن يروين مغامراتهن العاطفية مع رجالٍ مصريين بارعين، أو هكذا كانت تفهم بما كانت تعرفه من كلمات باللغة العربية. وعندما شب عودها بدأت تهتم بالبحث فى كل مكان عن هؤلاء الرجال ذوى القامة العالية والبشرة السمراء والشفاه الغليظة، لأنهم بالإضافة إلى ذلك يتمتعون بفحولة الرجال وعنفوانهم. ودائمًا ما كان ينتابها حلم بأنها يومًا ما ستتبادل مع أحدهم العشق والغرام بطريقة لم يكن لأحد من الأوربيين المترفين عهد بها. وذات مرة كاد أن يتحقق لها ما تمنت، عندما طبع مصطفى، ابن أحد الباشوات المصريين، وهو شاب يرتدى الزى الأوربى، "قبلة التخرج"- كما كانوا يسمونها فى ذلك الوقت - على شفتيها، ثم حاولت تتحسس جسده (*)، ولكن الأمور لم تسر على هواها.

بعد كل تلك المغامرات، سبب لها دخول الشاب أندونيس فى حياتها نوعًا من الإحباط، فلماذا تزوجته إذن؟ لأنها رأته بعيون أبيها، الذى كان أوشك على الإفلاس، وقال لها بعين الخبير: «هذا الشاب ينتظره مستقبل عظيم». أما ما كان يعيب أندونيس المسكين، فهو شدة غلظته وقلة رقته بشكل لم تكن تتمناه. كان أندونيس شابًا شعبيًا يهفو كثيراً للتعامل مع جسدها كما لو كانت عاهرة، ولكنه كان يخجل من أن يطلب منها ذلك؛ فى حين أنها لم تستطع هى أيضًا أن تمحو من ذاكرتها علاقاتها بالعرب مفتولى العضلات، مما كان يسبب لها حرجا وشعوراً بالذنب. وبدا الأمر وكأن ماضيها الذى عاشته كان مشينًا، وكأنها ما زالت تعيش فى الخطيئة. وهكذا فقد تجمد كل شىء بداخلها فى النهاية. وأخذت تنظر لعلاقاتها الزوجية نظرة المتفرج، مما جعلها تدرك أن كلاً منهما يسير فى اتجاه معاكس، وعندما تلتقى فى علاقة حميمية مع زوجها، كان كل منهما يغلق عينيه وكأنه يبحث فى مخيلته عن شخص آخر.

منذ ذلك الحين، نبذت كل ما كان يدور بخلدها من شهوات محرمة، وبدأت فى ترتيب حياتها لتتكيف مع الواقع الجديد، بدءًا بإصرارها على شراء ذلك القصر الذى يقيمون به من تاجر قد أشهر إفلاسه، وكان له أبناء كثيرون. رضخ أندونيس لطلبها، ولكنه أخذ يصيح قائلاً: «هل جننت؟ أخبرينى ماذا سنفعل نحن الاثنان بهذا القصر الفسيح؟».

أجابته دافنى: «سوف ننجب أطفالاً كثيرين»، لكنها لم تستطيع أن تنجب فى النهاية سوى طفلين. وما زال أندونيس يتذمر حتى الآن من رضوخه لطلبها ويردد باستمرار أنه سوف يبيع ذلك القصر. فالحى اليونانى، على أية حال، كاد يطبق على أنفاسه. أما هى فعندما كانت تسمعه يتهكم على سكان هذا الحى لأنهم يسيرون و"أنوفهم فى السماء"، فكانت تبتسم ساخرة وتحدث نفسها قائلة: «يا لك من حقير، يا أندونيس خاراميس، وضئيل، "هذا هو حجمك الحقيقى"(قالتها بالفرنسية)، ومع كل ما تمتلكه من مال ستظل حقيراً».

وعلى الرغم من وجهة نظرها تلك فى مكانة أندونيس، فإنها استطاعت أن تجد لنفسها مكانة إلى جانب ذلك الرجل الذى تزوجته دون أن تحبه، وأحيانًا ما كانت تشعر تجاهه بنوع من الامتنان، لأنه ببساطة يستطيع أن يوفر لأبنائها مستوى المعيشة الذى استطاع والدها أن يوفره لها فيما مضى .

* * * * *

لم تقم إيفيت هذا الصيف بالعديد من الزيارات لمنطقة سان ستيفانو سوى عندما كانت تشعر بوطأة الحر تسيطر على شقتها، مما كان يدفعها للبحث عن نسمة هواء على شواطئ الإسكندرية؛ عندئذ كانت تتوجه إلى كازينو سان ستيفانو - مكانها المفضل- مرتدية الملابس الخفيفة فاتحة اللون وقبعة من القش، مصطحبة معها فى حقيبتها "رداء الاستحمام"(دونها بالفرنسية)؛ وقد اعتادت أن تستقل الترام (ذكرها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) ذا الواجهة الحمراء من الأزاريطة، ثم تبدأ فى عد خمس عشرة محطة، واضعة فى اعتبارها أنها ستهبط فى المحطة التى تلى زيزينيا. وكم كان يستهويها أن تستقل الدرجة الأولى من الترام المكون من دورين، كما اعتادت أن تجد لنفسها مقعدًا فى الإمبيريال - وهو الدور العلوى من الترام - على أحد المقاعد المزودة بمساند متحركة للظهر، تلك المساند التى كانت تعطيك الحرية للجلوس بأى من الاتجاهين. وكانت تارة تسرح بعينيها فى الطريق وتارة أخرى ترقب محصل التذاكر المصرى بزيه البنى المزود بأزرار ذهبية وطربوشه، وهو يتجول فى الترام ذهابًا وإيابًا بين الركاب. وكان باستطاعتك، عندما يفتح الحقيبة الجلدية القديمة المعلقة على كتفه، أن تشاهد ما بداخلها من جيوب يضع بها التذاكر، مقسمة بعناية حسب الدرجة.

كان لكل ترام محصلو تذاكر مخصصون له، يعملون فى دوريات ثابتة، حتى إنك إذا ما أردت أن تلتقى نفس المحصل فى اليوم التالى فما عليك سوى ركوب الترام نفسه فى التوقيت نفسه. كانت الغالبية العظمى من هؤلاء المحصلين تتميز باليقظة، فلا يستطيع أى شخص أن يخدعهم ويركب بدون تذكرة. وفى الوقت نفسه كانوا يتعاملون

بحذر مع الصبية الذين كانوا يتعلقون بالباب الأمامي، لأنهم كانوا يتأهبون فى كل مرة يقترب منهم المحصل للقفز فى المحطة التالية، فى محاولة منهم للبقاء أطول مدة ممكنة فى الترام. أما المشهد الأسوأ فيخص بعض الشبان المصريين الذين يتعلقون بالترام من الخلف، وكان مشهداً مألوفًا اعتاد عليه محصلو التذاكر.

كانت إيفيت، وفقًا لحالتها المزاجية، إما تقلص رحلتها بالترام إلى سان ستيفانو وتهبط فى المحطة الثانية عشرة فى منطقة جليم، أو تزيد من عدد المحطات وتستمر حتى المحطة التاسعة عشر، حيث شاطئ سيدى بشر- ولم يحدث ذلك إلا نادرًا. أما الآن فلا مفر لها من الهبوط فى سان ستيفانو، فقد اهتمت، منذ ذلك اليوم الذى استقبلوا فيه الأختين روكسانى وذانائى فى الميناء، اهتمت أن تقيما فى "فندق وكازينو سان ستيفانو" (دونها بالفرنسية)، على الرغم من اعتراضات إلياس وتذمره من مصروفاته الباهظة؛ لأنها كانت ترى أن انطباعتهما الأولى عن الإسكندرية لابد أن تكون رائعة، على الرغم من وجهة نظر "اللبنانى" الذى يرى أنه ليس من الضرورى الاهتمام بهما إلى هذه الدرجة المبالغ فيها؛ ولكن كان عليه أن يدرك أن هاتين الفتاتين لم تكونا مجبرتين للحضور من أجل العمل فى مصلحة حكومية، فقد حضرتا إلى الإسكندرية بمحض إرادتهما، وهما على يقين بتحقيق وعودهم لهما، كل ذلك كان يشعر إيفيت بالمسئولية تجاه كل من روكسانى وذانائى. قسمت إيفيت وقتها طوال أسبوعين بين مصطفى باشا وبين سان ستيفانو، من أجل إعداد المنزل الذى سيشهد تنفيذ ما خططوا له، بشكل يناسب الحالة النفسية للفتاتين اللتين حضرتا لتقديم خدماتهما لعلية القوم بالإسكندرية. كان تفكير إلياس بسيطًا ولكنه عبقرى، فقد كان المجتمع الراقى بالإسكندرية فى حاجة إلى جو مميز: فالباشوات المصريون والضباط الإنجليز ورجال الأعمال الأجانب وكل من ينتمى لعلية القوم بالمدينة، سيكون باستطاعتهم جميعًا قضاء وقت ممتع فى أجواء خاصة وآمنة، مستمتعين بفاكهة المتعة المحرمة. فقد تم إعداد هذا " البيت المخصص لممارسة الرذيلة"(دونّها بالفرنسية) على أعلى مستوى، ليكون نواة لخلية تجسس صغيرة، وتمثل هاتان الفتاتان القادمتان من إسطنبول حجر الزاوية بالنسبة لهذه الخلية وهى تخطو خطواتها الأولى. حتى الزبائن المشاكسين فسوف

يجدون فى أحضان هاتين الفتاتين ما يبحثون عنه من متعة تروى الجسد وتحلق بالروح. ومن بين الاثنتين كانت روكسانى، التى تحمل ملامحها الطابع الأوربى الجميل، نحيفة القوام فاتحة البشرة، كانت تبدى قناعتها بالفكرة بشكل عام، كما كانت على يقين من أنها بطريقة أو بأخرى يمكنها استكمال ما كانت تقوم به بالفعل فى إسطنبول. وعلى العكس من ذلك، كانت ذانائى، ترى فى مسيرتها فى مقهى شانتان بإسطنبول نوعًا من المثالية، ولذلك فقد كانت دائمة التبرم من تغيير مسارهما، مما يعرض حياتهما للخطر وتدمير مستقبلها " كمغنية "(دونها بالفرنسية).

فى كل مرة تصل فيها إيفيت إلى سان ستيفانو، يشد انتباهها مدخل المنطقة الفسيح بأركانه المرتفعة التى تشبه فى تكوينها البرج. وكانت تزعجها حدة طبع ذانائى وردها بتثاقل على تحيتها، أثناء استلقائها على أحد مقاعد الشاطئ الخاص بالفندق، وهى تنظر شاردة إلى البحر. أما روكسانى فكانت تسعى جاهدة لإنقاذ الموقف وتذكر لإيفيت أنها تقضى وقتًا ممتعًا فى سان ستيفانو، وتعبر لها عن مدى شوقها لبداية حياة جديدة فى الإسكندرية؛ وعندما كانا يسبحان فى مياه البحر العميقة كانت تداعب إيفيت مداعبات ساخنة، وتسمح لها بتحسس جسدها الناعم الرشيق، وهى غارقة فى الضحك المزوج بنغمة أنثوية مرحة يتردد صداها فى سماء الإسكندرية التى كانت تلفظ الحرب مثلما كانت تلفظ أخلاقيات هؤلاء المواطنين الأوربيين المهينة .

بعد ذلك، يتناولون وجبة طعام دسمة فى نادى سان ستيفانو، حيث توصلت إيفيت إلى طريقة تمكنها دائمًا من تخطى قائمة انتظار الزبائن. كانت قائمة الطعام تحتوى على العديد من الأطباق الأوربية ومعها سلاطات الموسم والحلوى اللذيذة. وقد وجدت الفتاتان تسليتهما فى إغراء كل منهما للأخرى بما ستختاره من قائمة الطعام، وذلك بتغيير ما تطلبه فى آخر لحظة مرتين أو ثلاث مرات، وكأنهما يختبران صبر الجرسونات السودانيين ذوى القامة الطويلة والجلاليب البيضاء ذات النطاق الأحمر، والذين كانت عماماتهم البيضاء تجعلهم قريبى الشبه بالهنود. واستطاعت روكسانى أن تلمح تلك الخطوط الثلاثة فى وجنة كل منهم، والتى كانت تأخذ شكل رقم ١١١؛ ولذلك أطلقت عليهم

إيفيت لقب "جماعة المائة وأحد عشر" باليونانية، وأخذت تشرح للفتاتين علاقة هذه العلامة بالجنس الذى ينحدرون منه، فهم يحصلون على هذه العلامة منذ نعومة أظفارهم فى إطار الطقوس الدينية. وبالإضافة إلى هذا الجو المرح الذى اشتركن جميعًا فى خلقه، فقد أضفى المذاق الطيب للأطعمة والتناسق البديع فى أنواع الطعام المزيد من المتعة. قبل هذا اليوم كانت إيفيت تحدث الفتاتين عن حياتهما الجديدة بشكل مقتضب كلما سنحت لها الفرصة، أما اليوم فقررت أن تتحدث معهما بشكل أكثر تفصيلاً.

إيفيت: «حسنًا، يا فتياتى، سوف تنتقلان فى غضون أيام قليلة، ومن جهة أخرى، لن يكون الجو مهيأً لبقائكما أكثر من ذلك فى سان ستيفانو».

روكسانى: «ولكن الإقامة فى سان ستيفانو تطيب لنا يا إيفيت، قد لا تعلمين مدى إعجابنا بإمكانية الاستحمام فى البحر، ونحن فى نهاية شهر سبتمبر، "إنه أمر رائع" (قالتها بالفرنسية)!».

إيفيت: «نعم أعلم ذلك، يا عزيزتى (قالت ذلك بالفرنسية)، ولكن لا تدعى الطقس يخدعكما، ففى غضون أيام قليلة سوف يختفى هذا العالم الجميل، وستصبح مياه البحر باردة، وستخلو الشواطئ من المرتادين، وتخيم الوحدة على كل شىء».

ذانائى: «وبالنسبة لنا، ما الذى سيحدث؟» سألت عن ذلك، ثم ألقت بالشوكة من يدها بشكل مفاجئ.

إيفيت: «هذا ما أردت مناقشته معكما اليوم. فهناك منزل فى شارع مصطفى باشا يتم إعداده لكما، ويمكنكما الانتقال إليه فى غضون أيام قليلة. إنه واحد من أفضل المنازل فى الإسكندرية، يقع فى أفضل الأحياء على مقربة من وسط المدينة، عشر دقائق بالترام. من لا تتمنى أن يكون لها حظ مثل حظكما!».

ذانائى: «وماذا عن العمل فى الكباريه؟».

إيفيت: «هذا أمر يتولاه إلياس. نحن لا نريد أن نلقى بكما فى بيت من بيوت البغاء التى لا تتناسب مع مكانتكما».

ذانـــــائى: «ولكننا سنعمل أليس كذلك؟».

إيفـــيــت: «طـالما ترغبين فى ذلك بشدة، فـماذا عسـاى أن أقـول.على أية حـال أريديكما أن تعرفا أن المستقبل الذى نرسمه لكما ليس به ما يعكر الصفو».

روكسانى: «من ذا الذى يستطيع أن يؤمن لنا مستقبلاً هادئًا، خاصة فى مثل هذه الظروف؟»، ثم بدا عليها الحزن وهى تضع الطعام فى فمها بلا مبالاه.

سارعت إيفيت بتهدئتهما قائلة: «لا تشغلى بالك يا صغيرتى. هنا، الحرب تمثل لنا دائما عنصر القوة. ومن جهة أخرى، من المستحيل أن نتورط فى هذه الحرب. الشىء الوحيد الذى يمكننا عمله هو الاستفادة من هذا الصدام العالمى».

قـالت ذانائى بامتعاض: «إننى أتسـاءل، لأى جـهة سـوف تنحـاز والدتنا فى تلك الحرب».

تجنبت إيفيت أن تذكر أى تعليق يخص أمهما التركية. ولكنها قالت بشكل قاطع:

«أعدكما، يا فتياتى، بكل ما أملك، أنه لن ينقصكما أى شىء من الآن فصاعدا».

حولت إيفيت نظرها تجاه الشاطئ، حيث أصبح البحر هائجًا فجأة، وارتفعت الراية السوداء التى تشير لعدم السماح بالسباحة. وأصبحت الأمواج العالية تهدد طفلين إنجليزيين كانا يبنيان قلاعًا من الرمال على الشاطئ، فى حين كانت مربيتهما تسرع بجمع ألعابهما من مياه البحر.

دعت روكسانى إيفيت لحجرتهما بالفندق للحصول على قدر من الراحة، وسمحت لها بالاستلقاء بجوارها على السرير. كانت ذانائى ترمقهما بعين غير راضية لداعباتهما وملاطفاتهما؛ وفى الوقت الذى ودعتهما إيفيت وهمت بالرحيل، سمعت صوت ذانائى وهى تصيح فى أختها بالروسية بطريقة تنم عن توتر العلاقة بينهما.

وفى رحلة عودة إيفيت، كانت المحطة تعج بالبشر، ورغم ذلك استطاعت، بشىء من الحظ، أن تجد لنفسها مقعداً شاغراً فى الطابق العلوى للدرجة الأولى. كانت نوافذ

العربة مفتحة، ولذلك قطعت إيفيت الطريق بأكمله دون قبعتها، مستمتعة بالهواء المنعش الذى جعل شعرها يتطاير فى الهواء. وكانت تلامس شفتيها بين الحين والآخر بظهر يدها فتتذوق تلك الملوحة الجميلة التى يسببها رذاذ مياه البحر المتوسط. كان على إيفيت أن تشعر بالقلق ليس من مشاعر ذانائى الجافة تجاهها، ولكن من مشاعرها هى نفسها تجاه روكسانى الرقيقة الناعمة التى قادتها بلا شعور إلى عواقب مجهولة ووخيمة.

* * * * *

لم يبدأ العام الدراسى (١٩١٤-١٩١٥) بنتائج مبشرة للصغير كوستيس خاراميس، التلميذ بالصف الثانى الإعدادى بمدرسة أفيروفيوس الإعدادية، ولذلك فقد طلب معلم اللغة -الأستاذ يورغوس ميلارينوس- مقابلة محامى عائلة خاراميس، ستراتيس ميخيليس، لكى ينقل إلى عائلة التلميذ ملاحظاته شديدة القسوة (على مستواه المتدنى). وهكذا وجد ميخيليس فى تلك الدعوة - بصفته محامى العائلة - اتفاقا مع طبيعة العلاقة التى تربطه بعائلة خاراميس، سواء علاقة العمل أو صلة القرابة، وبادر بتلبية الدعوة الجادة.

تجاهل ميخيليس الأمطار الغزيرة التى بدأت بحلول شهر أكتوبر فى الإسكندرية، وحرص على دخول بوابة المدرسة فى الموعد المحدد وفقًا لما جاء بالدعوة. لو رآه أحد وهو يدخل المجمع المدرسى، عندما كان ينفض الماء عن الشمسية السوداء الكبيرة ذات اليد الخشبية، لظن أن فى الأمر خدعة، فالرجل ذو الشارب الحاد والعيون عسلية اللون لم تسقط نقطة ماء واحدة على ملابسه. قام ميخيليس، باعتباره زائرًا مهذبًا، بمسح حذائه فى دواسة الأقدام قبل الدخول. لم يكن أمرًا سهلاً أن يسلك طريقه داخل المبنى الضخم بأسقفه المرتفعة ونوافذه الشاهقة ورواقه الممتد الذى يحتوى على العديد من أبواب مغلقة. على الأرض، انتشرت المئات من آثار الأقدام التى كانت عاملة النظافة المصرية الممتلئة تكافح لمحوها بقطعة من القماش وهى تتمتم (نادبة حظها). فى نفس الوقت

كان العمل بالمدرسة يسير بشكل منتظم، ولم يشـأ ميـخيليس أن يحدث أى ضـوضـاء فكان يسير بخفة وهدوء - كلص يتسلل داخل المبنى - ثم قام بعمل كان يحب أن يفعله منذ كان صغيراً: وهو أن يتنقل بخطواته داخل المربعات المرسومة على الأراضى. ألقى ميـخيليس بالتحية على الساعى المصرى، الذى أسرع تجاهه ليحمل عنه الشمسية والمعطف، فسأله هامساً عن حجرة المدرسين بالمدرسة. أشار الساعى للسلم الرخامى الموجود فى نهاية الرواق والذى يؤدى إلى الطابق الأول. قـام ميـخيليس بضـبط رابطة عنقه، ثم أخذ نفساً عميقاً واستمر فى طريقه.

فى منتـصف السلم التـقى ميـخيليس طالبـين، ومـا إن شـاهـداه حـتى أسـرعـا بالاختفاء من أمامه، ولم يفهم ميخيليس السبب فى ذلك. ثم قطع الممر بمفرده حتى حـجرة المدرسين، وهناك وجد ميلارينوس يقوم بتـصـحـيح واجـبـات تلاميذه. كـان لميلارينوس مظهراً مضحكاً، فهو رجل فى الخمسين من عمره، له شارب غير مشذب، يندر وجود الشعر فى رأسه، أذناه بارزتان على جانبى رأسه، ذو نظره حادة. لم يكن ميخيليس فى حاجة لتقديم نفسه فقد فاجأه الأستاذ المتجهم قائلاً:

«ادخلوا وتفضلوا بالجلوس، سيد ميـخيليس، فشـهرتكم باعتباركم رجل قانون تسبقكم. لقد نما إلى علمى أخيراً أنكم من خريجى مدرسـة توسيتـسـيا. وهو أمـر يشرفنا على وجه الخصوص».

كـانت لدى ميـلارينوس رغبـة شـديدة فى أن يكون حـديثـهـمـا منذ البداية باللغة اليونانية الفصحى، ولم يكن هناك ما يدعو لرفض الشاى الذى قدمه له. أما عبارة «وهو أمـر يشـرفنـا على وجـه الخـصـوص» ، فكانت تعنى بوضـوح أنه يجب على المحـامى أن يضع فى اعتباره أن الأستاذ ميلارينوس، بكل تأكيد، عضو بجماعة كبيرة ينتمى إليها، فهو إما ماسونى أو مؤيد للملكية أو كلاهما معا.

دخل الأسـتـاذ ميلارينوس فى الموضـوع مبـاشرة، فـفـتح درج مكتبـه وأخرج منه قطعه من الورق، وبينما كان يتفحصها قال لميخيليس:

«أعلم أنكم تمثلون مصالح عائلة خاراميس وتربطكم صلات قرابه وعمل بهذه العائلة المعروفة بين أوساط الجالية اليونانية. لهذا السبب طلبت لقاءكم».

عندئذ أجابه ميخيليس، الذى انتفخت أوداجه طربًا بما سمع، قائلاً:

«الأمر كذلك، ويمكننى القول إننى محل ثقة العائلة. أخبرونى من فضلكم، يا سيدى، ما الأمر؟».

– «أفضل أن تقرأوا هذا النص المكتوب، ثم تخبرونى بانطباعكم، يا سيد ميخيليس. إن ما تقرأونه ماهو إلا اختبار خاص بالتلميذ قنسطنطينوس خاراميس أرجوكم أن تقرأوه بعناية، وأن تنقلوا لى ملاحظاتكم».

لم يكن ميخيليس فى حاجة للانتهاء من قراءة المقطع الأول لكى يكتشف تلك الأخطاء اللغوية الفادحة التى ارتكبها التلميذ الصغير كوستيس، فأسرع بالتعبير عن دهشته بطريقة درامية. ملقيًا بالاختبار من يده، ثم أخذ يهمهم قائلاً:

«ولكن، ولكن، لقد كتب هذا النص ب....... هل هذا معقول؟ لقد كتبه بالعامية!».

عندئذ أبرق ميلارينوس وأرعد قائلاً: «إنها فضيحة كبيرة، يا سيد ميخيليس، بل إنها من أكبر الفضائح!».

– «بكل صدق، لا أدرى ماذا أقول لكم، يا سيدى الفاضل، فأنا أشعر بالذهول!».

– «لديكم حق، سيد ميخيليس، لأننا فى اليونانية الفصحى لا نكتب كلمة "بوليس" ولكننا نكتبها "بوليوس"، وكذلك لا نكتب "فى كل حال" ولكن " على أية حال" وبكل تأكيد لا نكتب.........».

اشتدت نبرة الأستاذ ميلارينوس حدة، حتى كاد ميخيليس يعتقد أنه يصب جام غضبه عليه هو شخصيًا، لذلك أجابه ميخيليس بطريقة عفوية قائلاً: «سيدى الأستاذ، أعلم ذلك».

استطرد ميلارينوس حديثه قائلاً: «نحن لا نكتب مطلقًا عبارة " البحر ذو الموج المزبد"، أخبرونى بالله عليكم، ماذا تعنى "كلمة الموج المزبد"؟».

- «أين، أين يوجد هذا الإسفاف؟».

وبكل ثقة أجابه الأستاذ الذى كان يحفظ ما كتبه التلميذ الصغير عن ظهر قلب، بشكل يدعو للتأمل:

«أين يوجد ذلك؟ فى الصفحة الرابعة، الفقرة الثالثة».

ترك ميخيليس الاختبار فوق المكتب، ولكن الأستاذ ميلارينوس لم يجد أدنى حرج فى أن يربت بعنف على كتف ميخيليس، ثم استطرد قائلاً:

«لأننا أقلية فى بلدٍ أجنبى، نحن أبناء الإسكندر الأكبر، فماذا يتبقى لنا سوى الحفاظ على كل ما هو غالٍ ومقدس فى وطننا الأم: ديننا ولغتنا. أسألكم بوازع أخلاقى، ماذا يتبقى لنا اليوم، حيث نمجد الوطن، نمجد الملك....... اليوم يا سيد ميخيليس.....!».

«آه، يا عصفورى الصغير، أنت إذن واحد منا»، هكذا حدثت ميخيليس نفسه، وكان يستمع بإنصات، مطأطئ الرأس، غير أنه فى تلك اللحظة قرر أن يبدأ الهجوم كما لو كان محاميًا فى قاعة المحكمة، وسأله بصوت جهورى:

«وما المطلوب منى بالتحديد ، سيدى الأستاذ؟ كلى آذان صاغية».

تفاجأ الأستاذ ميلارينوس بهذا الموقف من ميخيليس، وأدرك أنه كان مبالغًا، فأجابه متململاً:

«ليس هناك شيء آخر سوى أن تنقلوا هذه الأخبار للعائلة. فقنسطنطينوس ذو عقل نابه، ومن الممكن أن يصبح متفوقًا فى دراسته» - ربما ذكر ميلارينوس الجملة الأخيرة على سبيل المزاح - «أليس من الظلم أن يحرمه هذا القصور الذى لا يذكر من النجاح؟ ولتسمعونى جيداً؛ فلو لم يكن ابنًا لخاراميس، لكنت قد فصلته فصلاً نهائيًا من المدرسة».

ابتسم ميخيليس وقال بثقة: «هيا يا سيدى ودعنا لا نقسو على هذا الطفل المتميز، وكما ذكرتم من قبل، فكل هذا بسبب نقطة ضعف ألمت به ومن الممكن فى النهاية علاجها وإصلاحها. ولهذا السبب يواظب كوستيس على الذهاب إلى المدرسة لكى يتعلم اللغة الصحيحة السليمة. " أليس كذلك؟ " (قالها بالفرنسية)».

اكتشف مدير المدرسة أنه قد فقد تماماً زمام النقاش أمام هذا المحامى المحنك، فحاول الدفاع عن وجهة نظره، غير أن ميخيليس لم يترك له فرصة للرد، وقال:

«هيا، هيا، سأقوم بطرح الأمر على والديه، وأنا على يقين من أنه سيتم لفت نظره واتخاذ الإجراء المناسب فى مثل هذه الحالات. كل شىء سيتم علاجه، وسترى النتيجة فى النهاية. فكلنا أبناء الإسكندر الأكبر، أولسنا كذلك؟».

ذكر ميخيليس ذلك دون أن يعنى بها القائد المقدونى، ولكنه كان يعنى الجالية اليونانية بالإسكندرية. وبإشارته "للإسكندر الأكبر" فقد لمح أو تخيل أنه قد لمح ابتسامة باهتة فى عيون المعلم المتحجرة: «حسنًا، فلأذهب إذن » هكذا أتم ميخيليس حديثه ثم شب على قدميه تأهبًا للرحيل بعد أن أمسك بقبعته.

– «لحظة واحدة، يا سيد ميخيليس، فالأمر ليس هينًا كما تظنون، فنقطة الضعف الصغيرة تلك، كما أطلقتم عليها بطريقتكم الساخرة مرتبطة بموقف أكثر عمومية فى حياة ذلك الصبى، وأعنى بذلك حياته خارج المدرسة. هل تعلموا أن البعض فى الحى الذى يعيش فيه يطلقون عليه لقب "صعلوك الحى اليونانى"؟».

– «وأين سمعتم ذلك؟» سأله ميخيليس وكأنه كان يقصد كيف يمكن لأحد المدرسين معرفة ما يقال وما لا يقال فى حى الأغنياء.

– «كل شىء تتم معرفته، يا سيد ميخيليس، رويداً رويداً من فضلك، وإلا سوف أضطر للتدخل وتوقيع عقاب صارم عليه، ولن أكون سعيداً بذلك، أؤكد لك ذلك،.... لكن...».

- «حسنًا حسنًا، سيدى الأستاذ، كل شىء سيتم إصلاحه» قال ذلك باقتضاب ثم استطرد قائلاً: «أرى أن المطر قد توقف، إنها إذن اللحظة المناسبة للرحيل، قلنا إن اسمكم ميلارينوس، أليس كذلك؟» هكذا سأله وكأن كل تلك المناقشة كانت بغرض إطلاعه على الأمر، ثم تهذيبه هو شخصياً.

* * * * *

مع بداية هطول الأمطار فى شهر أكتوبر، فكرت إيفيت أن تتريض حتى الأزاريطة ثم تستقل الترام، مفضلة النزول فى محطة الرمل القريبة من منزلها. وهناك كانت تجد ترام الإسكندرية المميز دائمًا ما ينتظرها، ذلك الترام الذى كان مزوداً بعربة ذات طابقين للدرجة الأولى ويجر من خلفه عربة واحدة كانوا يطلقون عليها "الأخ الأصغر"، وهو مشهد بدا لها مضحكًا فى أول مرة. وفى اللحظة التى همت فيها باستقلال الترام، سمعت صوت محصل التذاكر البدين وهو يصيح: «هنا محطة مصطفى باشا... هنا محطة سيدى بشر» وكأنه يذكرها بأنه لم يعد هناك داعٍ للنزول فى محطة سان ستيفانو طالما أن المنزل الفخم بشارع مصطفى باشا أصبح جاهزاً، وأن الفتاتين قد انتقلتا إليه بالفعل. أضافت إيفيت بعض الديكورات للمنزل، أما آخر قطع الأثاث التى تم نقلها بعربيات الكارو، فقد وصلت الآن وأصبحت جزءًا من الأثاث الضخم الذى سبق نقله.

كانت شقة مصطفى باشا تمثل لإيفيت لغزاً محيراً لم تستطع أن تفهمه حتى الآن. فقد جعلها إصرار إلياس على هذه المنطقة بالتحديد تعتقد أنه كان يخطط لذلك من قبل، وإلا فلماذا يتجنب دائمًا الإفصاح عن اسم مالك هذا المنزل؟ وعن قيمته الإيجارية؟ لم تكن إيفيت تدرى إذا ما كان ينبغى عليها الربط بين كل ذلك وبين الحضور القوى للجانب البريطانى وقائد المنطقة الإنجليزية والقنصل الجديد الذى يمثل قمة الهرم الحكومى. حاولت إيفيت أن تحل لغز مالك المنزل المجهول من خلال التعرف على الطراز المعمارى للمنزل وديكوراته، ولكن محاولتها زادت من حيراتها: فالملامح الجريئة للفن الحديث وأشكال نباتات الزينة والأصداف وجذور الأشجار والأفاريز

المصنوعة والفنون الجصية، تدعمها الألوان البرتقالية الفاتحة التى خلقت جواً من البهجة، يتناقض مع الطراز المحافظ للمبنى. أما استخدام الحجارة فى البناء بشكل بسيط والأعمدة المرتفعة والنوافذ التى تحمل النمط الفرنسى، كل ذلك كان شاهداً على رغبة المهندس الذى شيد هذا المبنى فى عدم الالتزام بالقواعد الصارمة للفن الكلاسيكى الحديث فى البناء. وهكذا كانت النتيجة فى النهاية بناءً يذكرك بالشذوذ؛ غير أن مفهوم هذه الهندسة المعمارية الحرة لن يصل بسهولة إلى عقل زائر المبنى .

أما بالنسبة لديكورات المنزل الداخلية فقد كانت الأمور أسوأ، حيث اتسمت بالعديد من التناقضات الفنية، من خلال مجموعة من قطع الأثاث المتنافرة التى أعطت انطباعًا بأن شخصًا ما قد تلاعب بقطع الأثاث وكذا بالسجاد والأباجورات والتحف واللوحات والمرايا وقام ببعثرتها دون أدنى تنسيق. أدركت إيفيت أن الشىء الوحيد الذى ينبغى أن تقوم به هو؛ تنظيم تلك الفوضى وإضافة قطع الأثاث اللازمة فقط لإبراز هوية المنزل الجديدة. ومن ناحية أخرى كان تصميم المنزل يتناسب بشكل كبير مع الغرض الذى سيستخدم فيه المنزل، وكأن من قام ببنائه كان على علم مسبق بهذا الغرض: حيث يتم الدخول إلى الطابق الأول من خلال ثلاثة سلالم داخلية منفصلة، يتجه المدخل الرئيسى نحو الشمال ويطل على البحر، أما المدخل الغربى، الذى كان يطل على أرض تخص المالك، فيؤدى إلى حديقة ذات أشجار وارفة يستطيع أى شخص من خلالها الدخول والخروج دون أن يراه أحد. ويؤدى هذا المدخل إلى الجناح الثالث للمنزل، حيث كانت التصميمات الهندسية أكثر جرأة مما كانت عليه فى الواجهة الأمامية للمنزل. كانت أجنحة المنزل الثلاثة المنفصلة تؤمن دخول وخروج زواره من الطبقة العليا فى هدوء، وهو ما يتناسب مع حياة ونشاط هاتين الفتاتين اللتين أصبح البغاء حرفتهما. ويرتكز هذا النشاط فى الأساس على العاملين داخل هذا المنزل الذين قام خورى باختيارهم بعناية شديدة. كان جعفر هو عين المكان الساهرة، ذلك العجوز النوبى الذى يتميز بالطول الفارع، والذى يذكرنا بجلبابه الأبيض ذى النطاق الأحمر وعمامته، وكذلك تلك الخطوط الثلاثة على وجنتيه، يذكرنا بنادلى كازينو سان ستيفانو.

أما مهمة العناية بالمنزل فقد أسندها خورى إلى امرأتين كانتا تحترفان مهنة البغاء فى الماضى فى شارع السبع بنات، وهما سهير المصرية وأنطوانيت، تلك الفتاة المسيحية التى تحمل الجنسية السورية - اللبنانية؛ كانت إيفيت تشاهدهما تقطعان السلم صعوداً وهبوطاً بجسميهما المترهل وقد ساورها الشك فى أن مهمتهما الأساسية هى إبلاغ إلياس بكل صغيرة وكبيرة تحدث بالمنزل.

لقد تغير موقف إلياس تجاهها بعد عودتها من رحلة إسطنبول. ففى كثير من الأحيان كان يتسم بالغموض، وأصبح يجيب عن تساؤلاتها بكلمات مقتضبة. كما دخل بينهما العديد من الشركاء المجهولين الذين كانت إيفيت تراهم لأول مرة. وإذا ما افترضنا أن فريد بشبيشى - ضابط الشرطة - بمثابة حائط الصد الذى سيحميهم من أى هجمات محتملة من قبل الشرطة المصرية، وأن الفارس القبرصى بيتروس ثيميستوكليس - القواد المعروف - هو من رشح لإلياس كلاً من سهير وأنطوانيت، فقد كان الدور الذى يؤديه ماسيمو- تاجر القبعات الإيطالى- غير مفهوم فى كل هذا الموضوع؛ وقد تبادر إلى ذهن إيفيت سؤال عن العلاقة التى يمكن أن تربط بين نشاط البغاء بتاجر قبعات شهير يملك محلاً فى شارع شريف، يرتاده زبائن من أبناء الطبقة الراقية بالإسكندرية. افترضت إيفيت أن ثلاثتهم، بالإضافة إلى إلياس، يمثلون فريقًا مميزًا للعب الورق، وفقًا لما ذكره خورى لها من قبل؛ " لبنانى وضابط شرطة مصرى وشخص قبرصى يعمل بالفروسية، ورجل أعمال إيطالى ".

كانت لإلياس قدراته الخاصة التى يستطيع من خلالها تجنيد الأصدقاء والمعارف للعمل فى مشاريعه، وقد قرر هذه المرة أن يمنح للعب الورق الدور الأكبر، تاركًا لإيفيت دوراً أقل أهمية على غير المعتاد. وعندما كانت تسأله لمعرفة إذا ما كان قد حدث شىء بينهما، كان خورى يجيبها بهدوء، راسماً على وجهه ابتسامة مصطنعة تعرفها إيفيت جيداً، مؤكداً لها أنه بذلك يحاول حمايتها. ولكن حمايتها ممن؟

بالتأكيد ليس من فريد، ضابط الشرطة البدين ذى الشارب الضخم والعيون الضيقة المتحجرة، الذى حياها باحترام جم عندما قابلته يومًا ما فى الطريق مرتديًا زيه

الصيفى والطربوش، ربما لانبهاره بسحر إيفيت الأوربى. وبالطبع ليس من ماسيمو، الإيطالى الوسيم الذى يبدو فى ملامحه عشيقًا لاتينيًا، والذى كان يداوم على اختيار عشيقة جديدة له فى كل مرة من بين المترددات على المحل. وقد اعتادت إيفيت التسوق من محله، وهناك تعرفت ذات مرة إلى زوجته اليونانية، ولكنها لم تكن تعرف أن تاجر القبعات يداوم على لعب الورق بشراهة مع إلياس. وإذا كان لابد أن تخاف أحداً فينبغى أن يكون بيتروس ثيميستوكليس، فهو رجل ينتمى للطبقة المتوسطة، قضى الحادث الذى أصابه فى حلبة السباق على مستقبله باعتباره فارسًا، والآن وهو فى الخامسة والثلاثون من عمره يبدو نحيفًا بجسده الضئيل، يعرج بشكل واضح فى مشيته بقدمه اليمنى. هذا المظهر الضئيل لم يمنعه من أن يصبح قواداً، أو أن يكون أكثر عنفًا مع النساء الضعيفات اللاتى لا يجد حماية. لكن لم يكن يجرؤ فى مجرد التفكير فى إلحاق الأذى بعشيقة أكبر تاجر دخان فى مصر. أين يكمن الخطر إذن الذى يهددها؟ كانت إيفيت على ثقة من أنه إذا لم تكن لدى خورى مشكلة شخصية معها، فإن ذلك يعنى أن لديه مشكلة مع المخابرات البريطانية.

فى حقيقة الأمر، فقد أصابت كل هذه السرية إيفيت بالإرهاق، وكان لديها استعداد للتخلى عن هذا الماخور فى مصطفى باشا. الشيء الوحيد الذى جعلها تتمسك بهذا المشروع هو وعد إلياس لها باقتسام الأرباح معًا، وبالطبع يشمل ذلك أيضًا نصيب روكسانى، التى كان لديها الرغبة فى توفير الحماية لها، مثلما كان خورى يحميها.

* * * * *

«اسمِك إذن جابى» قالت ذلك ذافنى خاراميس، وقد استدارت فى مواجهة تلك المرأة الشابة فارعة القوام بقبعتها المصنوعة من القش، التى تتدلى من أسفلها بعض خصلات شعرها الذهبى.

جابى: «نعم، يا سيدتى» قالت ذلك (بالإنجليزية) وبلهجة جعلت ذافنى تسألها مرة أخرى:

- «هل تحملين الجنسية الإنجليزية؟».

- «نعم ، بالطبع» (أجابتها بالإنجليزية).

- «لأنى طلبت مربية إنجليزية ولذلك ينبغى أن تكونى إنجليزية». قالت ذلك بإصرار، بينما أخذت تتطلع مرة أخرى لخطابات التزكية التى قدمتها جابى لها من قبل.

- «أفهم ذلك» (قالت ذلك بالإنجليزية).

- «وهل اسم جابى اختصار لاسم.... جابرييل؟».

- «بالضبط، جابرييل» (قالت ذلك بالإنجليزية).

نادت ذافنى على فوزية وطلبت منها إبلاغ ابنيها بسرعة الحضور. نزل الصبيان من السلم الرخامى الواسع، واتجهت جابى بنظرها تجاه االصبيين باهتمام شديد، بعد أن كانت تتفحص المكان فى انبهار بعظمة المكان ورفاهيته، وفكرت فى أنها سيكون لديها الوقت الكافى فيما بعد للتجول داخل المكان وتفحص حجرات المنزل حجرة حجرة وما تحتويه من أثاث. أما الآن فقد تسمرت فى مكانها، تحمل فى يدها حقيبتها، بعد أن نجحت فى اجتياز التحقيق المصغر الذى أدارته معها والولدة الطفلين.

«هؤلاء هم أبنائى» قالت ذلك ذافنى بنبرة عالية، ثم أشارت إلى الابن الأصغر ذى الملامح الجميلة وقالت: «هذا هو ماخوس، بنيامين، ولد متحضراً ». تقدم الصبى ذو العشر سنوات ووقف أمام جابى، ثم قام بحركة مضحكة من خلال ثنى ركبتيه لتحيتها. كان يشبه فى ردائه لورداً صغيراً، وكان يرتدى قبعة رفعها بيده تعبيراً عن الاحترام. دار بخلد جابى كم سيصبح هذا الصبى رجلاً وسيمًا عندما يكبر. غير أن ملامحه كانت قريبة الشبه بفتاه. بدا على الصبى الصغير بعض الخوف وأظهر اهتماماً كبيراً بحضور جابى. وعلى النقيض من ذلك كان شقيقه الأكبر الذى ظهر على السلم مرتدياً بنطالاً أزرق وقميص بحارة رفع أكمامه لأعلى ووقف بطريقة جعلته أشبه بالمتشردين، مستنداً على الدرابزين الذهبى. عند ذلك المشهد أسرعت الأم وأكملت:

«هذا هو كوستيس! "للأسف"(قالتها بالفرنسية)، ينبغى أن نجعل منه مواطنًا متحضراً. حيوا معى يا أبنائى،. كيف تحبين أن أدعوكى، يا فتاتى؟ أعتقد أن كلمة دادة ستكون بها بعض المبالغة وخاصة لهذا الفتى الكبير، ألا تعتقدين ذلك؟».

ابتسمت الفتاة والشابة لتلك الملاحظة المقنعة التى أبدتها الأم، لكنها فى نفس الوقت رمقت الفتى المتمرد فى ردائه الأزرق بنظرة حادة. ثم استكملت ذافنى حديثها قائلة:

«ربما تعتقدين أن مهمتك مع الابن الأكبر ستكون مهمة سهلة، "ولكنى أحذرك"(قالت ذلك بالإنجليزية). ما تشاهدينه أمامك هو صعلوك الحى اليونانى "سيئ السمعة"(قالتها بالإنجليزية)، إنه كوستيس خاراميس. لن يقتصر عملك على مجرد التحدث معه بالفرنسية وقبل ذلك بالإنجليزية. ولكن لابد أن نقوّمه بطريقه ما. ولذلك فقد فكرت أننا فى أمس الحاجة لاستقدام "آنسة"(قالتها بالفرنسية) شابة ونشطة، وأتمنى أن يكون قد جانبنى الصواب فى الاختيار».

- «لا تقلقى، يا سيدتى، فقد تعاملت مع حالات مشابهة بنجاح تام» قالت ذلك بعد أن غيرت من نبرة صوتها وجعلته أكثر حدة مغلفًا بلهجة تهديد تجاه الصبى الواقف على السلم.

- «فلنأمل ذلك، وكما ترين، فقد بدأ العام الدراسى وبالطبع ستترك التغييرات المستمرة للعاملين بالمنزل، إذا ما حدثت، أثرًا سيئًا على عامهم الدراسى».

- «سأبذل قصارى جهدى، يا سيدتى» (قالت ذلك بالإنجليزية).

- «حسنًا! سوف تصطحبك فوزية إذن إلى غرفتك، أما بقية الأمور " فسوف تأتى تباعًا "(قالت ذلك بالإنجليزية). يمكنك أن تبدئى عملك فوراً. ليس لدىّ ما أقوله أكثر من ذلك فى الوقت الحاضر. فأنا بانتظار وصول محامى العائلة بين لحظة وأخرى فى موضوع مهم».

كان ستراتيس ميخيليس يشعر فى كل مرة يذهب فيها إلى الحى اليونانى، وكأنه قد دخل إلى دهاليز هذا العالم المتحضر الذى أفرزته مدينة الإسكندرية منذ عشرات

السنين فى كل أرجاء البحر المتوسط، وقد تضافرت العديد من العناصر لتكوين هذا العالم المتحضر الذى يمثل العنصر البشرى منها العامل الأساسى. ذلك العنصر الذى عثر على المعنى الحقيقى فى روح الأمة، وفى تجاوز الحدود الفاصلة بين الشعوب وعاداتها وطريقة تفكيرها وأنشطتها - جوهر حياتها المتحضرة - وهو ما يظهر بكل عظمة فى جميع المنازل الأرستقراطية التى مر عليها فى طريقه. لم يكن ميخيليس بحاجة ليلهب خياله ويدخل به إلى العالم الداخلى لهذه المنازل؛ فأحدها، وهو الكائن فى شارع العباسيين، كان دائمًا فى انتظاره، فاتحًا له بوابته الحديدية الضخمة التى تشبه بوابة قصر الفرساى فى فرنسا.

عشر سنوات مرت على إقامة أندونيس وذافنى فى " هذه الفيلا التى تتكون من إحدى عشرة غرفة "، والتى كانت معروفة بأنها منزل التاجر اللبنانى- الفرنسى الكبير، الذى أنجب الكثير من الأبناء، ثم أشهر إفلاسه بشكل مفاجئ، بنفس السهولة التى يغتنى بها ويفتقر العديد من سكان هذه المدينة.

أول ما تقع عليه عيناك عند دخول هذه الفيلا هو ذلك الممر بأعمدته ذات الطراز الأيونى التى شيدها خاراميس بغرض التأكيد على الهوية اليونانية للمنزل. تمامًا مثلما فعل فى حواف النوافذ بالطابق الأول التى اتخذت لها شكل السهام؛ أما بالنسبة لبقية المنزل، فقد أبدا خاراميس احترامًا لواجهته وأبقى على الطراز المعمارى للحديقة الكبيرة والتماثيل الموجودة بها دون أدنى تدخل منه، كما أبقى على أشجار النخيل المزروعة فى المنتصف وعلى شجرتى "الأوكاليبتوس"[١] القريبتين من المنزل، ويقال إنهما من ذلك النوع الذى يساعد على طرد الناموس. وفى الحديقة الأمامية تتفتح زهور الياسمين والسوسن والأزاليا[٢] من الربيع إلى الخريف. أما شجرتا الأكاسيا فتحتلان موقعًا متميزًا وبدأتا فى نشر ظلالهما فى أرجاء الحديقة. كل هذا يدين بالفضل لمحمد

---

(١) أو تسمى أحيانًا شجرة "الكينا"، وهى شجرة تفرز الصمغ الأحمر برائحته النفاذة، كما يستخدم ورقها وزهرها فى العلاج الطبى (المراجع).

(٢) الأزاليا، نبات صحراوى (المراجع).

البستاني، وهو مصرى الجنسية، غريب الأطوار، متجهم الوجه، كان أندونيس قد اشتراه مع المنزل. اعتاد ميخيليس أثناء دخوله أن يلقى التحية على محمد بحرارة، ولكن محمد نادرًا ما كان يرد عليه التحية بنفس الحرارة، ليس أكثر من مجرد إيماءة برأسه يرد بها. وكان يجده دائمًا منهمكًا فى عمله فى أحد أركان الحديقة، فيما عدا أيام شهر رمضان التى كان محمد يقضى فيها فترة النهار داخل منزلة الصغير خلف الحديقة، يستلقى منهكًا من تأثير الصيام لساعات طويلة دون طعام أو شراب.

فى داخل الفيلا، لم يكن مالكها الأول يجرى أى تغيير يذكر بها. كما وجد أندونيس وذافنى أن الطراز الموجود بها كان مرضيًا، فتركا قاعة الاستقبال بالمنزل دون تغيير، مع الاكتفاء بوضع صالون من طراز حديث بها، حيث تترك المقاعد الوثيرة ذات المساند الضخمة دائمًا انطباعًا جيدًا. اقتصر التغيير على المدخل المؤدى للباب الأمامى الذى كان سقفه يتميز بالنقوش البارزة التى تضاهى فى جمالها نقوش قاعة الاستقبال، ولكن كان يصعب على الزائر العادى مشاهدتها. أما عن باقى المحتويات، فكانت الفيلا تحتوى على أثاث ضخم يتميز بالفخامة، كما هى الحال فى المنازل الراقية، واحتلت المائدة ذات الطراز الإمبراطورى مكانًا متميزًا، حيث اعتاد أن يجلس عليها علية القوم بالمدينة.

ظهر الذوق الرفيع لمالك المنزل السابق أيضًا فى استخدامه للزجاج الملون- وبخاصة باللون الأرجوانى- المثبت فوق السلم الداخلى والمرسوم عليه صور لأفروديت (ربة الجمال) وابنها الطفل إيروس (إله الحب عند الإغريق). كما كان هذا الزجاج منتشرًا أيضًا فى الدرابزين الذهبى لنفس السلم الذى كان يؤدى إلى غرفة النوم فى الطابق الأول، وإلى مكتب أندونيس وأيضًا إلى حجرة القراءة الخاصة بذافنى التى اعتادت مدام خاراميس أن تقضى بها بضع ساعات فى تصفح وقراءة التاريخ. لقد وجد أصحاب المنزل الحاليون أنه من الأيسر وجود كل الخدمات الخاصة بالمنزل فى البدروم: من غسيل وكى وطهو، وغرف الخدم، على أن يربطهم بالمنزل باب واحد فقط فى مكان غير ظاهر من الجهة الخلفية، والذى من خلاله، حسب تعبير ابنهم كوستيس

«كان إيقاع الحياة الحقيقية يدق كل يوم بظهور "اللبَّان والزبَّال وبائع الروبابيكيا"(قال ذلك باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية) - أى بائع اللبن وجامع القمامة وتاجر الأشياء القديمة- وغيرهم الكثيرون ممن كانوا يلعبون أدوارًا مهمة فى الحياة اليومية بالإسكندرية".

كان من يدخل منزل بيناكى - المجاور لهم - ويبدى إعجابه بروعة المنزل الذى يشبه المتحف الصغير لما يحتويه من مجوهرات وأسلحة وميداليات وتحف مصنوعة من البورسلين وأعمال مطرزة وأخرى منسوجة، يكتشف بالتأكيد مدى بساطة منزل ذافنى وأندونيس بين المنازل الراقية، لكن الذوق الرفيع الذى ورثته ذافنى عن أسرتها لم يذهب سدى، فلم ينقص المنزل السجاد البخارى، أو الفرش المصنوع من الجوبلان أو التحف المصنوعة من الكريستال أو الفضيات التى يمكن أن تراها فى أرقى البيوت. كما لم ينقص المنزل وجود بعض التحف الفنية النادرة التى كانت تلقى إعجاب أكثر محبى الأعمال الفنية تشددًا، مثل التمثالين الأصليين للفنان جوزيف أكريمبولدو- نحات أبسبورج - من القرن السادس عشر.

فى البداية، عندما سعت ذافنى لإقناع أندونيس بأنه ليس من الحماقة شراء مثل هذا المنزل الضخم، كانت دائمًا ما تهتم بمتلاء المنزل بالضيوف من خلال تنظيم كل ما يمكن أن تتخيله من: حفلات الشاى المسائية، المعارض، المحاضرات، حفلات الأوركسترا الموسيقية، حتى العروض التمثيلية، "حفلات شاى" (دونها بالإنجليزية)، حفلات ساهرة. وبعد خمس سنوات من وجودها باعتبارها سيدة مجتمع مشهورة بدأت فجأة فى الانعزال عن الناس، وأخيرًا حددت علاقاتها فى أصدقائها وصديقاتها القدامى.

مع البدايات الأولى لعام ١٩١٠، أصبح منزل خاراميس فارغًا (من كل تلك الأنشطة الاجتماعية)، فبدا أكثر اتساعًا بشكلٍ مخيف عما كان عليه من قبل. الأصوات العالية، الضحكات، الموسيقى، حتى المداعبات، كلها أصبحت أصوات من الماضى القريب مازال صداها يتردد فى الحجرات الفارغة التى حاول الصبيان ماخوس وكوستيس، بلا جدوى، ملء جنباتها بأصواتهما ومشاكساتهما. وكلما كبرت

سنهما كلما ازداد استمتاعهما بالمنزل الضخم؛ وكانت ذافنى قد وعدت من قبل بأنها ستملؤه بالمزيد والمزيد من الأطفال. إلا أن الولادة المتعسرة التى تعرضت لها عند ولادة الابن الأصغر ماخوس والسلوك العدوانى للابن الأكبر كوستيس، أصابتها بالخوف مما جعلها لا تفكر فى هذا الأمر مرة أخرى. وبمجرد أن أتم كوستيس عامه الرابع عشر، بدأت أمه تحن لتلك السنوات التى كان أسوأ ما يمكن أن يقوم به كوستيس من سلوك هو تسلق أشجار الحديقة، أو مضايقة أخيه الصغير أو القيام بالتزحلق على درابزين السلم أو أن تعود به المربية للمنزل مصاباً فى ركبتيه، ممزق الثياب من كثرة لعبه فى الشوارع أو فى فناء منزل من منازل الجيران. ومنذ أمد بعيد، ألصق به شخص ما لقب "صعلوك الحى اليونانى"، ومنذ ذلك الحين بدا وكأن هذا الصبى الشقى يسعى للحفاظ على هذا اللقب، فلا يكاد لا يخرج من فضيحة حتى يدخل فى غيرها.

وكأن ذلك لم يكن كافياً، فمنذ عامين بدأت غريزة الرجولة تتحرك داخل الصبى الصغير، فبدأ يتحرش بالخادمات، مما اضطر ذافنى فى فترة زمنية وجيزة لتغيير العديد من االفتيات المصريات العاملات فى المنزل. وكم كانت خائفة من أن تؤدى حماقات كوستيس إلى وقوعه يوماً ما فى المشاكل. كانت ذافنى تحيط أندونيس باستمرار بكل ما يحدث، إلا أنه لم يعر الأمر اهتماماً. كانت تطلب منه أن يبث الخوف - باعتباره أباً - فى نفس الفتى، إلا أن الشيء الوحيد الذى كان أندونيس يقوم به فهو الصياح فى ابنه أمامها، لكى يعطيها الانطباع بأنه يؤدبه، قائلاً: «هذا لن يجدى نفعاً». يا له من تهديد، كان أندونيس يبتسم من أسفل شاربه، أما الصبى الصغير، الذى كان على دراية بما يفعله أبوه، فكان يطأطئ الرأس ثم يبتسم متجاوباً معه فى المؤامرة. كانت بين الأب والابن شفرة اتصال خاصة بهما يستخدمانها عندما تبالغ ذافنى فى انفعالها، وكانت تسمع من زوجها إجابته المعهودة: «إنك لا تقومين بتربية فتيات يا ذافنى».

وسط كل تلك المشاكل التى يسببها لها كوستيس، حضر ابن عمها ميخيليس ليضيف لها مشكلة أخرى. استقبلته ذافنى بشعرها المنسدل وهى ترتدى ملابس النوم

الشفافة التى تكشف أكثر مما تخفى. بتلك الحميمية التى بدأ ميخيليس يسىء فهمها منذ زمن بعيد حتى أصبح رويداً رويداً أكثر جرأة بالتلفظ بكلمات ملتوية، تلك الكلمات التى كانت ابنة عمه ذافنى تتظاهر بعدم فهمها. كان اهتمامها ينصب على تقديم الشاى فى فناجين يدوية الصنع من البورسلين، أما الحلوى ففى أطباق من الكريستال من ماركة لاليك. بدأت ذافنى حديثها قائلة:

«كيف تسير الأمور أثناء الحرب، "يا بن العم"؟ (قالتها بالفرنسية)». لم تلق ذافنى بسؤالها لأنها تهتم فى واقع الأمر بهذه الحرب التى لم يكن هناك أى احتمال بأن تلقى بظلاها على الإسكندرية، ولكن كل ما فى الأمر أنها قد أصيبت بولع بقصة الحرب وكل ما له علاقة بها. كانت ذافنى من أولئك النساء اللاتى يستقين معلوماتهن من المحافل العامة ويستمعن بشغف لكل من يشبع لديهن هذه الرغبة. وكذلك فقد كانت على دراية كافية بكل شىء يتعلق بتاريخ مصر والإسكندرية وكانت تحفظ بشكلٍ مرتب الأسماء والعصور والأحداث، كما كانت لديها القدرة أيضاً على استرجاع وسرد أية معلومة فى سهولة ويسر، متأثرة بشدة بفكرة أنها تعيش الآن فى حقبة زمنية أوشكت فيها حرب عالمية على الوقوع، وأن هناك من سيعيدون كتابة التاريخ.

ميخيليس: «إنها أمور أنت على دراية بها بشكلٍ أفضل منى، يا ابنة العم» هكذا أجابها ميخيليس، تاركًا قطعة البسكويت تذوب ببطءٍ فى فمه؛ فقد كان سعيداً بأن ذافنى فى الحقيقة لم تكن تخفى عنه جمالها خلف طبقات من الملابس الثقيلة التى اعتادت النساء ارتداءها فى ذلك العصر. فكان يرى من ملابسها الخفيفة ما يثلج فؤاده ومن فتحات الملابس ما يجعله يسرح بخياله (*) لم تكن ذافنى أبداً فتاة جميلة، فهى قصيرة وممتلئة، ذات عينين صغيرتين وأنف مضحك؛ وقد أظهرت منذ أن بلغت الأربعين من عمرها نشاطاً ملحوظاً. لقد فقدت الكثير من طبيعتها الأنثوية التى تسربت مع وجود العديد من المشاكل فى علاقاتها اليومية، فطغت تلك المشاكل على ابتساماتها غير المسبوقة وعلى مرحها، وتزايدت الفجوات بينها وبين خاراميس مما أدى إلى فتور العلاقة الزوجية بينهما. وكان ميخيليس على دراية بذلك، وكانت دائماً

ما تطارده فكرة، أنه ربما يستطيع أن يسد تلك الفجوات فى يوم من الأيام. وعندما سألته ذافنى عن السبب الذى دعاه لزيارتها دخل بشكل مباشر فى الموضوع قائلاً:

- «إنه كوستيس الصغير، يا عزيزتى ذافنى».

- «ما الذى فعله كوستيس هذه المرة؟» ألقت ذافنى بسؤالها وكأنها لم تصدق أن طفلها المدلل يمكن أن يكون قد ارتكب شيئًا أسوأ مما ارتكبه حتى الآن. عندئذ أكمل ميخيليس حديثه فى صيغة المتكلم الجمع:

- «أخشى أن لدينا مشكلة فى المدرسة».

- «ماذا يعنى هذا الكلام؟» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «هذا يعنى (قالتها بالفرنسية) أن الصغير قرر أن يدمر نظام التعليم الخاص بالجالية اليونانية».

ربما حاول ميخيليس نفسه فى اليوم السابق أن يقلل من شأن هذه المشكلة أمام مديرالمدرسة، أما الآن فعليه أن ينقلها لذافنى باعتبارها حدثًا بالغ الخطورة، للتأكيد على الدور الذى يلعبه فيما يخص المسائل العائلية. ثم استكمل حديثه قائلاً:

- «سأقول لك شيئًا واحدًا: "البحر المزبد"» قالها بنفس اللغة الركيكة التى كتبها بها الصبى من قبل.

- «عفوًا!» (قالتها بالفرنسية ودونها بحروف يونانية).

- «نعم، يا عزيزتى ذافنى، "البحر المزبد"، لقد قرأتها بعين رأسى فى موضوع تعبير بالمرحلة الابتدائية. موضوع سيئ للغاية؛ المدرسون لا يدرون ماذا يفعلون مع هذا الولد، حتى بلغ بهم الأمر إلى التهديد بالفصل من المدرسة».

- «الفصل؟».

- «نعم، الفصل من المدرسة».

- «الفصل من المدرسة؟».

- «آه، يا عـزيزتى دافنى، لقـد فكرت منذ زمن مـضـى أن أقـول لك أليس من الأفضل أن يذهب كوستيس إلى مدرسة داخلية لفترة من الوقت؟ لو لم تكن الحرب، لاقترحت عليك إرساله إلى مكان ما بأوربا: إنجلترا، فرنسا.. لكن حتى فى مصر هناك بلاشك العديد من المدارس الخاصة الراقية التى قد تستطيع تقويم هذا المشاكس الصغير بها. لابد أن تناقشى الأمر مع أندونيس».

- «البحر المزبد إذن، والفصل من المدرسة !» قالت دافنى ذلك بصوت عالٍ، وفى تلك اللحظة وصل إلى أسماعهما صوت لطمة قوية تشبة الصفعة على الوجه، استأذنت دافنى وتوجهت صوب السلم ونادت:

«كوستيس، ماخوس ، هدوء». انعكس صوتها فى فراغ السقف العالى ووصل بالتأكيد حتى غرفتهما، ولكنها لم تتلق إجابة. وخيم صمت القبور على أرجاء الطابق الأول

* * * * *

«هل أصابك مس من الجنون أم ماذا؟ (قال ذلك بالفرنسية) تعلمين أن حضورك إلى هنا فى وقت متأخر من الليل ضرب من الجنون، العجوز يشكو منك دائمًا. أترغبين فى أن نتعرض للمتاعب بلا داعٍ؟».

هكذا صاح إلياس فى إيفيت عندما رآها تدخل عليه المنزل، تفوح منها رائحة عطر"المرأة الجميلة"(دونّها بالفرنسية) المميز فى شقته فى الساعة الثالثة صباحًا، مما أصابه بنوع من الصدمة. أما هى فلم تفكر فى مفاجأة أخف وطأة من تلك. ففى مدخل العمارة أوشكت على الاصطدام بالكرش الكبير لضابط الشرطة فريد الذى كان يهم بالخروج فى تلك اللحظة ويستعد لركوب سيارة الشرطة. نحى ضابط الشرطة ذو القامة الفارهة جانبًا لتمر من أمامه، ثم أمر "البواب"(ذكرها باللغة العربية ودونّها بحروف

يونانية) الذى كان يغالبه النوم بمرافقتها حتى الدور العلوى. استغرقت إيفيت دقائق قليلة حتى استفاقت من هذا المشهد الذى رأته عندما دخلت "مقر إقامة" (دوّنها بالفرنسية) خورى، هذا المتحف الصغير الأنيق، حيث تناولت طعام العشاء تارة مع إلياس وتارة أخرى مع خاراميس (كان "اللبنانى" قد بدأ يطلق بشكل مفاجئ لقب "العجوز" على خاراميس، وبدا واضحًا أنه فعل ذلك بدافع من غيرته الحمقاء منه).
شاهدت إيفيت " مقر إقامة " خورى وقد تحول إلى صالة للقمار تضم مجموعة كبيرة من لاعبى الورق، الذين شرعوا فى مغادرة أماكنهم حول المائدة الكبيرة الواحد تلو الآخر. تملك إيفيت الشعور بأن هؤلاء الأشخاص تسببوا بسلوكهم فى إهانة الطابع الراقى للمنزل بشكلٍ صارخ؛ لقد رحلوا جميعًا مخلفين وراءهم رائحتهم، وأنفاسهم التى تفوح منها رائحة الخمر، مصحوبة بمزيج من دخان السجائر والنارجيلة. وفوق المائدة الكبيرة، كانت علب السجائر الفارغة وأكواب الكونياك وفيش القمار وأوراق اللعب المتناثرة والطفايات المملوءة بأعقاب السجائر هى كل ما بقى منهم. شاهدت إيفيت كل هذه القذارة، شاهدت ثيميستوكليس مستلقيًا على أريكتها المفضلة من طراز لوى فيليب، وقد اتسخ نسيجها المطرز بالذهب، فأحست بأن نبضات قلبها تتزايد من شدة الألم بعد أن شاهدته يداعب طائرًا صغيرًا بشكل مبتذل، ممسكًا بيده الأخرى النارجيلة. أما ماسيمو – تاجر القبعات – فكان يجلس على المائدة مداعبًا أوراق اللعب التى مرت بين أصابع الكثيرين، وقد تسبب العرق فى التصاقها بعضها بعضًا. وفى الجهة المقابلة له، جلس شخصان مجهولان بالنسبة لها. الأول لابد أنه رجل المال اليهودى، المرشح لأن يصبح زبونًا للمنزل الكائن بشارع مصطفى باشا، وكان إلياس قد حدثها عنه كثيرًا. كان هذا الرجل يحصى بعصبية بعض أوراق النقود المتجعدة بيديه النحيفتين، تحت بصر شاب آخر تصلبت ياقة قميصه حول رقبته بشكلٍ مضحك، أما شاربه الضخم فوق وجهه الناعم كالقطن، فيبدو وكأنه شارب مستعار. تكون لدى إيفيت انطباع مفاده: أن كل هؤلاء الرجال كانوا يتصارعون طوال الليل من أجل لا شىء. مثل بعض الشباب الذين قرروا أن يتخلوا لبعض الوقت عن أخلاقياتهم فى الطريق، وربما يتشاجرون لساعات وساعات دون أن يصابوا أو يوجهوا لبعضهم بعضًا

لكمات مؤثرة. وهنا تبادر بذهن إيفيت سؤال: لماذا يجلس شخص على امتداد ساعات الليل بلا فائدة، إلا إذا كانت المسألة متعلقة بخسارة أو كسب ثروة كبيرة من المال.

كان أكثر المشاهد كآبة هو منظر خورى: أشعث، برباط عنق غير معقودة وياقة قميص مجعدة، يضع فى فمه سيجارة أسرع بإخراجها من فمه وإطفائها. لقد شاهدته لمرات عديدة فى أندية كثيرة فى الإسكندرية أو فى باريس أو فى بيروت، لاعبًا بالورق أو مشاركًا فى رهان، لكنه دائمًا ما كان يحافظ على وقارة وكياسته، نموذج للرجل الذى يعيش من أجل " المتعة "(دونّها بالفرنسية)؛ أما من يقف أمامها الآن فهو شخص مختلف: بعصبيته، واندفاعه بغضب نحوها، حتى إنه ضغط بقوة على معصمها مما جعلها تتألم بشدة، قائلة:

إيفيت: «اتركنى» هكذا صاحت فيه (بالفرنسية) وأبعدت يده عنها.

إلياس: «أرجو أن يكون لديك سبب مقنع لزيارتك فى هذا الوقت المتأخر من الليل» قال ذلك، بينما كانت أنفاسه تفوح برائحة الكونياك ورائحة دخان السجائر الذى كان يضايقها. كانت تلك هى المرة الأولى التى يعاملها بهذه الطريقة، ولذلك لم تستطع إيفيت أن تتمالك نفسها وصفعته صفعة قوية على وجهه. أما هو فقد تحسس وجنته براحة يده، كما لو كان سيمحو آثار أصابعها، هز رأسه برهة من الوقت، ثم ابتسم قائلاً:

«سامحينى، فحضورك هنا الآن يعنى حدوث أمر جلل، ولا أدرى ما الذى أصابنى الليلة ».

رفعت إيفيت يدها مرة أخرى، ولكنها رفعتها هذه المرة لكى تداعب شعره بدلال، وقالت:

- «بالفعل هناك أمرجلل (قالت ذلك بالفرنسية)، يا إلياس، فقد حاولت ذانائى الانتحار».

- «حاولت الانتحار! إنه أمر غاية فى الخطورة».

- «حاولت قطع شرايينها. ولكننا استطعنا إنقاذها في آخر لحظة، وبهذا التصرف كانت ستقلب علينا كل ما خططنا له، كما تعلم».

- «أتمزحين؟ إنه الدمار بعينه. أتعتقدين أن بإمكاننا الوثوق بها بعد الآن؟».

- «لابد أن نأخذ حذرنا. لكنى أعتقد أن بإمكاننا الوثوق بها. فالفتاة الصغيرة حملت سِفاحًا، هذا كل ما فى الأمر. ربما كانت على علم بذلك قبل مغادرتها إسطنبول مع شقيقتها، ثم حضرت لتقيم هنا، فى بلد غريب عليها، بلا زوج، بلا أهل. بالطبع أنت تعرف كيف تسير الأمور فى مثل هذه الحالة. لقد ناقشت الأمر مع شقيقتها، غير أنها هى الأخرى تشعر بالإحباط».

- «ربما ينبغى علينا إعادة التفكير فى عملهما معنا، ما رأيك؟».

- «سؤال غير قابل للنقاش (قالت ذلك بالفرنسية)، فالفتاتان حضرتا إلى هنا بتشجيع منى، ولن أتخلى عنهما على الإطلاق».

- «لعلك تدركين حجم المسئولية».

- «بالقطع، فكل ما يلزمنا الآن هو "قابلة"[٣]، ماهرة، على أن تكون حافظة للسر».

- «إتركى لى هذا الأمر. أهناك شىء آخر يمكن عمله الليلة؟».

- «كنت أحسب أننى، فى أسوأ الحالات، سأضطر لانتزاعك من أحضان إحدى الفاتنات. ولم أتوقع مثل هذا المشهد المزرى. أرى أن أفضل ما يمكن أن تفعله الآن هو الانتظار حتى يرحل أصدقاؤك، ثم تأخذ قسطًا من الراحة والنوم، فغداً لدينا يوم شاق».

- «لكن، ينبغى أن يعيدك أحد للمنزل».

---

(٣) القابلة، هى تلك المرأة التى كانت تساعد النساء فى عملية الولادة، قبل أن يحل مكانها الطبيب (المراجع).

- «لا تشغل بالك، فأنا لا أفكر فى العودة الآن إلى منزل شارع السلطان حسين. فسوف يكون دربًا من الجنون لو فعلت ذلك فى هذه الساعة المتأخرة من الليل. ينتظرنى الآن سائق الحنطور بالخارج، وسوف أبيت الليلة فى منزل شارع مصطفى باشا، فليس من الحكمة أن أترك الفتاتين بمفردهما. "تصبح على خير" (قالت ذلك بالفرنسية)».

* * * * *

عندما أخبرت ذافنى أندونيس بالعمل البطولى الجديد الذى قام به كوستيس، كانت تتوقع أن تجد، هذه المرة على الأقل، مساندة من زوجها، لكن أندونيس صب جام غضبه على ابن عمها قائلاً:

«أخبرينى، ومن يكن ميخيليس؟ بأى حق يعرض علينا أن نضع كوستيس بمدرسة داخلية؟ إن ابنى سوف يكبران بجانبنا، بالقرب منا. ولا أريد أن أسمع مثل هذه الحماقات مرة أخرى من ابن عمك. وسوف أستدعيه لأسمعه ذلك بنفسى».

فى وقت سابق، كان كل من ستراتيس وذافنى قد قررا أن يُسمِعا كل ذلك للشخص الذى يعتبرانه المسئول الأول عن " تدهور مستوى" كوستيس: وهو ثاناسيس، "بقال منطقة السيوف".

ذلك هو ثاناسيس، الذى كانت قصة هروبه مثار حديث دائم على لسان خاراميس فى كل مرة يقترب فيها من عشيقته. كان ثاناسيس على صلة قرابة من بعيد ليس فقط بذافنى ولكن أيضًا بستراتيس؛ وكانت لأبناء العم حسابات لم يتم حسمها بعد بخصوص قضية الصراع بين مؤيدى فينيزيلوس ومؤيدى الملك، ذلك الصراع الذى تأجج بين أعضاء الجالية اليونانية فى مصر خلال العامين الأخيرين، وكلما التقى ابنا العم فى جلسات رابطة " أيسخيلوس- أريس"، كانا يتبادلان عبارات التهديد والوعيد. لكن على الرغم من كل ذلك، فقد أظهر ثاناسيس منذ بضعة أشهر مضت سموًا فى شخصيته عندما قام، بوصفه عضوًا أساسيًا فى "اتحاد محبى الحرية بالإسكندرية"

بمعارضة قرار نفى ميخيليس، الذى كان اسمه يتصدر قائمة المعارضين للملكية. وقد شعر ستراتيس بالحرج تجاه شهامة ابن العم، ولذلك فقد حرص على إخفاء ما بينهما من كراهية تحت قناع الإمتنان، وكان عازمًا على أن يستغل أول فرصة لكى يصلح ما بينهما . أما ذافنى، فمن جانبها، كان لديها من الأسباب ما يبرر كراهيتها لابن عمها "البقال"، مثل أسلوبه المتغطرس فى السخرية من ملابسها وهى فى مرحلة الدراسة، كما كانت تشعر بجرح فى كبريائها عندما تتذكر كيف أنه يومًا ما كانت لعائلته اليد العليا اجتماعيًا وماديًا فى جزيرة ميتيلينى .

على أية حال، فقد اضطر ثاناسيس نفسه أن يبدأ فى الإسكندرية يومًا ما من الصفر، فقام بافتتاح محل للخردوات، وكان يعرض إلى جانبها بعض البضائع والمنتجات التى كان يجلبها معه من جزيرة ميتيليني. كان العمل يسير على نحو طيب، ثم تزوج من ماريا، وهى من جزيرة سيمى. تلك الفتاة حسنة العشرة، التى منحته حياة أسرية هادئة وأنجبت له ثلاثة أطفال: نيكولاس وأوليمبيا ونيكيتاس.

كان ثاناسيس، فى بعض الأحيان، يتعرض أثناء نومه للكوابيس، وعندئذ يبدأ فى الصراخ ثم يتصبب منه العرق الغزير حتى يكاد يصاب بالاختناق، وكان لابد أن يوقظه أحد حتى يستفيق، طبقًا لنصائح الأطباء، وإلا تعرض لخطر الموت المحقق.إذًا لم يكن كل ذلك له علاقة بمحبوبته التركية التى كان يعانى من محاولة نسيانها بلا جدوى، فسيكون له علاقة، بكل تأكيد، بزيادة وزنه التى اكتسبها عبر السنين. وفى كل مرة يقع فيها نظر ذافنى عليه، كانت تتساءل ما الذى حدث لذلك الشاب الرشيق، رقيق القلب الذى كان يسحر النساء فى الأحياء الشعبية بالإسكندرية فى الفترة ما بين عام (١٨٨٠ - ١٨٩٠)، بهيئته الجذابة ونظرته الفتانة. لقد تغيرت حاله وحل مكانه رجل آخر بدين فى منتصف العمر، يضحك مثل الأبله. وبناءً على دعوة منها، حضر هذا الرجل إلى منزلها، وعبر للمرة الأولى بوابة المنزل الحديدية، ممسكًا بيديه كيسين يحتويان على بعض الهدايا؛ استقبلته ذافنى فى الرواق المؤدى لمدخل المنزل وهى تقول:

«مـاذا أقـول لك يا ابن العم، فـقـد قـررت أخـيـراً تشـريفنا بـالزيارة بعـد كل هذه السنوات. يالك من قاسى القلب».

ابتسم ثاناسيس ابتسامة عريضة كالعادة وقال لها بحماسة:

– «إنك تقطنين فى الحى اليونانى، وهو مكان بعيد عنا، يا ابنة العم. كما أنه ليس فى طريقى».

– «كما تحب إذن، ولكن ما الذى تحمله معك؟».

– «لقـد قلـتِ إنها الزيارة الأولى لى.. ولا ينبغى أن أحضـر بأيـد خاوية، لا لا. "لا يجوز.. لا يجوز" (قال ذلك بالفرنسية)».

عندئذ ظهر ستراتيس من خلفها، وتصافح الرجلان ببرود، ثم قامت الخادمات بخلع معطف ثاناسيس، وتخليصه مما يحمل من أكياس، فبادر بتقديمها لهن حتى لا يضطر إلى حمل أى شىء آخر عدا وزنه الزائد.

– «لقـد طلبت رؤيتى، يا ذافنى. أهـناك مـا يسـتدعى ذلك؟» وكان من الواضح أن وجود ستراتيس ميخيليس غير المتوقع قد أصابه بالضيق.

– «بالفعل هناك ما يحدث» قالت ذلك وهى تتأبط ذرا ع الرجلين، ثم عبر ثلاثتهما عتبة السلم المؤدية إلى داخل المنزل. كانت ذافنى تتوقع أن ينبهر ثاناسيس بالمنزل وبما فيه من مرمر ونجف وأثاث، لكنها كانت مخطئة فى ذلك؛ حتى الشاى الذى قدمته له فى الفناجين البورسلين باهظة الثمن فقد شربه غير مبال فيما قدم. وهكذا فقد عبرت لامبالاته عن نوعٍ من الإهانة لربة المنزل التى قررت أن تنهى الموقف سريعاً.

– «حسنًا، حتى لا نضيع الوقت، " يا خواجة تاناسى"(قالت ذلك باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، لقد أحضرتك هنا اليوم حتى تدرك ما الذى يحدث لابنى فى كل مرة يذهب إليك وينام فى منزلك مع أبناء خاله».

لم يأت هذا الخطاب محض المصادفة: فقد كان ثاناسيس يعلم جيداً أن أقاربه ينظرون بتهكم إلى هذا الحشد من الشحاذين الذين يتجمعون كل يوم جمعة أمام محله. حيث كان يقدم للفقراء من أهل المنطقة مصروفًا أسبوعيًا يحصلون عليه وهم يقبِّلون يده، مهللون شاكرون قائلين بلهجتهم المصرية "شكرًا يا خواجة تاناسى" (ذكر ذلك باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية). شعر ثاناسيس بالضيق من هذا التهكم، ونظر إليها نظرة أعادت إلى ذاكرتها للحظات قليلة تلك النظرة الساحرة له عندما كان فتى وسيمًا.

«هذا غير مهم (قالتها بالفرنسية) أيها الفتى» هكذا حدثت ذافنى نفسها، «فقد حان الوقت لكى تغضب أنت أيضًا لبعض الشىء».

– «ألن تقول شيئًا، يا ثاناسيس؟» سأله ستراتيس مستوضحًا وهو يداعب شاربه.

– «ماذا تريدنى أقول، يا ستراتيس. أنا لا أفهم ما تقصدانه».

– «لقد قررنا أن الوضع لن يجدى مع كوستيس أكثر من ذلك، هذا كل ما فى الأمر».

– «من أنتم الذين قررتم، هل تعنين أنت وهو؟» قال ذلك ثم أشار إليهما بإصبعه.

– «فى النهاية، أنا التى قررت، هل يكفيك هذا؟».

– «أكملى إذن ما تقولين».

– «ما الذى أكمله. لقد قلت ما لدى، الأمر يسير، ينبغى أن تنقطع علاقة كوستيس بأسرتك، فنحن من عالمَيْن مختلفين، يا ثاناسيس. ربما لا يدرك كوستيس ذلك الآن، أما أنت فلابد أنك تدرك ذلك جيداً بالتأكيد، أليس كذلك؟».

اسودَّ وجه ثاناسيس للحظة واحدة، أظلمت عيناه الخضراوان وتحولتا إلى اللون الرمادى، مثل المياه العكرة ببحيرة مريوط. وكان من المدهش أن يقفز ثاناسيس بخفة من مكانه بجسده البدين. ولم يترك لهما أية فرصة لردة فعلهما، لكن ذافنى بادرته بالسؤال:

«إلى أين تذهب؟».

لم يعاود ثاناسيس الجلوس، ولكنه حرك إصبعه بحده تجاة ذافنى قائلاً لها:

«لقد كان جدك حارسًا على أرضنا فى الجزيرة (يقصد جزيرة ميتيلينى)»، ثم استدار إلى ستراتيس وقال: «وأنت، كانت جدتك تغسل لنا ملابسنا. إن وجودنا خارج أوطاننا لا يعنى أن ننسى أصولنا». قال ذلك ثم توجه ناحية الباب الخارجى، وفى منتصف الطريق تذكر أنه لا يزال يمسك فى يده بفنجان الشاى، فتركه على أول منضدة قابلها وألقى تحية جافة عليهما فى اللحظة التى أسرع فيها الخادم بفتح الباب، ثم اختفى عن أنظارهما.

* * * * *

لم يكن هناك غموض أكثر من هذا الرجل - "بقال منطقة السيوف" - مثلما كانت ذافنى تردد عندما كانت تشير إلى العم ثاناسيس، مما كان يحير كوستيس؛ ولكن يبدو أن العقول الخاملة لمعظم الناس كانت تتسرع فى الحكم على حياة الآخرين، ثم يبدأون بعد ذلك فى الاهتمام بمتابعة التغييرات التى طرأت على هؤلاء الناس. وفى كل الأحوال، تذكرت والدة كوستيس أنها عندما كانت تلميذة صغيرة قامت بزيارة مع والدتها لابن عمها فى محل صغير للخردوات بمنطقة فيكتوريا، وهو المحل الصغير الذى افتتحه ثاناسيس فى بداياته الأولى. وبعد مرور كل تلك السنين استطاعت ذافنى أن تتذكر بكل وضوح شجرة النخيل الكبيرة المزروعة فى منتصف الطريق، إذا جاز لنا أن نطلق كلمة "طريق" على ذلك الفيض من الرمال الذى كان يمر أمام تلك المنازل الفقيرة. استطاعت أيضًا أن تتذكر أنه عندما سألته والدتها: «وأين تسكن، يا ثاناسيس؟»

أجابها قائلاً: «هناك، بعيداً يا خالتي، في منطقة السيوف» وهكذا ظل عالقًا بأذهانهم أنه " بقال منطقة السيوف".

في أثناء ذلك، كان ثاناسيس قد أغلق محل البقالة وانتقل إلى المركز التجاري بوسط المدينة في باب سيدرا، حيث عمل في تجارة الجملة. وعندما تزوج من ماريا، ترك أيضًا منزله في منطقة السيوف وأقام في شارع باب سيدرا، في واحدة من تلك العمارات التي كانت تمثل ذروة أحلام العمال اليونانيين. ولكن لم تكن لديه النية للاستمرار في الإقامة هناك للأبد. كان العمل يسير بشكلٍ رائع، وفي السنوات الأخيرة شيد منزلاً رائعًا في منطقة فيكتوريا، على بعد مائة متر من شجرة النخيل التي وصفتها ذافني من قبل، وكان يتعجل ذلك اليوم الذي سينتقل فيه للعيش مرة أخرى في هذه الضاحية، مستخدمًا الترام كل يوم في تحركاته. حتى الآن، على أية حال، مازالت أسرة الخال ثاناسيس تعيش في باب سيدرا؛ وفي إحدى الليالي عندما غلب كوستيس النعاس فبات ليلته لديهم، ثم استيقظ في اليوم التالي فوجد نفسه في مواجهة عمود بومبي، وفي خلفية هذا المشهد التاريخي تظهر عربات الكارو المتهالكة والجلاليب القذرة والفلاحات اللاتي يحملن السلال على رؤوسهن والعمال الأجراء والمخازن والبضائع والمسافرون، إنه خليط يصعب تصوره لحركة التعاملات التجارية في الحياة اليومية.

كانت والدة كوستيس تحاول أن ترسخ بداخله فكرة أن عالم يونانيي الإسكندرية ينحصر داخل حدود الحي اليوناني فقط، بعجرفة وعظمة قاطنيه، وهو أمر لم يكن ليغفره لها أبداً. فمنذ صغر سنه كان كوستيس يتأمل تلك المنازل الأرستقراطية بطرزها المعمارية المتميزة. اعتاد أن يحصي عدد الأعمدة التي تدعم الحوائط، ويلاحظ القباب العالية، والقوصرة [٤] التي تعلو الشبابيك والتي تبني فيها الحمائم أعشاشها، والسلالم المزخرفة والحدائق الخضراء ذات التماثيل، كما كان يرقب قاطني هذه المنازل أثناء خروجهم منها، بملابسهم الأنيقة التي تشبه ملابس الممثلين. كانوا يركبون

---

(٤) القوصرة (أو الجمالون)، هي تركيبة جمالية مثلثة الشكل تعلو واجهة المنزل أو فوق الشبابيك (المراجع).

سياراتهم الفاخرة، ويشيرون بحركات وإشارات وقور، دون عصبية، وكأنها متفق عليها.
كان يستمع ويتابع نمط حياتهم من خلال تجمعاتهم فى فترة ما بعد الظهيرة أو فى حفلاتهم المسائية: همسات، أحاديث بأصوات خافتة، صخب غير واضح الملامح، موسيقى حزينة تعزف على البيانو وبعض الآلات الوترية؛ وبين الحين والآخر كانت أصوات الأطفال تكسر رتابة هذا الإيقاع .

أما بالنسبة لبقية الأمور، فقد كان المشهد أقرب ما يكون لجو الروايات الغامض التى كانت تقرأها له ولأخيه المربية العجوز فى سنواتهما الأولى، وكانت تقص عليهما قصص حب يائس لفتيات بائسات. كان كوستيس يختنق من مثل هذا الجو المحيط به، وكان يستمع مرات ومرات لوالدته وهى تسأله سؤالها الحائر: «ماذا بك، يا صغيرى كوستيس؟». كان كوستيس ينظر دائمًا فى المرايا الذهبية الضخمة بالصالون فيرى طفلاً حزينًا يتطلع إليه، وكان يشفق على أخيه ماخوس من سذاجته المتناهية. كان أخوه الصغير بطباعه الرقيقة – وبمباركة من والدته – يبشر بأن شأنه سيكون عظيمًا فى يوم من الأيام .

أما كوستيس، فكان على العكس من ذلك، كانت لديه خطط أخرى، وكان يشعر، منذ بداية نشأته، بأن له حياة أخرى كان ينشدها بسذاجة أسفل تلك السجاجيد السميكة والأثاث الضخم، خلف الستائر الثقيلة والمرايا، تحت الموائد والأسرة، فى الأركان الخفية بالحديقة. كان يرى بشكلٍ مستمر فى أحلامه أن هذا المنزل به أماكن أخرى عديدة ومساحات شاسعة لم يكتشفها بعد.

لم تخدعه حاسته الطفولية التى لم يكن من الممكن أن تخدعه. كانت هناك دائمًا حياة أخرى يخفونها عنه. كان يقرأها فى أعين والده الساخرة من والدته فى كل مرة كانت تتصرف بشكل مبالغ فيه. كان يراها فى مداعبات وضحكات الخدم التى ترتسم على وجوههم. هذه السماء الصافية وذلك البحر الهادئ لم يُخلقان من أجل هذا العالم المتمثل فى شارع رشيد وفى شارع شريف باشا وفى الحدائق العامة أو فى الحى اليونانى فقط. وعندما كان يتطلع إلى "عالم الباب الخلفى"، أخذ يفكر بعقله الصغير

كيف أن كل هؤلاء الناس يأتون من مكانٍ ما ويتعاملون مع الخدم عبر ذلك الباب الخلفي: فبائع الروبابيكيا بعربته الصغيرة يمر بين الحين والآخر لجمع الأشياء القديمة؛ وجامعة القمامة، تلك العجوز المصرية الشمطاء، كانت تمر كل يوم تقريبًا مع حفيدها لجمع القمامة؛ كما يقوم اللبان كل صباح، بدراجته القديمة، بتوزيع اللبن الجاموسي داخل تلك الأوعية المعدنية المعلقة في دراجته بكلاليب؛ يتبعه بائع الثلج. ولم يقتصر الأمر على هؤلاء فقط، بل كان هناك المنجد الذي يأتي مرة واحدة في العام لتنجيد المراتب، مستخدمًا أدوات غريبة الشكل، تثير دهشة كوستيس الذي كان يستطيع وصفها بمنتهى الدقة. وهناك أيضًا الحداد الذي يقوم بلحام المشغولات المعدنية بالقصدير. حتى الحلاق كيكينوس، كان دائم الحضور لحلاقة شعر أبيه. من أين يأتي كل هؤلاء ثم يختفون مرة أخرى؟ هل يعقل أن يكونوا أشباحًا؟ بالتأكيد كانوا يحضرون من الشوارع والأحياء المجاورة الكائنة خلف عالمه الصغير. كان كوستيس الصغير متعطشًا للتعرف على عوالم مختلفة، للتعرف على "عالم الباب الخلفي".

ازدادت حدة فضول كوستيس أكثر وأكثر بعد سن الثانية عشرة، عندما بدأت مشاعره المرهفة في التنامي وأخذ حسه العاطفي في هدم تلك الحواجز الطفولية، والآن بدأ يتحسس جسد الخادمات الناعم، داكن اللون، على الأقل ما كان يظهر من ملابسهن، ثم يطلق لمخيلته العنان لتخيل ما لم يره. وبسبب تلك العادة السيئة لم يكن يحصل سوى على ابتسامات وإشارات ذات مغزى من الخادمات، وكذلك توجيهات صارمة من والدته التي كانت تراقبه باستمرار.

* * * * *

«حتى تتعلم»، هكذا صاحت المربية (بالفرنسية) في وجه ماخوس وصفعته صفعة قوية بظهر يدها، عندما أمسكت به وهو يختلس النظر إليها من ثقب المفتاح بباب غرفتها. لم ينطق الصغير ببنت شفه، لكنه طأطأ الرأس وأخفى عينيه الطفوليتين الخضراوين، وأخذ يتمتم ببعض الكلمات بعد أن تسمر في مكانه خجلاً. قام كوستيس،

الذى كان يتابع الموقف، بجذب أخيه إلى غرفته، وهو يرمق فى الوقت نفسه الآنسة جابى بنظرة غاضبة. أما ذافنى، التى كانت تتحدث فى ذات الوقت مع ستراتيس ميخيليس بالطابق الأرضى، فقد تناهى إلى سمعها صوت الصفعة وإن بدا لها هذا الصوت أمراً مألوفًا من كثرة المشاجرات التى كانت تحدث بين الولدين بشكل يومى، مما جعلها تسرع نحو حافة السلم وتصيح فيهما. وفى وقت متأخر، بعد رحيل ابن عمها، نادت على الابن الأكبر، وأخذت تعنفه بشدة بسبب إخفاقاته المدرسية، ثم جذبت أذنه بقوة وهى تقول: «"يا لك من فتى مشاكس"(قالت ذلك بالفرنسية)، يا كوستيس، لقد أخبرتكما آلاف المرات أن تحسنا التصرف عندما يكون لدينا ضيوف»، استمع إليها كوستيس بلا مبالاة، وفور سماحها له بالذهاب اندفع نحو السلم واختفى عن ناظريها. استمرت ذافنى لمدة ساعة كاملة تسمع وقع أقدامه على أرضية الطابق العلوى الخشبية، وجال بخاطرها كيف أصبحت قدماه كبيرتين، وأنه بعد قليل سينتعل أحذية كبيرة الحجم، كوالده. ولكن حقًا، أين هو الآن الابن الأصغر؟ لقد اعتاد فى مثل هذا الوقت أن يتجول فى الصالون وفى قاعات الاستقبال، متباهيًا بنفسه فى المرايا الضخمة بزيه الرسمى وشاربه الضخم، الذى كان قد رسمه فوق شفتيه، والذى يشبه شارب أندونيس بيناكيس جارهم، كما اعتاد ماخوس أن يأخذ مكان رب الأسرة على المائدة الضخمة، ويتخيل أنه يقوم بتحية الضيوف الحاضرين. وبينما هى كذلك، وعلى حين غرة، وجدت أمامها المربية الشابة ممسكة بعكازها، فارتعبت من هول المفاجأة، فقد هبطت الآنسة جابى دون أن تحدث صوتًا - مثل القطط - حتى نهاية السلم، ومن يدر كم من الوقت ظلت فى مكانها وهى لا تجرؤ على تعكير صفو سيدة المنزل. ودار بينهما الحوار التالى:

ذافنى: «هل هناك ما حدث؟» هكذنا سألتها ذافنى بانزعاج واضح.

جابى: «لا، يا مدام، لا شىء على الإطلاق، أريد فقط أن أعرف موعد راحتى الأسبوعية» (قالت ذلك بالإنجليزية).

ذافنى: «رائع، إنها لم تبدأ بعد عملها وتسأل عن موعد إجازتها؟» هكذا حدثتها نفسها، ثم قالت: «ليس ذلك محلا للنقاش الآن، يا بنيتى، "كل شىء فى حينه"(قالت ذلك بالإنجليزية)»، هكذا أجابتها ذافنى، وحتى لا تضطر لأن تقول شيئًا آخر، وضعت فى فمها قطعة من الأطعمة التى كانت قد أحضرتها لابن عمها.

عندئذ استدارت المرأة الشابة، التى بدا عليها الإحباط، وهمت بصعود السلم غير أن ذافنى استرعى انتباهها ذلك الثوب الداكن الذى كانت ترتديه بياقته الحادة، وشعرها المجدول، والصندل المطاطى الذى تنتعله، فنادت عليها قائلة: «أنسة جابى...» فأجابتها بالإنجليزية:

«نعم، سيدتى»

ذافنى : «اسمعينى جيدًا يا فتاتى، تعلمين أنك قد التحقت بمنزل راقٍ ومتحضر من منازل الإسكندرية، وليس بأحد الأديرة. لذلك أريد أن يتوافق مظهرك مع روح هذا المنزل. بعض "الوقار"(قالتها بالفرنسية) مع بعض المرح لن يضرا. بالطبع الاحتشام هو الاحتشام وفى هذا المنزل لدينا عدد كبير من الرجال من كل الأعمار. " هل هذا واضح؟ "(قالتها بالإنجليزية)».

فأجابتها جابى (بالإنجليزية):« تمام الوضوح، يا سيدتى».

تابعت ذافنى الآنسة جابى وهى تصعد السلم، وشعرت بالرضا بعدما تأكدت أن حركة اهتزازها أثناء سيرها لا تثير الغرائز على الإطلاق.

وكان كوستيس قد خرج بنفس الانطباع، حيث كان يتابع هذه السيدة بدقة منذ اليوم الأول لعملها بالمنزل. تلك المرأة التى طالما تؤكد على جنسيتها الإنجليزية، لكنها مع اشتداد غضبها كانت تتحدث بالفرنسية.

قوامها نحيف وجلدها شاحب وناعم، تمامًا مثل أطباق والدته البورسلينية الغالية، وشعرها بلون الذهب، وعندما تستلقى على الأريكة فلا فرق بينها وبين السجادة بلونها الشاحب.

اعتادت ذافنى القول إن الآنسة جابى «امرأة ذات مبدأ». أما كوستيس الذى لم يكن يفهم شيئًا من كل هذا، فقد وجدها فى النهاية امرأة لا تثير غرائزه أو تحرك شهواته. وعندما ترتدى نظارة القراءة لتقرأ لهما كان وكأنه يرى أمامه الآنسة "فوكيا"، تلك المرأة العانس، مشرفة مدرسة أڤيروفيوس، التى أعادته إلى المنزل حتى الآن مرتين أو ثلاث مرات حتى يتعلم كيف لا ينسى وضع الشارة المدرسية فوق صدره. كانت أصابع الآنسة جابى النحيفة والطويلة تتحرك بخفة ورشاقة - كعفريت صغير فوق مفاتيح البيانو، ولكن أدى التزامها ودقتها المتناهية فى تتبع النوتة الموسيقية إلى جعلها موسيقى بلا روح. غير أن ما كان يميزها هو؛ قدرتها الفائقة على التنقل من لحن إلى آخر دون أن يتأثر المستمع. أصيب كوستيس بالذعر عندما فكر فى كون الآنسة جابى امرأة جميلة ولكن بلا روح. كانت هناك لحظات يصاب فيها بالذعر من هذه المرأة الجميلة القاسية، وبخاصة عندما كانت تحاول مداعبة أخيه الصغير لاصطحابه إلى حدائق النزهة، فكانت تدعوه لذلك قائلة (بالإنجليزية): «هيا يا ماخوس، فلنذهب إلى الحدائق» إلا أن ماخوس كان دائمًا ما يبدى اعتراضه لأنه قد مل من الذهاب فى كل مرة إلى نفس المكان. أما هى فكانت تصر على ذلك وتقول: «هيا معى (قالت ذلك بالإنجليزية)، وسوف نلتقى جان كلود، جان كلود فتى طيب، أليس كذلك يا ماخوس؟». كان كوستيس على ثقة من أمر واحد فقط: وهو أن لهذه المرأة تأثيرًا سيئًا على أخيه. شىء ما قد تغير فى أخيه منذ اللحظة التى وطأت فيها قدماها منزلهم، فقد أصبح حبيس غرفته ساعات وساعات ولم يعد يجرى خلف كوستيس لكى يضايق الخادمات المصريات اللاتى كن يمسكن به بعد مطاردته وهن يضحكن. ولكن فى النهاية، من تكون الآنسة جابى، تلك المرأة الغامضة التى أزعجت ماخوس بشدة؟ لقد بدا له أن هذه المرأة الإنجليزية، إن كانت بالفعل إنجليزية، كانت تخفى وراءها سرًا، ودون أن يعرف السبب، فقد انتابه شعور بأن ذلك له علاقة بما كان يسميه "عالم الباب الخلفى".

* * * * *

لكل إنسان فى هذا العالم حكاية تخصه، وهو على استعداد دائمًا لأن يرويها، ولكنه دائمًا ما يحتفظ لنفسه بسر، ولو صغيراً، من أسرار تلك الحكاية. وصلت رومينا -القابلة- إلى مدينة الإسكندرية فى نهاية عام ١٩٠٥، قادمة من أوذيسو، بعد إعلان التمرد على البارجة الحربية " بوتمكين"، وقد أشاعت حينئذ أن والدها كان أحد أفراد طاقم البحارة الذين أعلنوا تمردهم وقاموا بإلقاء الضباط فى البحر. أما فى الواقع فقد كان والدها تاجر حلوى يونانيًا متزوجًا من سيدة روسية. وإذا كانت هناك ثمة علاقة تربط بين أسرتها وبين البارجة الحربية "بوتمكين" فتعود إلى خالها، الذى كان يقضى بالفعل فترة خدمته باعتباره ضابطًا على ظهر السفينة الحربية. قامت رومينا بدراسة طب النساء، طبقًا لكلامها، وكانت تمارس مهنة الطب فى بلدها، حتى أجبرها فشلها فى إجراء عملية جراحية كلفت سيدةٍ شابة حياتها، على الفرار من وطنها حتى لا يتم القبض عليها ومحاكمتها.

على أية حال، تقبلت رومينا وضعها فى مصر، بوصفها مجرد قابلة. انتشرت شهرتها بسرعة فى الإسكندرية من خلال عمليات الإجهاض الناجحة التى قامت بها واستطاعت من خلالها أن تخلص العديد من النساء من مشكلة الحمل غير المرغوب فيه، بغض النظر عن طبقتهن الاجتماعية والأخلاقية.

وصلت رومينا، التى كان بيتروس ثيميستوكليوس قد رشحها لإلياس خورى، فى اليوم والساعة المتفق عليهما فى الشقة التى تقع فى شارع مصطفى باشا، وهى تحمل فى يدها حقيبة جلدية كبيرة.

قالت رومينا (بالفرنسية): «أبحث عن مدام إيفيت» هكذا أخبرت جعفر الذى فتح لها الباب وقادها العجوز النوبى إلى مكان إيفيت.

وجدت إيفيت نفسها أمام امرأة فى منتصف العمر، ذات وجه عريض وعيون تشع بالاحترام. رددت رومينا سؤالها (بالفرنسية):

«أبحث عن مدام إيفيت».

«أنا إيفيت» هكذا أجابتها (بالفرنسية)، وبدت على وجه رومينا علامات الدهشة التى استطردت قائلة:

«عذراً، ولكن مما ذكره بيتروس ثيميستوكليس عنك، فقد توقعت أن تكونى أكبر سناً».

- «حقًا، ما الذى أخبرك به بيتروس عنى؟».

- «غير مهم، على أية حال، أنت مدام إيفيت، "أليس كذلك؟" (قالتها بالفرنسية)».

- «مازلت تتشككين حتى الآن؟»

- «لا، حاشا لله. وماذا عن الحالة التى نهتم بأمرها؟».

- «ياله من وصف مهذب لهذا الموقف المحرج»، هذا ما جال بخاطر إيفيت، ثم أجابتها: «فى انتظارك بالطابق العلوى».

- «بالطبع، بالطابق العلوى، أين ستكون غير ذلك؟» هكذا أضافت قائلة، ثم تفحصت تفاصيل المنزل المعقدة، وهى تتساءل من أين يمكن لأحد أن يصعد للطابق العلوى.

وضعت رومينا حقيبتها الكبيرة فوق إحدى الموائد الموجودة بالغرفة، وقد تعلقت عيناها بالنجفتين "الهولنديتين" (دونّها بالفرنسية)، اللتان تتدليان من سقف الغرفة.

- «سوف نحتاج لإعداد بعض الأدوات قبل أى شىء».

- «رهن إشارتك».

- «أريد أن أوجه للخدم بعض التوجيهات بشكل شخصى، إذا لم يكن لديك مانع. بالتأكيد يوجد بعض الخدم هنا فى المنزل، أليس كذلك؟».

أجابتها إيفيت (بالفرنسية): «بكل تأكيد» ثم أشارت إلى العجوز النوبى للنداء على كل من سهير وأنطوانيت من المطبخ.

- «من الأفضل أن أذهب بنفسى إلى المطبخ».

- «أسرار المهنة؟».

- «لا، يا عزيزتى! نحن بحاجة إلى ماء ساخن ومناشف نظيفة. الأمور فى منتهى البساطة. لا داعى للقلق. كونى على يقين من أن صديقتك فى أيد أمينة».

- «لستُ قلقة. إذا كان بيتريوس قد حدثك عنى فقد حدثنى عنك أيضًا. "وأسهب فى الحديث عن صفاتك النبيلة " (قالت ذلك بالفرنسية)».

- «هذا أمر لطيف من جانبه» (هكذا أجابتها بالفرنسية).

عادت رومينا من المطبخ ممسكة بيدها فنجان شاى وضعت فيه أربع قطع من السكر، وظلت تقلبه لبعض الوقت بالملعقة.

- «كم من الوقت ستستغرق العملية؟».

- «نحو ربع الساعة تقريبًا» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «ربع الساعة فقط؟».

- «ماذا كنت تظنين؟ لن نقضى اليوم بطوله هنا».

كانت القابلة رومينا تتحدث الفرنسية بطلاقة، وكانت طريقة نطقها تفصح عن محل ميلادها. فمنذ اللحظة الأولى التى وطأت فيها بقدميها عتبة المنزل، كانت تحركاتها وكلماتها محدودة، كما لو كانت تريد أن تعطى انطباعًا عنها بأنها شخص يعرف جيدًا كيف يقوم بمهمته الدقيقة على أكمل وجه، كما أنها لا تملك الكثير من الوقت لتضيعه. عندما تأكدت من أن السكر قد ذاب فى فنجان الشاى تجرعت الفنجان برشفتين كبيرتين، ودون أن تنظر، ألقت بالفنجان من يدها فى الاتجاه الذى ظنت أن أنطوانيت، الخادمة الشامية، تقف به، لكنها قفزت بدورها وأمسكت بالفنجان وهو فى الهواء.

رومينا: «والآن حان وقت العمل» قالت ذلك وهى تشمر عن ساعديها، وأشارت متسائلة من أى السلمين سوف نصعد، وجاءتها الإجابة من إيفيت بإيماءة من رأسها. أخذ العجوز النوبى حقيبة القابلة وسار خلف السيدتين. والتقيا روكسانى أثناء صعودهما للطابق العلوى.

إيفيت: «إنها شقيقة الحالة التى نهتم بأمرها»، وقفت القابلة تتفحصها باهتمام.

روكسانى: «هل ستتألم شقيقتى، أيتها القابلة؟» هكذا جاء سؤال روكسانى وهى تشعر بالحيرة.

أجابتها رومينا باقتضاب: «بعض الشىء». ثم استكمل الجميع الصعود إلى أعلى، تتقدمهم القابلة تتبعها إيفيت ثم جعفر وروكسانى وفى الخلف كانت سهير تحمل المناشف النظيفة فوق صدرها الضخم.

صعد الجميع إلى غرفة ذانائى التى تقع فى الجناح الأيمن، كانت الفتاة الشابة ممددة على فراشها الكبير، وقد أغلقت الناموسية المحيطة بالفراش حتى تؤكد لمن حولها مدى خطورة حالتها، كما بدا القلق واضحًا عليها.

رومينا: «هنا إذن تختبئ فتاتنا!» قالت ذلك وهى تشبك كفيها.

ذانائى: «هل سأتألم؟» هكذا جاء سؤال ذانائى بصوت مرتعد من خلف الناموسية.

أجابتها رومينا وكأنها تخاطب طفلاً صغيراً: «على الإطلاق»

وبنفس الصوت المرتعد وجهت ذانائى حديثها لشقيقتها قائلة: «روكسانى، اقتربى منى قليلاً».

رفعت روكسانى الناموسية وانحنت تجاه أختها التى همست لها بشىء فى أذنها. وعندئذ صاحت روكسانى: «هل أنت جبانة؟ كل شىء سيكون على ما يرام».

رومينا: «دعونا ننتهى من هذا الموضوع» قالت ذلك وهى تصفق بكفيها. ثم أزاحت الستارة البيضاء وصاحت قائلة (بالفرنسية):

«يا لها من فتاة جميلة!».

فى نفس الوقت أشارت بإيماءة من رأسها للخادم النوبى ولإيفيت للوقوف إلى يمين ويسار ذانائى.

وفى اللحظة نفسها ظهرت أنطوانيت وهى تحمل صينية عليها أكواب نظيفة. وقد بدا وكأن سهير وأنطوانيت معتادتان على مثل هذه الحالة. قالت رومينا:

«فى بلادنا نحتفل بمثل هذه الحالات»، ثم أضافت وهى تغمز بعينيها للحضور «فلنشرب، إذن»

كان الغرض من هذا الأداء المسرحى هو أن تدفع ذانائى لكى تشرب كأسًا من الفودكا المركزة، التى كانت تحتفظ بها فى حقيبتها. على أية حال، لاحظت إيفيت أن رومينا تجرعت أكثر من كأس. ثم قامت بعد ذلك بغسل يديها جيدًا، ثم أخرجت مُعدأتها، مختلفة الأحجام، ووضعتها على منشفة بيضاء فوق الكومودينو.

منذ اللحظة التى أحضرت فيها سهير "طشتًا" (ذكرها باللغة العربية ودونًها بحروف يونانية) الماء الساخن، حدث كل شىء بسرعة. كل هذه العملية ستستغرق ربع الساعة فقط، إلا أنها ستمر على ذانائى وكأنها قرن من الزمان بداية من اللحظة حاولت فيها القابلة النشطة، بمساعدة آلة معدنية قطرها صغير، الوصول إلى الرحم، مما جعل الفتاة الصغيرة تصرخ من الألم، الأمر الذى حال دون أن يتمكن جعفر من الإمساك بها بيديه الضعيفتين. لم تحتمل روكسانى المنظر وخرجت من الغرفة باكية. تابعت رومينا عملهما بمنتهى الحذر، خوفًا من أن تثقب رحم الفتاة الذى بات رقيقًا بسبب الحمل، الأمر الذى قد يؤدى إلى حدوث نزيف شديد. وفى النهاية، عندما نجحت فى الوصول إلى هدفها، تنفست الصعداء وبسرعة حركت يدها فوق الشفرات الثلاث، وقررت اختيار الشفرة المتوسطة. الشفرة، هى أداة معدنية ذات حوافٍ حادة تأخذ شكل المعين الهندسى والتى استطاعت بواسطتها أن تستأصل، دون ألم، ذلك الجنين غير المرغوب فيه من غشاء الرحم، ثم قامت بغسل هذه المنطقة من الدماء، بحذر شديد، من خلال وضع المناشف المبللة، وبعد مرور نصف الساعة كانت تستعد لمغادرة المنزل.

«لكن أين تذهبين الآن؟» هكذا سألتها روكسانى بلهفة، ثم أكملت: «ماذا لو أصابها مكروه؟».

رومينا: «لن يصيبها أى مكروه، صدقينى» قالت ذلك وهى تحصى بسرعة النقود الورقية التى أخذتها من إيفيت.

رومينا: «لابد أن تبتعد عن ممارسة الجنس لمدة شهر كامل، بعد ذلك سيصبح كل شىء على ما يرام. "طاب صباحكم" (قالتها بالفرنسية)»، ثم ابتسمت القابلة وألقت بالتحية لشمس الإسكندرية التى سطعت على المنزل من الباب الأمامى.

* * * * *

«لا أريد الذهاب إلى حديقه النزهة، يا جابى، فهناك جان كلود، لا أريد الذهاب إلى حديقة النزهة» هكذا اعتاد ماخوس أن يصرخ بهذه الكلمات فى نومه ليالى عديدة، عندئذ تسرع الآنسة جابى نحوه فى الحال لكى تهدئ من روعه، وكان كوستيس يسمع من الغرفة المجاورة صوت أقدامها الحافية وهى تلامس برفق أرضية الطرقة الخشبية، ويتخيلها بقميص النوم الأبيض كجنية فى الليل. ثم يغلبه النعاس بعد هذا الموقف مباشرة، لكنه كان على ثقة من أن المربية كانت تتمدد بجوار أخيه الصغير معظم المرات، لأن رائحتها كانت تفوح من جسد أخيه فى صباح اليوم التالى . والغريب أن الآنسة جابى لم تكن تذكر شيئًا عن هذا الموضوع لوالدتهما. شغلت تضحية هذه المرأة الشابة براحتها تفكير كوستيس، فقد اتخذت قرارًا بأن تتحمل وحدها كوابيس الطفل ماخوس وأن تخفى، بشكل أساسى، ذلك الجزء الخاص بما يفعلونه فى حدائق المنتزة. وكان رد فعلها سريعًا كالبرق فى كل مرة، فمع أول صرخة للطفل تجدها بجواره، وكأنها كانت مستيقظة طوال الليل، وكأنها كانت تنتظر خلف الباب حتى لا يسمع أحد صراخ ماخوس وهو يقول: «لا أريد الذهاب إلى حديقة النزهة». وفى صباح اليوم التالى كانت تظهر عليها نتيجة عدم النوم بوضوح، من خلال احمرار عينيها واستمرارها فى التثاؤب. وفى إحدى المرات أثناء استعدادهم للذهاب للمدرسة، غلبها النوم للحظات قليلة وهى جالسة على المقعد، وعندئذ انتابت الأخوين نوبة من الضحك الخافت.

أما فى المساء فتصبح الأمور أكثر صعوبة على جابى، فقد كان لزامًا عليها الاهتمام بتدريس اللغة لهما وأيضًا متابعة دروس البيانو معهما بشكلٍ صحيح. مرت أوقات على كوستيس كان يشعر فيها بالأسى على تلك المسكينة. غير أن هذا لم يمنعه من أن يضايقها، وبخاصة أثناء درس البيانو، عندما كان يخطئ عن قصد فى وضع إحدى أصابعه على البيانو، مما كان يتسبب فى تغيير جمال السلم الموسيقى. ولم يكن يحلو له أن يفعل ذلك سوى فى نفس اللحظة التى يتأكد فيها أن الآنسة جابى قد غلبها النعاس. كان من المضحك أن تراها وهى تفتح عينًا واحدة مثل الكيكلوبس، ثم تعيد عليه فى كل مرة قولها (بالإنجليزية): «هذا ليس صحيحًا، كوستيس، أعدها مرة أخرى!».

كانت تعيد ضبط جهاز قياس الوقت بعصبية ثم تغلق عينها مرة أخرى حتى يقع فى خطأ آخر. وكان والده دائم الشجار مع أمه بسبب تلك الحالة المزرية التى كان يرى جابى عليها، ويقول:

«ما الذى جعلنا نحضر مثل هذه الكسول إلى منزلنا!».

وبمرور الوقت، بدأت ذافنى تشفق على تلك المرأة الشابة، واضعة فى اعتبارها أن تلك الهالات السوداء التى تظهر أسفل عينيها، والتى حاولت جاهدة أن تخفيها تحت طبقات وطبقات من مساحيق التجميل، هى بمثابة إثبات لإنكار الذات، وكانت ترى أن جولاتها المتكررة فى حدائق النزهة عمل تطوعى تقوم به من أجل ماخوس الطفل الضعيف. ومنذ ذلك الحين، عندما كان ماخوس يبدى اعتراضه على الذهاب إلى هناك كانت ذافنى تقوم بنفسها بالضغط عليه حتى يرضخ. كانت الآنسة جابى تتعامل بطريقتها الخاصة مع ماخوس، فكانا ينتقيان معًا زيًا جميلاً للخروج، ثم تبلل شعره وتقوم بتصفيفه بعمل فارق جهة اليمين، مما كان يثير إعجاب الطفل المدلل بشدة، ثم يتجولان معًا داخل المنزل ويتنقلان من مرآة إلى مرآة، وكان الجميع يبدون إعجابهم بجماله. أما هى، فكانت تحرص دائمًا على أن يكون رداؤها رسميًا، مع وجود بعض الكشكشة التى كانت تتمايل أثناء سيرها، وبخاصة عندما كانت تصعد إلى عربة

الحنطور، لكنها كانت ترتدى قبعة تبدو مضحكة بالنسبة لسنها. وفى عربة الحنطور، كان ماخوس يجلس بجوارها وكأنه يجلس على كرسى العرش، كاظمًا حماسه وهو يرد تحية أمه، فى نفس اللحظة التى يلهب فيها "العربجى" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) ظهر حصانه بضربة كرباج لكى يتحرك.

لم يكن كوستيس ينظر إلى كل ما يحدث بعين الرضا، وعندما كان يحاول استدراج أخيه الصغير لمعرفة ما يدور، كان يحصل منه على نفس الإجابة دائمًا:

«لن أخبرك بشىء، فالآنسة جابى تقول إننى قد أصبحت كبيرًا بدرجة كافية تجعل لى أسرارًا لا تعرفها أنت».

على كل حال، كان كوستيس قد فهم من تلك الكلمات القليلة التى يتلفظ بها أخوه أثناء نومه، أنه والآنسة جابى يذهبان إلى حدائق النزهة بشكلٍ خاص لرؤية الشخص الغامض المدعو جان كلود وتلك المرأة المسنة التى ترافقه. وعلى ذلك فلابد أن يكون جان كلود فى نفس عمر أخيه، وإذا ما صح وصف ماخوس، فإنه أشبه بالفتيات وليس بالأولاد. يا لها من أشياء عجيبة!

* * * * *

فى الإسكندرية كان الشتاء يمر مسرعًا، ربما لأنه فى واقع الأمر لا يكاد يصل إليها. فالأمواج المتلاطمة التى تمس جدران المنازل فى الصفوف الأولى أمام الشاطئ مسًا رقيقًا، والأمطار الغزيرة التى تستضيفها الإسكندرية، كل ذلك لم يكن كافيًا ليعطى أهل الإسكندرية الشعور بمعنى كلمة الشتاء. يتذكر أندونيس خاراميس فى سنى عمره الطويلة التى عاشها بالإسكندرية أن الثلج لم يسقط سوى مرة واحدة فقط وقد تجمع على أغصان شجر الجميز بالمحمودية، وكيف كان أهل المدينة ينظرون إلى كتل الثلج البيضاء وكأنها هدية من السماء. كان الأمر يبدى وكأنه اضطراب فى الظواهر الطبيعية التى ستحتاج، بلا شك، لمرور سنوات وسنوات لكى تتكرر.

على كل حال، فقد مر شتاء عام (١٩١٤-١٩١٥) مرور السحاب على سماء الإسكندرية. وبدأت أعياد الميلاد بكل مظاهرها: شجرة عيد الميلاد، نموذجاً مجسداً به عدد من التماثيل التى تصور ميلاد السيد المسيح، الهدايا، الحفلات، الطوابير الطويلة التى تصطف داخل المحلات التجارية أو فى الكنائس. وفى المساء، كان إلياس وأرابيذيس يحتسيان الشراب فى شرفة نادى محمد على، يتبادلان أطراف الحديث مع رجال البنوك وتجار القطن وفى الوقت نفسه يتابعون بأعينهم سيدات الطبقة الراقية وهن يتسوقن فى شارع شريف باشا. كان " اللبنانى" يخسر أموالاً طائلة فى القاعات المخصصة للعب الورق بالنادى فى حين كانت إيفيت تتذمر من ضعف الإيراد الذى تجمعه من بيت البغاء الذى تديره فى شارع مصطفى باشا. حتى الحرب فى أوربا كانت تلقى بظلال باهتة على أجواء الاحتفالات فى الشوارع. فاليونانيون يلعبون الورق فى مقاهى الأحياء الشعبية: فى العطارين وفى شارع القيامة، ويسكرون فى الحانات. حفلات وحفلات تقام فى منازل اليونانيين الأغنياء فى الحى اليونانى. كان الكثيرون يتحيرون بشدة من كثرة الدعوات التى تصلهم بشكلٍ يومى، حتى كادت تصل إلى دعويين أو ثلاثٍ فى اليوم الواحد، فتصيبهم الحيرة أى الحفلات يذهبون أولاً.

فى ليلة رأس السنة، قطع أندونيس كعكة العام الجديد فى منزله – وقد عثر بداخلها كوستيس على العملة المعدنية (التى تجلب الحظ طوال العام). ثم كرر ذلك بعد ثلاثة أيام فى المصنع. وفى منتصف شهر يناير كرر نفس الأمر مع موظفيه فى فرع القاهرة، وقد استغل وجودة بالقاهرة، وقضى ليلته فى أحضان إيفيت فى جناحه الفخم بفندق شبرد بعيداً عن الشقة المشبوهة بشارع السلطان حسين. ومع البدايات الأولى للعام الجديد، قام بتسليم أول شحنة من السجائر للجيش البريطانى، كما بدأ العمل فى بناء الجناح الجديد بمصنعه. استطاع أندونيس تسديد القرض الكبير الذى كان قد اقترضه من بنك لاند، كاملاً إلى مدير البنك، كيرياكوس أسبراكيس، شقيق زوجة ثاناسيس. وبدأت العلاقة بين العائلتين تتغير، وكان من نتيجتها أن عاد كوستيس لزيارة العمارة التى تسكن فيها عائلة ثاناسيس فى باب سيدرا رويداً رويداً.

استمرت الحياة فى الإسكندرية على هدوئها. ولكن فى حقيقة الأمر، كان الهدوء الصارم الذى فرضه الإنجليز بمثابة الحاجز الذى يقف بين الإسكندرية وأخبار جبهة القتال. وكان بمقدور عدد قليل من الناس، ومن بينهم إلياس خورى، نقل أخبار الأحداث التى تقع بالفعل فى العالم الخارجى. حتى هجوم القائد التركى جمال باشا على البريطانيين فى قناة السويس ترددت أنباؤه وكأنه مجرد صدى صوت آتٍ من بعيد.

فى احتفالات هذا العام، لم يخرج حتى الآن الكرنفال الذى يسير فى شوارع الإسكندرية. واختفت العربات التى كانت تبهر ماخوس بشدة، وكذلك أشكال قطع الحلوى المصنوعة من الجبس، والمدفع الضخم الذى كانوا يستبدلون طلقاته بحبات الفاصوليا، حتى رقصات فرقتى " أيسخيلوس" و" ألامبرا" لم يتم تقديمها. لكن على أية حال، فقد احتفل الكبار والصغار بارتداء الملابس التنكرية فى العديد من المنازل.

فى ربيع عام ١٩١٥، كان الجميع فى الإسكندرية يتحدثون عن الزيارة المرتقبة التى سيقوم بها فينيزيلوس لمصر. وفى أحد أيام الآحاد من شهر مارس، أصيب أندونيس بالذعر عندما دخل النادى البحرى اليونانى وشاهد أمامه غابة من قبعات الرجال والنساء. مع وجود القوارب البحرية فى المشهد الخلفى، وكان قد نسى أن عدداً كبيراً من رواد النادى يأتون فى صباح هذا اليوم للاستمتاع بحمام الشمس. فى هذا المشهد المفعم بالسعادة والمرح قد يتساءل أحدهم عن إمكانية نشوب الحرب بالفعل فى أى بقعة من هذا العالم. وما كاد أندونيس يطأ بقدمه داخل النادى حتى تلقفته إحدى سيدات الطبقة الراقية والتى تعرف باسم "مدام تسالابيتينوس"، والتى أصابها التوفيق فى الجمع بين أنفها الرومانى، الذى يشبه المنقار، وريشة الطائر المثبتة فى قبعتها.

«"عزيزى خاراميس، يا لها من مفاجأة "(قالت ذلك بالفرنسية)، لقد نسيتنا تماماً!». ترك أندونيس هذه السيدة مع ذافنى، ثم توجه إلى الناحية الأخرى من الشرفة حيث وجد بعض أصدقائه من رجال الأعمال مجتمعين، لكن اصطدم برجل أصلع يرتدى نظارة مستديرة وله وجه غريب الشكل، فأراد أن يعتذر له لكن الرجل الغريب بادره قائلاً:

«سيد خاراميس، حاشا لله، "إنه خطئى أنا "(قالها بالفرنسية) نتيجة عدم انتباهى».

أنـدونـيـــس: «هل يعرف أحدنا الآخر؟».

مـاركيذيس: «بالطبع، أنا أدعى أندرياس مـاركيذيس. لقد شـاهـدتك مـرات ليست بالقليلة فى مقر الجالية».

- «حقًا؟ أعتذر لأنى لا أستطيع أن أتذكر ذلك، سيد ماركيذيس».

- «غير مهم (قالها بالفرنسية)، سـيد خـاراميس، غير مهم، فمن حسن الحظ فى عمل مثل عملك أن تكون معروفًا للكثيرين، فى حين أنك لا تعرفهم».

- «لا تقل ذلك، فالأمور لا تسير دائمًا بهذا الشكل».

- «بالمناسـبة (قـالـها بالفـرنسية)، لقد تأخرتَ بعض الشىء فى الحضـور، ولكن أعتقد أنك قد اخترتَ اليوم المناسب للحضور إلى النادى».

- «من أى وجهة نظر؟».

- «يجتمع اليوم عدد كبير من أعضـاء مجلس إدارة النادى. ومن المنتظر أن يصل رئيس المجلس بعـد قليل. عندئذ سـيـتم عـمل إعـلان غـيـر عـادى حـول زيارة فينيزيلوس، كنت أعتقد أنك على علم بذلك».

- «أؤكد لك، ياعزيزى، أنه لم تكن لدى أدنى فكرة».

- «لكنك من المؤيدين لفـيـنيـزيلوس، أليس كـذلك، يا سـيـد خـارامـيس». ألقى ماركيذيس بسؤالة بطريقة توحى بالشك فى الإجابة.

- «لم أُخفِ ذلك مطلقًا» هكذا أجابه أندونيس متبرمًا من هذا السؤال الغريب الذى ألقاه عليه هذا الشاب، ثم بدأ فى الابتـعاد عنه شيئًا فشيئًا. ثم حدثته نفسه قـائلة: «بعـد زمن قـصـيـر لن نُدعى يونانيين. فـالنصف سـوف يُسـمـون بالفينيزيليين والنصف الآخر بالملكيين».

لكن هذا الرجل أمسكه من عضده حتى بدا عليه الاحمرار تمامًا فى هذه اللحظة، ثم قال ماركيذيس:

«يا سيد خاراميس»، قال ذلك وقد بدا وكأنه يتوسل إليه: «لابد أن تحضر زيارة زعيم الشعب. فالجالية اليونانية بالقاهرة تخطط لسرقة الأضواء. أنا لا أخشى تجار القطن. أما صناعة السجائر فالتنافس فيها على أشده، ولا تنس أن الجالية اليونانية بالقاهرة لديها تساناكليس. " لابد أن تساعدنا" (قالها بالفرنسية)، سيد خاراميس. فقد انقطعتَ عن الحضور للجالية منذ وقت طويل، فما سبب ذلك؟».

- «حقًا ما تقول، ولكنها الأعمال، الأعمال الكثيرة، "وأنا مشغول جدًا" «كما يقول الفرنسيون» هكذا أجابه أندونيس، ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة.

- «"أمشغول أنت" (قالها بالفرنسية) إلى هذا الحد؟ للدرجة التى يصعب فيها عليك تخصيص بعض الوقت للمرور على النادى اليونانى؟ رئيس مجلس الإدارة يتذمر منك باستمرار. ويظن أن هناك مشكلة ما بينك وبينه».

- «لا ينبغى على ميكيس أن يأخذ الأمر على محمل شخصى. فهو يعلم جيداً أننى أحترمه. ولكننى فى هذا الوقت، يا صديقى، غارق بمعنى الكلمة فى أعمالى».

- «ولكنك يونانى فى أرض أجنبية، لذلك أنت بحاجة دائمًا إلى بنى وطنك، فكل منا بحاجة إلى الآخر، يا سيد خاراميس».

- «لا خلاف فى ذلك، ولكن بكل بساطة فى الوقت الراهن، هناك أولويات أكثر أهمية».

- «لا أريد أن ألح عليك أكثر من ذلك، يا سيد خاراميس، ومن جهة أخرى، فنحن نعرف أنك رجل ذكى وأنك ستتفهم الأمر. أرجو أن تعتبر اهتمامى هذا من باب الصداقة».

- «هذا ما أقوله، يا عزيزى، طاب صباحك».هكذا أجابه أندونيس وهو يمسك بطرف قبعته. لكنه أراد العودة مرة أخرى ليسأل ماركيذيس: «ماذا كان يعنى بقوله "نحن نعرف"؟ من تكونون بالتحديد، يا من تعرفون؟» إلا أنه فى كل مرة يبحث فيها عنه لم يشاهده مرة أخرى وسط هذا الجمع.

في تلك الأثناء، كانت هناك محنة أخرى تنتظر أندونيس، عندما تأبطت ذراعه ابنة عم زوجته، وهي من عائلة سينجوس، وكانت تكبر ذافني بعامين، ثم اقتادته إلى جانب الشرفة وهي تقول في لهفة:

«هيا معي لتسعد بمشاهدة ابنك وهو يقف على اليخت». أدرك أندونيس الذي استطاع أن يتخلص منذ لحظات من شخصٍ مزعج، أن ابنة العم تريده أن يشاهد اليخت وليس ابنه كوستيس.

«هل تراه، هل تراه؟ ها هو خلف الدفة»، كانت تشير بإحدى يديها بينما ضغطت بقوة على يد أندونيس بيدها الأخرى، ثم قالت: «سيصبح بحاراً شجاعاً هذا العصفور الصغير»، وعندئذ بدأت في الصياح: «كوستيس، كوستيس» انتبه الصغير لهما ووقف لتحيتهما.

أندونيس: «أليس من الممكن أن تصطدم رأسه بالشراع وهو واقف هكذا؟» سألها أندونيس بقلق، فأجابت:

«لا تقلق، الحقيقة أن الفتى الصغير يتعجل قليلاً، إذا كانت لديه الآن الرغبة في الإمساك بالدفة واللعب بالشراع الضخم، فماذا سيفعل إذن عندما يكبر؟»

وبالفعل، أيقن أندونيس أن ملاحظتها صحيحة، فالأطفال يكبرون بسرعة وكل منهم يبحث لنفسه عن مكان..كان أندونيس ينظر إلى ابنيْه أحياناً باعتباره منافسين له ويتعذر عليه إخفاء مشاعره خلف حب الأب لأبنائه اللامتناهي.

اقترب اليخت الخاص بعائلة سينجوس من المرسى، كان كوستيس يقف مزهواً بزي البحارة تحت الشراع الرئيسي لكي يلتقطوا له الصور. في تلك اللحظة، حضرت ذافني ووقفت بجانبهما.

* * * * *

لم يكن من عادة إيفيت الرد على الأصوات والمضايقات التى تتعرض لها فى الطريق. إلا أن الصوت الذى سمعته من شرفة نادى محمد على ذكرها بشىء مألوف، حتى إنها لم تتردد فى رفع رأسها وتوجيه بصرها لأعلى. وكانت قد خرجت للتو من محل "بودرو"، وهى تحمل فى يدها علبة حلوى، وكانت تحاول الاهتداء لأقصر الطرق بهدف الوصول إلى شقة ماريانثى أرابيذيس، ويا لها من مصادفة فالشخص الذى كان يناديها هو بانايوتيس أرابيذيس نفسه.

تعرفت إيفيت على صوته، ولكن ما أن رفعت رأسها، وجدت نفسها أمام رجل لا يشبه ذلك الفتى الصغير الذى كانت قد قابلته فى إسطنبول. وتذكرت فجأة بنوع من الحنين وجهه الشاحب ونظرة الذهول والخوف التى نظر بها إليها فى ذلك اليوم الذى كانت عربة الحنطور الغامضة على وشك أن تدهسها فى الشارع الكبير بمدينة بيرا؛ كانت له نفس العينين الواسعتين التين كانتا تشعان بالبراءة، ولكنهما أصبحتا الآن أصغر بكثير، ربما بفعل شمس العصارى التى تلقى بأشعتها عليهما. على كل حال، لم تعد تصرفاته تعبر عن تلك الشخصية الطفولية التى كانت تعرفها. لابد أنه قام بتجربة تلك الطريقة التى لفت بها انتباهها من الشرفة عدة مرات، حتى يكون على ثقة من أنه قد أصبح لديه الكثير من الثقة بالنفس والجاذبية التى تتناسب مع كونه جنتلمانًا حقيقيًا، وعضوًا فى أرقى أندية المدينة وأكثرها تحضرًا.

إيفيت: «أنا ذاهبة لزيارتكم، وكنت فى هذه اللحظة أتساءل أى الطرق أقرب إلى منزلكم».

أرابيذيس: «من هذا الاتجاه، أظن» هكذا أجابها وأشار إلى الطريق بإصبع يده، ثم سألها (بالفرنسية): «كيف حالك؟».

إيفيت: «بخير» هكذا أجابته (بالفرنسية) ثم أنهت محادثتهما، لأنه كان محاطًا بمجموعة من الرجال الذين بدأوا فى تبادل التعليقات.

من بين هؤلاء الناس تعرفت إيفيت إلى صامويل عظيمان اليهودى، صديق إلياس، أو سامى كما كان يحلو لإلياس أن يدعوه، تاجر التحف الثرى الذى يعد، وفقًا لرأى

الكثيرين، أغنى رجل فى الإسكندرية. كان يدخن السيجار بنشوة ثم ابتسم لإيفيت من خلف نظارته المستديرة. غير أنه لم يستطع أن يرفع نظره عن فستانها مكشوف الصدر والذى كان بلون الشمبانيا. أما هى فقد رمقته بنظرة مغلفة بالبرود مما أبقاه فى مكانه، وهو ما كان ينبغى عليها أن تفعله - كامرأة - حتى لا يتجرأ عليها أى شخص غريب. انحنى اليهودى فارع الطول على أرابيذيس وسأله:

«من تكون هذه السيدة، يا بانايوتيس؟».

لم يترك بانايوتيس، الذى كان يحلم بلفت انتباه عظيمان منذ وقت طويل، لم يترك الفرصة تفلت من بين يديه وأسرع فى الرد قائلاً:

«إنها إيفيت شانتون، وهى صديقة لزوجتى». لحسن الحظ، لم يفقد أرابيذيس غموضه الذى اشتهر به وكانت لديه القدرة على إخفاء ما بداخله.

صمويل: «هل سبقت لى رؤيتها من قبل؟» سأله ذلك وكأن أرابيذيس كان مجبراً أن يتذكر له كل شىء.

أرابيذيس: «ربما، فهى من السيدات المعروفات فى أوساط الإسكندرية، "إنها بالفعل سيدة مجتمع" (قالها بالفرنسية)، كما يقولون».

صمويل:«حسنًا» قالها اليهودى ولم يزد عليها شيئًا آخر. استمر أرابيذيس فى الابتسام وحده، ولكنه شعر بالحماقة لأنه استجاب باندفاع لفضول ذلك اليهودى المتكبر. كان هذا هى حال صمويل عظيمان دائمًا، يحتقر بشدة أولئك الذين يطمحون فى التقرب إليه - من أمثال أرابيذيس - ولم يكن يتردد فى أن يظهر ذلك لهم. وللحقيقة، يعد إلياس خورى هو الشخص الوحيد الذى يكن له صمويل عظيمان تقديراً حقيقيًا، ربما لأن "اللبنانى" استطاع أن يسبر أغوار شخصيته، ولم يعره مطلقًا أية أهمية زائدة تفوق ما كان كبرياؤه يسمح به. على كل حال، لم يمنعه هذا الأمر من أن يتحدث عنه بإعجاب فى غير وجوده.

كان سامى بالنسبة لإلياس مجرد جامع تحف ذى موهبة فذة، لديه القدرة على التمييز بسهولة بين الفنون المختلفة: من الفن البوذى فى الصين إلى إسبانيا الإسلامية، ومن الدولة القديمة فى مصر الفرعونية إلى الفن الفرنسى المعاصر. كما كان يرتل الأشعار الهومرية وكأنه يرتل مزامير العهد القديم. فى السنوات الأخيرة اكتسب شهرة واسعة بين "أوساط المجتمع الراقية" (دوَّنها بالفرنسية)، وكان الكثيرون ممن لم تكن لهم اهتمامات فنية محددة يرون عظيمان وكأنه بورصة الفن المتحركة، التى ينبغى عليهم استثمارها قدر الإمكان. كان جامع التحف اليهودى يدرك مدى لهفتهم عليه، ولذلك كان يسخر من الجميع بطريقته. تراه يمشى فى كثير من الأحيان منحنياً بشكل يظهر حدبته، كما كان يربى ذقنه لتحسين ملامح وجهه المضحك. وهناك بعض الألسنة السيئة التى كانت تعتبره العقل المدبر لعصابة دولية للاتجار فى التحف، وهو ما كان يفسر زيادة ثروته بشكل مذهل.

لم يكن اليهودى يبدى اهتماماً بتلك الأقاويل، أما اهتمامه فينصب على أمور أكثر بساطة: فعلى سبيل المثال، ماذا لو أصبح عضواً فى "فريق إلياس خورى للعب الورق". يا له من لقب عظيم! لا أحد يستطيع أن يتشكك فى أسباب تمسكه بعلاقته الودود مع الضابط فريد- البكباشى فريد (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)- أو علاقته الطيبة ببيتروس ثيميستوكليس (القواد) وإلا فكيف يستطيع أن يشبع رغبته فى النساء؟ أما إخلاصه الشديد " للبنانى" فقد شابه الكثير من الغموض. ذات مرة قال سامى: «إن إلياس بمثابة " قطعة حية من الفن"(قالها بالفرنسية)، لذلك كان من الصعب أن يتفوق عليه تاجر تحف آخر». كل هذا لم يوضح كيف يمكن لرجل يعرف ثمانى لغات، سافر حول العالم وتناول العشاء مع السلطان، وأيضاً مع المندوب السامى البريطانى، بل ومع أغنى رجال مصر، أن يصل به الأمر فى يوم من الأيام أن يرقص فرحاً كطفل صغير، عندما علم أنه سيحل محل ماسيمو - تاجر القبعات- وأنه سيصبح عضواً أساسياً فى فريق لعب الورق.

كانت فيلته، التى تقع فى رشدى على مقربة من مكان إقامة المندوب السامى البريطانى، بناءً يشبه قصور الأباطرة؛ وكانت إيفيت كثيراً ما تبدى إعجابها بها فى كل مرة تمر عليها وهى تستقل الترام. يذكرك بدروم الفيلا " بالمنزل مربع الشكل" (دوّنها بالفرنسية) للسيدة نيم، أما الطابق الأول المزخرف بنقوش بارزة ورسومات ملونة، فينتهى دون مقدمات بقبة تبدو من الداخل، كما يقولون، وكأنها نسخة طبق الأصل من ذلك المحراب الموجود بالجامع الكبير فى قرطبة. كان هذا الطابق مغلقًا أمام الزوار، ولهذا ساد الاعتقاد بين الجميع أنه لو قامت الشرطة المصرية بمداهمة هذا الطابق لوجدت بكل تأكيد بعض مقتنيات عظيمان من التحف التى يخفيها بشكلٍ غير قانونى، ويقوم ببيعها الواحدة تلو الأخرى للمتاحف ولجامعى التحف حول العالم، حتى الحرب العالمية الثانية، مما ساعد على تضخم ثروته باستمرار. على أية حال، فمن بين كل رجال الشرطة المصريين كان البكباشى فريد هو الشخص الوحيد الذى يمكنه العبور مرة كل أسبوع من البوابة الخارجية فى " يومٍ محدد "(دوّنها بالفرنسية) وهو الأربعاء. كانت إيفيت على علم بأن شقة هليوبوليس بالقاهرة، التى قضت فيها ليلة مع خاراميس، كانت ملكًا لليهودى؛ كما استطاعت التعرف على ذوق جامع التحف فى ديكور شقة إلياس خورى أيضاً.

كان سامى يعرف إيفيت أيضًا بطريقة أو بأخرى، فقد كان من أوائل الناس الذين وطأت أقدامهم المنزل الواقع فى مصطفى باشا. لقد مضى زمن طويل لم تعد الرغبة المحمومة التى يشعر به عظيمان تتحمل تلك الليالى التى كان يتسكع فيها فى شارع السبع بنات وفى الكباريهات سيئة السمعة، وفى بيوت البغاء التى انتشرت فى قلب حى العطارين. لقد سئم النساء من كل الجنسيات: السوريات، البنانيات، الإثيوبيات، الفرنسيات، الإيطاليات؛ كما سئم من ديدى، دودو، سيسى، لولا. كان يبحث عن امرأة رفيعة، فنانة بطبيعتها، امرأة تكون أكثر إثارة أكثر فتنة. كان يرنو بداخله إلى التخلى عن فكرة الحب الرخيص. ولكنه توجه، مرة أخرى، إلى " تاجر المتعة " الشهير، بيتروس ثيميستوكليس، الذى بدوره لم يخذله.

استطاع المنزل الكائن بشارع مصطفى باشا، الذى تديره سرًا إحدى سيدات "الطبقة الراقية"(ذكرها بالفرنسية) – وجعلته متحفًا حقيقيًا مملوء ببائعات الهوى – استطاع هذا المنزل أخيرًا تحويل خياله إلى واقع، فمنذ زيارته الأولى للمكان تنوق بشرة روكسانى التى تشبه الخوخ، وجسد ذانائى الذى يشبه فى نعومته الزبد الفلاحى. لم تكن هذه الفيلا ذات الأجواء الأرستقراطية تقل فى روعتها عن أى فيلا أخرى يقطنها صفوة المجتمع بالإسكندرية. كانت الفيلا بالتأكيد تلبى رغباته بشكل أكبر مما يجده فى بيوت بغاء وكباريهات تكتظ بها المدينة. كان ينتابه فى كثير من الأحيان إحساس بأنه بفضل هذا الممر السرى يستطيع التنقل مباشرة بين سهرات الإسكندرية وأحضان الفتيات فى منزل بمصطفى باشا. وكثيرًا ما كان يمنى النفس بواحدةٍ من سيدات المجتمع الراقى اللاتى يصعب تورطهن فى مغامرات عاطفية. ويرى إمكانية انحراف إحدى سيدات هذه "الطبقة الراقية " عن الطريق المستقيم للتنفيس عن رغباتها المكبوته. عاش سامى فى أحلام اليقظة وكان يتخيل قصصًا أسطورية مع تلك "المرأة الخفية"(دوّنها بالإنجليزية) التى تملك كل شىء، وكان على استعداد للتنازل عن كل ما يملك حتى يسبر أغوارها ويجعلها ملك يمينه. لم يستطع كل هذا الخيال أن يثنيه عن الربط بين السيدة الموجودة فى شارع مصطفى باشا، وتلك التى رآها تسير بسرعة فى مساء يوم سابق تحت شرفة النادى.

* * * * *

لم يكن كامب شيزار (أو كامب قيصر) بالنسبة لكوستيس سوى حبة من الفول فى خط سير الترام بين الإبراهيمية والشاطبى، وهو خطأ تاريخى، وفقًا لما تقول والدته «حيث لم يعسكر قيصر أبدًا بجيوشه فى هذا المكان»؛ وتعد المنطقة بأسرها جزءًا من "عالم الباب الخلفى" الذى عقد النية على البحث عنه من حين إلى آخر؛ وفى تلك العمارة المطلة على شارع إليفسينا، حيث وجد نفسه فجأة بصحبة نيكيتاس، يمكن لأى شخص بالتأكيد أن يقدم على فعل أسوأ ما يمكن أن يفعله.

كان البواب يجلس فى مواجهته يجهز أوراق اللعب؛ وهو رجل مصرى، أسود، شديد الخبث، اسمه عمر. وقد ثبت عينيه المتوهجتين على كوستيس. وفى الخلف يوجد سلم ضيق يختفى عن الأنظار يهبط إلى أعماق البدروم، ومن يدر إلى أين يؤدى هذا السلم.

دفعه نيكيتاس للأمام قائلاً: «هيا إذن، ماذا تنتظر، يا ابن العمة، فلن نقضى الليل بطوله فى مكاننا، سننتظرك أنا وعمر فى المقهى المقابل، لديك متسع من الوقت، اترك ثمار الموز للبواب وترفق بعزيزة، مفهوم، لأن عمر يتذمر». بعد ذلك تبادل الابتسامات مع عمر، المصرى داكن اللون، والتى ربما كانت تعنى له الكثير.

كان كوستيس بحاجة لذلك لدقائق معدودات، ولكن كبرياءه كان يمنعه من تبادل الابتسامات معهما. قدم لعمر ثمار الموز الذى كان قد اشتراه من سوق سيديا حتى يستميله إليه، ثم بدأ نزول السلم. كانت عزيزة بانتظاره فى نهاية السلم، تضىء بشرتها ناصعة البياض ظلمة المكان. لقد تخيل كوستيس أنها امرأة بدينة وممتلئة ككل الخادمات المصريات، لكنها كانت تمتلك جسداً رشيقًا، هيفاء بالفعل، تعطر صدرها برائحة الليمون. مد كوستيس يده ليلمسها، إلا أنه تراجع مذعورا. عندئذ وضعت عزيزة يدها على شعر رأسه وداعبته ضاحكة، ثم أخذته من يده وقادته إلى باب الحجرة المفتوح. وهكذا، فكما استطاع بالكاد أن يتبين ملامح جسدها شبه العارى وهو يتمايل، استطاع أيضًا أن يغرق فى أعماق رغبته التى لا تقهر. دفعته إلى داخل الحجرة، وفى تلك اللحظة شعر وكأنه ممثل تم دفعه فجأة إلى خشبة المسرح ليلعب دوراً لم يتسن له أن يحفظه. أصابه الذعر! ماذا يفعل؟ هل يحتضن هذا الجسد الساخن الثائر أم يبتعد عنه ويقفز إلى خارج الحجرة هربًا منها؟ لكنه فضل البقاء، وتحرك ترام الحب فى بدروم عمارة كامب شيزار، وكانت أنفاس عزيزة اللاهثة بمثابة آلة البخار التى تحرك مشاعره حتى بلغ مأربه ووصل إلى المحطة الأخيرة فى نهاية الطريق. بعد ذلك ساد صمت رهيب لم يقطعه سوى دقات قلبه النابض بجنون، فى الوقت الذى كانت عزيزة تداعب شعره.

بعد ذلك بقليل، استقل كوستيس الترام وأخذ يفكر فى كل ما حدث: كامب شيزار، عمارة شارع إليفيسينا، زوجة البواب، وبدا له كل ذلك وكأنها أحلام بل أوهام.

سأله نيكيتاس «هل أعجبتك عزيزة، "يا ابن العمة" (قالها بالفرنسية)».

لم يجبه كوستيس، ولكن انتابته رغبة أن يسأله: «متى سنذهب مرة أخرى؟»، إلا أنه شعر بالخجل وآثر السكوت، وسأله فقط إذا كانت النقود قد أوفت بالغرض، فأجابه نيكيتاس ضاحكًا:

«بل هناك فائض أيضًا»، عندئذ بدأ يفكر فيما سيفعلانه بما تبقى من قطع النقود المعدنية التى كانت تصلصل بين يديه، عند هبوطهما من الترام.

«سوف نهبط فى محطة الرمل. هناك ستتذوق "العسلية"(قالها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) وستأكل أصابعك بعدها! إنها تشبه حلوى السمسم التى تصنع فى بلادنا»، ثم أخذ يصف له كيف تصنع: «فوق عربة مثبت عليها قدر كبير، يقومون بغلى خليط من الماء مع العسل، يضعونه فى قوالب رفيعة، ثم يقلبون هذا حتى يصبح أقل سمكًا، ثم يقطعونه إلى قطع صغيرة. ألا يفتح شهيتك مثل هذا النوع من الشربات؟ بعد ذلك نذهب لتناول "السودانى" (قالها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) أو البطاطا من البائع».

وصل الترام إلى محطة الرمل، وما زال نيكيتاس يتحدث معه مداعبًا النقود المعدنية التى فى يده. كان نيكيتاس يكبر كوستيس بعامين، إلا أنه كان يبدو فى كثير من الأحيان وكأنة قد امتلك حياة أخرى فى شوارع المدينة.

نيكيتاس: «الأفضل لك أن تشرب كوبًا من عصير المانجو أو الموز، أو حتى القليل من الفراولة حتى تستطيع أن تستعيد قواك التى فقدتها»، كانت تلك هى نصيحة نيكيتاس، لكن كوستيس كان يشعر بأنه ما زال يحتفظ بقواه. استكمل نيكيتاس حديثه وقد لمعت عيناه اللتان يختلط بهما اللون الأزرق باللون الأخضر، من فرط الحماسة:

«إذن، أيها الشاب، لك عندى شيء " أكثر روعة "(قالها بالفرنسية)، ما رأيك فى شراب "العرقسوس" (قالها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية)، إنه شراب به بعض المرارة فى الطعم للرجال الحقيقيين، الذين يعرفون كيف يضاجعون زوجات البوابين. يكفى أن تشاهد كيف يصبونه من القدر الزجاجى الذى يحمله البائع، وكأنها شعيرة مقدسة بمعنى الكلمة».

سأله كوستيس منفعلاً: «ماالذى قلته الآن "يا ابن الخال " ؟ (قالها بالفرنسية)».

نيكيتاس: «ماذا قلت؟».

- «أنا لا أصدق أن عزيزة هى زوجة عمر».

- «وإذا كانت زوجته، ماذا فى ذلك؟».

- «ألم تفكر أنه كان من الممكن أن يغضب، ويهبط ليذبحنى بسيفه؟».

- «هدئ من روعك. أتخشى بالفعل من ذلك البواب ضخم الجثة؟».

- «كان يجب أن تخبرنى بذلك» قال ذلك وقد بدا عليه الغضب.

- «لو كنت قد أخبرتك فلم تكن لتقترب من كامب شيزار أو حتى الترام. أتعرف لماذا؟ لأنك جبان!».

- «أنا لست جبانًا!».

- «بل أنت جبان! وإلا فلماذا لم يواجه الشباب الآخرون الذين يضاجعون عزيزة هذه المشكلة».

- «لا، لست جبانًا، لكنى لن أنسى لك هذا المقلب الذى فعلته بى اليوم" يا ابن الخال أعدك بذلك" (قال ذلك بالفرنسية)».

- «أيها النذل الكبير، نحن من صنعنا منك رجلاً، ثم تتعدى حدودك. إذن أسحب عرضى لشرب العرقسوس. هيا نذهب لنأكل أرزًا باللبن، أو لنأكل "الهريسة" (قالها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) بالقشدة، رغم أنك لا تستحق كل ذلك!».

- «لا تغضبنى الآن يا نيكيتاس، وإلا سينقلب الأمر إلى مشاجرة».

- «تمهل، يا صعلوك الحى اليونانى، لقد تقابلنا منذ قليل، وتريدنا أن نبدأ فى الشجار؟».

الواقع أن كوستيس كان قد افتقد نيكيتاس طوال فصل الشتاء. كما افتقد عمارة باب سيدرا، والخالة ماريا بمأكولاتها الشامية، وقدر الطعام الذى كان يقفز متراقصاً من شدة النيران التى أسفلها، والطائرة المصنوعة من الورق أو" الطيارة "(قالها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) كما كان الأطفال يطلقون عليها، التى كانت تطير من فوق أسطح المنازل، كما افتقد أيضًا " للصوص" أو تلك الحمائم المدربة التى يملكها نيكيتاس والتى دربها على أن تجمع له الحمائم من العمارات الأخرى، وقبل كل ذلك فقد اشتاق لركوب الدراجة والترام. كان نيكيتاس على حق، فما كان عليه أن يتعدى حدوده. وعندئذ صاح نيكيتاس متظاهراً بالفزع:

«كوستيس!».

- «ماذا هنالك؟».

- «إنه عمر، اركض، إنه يبحث عنك وسيفه فى يده!».

- «يا له من مزاح سخيف»، عندئذ استدار كوستيس وبدأ فى مطاردة نيكيتاس، ولكن كيف يلحق به. وهل كان من الممكن الإمساك بهذا "الجنى الأشقر"؟». كان وقع أقدامهما لا يكاد يختلف عن صوت قرقعة الخيول وهى تجرى على الطريق، وكانا يصطدمان أثناء عدوهما بالرجال والنساء المتأنقين الذين كانوا يرددون فى تذمر: " يا لكم من أطفال أشقياء".

لم يدرك كوستيس كيف وجد نفسه بعد كل ذلك فى هذه المنطقة الفقيرة. فمنذ لحظة مضت كانا يقطعان شارع رشيد، لكنهما استمرا فى الجرى عبر بعض الأزقة الجانبية التى كانت بعيدة كل البعد عن التحضر الأوربى. ولم يظهر بها سوى أناس يرتدون الجلباب والطربوش، والحمالين وعربات الكارو التى تجرها الحمير، فقد أصبح كل ما يراه مصرياً خالصاً.

صاح كوستيس بصوت لاهث: «توقف أرجوك».

- «لن أتوقف حتى نخـرج إلى الشارع العمـومى» فماذا يفعل كوستيس؟ لقد تبعه خوفًا من أن يفقده داخل هذه الأزقة الضيقة وعندئذ فالويل له.

فى النهاية وصلا إلى الشارع العمومى - شارع العطارين - عندئذ فقط أيقن كوستيس لماذا كانت أمه تحذره دائمًا من هذه المناطق.

لقد بدا له الطريق وكأنه نهر جارف من البشر والحيوانات والنظرات التى كانت تلاحقه وتهدد بالانقضاض عليهما أثناء سيرهما؛ وفى الجهة المقابلة لهما كان هناك ذلك المسجد المهيب، بمئذنته ذات الطراز العربى الرصين، التى تحل من أعلاها بركات الله على كل هذا الزحام. أشار نيكيتاس لكوستيس إلى "عربية" (ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية) حنطور كانت تسرع على الطريق خاوية من الركاب، وقد تعلق بها خلسة من الخلف طفلان، وعندئذ بادر بعض المشاه بالتنبيه على العربجى. وأخذوا ينادونه «كرباج ورا يا أسطى» (ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية).

«انظر وشاهد ما سيحدث الآن» قال ذلك نيكيتاس ثم شارك بصوته ليصيح مع الآخرين.

بتعالى الأصوات، استدار العربجى وضرب الصبيان "بالكرباج"(ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية) فأصاب أحدهما فى جبهته وأحدث به جرحًا مما جعل الدم يتدفق بغزارة. عندئذ قفز الصبيَّان من العربة وهما فى ذعر شديد، وأكمل العربجى طريقه وهو يطلق صفيرا بفمه دون اهتمام، وكأن شيئًا لم يحدث.

نيكيتاس:«آآآخ! ليتنى كنت فى مكان هذا الصبى الصغير عندئذ كنت سأقتنص الكرباج من يد هذا العربجى الحقير وألقيت به تحت الحنطور» قال ذلك وهو فى شدة الغضب، حيث انتفضت عروقه، وبدا وكأنه اعتبر أن ما حدث أمر شخصى. وهنا نظر نيكيتاس إلى الشمس ثم قال: «لقد انتصف النهار. ما رأيك يا ابن العمة، هل نعود إلى باب سيدرا؟».

لم يستطع كوستيس أن يرفض هذا الاقتراح. فقد أصابه الإعياء من كل هذا الجرى، وفوق كل ذلك فقد أحس بالجوع والعطش. نعم، فقد حان الوقت للعودة إلى منزل الخال ثاناسيس. لكن ما رآه كوستيس على الجانب الآخر من الرصيف جعله يغير من رأيه.

– «آنسة جابى!» قال ذلك مرتعبًا.

– «ومن تكون ؟».

– «الآنسة جابى، مربيتنا، تلك التى ترتدى زيًا محتشمًا وقبعة........».

– «وما الذى تفعله هذه المربية فى مثل هذا المكان، وبهذا الزى المحتشم؟».

– «وما يدرينى!».

– «هل تريد أن نتتبعها؟» هكذا سأله نيكيتاس ولكنه لم يترك الفرصة لكوستيس ليجيبه، فقد أسرع خلفها.

بدا وكأن المربية قد أدركت أن هناك من يتبعها فقد أسرعت فى خطواتها واضطرتهما للركض خلفها. «ها نحن نجرى من جديد!» هكذا حدثت كوستيس نفسه، فى الوقت الذى شاهداها تدخل شارع عبد المنعم.

توقف كوستيس ونيكيتاس عند ناصية الشارع قليلاً. لأنهما أصبحا على مقربة منها بدرجة تمكنها من رؤيتهما.

قال نيكيتاس هامسًا: «حسنًا، هل تقومون بإرسال المربية لشراء الفحم؟».

– «لماذا تقول ذلك؟».

– «هذا الشارع ملىء ببائعى الفحم، انظر».

بالفعل، كان سواد الفحم يغطى المحلات والناس معًا. فى منتصف الطريق، كان الحمالون يحملون أجولة الفحم على ظهورهم وهم يترنحون من ثقل ما يحملون. وكانت

الآنسة جابى تبدو فى زيها الأبيض وكأنها نموذج مرسوم بالطباشير فوق سبورة سوداء. لوهله ظنوا أنهم قد فقدوا أثرها، ولكنها ببساطة كانت قد دخلت إحدى العمارات القديمة. ولم يتردد نيكيتاس فى تتبعها وعندما وجد البواب الذى كان يحمل مسبحته الضخمة، تذكر قطع النقود المعدنية التى كانت تصلصل فى جيبه، وكانت، على الرغم من قلتها، كافية لتحل عقدة لسان البواب. تبادلا بعض الكلمات باللغة العربية ثم عاد نيكيتاس بعد ذلك إلى كوستيس وقال :

«هيا "يا ابن العمة" (قالها بالفرنسية)، لنذهب من هنا الآن، فقد عرفنا ما أردنا معرفته».

– «هيا إذن، أخبرنى بما ذكره لك البواب».

– «هذه المربية تأتى إلى هنا بشكل مستمر لتزور إحدى السيدات التى تعيش مع طفلها».

– «أهذا كل ما فى الأمر؟».

– «نعم، وماذا هنالك أيضاً؟».

– «ألم يطلعك على علاقتها بهذه السيدة، ما اسمها، ما عملها؟».

– «لكى نعلم كل هذا، كان لابد أن يكون معنا المزيد من النقود» أجابه نيكيتاس بذلك ثم أفرغ جيوبه الخاوية من البنطلون، وأضاف: «"يا ابن العم "(قالها بالفرنسية)، فى مصر كل سر له ثمنه، ألم تتعلم ذلك بعد؟».

ابتعد كوستيس عن شارع عبد المنعم وهو فى شدة الغيظ، فقد كان على استعداد فى تلك اللحظة أن يعطى ذهب العالم كله لمن يطلعه على سر الآنسة جابى.

أضاف نيكيتاس قائلاً: «ولكن، لكى تأتى هذه السيدة إلى هذا المكان، فلن يكون الأمر ساراً ولابد أنه أمر خطير».

– «نعم، يبدو أن لديك حقًّا فى ذلك».

* * * * *

أخذ أندونيس خاراميس يكرر: «لا يوجد عمل مبهج، ولكن توجد أماكن مبهجة للعمل».

لذلك فقد كان حريصًا على أن يكون المصنع الجديد، الذى شيده فى محرم بك على ترعة المحمودية بجوار المخازن القديمة والثكنات العسكرية، عبارة عن تحفة فنية بالفعل.

يتكون المصنع الكبير من طابقين، اهتم فيه بشكل خاص بالواجهة المطلة على الترعة، طالبًا من المهندس المعمارى أن يلتزم تمامًا بقواعد البناء الكلاسيكى الحديث. كانت صفوف النوافذ المتوازية تسمح للضوء بالانتشار فى المساحات الداخلية، كما أعطت أشكال النبات المرسومة على الزجاج الإحساس - من بعيد - بالفن العربى، فى حين كانت اللمسات الفنية البسيطة بالشرفة الموجودة بمكتبه، التى كان أندونيس يتطلع منها إلى مراكب الصيد أثناء إبحارها فى الترعة. كانت تلك الشرفة هى العنصر الوحيد الذى يعبر عن الفن الحر. وكانت الأعمدة شاهقة الارتفاع الموجودة فى أركان المكان تبدو كالأبراج الضخمة، التى تمكن أى شخص أن يرى فى أعلاها من بعيد بوضوح الحرفين (أ.خ) - اختصارًا لاسم أندونيس خاراميس. تمت حماية المدخل الرئيسى فى جانب المبنى ببناء أسطوانى يخفى الباب الزجاجى الشفاف من أعين الفضوليين. وفى الجانب الخلفى من المصنع كانت الأعمال قد بدأت بالفعل فى بناء الجناح الجديد، وهو ما كان سيجعل مجموعة المبانى كلها تأخذ شكل حرف T. فى هذا المكان سيتم وضع ماكينات التصنيع الآلى. كل هذا كان محاطًا بأشجار النخيل العالية وأشجار الخروب الضخمة التى كانت ارتفاعاتها تتجاوز العشرة أمتار؛ أما الأسوار ذات الطراز الفرسالى التى كانت تحيط بالمنطقة كلها، فتنتهى ببوابة حديدية مزدوجة، كان أندونيس خاراميس قد فوجئ، فى صباح يوم الجمعة الموافق السادس عشر من شهر أبريل، بوجود شعار التاج الملكى مدونًا عليه عبارة: "المورد الرسمى لسمو ملك اليونان".

كان من المنتظر أن يصل فينيزيلوس بين يوم وآخر. أصيب الجميع فى مصر بالتوتر، ففى اليوم السابق للزيارة، قامت مجموعة من المؤيدين للملك باعتداءات متفرقة على مقاهى مؤيدى فينيزيلوس، التى كانت ترفع الأعلام انتظارًا لوصول رئيس الوزراء

السابق. كانت الجالية اليونانية على أهبة الاستعداد لاستقبال زعيم الأمة، وبدا واضحًا ازدياد نشاط المعارضين. فقد وقعت العديد من المشاجرات فى شوارع العطارين والإبراهيمية والميناء القديمة، وأصبح أبناء الدم الواحد فى بوتقة تغلى، حيث انتقلت عدوى الخلاف بينهم إلى مصر، وبدا أن اليونانيين المصريين قد فقدوا لغة العقل تحت وطأة النزاعات السياسية. وعلى الرغم من هذا الجو المشحون بالتعصب، لم يستطع أندونيس أن يستوعب السبب الذى دفع هؤلاء الناس لتعليق الشعار الملكى فوق باب مصنعه، حيث كان بالفعل هو المورد الخاص بالملك الدموى يورغيوس، لكنه منذ اللحظة التى تولى فيها قنسطنطينوس أصبحت جودة السجائر التى ينتجها توضح مشاعره المحبة لفينيزيلوس.

«لابد أنهم كلاب الملكية» هكذا دار بخلد أندونيس «لقد خدعوكم حتى ظننتم أن باستطاعتكم نقل أفكاركم إلى هنا!». بقفزات سريعة وصل أندونيس إلى المدخل حتى بلغ قاعة الاستقبال بالمصنع، ورفع نظره لأعلى حتى وصل بنظره بانبهار إلى عنان المبنى الذى كان يضاهى فى ارتفاعه أشجار الخروب العملاقة، «لقد وصلت عاليًا، يا أندونيس، لا تدع أحد يهوى بك إلى القاع مرة أخرى»، هكذا حدثته نفسه فى ذلك الصباح. عندئذ توجه بثقة نحو السلم الرخامى الذى يقود إلى الطابق العلوى، فى ذلك الحين، انقسم كل ما كان فى طريقه فى تلك اللحظة إلى صفين، صعد السلم مسرعًا حتى إن خطواته اختلطت ولم يعد لها صدى صوت يميزها. وصل إلى خارج الباب الكبير والمقوس لمكتبه، وقبل أن يفتح الباب استدار ونادى غاضبًا:

«بابافينجوس!».

أغلق أندونيس الباب خلفه محدثًا صوتًا شديدًا، ولم يطل انتظاره، فقد هرول إلى المكتب أناستاسيوس بابافينجوس- رئيس العمال- وهو رجل ضخم الجثة أو كما يطلقون عليه فى المصنع " العربة المتحركة". فى كل مرة يدخل فيها بابافينجوس مكتب رئيسه كان يعبر، بقامته العالية، مساحة الخمسة عشر مترًا التى كانت تفصل بينه وبين مكتب أندونيس مسرعًا، مما أعطى انطباعًا عنه بأنه لا يسير على قدميه، ولكن

فوق عجلات متحركة. ولم ير أندونيس من قبل وجنتي إنسان ترتجف من الخوف بهذا الشكل، ولذلك فقد كان يحاول جاهداً التماسك حتى لا ينفجر من الضحك، ولم ينتبه بابافينجوس لذلك حيث كان أندونيس محافظًا على تلك النظرة الصارمة.

– «بابافينجوس، ابحث عن هؤلاء السادة الذين قاموا بتثبيت شعار التاج الملكي على البوابة الخارجية وأرسلهم إلى منازلهم " في الحال "(قالها بالفرنسية)».

أخرج رئيس العمال منديلاً وأخذ يجفف عرقه، ثم قال:

«سيد خاراميس، لو سمحت لي.......».

– «بابافينجوس، لن أسمح لك بمناقشتي، قلت لك أن ترسلهم إلى منازلهم. "انتهى الأمر" (قالها بالفرنسية)».

بابافينجوس: «حسنًا، سيد خاراميس، "مفهوم "(قالها بالفرنسية) سيد خاراميس».

ثم بدأ كالمعتاد يسير للخلف دون أن يستدير، حتى يتأكد أن مديره لم يعد بحاجة إليه، وبعدها يستدير ويتجه للخروج. ومن المؤكد أن رئيس العمال قد تدرب كثيراً على التحرك بخفة في مكان مثل هذا يعج بكل تلك المعوقات من سجاد ومناضد وأرائك، فقد كان يتحرك إلى الخلف بظهره دون أن يتعثر ويسقط على الأرض؛ وجال بخاطر أندونيس عما سيحدث لو أنه قام يومًا ما دون سابق إنذار بتغيير ترتيب الأثاث في حجرة مكتبه، الذي يغطي بالكاد مساحة المكتب التي تتعدى المائتي متر مربع، عندئذ سيصبح بابافينجوس في موقف صعب.

يعد وجود رئيس العمال في مكتب خاراميس في ذلك الصباح بمثابة انتهاك لبروتوكول ثابت منذ أعوام، فالكل على علم بأنهم ممنوعون منعًا باتًا من إزعاج رب العمل الكبير في النصف ساعة الأولى من الصباح. ولأنهم كانوا يشاهدون، جوليا، سكرتيرته الخاصة، تعد له القهوة وتقدمها على الصينية، فقد كانوا يفترضون أن رجل الصناعة غريب الأطوار كانت لديه الرغبة في الاستمتاع بمفرده بمذاق القهوة، كعادته، ولكن يبدو أن الأمر كان أكثر من مجرد فنجان من القهوة أو سيجارة. حيث كان

يخصص هذا الوقت لاسترجاع شريط حياته بشكل سريع، وبخاصة فى تلك اللحظة التى كان يفتح فيها علبة السجائر الفضية، التى تحتوى على أفضل أنواع السجائر، حيث كانت تنطلق من العلبة نفسها ذكريات حياته كلها. ورغم أنه كان يعمل داخل هذا المكتب الكبير الأنيق، فإن ذلك لم يجعله ينسى أنه كان يعيش فى بداياته الأولى فى كنف أب لا يستطيع أن يتحمل شظف العيش كونه مجرد عامل بسيط فى مصنع للدخان، مما دفع زوجته وابنه للعمل بدلاً منه. أخذ أندونيس يتذكر نفسه عندما كان يعمل طوال أيام الأسبوع فى واحد من أسوأ مخازن التبغ فى مدينة كافالا باليونان، فى ظل نظام سيئ للتهوية وإضاءة ضعيفة. فى مثل هذه الظروف، كان من المستحيل أن تتحمل أمه المريضة مثل تلك الحياة. وعندما ماتت، كان عمره يقترب من العشر سنوات، إلا أن هذا لم يمنع أباه من إرساله إلى صهره قاسيليس، وهو أحد صانعى الدخان فى إسطنبول، ليعمل لديه على أن يقوم الصبى الصغير بإرسال كل ما يكسبه من مال إلى والده فى كافالا. عمل الاثنان لمدة ثلاث سنوات فى مصنع الأخوان سوسيذيس، فى شارع إسكى بالوك رقم ٢٨ فى مدينة جالاتا. وفى عام ١٨٧٤عندما قامت شركة " ريجى أوتومان للدخان" ببيع مصنع إسطنبول وجد أندونيس الصغير نفسه فى موقف حرج، حيث كان أبوه يهدد بإعادته مرة أخرى إلى مدينة كافالا، وبخاصة بعدما توقف الفتى عن إرسال أية أموال إليه من إسطنبول؛ عندئذ ترجى العم قاسيليس يوانيس سوسيذيس، الذى كان يتردد على القاهرة لتأسيس مصنع جديد للتبغ، لكى يصطحب معه ابن أخيه، وحتى يتمكن من إقناعه، فقد كذب عليه وأخبره أن الصبى قد بلغ سن الثامنة عشر من عمره.

لم يدرك أندونيس أبداً ما الذى جعله يرتبط بهذه المدينة ذات الميناءين. على أية حال، فقد قرر منذ اللحظة الأولى التى وطئت فيها قدماه مدينة الإسكندرية أن لا يهتم باتباع ما تم رسمه له من خطوات. لقد أصبح " سبرسجى" (هكذا ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) – يقصد جامعًا لأعقاب السجائر – وكان أحد الصبية فى نفس مرحلته العمرية قد أشار عليه بجمع التبغ من أعقاب السجائر، ثم بيعه أو استخدامه فى إعادة تصنيع نوع من السجائر رخيصة الثمن لمدخنى السجائر، ولم تكن مهمة سهلة.

كان أندونيس وحده يعلم كم من الساعات تجوَّل فيها بين المقاهى والمطاعم، شتاءً وصيفًا، مترقبًا الحصول على أصغر عقب سجائر قد يجده، وهو ما كان معروفًا لكل الناس مما جعلهم يتفننون فى تعذيبه بكل الطرق: فكان هناك من يطأ بقدمه على يده فى اللحظة التى كان يمدها لالتقاط أعقاب السجائر، وقد حدث ذلك مرتين أو ثلاث مرات. لكنه لم يستسلم واستمر فى هذا العمل المهين. ولم يتردد فى أن يكتب لعمه ڤاسيليس، الذى كان ينتظر منه خطابًا لكى يطمئن عليه، ويخبره بأنه قد وجد عملاً فى محل لبيع السجائر فى الإسكندرية، وجاء هذا الخطاب على النحو التالى: **«عمى الحبيب ڤاسيليس، الحصول على النقود هنا يتوقف على كمية السجائر التى تقوم بإعدادها، فبعض العمال يقومون بإعداد ألفى سيجارة فى اليوم، وأتمنى أن أصل أنا أيضًا فى القريب لهذا الرقم».**

لم ينس أندونيس كيف كان العالم قاسيًا على صبى صغير يحيا دون أسرته، كما لم ينس أيضًا ذلك الحب الذى عرفه فى ظل أسرة بابيس يورغاس التى تنحدر من جزيرة سيمى باليونان خلال أحداث عام ١٨٨٢، عندما احترق أكثر من نصف مدينة الإسكندرية وسارع الأوربيون بركوب البواخرالأوربية باحثين عن النجاة. وحتى الآن ما زال يتساءل ماذا كان سيحدث له لو لم يأويه السيد يورغاس وزوجته فى منزلهما المتواضع "بشارع"(ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) القيامة. وظل فى كنفهما حتى هدأت حدة هوجة عرابى الوطنية ولم يخرج من مكانه، إلى أن دخل الإنجليز الإسكندرية وأحكموا سيطرتهم عليها، ثم احتلوا القاهرة بعد ذلك وأصبحت مصر مستعمرة إنجليزية. أقام الإنجليز الغزاة العديد من المحاكم العسكرية التى كانوا يحاكمون فيها المصريين بمحاكمات عاجلة، ثم يشرعون فى تنفيذ حكم الإعدام عليهم فى ميدان القناصل. ظل أندونيس مختبئًا لمدة شهرين فى جحر الفئران فى شارع القيامة، لم يتناول فيهما سوى الحساء والخبز. ثم قررت تلك الأسرة التى تنحدر من جزيرة سيمى أن تبقيه معهم بعد انفراج الأزمة، وأصبح أندونيس بمثابة الأخ الأكبر لابنهم الوحيد. فى ذلك الحين، كان يورغوس فى الخامسة عشر من عمره، يذهب كل صباح إلى مدرسة توسيتسايا، ويستذكر دروسه كل مساء تحت ضوء لمبة الجاز.

وجد يورغوس نفسه وقد أصبح تلميذًا ومعلمًا فى نفس الوقت: تلميذًا يعلم نفسه، ومعلمًا يعلم أندونيس. حتى أشار يورغوس على أندونيس بأن يتم قيده فى المدارس الليلية للغات الأجنبية. وهكذا فقد قدم يورغاس ووالداه الكثير من أجل جامع السبارس الذى ينحدر من كاڤالا. وإذا كان تقدير خاراميس لأسرة يورغاس قد استمر حتى الآن، وهو أمر لا شك فيه، فقد تعرض هذا التقدير لأقسى اختبار.

فى أقل من ساعة عاد بابافينجوس مسرعًا إلى مكتب رئيسه، وكانت وجنتاه ترتجفان فى هذه المرة من نشوة الانتصار. فقد حدد بشكل رسمى "القائمة السوداء" التى تضم أنصار الملكية والذين تآمروا بثورة "التاج الملكى"، كما وصفها بابافينجوس، وقال: «لقد قمت بنفسى بتقرير مصير الخمسة الأوائل فى القائمة، أما السادس فقد ارتأيت أنه من الأفضل أن تقرر مصيره بنفسك».

مر أندونيس بعينيه فوق الأسماء المكتوبة بحروف صغيرة ثم قام بتركيز نظره على الاسم الذى كان مكتوبًا بحروف كبيرة فى أسفل الصفحة، وهو اسم " يورغوس يورغاس".

– «هذا ما كان ينقصنا، يا بابافينجوس، أن تتصرف بنفسك فى هذا الأمر» ردد ذلك أندونيس وهو فى شدة انفعاله، ثم أكمل حديثه الغاضب قائلاً: «إذن لدينا: يورغوس خاريتوس "نائب مدير المبيعات"، نيكوس كسيناكيس "مدير المخازن"، ستيفانوس مانوس" الحارس الليلى"، ثم العاملان اللذان قاما بتثبيت شعار التاج الملكى، ويتبقى يورغيوس يورغاس "المحاسب". نعم....... قم باسداء خدمة لى. يا سيد بابافينجوس».

بابافينجوس: «أنا رهن إشارتك، سيد خاراميس»

– «أبلغ يورغوس بالحضور إلى هنا بسرعة، على أن يكون بمفرده، وأريدك أن تستدير ككل البشر أثناء خروجك من مكتبى».

– «لكن سيد خاراميس، أنت تعرف، فأنا طبقًا لمنصبى.....».

– «أعرف، أعرف، حسنًا، نفذ ما أمرتك به، ومن ناحيتى فلن أوجه بصرى تجاهك. هيا، أيها الرجل الطيب».

لم تكن طريقة دخول يورغوس إلى مكتب أندونيس تخضع لأية مراسم صارمة، على النقيض من طريقة دخول بابافينجوس؛ فقد طرق يورغوس الباب ببساطة ثم دخل مباشرة. لم يحرص على ارتداء الملابس الرسمية، حتى إنه لم يخلع الأكمام السوداء التي يرتديها دائمًا لحماية أكمام قميصه، في حين كانت رابطة عنقه تتدلى حول عنقه دون أن يقوم بربطها. لم يكن أندونيس يقبل تلك الهيئة من أي شخص آخر، وأخذ يسأل نفسه إذا ما كان المحاسب قد بدا على هذا النحو ليظهر له مدى انهماكه في العمل أم أنه أراد أن يخبره بشكلٍ غير مباشر أنه لا يملك الكثير من الوقت من أجله.

يورغوس: «هل أرسلت في طلبي، يا أندونيس؟» قال ذلك، ثم جلس في أحد صالوني المكتب، لم يجلس يورغوس في الصالون الذي يتميز بطرازه العربي، ولكنه جلس في الصالون الآخر المريح الذي يحتوي على السجاد الفرنسي، وهو الصالون الموجود على يسار الغرفة. وفي الحال، قام بخلع نظارته المستديرة ومسحها بمنديله، ثم فرك عينيه وارتدى نظارته مرة أخرى، موجهًا بصره نحو خاراميس.

أندونيس: «يورغوس، يمكنك تدخين سيجارة» قال ذلك مديره وهو جالس في مكانه.

– «لا تحاول إغرائي، يا أندونيس، تعرف أنني أحاول الإقلاع عن التدخين، فربما أتخلص بذلك من آلام معدتي».

– «لم تكن آلام معدتك بسبب التدخين، يا يورغاس، أشعل سيجارة إذن».

– «حسنًا، طالما تقول ذلك، سأشعل سيجارة لنتذكر بها الأيام الخوالي. أتعرف، في كل مرة أنظر إلى هذه العلب ويداخلها هذا التبغ غير المعبأ، وعليها رمز محمد علي، أشعر وكأنني أراك أمامي مرة أخرى وعمرك ثمانية عشر عامًا»

– «يورغوس، لقد مرت سنوات عديدة منذ ذلك الحين، لماذا تريد أن تتذكرها؟».

– «لا ينبغي على الإنسان أن ينسى من أين بدأ، يا أندونيس».

– «صحيح، كما لا ينبغي على الإنسان أن ينسى في كل لحظة أين أصبح».

نظر يورغاس إلى أندونيس نظرة قلق فى حين رأى أندونيس فى تلك النظرة وكأن والدة يورغوس هى التى تنظر إليه.

- «هل كان الخطأ الذى ارتكبته فادحاً إلى هذه الدرجة؟».

- «بدرجة لا تتخيلها».

- «ظننت أنه لن يزعجك ذلك».

- «كيف وصلت إلى هذا الاستنتاج؟».

- «لم أعهدك مهتمًا أبدًا بالسياسة من قبل».

- «وهذا لا يعنى أنه ليس من حقى أن تكون لى وجهات نظر شخصية».

- «هل هناك شىء آخر!».

- «حسنًا؟».

- «بصدق، لم أكن أعرف أن الأمر سيزعجك إلى هذا الحد!».

- «فلنترك أمر إذا ما كان يزعجنى أم لا جانبًا، هذا الفعل المرفوض كان من الممكن أن يعرضنى للمخاطر».

- «أى نوع من المخاطر؟».

- «لا أدرى، أولاً المخاطر السياسية، ألا ترى ماذا يحدث فى الإسكندرية كلها، ثم المخاطر التجارية، إذا كانت لديك الرغبة فى المعرفة. لا تنس أننا قد توقفنا منذ زمن بعيد عن أن نكون الموردين الرسميين للملك. ولا تنس أيضًا أن المورد الرسمى الحالى للملك هو أحد منافسينا فى المدينة».

- «لديك حق فى ذلك، فقد كان تصرفًا أحمقًا من جانبى» قال ذلك يورغوس وقد تلعثم فى حديثه، ثم أطفأ سيجارته فى منفضة السجائر، حيث بدأ يشعر بالفعل بتقلص فى معدته.

- «حسناً؟».

- «أندونيس، لا تلقى بى فى الشارع، أرجوك. إذا كنت تذكر.....».

- «توقف، من فضلك، كيف واتتك الجرأة أن تفكر فى حدوث مثل هذا الأمر؟».

- «إذن، أخبرنى كيف يمكننى إصلاح ما فعلت، سافعل أى شىء تطلبه منى. هل تريد منى التوقيع على اعتراف. سأفعل أى شىء تقوله». وكان أثناء حديثه يخلع نظارته ثم يضعها باستمرار وبلا داعٍ.

كان يورغوس فى حالة سيئة، أما أندونيس، الذى لم يستطع أن يراه فى تلك الحالة، فقد نهض من مكانه، ثم توجه نحو النافذة الموجودة على يمينه. كادت السيجارة التى كان قد أشعلها منذ لحظات أن تحترق فى يده. توقف برهة وقد أدار ظهره ليورغاس وأخذ ينظر للمراكب التى تسير فى ترعة المحمودية. ثم بعد ذلك، وبدون أن يستدير نحو يورغوس، قال:

- «يورغوس، كلانا يعرف جيداً ماذا قدم الواحد منا للآخر. ولا أخفى عليك، فأمام ما حدث اليوم أشعر وكأننا قد أصبحنا متساويين. لا أستطيع أن أبدى أى نوع من التعاطف معك بعد الآن، ويمكنك أن تعتبر هذا تحذيراً».

- «إذن، ماذا تريدنى أن افعل؟ أخبرنى، أرجوك، بالتأكيد هناك شىء يمكننى القيام به لإصلاح خطئى».

- «أعتقد أنها ربما تكون فكرة جيدة لو أنك تركت الإسكندرية لبعض الوقت. يمكنك، مثلاً أن ترعى مخازننا فى المنصورة وطنطا. ما رأيك؟» عرض خاراميس فكرته وجلس بجواره فى الصالون الأوربى.

- «تريد أن تنفينى إذن، ليكن ذلك، فقد أخطأت ولابد أن أدفع الثمن. ليست لدى أدنى شكوى من ذلك».

– «يورغوس، يا صديقى، أنا لا أنفيك بل أحميك. فأنا أفعل بالضبط مثلما فعل أهلك معى منذ ثلاثين عامًا مضت. إذا كان وصول فينيزيلوس المتوقع قد أشعل النفوس إلى هذا الحد فكن واثقًا من أن وصوله لمصر سيؤدى إلى حدوث اضطرابات شديدة، ولا أريد أن أراك تواجه مثل هذه العاصفة».

– «لكن ألم تفكر فى زوجتى، وابنتى....» ثم بدأ يخلع نظارته ويضعها مرة أخرى بشكل مستمر وبطريقة أثارت غيظ أندونيس.

– «يبدو أنه ينبغى علىَّ أن أتحدث معك بطريقة أخرى، حسنًا، استمع إلى ما سأقوله لك بحرص شديد. تعرف، بالطبع، ثاناسيس، ابن عم زوجتى....».

– «إنه معروف ولكنه ليس مميزًا» هكذا أجابه يورغوس بطريقة ساخرة.

– «حذرنى ثاناسيس، المعروف وليس المميز، منذ عدة أيام من أن أنصار ڤينيزيلوس يعدون لطرد أنصار الملك بحجة زيارة فينيزيلوس نفسه لمصر. إن ذكاءك أنت وميخيليس يثير الاشمئزاز. فقد فكر ميخيليس فى الهروب إلى القاهره لبعض الوقت. وأنت، ماذا تنوى أن تفعل؟»

ترقرقت الدموع فى عينى يورغوس، لكن التجاعيد التى رسمها الزمن حول عينيه منعتها من الانسياب على وجنتيه لأنها لو انسابت لرسمت على وجهه المجعد خطين واضحين. عندئذ قال أندونيس:

«اللعنة عليكم وعلى السياسة فى آنٍ واحد. أيها الفتى، ما الذى يجعلكم تتناحرون هكذا كالكلاب؟» قال ذلك بتأثر شديد، ثم عانق يورغوس عناقًا طويلاً.

أحس يورغوس بالخجل من انفعال أندونيس، ومسح عينيه بظهر كفه، ثم أسرع بمغادرة مكتب مديره تاركًا نظارته على المنضدة الصغيرة بالصالون. غاص أندونيس فى المقعد الجلدى وقد شعر بالارتياح، ثم أخذ يجول ببصره فى المكان. بداية من المكان الذى يجلس فيه حتى الباب الخشبى الضخم ذى النقوش البارزة الذى بدأ يتفحصه

بصعوبة. فمن هذا المكتب الفسيح، الذى قرر أن يكون مقراً له لإدارة مصنعه الكبير، كان يستطيع أن يتأمل جزءًا كبيرًا من سماء الإسكندرية مقسمة بين النافذتين الواسعتين بمكتبه. وقد غمر ضوء النهار كل أرجاء الحجرة، موضحًا تفاصيل الديكور الداخلى، باثًا الحياة فى ألوان السجاد الفارسى، ومبينًا العديد من التفاصيل الدقيقة فى اللوحات الأربع الثمينة المعلقة، والتى كانت تعبر عن إلهام رسامين عظام؛ كان الضوء المبهر أيضًا يحجب عن عيونه ذلك النقش المقوس الموجود أعلى الصالون من ماركة لوى كينز(أو لويس الخامس)، فى حين كان ينعكس فوق شريط الصدف الذى يزين الأريكة بالصالون العربى الموجود فى زاوية الحجرة. كما استطاعت بعض أشعة الشمس أن تتسلل حتى السقف، وتبعث البريق فى قطع الكريستال اللا متناهية فى الثريا المعلقة به، فى حين كان هناك خيط مضىء ينساب على المكتب الضخم، جاعلاً حبات تلك المسبحة الكهرمانية الكبيرة التى أهداها له إلياس، تتلألأ بضوءٍ يضاهى ضوء تلك الأباليك المعلقة على الجدران. كان يمكن للستائر الثقيلة والأخرى الخفيفة أن توقف انتشار الضوء، إلا أن أندونيس كان مرحبًا بتلك الانعكاسات الصادرة عن ضوء الشمس على أسطح الأثاث الموجود بحجرة مكتبه.

وكانت المطربة المشهورة ساره برنار قد أحست بنفس تلك الانطباعات منذ عدة سنوات عندما زارت المصنع الجديد لكى تستمتع عن قرب بذلك المكان «الذى ينشر فى العالم كله متعة التدخين». ويبدو أن المطربة الكبيرة لم تكن ترغب فى مغادرة مكتبه فى ذلك اليوم، فقد أمطرته بوابل من الأسئلة، وعندما عادت إلى الفندق، دعت أحد المصورين وجعلته يلتقط لها صورة تظهر ما بداخلها من متعة حسية تعادل إحساسها عندما تقوم بتدخين سجارة من سجائر ماركة خاراميس. ومنذ ذلك الوقت، مازال أندونيس يحتفظ لنفسه بتلك الصورة فى أول درج بمكتبه داخل حافظة جلدية خاصة. وكان ينظر أحيانًا إليها، ثم يقرأ مرة أخرى ما دوِّن عليها من إهداء مكتوب (باللغة الفرنسية)، والذى جاء فيه :

"إلى السيد خاراميس، تذكار لزيارتى للمصنع ولتقديرى الخالص بهذه الهدية الملكية من السجائر".

ساره برنار

كانت لدى أندونيس الرغبة فى مشاركه إيفيت تلك اللحظات المؤثرة، حتى يشاهد فى عينيها ذلك الإعجاب البرىء بإنجازه وبذوقه الرفيع الذى زين به مكان عمله من الداخل، وكذلك، وبشكل خاص، بقدرته على التعامل مع الناس ومع المواقف.

* * * * *

" لم نأت إلى هنا فقط بسبب الحرب أو التجارة أو حتى الحب، ولكن أيضًا بسبب السياسة"، هذا هو ما جال بخاطر أندونيس خاراميس فى اليوم التاسع عشر من شهر أبريل لعام ١٩١٥، عندما شاهد إليفثيريوس ڤينيزيلوس فى سيارة مكشوفة متجهة إلى ناحية شارع الجمرك القديم، حيث يوجد النادى اليونانى، مصحوبًا طوال الطريق بهتافات حشد غفير من اليونانيين.

فى صباح ذلك اليوم، الإثنين، الذى كان أندونيس يفضل أن يستلقى فيه فى أحضان إيفيت، اتشحت المدينة كلها باللونين الأبيض والأزرق من أجل إبهار زعيم الأمة اليونانى. وقد عبر ڤينيزيلوس، بعد أن فوجئ بهذا الاستقبال الحافل الذى لم يشهده من قبل، عن سعادته برفع باقة الزهور التى كانت بحوزته والتلويح بقبعته ردًا على تحية آلاف القبعات التى كانت تلوِّح له تحت الأعلام اليونانية. ومن شرفات قاعة أيسخيلوس شاهد ڤينيزيلوس إطلاق الحمام الأبيض، وفى نفس الوقت كانت مجموعة من الفتيات الصغيرات تقذف بالورود بشكل متواصل من شرفات نادى محمد على.

وفى نفس اللحظة التى تحول فيها الزعيم الوطنى إلى نقطة تجمع الجماهير ملتهبة المشاعر، كان أندونيس يعانى حتى يستطيع العبور من هذا الطوفان من البشر الذى اكتظ به المكان بأجمعه حول النادى اليونانى. لكنه تمكن فى النهاية من الدخول

إلى القاعة الكبرى بالنادى دون أن يصاب بأى أذى قبل وصول فينيزيلوس بلحظات قليلة، والأهم من ذلك أنه مازال يحتفظ بقبعته الطويلة الممددة فوق رأسه، تلك القبعة التى كاد أن يفقدها مرتين وسط الزحام. وقد قام بتحية بعض الحاضرين برفع وخفض قبعته خمس مرات على الأقل، وكان من بين من قام بتحيتهم جاره الذى يحمل اسمًا مشابهًا لاسمه، أندونيس بيناكيس، الذى استقبله بابتسامة عريضة وودود من تحت شاربه الضخم، رافعًا قبضة يده لأعلى، وكأنه يريد أن يحييه على ردة فعله القوية تجاه "ثورة التاج الملكى" التى كانت على وشك أن تشتعل فى مصنعه، فتلك الأخبار تنتقل بسرعه بين أرجاء مدينة الإسكندرية .

أما بالنسبة لقبعته الطويلة فقد دب شجار بين أندونيس خاراميس وبين زوجته بسببها. فقد أوشكت ذافنى أن تحطم أعصابه هذا الصباح عندما شاهدته يخرج من المنزل فى تكبر واختيال، مرتديًا قبعة مصنوعة من القش المجدول وبذلة أنيقة. كيف جرؤ على التفكير فى مقابلة ڤينيزيلوس العظيم برداء أقل من "الردينجوت" (وهى بذلة بسترة طويلة) والبابيون، عندئذ قذفته ببعض الكلمات (الفرنسية) حيث قالت: «إنك لا تفهم جيدًا فى الذوق الرفيع». أما أندونيس، الذى انتابه الشعور بأن مظهره يبدو مضحكًا فى تلك القبعة الطويلة، فقد تمسك برأيه فى أن القبعة تبدو ضيقه على رأسه، وكذلك كانت حال بذلة الردينجوت الضيقة من الأكتاف. ومن حسن الحظ أن هذا الطوفان من البشر كان يهدأ فى بعض الأحيان وإلا لضاعت كل هذه الأناقة سدى قبل أن يصل إلى النادى.

وكان قائد الأمة قد وصل إلى الميناء الغربية بالباخرة "سوريا"، قبل موعده المحدد، بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة ظهرًا، تحوطه العديد من المراكب، التى ما لبثت أن أفسحت له الطريق حتى يتمكن من العبور. ولم تسمح السلطات البحرية سوى للقارب الذى يقل القنصل ورئيس الجالية اليونانية بالاقتراب من الباخرة التى تقل فينيزيلوس. ويقولون إنه بمجرد نزول فينيزيلوس إلى الميناء، بات من المستحيل أن يتقدم قيد أنملة من شدة الزحام، وقد تطلب الأمر تدخل الشرطة حتى تمكن من ركوب

السيارة المكشوفة، ثم بدأ فى مسيرته الشعبية تجاه النادى اليونانى. وفى واقع الأمر، فقد بدأت الصعوبات منذ اللحظة التى صعد فيها القائد اليونانى إلى السيارة. فى تلك اللحظة، فقد الناس صوابهم بمعنى الكلمة والتفوا حول السيارة رافضين تماماً أن يفسحوا لها الطريق. بدأ السائق فى إطلاق نفير السيارة بعصبية شديدة فى الوقت الذى بدأت فيه المراكب فى إطلاق صافرات الترحيب؛ كان الإيطاليون يحملون الأعلام اليونانية، كما أخذ الجنود الأستراليون يلوّحون بقبعاتهم غريبة الشكل، ذات اللونين الأبيض والأزرق، من فوق الباخرة الروسية " أغيا كاثرين العظيمة"، تفاعلاً مع تلك المناسبة؛ فى حين كان رئيس الجالية اليونانية يتوسل لكل هذا الحشد من الناس أن يفسحوا الطريق حتى يتحرك الركب، لكن دون جدوى، مما دفع ڤينيزيلوس نفسه ليرجوهم دون أية نتيجة تذكر. وفى النهاية، استطاعوا المرور من هذا الزحام دون أن يدرك أحد كيف حدث هذا. تعطل الموكب الذى كان يتكون من: الصحفيين وفينيزيلوس وطاقم حراسته مرة أخرى فى شارعى عمارة الليمون وفرانكا، حيث تجمع عدد كبير من المصريين واليهود مع اليونانيين، وتسبب ذلك فى زحام شديد لا يدانيه زحام؛ وتوقفت تماماً حركة المرور فى شارعى شريف باشا ورشيد. أما أندونيس الذى عانى بشدة لاجتياز شارع رشيد تجاه الجهة المقابلة، فقد استطاع أن يلمح من بعيد تلك السيارة المكشوفة التى تقل رجل السياسة اليونانى، الذى وقف فى تلك اللحظة لضباط الجيش الإنجليزى حتى يتمكنوا من تصويره من أعلى مبنى مركز الحامية الإنجليزية.

وهكذا وفقًا لما سارت عليه الأمور، فقد كان أندونيس محظوظًا بشكلٍ كبير، إذ استطاع أن يصل إلى هذا المكان سليماً ومحافظًا على هندامه من أجل استقبال رجل السياسة اليونانى. وبعد بضع دقائق صاح أحدهم قائلاً «فينيزيلوس يدخل». كان هذا الصوت مفعماً بالحماسة وكأنه كان يصيح «حريق». شعر أندونيس بانقباض فى معدته فى اللحظة التى دخل فيها رئيس الوزراء السابق إلى القاعة الكبرى، وعندما تلفت من حوله، وجد أن كل من كانوا حوله تقريبًا قد شرعوا فجأة فى البكاء. تأثر أندونيس بالحالة النفسية للجميع، ووجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه، فقد أحس بالدموع تبلل

وجنتيه؛ وعندئذ تذكر فجأه يورغوس وهو يبكى يوم الجمعة فى مكتبه، ثم تذكر إيفيت التى تنهمر دموعها كلما شعرت بالوحدة التى تعيش فيها فى الإسكندرية، وأخيراً تذكر ذافنى التى دائمًا ما تستغل دموعها كسلاحٍ قوى تستخدمه فى مشاجراتهما. ورغم كل هذا لم يشعر أندونيس بالارتياح، حتى بعد مصافحته ثاناسيس الذى يراه الآن غارقًا فى دموعه، مستندًا على كتف زوج أخته - موظف البنك. فى مثل هذه الأجواء التمس أندونيس العذر لميكى سينادينوس، رئيس الجالية اليونانية، الذى لم يستطع أن يقرأ كلمة واحدة من خطبته التى أعدها من قبل. وكان لابد أن يقوم أحدهم بتقديم الزعيم اليونانى، حيث تحولت كل تلك المشاعر إلى أمر مضحك، وكان كل شخص ينظر إلى الآخر بعيون دامعة. ولحسن الحظ، فقد استجمع سالفاجوس قوته لتقديم المتحدث، ساعده فى ذلك ممثلو الجالية الفرنسية. وفى خطبته بدأ فينيزيلوس قائلاً:

«أشكركم بشدة على هذا الاستقبال الذى أعددتموه» (عندئذ تعالت أصوات بعض الحضور قائلين: «الاستقبال لم يكن معداً، سيدى الرئيس، ولكنه ما أملاه علينا إحساسنا!») وعندئذ قال فينيزيلوس، مصححًا: «أعنى الاستقبال الذى حدث». وعندئذ تعالت أصوات الناس من خارج النادى يهتفون باسمه بشكلٍ مستمر. بدأ السياسى اليونانى يفقد صبره، فقد أرهقته كل تلك المشاعر المعبرة عن الحب بشكل مبالغ فيه، حتى وصل به الأمر أن خرج بنفسه إلى شرفة النادى ليطلب من الجماهير أن تنصرف. وأخيراً، كان على أحدهم أن يضع حداً لهذه الهستيريا الوطنية، ولم يكن هناك أفضل من ذلك الذى يهتفون باسمه وهو فينيزيلوس.

«ألن تذهبوا إلى منازلكم» قال ذلك أندونيس متذمراً، كل ما فى الأمر أنه على دراية بأن إيفيت لن تقبل عذر وصول فينيزيلوس باعتباره سببًا لتأخره عليها. ولذلك فقد عاقبته بتأخير موعد رحيله عنها حتى تخطى الوقت المعتاد. وفى نهاية اليوم وصل أندونيس متأخراً إلى منزل جاره، بيناكيس، حيث كان مدعواً على عشاء رسمى على شرف رئيس الوزراء السابق. ويبدو أن البعض كان قد تحدث مع فينيزيلوس عما أسموه "بثورة التاج الملكى" مما جعل فينيزيلوس يلقى عليه بتحية مفعمة بالود، قائلاً:

«بمجرد عودتى من القاهرة، سأتوجه، بكل تأكيد، لزيارة مصنعكم. فقد سمعت أنه تحفة حقيقية».

وبالفعل فقد تحقق ذلك عندما عاد فينيزيلوس من القاهرة بعد مضى أسبوع واحد فقط، حيث أوفى بوعده ومنح أندونيس شرف العبور من بوابة مصنعه وفى صحبته سكرتيره الخاص مارك أنطوناكيس والقنصل ساختوريس. خرج جميع العاملين بالمصنع:من يونانيين ومصريين ويهود وأرمن وسوريين ولبنانيين، وأمطروا فينيزيلوس من النوافذ بالورود حاملين أعلام اليونان وهم يصيحون:«عاش ڤينيزيلوس العظيم».

عبر فينيزيلوس مرة أخرى عن سعادته بما يراه فى المصنع قائلاً: «لقد حدثونى كثيراً عنه، لكنى لم أكن أتخيل أنه على هذا النحو من الإبداع». لم يكن أندونيس يدرك أن كل ذلك سيحدث بسبب ردة فعله الحاسمة تجاه من ادعوا أنهم أنصار الملكية وشعر بالرضا من نفسه.

وكان منزل أندونيس خاراميس من بين منازل علية القوم من الجالية اليونانية التى زارها فينيزيلوس فى تلك الليلة.

«إنها لحظة تاريخية» هكذا قالت ذافنى وأسرعت لتلتقط إحدى الصور لها مع فينيزيلوس، تلك الصورة التى علقتها بعد ذلك فى مكان ظاهر بالمنزل. ومن ناحية أخرى، كان أندونيس يدرك طبيعة زيارات فينيزيلوس السريعة وكان يشفق عليه وعلى نفسه فى ذات الوقت، وقد حرص أن يكون ثاناسيس دائمًا بجانبه، بل وحرص على تقديمه بطريقة لائقة، حيث قال: «اسمح لى أيها الزعيم، أن أقدم لكم أكثر مؤيديكم قوة فى الإسكندرية، أثاناسيوس بوستانتدزوغلوس».

«لن تتاح له الفرصة ثانية ليرى مثل هذه العظمة " بقال منطقة السيوف"» هكذا أخذت زوجته تتمتم.

أما ثاناسيس فقد أحس بسعادة حقيقية، فقد واتته الفرصة للحديث لمدة دقيقة كاملة مع معبود الجماهير ثم توجه، وهو فى شدة الامتنان، بالشكر لأندونيس.

ثاناسيس: «أشكرك يا أندونيس، فقد كان هذا اليوم هو أهم يوم فى حياتى».

أنـدونيــس: «"ليس هناك مـا يسـتوجب الشكر"(قـالهـا بالفرنسـيـة)، يا ثانـاسيس، ومن جـهـة أخـرى، إذا كـان هناك من يسـتـحق أن يشـد على يد هذا الزعيم فى الإسكندرية كلها، فبالتأكيد هذا الرجل هو أنت».

وبخلاف روتين هتافات الجماهير وكلمات المديح والمصافحة والمناقشات السخيفة، فقد تذكر أندونيس فيما بعد خطبة فينيزيلوس الملهمة عن الجمهورية التى ألقاها فى النادى اليونانى، تلك الخطبة التى تم نشرها كاملة فى جريدة " نيا زوى" (أو الحياة الجديدة)، ولم ينس أندونيس أن يرفعها كل صباح فى وجه ذافنى:

أندونيس: «اقـرئى مـاذا يقول زعيم الأمة عن الجمـهورية. اقرئيها أنت وميخيليس يا من كنتما ترغبان فى إدخال ابننا كوستيس فى مدرسة دخلية!» إلا أنها لم تمنحه الفرصة لاستكمال حديثه وقالت:

ذافـنــى: «أنت من تقول ذلك! يا من ذهبت لاستقبال فينيزيلوس العظيم مرتدياً قبعة من القش، وبذلة بخطوط طولية، " يا لك من سـخيف "! (قـالت ذلك بالفرنسية)».

* * * * *

لو كان فى الإسكندرية كلها ما يؤكد بصفـة مطلقة سيطـرة الإنجليز، فبالطبـع لن يكون المعنى بذلك هو الجيش الموجود فى شـارع مصطفى باشـا ولا السفن الحربية التـابعة للأسطول الملكى فى الميناء الغربية، ولكن سيظهر جليًا نادى سـبورتـنج. إنه صنيـعة الطبقـة الإنجليزية الراقـية بالمدينة منذ عـام ١٨٩٠، والذى كان يـعكس الروح الرياضية لأعضائه؛ إنه مجتمع إنجليزى حاكم. من جـهة أخرى، فلن يكون للأمر برمته معنى دون وجود ملاعب للتنس والجولف والبولو والكروكيه، أو دون وجود مضمار سباق الخـيول بشكل أسـاسـى. فى أى مكان آخر يمكن للإنجليز، بعقـولهم الضـيقـة، وباقى الأوربيين الترفيه عن أنفسهم سوى فى ناد يمثل الجانب المضىء من الحضارة الغربية؟

فى أى مكان آخر يستطيع كل محدث نعمة أن يجد فرصة أفضل من هذه للتقرب من السلطات البريطانية؟ وفى العام الأخير لمعت أسماء أخرى، إلى جانب أسماء أعضاء مجلس إدارة النادى الذى يتكون من ثمانية عشر عضواً واسم القائد الأعلى للجيش البريطانى، وأحد ضباط سلاح الأسطول الملكى، مثل أسماء كل من صامويل أريمان وإلياس خورى.

إلياس: «ما حدث لى يعد شرفًا عظيمًا، هل تدركين ذلك؟» هكذا صرح إلياس خورى لإيفيت عندما التقيا مصادفة لتناول فنجان شاى ما بعد الظهيرة فى منزل أحد تجار القطن الإنجليز.

إيفيت: «بهذه السرعة التى تسير بها، يا إلياس، فلا أظن أن هناك شرفًا آخر لن تناله فى هذه المدينة».

– «ألحظ فى كلامك لهجة تفيد عدم الرضا، أم ترانى قد أخطأت الفهم؟».

– «ما تلحظه هو بعض الضيق الذى له ما يبرره».

– «هكذا إذن!» (قالها بالفرنسية).

– «نعم (قالتها بالفرنسية)، وينبغى أن أذكرك بوجود مشكلات يومية فى منزل شارع مصطفى باشا، تلك المشكلات التى أضطر لحلها بمفردى. وبما أنك قد طلبت منا عدم المرور من شارع رشدى، فلا بد أن تحرص على أن نلتقى بين الحين والآخر، لا أن يكون اتصالنا مبنيًا على المصادفة مثلما حدث اليوم، على سبيل المثال»

– «هل يضايقك ذلك أننا لا نلتقى مثل الأيام الخوالى؟» قال ذلك وهو يشعر بثقة فى النفس، مما دفع إيفيت لأن تنفجر ضاحكة.

– «يا عزيزى (قالتها بالفرنسية)، إن ما يضايقنى ببساطة هو أنك قد حمَّلتنى كل المشكلات أما أنت فتفعل ما يحلو لك. لا شىء أكثر من ذلك».

– «إذن اعلمى جيداً أن إلياس لا يمكن أن ينسى إيفيت الصغيرة أبدًا» قال ذلك ثم أخرج من جيب الجاكت الداخلى كارتين.

- «ما هذا؟»(قالتها بالفرنسية).

- «كروت عضوية، فمنذ اليوم أصبحتِ عضواً فى رابطة نادى الفروسية بالإسكندرية».

- «ولماذا كارتين؟».

- «نما إلى علمى أخيراً أنك لا تذهبين لأى مكان بدون ماريانثى أرابيذيس».

- «أخبرنى إذن (قالتها بالفرنسية)، هل تكلف أحدٌ بمراقبتى؟».

- «يا عزيزتى، عندما تحتسيان القهوة فى مقهى " أثينايوس" أو أن تقوما بالتسوق فى محلات شارع شريف باشا، فلا داعى أن أكلف رجالى بمراقبتك، فكل الإسكندرية تتبعكما. ومن جهة أخرى، فليست لدى أدنى مشكلة، بل العكس هو الصحيح، تعرفى أن بانايوتيس هو صديقى، ويسعدنى أن أقوم بالترفيه عن زوجته ولو بشكل غيرمباشر».

- «هل يعنى هذا أنك مهتم بأمرها؟».

- «هل يعنى هذا أنكِ أصبحتِ غيورة فى الآونة الأخيرة عن ذى قبل؟».

كان بوسعهما أن يتجادلا لوقت أطول لو لم ترهما ربة المنزل وكلاهما يتأبط ذراع الآخر، تلك السيدة نحيفة القوام، ناتئة العظم، التى لها حدقتا عين هائمتين من تأثير وجود تضخم بغدتها الدرقية. قالت لهما تلك السيدة:

«ما الذى تتحدثان عنه كل هذا الوقت فى هذا الركن من المنزل؟ لو تركتكما مزيداً من الوقت لتحدثت عنكما الإسكندرية بأسرها فى صباح اليوم التالى».

وعلى الفور ساور إيفيت الشك فى أن هذه السيدة، التى كانت من شدة نحافتها تبدو وكأنها تسبح داخل ردائها الحريرى، كانت على دراية كاملة بما يدور فى المنزل الذى تديره فى شارع مصطفى باشا. وفى الوقت الذى استسلمت فيه إيفيت لها وسارت معها حتى منتصف حجرة الطعام الكبيرة، حيث تتلألأ ثريا "هولندية الصنع"

(دونّها بالفرنسية)، فكرت إيفيت فى عدد المنازل المماثلة فى المدينة التى يتم فيها تقديم هذا الشاى فى نفس التوقيت. وجال بخاطرها احتمال أن لا تكون هذه الدعوة للشاى قد حدثت بالمصادفة، كما كانت تعتقد. كانت الجالية الإنجليزية بالإسكندرية عبارة عن دائرة صغيرة ومنيعة، مكونة من رجال متأنقين ونساء متعاليات، فإذا ما جمعهم مكان واحد، أمضوا وقتهم فى لعب الورق وفى تبادل التعليقات الساخرة وهم يحتسون الشاى، ولم يكن هناك قاسم مشترك بين إيفيت وبين هؤلاء الناس. مَن إذن، فيما عدا إلياس، يمكن أن يهتم بالحصول على هذه البطاقات؟ فقد كانت بحوزة " اللبنانى" بطاقتى دعوة لرابطة نادى الفروسية والتى حدد إلياس مسبقًا أنهما لها ولزوجة أرابيذيس. وفى النهاية أقنعت نفسها بأن تلك هى الطريقة الوحيدة التى اختارها إلياس ليتمكن من مقابلتها بين الحين والحين.

سحبت إيفيت نفسها مرة أخرى بسبب انزعاجها الشديد من تلك الأضواء المبهرة التى غمرت المكان، ولكنها اتجهت هذه المرة نحو الزاوية الأخرى، إلى ذلك الركن الصغير الذى يحتوى على المقعدين الوحيدين المجدولين ومنضدة صغيرة وفازة منحنية الأضلاع، والتى بدت جميعها وكأنها تمتص أشعة الغروب بدلاً من أن تعكسها ملفحة بغطائه البنفسجى. من ذلك الركن الصغير تفحصت إيفيت وجه إلياس الذى غمره ضوء الثريا فلاحظت عليه أولى علامات الكبر غير المرغوب فيها. فقد بدت ملامح هذا الإرتخاء البسيط فى عضلات وجهه بوضوح تحت تلك الأضواء المبهرة، مما أظهر تلك الظلال غير المستحبة. كانت موسيقى شوبان، التى تنبعث من آلة بيانو غير مرئى، تعبر عن تلك اللحظة وكأنها تعلق بحزن على تلك الضرورة المُلِحة لوجود للفساد. بدت السيدة التى تعزف الموسيقى وكأنها أكبر سنًا من تلك التى كانت تثرثر معها منذ قليل بلا انقطاع، ممسكة بيدها فنجان الشاى. اشتمت إيفيت فجأة من حولها رائحة الكبر والموت، ولأنها شعرت اللحظات بتهديدهما لحياتها، فقد سارعت بإطفاء السيجارة التى كانت قد أشعلتها منذ برهة وكأنها بذلك تقاوم قوة الزمن المدمرة.

* * * * *

كان فصل الربيع بمثابة معاناة حقيقية لماخوس الصغير، حيث ظهرت عليه بقوة بوادر التهاب قديم فى قصبته الهوائية، وبدأ فى سعال متواصل استمر معه طوال الليل حتى كاد أن يحطم ضلوعه. تمنت ذافنى لو كان للتجول فى حدائق النزهة أثره الفاعل فى شفائه وفى انتهاء هذه المعاناة، كان من الممكن أن يتحقق لها ذلك لولا إصابة الطفل الصغير بنزلة برد مفاجئة فى شهر مايو جعلته طريح الفراش مرة أخرى. كانت الأيام الثلاثة الأولى من هذا الشهر مخيفة: فقد ارتفعت درجة حرارته، دون أمل فى تحسنها، وكان لها أثرها السيئ على جسد الصبى الصغير. استجاب الطبيب اليونانى العجوز كومانوس باشا، وهو صديق قديم لعائلة سينجوس ومدير المستشفى اليونانى بالقاهرة، الذى كان وجوده بالإسكندرية مصادفة، استجاب لتوسلات ذافنى بفحص الطفل المريض. وصل فى عربة فاخرة، وكان من السهل ملاحظة تلك الأوسمة المعلقة على الجاكت الذى يرتديه وكأنه ضابط فى الجيش أكثر منه طبيباً. وصف الطبيب للطفل دواء الكينا [٥]، لكن حالة الطفل لم تتحسن، وعندئذ رفع يديه لأعلى (إشارة لقلة حيلته) وأخبرهم بأنه إذا لم تنخفض حرارة الطفل خلال أربع وعشرين ساعة، فلا بد من نقله إلى مستشفى "سان سوفرونيوس". وقبل أن يصلوا إلى تلك النتيجة، تذكرت ذافنى الطبيب الشاب ستيفانوس باتيلوس، كان البعض قد رشحه لها بوصفه عائداً من ألمانيا حاملاً معه شهادات علمية كبيرة.

قام الطبيب الشاب بزيارتهم مساء يوم السبت، وهو قصير القامة يرتدى نظارة بعدسات مستيرة وجاكتاً فاتح اللون أكبر من حجمه حتى بدا وكأنه يسبح بداخله. وقد تزامنت زيارة الطبيب الشاب مع نهاية المدة الزمنية التى حددها الطبيب الآخر كومانوس. تم اصطحابه إلى غرفة الطفل المريض، حاملاً فى يده حقيبة بنية اللون كبيرة بشكل لا يتناسب مع حجمه ومازالت رائحة جلدها المصبوغ تفوح منها. بلغت الجدية المرسومة على وجهه مداها، وكان يهز كتفيه داخل الجاكت الواسع بطريقة توحى بأن جسده البدين كان ينكمش تحت ملابسه. بدأ يفحص الطفل بكل دقة،

---

(٥) كينا: دواء ضد ارتفاع درجات الحرارة والملاريا(المترجم).

ويستمع بسماعته الطبية لكل شيء في جسد الطفل المريض. بعد قليل أدركت ذافني أن هذا الانزعاج المرسوم على وجهه لم تكن له علاقة بالطفل المريض، بل بالنظارة التى كانت تزعجه فى كل مرة ينحنى فيها فوق السرير. وبالفعل، أثبت الفحص الطبى الدقيق، فى النهاية، عدم وجود سبب خطير يدعو للقلق، قال الطبيب: «سوف أحقنه بمادة ستجعله يغط فى نوم عميق. وفى صباح الغد سأراه مرة أخرى، كل شيء سيصبح على ما يرام».

لم يشارك كوستيس والآنسة جابى، دون غيرهما، الطبيب الشاب فى تفاؤله؛ ولهذا فكلما اقترب الأخ الأكبر من غرفة نوم أخيه الصغير، يرى مشهداً واحداً لا يتغير للآنسة جابى، التى كانت تبدو كالشبح فى الظلام بشعرها الأصفر المنسدل فوق ردائها الأبيض الذى يغطى ركبتيها، كانت تنحنى فوق ماخوس ممسكة بقطعة من القماش مبللة بالماء وتضعها فوق جبهته الساخنة. وكأن رساماً أراد أن يرسم مشهداً لطفل مريض يلقى العناية من مربيته فجعلها لا تتحرك من جانبه طوال الليل حتى ينتهى من لوحته.

وفى النهاية، تحسنت حالة الطفل فى صباح اليوم التالى، وشفى من الحمى التى أصابته وكأنه السحر، سواء أكان ذلك بسبب براعة الطبيب أم لمثابرة المربية، التى بدا وكأنها أخذت الأمور بشكلٍ شخصى. هلل الجميع لهذا التطور، حتى إن كوستيس، من فرط سعادته، قام بتقبيل يد الطبيب ستيفانوس باتيلوس الذى ابتسم سعيداً بتصرف الصبى وداعب شعره قائلاً: «لابد أنك تحب أخاك الصغير حباً جماً، يا صديقى». أما بالنسبة لأمه فقد نبهها الطبيب بخطورة فترة النقاهة، وعندما شرع فى مغادرة المنزل، أخبرها وهو يهز أكتافه بقوله: «لم ننته بعد، مدام خاراميس، سنكون على اتصال».

أدركت ذافنى ماذا تعنيه هذه الكلمات عندما بدأ السعال اللعين يهاجم الصغير بعد عدة ساعات، ومن حدته كان صوته يتردد صداه داخل أرجاء المنزل، تاركاً دلائل غير مبشرة لتحسن صحة الصبى الصغير. كان ماخوس يسعل طوال الليل، وفى كل مرة كان يشعر فيها بالرعشة كان يصيح (بالإنجليزية): «إنها قادمة، مس جابى، إنها قادمة». لكن تشخيص الطبيب فى اليوم التالى جاء مطمئناً. حيث قام بالكشف عليه

بسماعته الطبية وأعلن أن كل ما يحتاجه الآن هو بعض العلاج الشعبى(٦) الذى تعرفه النساء فى الأحياء الشعبية.

ذافنى: «لكن، سيدى الطبيب، ألا يوجد دواء فاعل لهذا السعال؟ أى شىء يوقف هذه المعاناة، فكل مرة أسمعه يسعل بهذا الشكل، أخشى أن تنفجر رئتاه»

الطبيب: «عزيزتى مدام خاراميس، لا أريدك أن تنزعجى. ويجب أن تعرفى أن السعال نفسه هو الدواء. ليس من الحكمة أن نوقف هذا السعال طالما يوجد هذا البلغم، "سواء أردنا أن نصدق ذلك أم لا "(قالها بالفرنسية)، فى حالتنا هذه لن يساعدنا سوى الطب الشعبى. تعرفين بالطبع ماذا تعنى كلمة الطب الشَعبى!».

ذافنى: «طبعًا طبعًا» تمتمت ذافنى بذلك، لأنها خجلت أن تقول عكس ذلك.

الطبيب: «آه، ولأننى الآن فى منزل رجل يعمل فى صناعة الدخان، حيث تشتعل وتنطفئ هنا السجائر بلا انقطاع، فينبغى علىَّ أن أحذرك، فالتدخين ممنوع فى كل مكان بالمنزل، "إلى اللقاء"(قالها بالألمانية)، مدام، وأنا فى خدمتك».

أندونيس: «لعلك تقع يومًا تحت طائلة طبيب»، أبدى أندونيس هذه الملاحظة لاحقًا ووافقته ذافنى فى ذلك تمامًا. أما كوستيس فقد لاحظ الحيرة التى انتابت أمه أمام نصيحة الطبيب الواضحة باستخدام الطب الشَعبى، ولذلك لم يتردد أن يقول:

كوستيس: «أمى، أعتقد أن الخالة ماريا تعرف كيف تشفى ماخوس».

عقدت ذافنى حاجبيها، لكن لم يكن أمامها حل آخر فاستسلمت للأمر المحتوم. وفى مساء نفس اليوم، حضرت زوجة "البقال" إلى قصر العائلة الأرستقراطية وصعدت السلم الرخامى الضخم الذى كان يؤدى إلى حجرة ماخوس. ويبدو أن مسحها بيدها على شعر ماخوس، الذى كانت تراه للمرة الأولى، وكذلك كلمات التدليل، كانت تمثل

(٦) العلاج الشَعبى: المقصود به العلاج بالحجامة كما سيرد بشكل مفصل فى الصفحات التالية (المترجم).

جزءاً من إجراءات العلاج. وعندما شاهدتها ذافنى تبلل ورقة من تلك التى يستعملها البقال فى لف بضائعه فى مادة بترولية سائلة، ثم تضعها على ظهر الصغير ماخوس، تمتمت بشىء يخص ابن عمها البقال. قامت ماريا بعد ذلك بوضع الكئوس الزجاجية على الكومودينو، جذب كوستيس والدته وقال لها هامساً: «الآن انظرى، يا أمى، ماذا ستفعل الخالة ماريا!».

بعود من الخشب ملفوف على طرفه قطعة من القطن، أشعلت الخالة ماريا النار، بعد أن غمستها فى الكحول، وقامت بتسخين الكئوس الزجاجية جيداً من الداخل وتركتها تثبت فى البداية فوق ظهر الصبى المريض ثم وضعتها بعد ذلك فوق صدره، تركت الكئوس الزجاجية الساخنة بصماتها فى شكل دوائر شديدة الحمرة على جلده. وبدا منذ البداية وكأن ماخوس يستمتع بها، بل وكان يضحك فى كل مرة يسمع فيها صوت طرقعة الكئوس الزجاجية وهى تتنقل على جلده الرقيق. وفى النهاية طلبت الخالة ماريا قطعة نظيفة من القماش وقامت بغمسها فى الكحول، ثم أشعلت فيها النار وأطفأتها على الفور بوضعها تحت غطاء أحد الأوعية. وعندئذ قامت بلف قطعة القماش حول رقبة الصبى الصغير وقالت لأمه:

«عندما يستيقظ فى الصباح الباكر ستعطيه هذه الأعشاب لكى يشربها»، كانت الأعشاب ملفوفة فى كيس من الورق، وكانت أوراق الأعشاب الجافة تتساقط من بين يدى ذافنى، التى استدارت قائلة:

ذافنى: «ما هذا، يا ماريا؟».

ماريا: «هذا عشب من عند " العطار"(قالتها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) من أجل السعال. سوف تقومين بغليه مثل الشاى وتقديمه له ليشربه، حتى يذهب عنه السعال تماماً وينتهى أيضاً هذا الغليان الموجود فى صدره الضعيف. أما ما يتبقى، فاحتفظى به لنفسك، فلن يفسد».

ذافنى: «من عند العطار إذن!»، رددتها مدام خاراميس وهى غير مصدقة.

حدث كل شيء وفق المأمول من العلاج الشَّعبي، بداية من انكار الذات للآنسة جابي، ثم حكمة الطبيب الشاب، ثم تمكن الخالة ماريا، ولم يتبق سوى دهشة ذافني وعدم تصديقها لما حدث. وفي وقت لاحق قالت الخالة ماريا بطريقة ساخرة: «لسوء الحظ، لم يجد العطار لديه علاجًا للمتكبرين!».

* * * * *

لم يكن وجود بيتروس ثيميستوكليس مرغوبًا فيه في منزل شارع مصطفى باشا، وبخاصة عندما بدأ يلعب دور القائم بإدارة المكان. ولهذا كانت رسالة مدام إيفيت تعد مفاجأة سارة له، تلك الرسالة التي طلبت فيها لقاءه في صباح أحد الأيام لكي يتبادلا الحديث. أخذ القبرصي شديد الذكاء يقلب الرسالة في عقله، لكن لم يصل لنتيجة، وقد عكست الطريقة التي طرق بها باب الفيلا عند وصوله في ذلك اليوم، ما أصابه من توتر. فتح الباب جعفر، ذلك الخادم النوبي العملاق الذي يشبه الجبل في هيئته، مرتديًا رداءً ناصع البياض كالثلج، يتكون من: عمامة بيضاء وجلباب أبيض يعلوه "صديري" (ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية) لونه بلون السكر، تركه مفتوحًا، به عدد لا حصر له من الأزرار. لم يكن جعفر مرتديًا الحزام الأحمر حول خصره؛ وقد بدت في وجهه العبوس ثلاثة خطوط في كل وجنة من وجنتيه، وكأنها تجاعيد بارزة. رفع القبرصي أصابع يده الثلاث محييًا الخادم النوبي، وكأنه يدرك مدى أهمية تلك التحية، فأجابه جعفر بانحناءة يصعب وصفها. " ذلك العبد الحقير، مائة وأحد عشر(١١١)"، هكذا ما كان يجول بخاطر بيتروس في كل مرة يرى فيها جعفر، ورغم ذلك فقد كان يبتسم له ابتسامة رقيقة؛ فقد أدرك أنه ينبغي عليه الحذر في التعامل مع رجل بهذه القوة. أما مع سهير وأنطوانيت فكان الوضع مختلفًا، حيث كان بيتروس يشعر معهما بأنه الآمر الناهي، وبين الحين والآخر كان يمنح كل واحدة منهما ضربة خفيفة على مؤخرتها، وهما تضحكان أو تتظاهران بالضحك لهذا الرجل الكسول المعوَّق الذي يجرجر قدمه اليمنى خلفه أثناء سيره. كما كانتا لا تهتمان كثيرًا عندما كان يخلط بين اسميهما، لا لسبب إلا لكي يُظهر لهما أنه لا يعيرهما أية أهمية. على أية حال، فقد كان

ذلك شعوراً متبادلاً بينهم. لم يكن هذا الفارس القديم بحاجة لأحد لكى يقوده إلى مدام إيفيت فهو يعرف الطريق جيداً. تقدم تجاه الطرقة، ودخل الغرفة الثالثة التى كان يسمع من داخلها صوت حبات المسبحة وهى ترتطم ببعضها بعضًا. كانت إيفيت مضطجعة على إحدى الأرائك التى يوجد فوقها عدد لا حصر له من الوسائد الصغيرة، وكانت تحصى بعيون ناعسة حبات المسبحة التى تضىء فى الغرفة شبه المظلمة. وأمامها روكسانى تجلس القرفصاء فوق سجادة سميكة، وقد لملمت فخذيها الرقيقين تحت قميصها الذى لم يكن محكم الإغلاق، حيث كان باستطاعته أن يرى صدرها العارى إذا مال برأسه قليلاً. كانت الغرفة معبأة برائحة البخور النفاذة التى كانت تخرج من أعواد البخور المشتعلة الموجودة فى منتصف الحجرة. توقفت إيفيت عن اللعب بالمسبحة، وأخذت تداعب خصلات شعر الفتاة الصغيرة روكسانى.

بيتروس: «ربما كان حضورى فى وقت غير مناسب؟» قال ذلك متسائلاً وبدا واضحًا فى صوته ما أصابه من إثارة.

إيفيت: «"تفضل بالدخول" (قالتها بالفرنسية)، يا ثيميستوكليس»، جال فى خاطر القبرصى كيف لا يوجد مثيل لهذه المرأة الصغيرة والجميلة فى أى بيت آخر فى العالم لممارسة الرذيلة. على أية حال، فقد كان يدرك جيداً أكثر من أى شخص آخر أن فيلا شارع مصطفى باشا لا مثيل لها فى أى مكان.

- «أرسلت فى طلبى، وها أنا ذا».

- «نعم أرسلت فى طلبك، "اجلس" (قالتها بالفرنسية)».

- «ما الأمر إذن؟» سألها ذلك ولم يكن قد جلس بعد فى الجهة المقابلة لها.

- «هل أحضر لك مشروباً؟».

- «ويسكى».

نادت إيفيت على الخادمة المصرية، وقالت: «سهير، ويسكى لبيتروس، "من فضلك"(قالتها بالفرنسية)»، وعلى الفور شرعت سهير تصب الويسكى فى الكأس، وكان بيتروس يطرب من سماع هذا الصوت ثم بدأ يتجرعه فى نشوة.

- «"هناك أمر أريد أن أعاتبك عليه"(قالت ذلك بالفرنسية)؛ فالفتاتان اللتان رشحتهما لى أخيراً لم يتركا انطباعاً جيداً لدى الزبائن، الذين أعربوا عن عدم رضاهم».

- «هكذا دائماً حال من يأتين من الشمال، جميلات لكنهن باردات كالثلج»، هكذا أجابها بيتروس قبل أن تستكمل حديثها، كما لو كان على علم بما كانت إيفيت تريد قوله، ثم استطرد حديثه قائلاً: «لكنى لا أعتقد أنك طلبت حضورى لهذا الأمر، ومن جهة أخرى، فكما أرى أخيراً، فقد بدأت فى استيراد البضاعة بمفردك، وبالطبع، فهى من الدرجة الممتازة».

- «ماذا تريد أن تقول؟» سألته إيفيت منزعجة وقد انتفضت من مكانها قليلاً، ثم أزاحت روكسانى التى كانت نصف نائمة على قدميها.

- «ماذا أريد أن أقول؟ بالطبع تعرفين ماذا أريد أن أقول؛ تلك المرأة التى كانت بمصاحبتك وكنتما تأكلان معاً الحلوى فى مطعم " أثينايوس " منذ عدة أيام، ولا تخبرينى أنها .....».

- «"يا لك من مخلوق غبى" (هكذا صاحت إيفيت بالفرنسية)، لا تنطق باسم هذه المرأة على لسانك مرة أخرى، فهى سيدة محترمة»، ثم عضت على شفتيها، خشية أن يكون كلامها قد ضايق روكسانى التى شعرت بها، من جهة أخرى، تميل برأسها للخلف. ولحسن الحظ فقد قام القبرصى، دون أن يدرى، بتصحيح الأوضاع.

- «حسناً، إيفيت، "لقد تعبت"(قالها بالفرنسية)، ألن تتركينى ولو لمرة واحدة أقترب من فتياتك الجميلات؟».

- «إنها ليست من أجلك يا بطرس» قالت ذلك وقد تلفظت باسمه كما يُنطق باللغة العربية بلهجة حازمة. نهضت روكسانى وجرت ناحية السلم، وقبل أن تصعد، استدارت وقالت له ضاحكة:

«أسمعت يا بطرس؟ لستُ من أجلك» أما بيتروس، الذى شعر بظل جعفر المخيف من ورائه، فقد قرر أن يغيِّر الموضوع.

- «"حسنًا، حسنًا "(قالها بالفرنسية)، ليستِ من أجلى، هل أستطيع أن أعرف الآن لأى سبب أرسلت فى طلبى غير إهانتى، بالطبع؟».

- «أفكر فى الذهاب فى أحد هذه الأيام إلى مضمار سباق الخيول، ولكن "كما تعرف" (قالتها بالفرنسية) فأنا أجهل تمامًا كل شىء عن الخيول، بقدر جهلك بأصول اللياقة».

- «تلك إذن إهانة أخرى،" غير معقول" (قالها بالفرنسية) !».

- «هيا، ودعك من تلك المهاترات، أجبنى عن سؤالى».

عندئذ نظر بيتروس إليها بعين الجوكر المحنك وابتسم ابتسامة ذات مغزى، ثم قال: «هل ستذهبين وحدك؟».

- «ما أهمية ذلك؟».

- «صديقتى الصغيرة، ينبغى أن تعلمى أن مضمار سباق الخيول ليس من الأمور التى يمكن تعلمها بهذه السرعة».

- «بالتأكيد هناك بعض الإرشادات العامة التى يمكنك أن تخبرنى بها. بعض القوانين، البروتوكول، "طريقة اللعب"(قالتها بالفرنسية)».

كانت لدى القبرصى الرغبة فى شرح بعض الأمور لكنه، فى واقع الأمر، لم يستطع تحديد من أين يبدأ: من القوانين أم من الإجراءات، من إستراتيجية الفارس أم من المراهنات أم من تكتيك اللاعب؟ من أى شىء يحميها أولاً: من المارة، أم من الفخاخ؟ إلا أنه أدرك عدم جدوى كل ذلك واقتصر على نصيحة واحدة فقط:

- «طالما ترغبين بشدة فى الذهاب إلى مضمار سباق الخيول، فينبغى أن تدركى أنه ليس أكثر من عرض مثل العروض التى تقام فى ملهى "زيزينيا" أو فى ملهى "ألامبرا"، احرصى دائمًا على أن تستمتعى بالزحام وبجو عرض لم تشاهديه من قبل. دعى القوانين والإجراءات إذن لمن يظنون أنفسهم قادرين على الثراء من مضمار الخيول».

- «"لديك كل الحق "(قالتها بالفرنسية). وإذا نظرت للموضوع من وجهة نظرك، فربما لا يستحق أحد، سواء الخيول أو الخيالة، أن يأخذوا الموضوع مأخذ الجد».

- «ليت الجميع يفكرون بمثل تفكيرك. أتعرفين، منذ بضع سنين سأل أغاخان عن شخص كان يراهن بمبالغ كبيرة فى سباق الخيول. فأخبروه بأنه "شخص يونانى من الأثرياء المحدثين"، فأجابهم: انتبهوا إذن، فسوف يترك ثروته هنا قبل أن يغادر هذا المكان. ولم يخب ظنه».

- «ومن هو أغاخان؟».

- «إنه زعيم المسلمين. فى شهر رمضان من كل عام يكيلون وزنه ذهبًا».

- «شىء بديع، فيما عدا الحكايات والنصائح هل لديك شىء آخر تريد أن تخبرنى به عن مضمار سباق الخيول بالإسكندرية؟».

- «إنه مكان "راقٍ"(قالها بالفرنسية) يرتاده علية القوم من الرجال والنساء. ماذا هنالك أيضًا؟ من الأفضل أن ترتدى زيًا رسميًا. قلت لك إن الذهاب للمسرح يشبه تمامًا الذهاب لمضمار السباق لا فرق بينهما. تفتح الأبواب منذ الصباح الباكر، وإذا ما تصادف وجودك هناك فى نحو الثانية عشرة ظهراً، عندئذ يمكنك تناول طعام الغداء، إذا كانت لديك الرغبة فى ذلك؛ وفى نحو الثانية يبدأ "العرض الملكى"(قالها بالإنجليزية)، أما فى الثانية والنصف ظهراً فتبدأ جولة السباق الأولى، وفى الثالثة والنصف ظهراً يتم تقديم الشاى. أما جولة السباق الأخيرة

فتكون فى الخامسة والنصف من بعد الظهر، يتبعها حفل، ولكنه يحتاج لدعوة، حقًا، هل ستذهبين بمفردك؟

- «وماذا إذا ذهبت بمفردى؟».

- «امرأة بمفردها! دعينى أرافقك».

- «انتبه، أتلحظ كيف يرمقك جعفر؟ إنه ينتظر منى إيماءة لكى يمزقك إربًا».

- «بالطبع كنت أمزح، لأنى أعرف أنك لن تذهبى بمفردك. سترافقك المرأة الشابة التى رأيتها معك فى مطعم "أثينايوس" وأعرف أيضًا أن اسمها ماريانثى أرابيذيس، إنها زوجة رجل أعمال من إسطنبول، وصديق لإلياس، أليس هذا صحيحًا؟ لقد حدثنى عنها" اللبنانى"».

- «لماذا إذن تحدثت عنها بتلك الطريقة غير المهذبة من قبل؟».

- «أحب أن أراك غاضبة. حقيقة، لو أردتِ نحن الاثنان.......» ثم أكمل بإشارة وسارع بالاختفاء مثل طفل صغير يعرف أنه ارتكب خطأ وسيعاقب عليه. وبينما كان يجر قدمه تجاه الباب الرئيسى ناداها قائلاً: «"على أية حال"(قالها بالفرنسية) أتمنى لك قضاء وقت ممتع».

* * * * *

كانت تجارة ثاناسيس بوستاندزوغلوس فى شارع باب سيدرا تتمثل فى محل يتمناه الكثيرون بالإسكندرية. فقد كان محلاً واسعًا يقع على الناصية، يتحكم فى الحركة التجارية كلها فى هذا الشارع، وكان أول محل يقع عليه نظر الزبون بمداخله ومخارجه الثلاثة، حيث يحتوى على مدخل لكل جانب من جوانب التقاطع. وهو مثار حديث الكثيرين الذين يتحدثون عن مخزونه الكبير من الجوز وعين الجمل التى ارتفعت مبيعاتها مرتين فى الفترة الأخيرة عما كان من قبل؛ كما كان يحتوى على منتجات من جزيرة ميتيلينى عالية الجودة، والتى تبدأ بأجود أنواع الزيوت والجبن والزيتون المخلل وبالطبع الحلوى المشهورة التى كانت الخالة ماريا تعدها بيديها، وتؤكل بالملاعق

الصغيرة – وكان يضعها فى آنية زجاجية فى وسط المحل فوق منضدة خشبية ضخمة، وبكل تأكيد كان الطلب عليها كبيراً. لن ينسى كوستيس أبداً ألوان الفاكهة المتنوعة، بداية من اللون البنى الداكن للتين، ثم الألوان الأفتح مثل لون السفرجل ثم المشمش والبرتقال، كما لن ينسى أيضاً طعمها وبخاصة طعم الكمثرى المسكرة التى كان الخال ثاناسيس يستوردها مباشرة من جزيرة ميتيلينى، ولم تكن متوفرة فى مصر فى ذلك الحين.

كان المكان يلمع من شدة النظافة، كما يبرق " بلاط" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) الأرضية، أما الأسطح الخشبية فى أركان المحل فتعطيك الإحساس باتساع المكان، دون أدنى أثر لأى غبار فوقها: حيث كانت الخالة ماريا بمثابة الحارس الأمين للمكان، يهرول خلفها ثلاثة من الصبية المصريين، يرتدون مرايل طويلة نظيفة؛ فى حين كان الخال ثاناسيس يجلس خلف مكتبه الصغير الأنيق ويتولى عملية البيع لزبائنه باعتباره تاجر جملة محترم.

«إنه عمل بلا قيمة، بارك الله فيه بيد وعبث فيه الشيطان باليد الأخرى» هكذا علق نيكيتاس لاحقًا عن تجارة والده بلهجة تشوبها الحزن. وفى الحقيقة، فقد شعر ثاناسيس نفسه بما يخبئه له القدر، فبعد ظهيرة أحد الأيام توجه ثاناسيس إلى محل مواطنه اليونانى باراسكيفاس ياذيليس – الخياط، فى شارع سيزوستريس، للقيام بعمل بروفة لقياس ليس فقط بذلته الصيفية الجديدة، ولكن أيضاً حظه العاثر.

كان الجميع فى الإسكندرية يتحدثون عن مهارة سكيفاس، فمن محله كانت تخرج بالفعل أعمال فنية، ويا له من شرف عظيم لأى رجل عندما يقول: «أقوم بالتفصيل لدى باراسكيفاس».

ودائمًا ما تجد باراسكيفاس، الذى ينتمى إلى جزيرة ميتيلينى، منكبًا على مائدته، وقد علق المازورة حول رقبته وأمسك بالمقص فى يده. ومن خلفه كان هناك سلم خشبى يقود إلى الصندرة حيث يوجد القماش وورق التفصيل. كانت التماثيل الخشبية التى يستخدمها بوصفها موديلات ويضعها فى الفاترينة وعليها نماذج من الملابس غير المكتملة، تعطى انطباعًا بحجم العمل الذى يقوم به، فى حين كانت المكواة المعدنية الضخمة تظل

لساعات طويلة بغطائها المفتوح خارج المحل حتى يشتعل الفحم وتصبح جاهزة لاستكمال المرحلة الأخيرة من التجهيزات التى كانت تكتمل على المنضدة الخاصة بالكى. كانت غرفة البروڤات تقع تحت السلم، حيث يمكن للزبائن القيام بعمل بروفة للبنطلونات. أما بقية الملابس فيتم قياسها أمام المتر باراسكيڤاس، الذى كان يقوم بالتدبيس أو أخذ المقاس أمام مرآة بيضاوية كبيرة متنقلة.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، كان ثاناسيس يقوم بعمل البروفة، وفى نفس الوقت كان مسئول الرهانات بمضمار سباق الخيول، القبرصى سوفوكليس قنسطنطينوس، موجوداً لعمل بروفة هو الآخر. وهو رجل طويل القامة، وسيم وله شارب، يرتدى نظارة على عينه، ولم يتوقف هذا الرجل عن النظر لنفسه بإعجاب فى المرآة. أما باراسكيفاس الذى أراد أن يبدو من علية القوم أمام ثاناسيس، فقد همهم وهو يضع أحد الدبابيس فى فمه قائلاً:

«هيا يا سوفوكليس، أعطنا جواداً جيداً حتى نلعب أنا وبلدياتى عليه. ما رأيك يا ثاناسيس؟ إنها فرصة ومعنا الآن أفضل مسئول "رهانات" (قالها بالفرنسية) فى الإسكندرية». ثم غمز بعينه لثاناسيس. إلا أن ثاناسيس أسرع موضحاً:

«ولكن، يا باراسكيڤاس، إن حظى سيئ دائماً مع الخيول».

باراسكيڤاس: «هذا ليس بالأمر المهم (قال ذلك بالفرنسية)، يا ثاناسيس، سوف نلعب للاستمتاع "تمام"(قالها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)؟».

ثاناسيس: «آه يا ابن جلدتى، إذا كان للاستمتاع فقط، تمام، فيكفى أن يمنحنا «السيد جواداً جيداً».

مسئول الرهانات: «أتمزح؟ أفضل جواد من أجل باراسكيڤاس».

وفى البروڤة التالية أخبر باراسكيفاس ثاناسيس بالفعل أن الجواد الذى راهنوا عليه مشاركة حقق رقماً خيالياً فى ذلك السباق وفاز بمبلغ ثمانين جنيهاً.

- «طالما أنك محظوظ، يا ثاناسيس، فما رأيك، ألا نذهب يومًا ما إلى مضمار السباق؟» هكذا اقترح باراسكيفاس على ثاناسيس.

- «لا، حاشا لله، فقد أخبرتك من قبل أنني ليست لدى أدنى فكرة عن الخيول».

- «وماذا فى ذلك، ماذا تخشى، فنحن لن نشترى مضمار السباق، ولكننا سنذهب إلى هناك مرة واحدة للعب، وستكون فرصة جيدة لكى تجرب بذلتك الجديدة».

- «سوف نفكر فى ذلك، يا باراسكيفاس».

- «نفكر فى ماذا، يا ثاناسيس. حسنًا سوف نذهب إذن يوم الأحد القادم».

- «حسنًا وليكن ما يكون».

* * * * *

لم تكن إيفيت تخفى لقاءاتها المتعددة بماريانثى، لكنها كانت تتجنب زيارتها فى منزلها لفترة من الزمن حتى لا تلتقى أرابيذيس، ومع ذلك فقد كانت حريصة على لقائها فى أى مكان آخر: لتناول " قطعة صغيرة من الجاتوه " (دوَّنها بالفرنسية) فى مطعم "أثينايوس" أو للتسوق فى شارع شريف باشا أو لاحتساء شاى ما بعد الظهيرة فى أحد المنازل اليونانية أو اللبنانية أو فى بهو المسرح.

ومن جانبها، فقد أصبح التغير الذى حدث لماريانثى واضحًا فى الشهور التالية. كانت مدام أرابيذيس تعطى دائمًا الانطباع بأنها تلميذة مجتهدة تتبع حرفيًا أصول البروتوكول الغربى - الأوربى؛ فلم تكن لتجرؤ أبدًا، على سبيل المثال، أن تظهر فى إحدى الحفلات المسائية دون رداءٍ طويل ملفوف وشال حول كتفيها. وفى أوقات تدريبها فنادرًا ما أظهرت أنها راضية عن نفسها. ربما كانت تدرك أنها لكى تصبح من أهل

الإسكندرية فقد كان لذلك معنى أكبر من مجرد اتباعها لقوانين "وآداب السلوك"(دونًها بالفرنسية). وعلى الرغم من كثرة ما كان ينبغى عليها أن تتذكره من قواعد بشكل يومى، فإنها لن تتمكن، فى يوم من الأيام، من مشاركة هذا المزيج المضطرب من المشاعر ومن نقاط الضعف التى تتأجج كل يوم فى المدينة. ولأنها لم تكن على استعداد للتضحية بنفسها على مذبح المتعة، فقد ازداد إصرارها على اتباع بعض العادات المضحكة، وكانت تتحول فى كثير من الأحيان إلى امرأة متعِبة وساذجة بأسئلتها الطفولية، مما يضطر إيفيت أحيانًا لأن توجهها للشىء الصحيح.

فى نفس الوقت كانت تحاول أن تنسى أنها تركية المولد، على الرغم من تأثرها الدائم عند سماع صوت الأذان وقيامها بخفض رأسها (تعبيرًا عن الخشوع)، وكأن المؤذن المسلم يوجه لها شخصيًا هذا النداء بالأذان. داومت ماريانثى على تقديم نفسها بأنها يونانية من إسطنبول، وبفضل لغتها اليونانية المتميزة (التى أدت نشأتها فى إسطنبول إلى تغيير لهجتها بعض الشىء) حرصت على أن لا يشك أحد فى أصولها.

أما إيفيت، التى لم تكن تشاركها فى تسرعها لاعتبارها من أهل الإسكندرية، فقد كانت تهتم دائمًا بعطرها الطبيعى الذى كان ينبعث من بشرتها ناصعة البياض، إنها نموذج لبراءة الروح، وفقًا لرأيها، تلك البشرة البيضاء التى كان من الظلم أن تلقى بها فى بحر الإسكندرية بأمواجه المتلاطمة؛ وإذا كان هناك ما ينبغى إنقاذه بكل السبل فى عالم الإسكندرية المتحضر فإنها بالتأكيد تلك المرأة، ماريانثى التى تحب باناريوتيس أرابيذيس حبًا بريئًا.

بهذه الطريقة فقط تستطيع أن تنقذ براءتها؛ تلك البراءة التى أظهرها أحد الفنانين على وجهها، عندما رسم لها بورتريهًا فى محل تصوير "عزيز & دوريس"(دونًها بالفرنسية) فى شارع المستشفى اليونانى رقم ٣. ولكن يبدو أن هذه البراءة التى ظهرت فى البورتريه لم يكن أحد يراها سوى إيفيت فقط، كما كانت ترى فيه أيضًا سحر ماريانثى "باعتبارها سيدة مجتمع راقٍ" (دونًها بالفرنسية).

كانت تلك الفتنة بحاجة دائمًا إلى من يحميها، وكانت تحاول جاهدة عن طريق الدروس المتتالية تلقينها أبسط القواعد الخاصة بمضمار سباق الخيول، لكن للأسف فمع معلمة مثل إيفيت لم يكن لديها أى أمل.

كانت تمطرها بوابل من الأسئلة من نوعية: «هل أذهب بزى رسمى أم لا؟ ما المراهنات؟ على أى حصان سنراهن؟ ما الذى يفعله مسئول الرهانات بالتحديد؟.». فمن ناحية كانت ماريانثى تسأل وتسأل، ومن ناحية أخرى كان على إيفيت قبول مقابلة بيتروس ثيميستوكليس اللعينة مرة أخرى. وعلى الرغم من أنها لم تخرج بفائدة من لقائهما، فإنها استطاعت على الأقل أن تضمن الحصول على برنامج أعضاء نادى رابطة سباق الخيول ليوم الأحد، الذى أرسله لها القبرصى عقب لقائهما؛ لكن ذلك أيضًا لم يف بالغرض. فلم يسعهما سوى قراءة أسماء الفرسان وأسماء الخيول فى الجولة الأولى، ولكنهما فى نهاية الأمر اتخذوا قرارًا بالذهاب إلى نادى سبورتنج لقضاء أمسية أحد هادئة. ولكنهما لم يوفقا أيضًا فى ذلك، فقد كانتا تفكران فى الذهاب إلى مكان أكثر تحضرًا، مثل مسرح "زيزينيا" أو "ألامبرا" بعيدًا عن هذا الزحام الفظيع الذى تكتظ به مدرجات مضمار السباق التى تذكرهما بالقدر الذى يغلى، بسبب صيحات الجماهير التى تتحول إلى نوع من الهمهمة التى تملأ أجواء الإسكندرية، فى الوقت الذى كانت أصوات حوافر الخيول ترفع الإثارة إلى أقصى درجة. وعندئذ تنتاب كل هؤلاء النساء والرجال المتأنقين الرغبة، لو كان ذلك مسموحًا، فى القفز فوق سور مضمار السباق الأبيض وامتطاء الجواد الذى يختارونه بأنفسهم، بدلاً من متابعته من بعيد بالنظارات المكبرة، عاجزين عن فعل أى شىء سوى الصياح والتهليل بحركات مضحكة.

بدأ يوم السباق بحادث مؤسف أثناء القيام بعمليات الإحماء، فقد تعثر أحد الخيول وألقى بالفارس على الأرض. فما كان من الفارس، الذى شعر بحرج شديد أكثر من إحساسه بالغضب، إلا أن قام بضرب الحصان بالخوذة التى كان يرتديها فوق رأسه لحمايتها. عندئذ جاءت ردة فعل الجمهور قوية أسفرت عن حرمان الفارس من المشاركة فى السباق.

فى نهاية الجولة الأولى، وجدت إيفيت وماريانثى نفسيهما ضائعتين فى هذا المكان، ولم يسعدهما سوى تناول الشاى فى المساء. على العكس من ذلك، فقد ابتسم الحظ لباراسكيفاس وثاناسيس اللذين استمعا لنصيحة قنسطنطينوس وراهنا على الحصان الذى اختاره لهما.

كان باستطاعة باراسكيفاس وثاناسيس أن يغادرا المضمار بعد ذلك فوراً؛ لكن الخياط، الذى كان يعشق سباق الخيول، كان له رأى آخر، فقد أصر على الانتظار قليلاً. لو أن ثاناسيس لم يحضر مع باراسكيفاس، لو أنه لم يقبل على غير عادته الاستمرار فى اللعب، لكان من المستحيل أن يمنح قدره فرصة أخرى ليلعب لعبته. ربما كان كل شىء مقدراً بطريقة تفوق الخيال. ومن جهة أخرى، فقد ذكر ثاناسيس نفسه فى وقت لاحق أنه كان يشعر بوجود يد خفية تقوده فى يوم الأحد هذا من فوق لوحة المراهنات.

الحب، هذا الحب الذى لم ينطفئ أبداً كل هذه السنين، لكنه كان يتأجج خلسة بداخلها، ذلك الحب الذى اختارته ليفعل بها ما يشاء فى هذه المدينة التى كانت تتحدى المشاعر العابرة والبشر المتقلبين بكل ما تحمله من قوة، وكأن الحب قد أراد أن يرضى قسوته بتدمير ضحية من ضحاياه.

ألم يكن ذلك الحب المخادع هو المسئول عن إبدال نيهير لاسمها لتصبح ماريانثى؟ لقد جعلها الحب تتنكر لعقيدتها، لوطنها، لأهلها، وأيضاً لزوجها؛ هو الذى جعلها تهرب من إسطنبول وتطير بعيداً مثل طائر ظل يبتعد حتى تحول إلى سراب. ففى منتصف ذلك النهار فى مضمار سباق الخيول بالإسكندرية كانت ترتدى رداء أبيض اللون، أما الشىء الوحيد الذى كان يدل على رحلتها الخيالية تجاه الساحل الأفريقى فيتمثل فى ريش طائر اللقلق الذى كانت تزين به قبعتها.

لكن لو لم تكن الابنة شديدة الشبه بأمها، لو لم تكن بحضورها قد استحضرت سر ثاناسيس الذى يعيش فى الإسكندرية، ربما استطاع ثاناسيس أن يواصل حياته فى الإسكندرية دون أن يلحظه أحد. ولكن بمجرد أن رآها فى صباح ذلك الأحد فى

نادى سبورتنج، حتى استعادت ذاكرته بصعوبة شديدة حبه الأول، وكأن ذاكرته ترفض بكل أسى أن يتحرك الزمن من جديد. ربما كانت رؤيته لحبيبته التى لم تتغير بعد كل تلك السنين، هى أهم حدث بالنسبة له ولا شىء غيره. لقد وجد ثاناسيس نفسه، على حين غرة، ودون رغبة منه، واقعًا فى حبال القدر. لقد كان إحساسه بالمرض - ذلك الذى أصابه حتى وصوله إلى البيت وما صاحبه من حالة نزيف وإسهال تمامًا مثل أعراض الدوسنتاريا - هو أقل ما يمكن أن يحدث له، ومن المؤكد أنه سيستوعب كل هذه الأمور مع مرور الزمن.

* * * * *

كانت ذافنى، فى الفترة الأخيرة، تستيقظ من نومها فى منتصف الليل الحار شديد الرطوبة بمصر على حلم واحد. كانت ترى منزلها مليئًا بالمدعوين، أو بالأحرى بكل من عرفتهم فى الماضى. كان الأمر يشبه حفلات الاستقبال، من تلك الحفلات الرسمية التى يقوم الجميع بتلبيتها؛ فالأجواء احتفالية: الأضواء، الموسيقى، الشراب، الرقص، الغناء. وهكذا عادت الأيام الخوالى بكل ما فيها من عظمة. وفجأة دخل المنزل صبى يرتدى سروالاً قصيرًا يشبه كوستيس، يحمل صندوقًا صغيرًا معلقًا على كتفيه يصدر أصواتًا مزعجة بشدة، مما تسبب فى إزعاج ومضايقة المدعوين بالمنزل. صبت ذافنى جام غضبها على الخادمة التى سمحت له بالدخول، لكن الخادمة أخذت تبرر لها قائلة: «ولكنه كوستيس، كيف أتركه خارج المنزل؟»؛ وفى كل مرة كان سلوكه هذا يتسبب فى فض هذا الجمع الراقى. بدأ المدعوون فى مغادرة المكان الواحد تلو الآخر وكأنهم أشباح من تراب ذهبى، ثم تأتى أسوأ اللحظات عندما يرحل آخر المدعوين وتبقى وحيدة بمفردها فى منتصف الصالون الكبير، وهنا يأتى صوت أندونيس من داخل غرفة المعيش، من دون الأصوات الأخرى، ضاحكًا وهو يمزح مع ذلك الصبى المتشرد. كانا يجلسان على المقاعد الكبيرة ذات المساند العالية، وبالطبع لم يكن باستطاعتها رؤيتهما من مكانهما، لكنها كانت تسمع بوضوح صوت ضحكاتهما. "الآن سوف أريهما!" هذا ما كان يجول بخاطرها فى كل مرة وكانت تسرع لضبطهما،

لكنها كانت تصاب بالإحباط عندما تقترب منهما ولا تجد سوى مقعدين خاويين، والشيء الوحيد الذى كانت تجده فى هذا المكان هو علبة سجائر أندونيس الفضية، وفى اللحظة التى تنحنى فيها لالتقاطها، تشعر بيد قوية تمسك بذراعيها وتقول لها (بالإنجليزية): «هذا لا يليق بسيدة مثلك»، وعندما ترفع بصرها لأعلى تجد أمامها رجلاً مصريًا فاتنًا مظهره يوحى بأنه أوربى، يضع طربوشًا فوق رأسه وينظر إليها نظرة حانية، لكنها كانت تصرخ فيه غاضبة وتقول: «لن تتهمنى بأننى لصة، ليس وأنا فى بيتى» لكنه كان يردد قائلاً: «إن هذا لا يليق بسيدة مثلك». كان يداعب شعرها وينحنى نحوها ببطء، وكأنه يريد أن يقبلها. ولكن لحسن الحظ، كانت تستيقظ من نومها قبل أن يلوث شفتيها بقبلاته، وعندئذ لا تسمع سوى دقات قلبها الذى ينتفض بجنون فى سكون الليل.

ربما كانت هى نفسها لا تستطيع أن تفسر هذا الحلم الذى كان يزورها كل يوم تقريبًا فى نومها، لكنها كانت تعود بذاكرتها، فتجد ذكريات عديدة من سنوات شبابها. فعندما كانت عروسًا باهرة الجمال، كانت تفعل ما يحلو لها فى صالونات صفوة المجتمع وفى المسرح وفى كل الأماكن الراقية التى كانت ترتادها فى المدينة. فى البداية تذكرت نفسها وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها ترتدى فستان السهرة الأول لها: كان رداءً حريريًا طويلاً من ماركة " فينجال " بلون الفستق، مطرزًا بالدانتيل، يحيط خصره حزام ناعم، أكمامه منفوشة كالأكورديون ومطرزة أيضًا بالدانتيل. أما شعرها فكان مصففًا للوراء، وصديقاتها بينيلوبى بيناكى وإيفيغينيا أنطونيادیس وفانى سينانزينوس، كن جميعًا، كما تتذكر، فى أوج تألقهن ولم تتعد أعمارهن بعد الثمانية عشر. كن يجاملنها بكل أنواع المجاملة. وباعتباره حلمًا جميلاً كانت أصوات موسيقى الفالس "كارمن ـ سيلفا" تتردد فى كل الأرجاء – كانت تلك هى الموضة السائدة فى تلك الفترة. أما علبة سجائر أندونيس الفضية فكانت هى أغرب ما فى الأمر، حيث تجدها تتحول فجأة إلى ألبوم لذكرياتها تدون فيه كل الرقصات التى تدين بها لمن يطلب مراقصتها. حتى منزلها لم يسلم من التحول بين الحين والآخر، فهو أحيانًا يشبه قصر

ميناسيه، وأحيانًا أخرى يشبه منزل سيناذينوس فى حفل زواج صديقتها " فانى"، فى حين كان أحد أركان المنزل شديد الشبه بتلك المقصورة التى كان يحتفظ بها والدها فى مسرح " زيزينيا " لفترة من الوقت. حسنًا، كل تلك الأشياء كانت معروفة ومحببة إلى النفس، ولكنها كانت تترك بداخلها إحساسًا غريبًا مفعمًا بالحزن، أما الراحة التى كانت تشعر بها فى وجود هذا المصرى الوسيم فكانت أمرًا غريبًا، حتى لو كان يعنفها على شىء لم تفعله.

شىء لم تفعله؟ فى الحقيقة لا. على الأقل لم تفعله بعد. لقد راودتها هذه الأفكار لمرات ومرات، وحاولت جاهدة أن تتجنب عقوبة السرقة. ربما لم تكن الرغبة فى العزلة عن الجميع التى اختارتها فى السنوات الأخيرة بسبب سلوك زوجها غير الاجتماعى، أو بسبب خوفها من أن يؤدى استمرارها فى لقاءاتها الاجتماعية لوقوع المحظور بشكل أو بآخر. إن جريمتها الوحيدة – حتى الآن – هى تلك التى اقترفتها فى سنوات الصبا عندما كانت تسرق مراوح اليد الخاصة بصديقاتها، متظاهرة بأنها قد خلطت بين الحروف المكتوبة على كل مروحة، وعندئذ كانت صديقاتها يواسينها قائلين: «آه، كيف تخلط ابنة سينجوس المسكينة بين الحروف!»، لكنها لم تعتبر ذلك النوع من السرقة أمرًا خطيرًا..المرة الوحيدة التى لم تستطع أن تقاوم فيها (تلك الرغبة المحمومة) لسرقة تمثالاً صغيرًا من منزل، (كانت تتمنى لو أنها نسيت اسم صاحب المنزل)، لكن لحسن الحظ، وبسبب ذعرها، جرت ناحية غرفة تغيير الملابس ووضعت التمثال داخل الجيب الخطأ، ولكنها لم تعرف ما الذى حدث بعد ذلك.

كانت رغبتها المحمومة تجعلها تتشكك بشكل كبير فى كل شىء، حتى وصل بها الأمر إلى اتهام إحدى مدعواتها بسرقة ميدالية تذكارية، وهو ما لم يتم إثباته. أما ما يخص خادماتها فلم تكن تسمح لهن فى الماضى بالخروج من المنزل قبل المرور على تفتيش ذاتى صارم. وسواء أكانت تحاول كبح جماح مرضها بداء السرقة أم بمحاولة إلقاء التهمة على آخرين، فقد بات من المستحيل اقتلاع هذه الرغبة من جذورها، وكانت تدرك جيدًا أنه سوف يتم اكتشاف أمرها – فى إحدى المرات ـ فى مكان غريب، وربما

بين أناس أغـراب، مثلما حـدث ذات مـرة فى المحـل التـجـارى بالقـاهـرة بشـارع عبد العزيز، على بعد أمتار قليلة من أحد فروع مصنع زوجها، فى إحدى الرحلات التى قامت بها إلى العاصمة المصرية التى كان من الممكن أن لا تقوم بها منذ البداية.

فى بداية صـيف عـام ١٩١٥، تلقت تلغـرافًـا من شـقـيـقـهـا لوكـاس، جـاء فـيـه (بالفرنسية): «أنا فى القاهرة، قابلينى هناك، لدى أخبار سارة لك. أخوكِ لوكاس».

أبلغت ذافنى أندونيس بأمر التلغراف، وسألته:

ذافـنــى: «هل أذهب لملاقاته؟».

أندونيس: «افعلى ما شئت، لكن تذكرى دائمًا أن القاهرة، فى هذا الوقت من العام، تغلى بمعنى الكلمة من شدة الحر.الآن مرة أخرى، إذا كان هناك احتمال أن يهبط علينا أخوكِ المدلل ويبدأ فى النحيب، فالأفضل أن تذهبى إليه».

" كلما أسرعتُ كان ذلك أفضل، غدًا إذن " هذا ما جال بخـاطر ذافنى، ثم أرسلت إليه التلغراف التالى (بالفرنسية) :

«سأصل غدا»

لقد تسرعت ذافنى فى اتخـاذ قرارها، ربما لأنها نسيت كيف أن حركتها بطيئة وتتصف بالتردد فى مثل هذه الحـالات. فعلى امتداد سـاعـات المساء كانت تـخـرج ثم تخرج ثيابًا وثيابًا وتفاضل بينهـا لتخـتـار واحدًا منهـا: فالثوب الأبيض المصنوع من الكتان والمطرز بالدانتيل يزاحمه فى الاختيـار ثوب آخـر مشـابه له مصنوع من القطن أو ثوب آخر بسيط لكنه مصنوع من الحرير الجميل سكرى اللون. وللجولة المسائية كان عليـها أن تفـاضل بين ثوب وردى اللون وآخر أزرق مـصنوع من الحـرير الناعم يحـيط خصره حزام حريرى وردى اللون، وثالث باللون الأخضر مصنوع من السـاتان اللامع. لم يكن أندونيس حـاضراً حتى تسأله عن رأيه؛ أمـا فوزية وفـاطمة فكانتا تقفان أمامـها ببلاهة، فى حين اختارت الآنسة جابى، التى اضطرت للاستعانة بها، نفس الرداء الذى اختارته ذافنى، ولم تضف أى شىء آخر.

«السفر كالكابوس، يا إلهى!» قالت ذافنى ذلك وهى تشعر بالغيظ، أما من داخلها فكانت تشعر بالسعادة لأنها ستقوم بتغيير الجو وستلتقى أخاها بعد فترة من طول الغياب. لكن التردد هو التردد، فى صباح اليوم التالى كان السائق محمود فى انتظارها، أدار محرك السياره ليقوم بتوصيلها إلى محطة القطار، فى حين كانت ذافنى لا تزال تحشر بعض الأغراض فى حقيبتها وتمطر ولديها بالقبلات.

لقد نسيت كل ذلك بالطبع، بمجرد التقائها بأخيها بعد ظهيرة ذلك اليوم فى القاهرة، وقد تناولا معًا طعام الغداء فى مطعم الفندق الذى تقيم به. أما لوكاس غير المعروف، فكان وزنه الزائد يوحى، بشكل أو بآخر، بأنه من الوجهاء، وكان شاربه الكبير المفروق بدقة كبيرة على الجانبين يكمل هذه الصورة. كان لوكاس يضع فى جيبه، إلى جانب ساعة والده التى لم تفارقه أبدًا، رزمة منتفخة من النقود، بعد سنوات وسنوات من القحط غير معروف عددها.

لوكاس: «إنه لمن دواعى سرورى أن أبلغك أن الأمور " ومنذ زمن طويل"(قالها بالفرنسية) بدأت تتحسن» قال لوكاس ذلك بطريقة مميزة مستحضراً خليطًا من الكلمات الأجنبية واليونانية الفصحى».

ذافنى: «حقًا، يا لها من أخبار رائعة» قالت ذافنى ذلك (بالإنجليزية)، وقد أصابها شىء من الفضول لمعرفة كيف حدث ذلك.

- «لعلك تسألين الآن، "يا شقيقتى الصغيرة "(قالها بالفرنسية)، كيف تمكن لوكاس الوضيع......».

- «لا، لستَ وضيعًا».

- «بل وضيع، وضيع، كيف إذن وبأى وسيلة تمكن من إصلاح وضعه المالى».

- «ثم؟» (قالتها بالفرنسية).

- «ثم (قالها بالفرنسية)، إن الماضى البعيد ليس إلا مصدراً للثراء، يا ذافنى».

- «لم أفهم، يا أخى».

- «لكن كيف، أنتِ يا من تعشقين التاريخ، كان لابد أن تعرفى، اعلمى إذن أن أخاكِ يتجه للثراء من التاريخ».

- «وكيف حدث ذلك؟» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «كيف حدث؟ أفعل ما يفعله الكثير من الأوربيين واللبنانيين فى مصر، وأولهم وأفضلهم صمويل عظيمان الكبير».

- «اليهودى؟».

- «أتعرفينه» (قال ذلك بالفرنسية).

- «بالطبع أعرفه، من ذا الذى لا يعرف صمويل عظيمان الكبير؟» هكذا أجابته ذافنى بصوت واثق يماثل طريقته الواثقة فى الكلام، ثم أضافت: «إننا إذن نتحدث عن لص الـ ....».

حالت يد لوكاس التى وضعها على فمها من أن تكمل كلمتها القاسية.

- «عزيزتى، لماذا هذه المغالاة؟ إننا نتحدث عن الثروة الأثرية التى تمتلكها هذه البلد».

- «لكنها سرقة، يا عزيزى لوكاس».

- «سرقة! هل فكرتِ فى قدسية هذا العمل، عندما يحاول من خلاله شخص أرستقراطى أن يحفظ لنفسه مكانته؟».

- «لا لم أفكر فى ذلك».

- «على الأقل، هل فكرتى أن تفعلى شيئًا مثل هذا؟».

- «أجننت! (قالتها بالفرنسية) هل تريد أن يقتلنى أندونيس؟».

– «أندونيس.....» بغض النظر"! (قالها بالإنجليزية) لم أفهم أبداً كيف دخل مثل هذا الرجل حديث الثراء في عائلتنا».

– «لا تنس أنك تتحدث عن زوجي».

– «آه يا ذافني، إنه لا يستحقك، بالطبع لا يستحقك! بيني وبينك، كان يستحق ما هو أسوأ».

– «لا تكن فظًا» هكذا صاحت ذافني (بالإنجليزية) وهي تضحك، ولكنها كانت من داخلها سعيدة بلهجة أخيها القاسية.

– «على أية حال، الحقيقه أنه ساعدني مرتين أو ثلاثًا للخروج من بعض المشكلات التي كان يمكن أن تحط من قدري».

كان لوكاس هو الشخص الوحيد القادر على أن يصف الأشياء بهذه الطريقة، مدعيًا ثقته بنفسه بطريقة مبالغ فيها.

عندما بقيت ذافني بمفردها لاحقًا، كانت تحاول أن تمتص هذه الصدمة التي أفصح عنها لوكاس، ثم تعجبت قائلة:

«أخي مهرب آثار!»، ورويدًا رويدًا جعلها هذا الاكتشاف، الذي أصابها بالذعر في البداية، تنظر فيما بعد إلى أزمتها بنوع من التعاطف: "في النهاية ماذا يعني داء السرقة بالنسبة لي، فأنا دونًا عن غيري أستطيع الآن التحكم فيه تمامًا، وربما يرتبط هذا الداء بعائلتنا ويجري في دمائها"، هكذا حدثتها نفسها. استرجعت ذافني في ذهنها كلمات أخيها لوكاس، وفكرت أنه ربما كان على حق فيما يختص بقدسية السرقة حتى لا تتأثر الدائرة الاجتماعية المحيطة بها. بهذه الأفكار دخلت دون أن تدري، وكان ذلك في بداية فترة ما بعد الظهيرة، إلى المحل التجاري بشارع عبد العزيز.

لم تكن المرة الأولى التي تزور فيها هذا المحل بواجهاته الثلاث الكبيرة وبنائه المعماري الجميل، فقد كان يحتل ناصيتين كبيرتين، وتعلوه قبة ذهبية وكأنها عمامة

كبيرة. كان الزحام الموجود داخل المكان وخارجه يمنحها إحساساً كبيراً بالحرية. لكنها لم تكن حرية مطلقة. فقد قاومت بشجاعة شيطانها، وقبل أن تمد يدها، كان ثوبها الأبيض المصنوع من الكتان قد تبلل من العرق، لكنها عندما فعلت ما فعلت، كانت وكأنها بالفعل قد أصيبت بالعمى، فكل ما تراه يلمع فى عينيها دون أن تفكر فى قيمته الحقيقية، وإذا ما كانت فى حاجة إليه أم لا، أو عما سيحدث لها إذا تم القبض عليها. وما إن شرعت فى وضع ما سرقته فى حقيبتها حتى شعرت بيد قوية تمسك بها من معصمها، ولكن بطريقة حانية. تخيلت ذافنى قبل أن تستدير وتنظر أنها ستواجه ذلك الوجه الأسمر الفاتن الذى دائماً ما تراه فى أحلامها، وأنه سيقول لها (بالإنجليزية) بنبرة مفعمة بالرقة: «إن هذا لا يليق بسيدة مثلك».

* * * * *

"من الخسارة أن نحيا حياتنا بأكملها انتظاراً لذلك اليوم الذى سيشرفنا فيه ڤينيزيلوس بالحضور، حتى يكون لدينا فيما بعد شىء نذكره"، هذا ما جال بخاطر أندونيس خاراميس ذات مرة، متأملاً فى زيارة زعيم الأمة اليونانى لمصنعه. "رجل أجنبى تمكننا فى أحسن الحالات أن نتبادل معه حوارات رسمية، وهو ما نعتبره أعظم شرف قد حدث لنا".

وفى الحقيقة، سوف تترك الأعوام القادمة بصماتها على مر الزمن. استحوذت الحرب العالمية على اهتمام المجتمع السكندرى، وبلغت تطوراتها، بما فى ذلك من إعادة تخطيط خريطة العالم، أسماع الناس وكأنها صدى بعيد، وكأنه حدث قديم أصبح فى عداد الماضى، يمكنك أن تقرأه على صفحات الجرائد من باب الاهتمام بالأحداث التاريخية . حتى إن تحرك كاليبوليس، الذى كان يستهدف ضرب ميناء الإسكندرية، لم يعكر صفو أهل الإسكندرية. كانت مضايق نهر الدردنيل على بعد مسافة كبيرة لا تمكن أحداً من سماع أصوات المدافع وزئير الحرب التى وصفت بأنها أبشع حرب فى تاريخ الإنسانية. ولابد أنها كانت كذلك، فسرعان ما امتلأت مستشفيات مدينة

الإسكندرية بالجرحى، حتى إن كازينو سان ستيفانو قد تحول فى لحظات إلى مكان لعلاج الجرحى.

فى هذه المدينة، حدث بالفعل كل ما يمكن أن يصيب الإنسان بالذعر، باعتباره نتيجة مباشرة لتلك الرقابة الصارمة التى فرضها الإنجليز. لكنه لم يكن هناك ما يمكن اعتباره حدثًا مهمًا، فالحياة تشبه إلى حد بعيد أمواج البحر المتوسط المتلاحقة؛ أما الانطباع الذى خلفته تلك الأحداث فلم يكن ليستمر أكثر من استمرار الزبد الذى قد تحدثه موجة واحدة . هكذا كانت التطورات المرعبة بوجه عام تمنح أندونيس، وكل من يشبهه، الإحساس الكاذب بأنه يحيا، لكنه كان يتجاهل، فى نفس اللحظة، التغيرات التى أخذت حيزًا كبيرًا فى حياة أهل بيته، متجاهلاً كذلك فى الوقت نفسه، أن عجلة الزمن مستمرة فى الدوران بالجميع وبصفة خاصه به شخصيًا.

لهذا السبب، لم تكن نهاية الحرب كافية لإزعاجه، على الأقل ليس بالدرجة التى أثر فيه اكتشافه أن ابنه كوستيس لم يعد ذلك الصبى الصغير، ربما لأن ذلك قد تزامن مع حدوث تلك الفضيحة التى كانت مثارًا للحديث فى صالونات الإسكندرية، والتى وقعت أحداثها فى نهاية عام ١٩١٠.

أثناء ذلك، كانت إيفيت تدير ببراعة بيت البغاء فى شارع مصطفى باشا، دون أن يساور أندونيس أدنى شك فى علاقتها الخاصة بروكسانى. وذات مرة سألها، بينما كان مستلقيًا فى أحضانها، قائلاً: «لقد رأيتك منذ أيام مضت مع إحدى السيدات (كان يعنى ماريانثى) تسيران فى شارع شريف باشا. هل هى صديقتك؟». إلا أنه كان مجرد سؤال عابر ولم يكن ينتظر منها إجابة عليه، كما لم يهتم بذلك الارتباك الذى بدا عليها. لم تكن عشيقته على استعداد لأن تحيا حياة "الأسيرات" داخل عالمها الصغير بشقة شارع السلطان حسين، وهو الأمر الذى لم يستطع أندونيس نفسه أن يدركه، ليس بسبب سذاجته، ولكن بسبب طبيعة الرجل الاقتصادية التى جعلته يتحمل مسئوليات كبيرة، والتى كانت تبدو للآخرين وكأنها نوع من عدم الاهتمام بها. ولنفس السبب لم يعط أندونيس أدنى اهتمام لرحلات ذافنى إلى القاهرة، تلك الرحلات التى

كانت تستغرق وقتًا طويلاً. ربما كان يتفاجأ بعض الشيء من تلك الابتسامة التى كانت تعلو شفتيها فى الفترة الأخيرة. على أية حال، كان غيابها المتكرر يسبب له نوعًا من الإرتياح وبالتالى فلم يكن ليذهب بعقله بعيدًا للتفكير فى أنها تفعل شيئًا تستحق عليه اللوم. وفى نفس الوقت كان يشعر بقلق تجاه الطريقة التى يتحدث بها ماخوس، ورغم ذلك فلم تكن لديه الر غبة فى التعمق فى هذا الأمر، بل كان يكتفى من وقت لآخر بالقول: «لقد أصبح ابننا الصغير خجولاً كالفتاة الصغيرة!» وكان يعتبر أن ما يقوله شيء ذو قيمة.

وإذا لم يكن أندونيس مهتمًا بكل صغيرة وكبيره تتعلق بأهله الذين يخصونه، فما بالنا بالبيئة الرحبة المحيطة به. وعلى سبيل المثال فقد أقرض ثاناسيس بوستاندزوغلوس مرتين من قبل، دون أن يسأله فى كل مرة عن السبب الذى يجعل رجلاً مثله يطلب قرضًا وهو مندوب تجارى يحقق نجاحًا باهرًا، بصفة عامة، فى مجال عمله، وهو ما لم يحققه الكثيرون غيره. أما عن العلاقة الخاصة التى تربط إلياس بالسلطات البريطانية، فكان يعتبرها علاقة طبيعية بصفة عامة، رافضًا بإصرار أن يأخذ تلك الشائعات التى جعلت من " اللبنانى" عميلاً فى المخابرات الإنجليزية على محمل الجد. ومن جهة أخرى، كانت هناك أمور أخرى تشغل أندونيس طوال تلك السنين – مثل إمداد القوات الإنجليزية فى الشرق الأوسط بالسجائر– وقد أسهمت الحرب بشكل كبير فى جعلها عملية أكثر تعقيدًا. فقد كانت صعوبة النقل التجارى عبر البحار، وكذلك النقص الشديد فى الورق، بمثابة تهديد موجه لصناعة السجائر، هذا بالإضافة إلى توسعة المصنع وميكنة الإنتاج، وكلها تمثل موضوعات حيوية ومهمة تؤدى إلى تعطل الإنتاج دون مبرر، فى حين قلصت البنوك من حجم القروض التى تمنحها. «نعطيك بدلاً من أن تعطينا!» تلك المقولة التى ذكرها أندونيس ذات مرة ما بين الجد والسخرية لثاناسيس، وهو يقصد بذلك بالطبع شقيق ماريا – زوجة ثاناسيس– الذى يعمل مديرًا لبنك " لاند"، إلا أنه كان على يقين من أنه (أى مدير البنك) لم يكن باستطاعته أن يمنحه هو نفسه القرض تلو الآخر. ومن جهة أخرى، فقد كانت

التغييرات التى تطرأ على القيادة البريطانية من الأمور التى تزعج أندونيس بشكل كبير، على الرغم من تأكيدات إلياس بأن كل شىء يسير سيرًا حسنًا، وقد ازداد قلقه عندما قام كوشنر بزيارته فى مكتبه ليودعه، وهو ما حدث فى شهر يناير من عام ١٩١٧. لم يتبق من ذلك المستعمر المتكبر، كما عرفه من قبل، سوى رقة الجنتلمان داخل ردائه العسكرى الذى كانت يبعث على الرثاء؛ أما محاولته الإيحاء بأن منصبه أصبح أعلى من منصب المندوب السامى البريطانى فقد باءت بالفشل مرة أخرى عندما تولى السير هنرى ماك ماون خلفًا لسير ريتشيناالد وينجيت.

قال كوشنر (بالإنجليزية): «هذا ليس عدلاً، يا سيد خاراميس، فرجال الجيش يتلاعبون بالضباط فى وقت الحرب». كانت لحيته تهتز صعوداً وهبوطًا طوال فترة حديثه معه، والتى كان قد أطلقها أخيرًا لكى يخفى أذنيه الكبيرتين، مما أعطى تأثيرًا كبيرًا على كلامه.

لم تكن استقالة كوشنر هى العقبة الوحيدة فى عمله. فقد كانت مراسلاته التجارية فى الفترة ما بين عامى (١٩١٥ - ١٩١٨) تلخص محاولاته للعبور منتصرًا فى تحديات الحرب. من هذه المراسلات: «السيد المحترم. نفيدكم علمًا أنه بخصوص التبغ الذى تسلمناه فى يوم....../...... /١٩١٥، وجدنا به تسع حاويات مبللة بالزيت، وقد طلبنا من مندوبكم الحضور......». أو «بمقارنة سعر ورق السجائر بالذهب، أعتقد أنكم وسكرتيرتكم تذكران أن فاتورة الحساب الأخيرة لشهر يونيو ١٩١٦، أبديتم رغبتكم فى عمل خصم إضافى بقيمة ٥ ٪ عن السعر المتفق عليه. لذا نرجوكم......».

وكأن كل ذلك لم يكن كافيًا، فقد اشتعلت الحرب بين أنصار ڤينيزيلوس وأنصار الملك، فى حين كان أندونيس خاراميس، وسط تشجيع من ثاناسيس، يسعى دائمًا لإصلاح ما هو معوج، مثلما هى الحال بالنسبة للخطاب المرسل إلى القنصل ساختوريس، حيث كان توقيعه، من بين التوقيعات الأخرى، مكتوبًا بحروف كبيرة وعريضة، ظاهرة للعين، وقد جاء فيه: «السيد المحترم قنصل الإسكندرية، بخطابنا هذا نرجو التأكيد على المسئولين بالقنصلية سرعة التحذير من خطر المجرم فيليبوس

ذراغوميس، مؤيد الملكية وصديق الألمان. إن اتحاد محبى الحرية بالإسكندرية يتحفظ على غياب الإجراءات الضرورية التى من شأنها أن تدحض هذا القرار، مع الاحترام».

لم يتعد كل ذلك كونه روتينًا يوميًا يقضى على ما تبقى لديه من عزيمة، وقد أقسم أندونيس، الذى انخرط فى العمل بقوة منذ أن كان طفلاً، أن يمنح نفسه الوقت الكافى للاستمتاع قدر الإمكان رغم كل ما يجتمع حوله من متاعب، فإن كثرة مشاغل أندونيس واهتماماته بالعمل كانت تبدو دائمًا أقوى من إرادته، حتى لو كانت لديه رغبة حقيقية فى تغيير حياته. كان أندونيس يتملكه دائمًا الشعور بأنه سيصبح كالسمكة التى ابتعدت عن الماء إذا ما ابتعد عن نشاطه فى الدخان الذى أصبح وحده على دراية كافية بكيفية خلط أنواع التبغ المختلفة ببراعة؛ ولذلك فقد ظل مواظبًا على نشاطه فى العمل، تاركًا نفسه لمفاجآت الحياة التى تسعده أحيانًا وتحزنه فى أحيان أخرى، مدركًا أن الموت سيلاقيه يومًا ما، وهو بين كل تلك المشاغل والمخاوف.

* * * * *

يوجد فى مصر العديد من الباعة الجائلين، ولكل منهم، حسب مهنته، صوت مميز ونداء مختلف يعلن من خلاله عن مروره بالمكان حاملاً بضاعته. استطاع كوستيس بمهارة بالغة تمييز تلك الأصوات والنداءات، فبمجرد أن ترد إلى مسمعه أصوات طقطقة صحنين معدنين- تشبه صوت الكاستانييت- كان يتوقع أن يظهر على الناصية ذلك الوعاء الفضى اللامع الذى يحتوى على مشروب العرقسوس الذى يتميز بمذاقه المر، يحمله البائع على كتفه ويقدمه للمارة فى أكواب يغسلها بشكل سيئ. وبنفس الطريقة كان بائع البسكويت يعلن عن مروره بضرب قضيبين صغيرين من الحديد ببعضهما بعضًا. ومن بين كل هؤلاء الباعة يمر "الأراجوز"(ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية)، وهو النسخة العربية من "الكاراجيوزى" المعروف فى اليونان. كان الأراجوز يؤدى ألعابه فى الطريق بالعرائس، معلنًا عن قدومه باستخدام الصاجات النحاسية والترومبيتة. وفى الأحياء الشعبية كانت السيدات المصريات السمينات يقسن أقمشة "الكاستور" (ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية) الذى يبيعونه بطريقة مميزة:

من خلال قياس المسافة من الأنف حتى طرف اليد الممتدة. وفى الميادين العامة ينتشر الحواة والسحرة والرجال مفتولى العضلات – وجميعهم من الشبان الفقراء – يقدمون استعراضاتهم التى تجعلك مشدوداً من فرط الإعجاب. أما مدرب الدببة فكان يدفع الدبة المقيدة بالسلاسل للرقص على أنغامه، من أجل إبهار الجماهير. أضف إلى ذلك باعة الفستق العربى (أى السودانى)، وأفران البطاطا المحمولة على العربات، وباعة " الذرة "(ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية)، وباعة أسماك النيل التى يضعونها فى طاولاتها، وهناك أيضاً المحلات والأسواق الشعبية. ومن كل ما سبق ربما يفهم المرء لماذا تتصيد حياة الشارع فى شباكها – مثلها فى ذلك مثل العنكبوت الضخم – خيالات الصبية الصغار، مثل كوستيس، الذى كرس سنوات صباه فى دراسة شوارع الإسكندرية.

كان مقصده الدائم هو عمارة باب سيدرا، طالما يعوق الخال ثاناسيس خطط تشييد منزل خاص بهم فى منطقة فيكتوريا، مفضلاً أن يستثمر مكاسبه فى الخيول، التى كانت زوجته دائماً ما تشبهها مازحة بدوامات شاطئ العجمى. أما الخالة ماريا، التى كانت ابتسامة منها كافية لإزالة آثار السنين من وجهها، فلم تتوقف أبداً عن إسالة لعاب كوستيس بالأطعمة اللذيذة القادمة من جزيرة سيمى، مستبدلة أحياناً الأطعمة الشعبية اليونانية بالأطعمة الشعبية المصرية مثل " الفول والفلافل وشوربة الملوخية" (ذكر كل ذلك باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) بلونها الأخضر الداكن. وكانت الخالة ماريا عندما لا تذهب بنفسها إلى المحل لتهتم بتوجيه ومراقبة العمال به، تبقى فى المنزل لتتشاجر أحياناً مع المكوجى عند إحضاره القمصان المكوية، وأحياناً مع إحدى الخادمات التى تشك أنها تسرقها، وأحياناً أخرى مع نيكيتاس الذى كان سلوكه، بخلاف جميع أشقائه، لا يشير إلى أنه سيتغير مع مرور الزمن.

وبتشجيع منه، اعتاد كوستيس على زيارة عمارة كامب شيزار بشكل مستمر للقاء عزيزة بجسدها المشوق الذى تفوح منها رائحة الغار وعطر الليمون(*)، ولم يكن كوستيس يعرف هل تفوح تلك الروائح من جسد تلك المرأة المصرية أم من شعر رأسها

أم من أوراق نبات الغار وقطع الليمون التى كان قد رآها وهى تضعها فى طشت الغسيل. كان نيكيتاس، طوال الوقت الذى يقضيه كوستيس مع عزيزة، يقوم بدوره بلعب الورق مع زوجها عمر البواب، وأحيانًا ما كان يجد نفسه مضطرًا للعب مع عمر دورين أو ثلاثة أدوار. فى غضون ذلك، كان الوقت يمضى وأبناء العم يتنقلان من فصل دراسى إلى آخر فى مدرسة أفيروفيوس الإعدادية. تخرج نيكيتاس أولاً فى عام ١٩١٦، وفى يوم السادس والعشرين من يونيو أقيم حفل التخرج الكبير فى مجمع المدرسة اليونانية بالشاطبى، وقام بطريرك الكنيسة اليونانية والقنصل اليونانى بتوزيع الشهادات على الخريجين. كان نيكيتاس يبدو مشرقًا فى زى التخرج، وقد أغرق شعره الذهبى بكمية كبيرة من زيت تصفيف الشعر، حتى لايثير شعره الكثيف حفيظة مدرسيه. أما الخالة ماريا، فكانت تبدو رشيقة داخل ردائها أزرق اللون المصنوع من الحرير الناعم ـ الذى ترجع موضته إلى عشرين عامًا مضت، كما ذكرت ذلك لاحقًا والدة كوستيس ـ ولم تترك المنديل من يدها طوال الوقت مدعية بأنها تمسح دموع عينيها به بين الحين والآخر. أما ثاناسيس فقد حضر الاحتفال مرتديًا زيًا رسميًا، إلا أنه رحل قبل نهاية الاحتفال بقليل حتى يلحق بسباق الخيول فى نادى سبورتنج.

انتهز نيكيتاس الفرصة، واستأذن من عمته دافنى لكى يصطحب كوستيس معه إلى كازينو سان ستيفانو فى المساء. ودار بينهما الحوار التالى:

دافنـــى: «ماذا ستفعلون فى الكازينو، هل ستذهبون لمشاهدة اللاعبين؟».

نيكيتاس: «لا أبدًا، يا عمتى، ألا تعرفين أنه قد تم تجديد الكازينو وأنه سيخصص للغرض الحقيقى الذى أقيم من أجله؟ وأرغب فى دعوة كوستيس لنشرب معًا عصير الليمون بمناسبة التخرج. ما قولك إذن؟».

– «ماذا أقول؟» هكذا أجابته، ولكن لم يَرُق لها مطلقًا أن تسمع نيكيتاس وهو يدعوها "عمتى"، ثم أضافت: «وكأن إذنى له أية أهمية! أتعداننى على الأقل أن لا تتأخرا؟ "هل هذا وعد؟ "(قالتها بالفرنسية)».

– «بالطبع هذا وعد» (هكذا أجابها بالفرنسية).

عند الظهيرة استقل ابنا العم الترام إلى سان ستيفانو، كان الجو شديد الحرارة وكان كوستيس يرتدى قميصاً أبيض اليوم بأكمام مثنية. وفى الطريق قاما بالتريض فى الحدائق أمام المنازل فى باكوس حيث ڤيلات ومنازل المصطافين فى مصطفى باشا ورشدى. على جانب الطريق كانت أشجار الجميز والمطاط وغيرها بأزهارها الحمراء فاقعة اللون منتشرة فى كل مكان، وعلى الجانب الآخر توجد أشجار النخيل أمام البحر الواسع، كأنها لوحة فنية محاطة بأنهار من الدانتيللا البيضاء.

فى الكازينو، كان علية القوم يملأون المكان، وكانت الأوركسترا تعزف الموسيقى الكلاسيكية، لكن الألحان الموسيقية لم تكن على المستوى المطلوب. حيث كانت السلطات الإنجليزية قد أصدرت أوامرها بمنع عزف الموسيقى الألمانية. وبدلاً من أن يطلب كوستيس عصير الليمون قام باحتساء كوبين أو ثلاثة من البيرة حتى بدأت رأسه تدور، فأخذ يسخر من تلك الخطوط المرسومة على وجنات الندلاء السودانيين، الذين بدأوا بدورهم يرمقونه بنظرات غاضبة. وعندئذ تساءل نيكيتاس إذا ما كان قد فعل صواباً عندما تركه يسرف فى الشراب. وكأن ذلك لم يكن كافياً، فقد قرر كوستيس أن يجرب تدخين السجائر للمرة الأولى فى حياته، إلا أنه توقف فى التو عندما شاهد أحد الأشخاص ممن يعرفون والده، وقال:

«آآآخ، إنه القبطى»، هكذا تمتم كوستيس وأسرع بإلقاء السيجارة على الرمال، أما القبطى فهو رجل أعمال مصرى يعمل فى صناعة الورق، يُدعى بطرس عبد المسيح، وهو أحد المقربين إلى أندونيس خاراميس، حيث كان قد ساعد أندونيس فى الخروج أكثر من مرة من أزمة اختفاء الورق فى سنوات الحرب. إنه رجل طويل القامة بدين الجسد، يبدو وكأنه وحش كثيف الشعر مثل الدب، أما الطربوش الذى يرتديه على رأسه فكان يخفى رأساً تكاد تكون صلعاء. كان صوته الأجش يوحى للآخرين بشخصية تخالف شخصيته الحقيقية، حيث كانوا يرون أن هذا المصرى فاحش الثراء هو كالحمل الوديع. أومأ بطرس برأسه لكوستيس محيياً بطريقة جافة فما كان من كوستيس إلا أن رد له التحية، وعندئذ علق نيكيتاس قائلاً:

– «تلك الفتاة التى تجلس بجواره هل هى ابنته،" يا ابن العم"؟ (قالها بالفرنسية)».

– «"يا لك من "حيوان، ديب" (قالها بالعربية ودونها بحروف يونانية)، أيها المغفل، إنها زوجته».

– «زوجته؟ هل أنت متأكد، "يا ابن العمة؟" (قالها بالفرنسية)».

– «لم أرها من قبل، لكنى سمعت أنه قد تزوج من امرأة شابة، ولابد أن تكون تلك هى» هكذا أجابه كوستيس بنبرة جادة.

– «انظر كيف تتقمص القبطية دور امرأة أوربية؟ انظر لهذه المظلة وتلك القبعة وذلك الرداء الحريرى إنه شىء يخطف البصر!».

– «لكنها تبدو أوربية بالفعل، يا ابن الخال، أليس كذلك"؟ (قالها بالفرنسية)».

– «حسنًا، إذن، هذه المرأة هى ما يلزمك لمغامرة عاطفية جديدة».

– «هل جننت؟».

– «استمع لعمك نيكيتاس عندما يتحدث، فأنت مازلت صغيراً وساذجًا، لكنك ستصبح متمكنًا بفضل مساعدتى لك. هذه المرأة فهمت الرسالة».

– «فهمت الرسالة؟».

– «فهمتها واستوعبتها تماماً».

– «قل ماشئت إذن، أيها "العم " نيكيتاس».

– «أما أنت فستظل جبانًا كالمعتاد» هكذا أجابه وقد خرجت من شفتيه رغوة البيرة.

– «لستُ جبانًا وأنت تعرف ذلك».

- «إذن أريد أن أراك وأنت تسبح فى المياه العميقة، أريد أن أفرح بك».
- «أفضل أن أغوص فى " بئر الشيطان نفسه " على أن ألقى بنفسى فى أحضان هذه المرأة. لأنى إذا نجوت بعدها من بطرس فبكل تأكيد سيقوم أبى بشنقى».
- «أرأيت إذن أنك جبان. لكن حدسى يحدثنى بأنك لن تستطيع الفكاك من هذه المرأة، "يا ابن العمة" (قالها بالفرنسية)».

أخذ كوستيس يتفحص النظرة الباردة لتلك المرأة الشابة، وجال بخاطره مرة أخرى أن ابن خاله ربما لم يكن يدرى ما الذى يقوله حقًا.

* * * * *

«مستحيل!» كانت ذافنى تردد هذه الكلمة (بالفرنسية) باستمرار، وكأنها تستطيع بكلمة واحدة أن تصف كيف تحول كوستيس بمرور فصل صيف واحد من مجرد صبى صغير إلى رجل بمعنى الكلمة. «مستحيل!» رددتها عندما رأت بنطاله الأخضر وقد أصبح يصل بصعوبة إلى كاحليه «مستحيل!» رددتها عندما حاولت أن تلبسه، بجهد كبير، أحد قمصانه الذى تمت حياكته منذ فصل الربيع الماضى. «مستحيل!» رددتها عندما شاهدته وهو يشد أكمام زيه البحرى حتى ينجح فى إنزالهما حتى رسغه؛ أما هو فكان يجد صعوبة شديدة فى السير عندما يحاول جاهدًا، دون جدوى، ارتداء حذائه المفضل، دون أن يعترف بأنه أصبح بحاجة إلى حذاء أكبر بدرجتين حتى يتمكن من ارتدائه. كانت أمه تعزى هذا التغيير المفاجئ الذى ظهر على ابنها إلى الألعاب الرياضية التى كان يمارسها، مثل: التنس، كرة القدم، الكروكيه، إلى جانب القليل من رياضة التجديف. إنه كالشجرة التى امتدت جذورها فى باطن أرض مصر الخصبة وكانت تنمو وتترعرع يومًا بعد يوم؛ كان ابن أندونيس وذافنى يشبه النخلة اليافعة، وكان ظله يعكس كيف أصبح رجلاً ناضجًا يافعًا، كما اكتسب صوته تلك الطبقات التى تملأ سمع أى امرأة، وهو ما يبدو واضحًا الآن، حيث يتردد صوته داخل صالون المنزل مرددًا بعض الألحان التى تحتاج إلى صوت رخيم خلف الآنسة جابى.

كانت ذافنى تفخر أحيانًا بابنها، لكنها كانت تشعر فى أحيان أخرى نحوه بالقلق، وكان ذلك من حقها. فقد أثبت كوستيس حتى الآن أنه شيطان حقيقى، الله وحده يعلم إلى أى درجة من درجات الخطر يمكن أن يقوده هذا النضج المبكر. فحتى الآن لم تكن أمه التى ولدته تعرف أى شىء عنه، ولم تستطع أيضًا أن تواجه هذا "الشر" القابع خلف هذه النظرات الحالمة، وتلك الابتسامات الرقيقة، وكذلك أسراره ومتاعبه الخفية. وعندما كان أندونيس يطالبها بتحمل مسئولياتها باعتبارها أمًا تجاه ابنها، لم تكن تعرف بِمَ تجيبه.

يقولون إن الشر يمكن أن يبدأ بزيارة عائلية واحدة. وفى شهر سبتمبر من عام ١٩١٦، فى عزبة بطرس عبد المسيح فى أبى المطامير، حيث شيد هذا الرجل المصرى فاحش الثراء قصره الخاص بأسوار هرمية الشكل من أركانه الأربعة، والمشيدة بالخرسانة تمامًا كتلك المستخدمة فى بناء الأبراج العالية. كانت الواجهة الرمادية للمنزل تعطيك انطباعًا وكأن المنزل عبارة عن نتوء طبيعى فى بطن الأرض الخصبة.

على الرغم من أنه كان يومًا من أيام الآحاد، فإن بين أزهار القطن المزروعة فى كل مكان حول المنزل، كان مئات الفلاحين يعملون بجد ونشاط. تشم فى الهواء الطلق رائحة جميلة وكأنها رائحة عطر خفيف، وقد بين لهم بطرس بلغة يونانية مدهشة سبب هذه الرائحة قائلاً:

«هذه الرائحة تعنى وجود دودة فى القطن ينبغى علينا أن نبدأ حالاً فى التخلص منها. ولكن ينبغى أن نقوم أولاً بعملية " تمشيط " جيدة للقطن المزروع . حتى نتخلص من أوراق القطن المصابة، ثم يتم إفراغ حقائب الفلاحين المليئة بالأوراق المصابة على أطراف العزبة ثم تحرق بعد ذلك».

أندونيس: «أتعجب كيف يمكنك أن تربط بين عملك فى الورق وبين زراعة القطن!».

وكان من المعروف مدى كراهية أندونيس نفسه للقطن وبخاصة لتجار القطن.

ابتسم بطرس ابتسامة واثقة؛ عندئذ لمح كوستيس على وجه بطرس، بعينى صبى برىء، ذلك الغرور الذى كان قد لمحه فى عينيه عندما التقاه فى بداية الصيف، فى كازينو سان ستيفانو، وجال بخاطره أنه ينبغى أن تعاقب الحياة، بشكل أو بآخر، مثل هذا الرجل الذى يتفاخر بشكل مستفز، على أمور كثيرة: على كونه متزوجًا من جيهان، زوجته الشابة، وعلى معرفته اللغة اليونانية، وعلى ثروته ونشاطه التجارى، وبشكل خاص على ابنه يوسف الذى يبلغ من العمر عامين؛ ذلك الطفل الجميل الذى كانوا ينادونه جوزيف. كان يوسف يشبه أمه، وفى تلك الأمسية كان مثار حديث الجميع فى العزبة بكل كلمة يقولها وكل فعل يقوم به.

فى ذلك اليوم لم يكُف بطرس عن إظهار قدراته أمامهم، بدءًا من الخيول التى يمتلكها، والتى امتطى ماخوس أحدها وكان مهرًا بنى اللون، أخذ يتجول به فى العزبة وقد امتدح الجميع موهبته الواضحة باعتبارها فارس. بعد ذلك اصطحب بطرس كلاً من كوستيس واباه واختبأوا بين أعواد الذرة لاصطياد الحمام. مرت أعوام طويلة لم يمسك فيها أندونيس بندقية بيده، أما بالنسبة لكوستيس فلم تكن تجربته الأولى فى الصيد ممتعة، وبخاصة عندما كان يرى هذه الطيور المسكينة وهى تترنح وتسقط مضرجة فى دمائها.

«سوف تعتاد ذلك» هكذا وجه بطرس وأندونيس حديثهما بلهجة واثقة لكوستيس، الذى تمتم بداخله قائلاً: «هل يتم التعود على الموت؟».

وبالفعل فلا الموت ولا الوحدة يمكن لأحد التعود عليهما.

«للحظات ولحظات أشعر بثقل ما جاثم على صدرى، أنظر إلى النجوم فأجدنى ضائعة. فمن يمكن أن أصاحب هنا؟ " إنه شىء غير مقبول" (قالت ذلك بالفرنسية)» هكذا اعترفت جيهان لذافنى، التى أحست بأن فارق العمر بينها وبين جيهان يجعلها مضطرة للاستماع إليها بعاطفة الأمومة. كانتا تحتسيان الشاى وحدهما فى فترة الغروب داخل حجرة الصالون ذات الأثاث الضخم المنقوش الذى قام بصناعته أكبر صناع الأثاث بدمياط، فى الوقت الذى جلس فيه الرجال معًا. كانت الجدران تعكس

حرارة الظهيرة بالعزبة، وكان ضوء الشمس يصل داخل المكان بطريقة مبهرة وينعكس بنعومة على الأسطح الخشبية وعلى الكريستالات والفضيات الموجودة بالمكان. فى مثل هذا المكان الموحش، كانت المرأة القبطية الشابة تبدو جميلة ولكن حزينة، وكان ذلك الانحراف الخفيف (يقصد الحوَل) فى عينها يزيد من هذا الشعور بالحزن ويجعلها تبدو أكثر جمالاً. جال بخاطر ذافنى، دون قصد منها، كيف أن جيهان ستصبح أكثر سعادة لو كانت فى أحضان رجل أكثر شباباً، ثم انتهى تفكيرها بابتسامة عابرة ظهرت على شفتيها، ثم علقت على مأدبة الطعام قائلة:

«على كل حال، الغداء، كان رائعًا» (قالت ذلك باليونانية ثم رددته مرة أخرى بالفرنسية). أما الأكثر روعة فكان ذلك الحمام بالأرز فى أطباقه الضخمة! أتصدقين، يا عزيزتى، أننى لم أذق مثل هذا الطعام من قبل. "مستحيل"(قالتها بالفرنسية) أن يولد أحد فى مصر ولا يتذوق هذه الوصفة، لو قررت أن أعود إلى هنا مرة أخرى فسيكون لهذا السبب فقط " بدون مزاح" (قالتها بالفرنسية) »

لم تخف چيهان ضيقها، معتبرة أن ذافنى قد غيرت الموضوع متجاهلة مشكلتها، وأيقنت من خلال خبرتها البسيطة فى الحياة، أن السيدة اليونانية متوسطة العمر قد تبنت تكتيكًا محدداً لتغير الموضوع.

ساد الصمت بينهما لفترة وجيزة، وأخذتا تتأملان من النافذة أولئك الفلاحين الذين اعتادوا العمل وظهورهم منحنية صوب الأرض. فى حين كان صوت هديل الحمام يصلهما من مكان مرتفع، من أبراج الحمام .

«إنهم فى مرحلة التزاوج!» هكذا أبدت جيهان ملاحظتها، ثم تابعت: «فالحمام يستمتع بالحب أكثر منا نحن بنى البشر»، عندئذ أشرق نور وجهها فجأة وكأن هذه الفكرة كانت بمثابة الحل لكى تكشف عن نفسها قليلاً قبل أن تفعل ذافنى ذلك.

ويبدو أن بطرس كان قد قرر أن يبهر شريكه فى العمل؛ ففى وقت متأخر من بعد الظهيرة، وبينما كانت عائلة خاراميس تستعد للرحيل، وصلت من الإسكندرية فرقة من

العازفين المصريين الذين يرتدون ملابس رسمية أوربية مع الطربوش، اتخذ كل منهم مكانه فى الصالون الكبير وبدأوا فى عزف أنغام الفالس والكدريل[٧]. ملأت الموسيقى الحالمة أرجاء المكان بأثاثه الضخم، وحلقت إلى خارجه من أبواب الشرفات الضخمة فى تلك الأمسية الهادئة وفى ذلك المكان ذى الطابع الأفريقى. كانت الألحان قديمة بعض الشىء، مما جعل ذافنى تستعيد بعض ذكريات سنوات شبابها الأولى عندما احتضنت بيديها القائمة التى سجلت فيها أسماء الراغبين فى الرقص معها، والذين كانت قد وعدتهم بمشاركتها فى الرقصات التالية، وهو ما كان يتكرر فى كل حفلات الرقص التى حضرتها. لقد بدأت أخيراً تتذكر كل شىء يخص تلك الفترة، وكانت تشعر بأنها محقة فى ذلك بعد أن بلغت مرحلة من الرضا مع نفسها ومع عواطفها وأمنياتها الشخصية. لقد استطاعت أخيراً أن تحول رغبتها المقيتة فى السرقة إلى شىء واقعى، طالما أدركت أن مشكلتها لم تكن بشكل جوهرى ذات علاقة بمجرد رغبة حقيرة فى سرقة أشياء تافهة من منازل صديقاتها أو من المحال التجارية أو من الفنادق، ولكنها كانت ذات علاقة بشىء أكبر من ذلك وأكثر أهمية. وفوق كل ذلك كانت لها حياتها، تلك الحياة الفانية التى تستطيع أن تستمتع بها بلا قيود فى رحلاتها إلى القاهرة، مع إحساسها بعض الشىء بالذنب تجاه أندونيس، هذا حقيقى، ولكن دون عوائق من جانبه. لقد كان تجاهله لها يصيبها فى كثير من الأحيان بالضيق. نعم، إذن، فلأول مرة فى حياتها يمكنها القول بكل ثقة إنها شعرت بسعادة غامرة فى تلك الأمسية! لكن وصول عائلة قبطية أخرى قادمة من " العزبة " (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) المجاورة أدى إلى انقطاع أحلام اليقظة التى انتابتها؛ وقد وجدت فيهم السيدة خاراميس من خلال حوارها معهم نفس الإصرار على التمسك بالثقافة الأوربية. كان رب الأسرة رجلاً طويل القامة، أنيقاً، يتحدث الفرنسية بثقة كبيرة توضح مدى قدرته على الحديث بلغة أجنبية، أما بالنسبة لزوجته، فقد شعرت ذافنى بأنها قد سبق أن رأتها من قبل مرتين أو ثلاثاً فى حفلات الكوكتيل التى أقيمت فى أحد المنازل اللبنانية

(٧) الكدريل نوع قديم من الرقص يشترك فيه أربعة أزواج.

بالإسكندرية. أما أبناؤها فكانوا أصغر قليلاً من أبنائها، يرتدون الملابس الأفرنجية، ويتحركون بحرص يتعارض مع سنهم، حيث كانوا يتوجهون دائمًا بنظرهم نحو أبويهم حتى يحصلا على موافقتهما لكل خطوة يخطونها. ثم رفع وصول العائلة الثالثة درجة الاهتمام، وقام بطرس فجأة من فرط حماسه بجذب جارته من خصرها وشاركها فى الرقص على أنغام موسيقى الفالس وهم يضحكون مما يفعل. أما الرقصة التالية فقد كانت لذافنى مع ابنها الصغير ماخوس، وقد عبر الجميع عن مدى إعجابهم بموهبة هذا الصبى الرائع فى الرقص.

أما كوستيس فقد خطف الأبصار منهما، عندما قام بغناء مقطوعتين لشوبيرت، وفى نفس الوقت قام بمصاحبة الفرقة الموسيقية بالعزف على البيانو. كان صوته رخيمًا يمكنه من التنقل بسهولة ويسر بين الألحان الموسيقية المختلفة. وقد اتفقوا جميعًا بلا استثناء على أن الابن الأكبر لأندونيس يتمتع بصوت شجي؛ فى ذلك الوقت لاحظت ذافنى أن جيهان ترمق ابنها بعيون تملؤها الرغبة.

أصاب العرض الذى قدمه ولدا خاراميس بطرس بجرح فى كبريائه، ولم يهدأ حتى قدم استعراضًا، كان من الواضح أنه لم يكن من محاسنه الشخصية، ولكى يؤكد على ثقته بنفسه، اتخذ قرارًا غير صائب بأن يلقى فى أحضان كوستيس "بأقوى ورقة لدية"، وهى زوجتة الجميلة جيهان لكى ترقص معه. لم يظهر الصبى اليونانى بالطبع نفس براعة أخيه فى الرقص، لكن خطواته الثابتة ويديه القويتين اللتين أحاطت بها منحته ثقة ألهبت مشاعرها، حتى إنه استمر يراقصها للخلف تارة وللأمام تارة أخرى ويدور بها فى دوائر متتالية مستمتعين بذلك.

كان الضوء البرتقالى الذى يغمر الصالون الواسع، والجو الرومانسى الذى صاحبه، كافيين لتأجيج تلك المشاعر الرومانسية. وقعت جيهان أسيرة براثن ألوان الغروب الحالمة وكل التفافة تقوم بها بين أحضان هذا الشاب جعلتها تتورط أكثر وأكثر وتلقى بنفسها فى شباك حبه، هذا الحب الذى لم تكن قد اكتوت بناره من قبل حتى هذه اللحظة. كانت ذافنى هى الوحيدة من بين كل الحاضرين التى شعرت بذلك الحب

العجيب ينمو ويملأ جنبات المكان، لكنها لم تكن تتخيل أن تقع جيهان فى حب كوستيس الصغير، ولم تسمح لنفسها بأن تفكر فى هذا الأمر. لكن ما كانت ذافنى تخشاه قد حدث بالفعل.

بعد مرور أسبوعين قام بطرس وجيهان وابنهما يوسف بزيارة عائلة خاراميس ردًا على زيارتهم لهم فى العزبة. وارتبط وصولهم إلى منزلهم فى شارع العباسيين بموقف مؤسف. حيث تأخر السائق محمود فى الوصول إليهم، مما دفع خاراميس للتعدى بالضرب على محمود بسبب تصرفه غير اللائق مع تاجر الورق المصرى.

لم يكن كوستيس حاضرًا منذ البداية، لكن أدرك والده وهو يصفع محمود مرتين على وجهه، ذلك الوجه الضخم داكن اللون ذى العينين الصغيرتين اللتين يشع منهما الخبث، عندئذ قام السائق بعمل يتسم بالكثير من المداهنة، حيث جثا على ركبتيه وأخذ يقبل قدمى سيده ويديه. لم يكن كوستيس يشعر أبدًا بالارتياح تجاه هذا الشخص، كما لم يكن يثق به أبدًا، بعكس والده.

كانت تلك هى المرة الأولى التى يزور فيها بطرس منزلهم فى الحى اليونانى، دخل بطرس إلى قاعة الاستقبال التى يغلب على الأثاث طراز لوى كاتورز (لويس الرابع عشر) وينتشر بها السجاد الجوبلان والتحف التى تتميز بالطراز العربى؛ وفيما عدا الصالون الذى كان يتميز بالطراز الأوربى، شعر بطرس بأن ما شاهده لا يمثل، إلى حد ما، الطراز الأوربى. أصابته الكونسولات المزخرفة بالدوار من شدة انبهاره بها وكذلك قطع الموبيليا بذوقها الفنى الرفيع، والمقاعد المنخفضة التى لا تحتوى على مساند بأغطيتها الحريرية والمناظر الطبيعية من طراز لوى كينز (لويس الخامس عشر). أبدى بطرس اهتمامًا شديدًا بالتجول فى جميع أرجاء المنزل ولبى له أهل المنزل طلبه. كان كل مكان بالمنزل وكل حجرة تسبب له جرحًا فى كبريائه. فقد أحس أنه أقل بكثير من شريكه فى العمل، وأخذ يتصرف بشكل غريب حتى حانت ساعة الطعام. أما ذافنى فقد استطاعت، بعد أن أدركت بحسها أنها تتعامل مع طفل يريد أن يصيب الجميع بحالة من الارتباك لأسباب تافهة، وبعد أن شعرت قبل كل شىء بالشفقة عليه، أن تهدهد

مشاعره المضطربة. وأثناء تقديم الطعام، استدارت صوب چيهان المتألقة وقالت لها: «حاولنا أن نقدم لكم طعامًا لائقًا، ولكن أعتقد أنه لا شيء يقارن بالحمام الذى تناولناه عندكم فى العزبة. ما رأيك فى ذلك، يا أندونيس؟». أومأ أندونيس برأسه موافقًا بينما تنهد بطرس تنهيدة تنم عن ارتياحه، وقد شعر أنه ربح أولى جولاته.

اتفق خاراميس، مع ما ذكرته ذافنى، ثم أردف قائلاً:

«الأمور هنا جيدة، لا أنكر ذلك، لكن لا شىء يقارن بالحياة فى العزبة وفى الريف الطيب، هنيئًا لمن يستمتعون بهذه الحياة!».

عادت الابتسامة مرة أخرى إلى شفاه القبطى وعاد إلى طبيعته مرة أخرى وأعرب بدوره عن إعجابه بڤيلا آل خاراميس.

شعرت ذافنى بهذا النوع من الرضا الذى يشعر به هؤلاء الناس الذين يعرفون كيف يتعاملون مع الآخرين، وقد استندت مسترخية على مقعدها. فى هذا الجو الودى لم يعر أحد اهتمامًا خاصًا بجيهان، كما لم يهتم أحد بتغزلها بجمال عينى كوستيس، فقد ضاعت كلماتها باللهجة الفرنسية الرقيقة وسط صرير الملاعق والشوك أثناء تناول الطعام، حيث انشغل الجميع بالاستمتاع بالأطعمة. حتى الطفل الصغير يوسف كان يبتسم منسجمًا بهذا الجو. تناوبت العائلتان فيما بعد تبادل الزيارات الواحدة تلو الأخرى لشهور وشهور، ولم يفطن أحد لذلك التحول الذى طرأ على مجريات الأحداث مع بدايات صيف عام ١٩١٧، وما تلاه. حتى المقربين منهم لم يفطنوا لذلك.

بدأ هذا الصيف بمشاعر غريبة بالنسبة لكوستيس. فقد كان يتعجل دائمًا بشكل غير مبرر حلول فصل الشتاء وانتهاءه من الدراسة. وكان دوما ما يناقش هذا الأمر مع نيكيتاس، لكن يبدو أن نيكيتاس لم يكن يفهمه.

نيكيتاس: «المدرسة لم تكن سوى عذر، يا ابن الخال، حتى تلقى باللائمة على أبيك، اسألنا نحن عن ذلك، فالحياة بعد التخرج مسئولية كبيرة. ألا ترى معاناتى؟ لابد أن ألهث دائمًا وراء أبى، وأن أصلح ما لا يمكن إصلاحه. فسباق الخيول من ناحية،

والحرب بين أنصار فينيزيلوس وأنصار الملك من ناحية أخرى. أين العقل الذى يفكر فى العمل؟».

- «ما الذى يمكن أن تفعله لأبيك، "يا ابن الخال؟"(قالها بالفرنسية)».

- «وما الذى يمكننى أن أفعله؟ (قالها بالفرنسية). ثاناسيس ليس طفلاً صغيراً، هل أوجه له النصح؟ أشعر بالخجل من ذلك. فكان الأحرى أن يقوم هو بإسداء النصح لى».

- «هيا الآن، فأنا على يقين من أن الأمور ليست بهذا السوء».

- «لا تكن واثقًا إلى هذه الدرجة. فمنذ أيام أعطتنى مدام ماريا قطعة من الورق مكتوبة باللغة العربية لأقرأها وكانت تخص أبى. أتعرف ماذا تقول هذه الورقة؟ لقد قام الخال ثاناسيس برهن المحل. أتعرف ماذا يعنى ذلك يا كوستيس؟ سنصبح معدمين. كيف أصبح هذا الرجل بمثل هذا الغباء؟».

- «هيا الآن، لا تقل هذا، لابد من وجود حل».

- «أتقول لى هذا!».

- «هل ذكرت ذلك للخالة ماريا؟».

- «أجننت! هل تريد أن أتسبب فى قتلها؟».

- «وأنا أيضًا أرى أنه ليس من الضرورى أن تخبرها بشىء. وسوف نجد حلاً».

- «نعم، أى شىء، فلم أعد متفائلاً، "يا ابن العمة" (قالها بالفرنسية). ولكن ماذا هنالك؟ فما زلت تلميذًا نابغًا فى المدرسة الإعدادية ولكنك كثير الشكوى».

- «الأمر ليس كذلك، فدائمًا ما توجد مشاكل».

- «أى نوع من المشاكل يمكن أن تحدث لشخص له عقل مثل عقلك؟».

- «مثلاً، أريد أن أسألك ماذا أفعل مع زوجة القبطى».

– «ومن تكون يا ترى زوجة القبطى؟».

– «تلك التى رأيتها بنفسك العام الماضى فى كازينو سان ستيفانو، ألا تذكر ذلك؟ أسرة تاجر الورق الذى نتبادل معه الزيارة باستمرار فى أبو المطامير، لقد حدثتك عنها من قبل».

– «تذكرت، تذكرت، وقد أخبرتك حينها أن تطفئ نارها، فكل أخبارها عندى، أنها امرأة مفعمة بالحياة والمرح، يقولون إنها لا ترغب فى الإنجاب مرة أخرى حتى لا تفسد قوامها. أتعلم ما الذى أنت بصدده، لا تضيِّع هذه الفرصة إذن».

– «الموضوع ليس بهذه السهولة، فبين أبى والقبطى علاقة عمل وطيدة. ولا أنوى أن أدمر كل شىء من أجل نزوة عابرة».

– «أنس الأمر، إذن !».

– «نعم، ولكنها المرة الثانية التى ألتقى فيها بالقبطية فى نادى سبورتنج. لعبنا معًا التنس. والأسوأ من ذلك هو أننا قد اتفقنا على اللعب مرة أخرى».

– «"لعبة جيدة " (قالها بالفرنسية) من هذه المرأة!».

– «والآن أخبرنى، ماذا أفعل إذا طلبت منى أن نلتقى فى مكان آخر؟».

– «لا تتسرع إذن، استمر فى لعب التنس معها الآن وسنرى ماذا سيحدث لاحقًا».

– «ولهذا أسألك، لأنك لن تكون معى فى اللحظة الحاسمة».

– «وأنت، ألا تملك عقلاً لتزن به الأمور؟».

– «ما أريد قوله إن المدينة ليست كبيرة للاختباء بها. وبمجرد أن تلمحك عين تكون نهايتك».

– «"لا تدع المدينة تقلقك"(قالها بالفرنسية)، فلتصل أولاً إلى غرضك وسوف أجد لكما عشًا هادئًا تعششون فيه، يا طيورى الصغيرة».

- «يا لك من شيطان! تدفعني للشر دون أن تشعر بتأنيب الضمير».

- «"حسنًا، يا للجرأة!"(قالها بالإنجليزية)، أنا على يقين من أننى سأسمع منك المزيد فى وقت قريب».

- «فليكن ما يكون إذن، ولكن أخبرنى ماذا يدور فى رأسك الآن؟».

- «ماذا يدور فى رأسي...... أتعرف شارع القائد جوهر؟».

- «أتعنى شارع الكنيسة القبطية، حيث توجد كنيسة العذراء؟».

- «بالضبط، فى شارع الكنيسة القبطية نحتفظ أنا وأثنان من أصدقائى المقربين بشقة رحبة بها صالة كبيرة وحجرتان منفصلتان نلتقى فيها دائمًا بفتاة لا بأس بها؛ وهناك دائمًا متسع لكى تلتقى أنت فى هذه الشقة بتلك المرأة القبطية وإقامة علاقة حب معها بعيدًا عن أعين الناس، وبوصفها قبطية فلن تجد ذريعة لغيابها أفضل من زيارة كنيسة العذراء».

- «ألم أقل لك إنك شيطان كبير؟ تساعد على إغواء امرأة مسيحية مخلصة لطريق الضياع».

- «دعنا إذن لا نتعجل الأمور، دع كل شيء يحدث فى وقته»

* * * * *

وقع كوستيس فى الحب بأسرع مما كان يتصور، فمنذ أن بلغ السابعة عشر من عمره استمر فى الاستمتاع باعتباره صبيًا بعلاقته بعزيزة؛ إلا أن تلك المرأة التى كانت تتقلب على الفراش بجسدها المرمرى المثير، لم تكن تبادل كوستيس أية مشاعر عاطفية ولكنها كانت تمنحه فقط جسدها بسخاء. أما هذا الكرم غير المعتاد من زوجها عمر، الذى قدم زوجته لقمة سائغة لتطفئ لهيب شابين فى عنفوان الشباب، حتى لو كان ذلك دون مقابل فقد كان سببًا، بكل تأكيد، فى توحش تلك الرغبة المحمومة ونموها

السريع داخل وجدان شاب فى مقتبل العمر، مما دفعه للبحث عن المزيد من تلك العلاقات بشكل مستمر. لكن خلافًا لعلاقته بعزيزة، فلم تتعد خبراته فى الحب مجرد الخيال أو كانت بالنسبة له مجرد أحاسيس لأمور غير مكتملة، مثلما حدث فى إحدى المرات منذ عامين، عندما أمسك بإحدى الخادمات المصريات، وهى ابنة أخت فوزيه، وهى تسرق فأجبرها على ملاطفته ومداعبته(*) فى قبو المنزل، مع الخوف فى كل لحظة من أن يفتضح أمرهما؛ فى حين كانت الخادمة الصغيرة تبكى وهى تفعل ذلك مرغمة، الأمر الذى أفقده الإحساس بالمتعة، مما دفعه للتوجه مباشرة إلى أمه ليشى بها، فقامت فى التو بطردها.

كل ذلك لم يرض رغبته المحمومة فى الحب الرومانسى باعتباره شابًا صغيراً. وعلى الرغم من شخصيته العنيدة، فإنه كان دائمًا ما يتأثر بقراءة كتابات شكسبير الشعرية، وأشعار شيلى، وبايرون، وريمبو ومالارمى. ويبدو أنه كان من المستحيل " لصعلوك الحى اليونانى " أن يقع فى الحب بتلك الطريقة الفريدة التى ظهرت فى قصائد كامفا الرومانسية[٨]، التى تبرز فيها معانى التضحية وإنكار الذات دون قيود ولا شروط. لهذا لم يكن كوستيس على استعداد للاستمرار فى لعب التنس فقط، ولكنه أيضًا كان يسعى للقاءات حميمة فى أماكن خفية، لجولات رومانسية فى أماكن بعيدة، للعب وسط أمواج البحر، لاعترافات العشاق أمام أشعة الغروب الساحرة، وفى النهاية لتلك اللحظة المقدسة التى يتحد فيها جسدان معًا، نكاية فى كل الشرائع السماوية والقوانين البشرية، معطيًا ملامح واضحة لكل ما له علاقة بالحب: للإعجاب، للغرام، للشك، للشوق، لليقين، للحقيقة، للكذب، للولع وأيضًا لإقامة علاقة بين رجل وامرأة.

كم كانت روح كوستيس الجامحة على استعداد للقيام بكل شىء عدا الهداية والسير فى الطريق المستقيم؛ لهذا كانت دهشته عظيمة عندما سمع جيهان وهى تقول فى إحدى المرات: «هذه الأرض ملك لنا نحن الأقباط، أحفاد الفراعنة الحقيقيين.

---

(٨) قصائد كامفا قصائد شعرية من أربعة وعشرين بيتًا (المترجم).

أما أنتم فتدنسونها جميعكم بوجودكم على أرضها - المسلمون، اللبنانيون، اليونانيون، الأوربيون - وسوف يأتى اليوم الذى ستجبرون فيه جميعكم على الرحيل بعيداً عن هذه الأرض». فى البداية تبادر إلى ذهن كوستيس أنه ربما كانت هذه المرأة الجميلة التى كانت رغم كل شيء تتبع سلوك وأخلاقيات المسيحيين وعادات الأوربيين، تمزح، ولكن عندما أخبرته بأنها تعنى كل كلمة قالتها، أدرك كوستيس أن تعصبها هذا ما هو إلا وسيلة لكى تخرجها وقتما تشاء من تلك العلاقة المحرمة.

وحتى يصلا، طبقًا لخطة نيكيتاس، من ملاعب التنس بنادى سبورتنج إلى شقة شارع القائد جوهر، استغرق الأمر منه ثلاثة أشهر كاملة. فلم تشأ قلعة الفضيلة للمرأة القبطية الجميلة أن تنهار بهذه السهولة، حتى وصل الأمر بابن خاراميس للاعتقاد بأنه ربما كان عليه أن يغير من ملته حتى تهبه نفسها .

من الصعب أن يشعر أى رجل بمعاناة امرأة مذنبة تخون زوجها، حتى ولو كانت لا تحبه. وكانت رغبة كوستيس فى أن تصبح له وحده رغبة حقيقية.

وكان يريدها وهى إلى جواره على السرير ذى المرتبة المحشوة بريش النعام، أكثر استسلامًا فى أحضانه، وأن تأتى المبادرة الأولى منها، بسبب سنها، لا أن تترك له الوقت ليتخذ قراره، متغاضية عن قلة خبرته وجهله بأدق ما تحتاجه المرأة فى مثل تلك الأوقات. فى بعض الأحيان كان إحساسه بالبرودة فى مشاعرها يدفعه للعودة مرة أخرى لأحضان عزيزة مدفوعة الثمن، ضاربًا بعهود الولاء والإخلاص التى قطعها كل منهما على الآخر عرض الحائط، وفى الوقت نفسه كان يتمنى أن تحافظ هى على عهدها وأن لا تهب حبها لشخص آخر، حتى لو كان هذا الشخص هو زوجها.

وبينما كان يهبط درجات السلم على مهل فى عمارة كامب شيزار ليغوص فى أحضان عزيزة، التى كانت تنتظره باستسلام، كان يصعد درجات السلم مهرولاً ليصل إلى شقة شارع القائد جوهر، مداعبًا تلك النقوش العربية الموجودة على الحوائط. كان دائمًا ما يصل مبكرًا، منتظرًا محبوبته؛ يلقى ببصره بين الحين والآخر من الشرفة

الأمامية لكى يتأكد من عدم وجود أولئك الصبية الصغار الذين كان يطاردهم كل مرة فى الشارع، وأن الطريق قد أصبح ممهداً من أجلها. وعندما يحالفه الحظ، كانت جيهان تظهر بعد نصف ساعة، وفى أوقات أخرى لم تكن تظهر قط، وعندئذ كان كوستيس يتوقع تلك الحجج التى سيسمعها منها فى اللقاء التالى، مثل: «كان يوسف مريضًا»، «لم يكن بطرس فى مزاج جيد ولم يسمح لى بالذهاب للكنيسة»، «كان لدينا ضيوف فى العزبة».

أما عندما تسير الأمور سيرًا حسنًا ويتمكن من الحضور، يدرك أنه لابد له من السيطرة عليها منذ البداية، يهدئ من روعها ويخفف من حدة شعورها بالذنب، وأن يجد المبرر لقبلاتها الباردة وترددها وعصبيتها تجاهه. كانت جيهان تعتبر كل ذلك أمراً ضروريًا حتى يظل لديها شعور دائم بأنها مازالت طاهرة، وأنها أبدًا لم تلوث نفسها بجريمة الزنا. كانت الجميلة جيهان، بملامحها المتغطرسة كالتمثال، تعذبه فى كثير من الأحيان بتصرفاتها الغريبة، وبخاصة عندما كانت تنتقد ملابسه. «أين بذلتك؟ إذا كان علىَّ أن أهبك نفسى، فأريد على الأقل أن أهب نفسى لجنتلمان». هكذا حدثته فى أحد الأيام، عندما وجدته ينتظرها مرتديًا البلوفر المدرسى فوق القميص الأبيض. كانت تعامله فى كل مرة وكأنها المرة الأولى التى يلتقيان فيها فى هذه الشقة، وكان لزامًا علية أن يتحمل منها هذا الشعور الكاذب. أحيانًا ما كان يبدأ فى خلع ملابسها وعندئذ كانت تواجهه بالصد بطريقة جافة، وتقول:«الويل لك، يا فتى، إذا ما ظننت أنك قد ملكت أمرى». كانت تصر على أن تخلع ملابسها بنفسها، وأن تختبئ خلف طبقات كثيفة من الملابس تضمها صفوف معقدة من الأزرار، والمشابك والأربطة، تماما كالزهرة التى تحتاج لأن تقطف أوراقها حتى تصل إلى قلبها. بعد ذلك تقوم بترتيب ملابسها قطعة قطعة فوق أحد المقاعد بحرصٍ شديد، وكأن أقل تجعيدة بالملابس يمكن أن تشى بها وتكشف جريمتهما. وفى المقابل، كان كوستيس يتعامل مع ملابسه بإهمال شديد، وفى بعض الأحيان كان يجذب قميصه بجنون من فرط لهفته، مما يؤدى إلى نزع أحد الأزرار. وعندما يخلع بنطاله والجاكت الذى كان يرتديه، تلك الملابس المصنوعة من

أرقى أنواع الأقمشة، يلقى بها على الأرض فوق حذائه ومن فوقها قبعته، حتى إن من يرى هذه الكوْمة من الملابس يظن أن صاحبها قد تبخر فى الهواء وأنها هى كل ما تبقى منه. وعندما يلتقى جسده بجسدها(*)، يغلق عينيه وينتابه شعور بأنه يقفز من نافذة مفتوحة إلى السماء الواسعة، بدون جسد، بدون مشاعر، تقوده تلك الكلمات التى كانت چيهان تهمس بها فى أذنه (بالفرنسية)، قائلة: «أريد أن يبقى حبنا أبديا». إلا أنه عندما كان يفتح عينيه ويرى كومة الملابس كان يتيقن أنه ما زال على الأرض فى تلك الحجرة من الشقة. كم كان كوستيس مرتبطًا بهذه المرأة، مقيداً بعهود الحب الخالدة التى قطعها على نفسه لجيهان، ولم يكن يرغب فى العودة إلى ذلك العالم الخارجى، الذى كان على يقين من أن الحب فيه ليس أبديًا. ومن جهة أخرى، فقد فاجأته المرأة القبطية بقولها: «بمجرد أن تتخرج فى المدرسة سوف أتركك»، لكنها لم تستطع أن تنفذ تهديدها بعد أن تخرج فى شهر يونيو من عام ١٩١٨، لأنها ببساطة قد أعادت صياغة الجملة مرة أخرى قائلة: «بمجرد أن تنتهى الحرب سوف أتركك».

لكن حتى ذلك لم تفعله أيضاً، وكان ذلك، كما كتبت له لاحقًا (بالفرنسية)، خطأها الكبير، حيث قالت:

«كان ينبغى أن أترككم، يا سيدى، بمجرد تخرجكم فى المدرسة أو حتى بعد انتهاء الحرب».

لم يفهم كوستيس مطلقًا السبب الذى جعلها بعد افتراقهما تكتب له، ولم يفهم أيضاً لِمَ تحدثه بصيغة الجمع. فى ذلك الخطاب الذى لم يرد كوستيس عليه أبداً، كانت چيهان تشبه نفسها بالمصارع القوى الذى يستطيع أن يأتى بحركات لا حصر أمام خصم قليل الخبرة(*)، وقد أبهر كوستيس ذلك كما أبهرته قدرتها على طرحه أرضاً، إلا أنه لم يكن لديه من الخبرة ما يجعله يتصور أن تتركه چيهان يومًا ما حتى لو تم اكتشاف أمرهما.

لم يكن كوستيس أبداً لينسى ذلك اليوم الذى أرسل والده الآنسة جابى إليه لتخبره بأنه ينتظره فى الصالون، ولم يكن والده فى ذلك الوقت بمفرده، فقد كان

بصحبته صديقه الغنى عن التعريف بطرس، زوج جيهان، الذى لم يكن يبدو باعتباره رجلاً راشداً، ولكن باعتباره طفلاً متذمراً أتى ليسترد لعبته التى سرقت منه. هب أندونيس واقفًا وصفع كوستيس على وجهه مرتين - صفعة على كل جهه. تقبل كوستيس ذلك دون أن ينبس ببنت شفة، ولم يسأل عن السبب، فقد كان هذا ما ينقصه! ولكنه كان يتمنى فقط أن لا يكونان على علم بكل شيء. طأطأ رأسه لأسفل، وردد متلعثمًا: «لن يحدث ذلك مرة أخرى!» لم تكن لديه أدنى رغبة فى الدفاع عن حبه لزوجة بطرس. لقد قهرته هى نفسها من قبل بأسلوبها المتناقض. كان مستعداً للتخلى عن مشاعره ليس بسبب الخوف، ولكن بسبب فتور مشاعره التى لم يكن لها على الأقل أن تستمر.

لكن جاء ذلك متأخراً، فالتبعات الاقتصادية لانهيار العلاقة بين الأسرتين كانت أقل ما يمكن حدوثه. ومن جهة أخرى، كان أندونيس، الذى يبدو وكأنه كان يتوقع حدوث مثل هذه الأمور، قد استعد منذ صيف عام ١٩١٨ للتعامل مع آخرين لكى يمدونه بما يحتاجه من الورق، أما الفضيحة التى بدأت تنتشر أخبارها فلم يستطع أن يخفيها. ففى صباح اليوم التالى بدأ الحديث عن تلك الجريمة فى صالونات ونوادى المجتمع السكندرى بأسره. لم تكن التفاصيل معروفة لدى الناس، ولذلك فقد تم اختلاق الكثير منها على شفاه أناس يترقبون وينشغلون، بما تعنيه الكلمة، بأخطاء الآخرين. اكتسب شارع القائد جوهر سمعة تشبه سمعة شارع السبع بنات. وانتشر العديد من الأخبار المبالغ فيها على لسان الناس، فمنهم من ادعى معرفته بكل ما كان يحدث فى هذا المنزل المشبوه، حتى وصل بهم الأمر للتأكيد على أن المرأة القبطية كانت على علاقة بأربعة رجال يونانيين فى نفس الوقت. والغريب أن كل من تعرضوا لهذه القصة توصلوا إلى نهاية مماثلة مفادها: أن العشاق الأربعة قد قطعوا علاقاتهم بها، ثم اعترف أحدهم بكل شيء لزوجها. نهاية متوقعة لمثل هذه الفضيحة التى حدثت بين أفراد هذه الطائفة الفاسقة، طائفة الأقباط، الذين يصرون على أنهم أحفاد طائفة أخرى فاسقة، وهم الفراعنة، مما يجعلنا نعى أن انتشار الكذب فى مثل هذه القصص لا يحدث بسبب الواقع، ولكن بسبب الشر الذى يقبع داخل ضمائر البشر.

لم يبذل كوستيس أى مجهود لكى يعرف كيف وصل الخبر إلى الزوج المخدوع. ولكنه اكتفى بتلقى عقابه على ما اقترفه من ذنب، دون أدنى رغبة منه فى الاعتراض أو فى الدفاع عن نفسه. لقد قبل كل شيء، حتى قرار والده المفاجئ بإبعاده إلى ألمانيا. وقد حدث هذا بمحض المصادفة، فقد كان من الممكن أن يرسله إلى أى بلد آخر. فقد تصادف فى تلك الفترة أن تناول والده طعام العشاء مع عائلة الطبيب الشاب، ستيفانوس باتيلوس "الكاريوتاكى" كما كانت تلقبه ذافنى، وذلك بسبب أصوله التى تعود إلى مدينة إيكاريا. كان ستيفانوس طبيبًا جيدًا، بلا شك، لكنه كان يصيبهم بالسأم من كثرة حديثه عن ألمانيا المتقدمة عسكريًا: «الألمان فعلوا هذا، الألمان فعلوا ذلك». حتى إن ماخوس، فى النهاية، عندما سُئل فى إحدى الأمسيات فيما يفكر أن يصبح عندما يكبر، أجاب بطريقة تجمع بين الجد والهزل: «وهل هذا يحتاج لسؤال، سأصبح ألمانيا». عندئذ ضحك أندونيس كثيرًا، لكن على ما يبدو فقد أوحت له هذه المزحة بالفكرة. تحت وطأة الفضيحة، استدعى أندونيس كوستيس ذات يوم فى نهاية صيف ١٩١٩، وقال: «سأرسلك إلى برلين لتدرس الهندسة المعمارية»

لم يخطر ببال كوستيس أبدًا هذا التطور فى الأحداث، وبدا له وكأنه حمل على كاهله عبء المستقبل كشخص أجنبى. ومن ناحية أخرى، فقد انتابته مشاعر جياشة تجاه الإسكندرية، ذلك البلد الذى كان ينبغى عليه أن يضمد جراحه سريعًا بعد حربه الخاسرة. وفى اليوم الذى كان يودع فيه الإسكندرية راحلاً من مينائها الغربية، هبت على المدينة نسمات الفجر بلونه الوردى. وأخذ يحدق فى سمائها لكى يشاهد بزوغ الشمس، وكان وكأنه يودع فجر حياته إلى الأبد.

الفصل الثانى

كل الأسر السعيدة تتشابه فيما بينها

وكل الأسر تعيسة ليست سوى حالة فريدة

(«أنا كارنينا»، ليو تولستوى)

ميونيخ فى ٩ أكتوبر ١٩٢٢

أخى الحبيب كوستيس، لا أستطيع أن أصدق أنه قد مر شهران منذ أن غادرتُ مدينتنا الحبيبة – مدينة الإسكندرية، ربما لأن حياتى هنا فى العاصمة البافارية قد وجدت إمتدادها الطبيعى. ولم تعد تتملكها، لحسن الحظ، ظلمة شوارع برلين الموحشة التى دائمًا ما تصفها فى خطاباتك. لذلك، وأرجو أن تسامحنى يا أخى الحبيب، يتعذر علىَّ أن أفهم كيف يمكن أن تتحمل ابتعادك عن سماء الإسكندرية لمدة ثلاثة أعوام متواصلة. وأمام قتامة ذلك الأفق الألمانى الملبد بالغيوم، يستطيع المرء أن يدرك نعمة الحياة التى كنا نحياها فى مدينة الإسكندرية بصيفها الأبدى، بجوار هذا البحر الخالد ذى النور والرمال.

لكنى أعتقد أنه من الممكن للإنسان أن يجد طريقة للتأقلم مع هذا الأمر من خلال نعمة أخرى وهى نعمة النسيان، أمر كهذا ينبغى علىَّ فعله أنا أيضًا حتى يتسنى لى الحفاظ على صفاء روحى، ذلك الصفاء الذى أشعر بأننى فى أمس الحاجة إليه. إننى أتساءل باستمرار عن السبب الذى جعل والدنا يقوم بنفينا إلى أرض الهون[٩]. من

---

(٩) الهون، هم شعب المغول المرتحل الذى سيطر على جزء كبير من أوربا الوسطى والشرقية بقيادة أتيلا عام ٤٥٠ م، وأصبح يشار بها للجنود الألمان. (المترجم).

المؤكد أن ذلك يتعلق بعقابنا: فوالدنا يعاقبنا، يا عزيزى كوستيس، ولا أستطيع أن أفهم لماذا. فنحن لم تطرأ على ذهننا إطلاقًا الحضارة الألمانية، وكما ترى، فحتى الآن، يميل تفكيرى دائمًا وبشكل عفوى تجاه الحضارة الفرنسية، فالأخلاقيات الألمانية تبدو غريبة علينا، إلا أننا أتقنا – أنا وأنت – لغتهم فى السنوات الأخيرة. صدق أو لا تصدق، فقد أحببت ألمانيا فى فترة من الفترات، ويرجع الفضل فى ذلك إلى ستيفانوس، طبيب العائلة، الذى كان يفتخر دائمًا أمامنا بتعليمه فى ألمانيا؛ واليوم أشعر بالامتنان، ولا أخجل من قول ذلك، حيث أدركت وبشكل يثير دهشتى قدر ومكانة هذا الشعب الذى شوهت الدعاية الألمانية الفرنسية صورته فى عيوننا. وإذا كان أجدادنا هم الذين حملوا مفاتيح الحضارة فى العالم القديم، فالألمان هم، بلا شك، حماة الحضارة فى العالم الغربى فى عصرنا الحاضر. وهو ما يمكن للمرء أن يشاهده فى كل مكان، وفى كل إنجازات هذا الشعب العظيم، أولاً فى الفلسفة، وبالطبع فى الموسيقى، وأيضًا فى الفن وفى الشعر، ولم لا.

ألا ترى، يا أخى الحبيب، أنه ليس من الطبيعى أن نوجد – أنا وأنت – داخل نفس البلد دون أن نلتقى، ألا تتفق معى فى ذلك؟ فأنا أشتاق كثيرًا لرؤياك، وأتصور أنك، بدورك، لديك نفس الرغبة. وأؤكد لك أننى قد تغيرت فى خلال هذه السنوات الثلاث، وأؤكد لك أيضًا أنك ستجد صعوبة بالغة الآن فى التعرف إلى أخيك الصغير إذا ما قابلته بالمصادفة فى الطريق. لكن قد يبدو ذلك من محاسن الحياة، أليس من الرائع أن يشكلنا الزمن كما يتشكل العجين، وفى كل مرة يشكلنا فيها يمنحنا ملامح مختلفة؟

قد أبدو لك أكثر حماسة عن ذى قبل، لكن لابد أن أبوح لك بأننى قد استطعت فى ميونيخ أن أقيم، بشكل سريع، العديد من العلاقات المهمة التى ساعدتنى بدورها على التغلغل فى المجتمع الألمانى. فمن بين الكثيرين هنا، تعرفت إلى شخص من الإسكندرية، «فى كل مكان يمكنك أن تجد سكندريين!» هذا ما كنت تقوله من قبل. أتتذكر ذلك؟ هذا الشخص يدعى رودولف إس، وهو ابن فريتس إس، التاجر الألمانى، الذى مازالت أسرته تعيش فى الإسكندرية، وتحديداً فى منطقة الإبراهيمية، وتنتمى والدته لجذور يونانية،

أليس ذلك غريبًا؟ لقد فضل رودولف إس أن ينضم للجيش الألمانى وأن يحارب ضمن صفوفها بدلاً من العودة خاضعًا لسيطرة والده المستبد، وهو فى ذلك يشبه والدنا، كما يبدو. إن له عقلاً متفتحًا يجعله قادرًا على استيعاب التيارات الحضارية الحديثة. فقد درس إس، وما زال يدرس فى جامعة ميونيخ: الاقتصاد السياسى، التاريخ، الجغرافية السياسية، تحت إشراف الأستاذ الكبير كارل هاوس هوفير، الذى تربطه به علاقة صداقة، أليس ذلك رائعًا؟ لقد أدخلنى هذا الشخص إلى معجزة الشيوعية العالمية التى تتعاظم كل يوم داخل هذه الدولة الجريحة؛ فقد اصطحبنى منذ أيام وتابعنا معًا خطبة رجل على نفس القدر من الإبداع، إنه أدولف هتلر. إنه ساحر بشكل غير معقول: شخص ضئيل الجسم ذو مظهر مضحك، عندما يتحدث يشبه العرائس الخشبية (اطاريونيت) التى كنا نشاهدها فى شوارع الإسكندرية، ورغم ذلك فلديه قدرة فائقة بحركاته وكلماته المؤثرة على إبهار الجمهور. ويبدو لى أن حركاته الآلية هذه لا يمكن أن ترتبط بأية لغة أخرى سوى اللغة الألمانية ذات السحر الغجرى. السيد هتلر، إذن، محظوظ لأنه يتحدث بهذه اللغة التى يستطيع من خلال إتقانها التقليل من أهمية الناتج الاقتصادى، إنه يكافح من أجل كرامة الشعب الألمانى، ويحث أبناء شعبه على تلك الكراهية المقدسة تجاه الأعداء، بل ويعتبر وجود اليهود بمثابة صفعة قوية على وجه ألمانيا وعلى وجه العالم بأسره. كان ينبغى أن تتابع أنت أيضًا هذا الخطيب اللامع. ربما يكمن فى كلماته المخرج الوحيد الذى تسيطر فيه القسوة على الجنس البشرى. بهذه الكلمات القليلة عن الهر هتلر، والذى يعتقد رودولف إس أنه سيصنع التاريخ فى يوم من الأيام، وهو أمر قد لا نكون متفقين عليه فى الوقت الحالى، أخشى أن الوقت قد داهمنى وينبغى أن أتركك الآن، يا أخى الحبيب، حيث تنادينى أنهار من الأفكار الفلسفية. أتمنى وأتطلع إلى لقاء قريب يجمع بيننا.

مع قبلاتى

أخوك ماخوس

* * * * *

توصف فترة العشرينيات من هذا القرن بالنسبة لشعب الإسكندرية بأنها جنة ما بين الحربين العالميتين، فقد شغل الناس أنفسهم بمطاردة الثروات والخبرات فى مدينة كانت تمنح أهلها كلا الأمرين بكرم بالغ. فى ظل هذا الجو من التفاؤل الذى عاشته الإسكندرية بشكل أساسى، والذى صنعه الخروج من هذه الحرب الكبرى، من خلال ما ورد من أنباء فى الصحف الخاضعة للمراقبة، تزايدت أصداء التنبؤات المشئومة للمستقبل التى كان يطلقها أشخاص مثل إلياس خورى " اللبنانى" المعروف بنظرته المستقبلية، فكان إلياس يصر على أن يصيب أصدقاءه المنعمين من أهل المدينة بنوع من التوتر، بقوله فى كل مرة يلتقى بهم: «تمتعوا قدر استطاعتكم، فهناك حرب أخرى قادمة،" دون شك " (قالها بالفرنسية) ، وسوف تطرق بابنا!».

كل من كان يعتقد أنه بتلك الطريقة يبحث عن عذر مقبول لكى يستمر بشكل مفرط فى " أسلوب حياتها" (دونًها بالفرنسية)، بدون تلك القوانين التى شرعتها السنوات الطوال المتوقعة من السلام فى حياة البشر، فهم لا يرون سوى نصف الحقيقة. ففى انتظار نشوب حرب أخرى، كان من الطبيعى أن يصب الأغلبية اهتمامهم على مجريات الحياة اليومية، وأن يساورهم شعور بعدم جدوى استغلالهم من قبل أشخاص مثل إلياس.

لكن يبدو أن هذه الحرب الثانية المتوقعة لم تكن اكتشافًا مخططًا لمستقبل مظلم، ولكنها كانت مجرد خدعة، استطاع " اللبنانى" من خلالها الاستفادة بفكرة الديون غير المشروعة (الربا) بداعى غموض ما سيحدث غدا. فقد كان التهديد واضحًا أمامه، ممثلاً نوع من المعاناة النفسية التى كانت تلقى بظلها على أيام الإسكندرية التى يعيش فيها، وهو ما كانت إيفيت تعتقده أيضًا، التى لم يكن لديها هى نفسها، على الأقل حتى تلك اللحظة، الوقت لكى تهتم بهذه السناريوهات المستقبلية، معتبرة أن لديها ما يكفيها من المشكلات فى الوقت الحاضر. ففى البداية تخلت عنها حبيبتها روكسانى فى صباح أحد الأيام الجميلة، بعد أن ابتسم لها الحظ. فقد تعلق بها أحد زبائن منزل مصطفى باشا المهمين، وهو الصائغ الأرمينى سيمون كريكوريان، وأحبها بجنون، وقرر أن

يخرجها إلى الأبد من حياة الفجور والمجون، عارضًا عليها تصورًا خياليًا لزواج ثرى. فالمليونير الأرمينى من مدينة سميرنى - وهو رجل فى الستين من عمره، موفور الصحة، صاحب العديد من المحلات فى مدينتى الإسكندرية وباريس - جاء مطاردًا فى خريف عام ١٩٢٢، وقرر الإقامة فى مصر. وشاءت الأقدار أن تصبح زيارته لمنزل مصطفى باشا هى الأكثر تأثيرًا فى حياته وحياة الصغيرة روكسانى التى لم تعد صغيرة، حيث كانت تقترب من سن الثلاثين، والتى كادت أن تصاب بالاضطراب عندما كانت تفكر فى أنها سوف تفنى عمرها فى هذا العمل المهين. لم تعد أسطورة المرأة البغى الجاسوسة تروق لها. وربما لم تكن هذه الشخصية المزدوجة سوى خدعة أوهمها بها الآخرون من أجل أن يجملوا لها واقعها الذى تعيشه. كانت ترى بنفسها الصافية حقيقة أن حياتها لم يكن لها أن تستمر لفترة طويلة بهذا الشكل. وكانت إيفيت تؤكد لها كل فترة أنها قد أعدت مبلغًا من المال لها ولأختها، حتى يكون جاهزًا عندما تتخطيان حاجز الثلاثين عامًا، وتنسحبان من هذا العمل وتعيشان حياة كريمة ما بقى لهما من حياة. لكن كل ذلك لم يتعد مجرد وعود شفهية، ولم تر منها روكسانى أى شىء.

لذلك لم يكن لدى روكسانى أى استعداد للتخلى عن ذلك الفارس الأرمينى. كانت حياتها محدودة إلى حد كبير داخل المدينة، ولم يكن يعلم بوجودها عدد كبير من الناس. أما بالنسبة لعملها، فلم يكن يعرفها سوى أولئك الذين ارتبطوا بها فقط، وبالتالى فلم يكن هناك ما يمكن أن يعوق زواجها من كريكوريان. وبالفعل فقد تم زواجهما فى حدود ضيقة. وعلى الرغم من أن حياتهما الزوجية كان من الممكن أن تمر بسلام فى الإسكندرية، فإنها فضلت بشكل أو بآخر أن ترحل إلى باريس حتى تتمكن من الابتعاد بشكل نهائى عن ذلك الماضى المهين. وبما أنها " قد تم إنقاذها "، كما يقال، بواسطة "فارس نبيل"، فمن الطبيعى ألا تترك أختها بلا حول فى يد تلك القوادة إيفيت، ولذلك كان اهتمامها منصبًا على اصطحاب ذانائى معها.

كان ألم إيفيت مضاعفًا، فقد كان عليها أن تواجه الحقيقة المؤلمة بأنها، وهى فى الخامسة والثلاثين من عمرها، لم يكن من حقها أن تشعر بمشاعر الشباب. منذ سنوات

مضت كانت تعتقد بأن اليوم الذى ستترك فيه هذه "المدينة الملعونة" (دونّها بالفرنسية) لن يتأخر، وأنها ستعود مرة أخرى إلى أوربا، وهى فى ريعان شبابها، لكى تتمكن من العثور على خيط حياتها الضائع مرة أخرى، لكن كان عليها أن تقتنع بأن حظها كان موثقًا برباط غليظ بمنزل شارع مصطفى باشا وبأن حياتها العاطفية التى كانت رهينة برجل متزوج ، يكبر فى السن يومًا بعد يوم ويصبح أكثر مللاً وإثارة للشفقة. كانت علاقتها بأندونيس خاراميس قد توقفت منذ زمن عند خدمة أية خطط مشتركة بينها وبين إلياس خورى، فى حين أصبح لديها وفرة من المال تجعلها لا تعتمد على هبات رجل صناعة الدخان اليونانى. أما علاقتها بأنطوان فقد استمرت نتيجة للتعود الأحمق، وأصبحت على قناعة بأن أندونيس بات يتعامل مع علاقتهما على أنها اتفاق تجارى طويل الأمد، ولا ترقى لأن تكون علاقة عاطفية. من جانبها، كانت إيفيت بحاجة، وبخاصة مع مرور السنين، لأن تشعر بأن هناك من يهتم بأمرها: يدفع عنها إيجار الشقة فى شارع حسين باشا، ينفق المال من أجلها، كما يمكنها أن تملأ دولابها كل عام بالملابس الجديدة. كان هذا الشعور يعمل على تهدئة مخاوفها، حتى إن مشاعرها استمرت طوال الوقت بنفس الرغبة التى كانت تشعر بها منذ اليوم الأول الذى وطأت بقدميها الإسكندرية، أما عدا ذلك فيمكن إصلاحه.

بدا واضحًا أن الفراغ الذى تركته روكسانى وذانائى من المستحيل أن يعوضه أى شخص آخر، وكانت الدلائل تشير إلى أن إيفيت سوف تتأقلم من خلال حلول سريعة، على الأقل بعد فترة من الزمن، معتمدة فى ذلك بشكل كلى على بيتروس ثيميستوكليس، تلك الفكرة التى كانت تلهب حماسها. كانت الفتيات اللاتى يرسلهن القبرصى، حتى لو لم يشبهن فى جمالهن الفتاتين اليونانيتين، يبدين عدم الاهتمام بالاشتغال فى بيت البغاء فى منزل شارع مصطفى باشا، كما كن دائمًا مثارًا للشكوى المبررة من قبل زبائنها المفضلين. وفى النهاية، منحتها الحياة الحل لكل تلك المشاكل بطريقة مؤثرة وغير متوقعة.

فى إحدى الأمسيات فى نهاية عام ١٩٢٢، كانت إيفيت تنتظر أندونيس فى شقتها. وبعد أن غادرت الخادمة المنزل، وأصبحت بمفردها بالمنزل، أصابها قلق شديد. وفى كل مرة تسمع صوت المصعد، تفتح الباب برفق وتتطلع من خلفه إلى ذلك القفص الخشبى الضخم بدعاماته الحديدية وهو يمر من أمامها ثم يكمل صعوده لأعلى. عندئذ كانت تجذب بعنف حزام الروب الذى ترتديه وتنفث دخان سيجارتها فى الهواء وهى تغدو وتروح فى طرقة الشقة. وفجأة نما إلى أسماعها صوت زوجة بواب العمارة وهى تصيح، أدركت أن هذا هو الموعد الذى تتناول فيه أسرة رمزى (البواب) طعام العشاء وتخيلت رمزى وزوجته وأطفاله الثلاثة الصغار وهم محشورون فى حجرتهم الضيقة أسفل السلم لتناول الطعام، يلتفون حول "الطبلية "(ذكرها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية)، تلك المائدة الشعبية بأرجلها الصغيرة حيث توضع فوقها أصناف الطعام الشهية التى تتناولها الأسر المصرية البسيطة. فهناك أرغفة العيش المكدسة فوق بعضها إلى جانب الفلافل " والقلة " (ذكرها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) التى تمتلئ بالماء البارد حتى تطفئ عطشهم من حرارة الفلافل المقلية وطعمها الحار.

فى ذلك الوقت بدأ الأطفال يصدرون أصواتًا مزعجة كما بدأت زوجة رمزى فى الثرثرة. تلك الضوضاء التى لا تنتهى إلا عندما يقرر البواب أن يخرج يده من أكمام جلبابه المتسخ وتوجيه صفعتين أو ثلاث على وجوه أطفاله. فى هذه المرة، لم ينقطع الضجيج الذ يحدثه الأطفال بل زاد عن الحد المعتاد، وكادت إيفيت أن تنظر من بئر السلم وتطلب منهم أن يلزموا الصمت، حيث لا تتناسب تلك الضوضاء مع الوقت الذى سيمكث فيه أنطوان معها. استطاعت إيفيت من بين صراخ الأطفال أن تتبين صوت رجلين يتحدثان العربية بصوت مرتفع. كان أحدهما بوضوح هو صوت رمزى، أما الثانى فلم يكن صوتًا مألوفًا لها ولكنه كان يتحدث بلكنة شامية. لو لم تكن إيفيت تعتبر أن وجوده هنا مستحيلاً، لأقسمت أنه صوت إلياس. لكن لم تستغرق شكوكها وقتًا طويلاً حتى تأكدت أن الرجل الذى خرج فجأة من المصعد هو "اللبنانى" بعينه. كان يرتدى معطفًا أسود طويلاً، وكانت القبعة التى يرتديها على رأسه تغطى ملامح وجهه.

إيفيت: «أأنت هنا؟ لكن ماذا تفعل، "هذا جنون"(قالتها بالفرنسية)، فأنا أنتظر وصول أنطوان بين لحظة وأخرى».

إلياس: «ارتدِ ملابسك "لابد أن نرحل فى الحال" (قالها بالفرنسية)» هكذا أجابها إلياس، وبينما كان يخلع قبعته، وقد تلألأ الحجر الأحمر الضخم الذى يزين خاتمه فى النور.

- «ألا تسمع ما أقوله لك؟ " أنطوان قد يصل بين لحظة وأخرى"(قالت ذلك بالفرنسية)»، ثم أزاحت بأصابعها شعرها المتدلى على وجهها إلى الوراء.

- «إنها مسألة حياة أو موت، ارتدِ أى شىء وهيا بنا نذهب» قال ذلك بإصرار وهو يميل برأسه للخلف.

فى هذا الوقت كان المصعد قد هبط ثم بدأ فى الصعود مرة أخرى، ولم يكن هناك احتمال أن يكون الموجود بداخله شخصًا آخر غير أندونيس.

أندونيس: «ما هى مسألة الحياة أو الموت؟» كانت هذه أول عبارة يلقيها أندونيس بمجرد خروجه من المصعد.

إلياس: «"عذرا على هذا الإزعاج" (قالها بالفرنسية)، يا أندونيس، ولكن هناك صديقًا فى حالة حرجة» هكذا أجابه إلياس وهو يقلب قبعته بين يديه بشكل عصبى، ثم استكمل حديثه قائلاً: «أخشى أنه فى تلك اللحظة ينبغى أن تأتى إيفيت معى».

أندونيس: «إذا كان لابد أن تذهب معك، فلا مانع إذن» قال أندونيس ذلك دون أن يبدو عليه الاقتناع التام بهذه الحالة الطارئة. ثم أردف قائلاً: «فلندخل إذن حتى تستعد إيفيت ونحتسى بعض الشراب. فسوف أبقى هنا على أية حال لأنى بحاجة إلى بعض الهدوء قبل أن أعود إلى منزلى».

أحست إيفيت بالضيق الذى أصاب أندونيس وهو يذكر منزله، الأمر الذى لم يفعله من قبل، كما لو كان يريد أن يخبرها بأن هناك مكانًا آخر يذهب إليه حال رحيلها.

وبصدق لم تكن تعرف من منهما ترضى أولاً. لكن فى النهاية، ما الذى حدث حتى يتعكر صفو أمسيتها الهادئة؟

كان لإصرار إلياس على اصطحابها الغلبة، وبعد نصف ساعة كانا فى الطريق، وهو يتذمر كيف أنه بسبب عجلته جعلها تخرج معه " وقد ارتدت أى شىء على عجل " (دونها بالفرنسية). وفى ظل ظروف أخرى، فإن ما فعله " اللبنانى" يعد بمثابة انتصار كبير على منافسه الذى لا يقهر، على الرغم من استمرار عشيقته السابقة فى طلب تفسير لهذا "الاختطاف"، كما أسمته. أما المبررات فقد عرفتها لاحقًا فى طرقات المستشفى اليونانى، هناك حيث شاهدت شبحًا مخيفًا لماريانثى اليائسة. ارتمت تلك المرأة التعسة فى أحضان إيفيت بجسدها الهزيل الذى أنهكته مأساتها غير المتوقعة وقضت على كل مظاهر الحيوية فيها. أحست إيفيت وكأنها تحتضن شبحًا لا يفعل شيئًا سوى البكاء والنحيب، وكانت تكرر بشكل مستمر «باناپوتيس، يا إيفيت، حبيبى باناپوتيس...» كانت رائحة الكحول النفاذة والأدوية المطهرة تعبئ المكان. وكانت الممرضات تجوب الطرقات بخطوات عسكرية، فى حين ظهر طبيبان تبدو عليهما الجدية والمهابة وكأنهما قائدان عسكريان. أحدهما ضخم الجثة له شارب كثيف، شعره رمادى اللون ينحصر فى منتصف رأسه، اتجه هذا الطبيب ناحية زوجة أرابيذيس فى حين أسرعت هى تجاهه. تحدث إليها بجمل قصيرة ورفض أن يستمع إلى أية أسئلة، مشيرًا بكفه إشارة تدل على ذلك الرفض. كان موقفه الرافض سببًا فى إثارة غضب إلياس الذى تحرك تجاهه غاضبًا، إلا أن الطبيب ظل ثابتًا على موقفه غير مهتم بانفعال إلياس. وبدا واضحًا أن موقفه الغامض قد زاد من حيرة ماريانثى.

إلياس: «"إنسان سخيف!"(قالها بالفرنسة)، سأطلب من أحد أن يتحدث إلى هذا "المخلوق"(قالها بالفرنسة)، انتظرانى هنا،"وسأعود بسرعة "(قالها بالفرنسية)».

اختفى إلياس ثم عاد بعد عشر دقائق وهو يبتسم ابتسامة رضا، وقال:

«أعتقد الآن أن كل شىء سيكون على ما يرام».

طوال ذلك الوقت كانت إيفيت تحتضن ماريانثى وتهمس فى أذنها:

«الأمر ليس جد خطير، أنا على يقين من ذلك».

وكأن الواقع أراد أن يكذبها بطريقة قاسية، فقد ظهر أرابيذيس بعد دقائق معدودة وهم يحملونه وقد بدا فى حالة سيئة. كان وجهه شاحبًا جامدًا، لون وجهه يدل على أنه، إن لم يكن بالفعل قد مات فإنه بكل الحسابات المنطقية على وشك الموت. كان المرض – وهو مصرى، طويل القامة، ذو بشرة سمراء، يرتدى رداءً ناصع البياض – يدفع العربة التى تحمله إلى الأمام بحرص شديد، وكأنه ينقل قطعة من الزجاج مهددة بالتحطم فى أية لحظة. تحركت ماريانثى قليلاً تجاهه، ولكن الطبيب، الذى كان يتابعها أثناء ذلك، أوقفها وأوضح لها أن المريض فى تلك اللحظة يكون فاقد الاتصال بمن حوله، وإلى أن تفهمت ماريانثى ذلك، كانت العربة قد اختفت فى طرقات المستشفى خلف أحد الأبواب. وكانت لهجة الطبيب قد تغيرت بشكل لافت للنظر فى أقل من الربع ساعة. انفرد بإلياس وأخذ يشرح له وهو يشير بيده إشارات لا حصر لها. لم تستطع إيفيت أو ماريانثى أن تفهما ما الذى يقوله بالتحديد، لكنهما كانتا تلحظان أن السماعات الطبية تصعد وتهبط وهى على صدره من كثرة إشاراته، وشعرتا أن كل إشارة كانت بمثابة تشخيص علمى لحالة أرابيذيس الصحية.

تذكرت إيفيت مشهد عربة الحنطور فى الشارع الكبير فى بيرا بإسطنبول، عندما أنقذ بانايوتيس حياتها، كانت تريد أن ترد له الجميل وتفعل شيئًا مماثلاً، لكنها لم يكن بمقدورها أن تفعل شيئًا. أسرع إلياس بثقه وأناة لتهدئتهما قائلاً: «أتريان، كل ما فى الأمر هو العلاج السليم؟ مكالمة واحدة من البطريرك، وبعدها تم نقل بانايوتيس إلى غرفة الإنعاش ؛ كما وصل طبيب متخصص لفحص حالته. كل شيء تحت السيطرة. إذا ما أردتما معرفة رأيى، فبعد أسبوع على الأكثر سنجلس جميعًا لنحتسى الشراب فى النادى».

لم يشكل هذا التنبؤ أى نوع من التفاؤل فى حالة المريض– ومن جهة أخرى – فلم يكن إلياس متفائلاً بطبعه – لكن يبدو أنه كان واثقًا من تدخل بطريرك الكنيسة

اليونانية الأرثوذكسية وكأنه سيجلب نتائج سحرية. وكأنه أصبح بمثل هذه الطريقة على اتصال بالذات الإلهية، تمكنه من التأثير على مشيئته. ربما لم يكن إلياس على دراية كافية بمدى خطورة حالة أرابيذيس، ربما لم تكن كلمة "سكتة دماغية" (قالها بالفرنسية) كافية لإصدار حكم نهائي على أرابيذيس. تذكرت إيفيت فجأة صورة باناپوتيس منذ ثمانية أعوام مضت فى أزقة إسطنبول وهو يضع المنديل الأبيض على أنفه الذى أصابه الاحمرار فجأة فى ثوانٍ معدودات، وقد أيقنت حينها أنه ليس بالأمر الطبيعى.

قضى باناپوتيس أكثر من ثلاثة أشهر فى المستشفى ثم عاد مرة أخرى إلى منزله على كرسى متحرك، وكان يجد صعوبة بالغة فى الكلام وفى البلع، وكانت تصريحات الأطباء واضحة: فلم تكن حالته الصحية جيدة. أما بقاؤه على قيد الحياة وتقليل درجة عجزه فهو أفضل ما يمكن تحقيقه من نتائج علاجية ؛ إلا أن حدوث سكتة دماغية ثانية – الأمر الذى لم يتوقعه أحد – لم تؤد إلى وفاته.

تردد أعظم أطباء المدينة على شقة باناپوتيس الواقعة فى شارع ميسّالا، فقد يستطيع أحدهم أن يفتح طاقة أمل للمريض. وكانت ماريانثى المسكينة تردد فى كل مرة: «لكنه مازال شابًا صغيرًا! أمِن المعقول أن يحدث له هذا!» عندها كانوا يرفعون أكتافهم وينصحونها بالصبر. إلا أنه كان من الواضح أنهم قد تخلوا عن حبيبها باناپوتيس، وهكذا أصبحت لا ترغب فى سماع أى شىء عن الأطباء أو المستشفيات. أغلقت الباب على نفسها وتفرغت لخدمة زوجها القعيد، وتقبلت بامتنان تلك المساعدات المالية من إلياس ومن أصدقائها الآخرين منذ بداية المشكلات المالية التى عانى منها باناپوتيس بعد الحرب. لم يكن باستطاعة الأصدقاء الذين وقفوا بجانبه أن يساندوه للأبد، وبالطبع لم تكن ماريانثى لتقبل مساعدتهم إلى ما لا نهاية. قامت الشركة الفرنسية بقطع الكهرباء عن منزلهم، ولم يكن الأمر مأساويًا بدرجة كبيرة، حيث استطاعا أن يتأقلما مع ضوء لمبة الجاز. ولكن عندما أوقف البقال إمدادهما بما اعتادا أن يشترياه على الحساب، وبات شراء أدوية باناپوتيس أمرًا عسيرًا، عندئذ استشعرت

ماريانثى بالخطر، وأصبح لزامًا عليها أن تجد حلاً لتلك المشكلة. كان إلياس يدفع بالمرأة التعسة تجاة حل واحد، ذلك الحل الذى لم تكن إيفيت نفسها تتخيله أبدًا.

ففى مقهى "جراند تريانون" حيث كانتا تجلسان كالمعتاد فى مكانهما المفضل أمام البحر، بعد أن أزاحت ماريانثى الستارة من خلف النافذة الزجاجية حتى لا يغيب عنها منظر البحر المتوسط، وقد بدا واضحًا أنها ترغب فى العودة سريعًا إلى بانايوتيس، لكنها تظاهرت وكأنها تتطلع إلى تلك الأمواج الضخمة التى تتحطم على "الكورنيش" الجديد (ذكر ذلك باللغة العربية ودونها بحروف يونانية). قالت ماريانثى:

«أنتِ وحدك تستطيعين مساعدتى الآن»، ثم قالت (بالفرنسية) وهى تبعد يد إيفيت عنها بعد أن أخرجت بعض النقود من حقيبتها «لا، لا أريد نقودًا»

إيفيت: «ولم لا!»

ماريانثى: «الغرض من الدعوة لتناول الشاى، يا عزيزتى إيفيت، هو طلب عمل» هكذا أجابت ماريانثى، فى حين استمرت فى النظر للخارج.

- «عمل؟» هكذا سألتها إيفيت مندهشة.

- «نعم. عمل أستطيع من خلاله العمل لساعات قليلة وكسب أموالٍ كثيرة. هكذا أستطيع أن أعتنى ببانايوتيس، وأن أكون بجانبه لأطول وقت ممكن»

- «لكن ما طبيعة هذا العمل الذى أستطيع أن أوفره لك، ويمكن أن تجنى من ورائه أموالاً كثيرة؟».

- «أنت أدرى بذلك ..» هكذا أجابتها وهى تنظر إليها بعينيها المبتسمتين اللتين جعلهما الألم تلمعان بشكل غريب فى ضوء النهار.

شعرت إيفيت برجفة مفاجئة وأحست بالحمرة تصبغ وجهها.

- «إيفيت، أنا أعرف» هكذا همست لها ماريانثى وابتسمت ابتسامة متعالية بطريقة لم تعجب مديرة بيت البغاء بشارع مصطفى باشا، ثم استطردت قائلة:

«أعلم منذ أعوام عن ذلك المشروع الذى أقمتيه أنت وإلياس. ربما لم نتحدث من قبل فى هذا الموضوع، ولكننى على علم به».

- «أنا لا أفهمك» هكذا أجابتها إيفيت بطريقة تبين مدى الإهانة التى شعرت بها. فمنذ وقت بعيد كانت قد بدأت تلوم صديقتها على عجرفتها.

ما الذى تعرفه إذن؟ ألم تكن ماريانثى تنظر إلى حياتها الطاهرة نظرة جادة؟ لكن لا ينبغى عليها أن تنسى أنها أصبحت زانية من أجل حبها، وأنها قد غيرت ملتها وتخلت عن عائلتها، بل وتخلت عن عقيدتها وعن وطنها ؛ وربما يعاقبها الله الآن بتلك الطريقة على ما اقترفته. من ناحية أخرى، كانت ماريانثى بالنسبة لإيفيت تمثل آخر قلعة أخلاقية ثابتة فى مدينة كانت تتغذى على مثل تلك المشاعر، وطوال تلك السنوات التى أدارت فيها هذا العمل، رأت بعينيها هؤلاء الذين كانوا يعبرون بوابة منزل مصطفى باشا من علية القوم ووجهاء المجتمع بالإسكندرية، ولكن لم يكن من بينهم من يرتبط برباط الحب والإخلاص مثل بانايوتيس وماريانثى، ويبدو أن الفساد والدنس اللذين استشر فى المدينة قد أدا إلى تلف كل شىء ، فأى معنى يبقى للحياة بعد ذلك؟

- «هيا الآن، "هذا ليس بالوقت المناسب"(قالت ذلك بالفرنسية) لكى تختبئى منى، فى اللحظة التى أطلب فيها العمل بالقرب منك. أم أننى لست على قدر من الجمال يليق بزبائنك؟» .

- «ليس الأمر كذلك». فآخر إنسان يمكن أن أراه على فراش الحب المحرم هو أنت، يا ماريانثى».

- «ما الأمر إذن ؟».

- «ماريانثى، فلنكشف إذن أوراقنا طالما أن هذا ما ترغبين فيه. هذا العمل لا يناسبك». حتى تلك اللحظة، كانت إيفيت تشعر بداخلها بنوع من التحدى بسبب تلك الثقة التى تتحدث بها ماريانثى عن هذا العشق المحرم، وفى الوقت نفسه كانت لديها الرغبة أن تخفف ولو لمرة واحدة من حدة استهزائها بها.

- «لما لا؟ (قالتها بالفرنسية) ألستُ امرأة أنا أيضاً؟».

- «بالطبع، "ولكن هناك أموراً أخرى"(قالت ذلك بالفرنسية)، فالنساء اللاتى يمارسن هذا العمل ينتمين إلى.... "كيف أقولها!" (قالت ذلك بالفرنسية). ينتمين إلى طبقة خاصة». هذا ما كانت إيفيت تعتقده حتى تلك اللحظة على الأقل.

- «هكذا تظنين؟ حسناً إذن، أود أن تعلمى أن كل امرأة تخفى بداخلها "امرأة لعوب" (قالتها بالفرنسية)».

- «"يا له من كلام مبتذل "(قالت ذلك بالفرنسية) لا أريد أن أسمع منك شيئاً كهذا. ولا تحاولى أن تخيِّبى ظنى فيك. أعلم أنك لا تؤمنين بذلك، ولكن المحنة التى تمرين بها هى التى تدفعك للحديث بهذه الطريقة» هكذا أجابتها إيفيت وهى تشعر برضا خفى لأنها ترى ماريانثى وهى تسقط أخيراً من نظرها.

- «ولكنك مخطئة، "يا عزيزتى" (قالتها بالفرنسية)» هكذا أجابتها مدام أرابيذيس وهى تضع مروحتها أمام وجهها الجميل المعذب دائماً، دون أن تشك فى تلك المشاعر المتضاربة التى أحدثتها داخل صديقتها.

داخل نفس إيفيت، التى انقسمت ما بين إصرارها على حماية ماريانثى وبين رغبتها الشديدة فى إهانتها حتى تشعر أنهما متساويتان، كانت إيفيت تميل حتى هذه اللحظة إلى الرغبة الأولى. وحاولت، فى واقع الأمر، رفض فكرة أن تشارك فى هذه "الجريمة". لكنها، تحت ضغط وإصرار ماريانثى، أذعنت لرغبتها وبدأت تعد الإطار الذى ستصنع بداخله حلاً لهذا المأزق الأخلاقى، لذلك لم تستطع إلا أن تضع شروطاً لهذه اللعبة تحاول من خلالها حماية شرف وسمعة صديقتها، ومن ناحية أخرى ستجعل احتقارها لها أكثر قسوة. كان الاحتقار بالنسبة لإيفيت دافعاً لكى تخلق أغرب المخلوقات فى العالم الأسطورى للحب بالإسكندرية. فقد أجبرت ماريانثى بعد كل تلك السنين أن تعود من جديد إلى نيهير التركية، وتقبلت ماريانثى ذلك الأمر، تقبلت أن تتحول إلى امرأة شريرة ترتدى قناعاً فى عملها بشكل دائم، امرأة ترضى بفضل

شراستها كل المشاعر السادية لعشاقها. كانت مديرة البيت تعرف جيداً كيف تطلب من صديقتها توظيف موهبتها فى منزل شارع مصطفى باشا؛ أما ماريانثى فكانت على وشك الهروب من أول يوم لها فى ممارسة الحب المحرم. كان عليها أن تحول خوفها إلى لعبة حتى تستمر فى هذا المكان، وكلما كان ذلك ضد رغبة الإنسان، كلما زادت المتعة داخل عقلها الساذج.

ولأنها كانت على ثقة من أن القناع لن يحمى عفتها إلى الأبد، فقد وضعت لنفسها بروتوكولاً صارمًا بشروط لا يمكن الإخلال بها: حيث ينبغى أن يحل الظلام أولاً، ويمر العامل الحكومى المصرى لكى يشعل بعصاه لمبات الجاز فى شوارع المدينة، حتى تتمكن من الدخول إلى المنزل من الباب الخلفى. لم يستطع أى من العاملين فى المنزل رؤية وجهها على الإطلاق، وعندما تنتهى من عملها، تقوم عربة حنطور تقف دائمًا فى انتظارها خلف الفيلا بإعادتها إلى المنزل فى سرية تامة.

كان زبائنها الذين مروا من تحت يديها ينتمون إلى علية القوم ووجهاء المجتمع السكندرى، ضحايا ومضحِّين من أجل ممارسة الرذيلة حتى عرفت باسم " بائعة الهوى ذات القناع " (كررها بالفرنسية). فى البداية كانت الأمور تسير سيراً حسنًا، تمامًا مثلما كانت إيفيت تتصور. كانت ماريانثى تستمتع بتلك " اللعبة " التى منحتها إياها صديقتها، وكثيراً ما كانت تعلق على قيامها بجلد الجنود الإنجليز بسخريتها المعهوده، وكأنها هى نفسها ليست طرفًا فى ذلك، أو كأنها مجرد مراقب يتابع ما يحدث من شذوذ بغيض من زاوية بعيدة. ولكن بمجرد مغادرتها المنزل، تسرع بخلع قناع نيهير البغيض وتعود مرة أخرى ماريانثى ذات العواطف الجياشة، الرقيقة، الصبور تجاه زوجها القعيد. كانت قناعتها مطلقة فى أن ما تقوم به لا يتعدى اللعبة، وكانت تعجز فى كثير من الأحيان أن تضع حدوداً لنفسها وللقسوة التى كانت تعامل بها هؤلاء الناس. أما إيفيت فقد اقتصر دورها فى هذه اللعبة على إيجاد الحلول لبعض المواقف الصعبة التى تواجهها. مثلما حدث مع لولو، تاجر الأنتيكات المعروف، الذى استمرت "ذات القناع" فى جلده بالسوط حتى فقد وعيه، وكان بحاجة ماسة لتدخل الطبيب من أجل إفاقته.

- «ما الذى حدث لكِ؟» هكذا سألتها مديرة البيت وقد شعرت بالخوف من وحش الجنس الذى خلقته بنفسها.

- «"ليس ذلك بالأمر الخطير" (قالت ذلك بالفرنسية)، بعض اللسعات الخفيفة على مؤخرته حتى يصبح ولداً مطيعاً، كان بحاجة إليها، ألا تعتقدين ذلك؟» هكذا أجابتها ماريانثى ثم انتابتها نوبة من الضحك.

لم تكن تلك اللعبة لتستمر إلى الأبد، لكنإيفيت كانت عازمة على استغلال هذه البراءة الشاردة لصديقتها لأقصى حد، حتى إنها لم تسمح لها بالانسحاب بعد أن بدأت تهاجمها آلام الصداع الشديدة . وبدأت تشكو بشكل مستمر مع مرور الوقت، قائلة:

- «رأسى، يا إيفيت، رأسى تؤلمنى بشدة، أزيز رهيب فى رأسى، وكأن هناك آلاف المطارق تدق رأسى، من المحال أن أجد الهدوء، أو أن يداعب النوم جفونى».

- «لا شىء هنالك، يا عزيزتى، سأبلغ "الطبيب" (قالت ذلك بالفرنسية) لكى يكتب لك علاجاً يذهب عنك الألم سريعاً، سوف ترين». هكذا كانت تجيبها دائماً فى محاولة منها لكسب المزيد من الوقت.

وكان إلياس قد ألقى بتبعتها فى السنوات الأخيرة على مستر برايس، ذلك طبيب بريطانى، الذى لم تكن إيفيت تعرف عنه شيئًا إلا أنه كان يخدم فى الفريق الطبى للجيش الإنجليزى فى الشرق الأوسط فى سنوات الحرب، وقد تم استبعاده لأسباب مجهولة. كانت مهمة هذا الطبيب طويل القامة، ذى الجسد الضخم والشعر الأصفر الذهبى والنظرة الحازمة، هى الاعتناء بصحة كل العاملين بالمنزل والزبائن فى نفس الوقت، فكان يقوم بفحص الفتيات والتأكد من أنهن يتمتعن بصحة جيدة، كما كان يتم استدعاؤه لحل المشكلات الطارئة. كان صديقًا لبيتروس ثيميستوكليس، كما كان من مؤيدى العلاج بالمورفين، ولذلك فلم يكن يتردد فى وصفه لبعض الرجال وأيضاً النساء لمساعدتهم فى ممارسة الرذيلة.

أما بالنسبة لحالة ماريانثى فقد كان قوله قاطعًا:

«إنها تعانى من صداع نصفى!» (قال ذلك بالفرنسية) وبسبب عدم فاعلية الدواء المشهور (Pirsol Gattaneo) الذى كان قد وصفه لها، فقد ألقى بها دون تردد فى بحار المورفين العميقة. وعندما قررت إيفيت أن تساعدها على الإقلاع عنه، كان الوقت قد تأخر: فكل ما كانت تحتاجه ماريانثى هو مجرد ركن هادئ لتحقن نفسها بالمورفين، وبعد ذلك تعود إليها رغبتها بشكل مؤقت.

حتى إلياس فعلى الرغم من لا مبالاته التى كان يتميز به، فإنه أصيب بصدمة من الحالة التى وصلت إليها مدام أرابيذيس، حتى إنه كان دائمًا ما يقوم بتوجيه اللوم لإيفيت بقوله :

«أفخورة أنت بذلك الكائن الذى خلقتيه؟».

عندئذ كانت إيفيت تلوم مستر برايس، ذلك النصاب الوقح الذى جنى ثروة طائلة من الاتجار فى المخدرات وكانت تدور حوله الشكوك فى أنه كان يستغل إدمان ماريانثى جنسياً.

لقد بدت على جسدها الغض أعراض الانهيار فى فترة زمنية وجيزة، وربما كان موت أرابيذيس فى بداية عام ١٩٢٤، رحمة به، حتى لا تدرك الحال الذى آلت إليها زوجته التى حاولت جاهدة حتى النهاية أن تبدو أمامه فى صورة ماريانثى الجميلة الطاهرة. وربما كانت تلك الابتسامة الباهتة المرسومة على وجهة الميت تعبيراً عن حب عظيم، حب فريد من نوعه انتقل مع بانايوتيس إلى عالم الخلود.

* * * * *

فى البدايات الأولى للعشرينيات كان أندونيس خاراميس يرى أن التغيير قد أصاب، وما زال يصيب، حياة الآخرين. فى الوقت الذى أثرت فيه التغييرات عليه هو نفسه بطريقة أو بأخرى، حتى إنه بدأ يعتقد أن المقربين منه يتآمرون عليه لتدميره.

وفى اللحظات التاريخية العالمية التى كان ينبغى على كل أفراد المجتمع السكندرى، أن ينشغلوا فيها بالأحداث التى تهم المجتمع العالمى، وهو أمر طبيعى، كان اهتمام أندونيس منصبًا على ولديه. فبعد فضيحة شارع القائد جوهر والعلاقة غير المشروعة بين كوستيس والمرأة القبطية التى تفجرت مع نهاية الحرب العالمية الأولى؛ جاءت أحداث محطة ترام باكوس لتكون بمثابة الصفعة الكبيرة والأخيرة فى حياة ذلك الأب المسكين، والتى دارت أحداثها قبل كارثة آسيا الصغرى بشهور قليلة، هناك حيث تم اكتشاف علاقة شاذة بين أربعة صبية من أبناء أرقى العائلات اليونانية فى المدينة. وكان على رأسهم ابنه ماخوس. كانت المراكب الأولى قد بدأت فى الوصول حاملة اللاجئين من زميرنى باليونان، ولم تكن أصداء تلك الفضيحة قد أوشكت على الانتهاء. لم يكن أهل المدينة، بذاكرتهم القوية ورغبتهم فى انتقاد الآخرين، ليتركوا بسهولة مثل هذا الحدث بتفاصيله الشيقة؛ أما أندونيس الذى توقع ذلك فقد سارع بإرسال الابن الأصغر إلى ألمانيا وبالتحديد إلى ميونيخ.

فى تلك الأثناء، تبنى أندونيس وجهة نظر أخرى، فبدلاً من اهتمام أبناء الجالية اليونانية بشذوذ أربعة صبية مدللين، كان من الأفضل لهم أن يصبوا كل اهتمامهم فى التفكير بمستقبلهم فى أرض أجنبية، وما يحدث بها من تغيرات مقلقة: بداية من أحداث عام ١٩٢١ الدموية، التى تبعتها شهور سوداء بعد نفى عرابى. كان إلياس، الذى مازال يحتفظ بانطباعات مؤثرة عن المدينة، يخبره منذ زمن بأن «أئمة المسجد الكبير فى أبو العباس يملأون عقول الناس بكلام فارغ، " الأمر الذى سيؤدى بنا إلى التهلكة " (قالها بالفرنسية)». وذات مساء يوم خميس، فى التاسع عشر من شهر مايو، اندلعت "مظاهرات" (ذكرها بالعربية ودتنها بحروف يونانية) عارمة، تبعتها أعمال تخريبية فى المحلات بميدان محمد على. وفى غضون الثلاثة أيام التالية استمرت الأمور على نفس المنوال، حتى فرض الجيش الإنجليزى الحصار على المدينة وفرض عليها حظر التجوال. ترك العديد من اليونانيين منازلهم، كما تركوا أيضًا أموالهم ولجأوا إلى القنصلية وإلى مقر الجالية. امتلأ المستشفى اليونانى بالعديد من اليونانيين ما بين قتيل وجريح.

وعندما عادت الأمور فى المدينة إلى طبيعتها، نسى الجميع ما حدث، حتى وقعت فيما بعد كارثة زميرنى لتذكر كل المتحذلقين أن الأرض التى تستضيفهم لن تكون فى خدمتهم إلى الأبد.

وفى تلك الأثناء، لم يكن اليونانيون بالأسكندرية يفعلون أى شىء آخر سوى النميمة أو التشاجر فيما بينهم حول السياسة. ويبدو أن الشقاق الوطنى لم يكن لينتهى أبداً. ففى عام ١٩٢٢، وقعت مشاحنات بين مؤيدى الملكية ومؤيدى فينيزيليوس، بسبب ما قام به البعض من تمزيق صورة زيتية لفينيزيلوس. أما فيما يخص النميمة، فقد استشعر أندونيس أن كل حدث تاريخى عالمى، يهز بعنف سمعة عائلته. حتى عند اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون كان للمقربين منه دور أساسي يلعبونه. فقد ارتبطت فضيحة نهب الآثار التى اكتشفت فى شهر فبراير من عام ١٩٢٣، وسميت حينئذ "توت عنخ آمون" على الرغم من عدم وجود أية صلة بينها وبين مقبرة الملك المصرى، إرتبطت بشكل أساسى بشخصين معروفين، هما صمويل عظيمان الشهير ولوكاس سينجوس (شقيق زوجته). وتحدثت الصحف العربية عن نهب العديد من الآثار المصرية وعن المومياوات التى أوقظت بعنف من سباتها وعن التماثيل والأثاث الجنائزى بالمقابر. كان جامع التحف اليهودى قد أمَّن لنفسه حصانة بسبب شهرته الواسعة، أما صهر أندونيس فقد تعرض لخطر السجن، واتخذ الموضوع أبعاداً خطيرة: فيبدو أن الصهر العزيز، الذى يجرى فى عروقه مبدأ "انقذ نفسك أولاً"، لم يتردد فى أن يلقى بالمسئولية على أخته، ولكن بفضل تدخل إلياس استطاعت ذافنى أن تنجو بنفسها من مصير سيئ. وبدأ أندونيس يفكر بجدية فى احتمال الطلاق. لم يكن ضيقه وانزعاجه منها بسبب الزج باسمها فى تلك الفضيحة، كما أوضح للبنانى، ولكن لشعوره بأنها قد خدعته: «إنك تفهم ما أعنيه، فقد كنت أعتقد أن زوجتى شىء ثابت لا يهتز، كالموبيليا فى المنزل، وكنت على يقين دائماً من أننى سأجدها فى كل مرة أعود فيها إلى المنزل فى المكان الذى تركتها فيه». الشىء الوحيد الذى صدق فيه توقعه طوال تلك السنوات، كما كان يقول، هو حدسه المالى، ليس فقط لأنه أصاب فى قراراته التى اتخذها قبل الحرب،

لكن أيضًا لأنه خرج منتصراً من هذه الحرب العظمى – مثلما توقع خورى فى القاهرة اليوم الذى ستعلن فيه الحرب – والآن لديه حدس قوى بسيناريو متفائل لما بعد الحرب، وهى الفترة التى أطلق عليها إلياس فترة ما بين الحربين . كان الجناح الجديد للمصنع فى محرم بك قد اكتمل، وكذلك ماكينات التصنيع. لكن كل ذلك كان له ثمنه، حيث بدأت موجة من الإضرابات فى المصنع فى عامى ١٩١٩ و ١٩٢٠، بشكل مباشر بعد فصل الكثير من العمال بسبب البدء فى استخدام الماكينة الجديدة فى التصنيع. وكانت ما تسمى " بنقابة عمال مصانع السجائر العالمية " تشجع على القيام بإضرابات فى العديد من مصانع السجائر فى مصر، وبالطبع لم يكن خاراميس بعيداً عن ذلك. ودائمًا ما تعقب تلك الإضرابات اشتباكات مع الشرطة. ومن اللافت للنظر أن المصريين كانوا يأتون بأسرهم معهم إلى ساحة الإضراب. وبعد فترة من الإضرابات التى استمرت لمدة ستة أشهر، شعر أندونيس بأنه قد تم استدراجه، بما تعنى هذه الكلمة، ومعه عدد من رجال صناعة الدخان الآخرين، لتوقيع عقد نقابى ـ هل يعقل هذا! ـ حيث تم الاتفاق ولأول مرة، على أن التعويض الذى سيحصل عليه العامل المفصول يعادل الأجر الذى يقبضه فى شهر كامل ؛ لكن حتى هذا كان سيتم تطبيقه يومًا ما. وفى القاعات المشمسة فى الدور الأرضى بقسم التغليف، يعمل ما يزيد على ألف ومائتى عامل، أغلبهم من أهل البلد، كانوا يعملون بجد ونشاط حول الموائد الطويلة وهم يرتدون العمامات البيضاء فوق رؤوسهم، التى تشبه صفوف البيْض المتراصة التى لا تنتهى. من يستطيع أن يرى مثل هذا المشهد ولا يعتقد أن لديه القدرة على امتلاك العالم بأسره؟

فى صباح أحد أيام شهر مارس من عام ١٩٢٣ – بعد الاحتفال بالعيد الوطنى اليونانيين ـ طارت حمامة بيضاء ثم هبطت على إفريز نافذة مكتب أندونيس. كان صوت هديلها حزينًا ومتواصلاً، حتى إنه عكر صفو وتركيز رجل صناعة الدخان اليونانى، وكأنها لم تكن ترغب سوى فى جذب انتباهه، لأنها بمجرد أن اقترب من النافذة، حتى طارت بعيداً. تابع خاراميس الحمامة وهى تطير حتى اختفت على الجانب الآخر من ترعة المحمودية. ماذا لو كانت روحها؟ ماذا لو كانت روح سارة بيرنار؟ تلك التى قرأ

فى صحف اليوم التالى عن موتها فى باريس. مرت عشرون عامًا منذ أن قامت "النجمة"(ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) المشهورة بزيارة مصنعه، والدليل الوحيد المؤكد لتلك الزيارة هو؛ ذلك الإهداء المكتوب على ظهر صورتها التى يحتفظ بها فى أحد أدراج مكتبه. الآن تبحر ذكراها مع المراكب فى المحمودية. كل هذا المجد، كل هذه العظمة، كل تلك الموهبة أصبحت دخانًا. «لا شىء يبقى» هكذا حدثت أندونيس نفسه بينما كان يحاول جاهدًا أن يتماسك، فكر فى الاتصال بإيفيت تليفونيًا. استمر التليفون الضخم اللامع ذو السماعة الذهبية فى الرنين عدة مرات داخل منزل إيفيت، لكنها لم تكن هناك لتجيب، وشعر أندونيس فجأة بأنه وحيد، وحيد بلا رفيق معه سوى فكرة الموت.

* * * * *

عندما وصل كوستيس إلى برلين فى نهاية عام ١٩١٩، وجد نفسه فى قلب الدولة الألمانية التى مازالت تنزف من الحرب الأخيرة: كان قيصر غوليلموس الثانى، الإمبراطور الأخير، قد ترك الحكم منذ عام مضى، قتلت روزا لوكسيمبورج، ثم تلى ذلك ارتكاب العنف على يد كتائب (Freikorps) وتجربة الديمقراطية الجديدة التى بدأت فى يوليو فى مدينة فائيمارى، ولكن حتى فى عاصمة ألمانيا كان الدمار والفقر يسودان كل شىء. شعب ذليل يكافح كل يوم فى الشوارع ضد شبح الجوع والبطالة والمرض، مدافعًا عن جمهورية جبانة كانت تجرى لتختبئ بعيدًا عن برلين مع أى أزمة تواجهها. كان مصابو الحرب يواصلون مسيراتهم المهيبة فى الشوارع احتجاجًا ومطالبة بتعويضات، عدد كبير من الخطباء المتحمسين اعتلوا قمة التماثيل فى المدينة، جاذبين تجاهم الفضوليين، ثم يشرعون فى إلقاء خطب رنانة بنفس الطريقة التى يرفعون بها قبعاتهم ويلوحون بها للجماهير.

كان الشتاء الأول شديد القسوة على ذلك الشاب السكندرى فى تلك المدينة القاسية. كل من عاش ليالى برلين، بأمطارها العنيفة فى شوارعها الخالية وأضوائها

الخفاقة الواحدة بعد الأخرى، يشعر وكأنها العلامات الأولى لاستعادة الاقتصاد عافيته وسط هذا الظلام الاقتصادى، واختلطت الفنون التعبيرية بمذهب الدادية[١٠]، الذى أخذ فى الانتشار. وبالنسبة لكوستيس فقد كانت وجهة نظر والده بدراسة الهندسة وكأنها نوع من الحرمان من ميراث الإمبراطورية الاقتصادية التى أسسها أندونيس خاراميس فى مصر. عاش كوستيس شهوره الأولى فى المدينة مبتعداً عن التزاماته الجامعية، متذرعاً بالحالة الاقتصادية غير المستقرة التى سببتها الإضرابات اليومية، ولذلك فقد اكتفى بدراسة الهندسة فى الشوارع وفى غمار الحياة اليومية. وهكذا تعلم فن الروكوكو[١١] الذى ينتمى إلى كنوبيلسدورف، وكذلك فن الباروكية[١٢] ، الذى ينتمى إلى لانجهانز، كما أبدى إعجابه بوجه خاص بكلاسيكية شينكل الجديدة، الذى أثر فى صورة برلين أكثر من أى فنان آخر. كانت شمس الشمال الألمانى الباهتة تترك ظلالاً مخيفة على قبة الرايخشتاج وعلى بوابة فراند يمبورجو، ولكنها كانت تدخل بصعوبة إلى " المساكن" (ذكرها بالألمانية)، وإلى العمارات الضخمة والمنعزلة المشيدة فى ساحات متجاورة، وكانت الحاجة إلى إيجاد مأوى رخيص سبباً فى إنتشارها حول هذه الساحات، حيث كان يعيش أغلب أصدقائه، مثل: كارل ڤويتير، ابن لوكسيمبورج، وهو شاب ألمانى شيوعى، ضخم الجثة بشكل لا يصدقه عقل، وهو رمز للمتظاهرين الشيوعيين فى برلين؛ ويعقوب، ذلك الشاب اليهودى الفقير، الذى يجمع بين كونه شاعراً وفيلسوفاً، يعيش فى البدروم، ويقرأ للفيلسوف كانط من بعض الكتب المهترئة. عندما كان كوستيس يناديه تجده يهرع إلى الشباك ذى القضبان الحديدية، وهو شخص ضئيل الحجم، نحيف الوجه، يرتدى نظارة بعدسات مستديرة، لم يتعلم من كل ما قرأ سوى أن يقول: «أنا جوعان!». اعتاد كوستيس أن يذهب إليه حاملاً رغيفاً من

---

(١٠) "داديه: Dadaist": هو مذهب فى الفن مبنى على تأكيد حرية الشكل والتخلص من القيود التقليدية. (المترجم).

(١١)" روكوكو: Rococo": هو أسلوب فى التزيين وفنون العمارة ظهر فى القرن الثامن عشر، ويتميز بالمبالغة فى الزخرفة. (المترجم).

(١٢) "باروكيه: Baroque": أسلوب فنى فى التعبير يعود للقرن السابع عشر. (المترجم).

الخبز وقطعة من السجق ملفوفة فى ورقة جرائد قديمة، يضعها تحت إبطه. ثم يجلس القرفصاء أمام الشباك ويطعم يعقوب لقمة لقمة مثل الطائر الصغير، ثم يسأله وهو يمسح على شعره برقة قائلاً:

«هل شبعت؟ صدقنى لقد رأيت يهوداً كثيرين فى حياتى، ولم أصادف من هو أفقر منك» عندئذ كان يعقوب يبتسم ثم يختفى فى جحره ثانية.

وهناك أيضًا ماكس نايسيماغر، الرسام، مدمن الخمر؛ وهو حالة خاصة، لكنه، شأنه شأن الكثيرين فى ذلك الوقت، كان يكفيه «أن لا يكون فنانًا، ولكن أن يعيش كفنان». كان كوستيس يذهب إليه فيجده بين أنقاض أحد المصانع، أو بين أوعية قديمة أو قطع من القماش القذرة. وبدلاً من الخبز واللحم، كان يحمل إليه زجاجة كونياك تحت إبطه. اعتاد كوستيس أن يسأله: «كيف تعيش فى هذا المكان؟» فيجيبه ماكس: «إن ما يخيفنى ليس أننى كيف أعيش هنا، ولكن كيف سأستمر فى الحياة، عندما لن يسمحوا لى أن أعيش فى هذا المكان». أما كوستيس فبالدعم المالى غير المحدد من والده (حيث لم يكن أندونيس يبخل على إبنه أبداً بالنقود، فقط كان يكفيه أن يبقيه بعيداً عن الإسكندرية، لأن وجوده فيها سوف يؤثر بالطبع على سمعته وأعماله) كان يستطيع ببساطة أن يقيم بشكل دائم فى فندق " قيصر" الذى يقع فى شارع فريدريخ، لكنه على العكس من ذلك، على الأقل فى البداية، كان يفضل أن يقتسم كل شىء مع أصدقائه، حتى فتياته: مارلين وأولريكى وروسا. فتيات قاماتهن طويلة، كالتماثيل الضخمة، كان من الممكن لمثلهن أن يعشن فى الإسكندرية حياة رغدة، ولكنهن دائمًا قانعات بحياتهن القاسية فى برلين، يتبادلن بكل سعادة فيما بينهن الملابس والشعر المستعار والمرايا الصغيرة والسجائر وبودرة التجميل، محافظات على بياض أجسادهن من أجل إمتاع اليونانى وأصدقائه نوى الطبع الغريب.

من خلال هذه النماذج البشرية، استطاع كوستيس أن يجتاز محنة حنينه للعيش فى مصر. وربما كانت الحانات هى الشىء الوحيد الذى يذكره بالإسكندرية، فديكوراتها والجو الخاص بها كانا يحلقان به مباشرة إلى الإسكندرية وإلى شارع

البورصة القديمة. أما بالنسبة لبقية الأمور، فقد تعود سريعًا على التلفظ " بالكلمات السيئة " بكل اللغات. لكن الكلمات الإنجليزية والفرنسية التى اعتاد أن ينمق بها كلماته كانت تثير ضيق من يتحدث إليه. ولذلك عندما كان كارل يرغب فى مضايقته، يضع له مصطلحًا فرنسيًا بين كلماته، وكانت لهجته الألمانية تساعده فى ذلك دون أن يلحظه أحد. كان كوستيس يفضل أن ينسى ذلك المجتمع متعدد الأجناس الذى ولد وترعرع فيه، ولكنه لم يتمكن من ذلك إلا بعد مرور وقت طويل، إن كان قد تمكن من ذلك بالفعل، كما احتاج لوقت طويل حتى يترجم فى ذهنه أولاً تلك العبارات البسيطة التى كان يسمعها ويقرأها فى الشوارع وعلى المبانى وفى محطات المترو وفى الميادين. كلمات مثل (Strasse ،Ausgang Buchhandlung)، فكان يحولها فى البداية فى ذهنه إلى الفرنسية ومنها إلى اليونانية حتى يستطيع فهمها وهى تعنى على التوالى: "مكان الخروج"، "مكتبة لبيع الكتب"، "طريق".

حتى هذه اللحظة لم يكن هناك ما يبشر بـ "العقد الذهبى" بداية من عام ١٩٢٠، وكانت برلين تعانى أشد المعاناة لكى تخرج من ظلمة التخلف الذى كان يصفه كوستيس فى خطاباته. كانت المدينة تعاقب نفسها، تمامًا مثلما كان كوستيس يفعل بنفسه عندما كان يرفض أن يعترف بمدى اشتياقه لسماء الإسكندرية وبحرها الشاسع. وخلال أربع سنوات من الغربة كان كل جزء يشعر بالحنين لمدينة الإسكندرية يموت بداخله رويدًا رويدًا، وهو يتنقل من دراسة علم إلى آخر، وهو ما كان يمنحه شعورًا خاطئًا بأنه يكتسب بذلك مقامًا أعلى فى المعرفة الإنسانية. فجاء تعلمه لتاريخ الفن بعد انتهائه من الهندسة بشهور قليلة، ومن الفلسفة إلى الأدب اليونانى القديم، ثم العودة مرة أخرى لدراسة الهندسة بنهم، عندما يكتشف أنه قد أكمل دورة دراسية كاملة فى هذه العلوم، تمامًا كالذى يعود إلى حبيبته بعد أن يتذوق أحضان نساء أخريات. ورغم ذلك كان الشىء الوحيد الذى استطاع تحقيقه بعد كل تلك السنين التى قضاها فى أوربا هو: اكتساب الخبرة من خلال الصقل والتهذيب غير التقليديين. أما مؤهله المهنى فقد بات كحلقات الدخان الناتجة عن ضوضاء المفكرين ببرلين.

جاء صوت أخيه ماخوس من ميونيخ ليقطع هدوء تلك السنين الطوال وعندئذ، تذكر كوستيس أنه يعيش فى جنوب ألمانيا، وحاول، لأول مرة، أن يحسب براحة يده على الخريطة المسافة التى كانت تفصله عن أخيه. وبلا شك، فقد عزم على الذهاب إليه فى يوم من الأيام، أما فى الوقت الحاضر فكان يكتفى بقراءة خطاباته الحماسية، حتى لو لم يكن يستطيع دائمًا أن يشاركه تفاؤله فى كل ما كان يحدث فى ألمانيا فى تلك الفترة. فى هذا الجرح الذى أصاب هذه الأمة وأخذ يتقيح، ويفرز جروحًا صغيرة، ظهرت فصائل متناحرة وأيديولوجيات وجدت أرضًا خصبة لتنبت فى نفوس الألمان التعسة.

فى بداية عام ١٩٢٢، كانت المرة الأولى التى يفكر فيها كوستيس جديًا فى ترك برلين الباردة والانتقال لأجواء أكثر سخونة، وعندئذ عارضه كارل قائلاً:

«أجننت، لقد مررنا بالصعب والآن تريد الرحيل بعد أن تحسنت الأمور، لا: Nein!»

وعلى الرغم من أن كوستيس لم يلحظ أن هناك أمورًا قد تحسنت، فإنه بقى فقط من أجل أصدقائه، ولحسن الحظ، فقد كان والده يصر من البداية على أن يمده " بالعملة الصعبة "، وإلا كان سيضطر هو أيضًا، مثل الكثيرين، إلى جر إحدى العربات الصغيرة المحملة بالكثير من العملات الورقية التى أصبحت بلا قيمة، ثم يعدو محاولاً الحصول بها على طعام للعشاء قبل أن يصل إليه التضخم الاقتصادى. ثم بدأ السقوط المدوى للمارك الألمانى، وطرق شبح التضخم أبواب المدينة، مسببًا حالات مأساوية مخيفة. كان الرجال والنساء يتسلقون فى يأس المبانى والتماثيل العامة، لسرقة كل ما يستطيعون الحصول عليه ويمكن بيعه؛ بينما يتوجه آخرون نحو الأبواب والنوافذ المغلقة لكى ينتزعوا منها المقابض والمزاليج، أما فى الشوارع فكان الأطفال يبنون لهم منازل صغيرة برزم العملات الورقية التى لا قيمة لها. رجال يائسون بلا مأوى، مجبرون على استئجار أسرة فى أماكن قذرة لأخذ قسط من الراحة ساعات قليلة، فى الوقت الذى كانت ألفا ماكينة طباعة تواصل العمل ورديتين أو ثلاثًا لطباعة المزيد من العملات الورقية، حتى وصل الأمر فى شهر أغسطس من عام ١٩٢٣ إلى حد طباعة عملة ورقية

من فئة المليار مارك. داخل هذا البؤس الذى يتنافى مع كل منطق، كان كوستيس يحيا حياة الأمراء. الغرف فى الفنادق الفخمة، الشراب غالى الثمن، أفضل كباريهات أوربا، إلى جانب العديد من النساء اللاتى يأتمرن بأمره بشكل لم يحدث من قبل، فقط لأنه تصادف وكان يحمل فى جيوبه مئات من الجنيهات الإسترلينية. ولم ينس كوستيس أصدقائه: فقام بإسكان فتياته فى جناح بفندق " قيصر"، وتعاقد مع أحد أفضل المطاعم ببرلين لكى يهتم بإرسال الطعام إلى يعقوب وإلى ماكس بشكل يومى، واستأجر عربة حنطور وخصصها لنقل أطباق الطعام داخل صحون فضية أولاً إلى بدروم اليهودى المفكر ثم بعد ذلك إلى الأنقاض التى يعيش بينها الرسام. فى تلك الجحور القذرة كان يوجد بصفة دائمة نادل مخصص لتلبية رغبات كلا السيدين، كما كانت تفتح أغلى زجاجات النبيذ، ومعها يقدم أطيب الطعام.

كل ذلك كان، بالطبع، يجعل كوستيس يشعر بالإطراء، لكنه كان يتساءل دائمًا إذا ما كان من حقه الشعور بالسعادة وسط كل هذا البؤس، وكان يسأل كارل، قائلاً:

«إذن بكلمة " الأفضل " ماذا كنت تقصد؟».

أما الألمانى ضخم الجثة، الذى كان يشعر بالذهول من ذلك التحول الجذرى فى الأمور، فكان يتنبأ دائمًا بنهاية سريعة للرأسمالية، لكن فى الوقت الذى كان حريصًا على الاستفادة من عطايا صديقه السكندرى وعلى التخفيف من إحساسه بالذنب. وفجأة تغيرت الأحوال وأصبحت الحياة رائعة. امتلأت الكباريهات بالفتيات العاريات، وسالت الشمبانيا فى الكئوس وامتلأت الأطباق بأطيب الطعام، بمئة دولار كان يمكن لأى شخص أن يستأجر أوركسترا برلين الموسيقية لليلة كاملة، وبمبلغ أقل كان من الممكن أن تجعل أجساد الفتيات والفتيان فى المدرسة تتلاحم فى مشهد ليس له مثيل، دون أدنى حياء، إنها ثورة جديدة، إنها " ثورة الرفاهية ". ولكن يبدو أنها كانت مجرد مرحلة انتقالية تجاه الشيوعية.

وفى خضم هذه الرفاهية المصطنعة، نسى كوستيس أخاه مرة أخرى (فمنذ وقت ليس بقليل كان قد توقف عن الرد على خطاباته)، إلا أنه تذكره فى نهاية عام ١٩٢٣:

فعندما فر ماخوس هارباً إلى برلين فى محاولة منه لتجنب القبض عليه بعد " ثورة الحانة الفاشلة "، رآه كوستيس فجأة ماثلاً أمامه، لم يستطيع حينها أن يصدق أن هذا الرجل طويل القامة الوسيم، ذا الشعر الكثيف والعينين المتوهجتين هو ذلك الصبى الذى تركه منذ أربعة أعوام فى الإسكندرية.

* * * * *

«سلام» (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، هكذا صاح الحارس المصرى الذى يرتدى جلباباً أبيضًا وطربوشًا، وانحنى تحية لذلك الرجل طويل القامة الذى دخل إلى فناء المصنع فى حين اكتفى هذا الرجل بالإيماء إليه، وفى نفس الوقت كان يجفف وجهه من العرق بمنديله ثم توجه بعد ذلك بخطوات سريعة تجاه مدخل المبنى صامتًا، متجهمًا، وفى أقل من دقيقة كان قد صعد السلم الضخم المصنوع من الرخام دون أن يخبر أحد وطرق الباب ثم دخل إلى مكتب أندونيس خاراميس. فى تلك اللحظة كان رجل الصناعه يقف أمام النافذة متأملاً ترعة المحمودية، وعلى الرغم من أنه لم يكلف نفسه بالاستدارة تجاه الباب، فإنه ألقى تحية جافة قائلاً: «مرحبًا».

بلع الرجل الذى يُدعى ستاماتيس ريقه بصعوبة بالغة، وقبل أن يتفوه بكلمة سمع خاراميس يقول:

«أعرف، أعرف، أغلق الباب وضعه على المكتب». أطاع ستاماتيس الأمر وغادر المكتب فى نفس التو، ولكنه سمع خاراميس يتوجه إليه بالحديث مرة أخرى قائلاً: «إلى أين تذهب؟ ألن تحصل على أجرك؟»، كان أندونيس يقف أمام مكتبه، مرتديًا نظارته الطبية، تمامًا مثلما اعتاد أن يفعل فى كل مرة يرغب فى مراجعة بعض الحسابات، وفى النهاية لم يستطع أن يمنع نفسه من الاعتراض قائلاً:

«إلى هذا الحد!، ما هذا يا ستاماتيس؟ ما كل هذه الأموال؟».

رفع ستاماتيس أكتافه ببساطة لكى يذكره بأنه هو نفسه لا يتحمل أية مسئولية فى القصة كلها. ثم سأله رجل الصناعة قائلاً:

أندونيس: «على أية حال، هل تعتقد حقًا أن هذه القصة يمكن أن تستمر لوقت أطول؟».

ستاماتيس: «ماذا أقول لك، يا سيد خاراميس.» جاءت إجابة ستاماتيس بصوت أجش متقطع يتردد بشكل كئيب داخل المكان.

أندونيس: «ماذا تقول، يا ستاماتيس» هكذا أجابه أندونيس بينما كان يبدى إنزعاجه فى كل مرة يسمع هذا الصوت الغريب، ثم استكمل أندونيس حديثه قائلاً: «أتمنى فقط أن تكون قد حافظت على سرية الموضوع، لقد أكد لى يورغاس أنك مصدر ثقة مطلقة»

ستاماتيس: «لا تقلق بشأنى، يا سيد خاراميس، فأنا أعرف جيداً كيف أبقى فمى مغلقًا». ثم طأطأ ستاماتيس رأسه وتظاهر بأنه لم ير أندونيس وهو يخرج من درج مكتبه رزمة جنيهات مصرية، ثم ألقى بها على حافة مكتبه الضخم؛ عندئذ تحرك ستاماتيس لالتقاطها، وقبل أن يفعل ذلك مسح يده الغارقة فى العرق بمنديله، ثم ألقى بالتحية وأسرع بالاختفاء من أمامه دون أن ينتظر الرد على التحية من رئيسه فى العمل.

بقى أندونيس وحيداً مرة أخرى وأخذ يتساءل كيف استطاع أن يفعل ذلك. فبدلاً من أن ينفصل عن ذافنى بعد تورطها فى فضيحة تهريب الآثار ويتخلص منها ومن أخيها الغبى، أخذ على عاتقه إصلاح ما ارتكبته زوجته من سرقات فى محلات مختلفة بالإسكندرية. كان يميل إلى تصديق أن طلاقه لن يكون قضية سهلة فى ذلك الوقت، مفضلاً الاستمرار فى حياته الغريبة مع امرأة لا يحبها ولا يفهمه، بدلاً من أن يسقط من نظر الناس، أولئك الذين كانوا سيجدون، فى كل الأحوال، شيئًا يتحدثون عنه. حقيقة كان يغبط الأجيال القادمة على ما سينعمون به من حياة حقيقية، يستطيع فيها الواحد منهم أن يختار بكل حرية شريكته فى الحياة. إلى هذا الحد، لم يعد واثقًا إذن من أن قراره بالإبقاء على ذافنى سيؤثر على المجتمع المحيط به أم أن كل شىء كان مرتبطًا بشخصيته المحافظة التى كان يشعر دائمًا بنوع من الفخر تجاهها. يا لك من ملعونة يا روح الإنسان! ما حقيقة داء السرقة المفاجئ الذى انتاب ذافنى أخيرًا؟ فمنذ اللحظة التى قرر فيها أن لا يطردها، أصبح لزامًا عليه أن يحمى شرفها وسمعتها.

لذلك قام بتعيين شخص لمراقبة كل تحركاتها على أن يتدخل قبل أن تقع فى قبضة الشـرطة، ولكن جـال بخـاطره أنه ربما لكى ينعم براحـة البـال فـلابد أن يكون على استعداد لتسليمها للشرطة وللألسنة السيئة فى مجتمع الإسكندرية، ولكن ما الذى منعنى من ذلك؟ وأخذ يفكر مرات ومرات عن السبب.

فى تلك اللحظة أتى رنين التليفون لكى يخرجه من تلك الأفكار. على الجانب الآخر من التليفون جاءه صوت ذافنى الرفيع الهادئ، الذى يشبه صوت الأطفال بطريقة لا تتناسب مع مركزها أو سنها، غير عابئة بما سببته له من مشاكل بسبب ما اقترفته من ذنوب، لكنها اتصلت فقط لكى تذكره بالآتى:

«لقد دعوت القنصل الفرنسى الليلة على العشاء، وأرسلت دعوة أيضاً إلى........»

لم يستمع أندونيس إلى الأسماء التى عددتها ذافنى، وعندما أنهى المكالمة، وجد نفسه يعود مرة أخرى سريعاً إلى أفكاره التى قطعتها مكالمة التليفون.

هل من المعقول أن تفعل ما فعلت دون أن تشعر بالقلق فى النهاية؟ على الأقل كان ينبغى عليها أن تتناول طعام العشاء فى المنزل هذه المرة، من المهم أن تفعل ذلك. أتخيل أنها قد يصل بها الأمر إلى درجة سرقة أشياء من منزلها نفسه. أما بالنسبة لضيوفنا، فسوف أفتح عينى جيداً. يا لها من ورطة!

لم تكن لذافنى نفس وجهة النظر، فقد صارعت طوال تلك السنوات داء السرقة اللعين بشراسة، واضطرت أن تحبس نفسها، لفترات زمنية طويلة فى منزلها حتى لا تتورط فى أى شىء آخر. كانت تعتقد أن المرة الوحيدة التى تعرضت فيها لخطر إلقاء القبض عليها هى تلك التى حدثت فى محلات شارع عبد العزيز، ولكن لحسن حظها، فقد أرسل القدر لها رجلاً طويل القامة، مصريًا قبطيًا، يدعى ماركوس داود، لكى يمنعها من ارتكاب خطأ لا يحمد عقباه ؛ ثم أصبح عشيقا لها فيما بعد لمدة ما يقرب من ثمانى سنوات، وقد منحها متعًا لا توصف خلال رحلاتها الدائمة إلى القاهرة، فكل ما كانت تتمناه ولم تكن تستمتع به بالقرب من أندونيس، استمتعت به بجانب عشيقها ماركوس فى كل مرة كان جسده المشوق ذو الجلد السميك يعتصر جسدها. هذا

الرجل الذى كان رائعًا فى كل شىء، كان يعرف كيف يأخذها فى أحضانه كالريشة. كيف يجعلها ملكًا له، متقلبًا فى سلوكه معها بين النعومة والهمجية، كيف يحتويها، كيف يوقظ فيها كل ما كانت قد تناسته من مشاعر الأنوثة. استطاع هذا الرجل الذى ظل غامضًا لمدة ثمانية أعوام والذى أتى من المجهول أن يشعل لهيب الحب بداخلها. لقد قدم لها نفسه على أنه موظف بمصلحة الآثار المصرية، لكن ذافنى لم تكن واثقة إذا ما كان المصريون يهتمون فعلاً بالحضارة القديمة لمصر، حتى يقوموا بإنشاء مثل هذه الهيئة. وعلى أية حال، فقد تحول علم المصريات إلى هوس مقدس لعشرات الباحثين حول العالم، الذين كانوا يحبون أرض النيل من أجل اكتشاف أصل التاريخ وفك طلاسم الحضارة المصرية العظيمة. كانت الدولة تلعب لعبة القط والفأر مع كل البعثات الأثرية التى كانت تصل بهدف ترك بصماتها من خلال إضافة قطعة مكملة من حجر البازلت فى صرح التاريخ. كان الطرفان يعقدان عدة إتفاقيات وشروط التى ما تلبث أن تُنتهك فى اللحظة التالية، وينتهى الأمر برفع القضايا أمام المحاكم المختلفة. لم يستطع أحد أن ينكر ذلك الاهتمام الحقيقى وتلك المعرفة التى يتمتع بها المجتمع العلمى حول العالم، ولا حتى الحقوق الضمنية للدولة، مثلما لم يستطع أحد أن يمنع فئران تهريب الآثار أن يجدوا لأنفسهم مكان بين كل هذا فيتشكل فى النهاية طابور من الموظفين الحكوميين والعلماء والمغامرين والباحثين وحتى مهربى الآثار، كان كل واحد منهم يرى أن لديه الحق فى الوصول إلى هدفه قبل الآخرين، كائن من كان. كل اكتشاف جديد لم يكن يثرى المعرفة البشرية بقدر ما كان يثرى أيضًا جيوب بعض أولئك الذين يمتلكون حاسة الانقضاض فى التوقيت المناسب من أجل الاستفادة من تلك اللحظة التى يلتقى فيها الحاضر بالماضى.

لذلك كان تخصص ماركوس غاية فى الأهمية. فكل معلومة عن التوابيت والتماثيل الموجودة فى أطراف القاهرة تمكن ذافنى من الحصول عليها بمهارتها من ماركوس، يتم التحقق منها فى اليوم التالى عن طريق شقيقها لوكاس وأعوانه. كانت تسأله متظاهرة بعدم الاهتمام: «ما أخبار عملك الجديد، يا ماركوس؟»، عندئذ كان يتفاخر

أمامها، دون أن يساوره أدنى شك فى نوبياتها، ويطلعها على كل الاكتشافات الحديثة، ويبدو أنه قد أحبها بالفعل - وإلا فلماذا كان يطلب منها بإلحاح أن تنفصل عن زوجها حتى يتسنى له الزواج بها؟ نعم، لقد تعلم أن يعرض عليها الزواج بلغة يونانية ركيكة، معتقداً أنه بهذه الطريقة قد يحظى بفرصة أكبر. إلا أن ذافنى، حتى لو كانت تذوب عشقًا وهى بين أحضانه، فلم تكن لديها أدنى رغبة فى الانفصال عن أندونيس. وكانت تحدث نفسها قائلة:«من مدام خاراميس إلى مدام داود! هذا الأمر لا يمكن أن تجرؤ عليه سوى امرأة مجنونة!».

كانت ذافنى تكتفى بالاستمتاع بحبها مع رجل يعرف كيف يبتسم لها ابتسامة حانية، كيف يوجد بجانبها من أجل إشباع رغباتها، وبشكل جوهرى، كيف يحميها من اللحظات الحرجة التى تزداد فيها رغبتها فى السرقة. وهكذا، ومن خلال حياتها المزدوجة، كانت تستطيع أن تتخطى بثقة مشاكلها العائلية، وأن تتحمل غياب ابنيها كوستيس وماخوس عنها، وأن تبرر قسوة أندونيس ـ فهى باعتبارها أمًا لم تجد على الإطلاق سببًا واضحًا لتبرير تلك القرارات الصارمة التى أصدرها أندونيس ضد أبنائها - كما كانت تستطيع بوجه خاص، أن تستجمع قواها حتى تستمر حياتها، وأن تفتح الباب لمواصلة علاقاتها الاجتماعية التى كانت قد أغلقتها منذ أعوام مضت، لكى تحمى نفسها من مشاعرها الدفينة.

عندما تورط اسمها فى فضيحة تهريب الآثار، وأوضح لها ماركوس وهو فى شدة إنفعاله أن هذه الفضيحة كانت سببًا فى نهاية العلاقة بينهما، كانت قد حصلت بالفعل على كل ما أرادت، بل وأكثر مما أرادت. لم تستطع طبيعتها الأنثوية إلا أن تهدأ، بعد أن تخطت الخمسين من عمرها، فالمتعة التى منحها إياها ماركوس كل تلك السنين بفحولته الطاغية(*) بدأت تتحول شيئًا فشيئًا إلى ألم غير مرغوب فيه. حتى تحولت حياتها المزدوجة فى القاهرة إلى ورطه كبيرة. كان لزامًا عليها أن تتخلص منها بأسرع ما يمكن. ومن هذا المنطلق أصبح قرار داود وكأنه نجدة لها من السماء.

* * * * *

«إننى أحدثك عن عالم جديد، يا أخى العزيز كوستيس، "عالم جديد"(دونها بالألمانية)» هكذا صاح ماخوس فى شرفة "مقهى رومانس" (دونها بالألمانية). كان صوته حادًا وواثقًا، على الرغم مما عُرف عنه من رقة، وجعل كل من فى الميدان يتطلع إليه. لم يكن كوستيس يرغب بأى طريقة أن يكونا محطًا للأنظار فى واحد من أشهر الأماكن وأكثرها ازدحامًا فى برلين، فأشار إلى أخيه كى يخفض صوته، كما لو كان هذا " العالم الجديد "(دونها بالألمانية) سرًا آثمًا ولابد أن يبقى سرًا فيما بينهما.

ابتسم الأخ الأصغر مرتبكًا بسبب حماسة الساذجة وهو ابن التاسعة عشر عامًا. إلا أنه كان معتادًا على جذب انتباه الآخرين، أما الغريب فهو أن لا ينظر إليه أحد . من ناحية أخرى، كان يبدو واضحًا كيف أنه كان يعتبر نفسه مجرد رسولاً أكثر من كونه متآمرًا، وعلى الرغم من أنه قد أصيب ببعض الإحباط عندما تأكد أن السلطات الألمانية لم تكن تبحث عنه بسبب مشاركته فى " ثورة الحانة " فإنه أصر على اعتبار نفسه ممثلاً للنظام الجديد، وكانت ثقته فى ذلك تعطيه إشراقة تنير له وجهه، كما تعطيه أيضًا شعورًا بالعظمة لا يتناسب مع سنه الصغيره ؛ وعلى الرغم من أن كوستيس لم يبد موافقته نهائيًا على الزج بأخيه فى كل هذه القصة، فقد استحلفه بما يؤمن به أن ينأى بنفسه عن هذا الموضوع. " على الأقل فهو يؤمن بشىء "(هكذا حدثت كوستيس نفسه)، ولكنه رأى أنه من الأفضل أن لا يمنحه مزيدًا من الجرأة.

فى تلك الأثناء، لم يكن كوستيس يصدق أن هذا الشاب الذى يجلس أمامه هو نفسه ذلك الصبى الصغير الذى كان يرتدى الشورت القصير قبل مغادرته الإسكندرية. فى الأيام الأولى لم يكن يشعر بالسعادة وهو يتجول مع ماخوس فى شوارع برلين، فقد كان يشعر بالضآلة أمام جمال أخيه. ولكنهما فى النهاية شقيقان، لماذا إذن منح الله شقيقه هاتين العينين الخضراوين الجميلتين، فى حين منحه عينين عاديتين، غير متميزتين؟ لم يكن كوستيس يعانى من تلك المشكلة من قبل، أما الآن وقد تأكد أن ماخوس يفوقه بست أو سبع مراحل، فهو يشعر بشىء من الإهانة. حتى إنه لم يكن يلحظ من قبل أن شعر أخيه كان كثيفًا، داكن اللون، وهو ما يتناقض مع لون بشرته

شديدة البياض. كان عليه إذن أن يقنع بلون بشرته البرونزى، الذى يعكس أصالة أرض النيل. وفى نهاية الأمر، كان كوستيس، الذى أرهقته المقارنة الدائمة بينه وبين أخيه، يصل دائمًا إلى استنتاج غريب بأن هذا " الظلم "، الذى تعرض له قد لعب دورًا خفيًا فى الإسكندرية، وأنه لو كان مقيمًا بها فى السنوات الأخيرة، فلم يكن ليسمح بحدوث مثل هذا الأمر، أما الآن فلم يعد باستطاعته فعل شىء، "فالإله اليونانى" (ذكرها بالألمانية)- كما كانت صديقات كوستيس الحسناوات يطلقن على ماخوس، قد أثار جنون الرجال والنساء من شدة الإعجاب بمظهره. وفى حقيقة الأمر، فقد كان هذا الشاب يتعامل بتجاهل شديد تجاه كل مشاعر الإعجاب بشخصه، إلا أن ذلك لم يهدئ من حدة تلك المشاعر التنافسية التى سيطرت على كوستيس فجأه، بل وبدأت تتزايد. فكيف يتعايش مع فكرة أن أخاه أصبح يستأثر باهتمام الجميع؟ ولأنه لم يكن باستطاعته أن يصب جام غضبه على أخيه، فقد كان الآخرون هم من يدفعون الثمن. فها هو ماكس، الرسام، يبدى ندمه لأنه عرض على ماخوس أن يرسمه عاريًا، مما أدى إلى قطع كوستيس تلك الوجبات الغذائية عنده التى كانت تصله بشكل مستمر؛ كما خسرت الحسناوات الثلاث إقامتهن فى سويت فندق "قيصر" وعدن مرة أخرى إلى أحياء برلين الفقيرة. كان لتداول العملة الصعبة، التى تسمى ريدينمارك، واختيار وزير مالية جديد، أثر فاعل فى انتهاء الأزمة الاقتصادية فى ألمانيا، كما كان بمثابة بداية النهاية لحياة الرفاهية التى كان يعيشها الابن الأكبر لخاراميس فى برلين، وأصبحت مبررًا قويًا لقطع معوناته السخية عن الآخرين؛ أما الشخص الوحيد الذى استمر فى تلقى عطايا كوستيس الكريمة فهو كارل الشيوعى، الذى أدرك ببصيرة نفاذة وجود خطأ ما فى طبيعة الشقيق الأصغر الجنسية، ومن ثم فقد أبدى وجهة نظر عبقرية أراحت صديقه كوستيس راحة لا مثيل لها وأزاح عن كاهله عناء مقارنة لا داعى لها بينه وبين شقيقه، حيث قال: «أنا لا أشعر بالغيرة تجاه هذا الجمال، لأننى أؤمن بأن (هذا الجمال) لا تهتم به النساء بشكل كبير مثلما يهتم به الرجال».

لم يتوقف كارل عن الكفاح حتى تتسلم، وفقًا لكلامه، الأجيال القادمة عالمًا أفضل، وكم من مرة كان يذهب فيها مباشرة من الكباريه إلى المظاهرات، بعد أن يقبِّل الفتيات

الواحدة تلو الأخرى قائلاً بشكل مؤثر: «طيورى الحبيبة، ربما لا أراكن مرة أخرى!» وبالطبع، كان يعود إليهن مرة أخرى فى الليلة التالية فى صحبة كوستيس، أنيقًا وهادئًا بعد أن يكون قد قام بواجبه. كان كارل يحذر صديقه السكندرى دائمًا من أن أخاه قد سقط بالفعل فى " جحر مليىء بالثعابين "، وأن لزامًا عليه أن يخرجه منه فى أسرع وقت ممكن. لكن كوستيس لم يكن يشاركه تلك الوساوس وقبل أن يقدم على اتخاذ أى إجراء قاسٍ، وكان يفضل الاستماع إلى أخيه الصغير أولاً.

فى أول أيام الربيع من عام ١٩٢٤، كانت برلين تشع بنور الأمل، وأخذت تبث أشعة التفاؤل الذهبية لغد أفضل، ذلك الغد الذى كان البائسون من أهلها فى أمس الحاجة إليه. فى الشرفة المغطاه "بمقهى رومانس"(ذكرها بالألمانية)، حيث كانت ترسم أشعة الضوء ظلالها على الأرض البيضاوية للشرفة. كان الشقيقان يجلسان حول مائدة فى داخل الشرفة على الجانب الأيسر، يتابعان الميدان المزدحم. لاحظ ماخوس أن الطريقة التى وضعت بها الموائد والمقاعد أشبه بالترام أكثر من كونها المقهى. «إنه نقطة التقاء للفنانين» كان ذلك هو تعليق كوستيس، أما ماخوس فلم ير سوى رجال يجلسون بمفردهم، ونساء منكبات على الكتب والصحف مستمتعين بشمس الصباح، رجل واحد شجاع اضطر للجلوس فى المائدة المجاورة للطريق، لأنه بهذه الطريقة يستطيع أن يضع كلبه الضخم بجواره، وسيدة أخرى كانت تجلس فى المائدة المجاورة له وقد خلعت معطفها، تنظر باستمرار إلى ساعتها، ربما كانت تنتظر رفيقها. كان مصطلح "عالم جديد "(ذكرها بالألمانية)، كالحربة المدببة الموجهة تجاه ضمائر هؤلاء البشر، وقد لمح كوستيس فى نظراتهم وقع المفاجأة، ليست سارة وليست حزينة، ولكنها مجرد مفاجأة.

جال بخاطر كوستيس «أن الإعلان عن عالم جديد دائمًا ما يقابل بالترحاب. لكن هذا العالم الجديد لم يكن أبدًا مقنعًا» ؛ فهذا القزم الليليبوتى[١٣]، الذى يدعى أدولف

(١٣) القزم الليليبوتى: هو قزم أسطورى من جزيرة ليليبوت الخيالية . (المترجم).

هتلر، كان من المستحيل أن يوصف بالمسيح الجديد ؛ أما فيما يخص "الحواريين" فقد وصلت كوستيس بالفعل العديد من المعلومات عنهم، وهى معلومات لم تكن سارة إلى حدا بعيد، فالغالبية العظمى منهم من أنصار العنف، وقد شقوا طريقهم إلى قلب الحزب بهدف القيام بأعمال عنف وعلاقات جنسية دون رقيب. وسط كل هذا، كان رودلف إس هو الاستثناء الوحيد الذى يحترم القانون. وهنا سأل كوستيس ماخوس قائلاً:

«لقد علمت أنه قد فر إلى الخارج، لكن سرعان ما عاد من أجل محاكمته. هل تعتقد أنه رجل صاحب مثل عليا وصادق؟».

- «لقد قلت لك من قبل إن رودلف إنسان رائع، رجل صاحب مثل عليا بالفعل، كما أنه مفكر لا مثيل له. ما الذى يمكن أن تنتظره من رجل سكندرى مثله؟» قال ذلك، ثم أشرق وجهه إشراقة تعكس سذاجته.

- «لا تجزم بذلك، فقد عرفت أناسا من الإسكندرية ليست لهم أدنى قيمة!».

- «رودلف ليس من هؤلاء، أؤكد لك».

- «حسنًا، لكن رودلف الذى تتحدث عنه وأصدقاءه يحاكمون فى اللحظة التى نتحدث فيها الآن بتهمة الخيانه العظمى. ألا ترى أنت أيضًا أنهم هالكون؟» هكذا صاح كوستيس، رغم أنه يعلم جيداً أنه لا يوجد ما يدعو لكى يخفض صوته طالما يتحدث باليونانية.

- «"هراء"(قالها بالإنجليزية)، كل هذا من خيال تلك الديمقراطية الداعرة. فهؤلاء الناس هم مستقبل ألمانيا، وربما مستقبل العالم كله.سوف ترى أن العدالة ستكون رحيمة بهم، ومن جهة أخرى، فللعبقرية بالضرورة جانبها الثورى»، هكذا أصر الأخ الأصغر على رأيه بطريقة يشوبها الغرور، مما أدى إلى إثارة غضب أخيه .

- «لست أدرى أية عبقرية تقصد. هل تقصد هذا القزم الكسول؟» .

- «كنت أظن أن كوستيس خاراميس ليس هو من يلقى بتهكمات اجتماعية، ما الذى حدث إذن؟ هل غيرتك ألمانيا إلى هذا الحد؟» قالها ماخوس معترضًا وقد هم بالرحيل .

- «لم تغيرنى ألمانيا، يا ماخوس» قال ذلك وهو يمسك به حتى لا يغادر المكان.

- «هل غيرتنى أنا إذن؟ ولكن قل لى، من أين تستقى كل هذه المعلومات، من كارل؟ هذا الغوريلا البلشفية، أم من فتياتك الحسناوات؟ أم ربما من ماكس الرسام الذى يبتهج من السعادة لمجرد مشاهدة جسدى عاريًا؟ هل هؤلاء هم أصدقاؤك، يا كوستيس، وإذا أردت يمكننى مقارنتهم بأصدقائى» .

- «ماكس ليس شاذًا، إذا كان هذا ما تعنيه» هكذا صاح كوستيس، ولكنه شعر بأنه أحمق لأنه، قبل كل شىء، كان يدافع عن رجولة صديقه ماكس.

- «أهذا ما تقول، إذن لماذا كان أول ما فعله هو تحسس جسدى كله، وكأنه كان يقوم بتفتيشى ذاتيًا؟».

- «اهتمام فنى!» هكذا أجابه، ثم تجرع قليلاً من الشيكولاتة الساخنة التى أمامه. لم تكن هناك حاجة لتلك العصبية التى نشأت بينهما، كما لم يكن أمرًا غريبًا يحدث بين شقيقين. لكن هذه الكراهية المتعمدة من كوستيس تجاه أخيه ماخوس ذو العينين الخضراوين لم يكن لها ما يبررها. ثم أبدى كوستيس دهشته وهو يسأل أخاه قائلاً: «حقيقة، لم تخبرنى حتى الآن لماذا قرر والدنا أن ينفيك أنت أيضًا إلى ألمانيا» ؟

لكن ماخوس لم يجب سؤاله، وفضل أن يسند ظهره إلى الخلف، ثم بدأ يطرق بقدمه على الأرض بشكل عصبى. منذ تلك اللحظة، شعر كوستيس أنه قد أصبحت لكل منهما تطلعات وآفاق مختلفة فى هذا العالم.

* * * * *

المنفيون لا يهنأون بحياتهم بعيداً عن أوطانهم. يحيون نصف حياة في أرض غريبة، أنصاف أرواح وأنصاف عقول، جزء من أجسادهم يهيم كشبح في طرقات المدينة التي ولدوا بها، مرددين أبياتًا لشاعر سكندري كان كوستيس يحتفظ بها في حافظته مدونّة في ورقة صغيرة، وكأنه إهداء خاص:

سـوف تلاحـقك المدينة

وسوف تعود إلى نفس الشوارع

لقد أحس كوستيس نفسه بمعاناة " وجوده بنصف عقل" في برلين. وبقدر شعوره بالحنين للإسكندرية، كانت الخطابات هي سبيله الوحيدة متابعة أحوال الحياة في مدينته الإسكندرية من خلال سطور تلك الخطابات، تماماً مثلما يقوم شخص باستكمال رواية كتاب ما لشخص كان قد توقف عن قراءته عند أحد فصوله، فكان يقرأ له كل فترة فقرات من صفحات مختلفة. وبالطبع كان لهذه الطريقة جانبها السلبي، مثل المقاطعة المؤقتة للاتصال بينه وبين ابن خاله نيكيتاس والتي كان كوستيس هو المسئول عنها بالطبع« نيكيتاس دائماً ما يتذمر منك لأنك لا تكتب له» كانت تلك العبارة تتكرر دائماً في خطابات ماخوس منذ عام ١٩١٩، أما كوستيس فكان يلزم الصمت محتفظاً لنفسه بالسبب الذي جعله يتخذ هذا القرار القاسي. حتى هو نفسه لم يكن يدري لماذا أخذ على محمل الجد ما أخبره به ابن خاله عشية سفره من الإسكندرية.

ما زال صوت نيكيتاس الواثق يتردد في أذنه عندما اعترف له قائلاً: «سامحني، يا ابن العم (قالها بالفرنسية)، كان من الواجب عليّ أن أخبرك بذلك من قبل. ففي ذلك اليوم الذي كنا نراقب فيه الآنسة جابي في حي العطارين، لم أشأ أن أطلعك على ما أخبرني به البواب عن تلك المربية. ولا أعرف لماذا فعلت ذلك. ربما لأنني شعرت أن ذلك سيسبب لك الحزن. اليوم أعتقد أنه لم تعد هناك أهمية لأن تعلم أن الآنسة جابي كانت فتاة فرنسية ابنة رجل ديوث وأم من مارسيليا، وهي امرأة بغي معروفة في شارع السبع بنات. وكانت جابي تتردد هي وأخوها الصغير الذي كانوا يسمونه جان كلود، كما أتذكر، على هذه العمارة». في تلك الليلة شربا معًا واستمتعا بوقتهما ولم يعر كوستيس للأمر

أهمية. ولم يتفوه سوى بجملة واحدة: «ليس بالأمر المهم» (قال ذلك بالفرنسية)، وانتهى الأمر عند هذا الحد لكنه عاود التفكير فى الموضوع أثناء وجوده فى الباخرة فى طريقه إلى مارسيليا. وكان يردد باستمرار <<لماذا فعل بى هذا نيكيتاس؟». ومنذ ذلك الحين، أصبح هناك ما يعكر صفو روحه رويداً رويداً تجاه ابن خاله الحبيب، فكان يتجنب الكتابة له، مما أفقده مصدر المعلومات التى كانت تغذى روحه المتعطشة بالأخبار المهمة عن الإسكندرية. إلا أن نيكيتاس وجد طريقة أخرى ليرسل بها الأخبار لكوستيس، فمع كل خطاب يرسله لماخوس، توجد نشرة إخبارية موجزة تخصه وتخص عائلته. وهكذا وصلته، على الأقل، أخبار الخال ثاناسيس الذى أوشك على إشهار إفلاسه، كما علم أن نيكولاس، الأخ الأكبر لنيكيتاس قرر احتراف مهنة الموسيقى، لكنه مازال عاطلاً حتى هذه اللحظة لأن الإيطاليين كانوا يشغلون أغلب الوظائف؛ وعلى العكس من نيكولاس، فقد عاد وجود الإيطاليين بالخير على شقيقتهم أوليمبيا التى تزوجت من دبلوماسى إيطالى، وكانت سببًا فى بث السعادة والتفاؤل فى أسرتها. أما عن الخالة ماريا، فعندما قرأ جملة «ولدت شقية، وستموت شقية»، أدرك أنها مازالت كعادتها فى حالة شد وجذب مع الجيران، وهو ما يعنى أنها ما زالت تترك الطعام من حين لآخر حتى يحترق. أما نيكيتاس فيبدو أنه كان يعانى بشدة من أجل الحفاظ على ثروة العائلة. بعد أن فقد والده عقله. وكان ماخوس، فى محاولة منه لتصوير مدى ما وصل إليه الخال ثاناسيس من اختلال عقلى، يتذكر دائمًا ذلك الموقف الذى حدث فى كنيسة إيفانجيليسموس، والذى استمر محور حديث كل أهل الإسكندرية لفترة طويلة. ففى الفترة التى كان الملك قنسطنطينوس يتولى حكم اليونان، وعندما بدأ البطريرك يقول فى يوم من أيام الأحد: «ملكنا العظيم قنسطنطينوس»، سمع الجميع الخال ثاناسيس وهو يصيح قائلاً: «فليذهب إلى الجحيم». كان كوستيس يتخيل تعبيرات وجه ثاناسيس وقد تحول وجهه إلى اللون الأحمر، يقف على أطراف أصابعه، مثلما اعتاد دائمًا أن يفعل عندما ينفعل، عندئذ ضحك كوستيس قائلاً: "الخال ثاناسيس، ياله من مهرج كبير!». لن ينسى كوستيس أبدًا تلك المزحة التى ذكرها عن القمر عندما التقى فيفى، وهى امرأة ساذجة من نفس بلدة زوجته، وسألته فى إحدى المرات قائلة :

«إننى أتساءل، يا أستاذ ثاناسيس، إذا ما كان القمر الموجود فى الإسكندرية هو نفس القمر الموجود فى سيمى» فأجابها ثاناسيس، البقال صاحب الإجابات الحاضرة دائمًا قائلاً: «كيف راودتك هذه الفكرة، يا فيفى!، بالطبع ليس هو نفس القمر. لقد عشتِ فترة من الزمن فى سيمى، وكان لزامًا عليك أن تتذكرى أن القمر هناك لونه أصفر. أليس كذلك؟ إذن ، فهناك قمر فى الإسكندرية وقمر آخر فى سيمى، يختلف عن قمر جزيرة رودس وقمر ميتيلينى. لا أريد أن أسمعك ترددين مثل هذه الحماقات مرة أخرى، يا سيدتى». فأجابته تلك المرأة «نعم، نعم، لديك كل الحق، يا ثاناسيس!». وكان شعور كوستيس بالحنين للإسكندرية يزداد كلما تذكر كل هذه القصص.

الأسوأ من كل هذا، أنه لم يكن متأكدًا أنه استطاع التعرف بالفعل على مدينة الإسكندرية، لكى يعشقها أكثر ويجعلها ملِكًا له. كانت والدته على حق عندما قالت له فى أحد خطاباتها التى كتبتها له فى منتصف العشرينيات: «لابد أن تفكر فيما تعنيه الإسكندرية بالنسبة لنا يا ولدى».

وكان نيكيتاس على حق أيضًا، عندما كان يقول له بين الحين والآخر: «ما الذى تعرفه أنت عن الإسكندرية!»، على الرغم من أن ذلك كان يسبب له جرحًا غائرًا.

ما الذى كان يعرفه عن الإسكندرية؟ كانت الصور والكارت بوستال التى أرسل فى طلبها تطرح عليه بدورها نفس السؤال بطريقة درامية. فقد كان مرتبطًا، على سبيل المثال، بمشهد الإسكندرية المضيئة فى ليالى رمضان، ومن هذا المشهد تتوالى الذكريات حتى استعدادات المسلمين للعيد الكبير: ففى ساعة الغروب تصبح المدينة خالية من المارة، حيث يجلس الصائمون أمام طبق " الكشرى"(ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية) الذى يسيل أمامه لعابهم، وهم ينتظرون انطلاق مدفع الإفطار لكى يسدوا جوعهم، ثم تذكر مرور" المسحراتى"(ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية) لإيقاظ الصائمين فى المساء، وكان نيكيتاس أحيانًا ما يفعل المقالب فى الصائمين فى الحى الذى يعيش فيه بأن يوقظهم قبل الموعد الذى يستيقظون فيه لتناول

الطعام بساعة، كما يتذكر جو الاحتفال فى شوارع المدينة بالحلوى المصرية ، يأتى فى مقدمتها "الكنافة" (ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) المشهورة.

وتذكر شرفات إحدى العمارات القديمة فى الأزاريطة، من خلال إحدى الصور التى ربما تكون قد التقطت من الترام، والتى ذكرته بشرفات عمارة باب سيدرا، حيث أبراج الحمام الخاصة بابن خاله والأرانب والببغاوات، وقد علمه نيكيتاس كيف يفرق الببغاوات الذكور من الأناث، حيث يتميز الببغاء الذكر بوجود خط أزرق يزين غرفه. تذكر أيضًا الحفلات التى تقام فى الحدائق ومظاهر الأحتفالات الأخرى بالمدينة، والأزياء الأوربية والأوربيين فى ميدان محمد على، والشاليهات الخشبية على الشواطئ، والفتيات اللاتى يمارسن التزلج فى شارع رشيد تحت إشراف مربياتهن، وطوابير العروض الكشفية والموسيقى الوطنية اليونانية.

وعلى الرغم من معرفة كوستيس بكل هذه الأمور، فإن هناك أشياء أخرى لم يكن يعلم عنها شيئًا، برغم محاولات نيكيتاس معه لكى يتعلمها، فعلى ما يبدو كانت هناك إسكندرية أخرى لا يعلمها. أحياء كاملة كانت تنتظره لكى يستكشفها يومًا ما فى قلب حى العطارين وما بعده، فى كرموز وفى الأنفوشى، مناطق مجهولة مثل "كوبرى الطريح وسوق الجمعة"(ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية)، وشواطئ العجمى الساحرة المعروفة بدواماتها، بير مسعود، أو " بئر الشيطان " الذى لم يجرؤ أحد على الغوص فى أعماقه. أناس غرباء، ملابس عجيبة، سلوكيات وعادات لم يكن أحد يستطيع أن يتعلمها طوال حياته. أما الأحياء التى كان يعرفها فلم يعد بإمكانه التعرف عليها من خلال الصور، حيث كانت المدينة تتغير باستمرار، طرقها الملتوية كالثعبان التى كان يتزلج بها فيضل طريقه. عندئذ كان يشعر بالضياع، مستسلمًا لكلمات نيكيتاس التى كانت تتردد دائمًا على مسامعه، وكأنها حكم أبدى «ما الذى تعرفه أنت عن الإسكندرية!».

* * * * *

في تلك الأثناء، استمرت الإسكندرية بدونه في رحلتها عبر الزمن. واستمر أناسها يتقلبون في حياتهم ما بين لحظات معدودة من الفرح والانتصارات ولحظات أكثر من الآلام والمحن، غير عابئين بذلك الزمن الذي يمر من بين أيديهم كأمواج البحر التي تتحطم على شواطئ الإسكندرية. لكن حتى أفعال وأقوال الناس لم تكن تترك أثرًا على رمال الزمن المتحركة، فقد كانت نتائج أفعالهم تصل بشكل ما إلى أعمدة الأخبار في الصحف، فتصبح عندئذ جزءًا من تاريخ هذه المدينة. في كل عام كانت الصحف اليومية تخصص مقالات كبيرة عن الصيد في بحيرة مريوط. وفي شتاء عام ١٩٢٥، نشرت الصحف خبر العثور على جثة أحد الأشخاص، مما تسبب في إثارة حالة من الذعر بين الناس، وقد جاء في الخبر: " تم العثور على جثة أحد أعضاء فريق الصيد - معاون حاكم الإسكندرية - كريم شلبي فجر أمس، وهو ابن عائلة مصرية عريقة. كانت جثة الشاب المتوفي، والذي كانت أسرته تبحث عنه بلا انقطاع في الأيام الماضية، مصابة بالعديد من الجروح القاتلة من بندقية صيد، وكانت الجثة طافية وسط أعواد البوص بالبحيرة. وتشوب الوفاة شبهة القتل العمد. يتولى التحقيق في الجريمة مفتش الشرطة فريد عباس. عزاؤنا الخالص لأسرة الفقيد ".

إنها طريقة تستحق التقدير تعرض من خلالها الصحف العديد من الأحداث الواقعية أحيانًا. ومن خلال قراءة هذا الحادث، هناك تسعة أشخاص من بين كل عشرة في الإسكندرية سيدركون أن هذا الشاب التعس ما هو إلا ابن فاسد لأحد الباشوات المصريين، وأنه لم يترك بيتًا من بيوت ممارسة الرذيلة، ولا ناديًا ولا كباريهًا في الإسكندرية كلها إلا وارتاده. أما والده فقد كان عميلاً للإنجليز، وكان بمثابة " الراية الحمراء" لحزب الوفد، حزب الأمة المصري ؛ وفي تلك السنوات المضطربة بعد إعلان الاستقلال عام ١٩٢٢، وجلوس الملك فؤاد على عرش مصر، كان هناك أكثر من سبب يجعل هذا الأب يشعر بالخوف على حياته وحياة أسرته. ففي حرب المصالح القذرة التي ضمت كلاً من الإنجليز والملك والمواطنين كانت كل معلومة صغيرة تحمل قدرًا من الأهمية في مثل هذه الأجواء السياسية.

استطاع إلياس إقناع إيفيت بقبول زبائن جدد، وبخاصة من الطبقة الأرستقراطية الجديدة بمصر، تلك الطبقة التى لم تكن تتمتع بسمعة طيبة فى الإسكندرية. يتسم أسلوب عدد كبير من هؤلاء السادة بالغلظة والاستفزاز، وكانوا يتصرفون بطريقة لا تتناسب مع الفتيات والعاملين بالمنزل، وكانت لهم رغبات شاذة يصعب تحقيقها، كما خالفوا الذوق العام والقانون المتعارف عليه، والذى اعتاد زبائن المنزل القدامى أن يتبعوه. عبرت إيفيت عن غضبها "للبنانى"، وأنها لم تعد تحتمل هؤلاء الأشخاص أكثر من ذلك؛ وكانت مجرد مسألة وقت حتى ثبتت شكوكها وحدث ما لا يحمد عقباه: ففى مساء ذلك السبت كان من المفترض أن يوجد هذا الشاب المصرى مع والده فى منزلهم الصيفى فى بحيرة مريوط، حيث كان من المفترض أن يخرجوا فى فجر اليوم التالى فى رحلة لصيد الطيور. وفى وقت متأخر من الليل قرر هذا الشاب أن يحدد موعداً له فى منزل مصطفى باشا مع " نيهير ذات القناع " ذائعة الصيت، فى الوقت الذى كانت نيهير تقيم فى وحدة لعلاج الإدمان فى مكان ما بجنوب فرنسا، لكن إيفيت استمرت فى إحياء أسطورة نيهير وقامت باختيار بديلة لها من بين بعض الفتيات التركيات اللاتى كن يقمن بالرقص فى ملهى شانتون بالإسكندرية. ويبدو أن هذا الشاب النهم لم يكتف بهذه "المعاملة الخاصة" التى قدمتها الفتاة التركية - بعد أن شرب كمية كبيرة من الخمر - فأصر أن يزيح عنها القناع، وعندما رفضت تلك الفتاه، ما كان منه إلا أن انهال عليها ضرباً مبرحاً، وعندئذ جاء تدخل جعفر أكثر من حاسم. فاندفع هذا العملاق الضخم إلى داخل الغرفة من أجل تهدئته، مما أصاب الشاب المصرى بالفزع، وأسرع بإخراج مسدسه، لكنه أخذ يترنح بتأثير الخمر للخلف وسقط على الأرض فاصطدمت رأسه بأعمدة السرير المعدنية. وقد إكتفى مستر برايس الذى تم استدعاؤه على عجل بإعلان وفاته. وعندئذ تم إبلاغ إيفيت فى جنح الليل بأن تسرع إلى المنزل وهى لا تدرى ماذا تفعل مع وجود جثة فى المنزل، فقررت بدورها استدعاء إلياس لإيجاد حل لهذه المشكلة. حتى لحظة وصول الليموزين التى أقلت "اللبنانى" ودخولها من الباب الخلفى وتوقفها فى نهاية حديقة المنزل، كانت إيفيت قد قطعت طرقة المنزل الموجودة فى الطابق الأرضى ذهاباً وإياباً وهى تدخن السيجارة تلو الأخرى.

«أظن أننى أخبرتك من قبل، أن النتائج لن تكون طيبة مع المصريين» هكذا انطلقت إيفيت معلقة فور دخول إلياس المنزل بشعره غير المصفف وعينيه الناعستين.

لم يكن إلياس قد وطأ المنزل بقدمه من قبل فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، كما لم يشعر من قبل بهذا الجو المعبأ بالأنفاس التى تفوح منها رائحة الخمر ونكهة دخان النارجلية، بأجساد الفتيات المعطرة، وتلك الأضواء االضبابية الخافتة، بدخان السجائر، وبخاصة برائحة الفساد التى تملأ المكان فلا تجعل هناك أدنى فرق بين ماخور رخيص لممارسة الرذيلة أو منزل أكثر رقيًا للبغاء .

«فلتشعلوا أى ضوء حتى يرى كل منا الآخر» هكذا صاح إلياس معتقدًا أن إضاءة المكان ستأتى بحل سحرى للمشكلة. ولكن لم يتحرك أحد، وعندئذ تولى هو بنفسه إضاءة الثريا الضخمة التى ربما نسى كل من فى الفيلا وجودها بالمنزل. لم يترك الضوء الأبيض الذى غمر المكان أى ركن مظلم. كما غمرت الأضواء تلك الأركان المختفية خلف الأعمدة، وبالإضافة إلى كل هذا أظهرت التجاعيد المنتشرة على وجه إلياس وكأنها جروح تركتها السنون لم يتح له نومه المضطرب فرصة لعلاجها.

«قهوة!» هكذا أشار إلياس آمرًا سهير، التى سارت وهى تعرج تجاه المطبخ ؛ تعجب إلياس قائلاً: «لماذا تعرج هذه المرأة؟».

إيفيت: «إنها على هذه الحالة منذ ثلاث سنوات هل هذه أول مرة تراها فيها وهى تعرج؟ هل هذا كل ما يثير اهتمامك الآن ولا تفكر ولو لقليل من الوقت فى العمل؟ فليحفظ الله إذن تلك المغفلة إيفيت».

إلياس: «توقفى عن التذمر وتكلمى، ماذا حدث لها؟» .

- «ماذا أقول لك؟ لقد أخبرونى أن أحد الزبائن المخمورين دفعها على السلم. ومنذ ذلك اليوم وهى على هذه الحال».

- «ألا يؤثر منظرها على الزبائن؟».

- «"يا عزيزى"(قالتها بالفرنسية)، الزبائن لا يأتون إلى هذا المكان من أجل سهير» هكذا أجابته ثم دفعت بشعرها إلى الوراء بكبرياء جعله يتذكر كيف كانت إيفيت قديماً.

- «على أية حال، فلنعد لموضوعنا. إذا لم نجد طريقة لإخفاء الأمر، فغداً سوف يكتب التاريخ أن الثورة المصرية بدأت من بيت للبغاء فى شارع مصطفى باشا»، ولم يكن مبالغًا فيما قال، فما زالت الذكريات المتعلقة باضطرابات ربيع عام ١٩٢١ ماثلة فى الأذهان؛ ثم استطرد قائلاً: «فلتأتوا لى بجعفر».

كان جعفر، النوبى، مختبئًا طوال الوقت فى كوة أسفل السلم، ثم أتى وانحنى أمام إلياس، وقد بدا ظله الضخم وكأنه بقعة ضخمة تغطى الأرض الرخامية ، بقعة تهتز تحت ضوء الثريا، فقد كان ذلك الرجل العملاق يرتعد من شدة الخوف، وتحدث بصوته الطفولى المرتجف فلم يفهم إلياس شيئًا من كلامه.

- «حسنًا، حسنًا، اذهب أنت الآن »، لم يشأ إلياس أن يطيل معاناة ذلك الرجل المعتز بنفسه، ثم استطرد قائلاً:«لابد أن تفكر الآن فى شىء» قال ذلك وكأنه يحدث نفسه، وأخذ يهذب بأطراف أصابعه خصلات شعره الناعم، ثم قال: «سوف أتصل بفريد».

- «هل أنت مجنون؟ أم ماذا؟ (ذكرت ذلك بالفرنسية) لا تنس أن فريد فى النهاية رجل مصرى. أتريد أن تدمرنا؟» قالت ذلك ثم ألقت برماد السيجارة بعصبية وهى تطرق الفلتر فى منفضة السجائر الموجودة على المنضدة الكريستال.

- « فريد صديق قبل كل شىء، ولا تنس أنه شريك»، قال ذلك ثم رفع سماعة التليفون الذهبية. طلب أربعة أرقام، انتظر قليلاً وفى النهاية جاءه الرد على الجانب الآخر، وعندئذ بدأ "اللبنانى" يتحدث بتلك اللهجة الغريبة التى كانت تجعله يبدو إنسانًا آخر من خلال سيل الكلمات العربية التى لم تتبين منها إيفيت أى شىء سوى اسم فريد الذى كان يتردد بين الحين والآخر. كان إلياس

نادراً ما يتحدث بلغته العربية أمام إيفيت، وكأنه كان يخجل من أصله. وفى الحقيقة، فقد كانت اللغه الفرنسية تليق بمظهره الوسيم، وبمكانته باعتباره مواطنًا عالميًا.

«إنه قادم» قال إلياس ذلك (بالفرنسية، ثم كررها باليونانية)، بينما كان يضع سماعة التليفون، وربما وجد أنه من الأفضل أن يكرر ما قاله باليونانية، ثم أضاف: «إن فريد بمثابة صديق لنا!».

فى البداية تظاهر فريد بالرفض قائلاً: «هل تطلبون منى أن أتستر على جريمة قتل رجل مصرى عريق، " هذا أمر مستحيل!" (قال ذلك بالإنجليزية)»، ثم تجرع كأسًا من الويسكى مرة واحدة. ملأ له إلياس الكأس مرة أخرى قائلاً:

«هيا يا فريد، لقد كانت حادثة عارضة كما نقول لك، ثم ماذا تعنى كلمة "رجل عريق"، أى تخريف هذا. لقد كان فتى فاسدًا وكلانا يعرف أنه بلغ النهاية التى يستحقها» .

فريد: «إن والده صديق لى. كيف سأواجهه غدًا؟» قال ذلك متسائلاً، بينما كان يداعب بعصبية النقوش الكريستالية فى كأسه.

إلياس: «إذا ما عُرفت هذه القصة، سنصبح جميعًا فى ورطة» هكذا أجابه إلياس إجابة ذات مغزى، ثم أضاف:«وعندئذ أود أن أرى بأى وجه ستواجه ليس فقط أبيه ولكن الناس كلهم».

طوال ذلك الوقت الذى كانا يتناقشان فيه، كانت إيفيت تتابع بدهشة كم التعبيرات المتغيرة التى كانت ترتسم على وجه رجل الشرطة. وفى النهاية اتسعت حدقتا عينيه بشكل غير طبيعى، ساعده على ذلك كئوس الخمر التى كان يتجرعها دفعة واحدة، ولمعت عيناه فجأة ببريق شيطانى فى اللحظة التى ربت فيها بنعومة على فخذ إيفيت، وقال: «فلتعرف إذن يا إلياس أننى لا أفعل ذلك من أجلك أنت. ولكن من أجل مدام إيفيت، فقط من أجل مدام إيفيت، وهى بالطبع تعرف كيف سترد لى خدمتى».

مرت بخيال إيفيت صور مخيفة، وحاولت أن تعترض، لكن إلياس أشار لها أن لا تتكلم. وكأنها فهمت ذلك الأمر الحتمى من خلال إشارة " اللبنانى" وبدأت لأول مرة

تتفحص فريد باعتبـاره رجلاً. نظـرت فى البداية بطريقـة خفية إلى جفونة السوداء، ثم إلى أنفه المعقوفة وفكه المقوس، ثم إلى جسده المشوق المفعم بالحيوية والنشاط على الرغم من كبر سنه؟، وتخيلت إيفيت أنها لو استسلمت لرغبات ذلك الضابط المصرى، فسوف تجد نفسها تتعامل مع عاشق أكثر عنفًا وأكثر همجية، مفهوم الجنس يختلف عن مفهوم إلياس وخاراميس.

قبل فريد أن يساعدهم، وأثبت لهم مرة أخرى مدى أهميته، فقط عندما تكون لديه الرغبة فى ذلك. ولحسن الحظ أن الشاب القتيل كان قد جاء إلى المنزل بسيارته. كانت الفكرة بسيطة ولكنها عبقرية. فقد وضعوا الجثة فى السيارة وتحركوا بها تجاه بحيرة مريوط. وعلى المقعد الخلفى للسيارة وجدوا بندقية صيد خاصة بالقتيل. وفى الطريق قام فريد بإطلاق النار مرتين على القتيل. ثم وصلوا إلى بحيرة مريوط فى الوقت الذى أوشكت الشمس على الشروق. حمل جعفر الجثة بين يديه وألقى بها بين أعواد البوص، حيث كان يصعب على من يراه أن يتبين وسط الظلام الدامس أنهم كانوا يحملون جثة آدمية. وكانت حركة جعفر ستعطى الانطباع بأنه كان يلقى بصخرة فى الماء، وسوف يؤكد الصوت المكتوم للجثة وهى تغرق ذلك.

أما ما تبقى من أمور فقد تولاها الضابط فريد الذى كتب بنفسه ملابسات وفاة الشاب المصرى. فقد ألقى بتهمة قتله على جمال، ذلك الفلاح الفقير الذى كان يعمل تابعًا فى الصيد لكامل. كان جمال يصرخ فى محبسه مؤكدًا براءته، إلى أن تم العثور عليه فى النهاية مشنوقًا، بعد أن كان فريد قد حصل على توقيع ثلاثة أعضاء من حزب الوفد بشهادتهم على ضلوع جمال فى قتل ذلك الشاب المصرى.

«فريد! إنه رجل لا يخاف الله » هكذا كان إلياس يعيد هذه العبارة مرارًا وتكرارًا وهو يفرك يديه من فـرط سعـادته وهو يضـيف فى كل مرة قائلاً: «والآن جاء دورك، يا عزيزتى" (قالها بالفرنسية) ».

لقد ظن إلياس الساذج أنه قد وضع إيفيت فى مأزق، وأنه بذلك سيكون قد انتقم من خاراميس. أما إيفيت فلم يكن لديها ما يمنعها من أن تسلم نفسها إلى ضابط

الشرطة فريد، وهو ما حدث بالفعل فى شقة إلياس بشهادة مرايات الشقة الفخمة. كان الشيء الوحيد الذى يزعجها أحيانا هو عادة فريد فى أن يتفاخر أمامها فى المرايا مستعرضًا جسده العارى. ليس ذلك فقط، بل كان يتعامل معها بطريقة حيوانية، مغتصبًا مشاعرها ويقودها بطريقة غير مسبوقة إلى المتعة المؤلمة. لقد حدث لها بالفعل ما تخيلته فى تلك الليلة التى ربت فيها على فخذها، عندما قام إلياس باستدعائه لتخليصهم من الجثة بمنزل شارع مصطفى باشا. أما إلياس، فقد كان يتساءل دائمًا كيف ستكون حال خاراميس إذا ما علم أن امرأته قد استجابت لتلبية تلك الرغبات الوضيعة للضابط المصرى.

لكن، فى النهاية، كانت تلك قضية ليس من مصلحة أى منهما أن يكتشفها أحد. ولحسن الحظ فقد كانت هناك الصحافة اليومية بقوتها المطلقة فى التعتيم على الأحداث بدلاً من إلقاء الضوء عليها، من خلال تقديم شهادة مزيفة لأى حدث مماثل حتى تتحول إلى جزء من شهادة الصحافة على الأحداث اليومية.

فى نفس تلك الأحداث اليومية، وبنفس الطريقة، كان يتم إقحام قصص أخرى، منها على سبيل المثال قصة طرد ثاناسيس بوستاندزوغلوس ومنعه من دخول نادى الأحرار، تلك القصة التى تم نشرها فى جريدة تاخيذروموس " البوسطجى" فى الخامس من شهر مايو لعام ١٩٢٥، وجاء الخبر على النحو التالى:

"بالأمس، قام تاجر الجملة المعروف ثاناسيس بوستاندزوغلوس، المولود فى ميتيلينى، بتسليم حسابات وكارنيه عضويته فى مجلس إدارة نادى الأحرار، بعد أن تمت مواجهته بتهمة التبديد والاختلاس، وفقًا لما ذكر المصدر. كما أعلن ثاناسيس الذى يعد من أشد أنصار بنيزيلوس أنه سيستمر فى محاربة القوى المعادية له باعتباره مواطنًا حرًا، بوصفه أيضًا مناضلاً شجاعًا، ورب أسرة محترم ورجل أعمال مميز".

أما فى الحقيقة، فقد أجبر ثاناسيس على الاستقالة بعد ذلك التلغراف الذى أرسلته اللجنة المركزية. وقد اعترف بالفعل أنه قام فى واقعتين على الأقل بإصدار فواتير خاصة بأطعمة ومشروبات، كان قد وفرها لبعض الحفلات بالنادى وحصل عن

طريقها على مكاسب كبيرة. أما أعضاء النادى، فلم يرغبوا، بسبب وضعهم الاجتماعى، فى نشر تفاصيل هذه القصة على الناس، واكتفوا فقط بالسخرية من تلك القصة الساخرة التى تشكك فى نزاهة ذلك "المناضل البرىء"، الذى لم يكن على الإطلاق "رب أسرة محترم" أو حتى "رجل أعمال مميز". أما عن تطورات الموضوع، فقد تسارعت الأحداث بعد "تلك الفضيحة الكبيرة " (ذكرها بالإيطالية)، التى تم اكتشافها فى ذلك الوقت وتتعلق بمضمار سباق الخيول بالإسكندرية والتى ارتبطت بدورات السباق والمراهنات التى تم التلاعب فيها، حتى وصلت القضية للعرض على المحاكم المختلطة. ومن بين المتهمين كان بيتروس ثيميستوكليس، الذى تمت تبرئة ساحته فيما بعد.

لقد دفع ثاناسيس ثمنًا لعلاقاته مع ذلك الفارس القبرصى السابق. ومنذ تولى بيتروس إدارة منزل مصطفى باشا، أطاح بنصف تجار الإسكندرية. وعندما تأكد ثاناسيس أن فاتورة الحساب الخاصة بالشمبانيا فرنسية الصنع التى كان يشتريها القبرصى منه كل فترة وصلت إلى أرقام خيالية، قرر أن يمسك بخناقه ويطالبه بما يدينه به، لكن الوقت كان قد تأخر. وكان هذا الشخص الذى يعد من أشباه الرجال قد علم بعشق تاجر الجملة اليونانى للخيول فأخذ يتلاعب به، وجعله ينزلق رويداً رويداً إلى خدعة الرهانات الممنوعة الكبرى.

كان بعض وكلاء السباق الفاسدين قد ابتدعوا بعد الحرب بوقت وجيز طريقة شيطانية للمراهنات المربحة فى المضمار الفرنسى لسباق الخيول. فى البداية كانوا يقومون بإغراء اللاعبين بالمكاسب السهلة حتى يكبلوهم بأصفاد الأسر النفسى والمادى لسنوات طويلة، الأمر الذى كان يؤدى بهم – ببطء ولكن بثبات – للإفلاس، ووفقًا لذلك فقد كان ثاناسيس محظوظًا، لأن بيتروس، الذى كان فى حاجة ماسة إلى "شريك" فى أعمال النصب، لم يتركه دون حماية. فكان يدس له سم إدمان المراهنة فى دم "بقال منطقة السيوف"، بأن يوزع عليه المكسب تارة والخسارة تارة أخرى من كل سباق، حتى يبقى على اهتمامه للأبد، ويحصنه مما يحدث للآخرين. وفى مضمار سباق الخيول بالإسكندرية فى فصل الصيف، تمامًا مثلما يحدث فى مضمار سباق الخيول بمصر

الجديدة فى الشتاء، كان ثاناسيس يضع فى جيبه نفس المبلغ الذى يخرجه من جيبه الآخر فى مضمار السباق العالمى، كانت تحوطه النساء الجميلات والرجال الأثرياء من كل جانب - أوربيون ومصريون - وكان محظوظًا بشكل خاص لأنه يستطيع إرضاء شغفه للعب وهو يراهن بجنيهاته على أفضل الخيول العربية. كان يبحث أحيانًا بين تلك الجميلات الأجنبيات والمصريات اللاتى يتألقن بلبس الماس والأحجار الكريمة والفراء، عن ذكرى وحيدة لحب قديم، مثلما رآها ذات مرة وهى تسير فى نادى سبورتنج. لكنه لم يرها بعد ذلك فى أى مكان آخر، فكان يضحك من نفسه ومن تلك الحالة الرومانسية التى يعيشها.

كانت تلك هى الذكرى الرومانسية الوحيدة التى يحتفظ بها بداخله. ومن ناحية أخرى، فقد أصبح نصير فينيزيلوس القديم عبداً للثروة، ولم يتردد فى أن يقبل بثيميستوكليس ناصحًا أمينًا له. فأصبح حديث السوق بما ارتكبه من سرقات عن طريق تزوير فواتير الشراب والطعام التى كان يقدمها فى كل الحفلات بالإسكندرية. ولكن يبدو أنه كان متمسكًا ببعض من كبريائه، ففى كل مرة كانت زوجته ماريا ترى ذلك"الأعرج" ـ كما كانت تسمى ثيميستوكليس ـ وهو يطأ بقدمه محلهم فى شارع باب سيدرا، تصرخ فى ثاناسيس، الذى لم يكن يحرك ساكنًا، فكان يطأطئ الرأس ويتقبل إهاناته بكلمات مثل: «أيها المخرف» ؛ حتى بدأ أولاده يشعرون بالشفقة عليه. وفى تلك الأثناء، كانت عجلة الثراء والإفلاس الأبدية مستمرة فى الدوران بالإسكندرية.

فى عام ١٩٢٤، تم الإعلان عن ترقية أندرياس سيستانيس وتوليه إدارة مصنع الدخان بمحرم بك. جاء القرار الذى تم توزيعه على الصحف على النحو التالى:

" منذ اليوم يتولى العضو المميز بالجالية اليونانية بالقاهرة أندرياس سيستانيس مهام المدير العام بمصنع سجائر أندونيس خاراميس، وبناءً على ذلك فقد اضطر للانتقال إلى الإسكندرية. والجالية اليونانية ترحب بابنها البار وتتمنى له نجاحًا باهرًا فى عمله الجديد".

كان سيناريو ترقية سيستانيس يدور منذ أعوام فى عقل أندونيس، فقد كان أندونيس على دراية بأن بقاء مثل هذا الشخص فى القاهرة يعد خسارة كبيرة له. كان يداوم على الاتصال به قائلاً: «أندرياس، جهز حقائبك اليوم، فاليوم أو غداً أو الشهر القادم سوف تأتى معى إلى الإسكندرية ». لكن يحدث دائمًا ما كان يؤجل ترقيته. وفى حقيقة الأمر، فقد كان هناك بالفعل ما يحدث، وكان أندونيس يتبع حدسه الذى كان يخبره دائماً بأن الوقت لم يحن بعد، إلا أن الأحداث أنصفته فى النهاية.

فى خريف عام ١٩٢٤، رفض الإنجليز- كما كان منتظراً- تجديد العقد الذى ينص على إمداد الجيش الإنجليزى بالسجائر، زاعمين أن هناك تغيراً فى جودة السجائر، وتأخيراً غير مبرر فى التسليم. ولم يكن أندونيس يعلم عن ذلك شيئًا. وفى الحقيقة، كان أندونيس ينظر إلى التزامه مع الجيش الإنجليزى على أنه علاقة مراهقة كان لابد لها أن تنتهى فى يوم من الأيام. فمنذ فترة من الزمن فكر أندونيس أن إنتاج سجائر رخيصة من أجل الجنود سوف يشوه صورة السجائر التى ينتجها مصنعه. ودائمًا ما كان يحكى عن ذلك المشهد الذى رآه بنفسه فى إحدى الحفلات فى منزل من منازل الحى اليونانى، حيث رفض القنصل البريطانى أن يشعل سيجارة من ماركة خاراميس المشهورة، معلنًا: «إنكم لا تنتظرون منى بالطبع أن أضع فى فمى سيجارة يدخنها جنودى». كان يتشوق للعودة إلى ذلك العصر الجميل عندما كان اسم خاراميس مرتبطًا بالجودة. لقد استطاع طوال عشر سنوات أن يقوم بإمداد معسكرات الجيش الإنجليزى بمصر والشرق الأوسط بالسجائر. وفى واقع الأمر، لم تستأثر شركة واحدة فقط بمنصب الموزع الأساسى للسجائر، ولكن كان هناك ثلاث من كبرى الشركات اليونانية فى صناعة الدخان بمصر تقوم بالتوزيع، وكان ذلك بمثابة تأكيد آخر على صعوبة هذه المهمة. أراد أندونيس أن لا يلقى بالاً بعد ذلك لهذه الحقبة الزمنية. وكان يبحث فى الوقت نفسه عن حلول لكى لا يضطر لفصل عدد من العمال فى مصنعه الجديد، ومن أجل ذلك كان يخطط لفتح أسواق جديدة فى أوربا والشرق، حتى يتمكن من تعويض مكاسبه الثابتة التى كان يحصل عليها سنويًا من تموين الجيش الإنجليزى بالسجائر؛ حتى جاءته تلك المكالمة الهاتفية الغريبة من سيستانيس

الذى طلب حضوره على عجل إلى العاصمة قائلاً: «يا سيد خاراميس، ينبغى أن تحضر صباح غد إلى القاهرة، وسوف تكتشف حدوث أمور طيبة ومعجزات!».

وبطريقة غريبة ذكرته رحلته إلى القاهرة بتلك الرحلة التى قام بها قبل عشرة أعوام من أجل توقيع العقد مع الإنجليز، وعلى الرغم من أن سيستانيس هو من سينتظره فى محطة القطار، دون أن يصحبه إلياس - مثلما حدث فى الرحلة السابقة- فإنه لم يصطحب معه ميخيليس، رفيقه فى الرحلة السابقة. ومن ناحية أخرى، فقد استقبله نفس الجحيم الموجود فى محطة القطار بالعاصمة - القاهرة التى لا تتغير - كما أحس بجو الحرب الذى تسبب فيه مقتل السردار - السير لى ستاك - الذى قتل على يد أحد المواطنين المصريين.

تابعت سيارة سيستانيس نفس الطريق بمحاذاة النيل. إنها القاهرة، التى تعج بالمساجد والمآذن والمبانى العالية وبالقصور والحدائق التى يحوطها تلال الرمال الصفراء مما يصعب الرؤية فيها بسبب جوها الحار، يا له من منظر. أخذ أندونيس يشرح له خططه بخصوص ماركة السجائر الجديدة، وكان أندرياس يستمع إليه صامتًا، بملامح جادة وكأنه يجلس فى حداد. وعندما أدرك أندونيس أنهما قد وصلا إلى القاهرة القديمة قال:

«أستحلفك بالله يا أندرياس، هل أتيت بى إلى هنا لكى نذهب إلى السوق؟».

أندرياس: «لابد أن تلتقى شخصًا ما، يا سيد خاراميس، ينبغى أن تسمع وترى بنفسك، إنها أمور لن تصدقها».

أندونيس: «ماذا أقول لك إذن، هيا بنا وأرجو أن يكون لديك سبب قوى لكل ذلك».

دخلت السيارة فى حوارٍ وطرق ضيقة غير ممهدة وقذرة، وبدأت تصل إلى أسماع أندونيس الأصوات الصادرة من الأسواق، وتسللت إلى أنفه الروائح المنبعثة من التوابل والفاكهة الطازجة، من السودانى واللب، من الفول، من البصل، من الخبز لدى البائعين. صف طويل من الجلاليب والطرابيش ترقص جميعها أمام عينيه. وفى تلك

اللحظة وصلوا إلى أطراف السوق، عن يمينهم تمتد أزقة ملتوية ومظلمة بما فيها من تجار للبشر، في تلك البقعة من الأرض اجتمع هؤلاء الناس ليبيعوا أرواحهم للشيطان في كل يوم. كما تنتشر الأرفف الخشبية في كل مكان يعرض عليها الباعة بضاعتهم، والتي تحمل فوقها "برتقال، بلح، رمان، ليمون" (ذكرها جميعها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) هكذا كان بائع الفاكهة المصري ينادي على بضاعته، وكان أندونيس يرددها خلفه باللغة اليونانية الواحدة تلو الأخرى. وإلى جانب الفاكهة الطازجة، هناك أيضًا معروضات أخرى على ظهر البغال: مثل الحلوى والحقائب والمصنوعات الخشبية والسجاد والأوعية الملونة. وأخيرًا المصاصات (لولي بوب). من هذا المكان تنبعث أيضًا الروائح القوية والنفاذة للأطعمة ودهانات الشعر وأيضًا رائحة الأفيون (الذي يستخدم بوصفه علاجًا مسكنًا للألم) كان هناك من يستلقون على الأرصفة وهم يأكلون بنهم البلح والليمون السكري، والرمان والموز وأعواد القصب. عيون هائمة، نصف مفتوحة بنظرتها التائهة التي تبدو وكأنها تنظر لشيء آخر غير هذا الزحام. في نفس الوقت كان أحد الصبية قد تسلق موطئ باب السيارة وبدأ يعرض عليهم - وهو يشير بكف يده التي فتحها على شكل زهرة - الاستمتاع بممارسة الجنس مع امرأة جميلة مقابل خمسة قروش، وبسبب تجاهلهم له بدأ يغلق إصبعًا تلو الآخر لتقليل المبلغ، وفي النهاية قفز من السيارة محبطًا. أما السبرسجي الذي يجمع أعقاب السجائر من أجل بيع ما تحتويه من تبغ إلى المصانع فقد ذكره بنفسه منذ سنوات عديدة مضت، وهناك أيضًا ذلك المتسول بثيابه الرثة الذي نظر إلى أندونيس نظرة مليئة بالتوسل، والفلاحات ربات البيوت اللاتي يحملن أطفالهن على أكتافهن ويسرن متمايلات في الشوارع. كانت هناك لحظات اختلط فيها المشاه بالدراجات والسيارات وتحولوا إلى كتلة واحدة على الطريق غير الممهد، بينما كانت شمس الظهيرة تلفح وجوه المارة. بدأ أندونيس يتململ وأخذ يضرب الأرض بحذائه بطريقة عصبية. هل كان من الضروري أن يمر بكل هذه التجربة؟ «كدنا نصل!» قالها سيستانيس، ولم تمر سوى دقيقة واحدة، حتى توقفت السيارة فجأة أمام مقهى بلدي قديم. مصابيح قذرة معلقة على أعمدة بيضاء حوائط متسخة وأبواب متهالكة. استقبلهما رجال سمر البشرة بابتسامات عذبة مرسومة على

وجوههم القاسية. كان بعضهم يدخن الشيشة أو الجوزة، والبعض الآخر يحتسى "البوظة" (ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية)، وآخرون يلعبون الورق بأوراق كوتشينة قذرة وممزقة. البعض يتحدث بصوت منخفض وآخرون يتحدثون بصوت صاخب وكأنهم يتشاجرون، يكثرون الإشارة بأيديهم أثناء حديثهم، ويبصقون بشكل مستمر على الأرض. فى حين كان الرجل الذى ينتظرهم يجلس صامتًا فى أحد أركان المقهى، وكان يدخن الشيشة وعندما رآهما، انتفض من مكانه وبدأ يتظاهر بأنه ينفض الغبار عن مقعدين اختارهما لضيوفه. كانت ملابسه الأفرنجية تلمع فى ضوء الشمس، ويضع فوق رأسه طربوشًا داكن بلون الدم. استقبلهما بانحناءة إحترام وصاح معنفًا القهوجى بكلمات بذيئة باللغة العربية، لأنه تجرأ وأراد تقديم شىء من مشروباته القذرة لهذين السيدين.

«هذا هو كامل» قالها سيستانيس إلى مديره باللغة العربية، ثم أضاف: «إنه الذراع اليمنى للإنجليز، الرجل الذى يستطيع عمل أى شىء».

انحنى كامل مرة أخرى وهو يلقى التحية على أندونيس قائلاً (بالعربية): «سلام».

«لا يفعل كامل أى شىء طوال اليوم سوى إنهاء الأوراق من مصلحة حكومية إلى مصلحة حكومية أخرى» هكذا أوضح سيستانيس لخاراميس.

كان كامل المصرى يفهم سيستانيس وهو يتحدث باليونانية، لكنه لا يستطيع أن يتحدث بها، ولذلك كان يهز رأسه مبتسمًا تعبيرًا عن رضاه بما يسمع. وهو رجل ضئيل الحجم أسمر اللون، زادت الشمس الحارقة من سمرة بشرته، وكانت ابتسامته تكشف عن تجاعيد وجهه الداكن والتى تشبه الشقوق.

«كامل، أريدك أن تقدم للسيد خاراميس الأوراق التى أظهرتها لى من قبل» هكذا وجه سيستانيس حديثه لكامل، فما كان منه إلا أن دس يده فى جيب بذلته الداخلى وأخرج حفنة من الأوراق المثنية بعناية وقدمها لأندونيس.

تلقى أندونيس الأوراق بيديه بحرص شديد، وكأنه يظهر احترامه لقيمة تلك الأوراق، ولكن فجأة تغير لون وجهه ألف مرة، عندما بدأ فى الاطلاع على الأوراق الواحدة تلو الأخرى، ويقرأ كل تلك الأرقام والأسماء والإمضاءات. ثم صاح أندونيس فى النهاية بطريقة عصبية قائلاً:

«لكن ما كل هذا؟».

- «إنها عروض أسعار، يا سيد خاراميس، عروض أسعار مزورة قدمها منافسوك للإنجليز حتى يستطيعوا انتزاع اللقمة من فمك!» هكذا أوضح له سيستانيس بهدوء.

- «نعم، لكن الأوراق مزيلة بتوقيعات تؤكد صحة هذه المعلومات الكاذبة، توقيعات لأشخاص معروفين».

- «هل أنت متأكد من أنها توقيعاتهم؟» .

- «بالقطع، ها هو. توقيع يورغاس!» قال ذلك وهو يطرق الورق بظهر يده، ثم استطرد قائلاً: «وهذا توقيع ستراتيس ميخيليس! أقطع ذراعى بأنه توقيعه».

- «عظيم، فقد شاهدهم كامل أكثر من مرة يدخلون ويخرجون من مكاتب الإنجليز فى صحبة منافسيك» .

- «هذا يعنى أن......».

- «بالضبط!».

- «آه، الكلاب......» قال ذلك وقد استشاط غضبًا، ثم أردف قائلاً:

«ولم أتركهم فى المنصورة وفى طنطا حتى يتعفنوا».

ثم ضرب أندونيس جبهته بيده، وألقى بحفنة الأوراق على المائدة المعدنية بالمقهى. فخلال دقيقة واحدة فقد ما هو أكبر بكثير من عمله مع الجيش الإنجليزى، فقد ثقته فى الناس. وأصبح كل من حوله فجأة بمثابة تهديد له. امتلأ المقهى القديم بهمسات

الجالسين وغمزاتهم. ومن يضمن أن هذين الاثنين اللذين كشفا له الخونة ليسا على استعداد لطعنه في ظهره في وقت لاحق؟ كل هذه البشاعة الموجودة في باطن الناس الناس وفي ظاهرهم جعلته يشعر بالاشمئزاز. أراد أن يرحل، أن يرحل منذ زمن. وعندما بدأ كامل يتحدث مع شخص حسن المظهر طويل القامة بالفرنسية المخلوطة بالعربية، اتجه تفكيره نحو إلياس. وعلى غير عادته فرك شفتيه بيده واستدار منهمكًا تجاه سيستانيس وقال له:

«ألا تظن أن هذا يكفي لهذا اليوم، يا أندرياس. يكفي هذا! فلنذهب إذن».

بصعوبة تمكن سيستانيس من إخفاء سعادته واكتفى بتحية مصدر معلوماته بكلمة " تمام" (قالها بالعربية ودونها بحروف يونانية)، واضعًا على قدمه حفنة من الجنيهات، ثم جرى خلف خاراميس، الذي كان يتعجل ركوب السيارة. ويبدو أن سيستانيس لم يدرك مدى الضرر الذي أحدثه رغمًا عنه لرئيسه في العمل، لأنه لم يكتف بذلك، فقد استمر في طريق العودة بإمطاره بوابل من الأخبار السيئة:

«اعلم أيضًا أن منافسيك قد قرروا أن يدخلوك في صراع معهم لتدميرك، أتعرف أنه منذ زمن طويل أن هؤلاء الناس يتحدثون إلى التجار في القاهرة الواحد تلو الآخر حتى لا يشتروا السجائر من مصنعنا؟ وقد نشروا أخبارًا كاذبة بأن مصنعنا على وشك أن يغلق أبوابه. لقد أخبروني أيضًا بذلك. والآن أنا مضطر للذهاب إلى التجار بنفسي لتهدئة مخاوفهم. وسوف أرسل أناسًا تابعين لي لإنقاذ الموقف، لأنهم لن يتركوا مدينة ولا قرية في مصر إلا ونشروا سمومهم فيها».

- «فلتفعل ذلك، يا أندرياس، ولا تدعهم يغرقوننا بأكاذيبهم» قال ذلك، وهو يشعر بالعجز عن السيطرة على مجريات الأمور، وكأن اكتشاف المناقصات المزورة كان بمثابة الطعنة التي سيحتاج لوقت طويل للشفاء منها.

- «لا تشغل بالك، يا سيد خاراميس. كل هؤلاء الكاذبين لهم أرجل طويلة وأنا أعرف كيف أقطع لهم أرجلهم تمامًا» .

كان أندونيس متعجلاً حتى يعود للإسكندرية وقد نفد صبه، ليتأكد على الأقل من أن كل شيء مازال كما هو، ولكى يلقى بنفسه فى أحضان عشيقته، حتى يستعيد كل ما يحتاجه من قوة تمكنه بحرص من تنفيذ انتقامه من أعدائه.

* * * * *

لم يعد التغيير سوى خطوة واحدة عما كنا نتخيله، وربما كان الإحساس بالعظمة الذى قد ينتج عن تلك القفزة الذكية لشخص فاسد هو شعور كاذب بالمتعة التى من خلالها لا يكون الضمير الفاسد على استعداد للتخلى عنها . لكل من يرفضون ذلك لم يكن هناك ما يمكن قوله سوى: «لقد أدركتم شيئًا لا تستطيعون أن تدركوه، وجعلتم من شهواتى بوابة رئيسية».

لقد تعرف كوستيس فى برلين فى العشرينيات من هذا القرن على مدينة الرغبات، تلك البوتقة العجيبة للرغبات الشخصية والإيقاعات المختلفة: هناك حيث كانت موسيقى شينمبرج تسيل فوق جسد أفروديت داكن البشرة، تتراقص عليها راقصة التعرى جوزيفين بيكر، حيث كانت موسيقى الجاز مثل فوران الشمبانيا الرخيصة فى الكباريهات سيئة السمعة، وأسىء توظيف أساسيات هندسة باوهاوس المعمارية وواقعية جروس وديكس الجديدة، فى حين كان أخلاقيات الجنس تجرى كالخيول الجامحة فى الشوارع والطرقات، فى بيوت البغاء للرجال والنساء، حتى يحدث تزاوج بين الخيال المكبوت وبين تلك الصور المشوهة.

كان كوستيس يتحدث أخيرًا عن الانفصام فى الشخصية الأخلاقية الذى تُصَدره مدينة برلين للناس، من خلال تحليل الأشكال الحديثة فى الرسم، التى تعتمد على النكات المسفة التى تلقى فى الكباريهات على أنغام آلة الساكسوفون. «هناك، حيث يستطيع أى شخص غريب الأطوار أن يحول حلمه إلى حقيقة» هكذا كان كوستيس يحدث نفسه، وأضاف: «تخيلوا أنه قبل رحيلى عن برلين بوقت قليل كان هناك مائة وسبعون بيتًا لممارسة الرذيلة بين الرجال يعملون بتصريح من الشرطة. وربما كان

العدد أكبر من ذلك بكثير. وفى بعض الكباريهات، مثل كباريه " إلدورادو" (قالها بالفرنسية) الشهير، فى " شارع مودز"(ذكرها بالألمانية)، كان من الصعب العثور على فتاة واحدة ممن يرفهن عن الزبائن فى حالة صحية سليمة. كانت برلين فى "العشرينيات "(قالها بالفرنسية) لا تعدو كونها مدينة شاذة».

وفى ليالى الربيع لعام ١٩٢٤، عندما كان كوستيس يقف مع ماخوس أمام المرآة وهو يهندم له ملابسه، لم يكن يفكر بنفس الطريقة. كانت برلين فى ذلك الحين لا تزال المدينة التى استيقظت فى التو من شبح ما بعد الحرب ثم استسلمت بطريقة لا يصدقها عقل للهذيان والمرح. وكان جمال ماخوس الأخاذ الذى يشبه الإغريق القدماء قد سحر الجميع فى المدينة، وعلى الرغم من غيرته التى لم تتوقف، كان كوستيس يسعد عندما يعرف من أصدقاء مختلفين أنهم قد شاهدوا فى ليلة سابقة أخاه ماخوس وهو يتناول طعام العشاء فى أحد المطاعم الراقية بمصاحبة إحدى الفاتنات، أو أنه كان يسير فى الأسبوع الماضى متأبطًا ذراع فتاة حسناء حمراء الشعر أثناء خروجهم من إحدى محطات مترو الأنفاق فى "ميدان بوتستامر" (ذكرها بالألمانية). ولذلك كان فى كل مرة يضبط له رابطة عنقه أو يضع له المنديل فى جيب بذلته، ويتفحص شعره المصفف وهو يداعبه برقه، كان كوستيس يسأله بصفته أخاه الأكبر قائلاً :

«أين تذهب الليلة، يا صغيرى؟».

كانت ابتسامة ماخوس تقول كل شىء، مما يجعل كوستيس يضيف فى كل مرة قائلاً:

«كل نساء برلين لقمة سائغة بين يديك. ولكن لا تنس أن تخبرهن أن أخاك كوستيس هو "أمير برلين"».

ولم يكن كوستيس يكذب فى ذلك، فهذا اللقب الذى استمر كوستيس يحمله بكل فخر لعدة سنوات، يعد بمثابة منزلة شرفية كان كوستيس قد اكتسبها فى فترة التضخم، عندما كانت المدينة كلها راكعة تحت قدميه.

كان يشير إلى برلين فى العشرينيات قائلاً "إنها مدينتى"، وكان يؤمن دائمًا بأن عاصمة الجنس والحفلات التى لا تنتهى لياليها الخالدة كلها تؤول إليه، كما يؤول منزل

أو سيارة لشخص ما؛ لأن برلين فى تلك الحقبة لم تكن فى الحقيقة مجرد مبانٍ وميادين وشوارع، ولكن كانت بحرا من الخبرة، عطرًا ينساب سريع الزوال احتفظ به حتى نهاية هذا العقد من الزمن ، حتى أدرك أن الوقت قد حان ليقول "وداعًا برلين!". ولكن حتى ذلك الحين، كان قد ارتشف بنهم من متعها دون توقف، كان يقهر كل عشيقة له بمبدأ أنه "السيد العظيم" كما يقولون، سواء حدث ذلك فى برج لفتاة أرستقراطية أو حتى فى أسفل سافلين مع فتاة شعبية كانت قد وهبت له روحها وجسدها فى مقابل ماركات قليلة. وهكذا كانت كل نساء هذه المدينة طوع يمينه.عندما فكر فى اقتسام بعض هؤلاء النساء مع أخيه ماخوس، جاءت تلك الليلة السوداء فى يوم العشرين من مايو، وعندئذ تهدم كل ما بناه فى مخيلته مرة واحدة. فى تلك الليلة، تم نقل أخيه على عجل إلى مستشفى برلين وهو يعانى نزيفًا حادًا فى عضوه الذكرى، فى البداية تحدث الأطباء عن نزيف المستقيم، وأن عملية جراحية بسيطة وعاجلة كفيلة بعلاج هذا المكان، ولكن عندما بدأت العملية الجراحية ظهرت معطيات جديدة فى التشخيص الأولى، وهى كالتالى: «تهتك شديد فى فتحة الشرج بعد دخول جسم غريب بعنف فيها». وكان هذا التشخيص الذى لا يشوبه أدنى شك بمثابة الانهيار الذى أسفر عن اكتشاف أسرار جديدة.

ويبدو أن أندونيس الصغير قرر أن يتخلى لبعض الوقت عن ضحايا فتنته، تلك النساء الجميلات اللاتى لم تكن كافيات لإرضاء رغبته النرجسية، وقرر أن يذهب إلى حيث يمكن أن يلقى بجسده فوق من يشتهيه من الرجال. لم يكن يريد أن يُعجب بأحد لكن أن يكون هو مثار إعجاب الآخرين، لم يكن يريد أن يكون عاشقًا؛ ولكن أن يكون هو المعشوق. ولهذا السبب كان إعجاب النساء به شيئًا يزعجه بشكل لا يوصف. ولم يكن غرور هذا الرجل الجميل يسمح له، بالطبع، بالاختلاط بتلك الفتيات الجميلات، ولذلك فقد ثارت تلك النرجسية المتأججة بداخله ضد السلطة المتحكمة للنساء، وجعله شيطانه يفقد دائمًا مشاعره الطبيعية باعتباره رجلاً. وعندئذ لم يقع فقط ضحية لعشق نفسه، لكنه تسلل إلى المرآة التى كان يرى فيها نفسه لكى يشوه ذاته باختياراته الجامحة. كان يعبر إلى ذلك الجانب المظلم، وبدأ يغير قدر المستطاع من طبيعته والتلذذ بقدرته ليس فقط على التشبه بالنساء، ولكن على أن يتحول هو نفسه إلى واحدة من هؤلاء

المخلوقات المتكبرة. فبسبب هذا الجمال الذى لا يقهر كان باستطاعته أن يصبح رجلاً وامرأة، إلهًا إغريقيًا مخنثًا، إلهًا للعشق الجديد الذى كانت تفاصيل جسده الكاملة تفوق كل تصور. ولكن لكى ينتهى به المطاف فى المستشفى بهذه الحالة، فيبدو أن البعض لم يستطيعوا مشاركته فى هذا الرأى، إلى أن آل به المصير أن يستلقى فى المستشفى وهو فى هذه الحالة، بعد أن تم الاعتداء عليه فجأة وبطريقة وحشية فى أحد بيوت ممارسة الرذيلة للرجال فى برلين ما بعد الحرب وكأنها "سدوم"[١٤] الجديدة – أى مدينة قوم عاد. أما الآن فيرقد الشاب الجميل – شبيه آلهة اليونان – فى غرفة باردة منعزلة، محاولاً تجرع مرارة الخجل التى سببها له اكتشاف الآخرين "لحياته المزدوجة".

لوهلة من الزمن ظن كوستيس أن ما ينظر إليه ما هو إلا تمثال من الشمع يرقد تحت الملاءات البيضاء. حاول ماخوس الذى يتألم وهو شبه غائب عن الوعى من تأثير المخدر أن يقول شيئًا، ولكن كوستيس لم يسمح له بذلك، ثم مسح على رأسه وقال: «الأمر ليس خطيراً، يا عزيزى ماخوس، مجرد ألم بسيط. لكن الآن كل شىء على ما يرام، بعد ذلك ينبغى عليك أن تنتبه لما تأكله، وكل الأمور ستسير سيرًا حسنًا. لا تقلق فاخوك هنا بجوارك وسيظل بجانبك دائمًا».

كانت لدى كوستيس الرغبة فى البكاء لم يعرف لها سببًا، فقد اختفى من أمامه أخوك ماخوس شبيه أدونيس فى الجمال، وعادت أمامه صورة الطفل الصغير ماخوس وهو يرتدى الشورت وتقوم أمه بهدهدته وهو جالس على قدميها، رفيق سنوات طفولته. وعلى الرغم من إدراكه بزيف ذلك الشعور بالغيرة الذى كان قد انتابه فى يوم من الأيام وعدم وجوده، فإنه بات يشعر بأنه قد تخلص للأبد من تلك المنافسة بينه وبين أخيه، فلم يعد لديه ما يغار منه بسبب هذا الشاب الجميل الذى خارت قواه. لقد فرقتهم قناعاتهما المختلفة والآن جمعتهم من جديد النهاية غير السعيدة لتلك الرغبة المحرمة.

* * * * *

(١٤) سدوم: مدينة بفلسطين القديمة دمرها الله لانغماسها فى الرذيلة والفساد. (المراجع).

عندما غادر كوستيس برلين فى بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، كان لديه شعور بأنه لم يعرف هذه المدينة أبدًا ما عدا تلك السنوات الأولى منها، فلم يجد الوقت لكى يتعايش بشكل عملى مع هذه المدينة. لم يعر إيقاع الحياة اليومية اهتمامًا، لم يضطر فى يوم من الأيام للنوم فى إحدى الغرف التى كان يوفرها الكثيرون من أهل برلين المعدمين فى منازلهم للشباب الأعزب، من أجل الحصول على المال ودعم دخولهم الهزيلة ودفع ما عليهم من ديون. لم يعرف معنى أن يعيش المرء فى شقة ضيقة، وأن يختنق برائحة البطاطس والزبدة الرخيصة. لم يتقوقع داخل حدود الإفطار الألمانى المقدس؛ فنجان من القهوة وقطعة من الخبز ونقطة من الزبد. وبالطبع لم يضطر ليلاً للقفز فوق أجساد الناس النائمين للذهاب إلى دورة المياه لقضاء حاجته، أو أن يجد فوق رأسه ربة ذلك المنزل وهى تعنفه لاستيقاظة فى تلك الساعة المتأخرة من الليل .

منذ ذلك الوقت الذى انتشر فيه التضخم، كان كوستيس يحتفظ لنفسه بالجناح الذى يقيم فيه فى أكبر فنادق المدينة، وبخاصة فى فندق " قيصر" طالما كان من المستحيل "لأمير برلين" أن يقبل بمستوى أقل من ذلك. وبعد عدة سنوات قرر أن يكرس حياته لكل المتع والأمور المبالغ فيها، محولاً حياته إلى سهر دائم ، مستمتعًا بكل لحظة جميلة تقدمها له برلين مع بداية كل صباح ـ مثل تناول الآيس كريم اللذيذ فى أحد المقاهى الموجودة بجوار حديقة الحيوان أو التنزه فى حديقة تيرجارتين. وأكثر ما كان يفعله هو محاولة السير بتمهل وأناة فى طريق كور فيستردام المليء بالفنادق الراقية والمعارض والمطاعم، وكان يصل فى أغلب الأحيان "كافيه كرانسلر"(دوَّنها بالألمانية) التى كان يتطلع من شرفتها إلى المارة.

وفى الإسكندرية عندما كان صغيرًا، كان شوقه لأن يستمع إلى نبض المدينة التى ولد بها يدفعه للقيام بأمور لا يصدقها عقل بالنسبة لغرٍّ أرستقراطى مثله. أما الآن وهو حر وحيد فى مدينة أوربية، يشعر بالفتور للتعرف على الحياة اليومية بها. كان يتمنى فى العديد من المرات لو أن نيكيتاس كان بصحبته، لحرص طوال تلك السنوات على التعرف على كل تفاصيل جسد تلك المدينة الرمادية وحفظها عن ظهر قلب، لكنه ليس

نيكيتاس. ما زال بداخله مواطن عالمي ذو طابع راق، لم يتأثر بعد بما يتأثر به العامة. ربما كان يفضل مراقبتها من بعيد، كان يبتسم للأطفال الذين كانوا يبكون في الطرقات، ويقوم بتشجيع الشباب من العامة الذين يرتدون البلوفرات الصوفية ، وهم يجوبون الشوارع بدرجاتهم ويعاكسون الفتيات، كان يحيي بائعي الآيس كريم بعرباتهم وهم يخرجون للشوارع كل ربيع بعد فترة بيات شتوي، وفي بعض الأحيان كان يشتري منهم الآيس كريم، ودائما ما يترك لهم الباقي من النقود. نفس الشيء كان يفعله مع بائعي الصحف، على الرغم من أنه لم يكن يقرأ الجرائد والمجلات التي يشتريها منهم، وكان دائمًا ما يتعجل للتخلص منها. لم يهتم أبدًا بتفحص جريدة ألمانية، أو أن يغوص داخل أعماق الحياة في برلين. أما أصدقاؤه من بين كل هؤلاء الفقراء الذين جمعهم في "عالمه" فربما كانوا هم الرابط الوحيد الذي يربطه بالحياة. وفي الوقت نفسه كان حريصًا على تحليل شخصياتهم: فهناك كارل، ذلك الفظ الذي كان على وشك التخلي عن معتقداته وكفاحه عندما استسلم قليلاً لترف حياة الليل وفسادها في برلين. وماكس الرسام الذي أصبح يومًا بعد يوم كسولاً يستغل الكرم البالغ للشاب السكندري، وهو يرسم بريشته بما يشعر به من مخاوف أكثر من إضفائه لإبداعاته. حتى الحسناوات الثلاث اللاتي تعرف إليهن فقد تحولن إلى أدوات للجنس، أشباحًا لمدينة بلا مستقبل. الوحيد الذي أظهر مقاومة كبيرة كان ذلك اليهودي الفقير، الذي بقي محبوسًا في البدروم من شدة خوفه ومن الجوع أو من كليهما معًا. كان كوستيس ينظر إلى حياته وكأنها ستارة داخل كباريه تخبئ له كل ليلة مفاجأة رخيصة. وكان مرتبطًا بتلك المائدة في محل (Bon Viveur) "أو المنغمس في ملذات الحياة"، وبزجاجته التي لا تفرغ أبدًا، وكان يستمتع وهو مخمور بما يقدمونه من عروض وبالموسيقى التي كانت بمثابة جواز سفره الوحيد في هذه المدينة المجنونة. أما بالنسبة لدراسته فلا شيء، لأنه كان يعتبر أن معمل المعرفة الوحيد بالنسبة له هو المقهى الفني الموجود بجوار الكاتدرائية، حيث كان اليهود واليساريون المفكرون يدخلون في مناقشات أدبية رائعة. وفي بعض الأحيان، كان يبحث عن نسمة منعشة يتنسمها في أماكن أخرى مثل قهوة رومانس أو قهوة يوستي، وليس أكثر من ذلك.

لم يتمكن كوستيس من التعامل مع الشعب بجدية، ذلك الشعب الذى كان يعانى من أعباء الحياة فينتفض بين الحين والآخر، وينطلق فى الشوارع فى مظاهرات حاملاً رايات ملونة، لم يهتم فى يوم من الأيام بأولئك النازيين الصاعدين الذين نبتوا فجأة فى حياة المفكرين ببرلين، وبدأوا فى الانتشار بسرعة عجيبة، مستنزفين كل طاقة سياسية، ومعبرين عن كل ما يثير غضبهم وكل ما يرون أنه يثير اعتراضهم. كانت مسيراتهم تذكره بمسيرات الكشافة بالإسكندرية، بدون أحداث العنف والضرب التى كانوا يقومون بها، كل هؤلاء الذين يشبهون الممثلين المسرحيين برمزهم الذى يشبه الصليب المعقوف وطريقتهم فى التحية لم تكن أكثر من لعب أطفال، عرض من عروض العرائس المتحركة. كيف ينظر بجدية، على سبيل المثال، لهذا الرجل القصير المريب الذى كان يقطع بإزعاجة عرض فيلم " لا شىء جديد من الجبهة الغربية " (حيث كان كوستيس فى ذلك الحين فى باريس، إلا أنه استطاع أن يتخيل المشهد الذى وصفه له كارل فى أحد خطاباته)، مما جعل بعض الصبية يلقون بحبات الطماطم على الشاشة ويطلقون الفئران فى قاعة العرض بإحدى دور السينما. أما ذلك القزم فلم يكن شخصاً آخر سوى جوزيف جايبيلس.

* * * * *

كان أندونيس بحاجة ماسة للعودة إلى الإسكندرية، وأن يلقى بنفسه على مقعد مكتبه فى صباح اليوم التالى، لكى يشعر بأنه مازال أندونيس العظيم. استند مستريحاً على ظهر المقعد وتفحص المكان الواسع الذى يعمل فيه كل يوم. وحيثما أدار يدير عينيه، كان يرى أمامه ما يبرهن على قوته. لم يسمح لسكرتيرته فوليا أن تغلق الستائر الثقيلة وتحرمه من ضوء الشمس، وبدأ الضوء فى رسم مربعات ضخمة على الأرض، مما كان يسبب له الضيق بعض الشئ. فقد كان يخاف الأماكن المظلمة منذ أن كان صبياً صغيراً. أما الشمس فقد كانت سخية وطوع بنانه، وكأنها تطارد أشباح الحزن وتنير له الجزء المظلم من روحه. فقليل من الضوء كان يكفيه لإعادة تفاؤله بالمستقبل.

وبعد أن قام بجمع الأوراق المبعثرة فوق المكتب، فتح علبة السجائر، وأخذ منها سيجارتين ووضعهما بحرص في منتصف المكتب، وقال في نفسه «يورغاس ميخيليس»، ثم فكر قليلاً وأطلق زفيراً بهدوء تجاه السيجارتين ونظر إليهما وهما تجريان فوق سطح المكتب الخشبى داكن اللون، وعندئذ ارتسمت على شفتيه ابتسامة النصر.

طلب أندونيس استدعاء يورغاس الذى حضر على الفور، وكأنه كان ينتظر طوال ذلك الوقت خلف الباب. لم يكلف نفسه أبداً من قبل أن يخلع الأكمام التى يرتديها فوق قميصه، كما لو كان يريد دائماً أن يذكر أندونيس بمدى جديته فى العمل.

أندونيس: «مرحباً بك يا يورغوس» قالها بصوت مرتفع، فأثارت حدته المحاسب، بعض الشىء، ثم استطرد قائلاً: «اجلس هنا، لا تظل واقفاً» وأشار إليه، حتى قبل أن يغلق الباب.

يورغوس: «هل حدث شDV، يا أندونيس؟» هكذا سأله بقلق.

- «كلا، وماذا يمكن أن يحدث؟».

- «لا أعرف، أنا فقط أسأل».

- «وأنا أجبتك، حسناً؟ هل تعرف ما الذى كان يجول بخاطرى فى الأيام الماضية، يا يورغوس؟» أكمل أندونيس حديثه بنفس الطريقة المتكبرة.

- «ماذا.....؟».

- «كنت أحاول أن أتذكر كم مضى من الوقت منذ أن تحدثنا أنا وأنت باعتبارنا أصدقاء فى هذا المكتب؟» .

- «كم من الوقت؟» سأله يورغوس وهو يمد حمالات سرواله.

- «مر وقت طويل، يا يورغوس، نحو عشر سنوات، منذ حادثة التاج الملكى على بوابة المصنع، أثناء زيارة فينيزيلوس».

– «لم أفكر فى ذلك، ولكن طالما أنت من يقول ذلك، فلابد أن يكون الأمر كذلك» .

– «نعم، هذا ما أقوله لك، ومن بعدها رحلت أنت لمدة عامين، وعندما عدت كانت وظيفتك فى انتظارك، أليس كذلك؟».

– «ليس لدى أدنى اعتراض».

– «من الذى تكلم عن اعتراض؟ نحن هنا نقول إنه قد مرت عشر سنوات، دون أن نجلس مثلما نفعل الآن ونتكلم. حقيقة، لم تخبرنى أبداً كيف مر عليك العامان اللذان كنت فيهما غائباً».

– «عامان ونصف العام، بل كادوا أن يصبحوا ثلاثة، يا أندونيس» .

– «حسناً، لن نضيِّع وقتنا فى العد، لابد وأنها كانت سنوات صعبة بعيداً عن الإسكندرية وبعيداً عن عائلتك».

– «أكثر مما تتصور».

– «صديقى العزيز، أريدك أن تعرف أن كل ما فعلت وقتها قد فعلته من أجل مصلحتك. لم تكن لدى النية لعقابك».

– «لقد شرحت لى ذلك فى حينه، وقد فهمت مقصدك».

– «وأتذكر كيف أنك وميخيليس دفعتما ثمن الصراع بين أنصار الملك وأنصار فينيزيلوس، وكنت ألوم نفسى لأنكما من رجالى المخلصين، وكان لزاماً علىَّ أن أحميكما» .

– «لم يكن بوسعك شىء، يا أندونيس».

– «أتعتقد ذلك حقاً، يا يورغوس؟».

– «بالطبع أعتقد ذلك».

- «أوف! لا تعرف مقدار الراحة التى أشعر بها لسماعى ذلك منك. كما أشعر بالأمان لمعرفتى أنك لا تكن لى أية ضغينة».

- «أستحلفك بالله، أتعتقد أنه كان بإمكانى التفكير فى إيذائك؟».

- «لم أقل إنه كان بإمكانك إيذائى، وفى حقيقة الأمر، هل تعتقد أنك فى وضعك هذا يمكنك أن تؤذينى؟».

- «حتى أضعف الناس يجد القوة للإيذاء، إذا توفرت له الرغبة فى ذلك».

- «دعنى إذن أعيد صياغة السؤال مرة أخرى، هل تعتقد أنى سأمنحك الفرصة لكى تؤذينى؟».

- «رويدك، رويدك يا أندونيس، ما هذه المناقشة التى بدأناها وما زلنا فى الصباح؟».

- «معك كل الحق، فلنغير الموضوع إذن، فمثل هذه المناقشات تدور فقط بين الإخوة. لأننا بالفعل إخوة، يا يورغوس. فأنت أخى الذى لم تلده أمى، وبالنسبة لك فأنا الأخ الذى لا تستحقه».

- «جمعتنا لحظات صعبة».

- «حقًا، هل تذكر هوجة عرابى؟ والمدينة مدمرة بأسرها، حيث أحرق المصريون كل شىء».

- «ومن ورائهم وصلت البارجات الحربية الإنجليزية لكى يستكملوا الدمار. حتى إن شارع شريف باشا مازال مليئًا بآثار الدمار، مازلت أذكر ذلك كما لو كان قد حدث الآن. وأتذكر أن أبى كان يقول لى دائمًا إننا لن نستطيع العودة أبدًا لنقطة البداية».

- «ولكن هذا ما حققناه، يا يورغوس»

- «لقد حققناه بالفعل، يا أندونيس» هكذا أبدى المحاسب موافقته، وابتسم بكل ما تحمله روحه من براءة. ثم نظر بعد ذلك بعيدًا ورفع بكبرياء حمالات سرواله.

- «لكننى ما زلت أصر أننى لم أتصرف بشكل جيد تجاهك وتجاه ميخيليس. لكن دائمًا هناك فرصة لإصلاح الخطأ».

- «لا أعتقد أن المحاولة تستحق الآن».

- «إذن، ألا توجد طريقة لتسامحنى بها؟» .

- «ومن قال لك أن هذا الأمر مطروح للنقاش ؟».

- «لا أدرى كيف تقول ذلك، ولكن الضرر الذى لحق بكما سيطاردنى مدى الحياة».

- «أقول لك بكل صدق، الآن لا يوجد شيء لأسامحك من أجله، ولو لم نسمعك وقتها ومن يدر ما الذى كان سيحدث لنا. ففى ذلك الوقت أدركتنا الحرب. وتحول كل أنصار الملك إلى مؤيدين للألمان. ولم يكن ليدهشنى لو أنهم قاموا بنفينا لمالطة ».

- «معك كل الحق فيما تقول، ولكن حتى اليوم لم تنجُ بعد من مالطة، كن على يقين من ذلك، يا أخى».

- «آه لا، لقد انتهى ذلك........».

- «لا تقل ذلك، يكفى أن يظهر شخص جرىء ويهمس بكلمات مؤثرة فى الأذن المناسبة، وعندها ستعرف إلى أين ستذهب. ماذا؟ لا تنظر إلىَّ هكذا فلن أفعل بك شيئًا كهذا. ألم نقل إننا إخوة، لا يوجد عليك خطر منى، كما لا يوجد علىَّ خطر منك. قل ذلك لستراتيس ميخيليس. لا يوجد ما يخيفه منى».

- «ولكنى لست على علاقة وطيدة بميخيليس».

– «حقًا؟ وأنا من كنت أعتقد أن نفيكما قد وحَّد بينكما؟».

– «ليست لى علاقة به. الشىء الوحيد الذى يجمعنا هو الاحترام الذى نكنه تجاه شخص الملك. ولكنى أظن أن ذلك ما يجمع نصف اليونانيين».

– «معك كل الحق، ما العلاقة التى يمكن أن تجمع بينك وبين ميخيليس؟ لا شىء. إنها حماقة منى أن فكر بهذه الطريقة. فقد أثبت المحامى الخاص بنا أنه فاسد. يقولون إنه بمساعدة محاميين آخرين استطاعوا تجريد امرأة عجوز قعيدة من ثروتها، التى لسوء حظها لم تكن تعرف اللغة العربية. ستقول لى وماذا ستفعل هذه العجوز الشمطاء بكل هذه الثروة فى مثل عمرها؟ معك حق، على أية حال، إنه محام فاسد».

– «أما أنت فلست غاضبًا منه، أليس كذلك؟».

– «أنا؟ ولماذا أغضب منه؟ ومن جهة أخرى، فأنا لست امرأة عجوزًا لا تعرف العربية، فلتقل ذلك لميخيليس».

– «ولكنى أخبرتك بأنه لا توجد علاقة تربطنى به».

– «وخير ما فعلت، يا يورغوس».

– «لكنك اليوم تبدو غريبًا!».

– «أتقول غريبًا؟ إطلاقًا! إننى فقط أفكر فى رحلتى إلى أوربا».

– «أستغيب، يا أندونيس؟».

– «نعم، يا يورغوس، أفكر أن أترككم قليلاً».

– «ولكن هل هذا هو الوقت المناسب للسفر؟ أريد أن أقول إن منافسينا يهددوننا الآن بالحصول على نصيبنا من الكعكة التى تميزنا فى السوق، لقد خسرنا بالفعل تموين الجيش الإنجليزى بالسجائر».

– «وهل يقلقك هذا، يا عزيزى يورغوس؟».

– «ألا يحق لى أن أقلق؟ لقد خسرنا نقوداً، يا عزيزى أندونيس، إنها ليست دعابة».

– «أنا من يخسر، يا يورغوس، ولكن كما ترى لست قلقًا. فنحٍّ عنك هذا القلق جانبًا أنت أيضًا».

– «ما تأمر به، ولكن، لكى تسافر إلى أوربا فلابد أنك تفكر فى شىء. أو ربما ستلتقى ولديك هناك؟».

– «دع أولادى هناك فى مكانهما، فهما ينفذان عقابهما. لا أدرى ما الذى دهانى حتى أقوم بنفى أقرب الناس إلىَّ!».

– «إنك تمزح، يا أندونيس. ألن تقول لى ما الغرض من رحلتك؟».

– «شىء فى عقلى، ربما أستطيع أن ألقن به منافسىَّ درسًا قاسيًا، ولكن فى الوقت الحالى لا أستطيع أن أخبرك بأكثر من ذلك. لقد إستدعيتك حتى أبلغك أن........».

– «أن........ ماذا؟».

– «سوف أحضر سيستانيس من القاهرة، وسوف يتولى الإدارة أثناء غيابى وأريدك أن تساعده فهو لا يعرف المكان. أتعدنى أنك ستساعده، يا يورغوس؟».

– «بالطبع يا أندونيس، هل هذا سؤال؟ سأفعل كل ما فى وسعى، أنت تعلم مدى تقديرى لأندرياس».

– «وأنا أيضًا أقدره، لهذا أقول لك: أطالب بتعاون بناء بينكما، حتى لا نمكن منافسينا من أن يحلوا محلنا».

– «ماذا تقول، يا أندونيس، لكن الأمور صعبة بالفعل».

– «لست خائفًا، وأنت تعلم لماذا، فلدى موظفون صالحون مخلصون. مثلك أنت وميخيليس، حتى لو لم أثق به. والآن سيأتى أندرياس فمن سيجرؤ على إيذائى طالما يعمل لدى أناس مثل هؤلاء».

- «لا أحد».

عندئذ ضغط أندونيس على الجرس وحضرت سكرتيرته، فبادرها بالسؤال:

- «هل النشرة جاهزة، آنسة جوليا».

- «نعم، يا سيد خاراميس».

- «فليتم توزيعها فوراً على الصحف اليونانية»، انحنت السكرتيرة العانس انحناءة خفيفة ثم بادرت بالخروج.

عندئذ أخذ أندونيس يتطلع إليها وهو يقول لنفسه: «على الأقل هناك من يخلص لى، مثل ڤوليا».

* * * * *

مرت عشرسنوات منذ آخر مرة تطلعت فيها إيفيت إلى الساحل المصرى المعتم من فوق سطح أحد البواخر. وبقدر ما اكتسبته فى الحياة بسبب ارتباطها بعلاقة مع رجل صناعة الدخان الغنى، والمشكلات التى إرتبطت بإدارتها لبيت البغاء الراقى، لم تكن لديها الرغبة فى الاعتراف لنفسها بأن عشيقًا عجوزًا وبيتًا للبغاء قد طويا منها سنوات عديدة فى القارة الأفريقية. كانت تفضل أن تعتبر الحرب أمرًا ضروريًا. «إنها الحرب» هكذا كانت تقول دائمًا. وكأن الحرب لم تنته منذ ستة أعوام، وكأن الحدود مازالت مغلقة والبارجات الحربية البريطانية تجوب البحر خارج الموانئ لتمنع إبحار السفن. وبقدر ما كان صعبًا عليها أن تتخذ قرارًا بالقيام برحلة إلى أوربا، بقدر قبولها بسهولة دعوة أندونيس للقاء فى ڤيينا، فى طريق عودته من ألمانيا، ليقضيا معًا بضعة أيام قبل أن يسافرا إلى جنوب فرنسا، ويبحرا بالسفينة عائدين إلى مصر من ميناء مارسيليا. بعد سنوات عديدة من الأسر فى شقة السلطان حسين، حيث كانت تشعر أن وجودها فى حياة أندونيس يأتى دائمًا فى المرتبة الثانية، ولم يكن ذلك من الأمور التى تسرها. كانت دعوته لها، أيًا كانت، بمثابة انتصار صغير لها. ولكنه لم يكن

السبب الوحيد الذى جعلها تترك ملاذها بالإسكندرية دون تردد وأن تسافر إلى محل ميلادها، فرنسا.

فى الشهور الثلاثة الأخيرة، كانت تتلقى بشكل مستمر خطابات من روكسانى، التى وجدت نفسها بعد موت زوجها الأرمينى المفاجئ وحيدة فى باريس، ومعها كل تلك الثروة الضخمة. تلك الوحدة التى سبق أن عانت منها بعد رحيل أختها ذانائى، إلا أن وطأتها أصبحت أشد بعد وفاة زوجها. فلم تكن ذانائى قد شفيت تمامًا من ميكروب الغناء، وبعد أن عانت من أجل تسجيل الأغنيات لحساب شركة باتى، فى محاولة منها لقتل إحساسها بالحنين لإسطنبول، أقنعتها المطربة الشهيرة إيفثاليا، التى كانت أثناء قيامها بجولات غنائية فى أوربا، بالعودة مرة أخرى إلى موطنها.

لقد دفع الفراغ الذى تعيشه روكسانى - باعتبارها أرملة ثرية - لإرسال خطابات ساخنة إلى إيفيت بعد فترة طويلة من الصمت. وفى خطابها الأخير كتبت لها قائلة: الآن فقط يمكننى أن أشعر بمدى الجرح الغائر الذى سببه لك رحيلى من منزل مصطفى باشا ومضايقات جموع الزبائن الذين انتشوا بغرامى(*)، الآن أشعر فى كل لحظة بوجودك الخفى بجانبى، أشعر بجسدك وكأنه يزين فراشى فى مدينة النور، أبحث عن الحب من جديد بنعومة ورقة، بدون مغامرات أو استعراض للقوة. فى مدينة النور أبحث عنك.

وفى اليوم التالى أرسلت إيفيت إليها تلغرافًا تخبرها فيه بأنها قد حجزت التذاكر إلى مارسيليا على إحدى عابرات المحيط تسمى (Messageries Martimes): إنى قادمة إليكِ يا باريس، إنى قادمة إليك يا حبيبتى، هكذا اختتمت إيفيت تلغرافها المختصر (الذى كتبته بالفرنسية) بطريقة شعرية. كان الجميع يشعر بالسعادة تجاه قرارها هذا، الجميع عدا إلياس الذى أبدى تذمره بعد أن ألقيت على كاهله فجأة كل تلك المسئوليات. وكان لقاؤهما فى شقة مصطفى باشا عشية سفرها عاصفًا.

إلياس: «"هذا ليس قرارًا سليمًا" (قالها بالفرنسية) لا يمكنك أن ترحلى دون سابق إنذار» كان هذا هو أول رد فعل للبنانى.

- «"و لما لا؟" (قالتها بالفرنسية) لم أكن أعرف أننى كنت أسيرة»

- «لست أسيرة. ولكننا ببساطة أقمنا هذا العمل هنا، "أليس كذلك؟" (قالها بالفرنسية) لا يمكنك إذن أن ترحلى فى أى وقت يحلو لك».

- «"كفاك تظاهرًا!" (قالتها بالفرنسية) طوال تلك السنين تعيش حياتك دون أدنى اهتمام بأى شىء، طالما لديك إيفيت المغفلة التى تهتم بكل شىء. جاء الوقت لترعى بنفسك قليلاً هذا العمل القذر. وما الذى يعنيه شهر واحد فقط أمام عشر سنوات قضيتها هنا».

- «"اللعنة!" (قالها بالفرنسية) ومن الذى يؤكد لى، يا سيدتى، إنك لم تعدى العدة للهرب من الإسكندرية، بعد أن حصلت على كل ما تريدينه منى ومن عشيقك العجوز. وترحلين الآن لتسعدى بحياتك سعيده مع حبيبتك فى أوربا. أم تعتقدين أننى لا أعرف أن روكسانى ترسل إليك بخطابات......».

- «لديك الواشين المتربصين بى إذن؟».

- «"بكل بتأكيد" (قالها بالفرنسية)، لكن لابد أن تعرفى أنها ستمل منك مرة أخرى وستتركك وأنت فى شدة الدهشة، ولكن عندما تفعل ذلك فمن الأفضل أن لا تعودى إلى الإسكندرية».

- «يا لك من غبى!» هكذا صاحت (بالفرنسية)، ثم ألقت بالكأس الكريستال المعبأة بشرابها المفضل، فتحطمت الكأس فوق الحائط وانساب الشراب الأحمر الداكن وهو يرسم شكلاً غير واضح المعالم، بينما كان يسيل تجاه السجادة ببطء.

فوجئ إلياس بردة فعل إيفيت الجنونية، ولكنه سرعان ما ضحك ساخراً. وفرك بيده اليمنى فوق المائدة، وكأنه يستعرض الحجر الكريم المثبت فى خاتمه وقال:

«آخر مرة وطأت فيها قدماى فى الفيلا، قمت بإخراجك من مشكلة، إذا كنت تذكرين. أردت فقط أن أقول لك إنى سأظل بجانبك دائماً، وقتما تكونين فى حاجة إلىّ».

أحست إيفيت لأول مرة بحاجتها لتوضيح الأمور. كانت تشعر بأن اللبنانى، "زير النساء"، قد سرق منها روحها طوال تلك السنين من أجل خدمة مصالحه؛ منزل شارع مصطفى باشا، المخابرات، وجودها أسيرة فى شقة شارع السلطان حسين. كل ذلك لم يكن ضمن العهود والمواثيق التى قطعها على نفسه يومًا فى باريس. وبالقطع فقد نسى كل ذلك عندما ألقى بها فى أحضان جاكو، ثم فى أحضان خاراميس، أو عندما أجبرها أن تستسلم للرغبات البربرية لضابط الشرطة فريد. كانت ترغب فى أن تبوح له بكل تلك الأمور، ولكنها صمتت، ربما بسبب كبريائها، ولكنها قالت ببساطة:

«وأنا أردت أن أقول لك إن أنطوان ليس عجوزًا، أما بخصوص روكسانى، فكان يجب أن تفهم ما الذى تقدمه لى ولا تستطيعون أنتم - معشر الرجال - تقديمه لى. أفهمت؟».

ربما لم يستطع إلياس أن يدرك كيف كانت تشعر بالفعل كل تلك السنين، ولكنها على الأقل ربما عرفت كيف تضربه فى المكان الذى يؤلمه، محتفظة دائمًا لنفسها بالتفوق عليه فى لعبة المشاعر. وقبل أن تبدأ رحلتها إلى الشمال الفرنسى، تحركت إيفيت بطول" الساحل الأزرق" (دونها بالفرنسية) حتى تلتقى ماريانثى فى قرية صغيرة فى أعماق التلال الخضراء بمدينة نيس. كانت المصحة النفسية التى تقيم بها أشبه بمتحف للمرضى النفسيين من البشر، وهو ما لم يعجب إيفيت بأى حال من الأحوال. أما ماريانثى فكانت تبدو سعيدة. لكنها عبرت عن حالها بقولها:

«إنه نوع من الموت. فهنا، نحن جميعًا موتى ولكن بشكل مؤقت، أستطيع إذن أن أرافق باناويتيس، لست نادمة على ما حدث. الحب يتطلب التضحيات، يا إيفيت، "هذا هو كل ما فى الأمر"(قالتها بالفرنسية)».

أخذت إيفيت تنظر إلى ماريانثى فوجدتها ترتدى ملابس بسيطة، فقيرة تقريبًا، ترتدى رداءً أبيض وكأنها مبعوث الحب. أين ذهب إذن تاج الجمال الذى كان يزين هذه المرأة التى تبعت خطوات الحب الأبدى؟ إنه لمن المميت أن تحب شخصًا بهذا القدر. ومن الغريب أن تحاول بهذه الطريقة أن تعلو فوق الخيانات ومشاعر الغيرة.

"فقط لو يقبل الشيطان أن يعفر نفسه بتراب الخير، فقط لو يقبل كل ميت تخليصه من ذنوبه إلى الأبد ". هذا هو كل ما تبقى لدى إيفيت من شعور، بينما كانت تودع ماريانثي من السيارة، كانت تعتقد أنها تودع شخصًا ميتًا. حتى إعانتها لها كانت تحمل شيئًا من إحساسها بعدم الأمان تمامًا مثلما حدث من قبل. لهذا فضلت إيفيت بعد ذلك مباشرًا أن لا تفكر سوى فى باريس.

لم تكن باريس التى وجدتها إيفيت تشبه باريس التى تركتها، شىء طبيعى، طالما أن المدينة ـ تمامًا مثل الإنسان ـ يمكن أن تصبح مختلفة خلال عشر سنوات، وبخاصة إذا كانت طرفًا فى الحرب. كانت جحافل المهاجرين الذين احتلوا مونمارترى ومونبارنا فى بداية الثلاثينيات قد أثرت على فلسفة المغامرة. إلى جانب ذلك، فقد أطلت الشمس على غير العادة فى ذلك الوقت وأشرقت فوق نهر سيكوان، وكان إشراق الشمس فى شهر نوفمبر أمرًا نادر الحدوث، مما أثار ضيق إيفيت بشدة، إذ كانت ترغب بشدة فى استعراض المعطف الفرو الذى اشترته من محلات سيستوڤارى.

وزعت إيفيت وقتها خلال الخمسة عشر يومًا بين شارع بويس، حيث يوجد منزل روكسانى وكذلك محل المجوهرات، وبين نشاطها القديم المحبب إلى قلبها؛ وهو التريض على ضفاف نهر سيكوان، ثم تقضى بعض الوقت فى أحد مقاهى شارع سان چيرمان. وفى المساء كانت تستمتع بالذهاب إلى كباريه مونمارترى، تروى جسدها بجرعات من الخمر وعروض الراقصات شبه العاريات. لم تكن نغمات الجاز الحالمة التى يعزفها عازفو أمريكا السود تسيطر على درجات السلم الموسيقى فقط، ولكن أيضًا على شخصيتها.

فى اللحظة التى كانت تغوص فيها فى أحضان روكسانى، تذكرت الراقصات العاريات المشوقات(*) مثل خشب الأبانوس؛ يدرن بطريقة تداعب مشاعرها المخدرة، وكانت ألحان الچاز الثورية التى لا يزال صداها فى أذنيها تعطيها رغبة أكبر فى الارتماء فى أحضانها. أما الأرملة – روكسانى – فكانت لها طريقتها التى نقلت بها نفس الجو الموجود بمنزل شارع مصطفى باشا إلى ذلك المنزل الباريسى العتيق. حتى

يبدو وكأنها مستمرة فى علاقتها التى بدأت منذ زمن مع إيفيت، مديرة المنزل السابقة، التى كانت تتأرجح فوقها كما لو كانت تتأرجح فوق انحناءات الكثبان الرملية بالصحراء الأفريقية. كانت روكسانى بالنسبة لإيفيت كالبلسم الذى يشفى الروح، وهو شعور يختلف عن شعورها عندما تهب جسدها للرجال(*) لكنها مع حلول الفجر كانت تتهيأ لإبعاد كابوس الليلة السابقة عن مخيلتها، ومع أول ضوء للنهار وجدت نفسها نائمة منهكة إلى جوار جسد امرأه عارٍ تمامًا، وعندئذ جال بخاطرها كلام إلياس الذى عبر من خلاله عن مدى بغضه للنساء السحاقيات اللاتى «يخلعن ملابسهن وتلعق الواحدة منهن الأخرى مثل الأبقار». عندئذ كانت تشعر بشعوره، وتشاركه فى هذا البغض لما اقترفته من إثم، حتى إنها كانت على استعداد للهرب بدون تأخير من هذا المنزل الملعون، لكن سرعان ما كان يداهمها النوم اللذيذ. هبت لفحة من الهواء الساخن فوق التلال الرملية الساحرة، حتى الأفق المشوش، والتى كانت تذكرها برياح "الخماسين" (ذكرها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) التى كانت تهب على الإسكندرية، مما جعلها تغلق عينيها. وأخيرًا تستسلم للنوم.

عندما استيقظت إيفيت فى وقت متأخر من الظهيرة، شعرت بصداع خفيف يدق رأسها بسبب الإفراط فى شرب الخمر، ووجدت نفسها بمفردها على الفراش الوثير، مما منحها إحساسًا خادعًا أن كل ما عاشته فى الليلة الماضية لم يكن سوى أضغاث أحلام، أو أن ما حدث كان من وحى خيالها، أشياء من الممكن أن تكون قد حدثت ولكنها لم تحدث بالفعل. لهذا، عندما كانت تنظر إلى عينى روكسانى الحالمة، كانت تشعر بالضيق لبعض اللحظات، رافضة أن تتقبل ما حدث فى الليلة الماضية. لكنها بعد عدة أمسيات تعاود الكرة وتبدأ من جديد فى لعبة المطاردة مع عشيقتها الصغيرة روكسانى من مقهى إلى آخر ومن محل حلويات إلى آخر. استمرت روكسانى فى التهام كميات كبيرة من الشيكولاته، وبدلاً من الشيكولاتة التى كانت تتناولها فى مطعم "بوردو" أصبحت تلتهم الشيكولاته الفرنسية الشهيرة. وفى أحد اللقاءات المسائية أخبرتها روكسانى بأنها تعتزم بيع المنزل ومحل المجوهرات، وعندئذ سألتها إيفيت:

«وماذا ستفعلين؟».

روكساني: «سأعود مرة أخرى إلى الإسكندرية أو سأفتتح معرضًا فنيًا. هنا في باريس. لا يوجد شيء ذو قيمة عالية مثل الأعمال الفنية».

كانت إيفيت في كل مرة تسمعها تتحدث بهذه الطريقة، تمسك برأسها من الدهشة.

إيفيت: «احترسي من الفن يا صغيرتي» هكذا حدثتها (بالفرنسية)، ثم أردفت قائلة: «فالفن مضاربة غير محسوبة. كثير من الناس يستثمرون أموالهم في الفن، القليل منهم أصبح بالفعل من الأغنياء، "ثقي بي" (قالتها بالفرنسية)، لقد عشت كل هذا من قبل».

لم تكن إيفيت ترتبط بشارع بويس فقط من أجل علاقتها بروكساني. لكنه كان يربط كل خيوط حياتها. فهل يمكن لأحد أن يتخيل أنه على بعد ثلاثة مبان فقط من منزل الأرميني يقع معرض الفن الخاص بوالدة إيفيت.

كان والد إيفيت، موريس شانتون، المهاجر السويسري، قد ترك عمله المبشر بمستقبل مشرق في سلك المحاماه حتى يكرس حياته للفن، وفي العقد الأخير من عام ١٨٨٠، حضر إلى باريس باحثًا عن المجد. أما أمها، سيمون لابين - المعروفة بين المحيطين بها باسم "الأرنبة الصغيرة" على الرغم من أن اسمها المستعار ربما كان "البطة القبيحة" - فقد وقعت في حب أبيها بعد أن أسرها بأسلوبه الرقيق وبالخصلة البيضاء في شعره الأشقر، فتزوجته على الرغم من معارضة أهلها. ومنذ الشهر الأول من الزواج أدرك موريس أنه يئن تحت وطأة التزامات الزواج، فقرر أن يعيش بطريقة بوهيمية. في تلك الأثناء كانت سيمون تذوب به عشقًا، فتقبلت بسهولة فكرة الحياة التي اختار زوجها السويسري أن يعيشها. كانت إيفيت منذ صغرها تكره الفن وتشعر بالغضب عندما تتذكر بعض المشاهد التي حدثت لها في الحياة، مثل ذلك المشهد الذي كانت أمها تجرها فيه جرًا- وهما يصعدان تجاه شارع رافينسيان، في قلب مونمارتري،

لكى تقولا "صباح الخير" (قالتها بالفرنسية) لأبيها العظيم. فى ذلك الوقت كان موريس يعيش ويرسم فى صومعة فنية أصبحت تعرف باسم باتو لاقوار. ثم أتبع ذلك بإقامة معرضين فنيين فى صالة العرض الخاصة بوالدتها، ولكنهما سجلا فشلاً ذريعًا. واجه المهاجر السويسرى وابلاً من سهام النقاد وتجاهل الجمهور. وفى غمرة شعوره بالأزمة، أدرك أنه لا يملك الموهبة. لقد دمر نفسه وحياته وزوجته وطفلته. ولأنه لم يجد من يعاقبه على ما فعله، فقد قرر أن يعاقب نفسه وأن ينتحر بطريقة استعراضية. فيقال إنه أخذ يرسم فوق قطعة من القماش الأبيض بدماء شرايينه – التى كانت – تسيل لوحته الفنية الأخيرة التى كانت تعبر عن رغبته فى مغادرة الحياة بإرادته. وبسبب هذا العمل فقط قام زملاؤه بوداعه باعتباره فنانًا حقيقيًا. فى نفس الوقت توقف معرض الأم الفنى، ثم لحقت سيمون بزوجها بعد عام واحد من موته بعد أن أصابها الضعف والوهن. أما إيفيت – تلك الفتاة الحسناء التى بلغت الثامنة عشر من عمرها – فكانت تعانى من الإفلاس، وبعد أن أصبحت حرة كان عليها أن تكافح ضد المستقبل المجهول.

روكسانى: «تكرهين الفن إذن؟» هكذا سألتها روكسانى وهى تداعب بملعقتها شراب الشيكولاتة الذى أمامها.

إيفيت: «لا يمكنك أن تتخيلى مدى كراهيتى له».

– «يا لها من تعاسة كبيرة أن يكره أحدهم الفن - عالم بدون فن...».

– «سيكون أفضل "بلا شك "(قالتها بالفرنسية)، فكرى فى عالمى بدون كل هؤلاء المتحولين المتكبرين، هؤلاء الفنانين الكسالى، عديمى القيمة، الجشعين، الذين يأكلون أموال الناس بدون وجه حق».

– «إن عالمًا بدون ذلك الجمال الذى يقدمه لنا الفن سيكون كالجحيم، "صدقينى يا إيفيت" (قالتها بالفرنسية)».

– «لكن ما الذى ستفعلينه بجمال الفن عديم الروح، عندما تلتف حولك مخلوقات مثلك».

وفى لحظة نضج مفاجئة قالت روكسانى:

«رغم أن جمالى، وجمالنا، على عكس هذا الفن عديم الروح، كما تسميته، فإن "جمال الفن" (قالتها بالفرنسية) يظل يافعًا للأبد، "وفى كل الأحوال"(قالتها بالفرنسية)، هذه الكلمات كأنها الكفر فى عاصمة الفن، فى المدينة التى جعلت من الفن أسلوب حياة».

- « "وماذا بعد يا صغيرتى" (قالتها بالفرنسية)، إذا كانت باريس هى عاصمة الفن، فلا أريد أن أكون باريسية، أنا التى ولدت فى هذه المدينة أرفضها أمامك اليوم».

- «أتكرهين باريس، حقًا؟».

- «نعم أكرهها» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «مثلما تكرهين الإسكندرية؟».

- «أنت مخطئة فى ذلك، فأنا لا أكره الإسكندرية، لكننى فقط أخاف منها. إنها قصة يرويها الأوربيون، حيث يقولون إنه سيأتى وقت ينهض فيه هؤلاء الذين يرتدون الطرابيش والجلاليب وعندئذ........ من رأى"الله" (قالتها باللغة العربية وهى مدونّه بحروف يونانية) ولم يخشه فليتحمل ما لا يحمد عقباه. فى هذا الشأن كان المرحوم الأرمينى سيعطيك فكرة عندما يحدثك عن زميرنى. لهذا أقول لك، لا تفكرى أبدًا فى العودة إلى هناك».

- «إذن فلماذا تبقى أنت هناك؟».

- «أنا! قلت لك من قبل إننى أكره باريس، أكره الفن، أما الإسكندرية فعلى الرغم من أننى أسيرة بها فإنها تقدم لك الحلو والمر، السم والترياق معًا. آه يا جميلتى روكسانى، كم كنت أود أن تشعرى بى».

كانت روكسانى كلما سمعت ذلك، تطأطئ رأسها وكأنها فى حالة إحباط من نفسها، كانت تفتقد السيطرة على نفسها باعتبارها أرملة ثرية، وتذكر إيفيت بروكسانى

التى عرفتها منذ زمن: ذلك الموديل العارى،" الراقصة "(دونّها بالفرنسية) فى قهوة شانتان التركية، البغى بمنزل شارع مصطفى باشا. ظهرت مرة أخرى تلك البقعة الوردية على وجنتيها، وكأنها تخلصت لوهلة من عشر سنوات ألقاها على كاهلها الزمن. فى النهاية، هكذا أرادت أن تتذكرها. فالمرأة التى تجلس أمامها لم تكن تعنيها، لكنها ببساطة كانت مخلوقًا هادئًا يبحث عن معانٍ مجهولة فى الحياة. كانت مسألة وقت حتى تصل إلى تلك المعانى وعندئذ كانت ستتركها مرة أخرى. أما مدام إيفيت، مديرة المنزل بشارع مصطفى باشا، فقد تعلمت كيف تحمى نفسها جيداً. بتلك الأفكار تركت أرملة سيمون كريكوريان باريس- أرض المهاجرين الأمريكيين- وأبحرت إلى الجنوب، إلى ڤيينا، بلدة شينبرج وفرويد، حيث كان ينتظرها الجانب الآخر من حياتها، "حبها االخالد" أندونيس خاراميس.

* * * * *

كانت رحلة أوربا قراراً صائبًا بالنسبة لأندونيس، ليس فقط بسبب حبه للتجول فيها، ولكن أيضًا لأنه رحل مدركًا أنه ذهب وترك خلفه جراحًا مفتوحة تخص عمله، وأخرى تخص منزله: كانت جريمة السرقة تهدد مستقبل زوجته كما تهدده هو شخصياً بفضيحة فى المدينة ؛ والأسوأ من ذلك اكتشافه أن سماتيس، المكلف بملاحقة أفعال زوجته المخزية فى محلات الإسكندرية، لص كبير بشكل يفوق زوجته. ولذلك فقد تولى سائقه - محمود - دور الملاك الحارس لزوجته، والله المستعان! أما بالنسبة للثعبانين يورغوس وميخيليس، فقد قرر أن يقطع ذيلهما عن طريق زيادة نشاطهما الاستشارى وإمضاءاتهما التى ستكون موقّعة على الأوراق الخاصة بالشركة. وعندما يعود بسلامة الله إلى الإسكندرية، سيكون قد سوّى معهما حساباته إلى الأبد.

فى تلك الأثناء، لم تكن مشكلاته مع خصومه كافية، بل كان لزامًا عليه الآن أن يواجه خصمه اللدود فى أوربا ؛ فهناك كميات هائلة من السجائر التى لم تكن تصنع فى مصر يتم بيعها على أنها إنتاج مصرى، مشوّهين بذلك سمعة جودة إنتاجه فى

السنين الماضية. فى نفس الوقت، أوضحت الحكومة المصرية، بطريقة ما، مدى قصر نظرها فى السياسة الضريبية للدولة، ولم تقرر أن تمنح صانعى الدخان " العائد "(ذكرها بالإنجليزية) من ضرائب التصدير، ولكنها قررت أن تعيد فارق الضرائب عن السجائر التى يتم استيرادها. كانت هناك طريقة واحدة فقط من أجل التغلب على هذين العائقين: وهى العمل على تأمين تعاونه مع بيوت التجارة العالمية التى كان يمتلكها اليونانيون من مواليد مصر، والذين يقومون بنشاطاتهم فى الخارج. لقد أحس من خلال تلك الرحلة أنه قد فتح لنفسه نافذة جديدة على العالم. كانت محطته الأولى فى عاصمة ساكسونيا، دريسدين. ذهب إليها لكى يتأكد من أنه يستطيع التعاون مع خلفاء بانايوتيس باباستاثيس من أجل تسويق ماركة جديدة من السجائر، ولكنه أصيب بالإحباط: حيث قامت العائلة ببيع المصنع بعد موته مباشرة وعادت إلى اليونان، أما الملاك الجدد فلم يبد أية رغبة فى أى نوع من التعامل.

عندئذ قام بالاتصال بكوستيس وطلب منه تحديد موعد مع أبناء موراتوغلوس فى برلين. فقد كانت السجائر من ماركة "موراتى: Muratti" تتنافس لسنوات عديدة مع سجائر "خاراميس: Charamis" فى أوربا، وكان أندونيس يأمل فى توقيع اتفاق معهم. كان كوستيس ينتظره على محطة القطار وقاده مباشرة إلى مكان اللقاء، لكنه أخبره فى نفس الوقت بأن هناك مفاوضات قد بدأت بالفعل لبيع الشركة، وانحصر كل شىء فى مجرد لقاء للتعارف لم يستغرق أكثر من نصف ساعة. عندئذ أصبح لديهم متسع من الوقت على مدار اليوم لكى يتحدثا معًا كأب وابنه. ولحسن الحظ، كان لدى أندونيس مشكلات أكبر من مجرد التفكير فى دراسة ابنه المتعثرة.

أندونيس: «كيف تغيرت إلى هذا الحد؟ لقد أفزعنى أن أربط بين هذا الرجل الوسيم الذى كان ينتظرنى على محطة القطار وبين ابنى الصغير. طوال تلك السنوات لم ترسل لنا أية صورة تخصك. كانت أتمنى أن تكون والدتك معنا حتى تفخر بك، تعرف ذلك بالطبع، وأتخيل كم تفتقدك».

كوستيس: «لم أكن قط نقطة ضعف بالنسبة لها» قال ذلك كوستيس وهو يشعر بالمرارة.

- «لكنك كنت نقطة ضعفى أنا، أيها الشقى الصغير» قال ذلك أندونيس وهو يربت على شعره. أدهشت تلك الحركة كوستيس بشكل ضايقه، فهو لم يعتد من أبيه على هذا النوع من الملاطفات. ثم استكمل أندونيس حواره قائلاً: «أين شاربك؟».

- «شاربى؟ لكن يا أبى الشارب ليس هو "الموضة الآن" (قالها بالفرنسية)».

- «لماذا تقول ذلك؟» قال ذلك أندونيس وهو يداعب شاربه، ثم أردف قائلاً: «إننى أرى العديد من الشباب فخورين بشواربهم، فهذا شارب ضخم، وذاك شارب حاد ولكنه شارب. أطلق شاربك، يا بنى، سيكون لائقًا عليك» قالها والده ناصحًا.

- «سوف أطلقه، يا أبى، أعدك فى المرة القادمة أن تجدنى وقد أطلقت شاربى»، عندئذ انخرط الرجلان فى الضحك بعفوية بعد أن فهم كل منهما الآخر. كان الوالد معجبًا بشخصية ابنه الجريئة، وكان الابن معجبًا بصراحة أبيه.

- «هل ما زالت تلك المرأة (چيهان) ترسل إليك خطابات يا كوستيس؟» هكذا سأله والده بشكل مفاجئ بعد أن مرت على وجهه سحابة كآبة.

- «كلاً، بالطبع» هكذا أسرع بالرد مهدئًا أباه، ثم قال: «كيف راودتك هذه الفكرة الآن يا أبى؟ إنها قصة قديمة، ما الذى تسعى إليه حضرتك؟ ولماذا تنبش فيها؟ حقيقة أنا لا أذكر هذه المرأة الآن على الإطلاق».

- «عندما تحدثنى بلهجة الاحترام هذه، يا بنى، أعتقد أن شيئًا ما يجرى».

- «أنا على يقين من أن هذا الحب الفاشل كلف أسرتى غاليًا، وبخاصة أنت يا والدى، ولهذا فمنذ خمس سنوات وأنا أعاقب نفسى على هذا الخطأ فى هذه المدينة القاتمة الكئيبة».

أندونيس: «أنت تبالغ كثيرًا، فلا تبد أمامى باعتباره إنسانًا يعاقب نفسه. أما بالنسبة لهذه المدينة فهى شىء آخر غير أن تكون قاتمة وكئيبة».

كانت عين خاراميس الخبيرة تستطيع أن تشعر بمستقبل برلين الجديدة، وكانت الشمس الساطعة فى تلك الأيام تستطيع أن تخدع بسهولة أى زائر للمدينة.

– «ما وجهتك التالية، يا أبى؟».

– «ماذا! أرى أنك تتعجل لكى تتخلص منى أم ترانى مخطىء فى ذلك؟».

– «حاشا لله، ولكننى أعرف أنك جئت إلى أوربا من أجل العمل لا المتعة».

– «نعم، غالبًا للعمل» أجابه أندونيس وذهب عقله إلى إيفيت، ثم استكمل حديثه قائلاً: «فى صباح بعد غد، سأسافر إلى ميونخ لكى أرى أخاك ماخوس».

– «أخى! لقد أصبح رجلاً بمعنى الكلمة، كما أصبح شابًا مميزًا، إنهم يتحدثون فى برلين عن جماله».

– «كلام لا يجدى، فجمال الرجل ليس كل شىء» هكذا علق أندونيس بكلمات لها مغزى.

"ماذا هناك؟ هل علم شيئًا؟"، هكذا حدثت كوستيس نفسه.

– «سوف أذهب إلى ميونخ، ربما ألحق ببعض العمل، فقد انتشرت بعض الشائعات بخصوص تعاون يونانى - ألمانى، على أن تكون قاعدته فى مدينتى ثيسالونيكى وميونيخ، لإنتاج بعض أنواع السجائر الفاخرة التى ستخصص فقط للسوق الألمانى. ما قولك إذا ما استطاع والدك أن يجعله مثلثًا بإضافة الإسكندرية فى نفس اللعبة؟».

– «إنها فكرة طيبة، يا أبى».

كان أندونيس يتذمر من النظام الغذائى الألمانى الذى كان يبدو له ثقيلاً فى ذلك المساء، ولذلك فقد قرر هو وكوستيس العودة معًا مترجلين إلى الفندق، فاتجها ناحية الغرب وتابعا سيرهما فى شارع "أودين دير ليدين" باتجاه ميدان "باريزير" وفندق "الدون". لم يخطر ببال كوستيس مطلقًا أن يحجز لأبيه غرفة فى فندق "قيصر"،

وإلا سيكون ذلك بمثابة الدمار الشامل بالنسبة له إذا ما اكتشف أبوه نوع الحياة التى يعيشها ابنه الصغير. ثم مرا من مدخل فندق "الدون" ودخلا إلى قاعة الاستقبال الواسعة ذات الأعمدة الضخمة المصنوعة من الرخام الداكن.أصر أندونيس أن يحتسيا معًا كأسًا من البيرة ولم يجد كوستيس ما يمنع من تلبية دعوة أبيه. اتجها ناحية البار الذى كان يعج بالصحفيين والدبوماسيين.

«فلتنتهيا من دراستكما وتعودا الواحد تلو الآخر إلى مصر. المصنع بحاجة إليكما» هكذا تحدث أندونيس فى اللحظة التى كانا يقرعان فيها أكوابهما، على الرغم من أنه لم يكن على ثقة من أن كوستيس سيفعل ذلك قريبًا؛ فطوال تلك السنين التى عاشها بجوار أبيه لم يكن قد أدرك جيداً ذلك القلق وتلك المضايقات اللتين كان يعانى منهما أى شخص يقوم بهذا العمل. أخرج نفسه لفترة وجيزة واتجه بفكره بعيداً عن تلك الحياة الخاملة فى برلين، ووضع كل ذلك فوق مقعد مدير المصنع. وعلى الرغم من المشهد الحالم لترعة المحمودية الذى كان يراه من مكتبة، فإنه لم يستطع أن يستبدل حياتة الشهوانية التى يحياها فى العاصمة الألمانية. وعلى الرغم من كل ذلك فقد أدرك فى تلك الليلة أن كل شىء فى عالم المال ليس مستقراً . قدم موظف الاستقبال الليلى فى فندق" قيصر" تلغرافًا لكوستيس من الإخوة كريادزى – وهم تجار دخان يونانيون مصريون. نما إلى علمهم أن أندونيس موجود فى ألمانيا، كانوا يعدون العدة لافتتاح مصنعهم الجديد فى مدينة هامبورج. فوجهوا إليه الدعوة للقيام بجولة فى مصنعهم. وفى الحال قام كوستيس بالاتصال بأبيه وأطلعه على المستجدات.

«أنفى تشم رائحة تعاون، سأذهب إليهم إذن» قال ذلك أندونيس دون أن يتردد، وأُعجب كوستيس بحزم والده. " إنه يبلغ الآن من العمر ستين عامًا ولكنه ما زال منفتحًا على الحياة. ربما كان هذا هو سر نجاحه "، هكذا جال بخاطر كوستيس.

وفى اليوم التالى رافق كوستيس والده إلى محطة القطار وحرص على اصطحابه حتى يركب القطار السريع إلى هامبورج. وبمجرد أن شاهده وهو يشير إليه من نافذة

الدرجة الأولى زفر كوستيس زفرة تعبر عن إرتياحه. لكن أندونيس لم يتوقف عن مفاجأته حتى قبل رحيله، حيث قال:

- «ألا تخجل من نفسك وأنت تدخن سجائر ماركة " موراتى" أمام أبيك. مضى يومان وأنا أنظر إليك نظرة ذات معنى وأنت لا تفهم».

أسرع كوستيس وألقى بالسيجارة التى لم يكن قد أشعلها من يده، وأتبعها بإلقاء علبة السجائر ذات الطبقات الثلاث، قائلاً:

- «معك حق، يا أبى، معك حق بكل تأكيد. حقيقة أنا لم أفكر فى ذلك».

* * * * *

فى نهاية الحرب العالمية الأولى وجدت هامبورج نفسها وقد فقدت أسطولها التجارى الضخم الذى يتعدى ١٤٦٦ سفينة، كما تم تدمير أرصفة الشحن والتفريغ الجديدة وحضانات السفن على الضفة الشمالية لنهر ألفا بأبنيتها التى كانت رمزًا لعظمة ألمانيا. كانت كل علامات الخزى من الهزيمة واضحة فى تلك المدينة التى لم يكن يظهر فيها سوى قمم أبراج الكنائس الخمس التى تعانق السماء. وكان أول ما جال بفكر أندونيس وهو يواجه الميناء ببحره الساكن على امتداد الأفق المفتوح داخل المحيط: "أهذا إذن هو أكبر الموانئ فى ألمانيا؟ لكن أى ميناء هذه الذى يطل على ما يشبه البحر".

أما الإخوة كريادزى فقد جلبوا معهم بعضًا من غلظة اليونانيين المصريين إلى المدينة. وكانت مصانعهم فى شارع هويلوف تشبه بشكل جيد فندقًا فاخرًا وليس مجرد مصنع. عبر أندونيس من البوابة بمظهر أكبر رجل لصناعة السجائر اليونانية فى مصر وخرج وهو يحمل بين يديه عرضًا رائعًا ينص على: " أن يتم التعاون فيما بينهما لإنتاج اسم جديد سيكون بمثابة التاج فوق جميع السجائر بالسوق الألمانية ". وإلى جانب ذلك فقد دار النقاش بينهم حول موضوع المنتجات المصرية المزيفة من الدخان التى غزت الأسواق الأوربية. واتفقوا على أنه بدون تعاون الحكومة المصرية فلن يستطيعوا

التوصل إلى نتائج طيبة. ثم اختتم هذا الاتفاق بعشاء رسمى فى أرقى مطاعم المدينة، فى واحد من الأماكن المميزة فى هامبورج، كما قيل لأندونيس، حيث يقدمون اللحم البقرى منزوع الدهون وأنواع النبيذ عالية الجودة. داخل هذا المطعم يجلس عدد كبير من كبار السن الذين كانو يعرفون كيف يعيشون. وإذا ما سار كل شىء بشكل جيد، سيتم توقيع العقود فى القاهرة، وهو ما يعنى دخول أندونيس مرة أخرى بقوة فى لعبة السجائر الفاخرة فى أوربا. وكنوع من تبادل المصالح فقد قرر الإخوة كريادزى أن يتولوا إمداده بماكينات الصناعة الحديثة، التى تأكد أندونيس من قوتها بنفسه من خلال قيامه بجوله سريعة إلى ميلانو.

هكذا كانت المكاسب التى حصل عليها أندونيس من رحلته إلى ألمانيا عظيمة، وفى الوقت نفسه لم تجعله يحيد عن الطريق الذى اختاره. أما فى ميونخ، فقد حدث العكس، حيث صارت الأمور فى طريق آخر غير ذلك الذى خطط له. حيث كانت المفاوضات التى تهدف إلى تفعيل الشراكة اليونانية الألمانية قد اكتملت بالفعل، ولكن حتى هذه اللحظة، لم تتح له الفرصة لزيادة الشركاء. لم ينزعج أندونيس من هذا الإخفاق بقدر انزعاجه من تجاهل ابنه الصغير له، ذلك الفتى الذى يبدو أنه كان يهتم بقضية الإفراج عن مواطن ألمانى مصرى يدعى رودولف أس، وهو سياسى محتجز فى سجون لانتسمبرج، أكثر من اهتمامه بوصول أبيه إلى المدينة.

أندونيس: «وما علاقتنا نحن، يا بنى، بهذا الرجل رودولف أس؟».

ماخوس: «إنه ابن فريتس ڤس، الرجل المشهور بالإسكندرية. لابد أنك تعرفه».

– «لم تكن لى علاقات أبداً بألمان مصريين. فى أى مجال يعمل هذا الرجل فريتس؟».

– «وفقًا لمعلوماتى، هو تاجر جملة يدير مؤسسة ناجحة لتجارة الجملة فى "شارع فرنسا "(قالها بالفرنسية) فى المستوى الذى يسمح به الإنجليز للألمان المصريين لكى يكونوا ناجحين».

– «مثل خالك ثاناسيس إذن؟».

– «هذا نوع من التحقير، يا أبى».

– «أنا لا أحقر من شأن أحد يا بنى، لكنى ببساطة أحاول أن أفهم من هو هذا الرجل فريتس. وإذا لم تفهم والدك ولو لمرة واحدة، فهو أيضًا لا يفهمك، أليس كذلك؟».

– «لا يا أبى، أنت لا تعرفه، وسوف تتعرف إليه قريبًا، كن على ثقة من ذلك».

– «ولماذا يجب أن أكون على ثقة من ذلك ؟».

– «بالنسبة لنا نحن الشباب فلدينا قادة جدد لهم أفكار جديدة، رؤى جديدة للعالم. أما أنتم أيها الكبار فمن الصعب عليكم أن تفهمونا» هكذا أجابه ماخوس بذلك الكبرياء الذى عرف عنه منذ نعومة أظفاره.

وبقدر ما كانت هذه التفرقة بين الشباب والعجائز ترتكز على أساس، فإنها كانت تفرقة قاسية بالنسبة لإنسان لم يبتعد عن مصاعب الحياة ولحظاتها السعيدة. لقد شعر أندونيس بكبر سنه أكثر من ذى قبل، وفى نفس اللحظة فكر كيف كان يشعر وهو يتحدث مع ابنه الأكبر كوستيس بأنهما من سن واحدة. ولذلك فقد تشجع وسأله السؤال التالى:

– «وماذا بالنسبة لكوستيس، فهو شاب مثلك، ولكنه لم يحدثنى عن كل هؤلاء؟».

– «أمير برلين!» هكذا علق ماخوس ساخرًا، فسأله أبوه بلهجة شديدة:

«ماذا قلت؟».

– «أبى العزيز، لماذا تصر على المقارنة بينى وبين كوستيس؟ لقد كان يصر دائمًا على أن يظلم نفسه. كان يحب أن يصادق العامة من الناس، حقيقة لم أستطيع أن أتواءم مع الطريقة التى يفكر بها».

- «أحقًا ما تقول، يا صغيرى، إذن ينبغى علىّ أن أخبرك بأنك أنت نفسك تنتمى إلى هذه الطبقة من العامة» هكذا أجابه أندونيس وهو يشير إلى نفسه.

أما ماخوس ففى لحظة تعبر عن غبائه الشديد أجابه مجدداً:

«لحسن الحظ، إذن، أننى كبرت وأشبه أمى تماماً».

- «ماذا أقول الآن: أنت..... أنت.....» هكذا صرخ أندونيس بشكل جنونى وهو يتطلع إلى النظرة البلهاء التى ارتسمت على وجه ابنه، وقرر أن يوقف نقاشهما.

وقبل أن يفترقا لم يفت الابن أن يقول له:

«يا أبى، إلى جانب اسم رودلف تذكر اسمًا آخر، وهو أدولف هتلر، الذى سيصبح معروفًا عما قريب!».

أما أندونيس فقد أجابه بكلمة من تلك الكلمات القليلة التى تعلمها فى ألمانيا:

«اللعنة» (قالها بالألمانية وكررها باليونانية).

* * * * *

أسبوع واحد فى ڤيينا قضاه أندونيس مع إيفيت، كان بمثابة الهدية التى كان أندونيس قد وعد نفسه بها منذ سنوات طوال بعيداً عن المضايقات والخطط والمخاوف من المستقبل. وصل إلى فندق " شاخر "(دونّها بالألمانية) الفاخر الذى مازال يعكس مجد هامبورج البائد بأثاثاته باروكية الطراز، ولوحاته العتيقة من طراز القرن التاسع عشر المعلقة فى كل غرفة. وفى الجهة المقابلة كان مبنى الأوبرا يقف شامخًا أمامه، حيث كانت إيفيت فى كل مساء تستمتع إلى الفنون الشعبية التى كانوا يقومون بعمل بروفاتها، وكانت من الأعمال الفنية المحببة لها. فى" مقهى "(ذكرها بالفرنسية) الفندق، كانت شابات فيينا الجميلات ذوات العيون الواسعة والشعر الداكن القصير الذى تم تصفيفه وفقًا لأحدث موضات (á la garçon)، كانت تلك الفتيات الجميلات يقدمن

الحلوى التى يشتهر بها الفندق وهى "حلوى شاخر" (ذكرها بالفرنسية) لأفراد الطبقة العليا فى المجتمع، تلك الحلوى الجميلة التى فكرت إيفيت فى أنها ستنال إعجاب روكساني. بدأ شهر ديسمبر وبدأت فيينا تستعد لاستقبال أعياد الميلاد بحدائقها المكسوة بالجليد. لم يعد لتلك اللفحات الصيفية التى عاشها فى باريس وبرلين أدنى أثر هنا فى عاصمة النمسا. وقد بدأت مظاهر الاحتفال بالفعل منذ الثامن عشر من نوفمبر. وقد استعدت محلات بيع الزهور بالزهور النادرة، وكذلك استعدت الأشجار المصفوفة على جانب الطرق بدورها لكى تصبح أدوات للزينة فى صالونات المنازل وقاعات الفنادق. وقفت إيفيت أمام واجهة أحد المحلات، وأشارت لأندونيس على أحد التماثيل الطينية التى تزين مشهد الميلاد، ثم قالت ضاحكة: «إنه أحد أقربائى» (قالتها بالفرنسية ثم كررتها باليونانية). ولأنه لم يفهم ما قالته، استكملت قائلة: «ألم تفهم؟ هذه التماثيل تسمى شانتون».

فى "محل بيع المعلبات" (قالها بالإنجليزية) توجد كل أنواع الفاكهة فى أغلفة فاخرة. وكانت المدينه كلها تحفها غلاف من الموسيقى الدينية لمؤلفين مشهورين مثل: هنديل، هاودن، موتسارت. وكانوا يستمعون إلى مقطوعات "المسيح" (ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) فى قاعة (Musikverein) الفاخرة . كانت إيفيت ترغب فى سماع كل تلك الألحان الدينية، أما أندونيس فقد أصيب بالسأم من مجرد سماع فكرة التنقل من قاعة إلى أخرى، لكنه فى النهاية إستطاع أن يقنعها بتعويض كل رغباتهما بقضاء ليلة فى الأوبرا، حيث يمكنها منافسة تلك الزينة والمجوهرات الفاخرة التى ترتديها نساء الطبقة الأرستقراطية فى فيينا. وفى البنوار الذى كلف أندونيس مبلغًا كبيرًا من المال، إستطاعا أن يستمتعا بالألحان الجميلة لأوبرا "الهولندى الطائر" لڤاجنر، وأن يعلق بنظرات وإبتسامات المحب للفن على هذا الجمهور الذى يبدى إحترامًا مطلقًا تجاه تلك العروض الحالمة فى مكان مثل هذا، حيث يحبس الناس فيه أنفاسهم. وربما تكون قلة الحركة لفترات طويلة هى التى أرهقت أندونيس أكثر من موسيقى فاجنر الرخيمة.

أندونيس: «ربما أكون قد كبرت فى السن، يا إيفيت ، ماذا أقول» هكذا قدم أندونيس اعتذاره فى النهاية.

إيفيت: «"مستحيل" (قالتها بالفرنسية)، رجل مثلك مستحيل أن يكون قد كبر فى السن» قالتها هامسة.

كانت إيفيت تبدو سعيدة، تماماً مثلما كان يبدو جمالها متألقاً، جميلة رقيقة فى ثوبها الحريرى ومجوهراتها التى كانت تعانق الفراء الذى ترتديه. لم يستطع أندونيس أن يمنع نفسه من الفخر بمثل هذه المرأة التى لم تكن فى الواقع تطلب الكثير حتى تشعر بالرضا: فكانت تكتفى بجولة سريعة فى " شارع رينج" وصولاً إلى "ميدان ستيفان"، حتى يستمتعا عن قرب بتلك المسلة من الطراز القوطى للقديس إستيفانوس؛ تراها تبدى سعادتها كطفل صغير من منظر أهل فيينا وهم يقطعون الشوارع بسرعة، ممسكين قبعاتهم فى مواجهة رياح الشمال الشديدة التى تهب على المدينة فى فترة عيد الميلاد، كانت تشعر بكل هذه السعادة فقط لأنها توجد بجانبه، بجانب أندونيس. أما أندونيس فكان يشعر بالتأثر تجاه إخلاصها له، رغم أنها كانت تناديه باسم أنطوان لأنها لم يكن باستطاعتها أن تناديه باسمه بطريقة صحيحة؛ لقد منحته لحظات فريدة من السعادة طوال تلك السنين، وأصبحت أكثر من مجرد عشيقة: إنها صديقة حقيقية يستطيع أن يعتمد عليها فى الوقت الذى كان الجميع - رجال ونساء - يشاركون ولو بقدر ضئيل فى خيانته. كان يشعر بمدى اعتزازها به وهى بجانبه، فكانت تبدو هادئة مطمئنة؛ كان يشعر بمدى امتنانها له وهى ترتشف من حبه العجوز، كانت تمنحه الثقة بكل صدق فى كل موقف صعب كانا يواجهانه معاً. كان يشعر بأنه محظوظ لأنه يحظى بمثل هذه المرأة.

أما إيفيت، فمن ناحيتها، كانت تشعر بأنها حقاً سعيدة بوجودها فى مثل هذه المدينة، حيث تستمتع بالاستماع فى كل ركن منها لإحدى مقطوعات شوبرت أو موسيقى الفالس لشتراوس. كانت موسيقا بيتهوفن الحالمة وعبقريات موتسارت تداعب أحلامها، تلك الموسيقى التى لا تشبه على الإطلاق ذلك الفن الفاسد فى باريس. كل شىء كان

يحمل الطابع الكلاسيكى، بقيمه المختلفة التى لا تستطيع أن تتجاهلها حتى لو كانت لديها الرغبة فى ذلك. أما فى مدينة النور المخادعة فكل شخص يعد عبقريًا، وقد تسبب عشق الفن فى إغلاق العديد من المنازل والقضاء على حياة العديد من الناس، على العكس من ڤيينا التى لم يكن شخص - مثل موريس شانتون - يجرؤ على ادعاء الفن، ولا يجرؤ على خداع أحد بموهبته الزائفة. إضافة إلى ذلك، فقد وصلت إيفيت إلى ڤيينا هربًا من عشقها لروكسانى، فقد أيقنت فى النهاية أن الحب ليس سوى مغامرة صداقة بين روحين تتطلعان إلى نفس الأفق. إلا أنها لم تعد تشعر بهذا مع روكسانى، وربما لم تشعر به مطلقًا. ربما كانت إحداهن تستغل الأخرى طوال تلك السنوات. لم تعد تحبها لأنها لم تعد تشعر بجانبها بالأمان. فامرأة فى مثل عمرها لابد أن تشعر بالأمان لكى تحب، وهو ما حدث بالفعل مع أندونيس. أو ربما لم يكن الأمر كذلك؟ ربما نكون مخلوقات متميزة، حتى مشاعرنا، على العكس مما يعتقد الكثيرون، ينبغى أن لا تتجزأ وأن يستمر الأمر هكذا دائمًا، الأمر يستحق أن نتفحص فى كل مرة الحاضر، واضعين فى الاعتبار اختيارات الماضى. وبهذا نصبح سعداء، مرتاحى البال أبد الدهر فيما نحياه. لم يكن لدى إيفيت أدنى شك فى هذا، وكانت تبدى قدرات خاصة فى تحقيق رغباتها، وفى علاقاتها مع الناس، وكانت تتخلص بشكل تلقائى من كل ما يمكن أن يغير فكرتها عن نفسها. وأصبحت قادرة على تحقيق ذلك فيما يخص حياتها، ففى أعماقها كانت تحمل روحًا بريئة، لكنها لم تكن قديسة على أية حال، ولكنها إنسان نقى، شخص ساذج يسكن فى برجه العاجى، نسخة جديدة من موريس شانتون ولكن فى هيئة نسائية. بهذه القدرات استطاعت إيفيت أن تحيا بجوار رجل لم تفكر أبدًا فى كل مرة من أين يأتى وإلى أين يذهب، فالأمر يحتاج إلى نفس بريئة تستطيع أن تتحمل تلك الحياة المزدوجة لشخص آخر. غير أن أندونيس أثناء وجودهما فى فيينا، وبدافع من الثقة المتبادلة بينهما، كان قد ارتكب خطأ جسيمًا، وكأنه يستنفر تلك الروح غير البريئة، عندما بدأ يتحدث فجأة وبدون سبب عن زوجته وأبنائه، مقدمًا لها أبعادًا حقيقية لمخلوقات كانت حتى هذه اللحظة تبدو لها كأشكال غير واضحة المعالم. وكانت لهجة

وطريقة ماخوس فى ميونيخ هى الفتيل الذى أشعل غضب أندونيس الشديد، مما أعاقه عن الاستمتاع بجنة ڤيينا.

«أيكلمنى هذا الشقى بتلك الطريقة!» أخذ أنطوان يردد هذه الجملة مرات عديدة. وعندما يغضب المرء تجده يتخلى عن حكمته بسهولة فى الحفاظ على سرية موضوعة؛ وفى محاولته تبرير غضبه الشديد، لم يتوقف أندونيس فقط عند ما حدث فى ميونيخ ولكنه تطرق إلى الحديث عن أفراد أسرته غير الجديرين بثقته - بداية من تلك الفضيحة الغبية التى سببتها قصة حب كوستيس لچيهان، أو عن أعراض الشذوذ التى بدت على ماخوس أو عن داء السرقة الخاص بذافنى - مما كان له عظيم الأثر على مكانته واحترامه " باعتباره رب أسرة " (دوّنها باللاتينية).

- «"عزيزتى"(قالها بالفرنسية)، ليست لديك أدنى فكرة كم كافحت ومازلت أكافح. إذا ما جلست لكى أشرح لك يومًا من الأيام، بالقطع سأجعلك تجهشين بالبكاء» قال لها ذلك، ولكنه لم يحدثها أبدًا عن حياته.

- «يا لك من مسكين. لابد أن الأمر كان مؤلمًا» هكذا أبدت إيفيت ملاحظتها (باللغة الفرنسية)، وعندئذ تذكرت حديث إلياس عندما كانا معًا فى مدينة إسطنبول وقال لها بالحرف الواحد «كان أنطوان طفلاً فقيرًا».

- «"بالطبع كان كذلك!" (قالها بالفرنسية)، ثم بعد ذلك ماذا كانت كلمة الشكر؟ خيانتهم، نعم! أنت الوحيدة التى لم تسبب لى أى ألم، يا طفلتى الصغيرة».

وبدلاً من أن تشعرها كلمات أندونيس بالرضا، شعرت بالفزع. فلم يكن أنطوان المسكين يعرف مع من يتعامل! لكنها على الأقل لم تحاول أن تخونه مثل باقى أفراد أسرته، ربما لأنها لم تحتج إلى ذلك لكنها بالطبع لم تخنه.

فى تلك الأثناء، كان أندونيس، وكأنه يعاند قدره المستمر فى القفز من موضوع غريب إلى آخر أغرب منه، فسألها بجدية:

«هل فكرت فى يوم من الأيام أن يكون لكِ طفل؟» هكذا سألها أندونيس وعندئذ انخرطت إيفيت فى الضحك. فاستطرد قائلاً: «ليس بالأمر المضحك!» قال أندونيس ذلك (باللغة الفرنسية) وهو يشعر بشيء من الإهانة.

- «سامحنى، لا أقصد السخرية. لكننى فقط أكره الأطفال. لم يصادف وتناقشنا فى هذا الأمر من قبل، لكن ينبغى أن تعرف أن هناك شيئين أكرههما فى حياتى: الأطفال والفنانين».

- «ولكن لماذا؟» (سألها بالفرنسية).

- «الأطفال يولدون لكى يعذبوا الكبار، أما الفنانون فيبقون دائمًا أطفالاً».

- «هكذا إذن!» (قالها بالفرنسية).

عندما لا ينزلق أندونيس وإيفيت إلى مثل هذه المناقشات، يلهب العاشقان روحيهما بالحب الذى افتقدا أهميته بين جدران شقة شارع السلطان حسين. فى ظل هذه المشاعر الملتهبة كانت إيفيت تشعر بأنها قامت بمراجعة حياتها العاطفية. فعلى سبيل المثال، عندما تتولى حلاقة ذقن أندونيس، وبينما تحلق شعره الأبيض الذى يمتد حتى رقبته، كانت وكأنها تعود إلى أيام عشقها فى باريس، عندما منحت حبها وكل روحها إلى إلياس، وهى معتقدة أنه سيظل عشيقها مدى الحياة ؛ وعندما يجلسان فى أحد المقاهى الراقية بالمدينة، ويعدان نفسيهما للقاء عاطفى، كانا ينظران إلى بعضهما البعض بعيون العاشقين وهما يحتسيان القهوة بمقهى " ميلانج الشهير" فى ڤيينا، بينما يضع النادل أعداداً من الصحف والمجلات على مائدتهما، فى تلك الأثناء، عادت إيفيت قليلاً بذاكرتها إلى الشهور التى كانت فيها على علاقة بفيليب جاكو.

وفى الجناح الإمبراطورى بالفندق، كان الفراش مزدوجًا؛ أما بالنسبة لإيفيت فكان يبدو أضعاف ذلك، حيث كانت تستدعى فى مخيلتها أشباح الحب الخاصة بروكسانى وفريد، فى الوقت الذى يستعد فيه أندونيس لمطارحتها الغرام، مستحضراً كل قوة لديه تركها له الزمن. أما هى ، فكانت تعرف كيف تمنحة الثقة دائمًا فى نفسه،

فأخذت تمازحه بقولها: «حقًّا! (قالتها بالفرنسية) كان لابد أن يكون ابنك الصغير هنا في هذه اللحظة ليرى من هو العجوز!». أما الشيء الوحيد الذى كان يضايقها منه فهو: شاربه الرمادى الذى كان يوخزها فى مختلف أنحاء جسدها، مما كان يجعل أندونيس يضحك ساخراً.

كانت السبعة أيام التى قضتها معه فى ڤيينا بمثابة قداس لهذا الحب المحرم الذى لم يفتر بمرور السنين، ولكن حق لهذا الاحترام المتبادل بين العاشقين وتسامحهما أن يحتفظ بشيء من بريقة الأول. فإذا كان لإيفيت أن تتذمر من شيء فكانت تتذمر دائماً من "العودة إلى الأسر" فى شقتها الواقعة بشارع السلطان حسين، تلك الشكوى التى تعوَّد أندونيس منذ زمن أن يقابلها بالإبتسام.

* * * * *

«إنها إذن "الموضة الجديدة" [١٥] (قالها بالفرنسية) فى أوربا!» قال ذلك إلياس معلقًا وهو يستمع إلى أندونيس الذى كان يصف له انطباعاته عن رحلته الأخيرة بمشاعر مختلطة. أما أندونيس، الذى كان ينتظر من " اللبنانى" أكثر من مجرد تعليق، فقد أصيب بالإحباط بعض الشيء. فإذا لم يكن باستطاعة خورى إبلاغه بالمتغيرات التى حدثت فى أوربا، وأن يضيء له الطريق فيما يختص بهذا الخطر الذى يشكله هذا العالم الجديد - "عالم ماخوس الجديد" (ذكرها بالألمانية) - وكذلك للظروف السياسية فى إيطاليا بعد صعود موسولينى للحكم؛ فمن يستطع إبلاغه، إذن؟

استمر أندونيس إذن فى إطلاق وابل من المعلومات المتنوعة، مع اهتمامه الشديد بإظهار انبهاره أحيانًا وقلقه فى أحيانًا أخرى، فى محاولة منه لانتزاع رأيه القيم فى مثل هذه المناقشات. لكن إلياس كان يتابع حديثه دون أن يتفوّه بكلمة، غير راغب فى الوقوع فى الفخ الذى نصبه له.

---

(١٥) الموضة الجديدة: أى "جيل الشباب الطليعيين فى أوربا" (المراجع).

وعندما بدأ أندونيس يتحدث عن نظام حكم موسوليني بكلمات معبرة، علق إلياس مرة واحدة فقط، بطريقة متهكمة، قائلاً:

- «يبدو أن " الرفيق "(قالها بالفرنسية) موسوليني قد أثر فيك بشدة».

- «بالفعل، فهذا الرجل قد اتخذ قراره بتغيير مصير بلده وشعبه، لقد أعرب عن عزمه القيام بمشروعات طويلة الأجل وعطايا عظيمة سيقدمها للناس».

- «"في هذه اللحظة" (قالها بالفرنسية)، لابد أن يُأمِّن موقفه. فبعد اغتيال ماتيوتي أصبح في خطر».

"يبدو أن هذا الرجل (يقصد إلياس) كان على علم ببواطن الأمور، وطوال هذا الوقت جعلنا نعتقد بأنه لا يعرف أي شيء"، هكذا فكر أندونيس وابتسم راضيًا بأنه استطاع حتى ولو للحظة أن يجر بإلياس إلى فخ الحذر.

- «اغتيال ماتيوتي، نعم، لقد سمعت شيئًا عن هذا وأنا في ميلانو. إنهم يتهمون دوتشي، لكن لم يتم إثبات ذلك حتى وقتنا هذا، وأنا أحدثك عن وقائع وعن كل ما رأيته بعيني» هكذا رد أندونيس على اللبناني، دون أن يكون متأكدًا من أنه يصدق أي مما قاله، وأضاف: «إنه ميلاد جديد مرة أخرى لإيطاليا. وفي هذه المرة ليس فقط للفنانين أصحاب الخيال الواسع ولكن أيضًا للعالم بأسره».

"نعم ولكن هناك شخصًا آخر يكره الفنانين"، هذا ما جال بخاطر إلياس واتجه بذهنه على الفور لإيفيت. ثم قال محاولاً الإيقاع بأندونيس في الكلام:

«إذن أنت تصر على أنك لم تلتق إيفيت».

- «نعم، وسبق أن ذكرت لك ذلك، وأنا السبب، فقد ظهرت بعض الأعمال التي لم أكن أتوقعها».

"فلتذهب إلى الجحيم، أيها العجوز، يا من تحاول أن تستغفلني" هذا ما جال بخاطر إلياس، لكنه استطرد قائلاً لرجل صناعة الدخان اليوناني:

– «هكذا إذن! (قالها بالفرنسية) "العمل يأتى أولاً" (قالها بالإنجليزية)، كما قلنا».

– «"هذا هو كل ما فى الأمر"(قالها بالفرنسية)، قل لى حقًا، ألا يثير اهتمامك كل ما يحدث فى ألمانيا وإيطاليا؟ وكأنك لا تعرف شيئًا!».

– «"أقسم لك"(قالها بالفرنسية) ليس لدى أدنى فكرة عما يحدث فى أوربا. مضى وقت طويل منذ أن سافرت آخر مرة. فالعمل يشغل كل وقتى» هكذا أجابه إلياس وهو يأخذ سيجارة قدمها له أندونيس من علبة السجائر الفضية الموضوعة على مكتبه. انحنى لكى يأخذ القداحة المقوسة، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وأضاف قائلاً: «إنك دائمًا ما تدهشنى، يا أندونيس، وأنت تتحدث هكذا، فأنت أحد الموالين لـڤينيزيلوس وتتحدث بهذا الشكل عن موسولينى!».

– «وماذا تريدنى أن أقول؟ لا شيء يحدث ونحن نمسك بالصليب فى أيدينا وكلانا يعرف جيداً ذلك أكثر من الآخرين. وبما أنك تتحدث عن فينيزيلوس، "لحظة واحدة" (قالها بالفرنسية) سأستدعى لك خصمًا عنيدًا»، ثم ابتسم وضغط على زر الجرس.

ظهرت ڤوليا بوجهها الشاحب عند الباب فقال لها:

«نادِ على يورغوس».

ومنذ تلك اللحظة بدأ أندونيس ملاحظة ردة فعل إلياس باستمرار، فى محاولة منه لتحليل تلك الانطباعات التى تبدو على وجهه والتى قد تؤكد ظنونه فى احتمال تورطه فى تلك المؤامرة الخطيرة.

– «ها هو يورغوس، لماذا تنظر إليه وكأنك لا تتذكره؟» قال ذلك أندونيس فور دخول المحاسب من باب المكتب، إلا أن إلياس أجابه:

«أمن الضرورى أن أتذكره؟».

- «كان لدى إنطباع بأنكما سبق وأن التقيتما منذ وقت قريب» لم يبد على إلياس أى اضطراب أمام المحاسب، ولكن الشىء الوحيد الذى لاحظه إلياس هو أكمام قميصه المتآكلة التى يرتديها منذ أعوام. ثم قال إلياس معلقًا:

- «إنها المرة الأولى التى أرى فيها موظفًا يدخل مكتب مديره مرتديًا تلك الأكمام. ويبدو فى هذا المكان، لا أحد يستطيع الحصول على فترة راحة بسبب العمل الكثير». ويبدو أن هذا هو الانطباع الذى أراد يورغوس أن يأخذه الآخرون عنه طوال السنوات الماضية، فقد أظهرت الابتسامة المرسومة على شفتيه مدى رضاه من ذلك.

تذكر أندونيس فى النهاية أن يسأل إلياس:

- «أتعرف فى الإسكندرية عائلة تحمل اسم أس ؟».

- «شىء ما يوحى به هذا الاسم، لماذا؟».

- «إذن ربما يوحى لك اسم هتلر بشىء؟»

- «هتلر!. لا، لا يوحى لى بشىء» هكذا كان رد إلياس، ولكن يبدو أنه كان كاذبًا.

* * * * *

كانت العودة إلى الإسكندرية بمثابة ميلاد جديد بالنسبة لإيفيت بدأت من الميناء بممراتها المرصوفة والمخصصة للجمارك، حيث كان فى استقبالها أمواج متلاحقة من الطرابيش والجلاليب وعمامات الرأس. كانت العودة إلى مصر بسمارها، وبهذا العدد الهائل من "الحمالين"(ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) الذين انقضوا بالعشرات على الباخرة، مشهدًا كفيلاً بأن يمحو من ذاكرتها صورة الحضارة الأوربية، وبخاصة ذكرياتها النفيسة لرحلتها فى أرض ميلادها. وفى محاولة منها لإنقاذ حقائبها من هجوم الحمالين البدائيين شبه المساطيل، احتاج الأمر لأن تكافح بمعنى الكلمة ضد كل هذه الأيدى الضخمة التى امتدت إليها من كل صوب. كلمات

عربية دسمة مثل الزبد "الفلاحى"(يذكرها بالعربية ويدونها بحروف يونانية)، كانت تسمع أزيزها من حولها مثل الذباب، أحاطتها الابتسامات الساذجة والعيون الحمراء المليئة بالنيّات الخفية فى هذا الصراع الذى يفوق الاحتمال .

وسط هذا الطوفان الكبير، لم يكن أندونيس موجوداً. فقد شاهدته وقد جرفته الأمواج البشرية، عاجزاً بأية حال من الأحوال أن يقدم لها شيئًا أكثر من ابتسامة تشجيع، على الأقل فقد نجا هو من ذلك. ففى اللحظة التى وطئت فيها قدمه أرض مصر، حرص سائقه محمود على تخليصه من هذا التجمع البشرى.

فى تلك الأثناء، وفى محاولة منها أن لا يغيب عن ناظريها هذان الشيالان اللذان حملا حقائبها وشرعا بالنزول بها من على سلم الباخرة بحركات أكروباتية، شعرت بأنها ستسقط على الأرض، حيث كان من الخطورة الاندفاع فوق تلك السقالات الخشبية، كما لو كانت واحدة من تلك الحقائب. كان من الممكن أن تصبح فى موقف أسوأ بكثير لو لم يظهر فجأة رمزى البواب، وهى لا تدرى من الذى أخبره بمجيئها، فقد وضع رمزى نهاية لكارثة نزولها من الباخرة. وبعد قليل بدأت تتحرك تجاه شقتها بعربة حنطور محملة بأغراضها، فى حين تعلق رمزى بعربة الحنطور من الخلف وأخذ يوجه العربجى بصوته الأجش. تركت إيفيت رصيف الميناء المزدحم غير مصدقة أنها تمكنت من الإفلات بسهولة من هجوم الحمالين.

كانت شمس شتاء الإسكندرية الحنون تشع فوق رأسها، وأخذت تقول لنفسها (بالفرنسية)، بإحساس مريح: «أخيراً، عدت». أيًا كان الذى تعنيه لها أوربا من قبل فقد عادت فى النهاية إلى منزلها، هنا فى الإسكندرية. لقد ظلت رحلتها فى شتاء شمال إيطاليا القارس، حيث بدأت رحلتها بميلانو ثم أتبعتها بفيينا - فيما بعد - كذكرى فى عقلها الباطن وكأنها حلم رأته فى الليلة السابقة. كان مرورها عابراً على هاتين المدينتين، ومن جهة أخرى، اكتفت إيفيت بوعود أندونيس لها بالقيام بجولات أكثر فى ميلانو وفيينا فى رحلة قادمة. على الأقل فقد تمكنت أن ترى من بعيد الأوساط المشهورة من الفنانين، فالفنانون الذين تعشقهم كانت تراهم بشكل أو بآخر كل عام

فى الإسكندرية تحت قيادة توسكانينى العظيم على مسرح " ألامبرا" أو على مسرح "محمد على"، أو فى شارع فؤاد، كما أعجبت، وإن كان ذلك من بعيد، بالكاتدرائية فى ميدان "دل دوومو"، ومن ورائها الثلوج التى كانت تشكل خلفية بديعة لها، ثم دقت الأجراس بشكل منتظم فى (Galleria Vittorio Emanuelle II). لقد شاهدت كل ذلك فى صحبة أندونيس، ولكى تكون صادقة مع نفسها، فإنها لا تعرف إذا ما كانت تريد شيئا أكثر من ذلك فى الوقت الحالى أم لا. كانت ميلانو مليئة بأنماط من الشخصيات: مثل چوزيبى، وهو رجل مضحك برأس مربعة وشارب قصير، وهو من تولى تنقلاتهما وكان يغازلها أمام أندونيس. كان هذا المتغطرس مرابطًا أمام عجلة القيادة، ممسكًا بسيجارته التى قد يظن البعض أنه لا يطفئها أبدا، وكان يحيِّى أصحاب القمصان السوداء من الفاشيين، ويتحدث عن الطرق الجديدة التى سيشقها دوتشى عبر الجبال فقط إذا ما تركه هؤلاء المتحذلقون. فى شوارع ميلانو، كان الفاشيون أصحاب القمصان السوداء، التابعون لموسولينى، يشبهون "أصحاب الأقنعة "(ذكرها بالإيطالية) فى الحفلات التنكرية، وبخاصة وهم يسيرون متخفين، فى حين لم تكن حدة اغتيال ماتيوتى قد هدأت بعد منذ الصيف الماضى، وسرت الشائعات بإغلاق صحف المعارضة حتى نهاية الشهر، كما بدأت حملات التفتيش فى منازل أعداء الفاشية. شهد أحد الأزقة المجاورة للفندق حادثًا مؤسفًا: فقد شوهد رجلان بملابس مدنية وهما يطاردان شابًا نحيفًا قام أثناء مروره بإلقاء حفنة من المنشورات أمامهما تتبع جماعة "أونيتا".

أما بالنسبة لڤينيسيا، حيث وصلا (إيفيت وأندونيس) بالقطار فى طريق فاصل حيث تغيرت الطبيعة الساحلية للمدينة، داعبتها تلك المدينة الرومانسية ببحيراتها الساحرة. وقد عانى أندونيس وهو يشرح لها، دون جدوى، الطريقة التى شيدت بها المدينة فوق خليج مجموعة من الجزر، وكيف أن "قناة جرانت" تمر من خلالها كالثعبان، وكيف يحيطها مائتا قصر، أما من جانبها قد حاولت إيفيت، دون جدوى، أن تستوعب هذا التناغم غير المعتاد بين الصخور والماء والهواء فى هذا المكان العتيق. كانت الساحة المرصوفة بميدان سان ماركوس قد غطتها الثلوج، لكن إيفيت كان عليها أن

تتذكر تلك اللحظة التى عبرت فيها بالجندول من أسفل كوبرى العشاق، فى اليوم الأخير لها قبل العودة، وقد ضمها أندونيس بقوة بين أحضانه، كما لم يفعل من قبل، ثم همس فى أذنها قائلاً: «من بين كل ما عشناه معًا، أريدك أن تذكرينى دائمًا بهذه الأحضان».

وفى باخرة العودة، سار كل شىء بطريقة غريبة. فقد تصادف أن يسافر معهما هذا الإيطالى الثرثار، إرنستو كالكانى، الذى يمتلك مصنعًا فى الإسكندرية، كما كان يعمل مع أندونيس فى بعض الأعمال. وكلما فتحت إيفيت الباب الذى يفصل بين كابينتهما، لا تجد لأندونيس أى أثر، وعندما تشكو له ذلك كان يوضح لها أنه كان يرافق هذا الرجل وزوجته إلى الصالون الموجود فى الدرجة الأولى، لأنه لم يكن يرغب فى إثارة الشك فى أنه يسافر بمفرده فى تلك الرحلة. أما إيفيت فكانت بدورها تشك فى أن أندونيس كان يغازل زوجته إرنستو. وكانت تقول:

«لقد لاحظت الطريقة التى كانت تنظر بها إليك هذه الإيطالية القذرة؛ وعليك أن تدرك جيداً أنك لو اقتربت من هذه المرأة فسوف أقتلع لك عينيك، يا أنطوان، " هذا ليس مزاحًا" (قالتها بالفرنسية)».

أندونيس: «إنك تثنين علىَّ عندما تغارين على رجل فى مثل سنى».

كانت حماقة منها أن تشعر بالغيرة على أنطوان. لكن عندما تكون مجبراً على عبور البحر الأدرياتكى المضطرب فى كابينة مغلقة، تمر بذهنك أفكار غبية ناهيك عن أنه بعد أن أفصح لها أندونيس فى فيينا عن بعض الأسرار الخاصة به أصبحت لها حقوق أكثر فى حياته. وهو بالطبع ما كان يستلزم منها العكس: فكان لزامًا عليها أن تبعده تمامًا عن كل ما يتعلق بحياتها الأخرى من أحداث. لقد تساءلت أكثر من مرة ما الذى يمكن أن يحدث لو شعر أندونيس بالحاجة لقضاء وقت ممتع فى مكان مثل منزل شارع مصطفى باشا. وبالتأكيد كانت ستنفصل عنه إذا ما أقدم على فعل شىء مثل هذا. أما أندونيس فلم يكن بهذا " الغباء "(قالتها بالفرنسية) لكى يعرِّض سمعته للخطر، فى الوقت الذى يستطيع الإبقاء على عشيقة واحدة فى المدينة كلها.

وبالنسبة لعودتها لحياتها المعتادة فى منزل مصطفى باشا، ذلك المنزل الذى كان يخفى لها دائمًا المفاجآت غير المتوقعة، فقد وجدت أن هناك من جاءه الإلهام وقام باستبدال سهير، التى كانت طوال تلك السنوات تعتنى بها وبالمترددين على المكان، بفتاة مصرية فظة، كل ما يشغلها هو ترتيب الأسرَّة أكثر من اهتمامها بالمطبخ وبالنظافة. نفس الشخص تقريبًا قام باستبدال الفتيات بالمنزل، ونتج عن ذلك أن إيفيت نفسها أصبحت تشعر بأنها غريبة فى هذا العمل. ولم يكن هذا الشخص سوى إلياس "اللبنانى" الذى أخبرها بصراحة وثقة بقوله :

«لقد تغير كل شىء هنا. فالسادة قلقون جدًا بشأن "العصر الجديد" (قالها بالإنجليزية). فمن ناحية كان هناك المصريون الوطنيون، ومن ناحية أخرى ظهرت الموجة الصهيونية، إيطاليا التابعة لموسولينى ثم ألمانيا الجريحة. لا أحد يعرف إلى أين سيقودنا كل هذا. "حتى تلك اللحظة "(قالها بالإنجليزية)، نحن بحاجة إلى شىء أكثر من اليقظة إلى الاختيار الدقيق للعاملين بالفيلا، وأيضًا إلى المعلومات الدقيقة»

كان هذا يعنى أن هناك واحدة أو اثنتين من بين فتيات المنزل تعملان مباشرة لحساب المخابرات البرطانية، وتقومان بنقل المعلومات لرؤسائهما مباشرة، دون أن تتكلفا عناء إخبار مديرة المنزل. كان بيت البغاء بشارع مصطفى باشا يتحول تدريجيًا إلى ثكنة عسكرية صغيرة، لكن إيفيت لم تكن هى القائد، وقد فكرت لوهلة أن تستقيل ولكنها كانت على يقين من أن الأمر لم يكن بيدها. ومن ناحية أخرى، لم تكن لديها أدنى رغبة فى تسليم هذا المشروع الذى عانت من أجله طوال تلك السنين لأى شخص آخر، والعودة للانعزال من جديد بين جدران شقتها فى شارع السلطان حسين. إلا أن هناك بعض العناصر الإيجابية التى ظهرت من خلال الوضع الجديد: فقد جرؤ إلياس أخيرًا على طرد بيتروس ثيميستوكليس "الأعرج" الذى لم تعد هناك حاجة إليه فى هذا المكان سواء بالحضور أو بإرسال فتياته إلى منزل مصطفى باشا، وقد أصرت إيفيت أن يتوقف عن القيام بواجباته بوصفه المورِّد الرئيسى للفيلا حتى لا يصبح أكثر ثراءً بسبب الأسعار الفلكية التى كان يحددها، وعندئذ أجابها اللبنانى:

«سوف يتم ذلك "فى وقته، كل شىء فى وقته" (قالها بالإنجليزية)»، أما هى فكانت على ثقة تامة بأن هذا الثراء الشديد لم يصب القبرصى، بل أصاب أيضًا عشيقها القديم أيضًا؛ فى الوقت الذى كان يضغط عليها كالمعتاد لكى تحافظ على علاقتها بضابط الشرطة فريد، قائلاً:

«أعلم كم هو مؤلم بالنسبة لك، ولكن لابد أن تفعلى ذلك من أجلنا».

إيفيت: «مؤلم؟ لا يمكن أن تتخيل كم هو مؤلم. بشكل لا يمكن أن تتخيله، يا عزيزى(*)» كانت إيفيت تقول ذلك متعمدة، وهى تعلم أن مثل هذه الموضوعات كانت تحرجه باعتباره رجلاً.

وفى محاولة منه لتلطيف الأجواء، سعى اللبنانى لإقناعها بالفتاة الفرنسية، زيزيل، واحدة من الفتيات الجديدات بالفيلا. كانت زيزيل بالفعل فتاة جميلة، ذكرتها بنفسها منذ خمسة عشر عامًا مضت، ولكن كانت نظرتها تحمل الكثير من التعاسة أكثر مما كانت تحتمل، وبالإضافة إلى ذلك، كانت إيفيت تخشى من أن تكون زيزيل واحدة من الفتيات اللاتى قام إلياس بزرعهن فى الفيلا للتجسس على الزبائن وعليها هى شخصياً لحسابه، ولذلك فقد أجابته: «هذا ما كان ينقصنى» (قالتها بالفرنسية ثم ذكرها مرة أخرى باليونانية).

* * * * *

منذ أن رحل ماخوس إلى ألمانيا، قد يعتقد البعض أن فيللا خاراميس قد عرفت طعم الهدوء، ولكن الحقيقة أن أندونيس عاد مرة أخرى للتذمر من هذا المنزل الكبير الذى يتكون من إحدى عشرة غرفة، ومن هذا الثرى كثير الأبناء الذى ينتمى إلى أوربا الشرقية والذى باع له هذا المنزل الضخم. «أنتِ السبب فى هذا»، هكذا استمر أندونيس فى ترديد هذه الجملة، ثم استطرد قائلاً: «بل هو جنون العظمة!».

وحتى تتجنب شكواه، فقد قررت ذافنى أن تفتح البيت أكثر وأكثر للمجتمع الراقى بالإسكندرية، أعضاء يأتون بأعداد كبيرة لإبداء إعجابهم فى الخفاء بمجموعتها

الصغيرة من الآثار المصرية التى تحتفظ بها، كما كانت الأصوات تهمس فى كل مكان عن ذلك التعاون المشبوه بينها وبين أخيها لوكاس سينجوس، لص الآثار المعروف. ومن بين تلك الآثار يقال إن صمويل عظيمان المعروف قد منحها ثلث الآثار التى كان يخفيها فى الطابق الأول بمنزله فى رشدى بالإسكندرية.

كان أندونيس يصم أذنيه أمام تلك الحكايات، فى حين كان يعتبر أن مجموعة الآثار المشهورة التى تملكها زوجته لم تكن، فى أحسن الاحوال، سوى قطع من الأحجار والبرونز عديمة القيمة. أما ما كان يشغله بشكل أكبر فهو: كيفية الدفاع عن سمعته أمام أى احتمالات سيئة لكشف داء زوجته ذافنى بالسرقة. وقد نصحه أحد الأطباء النفسيين بالخارج بأن يراقبها أثناء الحفلات التى تقام فى المنزل، حيث يؤدى الأمان الذى تشعر به فى منزلها إلى تقليص رغبتها الشخصية فى السرقة، أما أندونيس فقد كان مضطراً، دون رغبة منه، إلى فتح أبواب المنزل للحفلات. فى حين كانت ذافنى، كالمعتاد، تبالغ فى الأمر، وأغرقت الإسكندرية كلها بدعواتها حتى وصلت إحدى تلك الدعوات إلى إيفيت – عشيقته – التى كانت مستعدة، بحكم فضولها الأنثوى، للحضور إلى الحى اليونانى، وبالكاد استطاع خاراميس أن يثنيها عن ذلك بعد أن تأكد أن أسبوعًا واحدًا فى ڤيينا كان كافيًا لكى يجعلها تعتقد أن لها حقوقًا كثيرة فى حياته، وبخاصة بعد كل ما اعترف لها به عن ذافنى، فكانت تشير عليه دائمًا – ما بين الجد والهزل – بأن يطلقها. كان أندونيس يتأمل بفزع احتمال انفصاله عن زوجته وفى نفس الوقت، احتمال اكتشاف علاقته بعشيقته. "سيكون فى هذا دمارى!" هكذا كانت تحدثه نفسه. وفى الحقيقة كان أندونيس يدرك أن علاقته بذافنى لم تكن علاقة سوية منذ زمن بعيد، إلا أنه لم تكن لديه الرغبة فى التفكير فى العواقب الوخيمة التى سيدفع ثمنها فيما بعد على يد زوجته المتغطرسة. ومن ناحية أخرى، كانت تفزعه فكرة الحياة وحيداً فى المستقبل بدونها: لم تكن تخيفه الفضيحة فى المجتمع مثلما يخيفه اختفاء هذا الجو الأسرى الذى يجده فى المنزل عندما يعود من العمل. لم يكن يعرف ما الذى سيشعر به إذا ما عاد يوماً، ولم يجد ذافنى تنتظره جالسة عند المائدة المعدة بالطعام،

بكل هذا العدد الكبير من الخدم كل فى مكانه، بكل هذه الأنتيكات الغريبة من الماضى، فى هذا المكان الذى تتجمع فيه الذكريات الأسرية القليلة التى تضفى بلمساتها على الصالون المصرى الصغير، على طرف المنضدة الصغيرة، هناك حيث كان دائم التذمر بسبب وجود كل تلك الخادمات الجديدات اللاتى كن عديمات الفائدة فى كيفية إعداد المائدة وتقديم الطعام ، مما جعل ذافنى تقوم بتقديم الطعام بنفسها. ولذلك كان يقول لها دائمًا: «احسبى، من فضلك، كم نحتاجه هنا نحن الاثنان فقط من بين كل هؤلاء الخدم؟ ففى كل مرة أقوم بعدهم، يخيل إلىَّ أنك قد أحضرت خادمًا إضافيًا». كان أكثر شىء يصيبه بالعصبية، ليس فقط فى أنها لم تكن ترى أى مغالاة فى ذلك، ولكن لأنها كانت تصر طوال تلك السنين أن تشرح وجهة نظرها، إما باللغة الفرنسية أو بالإنجليزية، متجاهلة تعصبه للغة اليونانية التى أعلنها من قبل لغة رسمية للمنزل.

«ثم ماذا بعد، ما هذا الجنون الذى أصابك تجاه تلك المومياوات، ألا تخبرينى؟» هكذا كان يسألها مشيراً إلى مقتنياتها من الآثار التى كانت تشمل كل شىء عدا المومياوات، «لقد تحول صالون المنزل إلى مقبرة لتوت عنخ آمون» كان يقول ذلك، ثم يصاب بالاحمرار. وفى نفس تلك اللحظة كان يفكر بانزعاج: "ما الذى سيحدث إذا ما صبت علىَّ يوما ما غضبها؟".

أما من الناحية العملية، فقد أصبحت لذافنى اليد العليا فى حياتهما من زمن بعيد، وكأن غياب أبنائها قد أعطاها دفعة قوية للأمام. فبدأت تنظم كل شىء وفقًا لرغباتها، بطريقة عفوية، دون أن تمنح التقدير المناسب لعقل الأسرة المدبر؛ أما بالنسبة للمفاجآت الزوجية، فقد كانت تواجهها بهدوء نسبى، مجيبة ببعض الهمهمات التى لم تكن أذن أندونيس تميز منها سوى بعض الكلمات مثل "العجوز، القذر" (دوَّنها بالفرنسية). كان من الواضح أن ذافنى لم تعد تحترمه، كما لم تعد تحبه مثلما كانت من قبل، وإن كان هذا يضايقه إلى حد بعيد، لكن كان يعزى أسلوبها المرفوض لمرضها النفسى، وبدلاً من أن يغضب منها، كان يشعر بأنه مسئول بشكل أو بآخر عن حالتها.

ويبدو، فى النهاية، أن كل ما كان يجمعهما هو الخوف من الشيخوخة، وهو ما لم تكن ذافنى، فى هذا الوقت على الأقل، تشاركه فيه، حيث كانت تعيش مستمتعة بحياتها وكأنها شابة من جديد، مستمتعة بعدم شعورها بالمسئولية تجاه زوجها من ناحية، وتجاه "مجتمع الإسكندرية الراقى" (دونها بالفرنسية) من ناحية أخرى.

إنه لأمر غريب، فقد كانت تلك النميمة التى انتشرت عنها وكأنها جدار واقٍ لكل نشاطاتها، كما ظهرت بوصفها شخصية مشهورة فى فترة ما بعد الحرب مثلها فى ذلك مثل الإسكندرية نفسها التى كانت حالتها تعد، دون مبالغة، وكأنها معجزة عالمية.

وفى إطار المبالغات الاجتماعية التى واجهها أهل الإسكندرية فى العشرينيات والثلاثينيات، فقد تقبل الجميع حقيقة مرضها بداء السرقة. كان وجودها يشع مثل الضوء فى محلات الإسكندرية، وأصبح بعض أصحاب المحلات الذين يضبطونها وهى تسرق من محلاتهم؛ يرون أن ذلك من شأنه أن يميز محلاتهم. كان شيئًا "راقيًا" (دونها بالفرنسية) أن يتحدثون فى الصالونات فيما بعد عن ذافنى خاراميس التى تم الإمساك بها فى هذا المحل، وهى تسرق بعض الملابس الداخلية أو زجاجات العطور. كان مرضها بداء السرقة، الذى أصبح لا علاج له، قد أخذ يتحكم شيئًا فشيئًا فى رغباتها، وكلما حدث هذا، كلما أقدم الآخرون على إغوائها بالسرقة، فكانوا يتركون الأشياء الثمينة أمامها ويتوجهون للناحية المقابلة، آملين فى أن يكونوا قد نجحوا فى إغوائها وأن تمد يدها لتلك الأشياء لكى تسرقها.

كان لذلك التسامح دور كبير فى التأثير على السمعة التى اكتسبتها زوجة أندونيس فى الدوائر الاجتماعية بسبب تلك الحفلات الأسطورية التى كانت تقيمها فى منزلها فى الحى اليونانى. وبإحساس مفعم بالديمقراطية، كانت ذافنى تحتضن ليس فقط المجتمع اليونانى، ولكن أيضًا الأجناس الأخرى التى تعيش فى كنف الإسكندرية، فاتحة الباب لكل أصحاب المقامات الرفيعة؛ ضباط الجيش، القناصل، قضاة المحاكم المختلطة، مديرى البنوك، وأيضًا لبعض الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والألمان والنمساويين واليهود والسوريين، كل بالترتيب. كانت حديقة الفيلا الضخمة تعج أحيانًا

بالمدعوين بشكل يجعل من الصعب التحرك فيها. وكان بريق المجوهرات يبهر العيون، وتسلل رائحة العطور تداعب الأنوف، مزيج بين المال والجمال، بين القوة والتجارة، يلتقون في أجمل الأماكن، وإن حدث بينهم منافسة فلتكن في الرقص على أنغام الموسيقى، الذي كان ينتهي عادةً بصدام لا أهمية له، فوق سجادة يطأها الجميع بما يرتدونه من ملابس وبما يتسمون به من غرور.

أما أندونيس فقد كان يفضل أن يبتعد عن كل ذلك متذرعًا بأعماله الكثيرة، أو كان يحرص بالكاد أن يكون موجوداً من باب أن وجوده طبيعي، مقتصر على بعض الأشخاص الجديرين، وفقًا لما يراه، بالاستماع إلى وجهة نظرهم فيما يختص بالسياسة والمال. ورغم ذلك، كان أندونيس يبدى اهتمامًا شديدًا في كل مرة بقائمة المدعوين، مضيفًا بعض الأسماء التي من الممكن أن تكون ذات فائدة بالنسبة لأعماله. أما عن تكاليف الرقص والحفلات فلم يكن هذا الأمر يزعجه. فعلى العكس مما أشاعه منافسوه، شهد مصنع خاراميس للسجائر فترة رواج اقتصادى؛ ولكن حتى إذا لم يكن كذلك، فقد زادت ثروة ذافنى الخاصة بشكل مضطرد في السنوات الأخيرة، وبالطبع لا يرجع السبب لنشاطات أخيها التجارية في كفر الزيات. فالكل يعلم كيف أن ثروة عائلة سينجوس قد زادت بسبب تجارتها في الآثار المصرية في إحدى رحلات السفارى في الصحراء الوعرة. وفي هذا الشأن قال صمويل عظيمان الكبير ذات مرة:

«من المحتمل جداً أن تفوقني هذه المرأة في يوم من الأيام ثراءً»، وعلى الرغم من أنها لا تتعدى سوى بضع كلمات فإن ثروة ذافنى المتضخمة في السنوات الأخيرة أصبحت شيء معروف: أما أندونيس، فعلى الرغم من أنه كان عليه أن يطلب منها تفسيراً لهذه الأمور الغريبة التي تحدث في منزله، فإنه فضّل أن لا يسمع أو يرى أي شيء منذ تلك اللحظة التي أصبح فيها غير مضطر للإنفاق على هذه الحفلات من أجل إرضاء رغبات زوجته الكثيرة. فكان يكتفي في بعض الأحيان بهز رأسه مبديًا اعتراضه وكأنه يشير إلى أن زوجته ذافنى قد بدأت تفقد صوابها، ومع هذا أيضًا فلم يشأ أبدًا أن يعقب إلا في الوقت المناسب .

كل من لا يعرف شخصية أندونيس سيعتقد أن هذا التردد الواضح فى علاقاته بالآخرين كان مرتبطًا بكبر سنه، إلا أنه فى واقع الأمر كان يشعر بأنه أصبح حازمًا عن ذى قبل، وأنه إذا كان يتردد فى بعض الأحيان فإن ذلك مرجعه إلى تفهمه، ربما أكثر مما ينبغى، لطبائع الناس والصعوبات التى تواجههم إلى الحد الذى يجعلهم عرضة للفساد.

ولم تكن حالة يورغوس وميخيليس حالة مماثلة. فقد كان اكتشافه لحياتهما المزدوجة صدمة كبيرة له، حتى أنه لم يجد طريقة للانتقام منهما تجعله يشعر بالرضا، فترك لنفسه فرصة من الوقت، متلاعبًا فى نفس الوقت بإحساسه بالذنب تمامًا مثل القط والفأر.

لم يكن أندونيس على ثقة من أن أى عقاب سيوقع عليهما سيجعله يشعر بالسرور الذى يمنحه له رؤيته اليومية لذلك المحاسبة المرتعب. كان تلاعبه بالألفاظ يثير خوف يورغوس ويجعل لون وجهه يتغير إلى ألف لون، وكان أفضل شىء عندما ينظر إليه نظرة بها ابتسامة خفيفه من تلك التى تدل على أنه يعرف كل شىء، لكن لسبب مجهول لم يقدم على فعل أى شىء معه. وعندئذ كان من يعتبره "أخًا" له فى السابق يبدو وكأنه على وشك الانهيار، كان العرق يسيل من جبينه باردًا، تصاحبه آلام مفاجئة فى معدته تجعله ينثنى من شدة الألم.

«أى سجن فى العالم سيسبب لى إحساسًا بالسعادة أكثر من رؤية وجه يورغوس الذى يمنحنى الشعور بالسعادة كل يوم؟» كانت تلك هى إجابة أندونيس لسيستانيس الذى كان يضغط عليه من أجل إنزال العقاب على المجرمين. وفى الوقت الذى وصلت الموازنات المالية المزورة إلى القنصل اليونانى، الذى انتظر بدوره إشارة خاراميس حتى يبدأ فى إجراءاته القضائية ضدهما، كان أندونيس مستمرًا فى التلاعب بالخائنين.

«لقد أصبحت بينى وبين هذا المحامى خصومة كبيرة» هكذا أخبر أندونيس سيستانيس، وربما لهذا السبب كان أندونيس يدعو ميخيليس بشكل دائم إلى الحفلات حتى يجعله محط أنظار كل المدعوين، فكان يصيح قائلاً: «إنه يدى اليمنى»، وفى نفس

الوقت كان يجمع ضده بعض الأدلة عن الممتلكات الضائعة لتلك المرأة العجوز البائسة، وكانت تلك القضية وحدها كفيلة بإرساله إلى السجن لسنوات طويلة. أما ميخيليس، الذى لم يكن ساذجًا حتى يظن أن رقة قلب رجل الصناعة المفاجئة هى أمر طبيعى، فقد شعر بالسكين توضع فوق رقبته وهو يعلم أن الكشف عن أمره ليس إلا مسألة وقت.

وفى اليوم الذى قرر فيه أندونيس خاراميس أن يضع نهاية لهذه القصة، استدعى هذين الرجلين إلى قاعة الاستقبال بمصنعه، وأمام أندرياس سيستانيس ألقى على المائدة البيضاوية الأدلة التى تثبت جرمهما؛ الموازنات المالية المزورة التى قاما بتوقيعها لحساب خصومه. ثم قال بصوت هادئ، ولكنه فى نفس الوقت حاد:

«لقد كنتما غبيين حتى تضعا توقيعكما على هذه الأوراق التى سواء أكانت صحيحة أم لا، كان من السهل إثباتها، لا أدرى ما الذى دفعكما لذلك. لا أدرى إذا كانت عندكما أسباب لكراهيتى إلى هذا الحد حتى تفكرا فى تدميرى. أم أن هناك من أعطاكما مقابلاً أكبر مما أعطيكما. لكنى على يقين من أن عقابكما الذى سأسعى لتحقيقه بكل الطرق سيكون به خلاصكما أكثر من عقابكما».

كان هذا هو رأيه ولم يغيره حتى عندما استطاع فى النهاية أن يزج بهما إلى السجن، على الرغم من محاولات ذافنى لكى تثنيه بشتى الطرق عن قراره الخاص بتدمير ابن عمها الحبيب، لكن أندونيس بدا ثابتًا وكأنه قد حصل بذلك على نصره الأخير عليها هى وعائلتها.

* * * * *

«أنا آسف (قالها بالفرنسية)، ولكن فى هذه الليلة لدى "مدعوين" (قالها بالفرنسية) فى المنزل ولا أستطيع أن أتغيب عنهم» كان ذلك هو رد أندونيس على دعوة العشاء التى وجهها إليه إلياس أثناء خروجهما من بوابة المصنع فى مساء يوم الثلاثاء. كان الحارس يقف من خلفهما، وهو رجل أسمر البشرة صارم الوجه يضع على كتفيه شال ويرتدى "جلابية"، وقد قام بفتح البوابة الضخمة التى تحمل شعار (أ. خ).

إليـاس: «انس الأمـر إذن (قـالهـا بـالفـرنسـيـة)، ولكنى كنت سـأعـرفك اليـوم بشخصيتين مهمتين».

أندونيس: «ربما فى يوم آخر» هكذا أجابه (بالفرنسية).

وبدلاً من أن يستمر معه فى الحوار، قام اللبنانى بارتداء قبعته مبتسمًا ابتسامة أظهرت تجاعيد وجهه، حتى إن بشرته البيضاء تحولت إلى اللون البرونزى، لون أشعة الشمس وقت الغروب. عندئذ أخذ أندونيس يتمتم «بتحية المساء» ثم اتجه نحو سيارته، التى كان قد ركنها خلف المصنع تمامًا. توقف أندونيس لبرهة، لكن عندما أحس بأنه ينتظر بلا جدوى، أحنى رأسه سريعًا ثم أسرع بالدخول إلى المقعد الخلفى من باب السيارة بعد أن قـام السـائق مـحـمـود بفتحـه منذ وقت. لم يكن لديه وقت ليضـيـعه، على عكس إلياس، وهكذا أمر سائقه بأن يتحرك على الفور. وبينما كانت السياره تتحرك بمحازاة ترعة المحمودية، كان يرقب اللبنانى من المرآة، فرآه يشعل سيجارة ثم يقفز فى سيارته، إلا أنه لم يتحرك من مكانه وكأنه ينتظر شيئًا. وللحظة واحدة شعر أندونيس بالغيرة منه، فقد كانت لديه سيارة جديدة رياضية بسقف من الجلد، وبدا أنه بلا مشاكل: فهو رجل فى الخامسة والأربعين من عمره، وهى أفضل مرحلة عمرية، بدون التزامات، بدون مشكلات تشغل باله. استمر هذا التفكير طول فترة متابعة أندونيس "للبنانى". لكنه بعد ذلك كان ينبغى عليه أن يفكر فى هذا التجمع المسائى الذى ينتظره فى منزله.

ففى الأيام التى كانت ذافنى لا تفتح فيها منزلها لعلية القوم بالإسكندرية، كانت تحرص على الأقل على دعوة بعض الأصدقاء المنتقين لكى يمضوا وقتهم فى لعب الورق والثرثرة. وبسبب تلك العاده فقد أصبحت فيلا خاراميس البيت الثانى لبعض الناس، مثل نائب القنصل الفرنسى السابق، وأحد كبار موظفى بنك لاند وأحد تجـار القطن اليهود وزوجته. ولأنها كانت دائمًا ما تتحدث فى مثل هذه اللقاءات إلى هؤلاء الأصدقاء حول العديد من الموضوعات المتعلقة باهتماماتهم بالآثار، فقد كان البعض يدعى أن تلك اللقاءات كانت تتعلق بنهب الآثار؛ أما أندونيس الذى حضر بعض هذه الأمسيات، فقد كان يجد أن ما يدور من مناقشات بين الحضور ما هو إلا حوارات لا طائل منها.

خرجت السيارة عن طريق ترعة المحمودية واختفت فى أعماق محرم بك ، وقد عبرت شارع راصافا حيث يرتفع منزل البارون دى ميناسيه شامخًا. ثم مروا بعد ذلك من أمام المقابر ودخلوا فى شارع فؤاد، الذى كان أندونيس مستمرًا فى تسميته باسم شارع رشيد على الرغم من مرور أكثر من ثلاثين عامًا على تغيير اسمه. كانت الفلل الضخمة تنافس بعضها بعضًا فى هندستها المعمارية وفى اتساعها، فى حين كانت واجهاتها بحدائقها المزهرة التى كانت تشير إلى قدوم فصل الربيع تعطى بلا شك رقيًا واضحًا للطريق الذى كانت ذافنى تقول عنه إنه يتبع طريق كانوبى القديم. وعندما توجهوا بالسيارة لليسار نحو شارع العباسيين – حيث يقع منزله – كانت مصابيح الشارع قد أضيئت أنوارها بالفعل. ومن بين ظلاله الغريبة استطاع أندونيس أن يتبين ملامح شخص يعرفه، كان قد دخل على الفور من بوابة منزله الحديدية.

"هذا ما كان ينقصنى!"، هذا ما جال بخاطر أندونيس وهو يعبر بدوره من نفس البوابة. وسرعان ما جرى نحوه عدد هائل من الخادمات اللاتى كن يرغبن فى إثبات أنهن يقمن بعمل مفيد فى المنزل، فأخذت إحداهن معطفه، بينما أخذت الأخرى قبعته ، فى حين كافح جاهدًا من أجل أن يظل محتفظًا بحقيبة أوراقه التى تحوى أوراقًا مهمة لم يكن ليثق فى وجودها فى يد أى شخص غريب.

توجه على الفور لرؤية زوجته، التى كانت غاضبة منه بسبب ما حدث مع ميخيليس، وقال لها:

أندونيس: «يخيل إلىَّ أننى قد شاهدت الآنسة جابى وهى تدخل المنزل. لا تقولى إنك ستعيدينها إلى عملها من جديد»

ذافنـــى: «هذا ما أنتوى أن أفعله بالضبط» هكذا أجابته ذافنى (بالفرنسية).

– «لكن لماذا؟ فمن خلال ما أعرفه، نحن لسنا بحاجة إلى مربية. إلا إذا كنا سنتبنى طفلاً بدون علمى».

– «ولكنى لا أريدها باعتبارها مربية، أنا أحتاجها باعتبارها سكرتيرة، يا عزيزى».

- «أيا كان، أنت تعلمين جيداً أننى لا أحب هذه المرأة. إذا كنت حقًا تحتاجين إلى سكرتيرة، كان عليك فقط أن تقولى ذلك، كما كان بإمكانك ببساطة أن تقومى بتعيين فتاة أخرى».
- «على أية حال (قالتها بالفرنسية)، نحن نعرف هذه الفتاة جيداً، وهى شخصية محترمة وأنا أتعاطف معها، ماذا نفعل الآن؟».
- «أعتقد أنه ليس الوقت المناسب الآن للاستمرار فى هذا النقاش» هكذا أنهى أندونيس حديثه، فقد تعلم متى يتراجع؛ ثم استطرد قائلاً: «سأصعد لأستعد حتى أكون موجوداً فى الموعد».
- «سيكون من ألافضل أن تفعل ذلك» قالت ذلك زوجته (بالإنجليزية) بشكل غير مبالٍ تقريباً.

عندما صعد أندونيس إلى الطابق العلوى، رأى النور مضاءً فى غرفة الآنسة جابى القديمة، وقد شعر بعدم الارتياح بداخله من عودتها. حاول أن يستعد بسرعة حتى يستطيع العودة إلى الصالون، لكن يبدو، على الرغم من هذا، أنه قد تغيب وقتًا كافيًا، فعند عودته كان الجميع قد حضروا، وفى كل مرة كان يشعر بأن وجوده يسبب الإحراج لهؤلاء الناس. لهذا، فقد انتابته السعادة عندما شاهد بينهم إيميل شتايجر، نائب مدير بنك باكلين، وهو رجل سويسرى مهذب كان يثرثر معه بسعادة فى العديد من الموضوعات. كانت الطريقة الودود التى شد بها على يده لا تخفى غرضه الحقيقى، وكما تقول ذافنى، فإن زوجها يصبح رجلاً آخر إذا ما التقى ورجال البنوك، حيث يصبح متحدثًا ماهراً .

كان شتايجر رجلاً طويل القامة، ينتمى للجانب الألمانى فى سويسرا، وكان يعانى من قصر النظر، ورغم ذلك فلم يكن يرتدى نظارة طبية لأنه يعتبرها لا تليق بحضوره القوى وبملامح وجهه الفرنسية. لهذا كانت لديه حركة طبيعية يقوم بها دائمًا، وهى إلقاء رأسه إلى الوراء، إلا أن البعض كان يعتبر هذه الحركة كنوع من الاختيال. أما بالنسبة لأندونيس فلم يكن به شىء من هذا الاختيال، وعندما يستحثه أحدهم للحديث عن الوضع العالمى لصناعة الدخان، كان يلاحظ فى عينيه المتعبتين تلك النظرة الطفولية.

وبجوار مكانه المفضل تجد دائمًا زجاجة الويسكى، ولم يكن عليه فقط سوى إضافة ما يريده من الصودا. وعندما يطلبون منه الحديث عن السجائر، يتحدث ببطء وكأنه يجعل شخصًا آخر يتحدث نيابة عنه حتى يتمكن هو من متابعة باقى المدعوين. وفى اللحظة التى كان يشرح فيها لضيفه السويسرى الوضع العالمى لصناعة الدخان، ورد إلى أسماعه صوت ذافنى وهى تشتبك فى حوار مع امرأة مجهولة تصر على أن بيلزونى ودروفيتى مجرد دجالين كسبا ثروات طائلة من آثار مصر. ودار بينهما هذا الحوار:

ذافنـــى: «عزيزتى، قد أقبل مثل هذا الكلام عن دروفيتى فقط، أما بالنسبة لبيلزونى وزوجته فمستحيل، فقد كانت لهما رؤية حقيقية. وبدون هؤلاء الذين تدعى أنهما دجالان، ما كان لشامبليون أى وجود، أؤكد لك ذلك».

المرأة المجهولة: «لا تضعى شامبليون فى نفس المكانة مع هؤلاء».

«لم لا؟ فالآثار تشمل علوم عديدة: كالتاريخ واللغة والهندسة المعمارية...... ولن تأتى الآن لكى تنفى كل هذا».

– «ولكن عن أى علماء للآثار تتحدثين، إننا هنا نتحدث عمن يقوم بنبش القبور وسرقة الآثار».

– «إنه لأمر مؤلم (قالت ذلك بالفرنسية) أن تفكرى بهذه الطريقة، ستجعلين من السيد كارتر أيضًا نباشًا للقبور».

– «إن الكشف عن مقبرة كاملة غير مسروقة، مثل مقبرة توت عنخ آمون حدث مهم بالطبع، ولكنه يثير العديد من التساؤلات الجادة».

– «آه فلتصمتى إذن» هكذا قالت ذافنى(بالفرنسية) معبرة عن غضبها بطريقة واضحًا، حتى إنها أجبرت محدثتها على أن تهز رأسها بانفعال.

كان نائب القنصل الفرنسى السابق، الرجل العجوز ضخم الجثة، يضغط كل حين بإصبعه على نظارته الطبية حتى يثبتها فى مكانها، وهو يتابع تلك المناقشة الحامية، فاستدار إلى رب المنزل طالبًا المساعدة منه، قائلاً:

«يا سيد خاراميس، ما رأيكم فى كل هذا؟».

أما أندونيس، الذى لم يكن يتوقع مثل هذا السؤال، فقد وجد نفسه فى موقف حرج، وإذا كانت عقدة لسانه تنحل أمام رجل البنوك، فإنها تنعقد أمام الآخرين.

«عذراً، أنا... أنا لم أكن متابعًا» هكذا تلعثم (بالفرنسية) فى رده عليه. إلا أنه كانت لديه الفرصة لكى يرد بعد ذلك ردًا دبلوماسيًا:

«بخصوص هذا الموضوع! فى الحقيقة سوف أصيبكم بالإحباط. يمكنكم أن تسألونى عن السجائر، عن المشروعات، عن أى شىء تريدون. أما فى مثل هذه الموضوعات فأعتقد أن زوجتى أكثر دراية منى».

وعندئذ لمح بطرف عينه ذافنى وهى ترمقه بنظرة حادة، لكنه لم يكن يكذب فيما قال. وإذا كان هناك ما يعجبه فيها، فهو حبها للعلم. وأخذ يتذكر أنه فى السنوات الأخيرة كان يراها منكبة دائمًا على قراءة أحد الكتب. كان أمرًا يفوق قدرة البشر أن تحفظ كل تلك الأمور بشكل يومى: التواريخ، المواقع الجغرافية، المؤرخين. بذلك الإيقاع الذى كانت تقرأ به وتحفظ به المعلومات، كان من الطبيعى أن تحتاج إلى سكرتارية، حتى لو كان أندونيس لا يوافقها على اختيارها. وبمجرد أن تذكر أن جابى قد عادت مرة أخرى إلى غرفتها القديمة، شعر بالكآبة، ثم استدار إلى نائب مدير بنك باركليز حيث كان موعد تناول العشاء قد حان، على أنغام موسيقى باخ التى كانت تنساب من الجرامافون، وبعد تناول الطعام كان لكل منهم الحرية فى اختيار الطريقة التى سيقضى بها أمسيته. وفى أثناء تناول الطعام، بدأت الرياح تهب فجأة، ثم تبعها هطول الأمطار فى تناغم مع أصوات السكاكين والشوك فوق الأطباق البورسلين الغالية، وعندئذ تذكرت ربة المنزل أنها تركت نافذة مفتوحة وأرسلت على الفور الخادمة لإغلاقها، ثم قالت والابتسامة تعلو وجهها:

«فلنتمنى أن نحظى بليلة هادئة بلا مضايقات».

* * * * *

عندما كانت ذافنى تتحدث عن ثروة عائلتها فى كفر الزيات كانت تتبادر إلى ذهنها مزارع القطن وصفوف "الفلاحين" الذين ينحنون بصبر فوق الأرض المصرية الخصبة من أجل زراعتها لصالح عائلة سينجوس. ولم يكن هذا بعيداً عن الواقع ، غير أن صفوف الفلاحين الهائلة لم تكن موجودة من أجل الزراعة، ولكن من أجل الحفر بعمق بمعاولهم فى أكثر البقاع مجداً، فى أرض النيل، ليس فى مكان آخر سوى كفر الزيات، باحثين عن كنوز وآثار الماضى حتى يمكنهم زيادة "ثروة العائلة" بطريقة أكثر إثارة من أى زراعة للقطن فى العالم. لم يكن الصعود المفاجئ لثروة لوكاس سينجوس فى فترة العشرينيات من الموضوعات التى قد تمر دون أن تثير فضول المجتمع السكندرى. فالأب سينجوس مات غارقًا فى ديونه، تاركًا وراءه ابنًا له نفس الطباع وابنة متحررة من سلطة زوجها؛ أما محاولة إنقاذ ما تبقى فكانت ضربًا من الخيال. وكان شقيق ذافنى قد أعلن، بحديثه الطنان الذى دائمًا ما يوقعه فى الخطأ، أنه سيرحل إلى كفر الزيات من أجل مراعاة ثروة العائلة. لم يصدق أحد هذا الشاب المتباهى بشاربه المميز وشعره المفروق من منتصف رأسه، أنه سيتمكن من إنجاز أى شىء بعيداً عن الإسكندرية. وفى السنوات الأولى اضطر أن يحافظ على هذه الصورة بشموخه واعتزازه بنفسه، من خلال تلك الخطابات المؤثرة التى كان يرسلها يمينًا ويساراً للأقارب والأصدقاء يهددهم فيها بالانتحار. فى حين كان إعلان الحرب العالمية الأولى بمثابة قفزة إيجابية بالنسبة له، حيث بدأت حالته الاقتصادية فى التحسن دون سبب واضح. وفى كل مرة يظهر فيها الابن سينجوس فى المدينة كانت تبدو عليه علامات الثراء، مما يثير العديد من التعليقات من أولئك الذين كان يكذبهم بإصرار. وبالطبع، كان يستعد للعودة منتصراً إلى الإسكندرية، إلا أن تورطه فى فضيحة (توت عنخ أمون) هدد بنهاية مستقبله المشرق. عندئذ قرر أن يترك مصر لفترة من الزمن، وأقام فى بيروت لمدة عامين، كان يداوم خلالهما على إرسال الخطابات لأخته، وكان يكتب قائلاً: «أعتقد أننى أمر بأفضل فترة فى حياتى»؛ وعندما عاد إلى مصر، قرر أن يستقر فى القاهرة، فى حى هيليوبوليس الذهبى. حتى لو كانت هناك شكوى حول ثروته المجهولة، فسرعان ما اندثرت فى ذاكرة الناس فى النهاية ولم يبق سوى إعجاب المجتمع به؛ مثلما تم إجمال

شخصيته فى بعض الكلمات المعبرة من إحدى عجائز الإسكندرية، صديقة العائلة، التى أخذت تقول: «أيها البطل، لقد فعلتها فى النهاية».

كانت تهمة نهب الآثار تحيط عائلة سينجوس بشكل دائم، لكن لم يتم إثبات أى شيء عليهم، وعندما يُطلَب من ذافنى تبرير وجود مجموعة كبيرة من الآثار المصرية فى منزلها، لم تكن تتردد فى الحديث عن ثروة العائلة فى كفر الزيات، مستطردة: «مهما يكن من الأمر (قالتها بتالفرنسية)، فنحن واحدة من أغنى العائلات فى مصر». وكأنه لا يوجد شخص آخر يمكن أن يصبح غنياً بسهولة.

كان تورط اسم ذافنى فى فضيحة (توت عنخ آمون)، على عكس ما كان ينتظره الجميع، ذا فائدة مزدوجة بالنسبة لها. فقد أعلى من شهرتها فى مجتمع، على الرغم من تحفظه، فإنه لم يتوقف عن الركوع أمام الثروة ؛ وبما أنها قد حصلت على مكاسب اقتصادية كبيرة، ومع طلب أخيها أن تغير من شأنها، قررت ذافنى شراء سيارة رياضية – مثل سيارة إلياس – تؤكد بها مكانتها باعتبارها امرأة مستقلة اقتصادياً، وفى ذات الوقت لم تعد بحاجة لتطلب أى "مليم" (ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) من زوجها. وعندما شاهد أندونيس، الذى لم يكن يتمتع بقوة ملاحظة، السيارة واقفة أمام المنزل دخل وهو يعتقد أنه سيجد إلياس فى انتظاره.

ذافنى: «وما الذى جعلك تعتقد أن صديقك إلياس موجود "عندنا "(قالتها بالفرنسية) فى هذا الوقت من الليل؟».

أندونيس: «ماذا تعنى بم الذى جعلنى أعتقد؟ لقد شاهدت سيارته تقف أمام الباب الخارجى».

– «لكنها ليست سيارته».

– «سيارة من إذن؟».

– «سيارتى » (قالتها بالفرنسية).

– «سيارتك؟ ماذا تعنين بسيارتك؟ وكيف اشتريتها؟».

زافنى: «من ثروة عائلتى بالطبع» هكذا أجابته بتلقائية مطلقة، وعندما ذكرت زافنى كلمة "ثروت العائلة" كانت تقصد بالطبع ثروة عائلتها الزراعية التى كانت ذريعة لها لتفعل ما تراه مناسبًا لها دون الرجوع لزوجها: مثل زيادة مجموعتها من الآثار المصرية، والقيام بتعيين أشخاص جدد، دون سابق إنذار، لمعاونتها، وأن تكون لها سكرتيرة وسائق خاصان بها - فلم تكفها إعادة توظيف الآنسة جابى، ولكنها قررت أيضًا أن تجعل فى خدمتها فان كلود، أخاها غير الشقيق، هذا المخلوق السخيف الذى لم يكن أندونيس يرغب حتى فى رؤيته - وفى النهاية أن تقرر القيام برحلة كبيرة إلى أوربا. ومن أين ستبدأ غير تورينو التى كانت مفتونة بمتحفها للآثار المصرية.

* * * * *

«بالنسبة لى فالطريق إلى ميونخ وبرلين يمر من تورينو» هكذا صرحت زافنى وهى تردد كلمات فان فرانسوا شامبليون بعد إعادة صياغتها. وفى اليوم الذى صعدت فيه إلى الباخرة التى ستتحرك فى رحلتها من الإسكندرية - بيريه - فينيسيا، كانت بصحبتها الآنسة جابى وفان كلود. وكان ذلك فى ربيع عام ١٩٢٥. وإذا كان عقلها فى تورينو، فقد كان قلبها فى ميونخ حيث يعيش ابنها الحبيب ماخوس.

لم تكن اعتراضات أندونيس كافية لمنعها من القيام بهذه الرحلة. لكنها وعدته فقط بأن تبعث إليه بتلغراف يومى، إلا أنها ندمت على ذلك فيما بعد لأنها لم تكن تتصور أنه من الصعب أن تجمع كل أحداث وانطباعات يوم كامل فى كلمات قليلة بتلغراف، لكن على أية حال كان موظف التلغراف يحرص على المرور ولو لمرة واحدة على الأقل كل يوم على منزلها فى شارع العباسيين.

(وصلنا إلى فندق تورينو بالاس،" الرائع"! (قالتها بالفرنسية) ؛ الآنسة جابى سعيدة، أصيب فان كلود بنزلة برد). هكذا كتبت له فى أول يوم لوصولها إلى تورينو. وبالطبع لم تذكر له شيئًا عن جناحها الإمبراطورى بالفندق. (المتحف المصرى "يقع فى قلب المدينة" (قالتها بالإيطالية). شىء فريد وعمل مدهش من أعمال سكياباريللى).

هكذا كتبت فى اليوم الثانى، غافلة كل ما شعرت به فى قاعة الأكاديمية للعلوم التى كان شبح دروفيتى يحوم بها، وبتلك الآثار التى كانت تتحدث إليها فى نفس المكان الذى كان يقوم فيه شامبليون بثقة واقتدار بفك رموز اللغة الهيروغليفية وإرساء دعائم علم الآثار المصرية. لقد أغفلت أيضًا أن تشير إليه كيف كانت تشعر بالتأثر وهى تغادر بوابة القاعة التى كان يزينها قوس من أقواس النصر بأعمدة ضخمة. فوق كل ذلك فقد أخفت عنه مقابلاتها مع شخصيات من الطبقة الحاكمة. ففى إيطاليا لم تكن طبقة العلماء هى وحدها المهتمة بالآثار المصرية، وهو ما كانت ذافنى تعرفه جيداً. ومنذ بداية ذلك العام كان موسولينى قد بدأ فى إرساء دعائم الديكتاتورية، وظهرت طبقة جديدة بعناصرها الفاشية وأثريائها الجدد، كانت تلك الطبقة تبحث بإصرار عن رموز الثراء والتميز وتدفع الكثير لكى تسيطر على كل ما يجعل وجودها شرعيًا. فى الوقت الذى ازدهرت فيه السوق السوداء فى هذا البلد، وبدأت ذافنى تحلم بالحصول على مكاسب ذهبية.

وعندما لم تكن تنشغل بالآثار المصرية، كانت تحرص على الاستمتاع بأجمل لحظات حياتها فى المدينة. كانت الخدمة فى مقهى تورينو، حيث ذهبت مع الآنسة جابى وفان كلود، خدمة تليق بالملوك، حتى لو كنت ستدفع فى مقابلها ثروة طائلة. هذا بالإضافة إلى روعة الثريا والأثاث الخشبى الموجود فى المقهى؛ لكن حتى هذا لم يكن أندونيس بحاجة لأن يعرفه، حيث كان إهدار النقود من الأمور التى تزعجه، حتى لو لم تكن هذه النقود من جيبه الخاص. لاحظت ذافنى أن فان كلود يمسك باستمرار بمنديل فوق أنفه، فتوجهت بالسؤال لجابى:

«هل هو مريض؟»

جابى: «لديه بعض الحساسية، وهو يتعرض لنفس المشكلة مع حلول فصل الربيع».

لم تفهم ذافنى جيداً المقصود ذلك، إلا أن لون جلده الشاحب وشعره المائل للصفرة وصوته الهزيل كلها تشير إلى أنه إنسان مريض.

لاحظت ذافنى أيضًا كيف تولى الأخت العناية بأخيها بشكل مبالغ فيه، على الرغم من كراهيتها لأن تراهما يلاطفان بعضهما بعضًا فى أحد أركان الفندق. وبقدر عدم انزاعجها من طبيعة فان كلود العاطفية - لأنها لو رفضت ذلك فينبغى عليها عندئذ أن ترفض سلوك ابنها ماخوس - بقدر انزعاجها من عصبية الآنسة جابى وفرط حساسيتها التى تجعلها تبدو وكأنها خالية من المشاعر العاطفية. وكانت ذافنى تتساءل باستمرار إذا ما كانت قد أصابت عندما أسندت رعاية ماخوس إلى هذه المرأة. فالنزعة العاطفية عند كوستيس، على سبيل المثال ، كان من الصعب أن يؤثر عليها أى شخص حتى لو كانت الآنسة جابى، أما بالنسبة لابنها الصغير ماخوس فكان طيعًا يسهل التأثير عليه، وربما كان قرار إسناد رعايته للآنسة جابى قرارًا مصيريًا بالنسبة له. وهناك العديد من الأمور التى أزعجت ذافنى فى تورينو وبخاصة الطقس. لقد ترك الشتاء من خلفه الرطوبة والثلج فى ليالى المدينة الربيعية، مما أصاب عظامها بالبرودة حتى النخاع وسبب لها آلامًا مبرحة.

فى اليوم الأخير لها فى تورينو أرسلت تلغراف إلى أندونيس تقول فيه: «ربيعًا شتوى. هنا كنت ستتألم من الروماتيزم».

"هل أنا مصاب بالروماتيزم دون أن أدرى؟" هكذا تساءل أندونيس ثم تذكر أن فى إحدى المرات كان يشكو من ألم فى أقدامه، وكانت هى تجيبه بعفوية دائمة مؤكدة أنه روماتيزم. "إنها من ضرورات الزواج، ففى سن معينة وما بعدها، أصبح يتمسك بزوجته بسبب الخوف من المرض"، هذا ما جال بخاطر أندونيس.

فى تلك الأثناء، كانت زوجته تستعد للركوب من" محطة الباب الجديد" (دوَّنها بالإيطالية)، وهى محطة القطار الرئيسة، واستقلت القطار المتوجه إلى ميونيخ. كان فان كلود يكافح وهو يحمل الحقائب الخاصة بهم، فى حين كانت السيدتان تستمتعان بمكانهما فى الدرجة الأولى. سافرت ذافنى من بلد تعرف لغته جيدًا، وهو ما كان يمنحها شعورًا كاذبًا بالراحة، إلى ألمانيا التى كان الناس فيها يثيرون فزعها دائمًا. وعندئذ تساءلت ذافنى كيف فكر أندونيس فى نفى أبنائها إلى هذا المكان غير

المضياف. لم تكن تطيق الانتظار حتى تضم ابنها الصغير بين أحضانها. كانت الآنسة جابى وشقيقها فان كلود يشعران بنفس اللهفة تجاهه.

مضت على فان كلود ثمانية أعوام منذ المرة الأخيرة التى رأى فيها ماخوس. فبعد موت أمه تبع أخته إلى القاهرة، حيث تمكنت، بفضل خطابات التزكية التى حصلت عليها من ذافنى، من الحصول على عمل فى منزل أحد اليونانيين المصريين. طوال تلك السنوات لم يبرح ماخوس خياله أبداً. كان قد سمع عنه وعرف أنه سيلتقى رجلاً غاية فى الجمال، وكان يأمل أن يوقظ بداخله ذكريات تلك الصداقة الحالمة منذ سنوات الصبا. لكنه كان مخطئًا، مثلما أخطأت أخته كذلك، التى كانت تنتظر على الأقل لقاءً حاراً من هذا الإنسان الذى أصبح رجلاً على يديها.

استقبلهم ماخوس ببرود شديد وبعدما اهتم بشئونهم التقليدية، اختفى عن الأنظار لمدة يومين متتاليين بزعم انشغاله ببعض الأعمال. لم يخف ماخوس عن أمه ضيقه حيث قال: «ما الذى دفعك لإحضار هذين االشخصين معك إلى هنا، يا أمى العزيزة؟» هذا ما أخبرها به فى أول فرصة بينهما. أما هى فقد أرسلت بدورها تلغرافًا إلى أندونيس قالت فيه: «كان استقبال ماخوس لنا استقبالاً بارداً. وصلنا إلى فندق "كيمبينسكى"».

كان چان كلود وأخته يشعران بالسعادة، حيث كانا ينامان فى أحد الأجنحة الفندقية التى استقبلت من قبل العديد من الملوك. «أنا متيم (قالها بالفرنسية) بهذا الفندق، إنه أجمل مما توقعت»، هكذا صرح لأخته لكنها لم تجبه بشىء، ثم ابتسمت وربتت برقة على شعره. وفى اليوم الثالث كان فى انتظاره مفاجأة أخرى غير سارة. فقد تعرف إلى الوجه الفاتن للبارون إريك شولتسير باعتباره عاشقًا رسمى لماخوس، مما هدم كل أحلامه. حتى هذه الحظة، وطوال الفترة التى قضاها فى ألمانيا، كان فان كلود عبوس الوجه، إلا أن أحداً لم يعره أية أهمية.

«يبدأ الربيع هنا مبكرًا» كان هذا ما كتبته ذافنى فى التلغراف التالى لأندونيس، وهى تشعر ببعض الإحباط، لأنها كانت تعتقد أن الجليد سيكون فى انتظارها بشكل أكبر

فى إقليم بافاريا بجبال الألب. لكن مع البدايات الأولى لشهر إبريل ظهرت الأشجار المورقة، كما انتشرت الأزهار على السفوح ومراعى جبال الألب، فى حين تكونت العديد من الجداول المائية من الثلج الذائب بفعل دفء الجو على جبال الألب. كان إقليم بافاريا يستعد للاحتفال بعيد القيامة وقد أصبح الجليد مجرد ذكرى.

فى اليوم الرابع بدأت جولات التنزه فى المدينة، كما يظهر فى التلغراف الذى أرسلته مدام خاراميس، حيث كتبت: «تمشية على ضفاف نهر "إيزار". "شىء رائع" (دونتها بالفرنسية)، ثم جولة حول "الريزيدنت" ومنازل "فيتيلباخ". معارض اللوحات، وبخاصة معرض "مارين بلاتس"، ساحرة! ماخوس يقول: لم تروا شيئًا بعد».

فى اليوم الخامس لم ترسل دافنى تلغرافها المعتاد إلى أندونيس. فقد حدثت اضطرابات فى المدينة، بعض الأحداث الصغيرة التى وقعت، ولم يجد ماخوس تفسيراً لتلك الكدمات الموجودة على وجهه، والتى حاول إخفاءها بوضع بعض مساحيق التجميل على وجهه. لكنها بوصفها أمًا وجب عليها أن تسأله قائلة:

«أنا قلقة بشأنك، "يا بنى" (قالتها بالفرنسية)» أما هو فبدلاً من أن يجيبها انخرط فى الضحك وقال لها (بالألمانية): «هل تتحدثين الألمانية؟».

لم تكن الأمور تدعو للضحك. ففى الأيام الأولى كانت أمه قد لاحظت أن من بين الأوراق التى يحملها صليبًا معقوفًا، ولأنها لم تكن تشك فى ميوله السياسية، أشارت إليه بهذه الملاحظة: «إنه رمز قديم لحضارة ما بين النهرين، إنه رمز للنجاح!»، وعندما علمت أن ابنها نازى، وأنه كان يخرج فى الشوارع ويتشاجر مع الشيوعيين، لم يعجبها ذلك أبدًا. إلا أنها لم تخبر أندونيس بهذا الأمر، كما لم تجرؤ أن تحدثه عن البارون الفاتن. سألت ماخوس أكثر من مرة، إذا ما كانا يعيشان معًا، لكنه لم يكن واضحًا فى إجاباته، قائلاً وهو يبتسم إنه يعيش فى مكان ما فى "سفانبيج". فى تلك الأثناء، كانت تشعر بصعوبة مقاومة فتنة هذا الرجل الأشقر ذى العينين الواسعتين والشارب المهذب والجسد الرياضى المشوق، الذى يفصح أسلوب حياته عن أصوله وثرائه الفاحش. " هل من الممكن أن يكونا عاشقين؟ " هكذا تساءلت دافنى ببراءة الأم التى

لا تريد أن تصدق ما تراه أمام عينيها، وعندئذ بدأت مشاعر الغيرة تعتصر روحها. "هل من الممكن أن أشعر بالغيرة من ابني! " هكذا فكرت ثم ضحكت من نفسها كما ضحكت من فان كلود الذى كان يقوم بعمل أشكال مضحكة أمامهم. وفى الحقيقة، كان من الصعب على ذافنى أن تحدد عمر هذا البارون. وقد لاحظت أنه فى كل مرة كان يلتقيها يقبِّل يدها بطريقة مسرحية، تجعل الشك يتسرب لقلب أية امرأة. كان دائمًا ما يمتدح أسلوبها فى اللبس، ويصر على أنه لا يصدق أنها أم ماخوس. «هذا إطراء منك» هكذا كانت تجيبه (بالفرنسية) بكل دلال، وكان هو يرد بفرنسية سليمه: «أقسم لك أننى لا أصدق ذلك».

وعلى العكس من ذلك، كان حضور الآنسة جابى غير لافت للأنظار. وكانت مدام خاراميس تبدى فى كثير من الأحيان ملاحظاتها عن الطريقة التى ترتدى بها ملابسها، وإلى قوامها فكانت تقول لها (بالفرنسية): «إنك تشبهين "الجمل" بهذا السنم على ظهرك». وبالفعل كانت جابى تنحنى أمامها وكأنها كانت تحمل سنمًا على ظهرها. وعلى الرغم من اعتراض ذافنى على هذا المظهر، فإنها كانت فى أعماق نفسها تشعر بالسعادة لأن هذه المرأة ذات الخامسة والثلاثين ربيعًا والمربية السابقة لابنها ماخوس لم تسرق منها الأضواء، والأمر الجيد أن جابى نفسها لم تشعر بالضيق، لكنها، على عكس أخيها، ظهرت وكأنها تفضل أن تلعب هذا الدور المهمل، وكأن له معانى أكثر أهمية من مظاهر الإطراء ولعبة المشاعر. ذات مرة ذكرت ذافنى وهى تتحدث مع ماخوس جماله الذى لا يضاهيه شىء، مستخدمة ألفاظ الإعجاب، لكنها كانت تفعل ذلك كأم تبدى إعجابها بابنها.

فى ذلك الوقت، كانت أيامهم فى ميونيخ تحمل طابع الجمال البرىء، فكانت مقسمة بين الحانات المتناثرة والمقاهى الفاخرة والمطاعم الراقية، التى كان من المستحيل وصف الديكور الداخلى لها فى كلمات قليلة بالتلغراف. لاحظت ذافنى أن ماخوس كان يحرص على أن يذهب بهم إلى الأماكن التى اعتاد مشاهير بالمدينة ارتيادها. ومن بين هؤلاء، كان هناك شخص تعذر عليها أن تنطق اسمه بطريقة صحيحة، حيث أشار ماخوس إلى

شخص، وقال: «ألا يذكرك هذا الرجل بأبى؟». وكان هذا الرجل هو توماس مان. كانت عينا ابنها بمثابة النظارة المكبرة التى ترى من خلالها المدينة بعظمائها: من مغنين بالأوبرا ورسامين وأدباء وأساتذة جامعة، أسماء لا حصر لها كان من الصعب تذكرها.

كما لاحظت أيضًا أن ماخوس يكن بغضًا واضحًا لليهود، حتى إنها قالت له: «ما الذى حدث لك تجاه اليهود؟ لقد عشنا لسنوات طويلة معهم. ولم يسببوا لنا الضيق من قبل. فما سبب هذا العداء؟».

وقد ظنت ذافنى أن لهذا العداء علاقة برجل الإسكندرية الغامض، رودولف إس، الذى التقياه فى أحد المطاعم بالمدينة. كانت ذافنى تكره هذا الرجل، لأنها تأكدت من خلال كلام ماخوس أن السيد إس هو ابن لأحد تجار الجملة الألمان - المصريين، مثل ابن عمها ثاناسيس. وفى اليوم التالى، بينما كانت تسير فى شارع " لودفيغ" شاهدوا سيارة مرسيدس مكشوفة سوداء اللون تعبر من أمامهم. وكان قائدها رجلاً ذا شارب صغير، يرتدى جاكتًا وبالطو فاتح اللون واقيًا للمطر، كان مظهره يعطى الانطباع بأنه أحد رجال العصابات، وكان محاطًا بحرسه الخاص. وقد علق ماخوس بحماس قائلاً: «أدولف هتلر!».

فى نفس اليوم أرسلت ذافنى تلغرافًا (بالفرنسية) لابنها الأكبر فى برلين قائلة:

«أنا قادمة إليك الأسبوع القادم»، فربما استطاع كوستيس أن يعطيها تفسيرات لكل ما يحدث، حيث انتابتها بعض المخاوف بسبب إقامتها فى ميونخ، تلك المخاوف التى لم تستطع أن تطلع أندونيس عليها.

وكأن كل ذلك لم يكن كافيًا، فقد قاموا بزيارة إلى " قصر"(ذكرها بالفرنسية) البارون شولتسير الذى يقع خارج " باشاو " فى إقليم بافاريا، حيث قامت ذافنى، وهى تشعر بتأنيب الضمير، بعرض ذلك على زوجها فى التلغراف الذى كتبت فيه: «رحلة إلى إقليم بافاريا بالألب». ما الذى يمكن أن تضيفه؟ كان انتقالهما بالسيارتين الفارهتين الخاصتين بالبارون يمثل شيئًا رائعًا. كان السائقان يرتديان زيًا رماديًا فاتح اللون،

صامتين ثابتين فى مكانهما، يشبهان عساكر الجيش خلف عجلة القيادة. فى أثناء الرحلة أخذت ذافنى تتخلص ببطء من مخاوفها ومن إحساسها بالذنب. مروا بطرق تحفها الأشجار، وعند المساء رأت الشمس وهى تغرب وتلقى بأشعتها الذهبية على أوراق الأشجار العتيقة. وبالنسبة لها فقد بدأ اليوم بمجرد وصولهم إلى " القصر". لم تكن ذافنى تتخيل مدى روعة تلك المنازل الصيفية بإقليم بافاريا الأرستقراطى، وكأنها زهور حجرية فى سفوح جبال الألب. لم تكن تعرف ما الذى تبدى إعجابها به أولاً؟ بالمدخل المكسو بأكاليل الزهور المصنوعة من الرخام! أم بالنوافذ المقوسة بالطابق الأول! وكأنها منازل رسمها طفل من وحى خياله، وقد اختار اللون البرتقالى الفاتح لدهان الحوائط الخارجية، أم بتلك السقيفة فى الجناح الملحق الذى كان يداعب خيال الزائر؟ استقبلهم رئيس الخدم، ذلك الرمز الأصيل للبارونية، بابتسامته الصلبة المرسومة على وجهه وبصلابة ياقة قميصه. إلى جانبه تقف الخادمة السمينة فى زيها الرسمى. وعبر ذلك السلم الذى يضيق فى الطابق الأعلى صعدوا إلى الطابق الأول، وعندئذ اكتشفت ذافنى أن تلك النوافذ المقوسة التى أبدت إعجابها بها كانت تسمح لشعاع ضئيل من الشمس بالدخول لإضاءة الطرقة، حيث كانت غرف النوم متناثرة فى كل مكان. أخذ إريك يوزع الغرف على ضيوفه. كان هناك العديد من اللوحات العائلية التى تبدأ مع بداية السلم وتستمر حتى الغرف فى تسلسل واضح لشجرة العائلة. ومن النوافذ يمكنك مشاهدة البرجين التوأمين لكاتدرائية سان ستيفانو اللذين يظهران بوضوح من أى مكان مرتفع فى "باشاو". كانت المدينة كلها مبنية على ضفاف الأنهار الثلاثة، أحدهم هو نهر الدانوب، وكانت نسمات الجنوب التى تداعبها تعطيها انطباعاً بجو يشبه جو البحر المتوسط. فى غرف النوم ذات الأسقف العالية كانت ألوان واجهة القصر تنعكس عليها ولكن بدرجات داكنة. بعض الأشكال المبالغ بها، مثل تلك اللوحات الزيتية الثلاث وهذه الثريا الصغيرة، كانت تعطى انطباعاً بجو المتاحف البارد فى مثل هذا المكان الذى كان ينبغى أن يكون أكثر دفئًا؛ وكانت القبة التى تعلو السرير تساعد فى زيادة هذا الشعور. ربما لهذا السبب شعرت ذافنى لبرهة قصيرة برجفة تسرى فى جسدها، ولذلك فلم تدع الخادمة تأخذ عنها المعطف، وقد أوعزت لها صورة تلك المرأة

العجوز الموضوعة على الكومودينو بأنها " غرفة الوالدة ".عندما قررت ذافنى بعد ساعتين الخروج من الباب الأبيض الضخم ذى الحواف الذهبية، كان الباقون قد اجتمعوا بالفعل فى غرفة الجلوس الكبيرة. وبينما كانت تهبط من السلم وصل إلى سمعها صوت إحدى سيمفونيات باخ، وقد تعرفت من خلال تلك النغمات على أصابع الآنسة جابى. ثلاث ثريا تشبه عناقيد العنب، كانت تنشر ضوءها فى قاعة الجلوس الفسيحة الواسعة، أما الشمعدانات المتساوية الأذرع التى كانت تذكرها بتلك الموجودة بكنيسة إيفانجيليزموس بالإسكندرية، فكانت تلقى بضوئها الأصفر فى الأركان المنزوية بالقاعة. وبعد أن أرخى الليل سدوله بدأ دفء المدفأة الرخامية الضخمة ينشر معه الشعور بالسعادة. كانت المدينة تتلألأ من خلف الستائر الثقيلة بوصفها مجموعة من النجوم. تم إعداد العشاء فى موعده: حساء به قطع صغيرة من الكبد، أما الطبق الرئيسى، فلحم بقرى مطهو على البخار مع الخضراوات. يصحب كل ذلك نبيذ أحمر مميز وروح البارون المتلألئة، الذى لم ينطق طوال السهرة بكلمة ألمانية واحدة، وكان فى حالة مزاجية شيطانية. حتى فان كلود كان يضحك على مليحاته. جلست ذافنى معهم تلك الجلسة "الشبابية" لوقت قصير فى قاعة الجلوس، ولكنها تحت تأثير النبيذ والإرهاق اللذين أثقلا جفنيها أرادت أن تتركهم، فإن النوم كان قد غلبها مرتين بينما كانت تجلس على الأريكة. ورفضت مساعدة جابى لها، قائلة (بالفرنسية): «اعتن أنت بالرجال» ثم انسحبت بعد ذلك بمفردها.

استيقظت ذافنى فى صباح اليوم التالى فى حالة مزاجية أفضل، ولكن يبدو أن الجميع كانوا فى حالة يرثى لها، بدءًا من ماخوس الذى ظهر دون أن يضع أية مساحيق، مما أدى إلى ظهور بعض الآثار الداكنة على وجهه، تلك التى كانت بودرة التجميل تخفيها حتى هذه اللحظة. لكنه عندما أدرك ذلك عاد مسرعًا إلى غرفته وهو يخفى وجنتيه بيديه. ثم ظهر بعد ذلك چان كلود بوجه عبوس، وعندئذ شرحت جابى لذافنى السبب فى ذلك، فقد خدعه كل من ماخوس وإريك فى لعبة قذرة فى الليلة السابقة وأجبراه على الخروج عاريًا إلى حديقة القصر. كانت ذافنى على وشك الضحك، لكنها

تماسكت لأن الآنسة جابى لم تكن تعتبر ذلك أمراً مضحكًا على الإطلاق. أما الصدمة الكبرى فكان بطلها البارون نفسه عندما هبط باحثًا عن أزرار قميصه الذهبية. وعندئذ فكرت ذافنى فى أن الجميع سوف يتهمونها بسرقتها، وسوف تتسبب بهذه الطريقة المهينة فى إحراج ابنها وإحراجها هى نفسها أمام البارون البافارى. أما الأسوأ: فهو أنها لم تكن واثقة تمامًا من براءتها. ولحسن الحظ فقد أخرجتها الخادمة سريعًا من هذا الموقف السيئ بعد أن أحضرت الأزرار الذهبية الخاصة بسيدها من حجرة نوم السيد ماخوس!

ويبدو أن الأمور قد هدأت بعض الشيء بعد تلك الجولة التى قاموا بها بالقارب فى نهر الدانوب تحت أشعة الشمس وقت الغروب، حيث أخذ ماخوس يستعرض أمامها مهارته الرياضية فى التجديف. بعد ذلك أخبرهم إريك أنهم سيتناولون العشاء الليلة فى ضيافة إحدى الأسر الأرستقراطية بالإقليم، وعندئذ بدأت تستشعر بعض الخوف من أنها ربما لن تستطيع أن تمنع نفسها من سرقة إحدى علب السجائر الفضية أو أى شيء أخر من على مائدة العشاء.

فى حجرة الطعام الفسيحة فى منزل آل شولتسير، كان هناك العديد من الأعمال الفنية والأشكال المنحوتة على الحوائط وعلى الأرفف، وكذلك الأضواء التى تنبعث من الثريا الضخمة، كل ذلك كان يساعد على إبراز ذلك البورتريه الخاص بلودفيك الثانى ببافاريا، الذى كان معلقًا خلف المقعد الذى يجلس عليه رب الأسرة. كانت قائمة الطعام تحتوى على العديد من الأصناف، ومن بينها لحم الخنزير المطبوخ الذى تم تقديمه فى حسائه، وقد أعجب ذافنى كثيراً.

كانت العائلة الأرستقراطية مملة. وحول المائدة كان كل ما يمكن أن تراه هو: ملابس السهرة والبابيون والأزياء الحريرية الملونة، كما كان الجميع يتبادلون حوارات مملة لا طائل منها. استمعت ذافنى للعديد من المبالغات والأكاذيب الكبيرة التى يلقيها أشخاص لمجرد لفت الانتباه، حتى إن الآنسة المتماسكة جابى كادت تتخطى كل الحواجز المسموحة فى التفاخر، مما جعل ذافنى تشعر بالحنين لحفلات الإسكندرية.

وفى بعض الأحيان كانت تضطر للتهرب من الإطراء الذى يحاصرها به أحد البارونات المسنين، وقد اكتشفت أنه من أشد المعجبين بالسجائر التى ينتجها زوجها. «شىء غريب أنك لم تدخنى قط!» قال ذلك بلكنة فرنسية واضحة، بينما كان يشعل سيجاره من شعلة أحد الشمعدانات التى أمده بها الخادم. أما ذافنى فكانت لديها الرغبة فى أن تخبره بأن الدخان يزعجها وبخاصة دخان السيجار، لكنها ابتسمت ببساطة ابتسامة متحفظة. على أية حال، وبما أن أغلب المدعوين من المسنين، فقد إنتهى بها الأمر لتصبح الجسر الذى يربط بين الخمسة أفراد المجتمعين. فبطريقة معتادة شعرت أنها هى المسئولة عن إنجاح هذه الأمسية لكن إحساسها بالإحباط كان لا يوصف، فقد وصل الأمر فى النهاية بماخوس وإريك إلى الدخول فى حوار عنيف - أو على الأقل هذا ما بدا لها حيث إنها لا تعرف الألمانية - عندما انصب الحوار على النازيين وعلى هتلر.

«عزيزى ماخوس، ليس النازيون سوى عصابة من المخبولين المخربين» هكذا أبدى إريك ملاحظته، بينما كانت ذافنى تتابع نظرات الحاضرين وهى تتطلع إليه.

ماخوس: «مخبولون ومخربون؟» سأله ماخوس غاضباً.

إريــك : «نعم، هل يبدو لك ذلك غريبًا؟ على أية حال، يجب أن أعترف أن لهم فائدة فى شىء واحد، فسوف يخلصوننا من الشيوعيين، وبعد ذلك سيكون حسابهم معنا عسيراً».

- «معكم؟ من تقصد بكلمة " معكم "؟ من أنتم إذن؟» قالها ماخوس بإصرار وقد ازداد انفعالاً.

- «نحن ألمانيا، الألمان، يا عزيزى ماخوس، هل لديك شك فى ذلك؟».

- «إطلاقًا، لكن إذا أردت رأيى.....».

- «لسنا بحاجة لرأيك، يا صغيرى. فأنت يونانى. دعنا نحن الألمان نتفرغ لشئون بلادنا، فلدينا هذا الحق».

أما ما حدث فيما بعد فكان مخيفًا. فقد بدأ ماخوس فى العواء، وهو يحمس أصدقاءه، وأصبح البارون فى حالة من الجنون لما يفعله ماخوس. ولم يكن ينقص سوى أن

يتشابكا معًا بالأيدى. شعر الجميع بالحزن على ما آل إليه الأمر، وربما يستثنى من ذلك فان كلود، الذى كان جالسًا فى أحد الأركان مبتسمًا وكأنه قد انتقم لنفسه. ارتاحت ذافنى لفكرة أن ولدها الصغير لن ينام هذه الليلة على الأقل فى أحضان البارون.

فى صباح اليوم التالى إعترف كل من ماخوس وإريك أنهما قد تسببا فى إفساد الليلة الماضية، لكنها ليست أول مرة يحدث ذلك بينهما. أما البارون شولتسير، فبرغبة منه فى إصلاح الأمور، أعلن أنه من أجل السيدة خاراميس سوف يذهب بهم إلى حيث تمتع عينيها برؤية الجليد؛ أما ذافنى التى لم تر الجليد منذ عام ١٩١٠، حين هطل لآخر مرة على الإسكندرية، فكانت كالطفل الصغير من فرط سعادتها وهى تفكر كيف أنها ستتمكن من الغوص بأقدامها فى الثلج ناصع البياض الذى يشبه القطن فى جبال الألب. ولم تكن ذافنى تتخيل أنهم سيضطرون للابتعاد لمسافة طويلة عن ميونخ، وعبور الحدود مع النمسا ثم الاتجاه نحو الجنوب، وصولاً إلى محل ميلاد موتسارت، حتى سالزبورج. والأكثر من ذلك، أنها لم تكن تتخيل أن أول لقاء لها مع هذه الظاهرة المناخية الغريبة سيكون لقاءً مصيريًا بالنسبة لها: فلم تكن ذافنى معتادة على السير على الجليد، ونتيجة لذلك فقد انزلقت قدمها وسقطت على ذراعها الأيمن. وفى طريق العودة، لم تستطع ذافنى تحريك يدها وظلت تصرخ من شدة الألم، كانت ترتجف من تلك اللحظة التى سوف تضطر فيها إلى تقديم تفسير لأندونيس. لكن كانت رؤيتها لمنزل موتسارت فى (٩) شارع جيندرادينجاس كافية لمواساتها.

عادت ذافنى بعد عناء إلى ميونخ، وكتبت تلغرافًا إلى كوستيس تطلب منه الحضور إلى برلين. لكن ابنها الأكبر أجابها (بالفرنسية): «أنا مشغول جداً هذه الأيام. من الصعب الحضور. لا داعى للقلق».

"أنجب أطفالاً وسترى العجب" هذا ما جال بخاطر ذافنى، وبدون تأخير أرسلت لزوجها قائلة: «"حادث بسيط "(قالتها بالفرنسية). كسرت ذراعى. أنا فى طريقى للعودة».

* * * * *

اعتادت دافنى منذ أن كانت طفلة صغيرة أن تسخر من جروحها وكثيراً ما كانت تظهر وقد ربطت ذراعها أو رأسها أو قدمها، كانت عادة لديها، وبلا أدنى شك، فقد حافظت عليها رغم كبر سنها، حيث لم تتمكن أمها من إخافتها عندما قالت لها يوماً: «سوف توضعين على الرف، إذا ما داومت على "الحفاظ على تلك الأربطة" (قالتها بالفرنسية)». لكن كان عليها هذه المرة أن تواجه زوجها فى هذا الموقف.

أندونيس: «كان معى الحق إذن عندما لم أوافق على هذه الرحلة منذ البداية» هكذا قام أندونيس بتحيتها عندما شاهد يدها التى وضعت فى الجبس.

دافنـــى: «أنا لست طفلة صغيرة» أجابته بعصبية، ثم استطردت: «يمكن أن يحدث هذا لأى شخص».

- «هكذا، أخبرينى إذن، ما الذى جعلك تبحثين عن الجليد فى أوربا ونحن فى فصل الربيع. فى حين أننى أرسلتك للاطمئنان على ولدينا، أما أنت فكنت فى النمسا بذراع مكسورة. هل يمكنك أن تشرحى لى هذا؟».

- «دعنى أرجوك فأنا أتألم» قالتها فى محاولة منها للتخلص من فترة تقديم التفسيرات العسيرة. ثم فكرت أن تبدأ هى فى الهجوم: «ولكن ماذا تعنى بأنك أرسلتنى؟ فى النهاية، أنا أبلغ من العمر خمسين عامًا، بينما تصر على أن تحدثنى وكأنك جدتى أو والدتى».

- «إنه لأمر جيد أن تتذكرى عمرك فى بعض الأحيان».

- «أستحلفك بالله، يا أندونيس، إنها مجرد رحلة قمت بها مثل كل النساء. ولا تنس أنك أنت الذى حرمتنى من ابنىَّ. أنت الذى قمت بنفيهما إلى ألمانيا. أنا أم، ولم أرهما لسنوات طويلة».

- «والآن وقد رأيتيهما، هل شعرت بارتياح؟».

- «لقد رأيت ماخوس فقط، أما كوستيس فلم نستطع أن نلتقى. لقد تمكنت من إبعادى عن أبنائى».

- «ولكن أبناءك بخير حيث هما، لا تقلقى عليهما، وليست لديهما أية رغبة فى العودة إلى مصر. أما بالنسبة لك، فقد كان من المفترض أن تسافرى لرؤيتهما، ولكن كانت لديك رغبة أشد فى رؤية الآثار المصرية فى تورينو والجليد فى سالزبورج».

- «مهما يكن من الأمر (قالتها بالفرنسية)، أنا لم أطلب منك قرشًا واحدًا. كان ينبغى على الأقل أن تقدر ذلك».

- «آه " ثروة العائلة " المعروفة!».

- «نعم، يا سيدى، ثروة عائلتى، ولم لا؟ حتى الآن تتذمر بسببى، وبسبب أخى، وبسبب أسرتى المدمرة. تفضل إذن!».

- «نعم، بثروة العائلة تلك، التى يعلم الله وحده مصدرها، أسستِ إمبراطوريتك الخاصة هنا، وتقومين بتوظيف من يحلو لك. وملأتِ المنزل بهذا الكم من المومياوات والتماثيل، وبالطبع لن أذكر الصفقات والحفلات. امرأة تملك سيارة وسائقًا وسكرتيرة. ثم تقولين لى بعد ذلك إنك تشتاقين لأبنائك. إنها كوميديا إلهية، يا عزيزتى دافنى، هذا كل ما فى الأمر! لكن أرجو أن يكون ذلك الحادث بمثابة درس حتى تبقى فى منزلك».

كان وقوع دافنى فوق الجليد هو أول حادث جاد فى حياتها، والذى كانت لتشعر بالفخر والسعادة تجاهه لو لم يتذمر أندونيس أو يصر طبيبها ستيفانوس أن تشرب كوبين من اللبن يوميًا.

لقد أصبح زوجها يتنبأ بما ستفعله فى المستقبل: «بعد هذا "الحادث" (قالها بالفرنسية)، لا أعتقد أن دافنى ستجرؤ على مغادرة المنزل» هكذا كان أندونيس يردد لكل من كان يسأله عن صحة زوجته. وربما لكى تكذب كلامه قررت أن تسافر مرة أخرى إلى أوربا خلال فصل الصيف، متجاهلة اعتراضه، حيث أعلنتها بقوة «أنا بصحة جيدة» (قالت ذلك بالفرنسية). هكذا اختارت طريقها، ثم صعدت إلى الباخرة وغابت عن الأنظار.

أما أندونيس فكان يصرخ، من وراء ظهرها، بأن زوجته قد فقدت عقلها، لكنه فى الواقع كان يشعر بالغيرة تجاه تلك الحيوية العجيبة التى دبت فى أوصالها، والتى لم تكن من وجهة نظرة تليق بسنها. "الجاموسة (قالها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) العجوز! أصبحت فى الخمسين من عمرها وتتظاهر وكأنها طفلة"، هكذا كان أندونيس يحدث نفسه.

فى تلك الأثناء، كانت ذافنى عازمة على أن تنهل من الحياة حتى آخر قطرة. الآن وقد استقرت طبيعتها الأنثوية أصبحت أكثر قوة. لقد واجه واجبها باعتبارها أمًا التجاهل التام من ولديها، الآن فقط أدركت المعنى الحقيقى للحياة وأصبحت حرة أخيرًا. لقد تحررت تمامًا من نزعة حبها الفطرى لابنيها تمامًا مثل تحررها من اعتمادها على زوجها. لم تعد لديها أية أمنية، أية رغبة، أية واجب، أية وجهة. أخيرًا أصبح لديها الوقت لكى تفكر، لكى تقرأ، لكى تتناقش، لكى تسافر فى عالمها الواقعى، وبالأخص فى عالم الماضى الذى كان يسحرها دائمًا. كانت تكتشف فى نفسها كل يوم شيئًا جديدًا، تلك التى كانت تكرس نفسها لخدمة الآخرين طوال تلك السنوات. لكنها لم تحدث أحدًا فى ذلك. كانت تتغلب على نزعتها الغامضة تجاه رغباتها الشخصية، لقد أصبحت بدورها قادرة على القيام بكل أنشطتها، تلك الأنشطة التى كان معظم الناس يطلقون عليها اسم نهب الآثار، بينما كانت تعتقد أنها مجرد امتداد مفيد لعشقها للآثار. رحلة عبر الزمن، عبر كل أنواع الاكتشافات، لم تكن تلك هى الوسيلة الوحيدة لكى تحصل على السعادة التى تتوق لها، ولكنها أيضًا بمثابة ذلك الشيطان الذى سيجعلها تشعر بالأمان النفسى الذى كانت تبحث عنه فى وقت سابق. ولهذا فقد خصصت غرفة من بين الإحدى عشرة غرفة بالفيلا لتحولها تدريجيًا إلى "متحف شخصى". فى هذه الغرفة قامت بنقل أثمن القطع التى لم يكن مسموحًا أن تراها عين شخص آخر، والأسباب معروفة بالطبع. كانت تلك القطع بالنسبة لها هى الصحبة التى تقضى معها ساعات من التأمل والقراءة فى الحضارات القديمة. بدأت بقلادة من الذهب المرصع لم تستطع تهريبها إلى الخارج، ثم أضافت إليها رويدًا رويدًا الأوانى الزجاجية المزخرفة، إناء من الفخار الأسود عليه رسومات لبعض الحيوانات، تمثالاً فرعونيًا، صندوق لحفظ الحلى

من الخشب المطعم بالذهب، تابوت يحتوى على أوعية صغيرة لحفظ أحشاء الموتى. تظل تلك الغرفة مغلقة طوال اليوم، ومع حلول الليل، عندما ينهمك أندونيس فى العمل فى مكتبه لمراجعة حسابات اليوم، كانت ذافنى بدورها تغلق على نفسها متحفها وتتجاذب أطراف الحديث مع تلك الأشياء التى لا حياة فيها. وفى كثير من الليالى تظل مستيقظة حتى الفجر، وبخاصة فى الليالى المصرية الرطبة والحارة التى كانت تتسبب فى حرمانها من النوم؛ كان يغلبها النوم أحيانًا وهى جالسة على مقعدها الضخم ذى المسند المصنوع من الجلد. وعندئذ يأتى إليها النوم محملاً بالعطايا: أحلام عن عظمة الفراعنة، قصـــور ومعابد ضخمة، أشكالاً من الحجر والرخام والذهب. كانت الحياة تدب فى التماثيل وتبدو وكأنها تتجول فى الطرقات الواسعة، قاعات مزخرفة وغرف سرية، مومياوات محنطة تُبعث إلى الحياة من جديد، تتعانق، تحارب، تسيطر، تحكم. لكن لم يكن كل ذلك يستمر لوقت طويل، فقد كان ضوء النهار يصيب تلك الأحلام بالفزع ويجعلها تختفى فى مخابئها. كانت المعابد والقصور تنهار، والذهب والحجر يتحولان إلى رمال، والهمسات التى كان يخيل إليها أنها تسمعها من تلك التماثيل الضخمة لم تكن سوى صوت فروع شجرة الأوكاليبتوس[١٦]، وهى تلامس نافذة الغرفة بينما تداعبها الرياح التى تهب من البحر. يا للإحباط! الآن فقط استطاعت أن تفهم صمويل عظيمان الذى كان يصر على أن يحتفظ بالطابق الأول فى فيلته برشدى مغلقًا لاستخدامه الشخصى، ولم يكن مستسلمًا كليةً لجشع الثروة على العكس من أخيها لوكاس. كان يشعر بنفس العشق، وإلى جانب ارتباطه الروحى والقوى بعالم الماضى، فربما كان مثلما كانت هى أيضًا، من رسل الحضارات القديمة المختارين الذين كان فرضًا عليهم أن يوجدوا هنا ليحموا ويثبتوا كل ما شهدته تلك الحضارات من مجد.

لم يفارق ذافنى أبدًا الإحساس بالماضى، وفى اللحظة التى كانت سيارتها تتحرك بيسر فى شارع فؤاد، يجول بخاطرها أنها تتابع علامات "الطريق الكانوبى" عبر "بوابة الشمس" حتى "بوابة القمر"، بينما كانت تسعى للوصول إلى البحر. لم تكن تتطلع عبر

---

(١٦) الأوكاليبتوس، نوع من الأشجار التى تستخدم أوراقها وأزهارها فى العلاج. (المراجع).

شرفة النادى البحرى اليونانى - مثل الآخرين - إلى حركة البواخر فى الميناء الغربية، ولكن إلى السفن العتيقة، التى تبدو بمجاديفها الهائلة مثل حشرة أم أربع وأربعين الضخمة وهى تقترب من مرساها فوق سطح المياه الهادئة. اعتادت أن تتجول على شاطئ البحر، باحثة فى أعماق تلك الرمال والصخور المتناثرة عن آثار تلك البيوت والقبور القديمة. مقر الحكم الذى أقام فيه البطالمة قصورهم أصبح الآن تقريبًا تحت سطح الماء، لكن ذلك لم يمنعها من أن تلهب خيالها وأن ترى من جديد الفنار الشامخ الذى كان يقف يومًا على تلك الجزيرة الصغيرة أمام الميناء.

كانت لديها القدرة أن تحدد، من أى مكان توجد فيه بالإسكندرية،" كيف يمكن الذهاب " إلى قيصرية، إلى سرابيوم، إلى قصور البطالمة، إلى المسرح، وبخاصة إلى المتحف وإلى مكتبته العظيمة. تلك المجموعة الهائلة من الأبنية التى كان لدى علماء الآثار فكرة بسيطة عنها، كانت ذافنى تراها أمام أعينها، بل ويمكنها أن تصف بدقة قاعات المحاضرات، المعامل، مراصد النجوم، قاعة الاستقبال، حديقة الحيوانات. وقد اعتادت هى نفسها أن تتجول فى تلك الأماكن، وأن تتجاذب أطراف الحديث مع إقليديس عن الأرقام، ومع إراتوستينيس الذى قام بحساب مساحة الأرض، ومع كاليماخوس -الذى يحمل ابنها نفس اسمه- عن الشعر، ومع أريستارخوس عن نظرية المركزية، ومع أراسيستراتوس عن الدورة الدموية. كانت أصوات المصريين من بائعى الفاكهة فى المدينة الحديثة يتردد صداهم وهم يعلنون عن بضاعتهم، أصوات أقدام الخيول وهى تجوب الطرقات، أصوات السيارات وهى تروح وتجىء، السائقين وهم يضغطون بشدة على نفير سياراتهم، احتشاد الناس فى الحانات والكازينوهات بالكورنيش، فى محلات الحلوى وفى المقاهى الراقية، كل تلك المظاهر الساحرة التى تتكرر كل يوم كانت تحيط هذا السيل المتدفق من الذكريات. لقد وجدت ذافنى نفسها وأثبتت ذاتها مرة أخرى فى هذه الضوضاء، فى هذه التجمعات، فى جولاتها فى المحلات التجارية، ومن خلال مشاركتها فى كل الأنشطة الاجتماعية. كانت شديدة الحرص على الإبقاء على علاقتها الوثيقة بأعضاء الجالية اليونانية من أجل مصلحة زوجها، كانت تحيا من أجل المشاركة فى تلك الدائرة المحكمة التى كانت تشكلها

الاحتفالات الوطنية والدينية. فى أعياد الميلاد التى كانوا يحتفلون بها بالعادات الأوربية، وفى العروض الاحتفالية ليوم ٢٥ مارس التى كانت تفيض فيها مشاعر اليونانيين، فى احتفالات عيد الهالويين وفى الرحلات التى كانت تقوم بها فى أعياد الربيع إلى الحدائق الخضراء، فى الاستعدادات للاحتفال بعيد القيامة وفى الشعائر الدينية بكنيسة سان سافاس "وزهرة" يوم الجمعة الكبيرة، وفى الاحتفال بعيد القيامة فى كنيسة إيفانجيليزموس، فى الاحتفال "بشم النسيم" (ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) وفى التجمع الكبير فى الأول من شهر مايو، فى العروض المدرسية فى استاد البلدية بالمدينة، تلك العروض التى كانت إيذانًا ببدء موسم السباحة فى البحر على رمال شاطئ ستانلى وسيدى بشر، وسان ستيفانو وجليم.

وفى النهاية عندما كانت تشعر بالتعب من كل هذا، كانت تستقل أول باخرة لترحل بها إلى أوربا فى رحلات طويلة، لم يكن بينها وبين أندونيس خلالها أى اتصال سوى أن يتلقى منها إما كارت بوستال أو تلغرافًا.

* * * * *

كان إلياس خورى على حق عندما كان يقول: «لماذا أسافر بعيدًا عن الإسكندرية؟ من هنا أستطيع أن أرى العالم ومستقبله بشكلٍ أكثر وضوحًا».

حقيقيةً، لو أراد أى شخص أن يرى التغييرات المستقبلية على الخريطة العالمية، فلم يكن عليه سوى الحياة لوقت قصير من فترة ما بين الحربين فى مدينة الإسكندرية، هذه البوتقة الغريبة متعددة الأجناس، حيث تكشف الرغبات والموجات بوضوح كل ما هو آت. بنظرة واحدة يمكنك أن تستنتج الخطوة التالية التى سيقوم بها المصريون ومحاولات اليهود لإقامة وطن لهم فى فلسطين، صعود الفاشية والنازية، أما إصابة الأسد البريطانى بالشيخوخة فقد كانت الحرب القادمة بمثابة الرقصة الأخيرة بالنسبة له.

قام حاييم وايزمان، زعيم الحركة الصهيونية بزيارة الإسكندرية للمرة الأولى فى عام ١٩١٨، ومن بعدها تعددت زياراته لها، ولكن على الرغم من ظهوره الدائم بصحبة صامويل عظيمان، فإنه لم يقبل أبداً أن يقيم فى فيلته فى رشدى، وكان يفضل أن يقيم فى ضيافة البارون دى ميناسيه فى محرم بك. وكان قد حضر باعتباره زعيماً لإحدى اللجان اليهودية من أجل تحقيق مصالح اليهود فى فلسطين، مطمئناً العرب تجاه نيات اليهود الخفية. لقد أدرك أن السمعة التى تطارد صديقه باعتباره مهربٌ للآثار من شأنها أن تفسد القضية برمتها. أما صمويل الذى لا ينبغى الشك فى صدق نياته، فلم يظهر أى إحساس بالإهانة تجاه ذلك القرار، معتبراً أنه من الطبيعى أن يحل وايزمان ضيفاً على رئيس الجالية اليهودية بالإسكندرية، متحلياً بالصبر من أجل تحقيق الهدف اليهودى.

لقد اتهمه إلياس، دوناً عن غيره، بأنه المورِّد المالى الرئيس لدعم تهريب السلاح إلى فلسطين من تسليح " الهجانة "(ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية)، التى كانت بمثابة جنود الجيش الصهيونى السرى. وعندئذ كان صمويل يدعوه على الملأ بأنه " عدو للسامية "، ومن ثم قطع كل منهما علاقته بالآخر، وأصبح يوم الأربعاء الذى كان يوماً ثابتاً للعب الورق فى منزل عظيمان فى عداد الماضى.

والحقيقة أن إلياس كان قد أفرط فى الانغماس فى حلم كل العرب، وكان من بينهم السوريون - اللبنانيون المسيحيون الذين كان البارون دى ميناسيه يشكو منهم لحاييم وايزمان قائلاً: «إنهم لا يأخذون الأمر مأخذ الهزل، ولكنهم معادون للسامية». ويقال إن إلياس غادر ذات مرة إحدى حفلات الحى اليونانى مسرعاً، بعد أن وجد نفسه مضطراً للجلوس مع أحد اليهود المعروفين بمعتقداتهم الصهيونية. وطبقاً لهذه الرواية، فقد جاءت الإجابة التى أعطاها لرب المنزل الذى حاول أن يثنيه عن المغادرة على النحو التالى: «لا تورطنى مع أحد السفارديم القذرين! "إلى اللقاء "(قالها بالفرنسية)».

أما فى واقع الأمر، فلم تتأثر علاقة إلياس بيهود الإسكندرية بشكل جوهرى. ومن جهة أخرى، لم يعط الكثيرون ممن كانوا يحيون فى رغد من العيش فى تلك الحقبة أية أهمية لتطلعات وايزمان الصهيونية ومن معه. ولم تكن آراؤه تجاه المطالب العربية

واضحة على الإطلاق. ففى حين كان يدعى أنه يحاول إيقاظ الطابع العربى بالشرق الأوسط، فإنه، من ناحية أخرى، كان يصف سعد زغلول بالمهرج السياسى، ولم تكن لديه رغبة حقيقية فى الاستماع إلى أنصار حزب الوفد المتشددين. كما يرى البعض أن تعاونه مع الإنجليز تشوبه مشاعر متناقضة، لكنه كان يعتبر هؤلاء هم جيل عام ١٩١٤. كان أندونيس، الذى سمع إلياس يتحدث مراراً وتكراراً عن تلك القضايا، قد توصل إلى استنتاج مفاده؛ أن بداخل هذا الرجل صراع بين المواطن العالمى ذى النشأة الغربية والمواطن العربى. ووفقًا لمعتقداته، فقد توصل إلياس إلى قناعة مصطنعة من أجل الإعلاء بوجه عام من شأن النبوءة الخاصة بالصحوة العربية، مغرقًا بين هذه النبوءة وبين أشكال النشاط ضد أصدقائه الإنجليز الذين، وفقًا لقناعاته، سوف يدعمون العرب قبل أن تنهار إمبراطوريتهم إلى الأبد. أما بالنسبة لعدائه للسامية، فلم يكن سوى رد فعل قوى على نزعات الصهاينة التى تبدو متناقضة مع ما يعلنه ممثلوها من حسن النيَّات. كان من الصعب على شخص مثل إلياس - تعلم كيف يتعايش مع اليهود فى سلام ووئام مثلما تعايش مع اليونانيين والأوربيين الآخرين - أن يرى اليهود فجأة باعتبارهم أعداء خطرين، أو هكذا كان أندونيس يعتقد.

فى تلك الأثناء، لم يتوقف " اللبنانى" لحظة واحدة عن الحديث عن الحرب القادمة من أوربا، وكلما مرت السنون، كلما تجنب السفر إلى القارة العجوز قدر الإمكان. أما بالنسبة لإيفيت فقد أصابها الذعر من الحرب، ولم تشأ أن تدركها وهى فى إحدى دول أوربا. وعندما يسأل أحدهم إلياس عن الحرب القادمة، يشير باتجاه كرموز- حيث يتجمع الإيطاليون المعدمون على حدود المدينة المصرية - ويقول: «أرى يد موسولينى الشيطانية تلقى بظلاها على الإسكندرية!». انتشرت هذه الفكرة فى حانة دانييل، وقد نبعت من ردة فعل دوتشيه الشيطانية. لم يعد هناك شىء فى حانة ذلك الإيطالى يذكرك بمجد تلك السنوات البائدة. فبعد الحرب أقيم العديد من الأماكن التى يستطيع أى شخص أن يستمتع فيها باحتساء كوب من البيرة أو فنجان من القهوة أو كأس من الويسكى. لقد أضاف "الكورنيش" الجديد، الذى تم استكماله فى عام ١٩٣٠ .

مدينة جديدة داخل المدينة الموجودة بالفعل؛ أما الناس، وهو أمر طبيعى، فقد انقسموا على أنفسهم. «لقد دمر الكورنيش الجديد الإسكندرية!» (ذكرها بالإيطالية) هكذا كان دانييل يتذمر دائمًا، ويتحسر على تلك الأيام التى كان موظفو "البورصة" (ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) ينتهون من عملهم وتمتلئ الحانة بعدها بالظمأى منهم.

إلياس: «لا تتحسر، ياصديقى، إذا كان الكورنيش قد دمر المدينة، فسوف ينقذها دوتشيه!» هكذا كان إلياس يقول ضاحكًا.

دانييل: «أعرف أنك تسخر منى، لكن ألم تر ماذا يفعل موسولينى "لمواطنينا الإيطاليين"(قالها بالإيطالية) بالإسكندرية؟ لقد شيد لنا مستشفيات أفضل ومدارس أكبر. إنهم يفتتحون النوادى ويقيمون رحلات مجانية لأولادنا إلى إيطاليا».

هكذا علق دانييل حتى إن عينيه الضيقتين الثابتتين اكتسبتا بريق الحياة مرة أخرى. وكان ابنه ريناتو قد انضم لمجموعة الفاشية الشابة وأصبح يسير فى شوارع الإسكندرية مرتديًا القميص الأسود والوشاح الأزرق. وسرعان ما شاهد خورى الحانة وهى تمتلئ بالأعلام الإيطالية وصور دوتشيه، إلى جانب دعايات السلطة التى كان ريناتو يأتى بها من الرحلات المجانية للوطن.

وهكذا استمر مالك الحانة فى توجيه التحية الرومانية إلى أصحاب القمصان السوداء الذين كانت الحانة تعج بهم، الذين مثلوا نوعًا جديداً من الزبائن الدائمين. لكل هؤلاء كان دانييل السمين يقوم باستعراض العظمة الفاشية، بعد أن قام بتعليق صور للديكتاتور بكل الأشكال والأوضاع؛ وفى كثير من الأحيان كان كل من يمر بشارع شريف باشا تصل إلى مسامعه فجأة هتافات وتصفيق. كان بإمكانك، وأنت تحتسى كوبًا من البيرة، أن تتعلم من دانييل درسًا من دروس التاريخ، وكيف كان البحر المتوسط بأكمله فى وقتٍ من الأوقات مسرحًا للمجد الرومانى، بشواهد لاشك فيها تتمثل فى تلك الآثار التى تحيط "ببحرنا "(قالها بالإيطالية) ؛ وهكذا كانت لكل أصحاب القمصان السوداء المتحمسين حقوق فى مدينة الإسكندرية، باعتبارهم أحفاداً حقيقيين ليوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس. لقد حلت القمصان السوداء محل " الجلاليب"

المطرزة بالخيوط الذهبية التى كان يرتديها العاملون، مثل فوزى. أصبح هناك أناس مثل إلياس وخاراميس مرغوبًا فى وجودهم فى بؤرة الفساد الفاشية هذه، حيث كانوا يقيمون مسابقات فى شرب البيرة حتى الثمالة باسم الزعيم الكبير.

فى تلك الأثناء، بدأ الرعايا الألمان، الواحد بعد الآخر فى التوافد على الحزب النازى المصرى الذى أسسه ألفريد إس، الشقيق الأصغر لرودولف إس. وقد طلب أبوهم فريتز إس، أن يلتقى أندونيس خاراميس لسبب مجهول، لكن إلياس، الذى استشاره أندونيس، أشار عليه بأن لا يفكر فى مقابلته، حيث كانت المخابرات البريطانية تراقب عائلة إس مراقبة دقيقة.

* * * * *

من بين أفراد عائلة ثاناسيس بوستاندزوغلوس استطاع أندونيس أن يميز بنيامين نيكيتاس، "الشيطان الأشقر"، فقد كان هذا الشاب مشهوراً بشعره الأصفر وعينيه الخضراوين. كان الجميع يذكرونه بوصفه فتى هزيل البنية، شديد العصبية، يجوب شوارع الإسكندرية بدراجة متهالكة، لديه استعداد فطرى لارتكاب أكبر الفضائح. يقولون كيف عانت أمه الكثير من أجل تربيته، وعلى الرغم من ذلك فلم تبد أى تذمر أو استياء منه، طالما كانت تعرف أنه وحده من بين أبنائها الثلاثة قد ورث عنها شخصيتها وذكاءها. وعندما يسمعها أحدهم وهى تتحدث عن نيكيتاس وعن مشاكساته، كان بوسعه أن يتبين على الفور كم الفخر الذى اعتادت أن تصف به مدى معاناتها مما يجلبه عليها هذا الشيطان الصغير. كما كانت تشعر بالاحباط الشديد عندما تتذكر- ولو لمرة واحدة- أن نيكيتاس لم يتمكن من إفزاعها حين عودته متأخراً وقد بدت على ركبتيه ومرفقيه آثار الكدمات والملابس المتسخة، حيث اعتاد أن يدخل المنزل ليس من الباب ولكن من نافذة الطابق الأول بعد أن يتسلق شجرة الخروب ثم يقفز فى شرفة العمارة الكائنة بشارع باب سيدرا. ومن جهة أخرى، كانت تشركه معها فى مقالبها مع جاراتها، على العكس من كل من نيكولاس وأوليمبيا اللذين كانا أكثر

جدية منه إلى حد المبالغة تجاه مثل تلك الأمور، ولم يقبلا قط المشاركة فيما كان يفعله الصغير. مثل هذا الساحر كان جديراً بأن يصبح المثل الأعلى لكوستيس.

كان أندونيس يقدر حقًا تأثير نيكيتاس على ابنه، كما كان يقدر موقف نيكيتاس عندما رفض الوظيفة التى عرضها عليه فى المصنع أثناء خلافه مع والده واضطراره لترك محل البقالة، مفضلاً مغادرة منزل الأسرة والإقامة فى كفر الزيات التى كافح فيها واجتهد لكى يثبت نفسه باعتباره رجلاً يعمل فى زراعة القطن. كان رجلاً شريفًا مثل ثاناسيس، لكن تفوق على ثاناسيس فى حدة الذكاء، ورغم ذلك، فقد تولد لدى خاراميس انطباع بأنه لن يحقق، فى النهاية، النجاح فى حياته تمامًا مثل والده، لأن ذكاءه كان يوجه مسيرته بطريقة يشوبها الاندفاع. عندما علم أندونيس بوجود نيكيتاس فى الإسكندرية مع بداية عام ١٩٢٠، طلب رؤيته وكانت لديه أسبابه.

وفى الصباح، حضر نيكيتاس إلى المصنع مرتديًا قميصًا جميلاً وقبعة بيضاء ودخل بجرأة إلى مكتبه مباشرة، كان مظهره بأكتافه العريضة وقامته الممشوقة يشبه ثاناسيس فى سنواته الأولى فى الإسكندرية. وبمجرد أن علق قبعته على الشماعة، جلس فى الصالون الصغير على مقربة من المدخل منتظراً انتهاء أندونيس من بعض الأعمال مع بابافينجوس، ثم علت وجهه ابتسامة ساخرة من كبير الموظفين بسبب عادته فى الخروج من المكتب عائداً بظهره.

«مرحبًا نيكيتاس» قال ذلك أندونيس بصوت كان يعرف أنه سيمنح الثقة لزائره ويجعله أيضًا يشعر بالغليان فى مكانه.

نيكتياس: «مرحبًا بك، يا عمى» أجابه نيكيتاس، موضحًا بهذه الطريقة درجة القرابة التى تجمع بينهما، الأمر الذى لم يعجب أندونيس.

أندونيس: «أخيراً، كان ينبغى أن أحاول بأى شكل حتى أراك تعبر باب مصنعى ولو باعتباره زائراً». عند هذا التعليق لم يجبه ابن أخيه، كما كان منتظراً. قدم له سيجارة فأخذها نيكيتاس بارتياح من علبة السجائر الفضية.

- «هل تقوم بتدخن سجائر مصنعنا بين الحين والآخر؟».

- «الويل لى لو لم أكن أدخن مثل هذه السجائر».

- «هيا، فلى صديق لبنانى يقول لى نفس الكلام، وفى كل مرة أضبطه يدخن ماركة مختلفة من السجائر. فالمدخنون ليست لهم مصداقية. صدقنى، لدى سابق معرفه بذلك».

- «ليس لدى أدنى شك فى هذا» وبينما هما كذلك، دخلت جوليا لتقدم لهما الشاى، وفى منتصف الصينية وضعت إناء صغير به مكعبات السكر البيضاء.

- «يا بنى، فى البداية أريد أن اشكرك لأنك قبلت وساعدت ابن عمك حتى أصبح رجلاً فى بيئة قاسية مثل مدينتنا».

- «لم أفعل شيئًا، يا عمى».

- «لا تقل ذلك، بل فعلت، وفعلت الكثير» هكذا قال أندونيس وقد بدأت عبارة "يا عمى" هذه تزعجه، ثم استطرد قائلاً: «أنا أعلم كم هى صعبة شخصية ابنى الكبير. أشكرك إذن وأستكمل حديثى. لقد استدعيتك هنا، يا ابنى العزيز، لكى أسألك عن بعض الأشياء». ثم بدأ يتجرع بعض رشفات من الشاى، يحصل خلالها على قدر من الوقت للتفكير، وقد قلده نيكيتاس فى الحال. ثم استدرك قائلاً:

«كنت أقول إذن إننى أرغب فى سؤالك عن بعض الأشياء فى كفر الزيات، وستعرف بالطبع أن لى أيضًا فى حقول القطن بعض المصالح مع مزارعى القطن من عائلة زوجتى».

- «نعم نعم، أعرف ذلك».

- «أتصور أنك وعمك لوكاس (قالها وهو يؤكد على كلمة عمك، وكأنه يقول له إن هذا هو عمك الحقيقى) كنتما تلتقيان كل يوم تقريبًا. أليس كذلك؟».

- «لا أستطيع أن أقول ذلك، فأنتم تعرفون، أن العم لوكاس قد استقر فى القاهرة منذ عودته من بيروت، ونادرًا ما يزورنا فى كفر الزيات».

– «ماذا! لم أكن أعرف ذلك. ومن الذى يرعى حقول القطن؟ لكن ما هذا السؤال. لابد أنه وضع من يحل محله».

– «نعم، ربما يكون هذا ما فعله».

– «ليس هناك حل آخر، اليس كذلك؟».

– «نعم، ربما».

– «هذا ما أقوله أنا أيضًا» هكذا أبدى أندونيس ملاحظته ثم أشعل سيجارته، وهو يرسم أشكالاً تعبيرية بشفتيه تاركًا دخان سيجارته يخرج كالأمواج من فمه، ثم استطرد قائلاً: «وأنت، الآن وقد تعلمت هذا العمل، ما رأيك فى مزارع القطن تلك؟ هل هى تجارة مربحة؟».

– «ماذا يقولون لكم؟».

– «يقولون إنها مربحة».

– «طالما يقولون لكم ذلك، فهى كذلك». هذا الشيطان الصغير لم تكن تستطيع أن تنتزع منه كلمة واحدة.

– «وإذا قلت لك، إننى لو سمعت هذا الكلام من شخص مثلك، فسوف أصدقه على الفور؟».

– «هل تريدون أن أعطيكم بعض المعلومات عن العم لوكاس؟» هكذا سأله نيكيتاس بشكل مفاجئ.

عندئذ أومأ أندونيس برأسه موافقًا والسيجارة فى فمه.

– «حسنًا لأنى أريد أنا أيضًا شيئًا منكم، فظروف العمل فى كفر الزيات باتت صعبة، لكن هذا العمل لا يخيفنى، كما لا تخيفنى تهديدات والدى بأنه سيحرمنى من الميراث. على أية حال، فهو لن يترك لنا فى النهاية سوى الديون، فلتتذكروا هذا الكلام لكن......».

- «لكن.......»

- «لكن....... أنا على يقين من أنه لا يملك الكثير، وأن حالته الصحية تتدهور من السيئ إلى الأسوأ. فمرض السكر أصبح ينخر فى جسده يومًا بعد يوم. لا أريد أن يموت ثاناسيس العجوز ونحن على خلاف. وكأن كل ما حدث لم يحدث. إنه أبى، سوف أتراجع عن موقفى. أعتقد أنكم لو تكلمتم معه، فسوف يستمع لكم. فهو يكن لكم كل التقدير والاحترام».

- «وأنا أكن لوالدك، يا نيكيتاس، كل التقدير والاحترام، إن لثاناسيس قلبًا كبيرًا. ربما يكون قد أفسد الأمور قليلاً فى السنوات الأخيرة، ولكن ما الذى سيحدث. إن الحياة طويلة وليس من المعقول أن لا يقع الإنسان فى أى خطأ طوال تلك السنوات. من حقنا جميعًا أن نخطئ ومن حقنا أيضًا أن نطلب الصفح. سوف أحدثه إذن، هذا وعد» قال ذلك أندونيس وقد تأثر بموقف نيكيتاس، ولكن لم يعجبه أن تطول هذه المناقشة أكثر من ذلك وتظاهر وكأنه ينظر فى ساعة الجيب الخاصة به.

أدرك نيكيتاس الموقف وقدم التحية لأندونيس. لكن قبل ذلك كانت عيناه قد وقعتا على خطاب من كوستيس تركه خاراميس على سطح مكتبه، فشعر بالحزن لأن ابن عمه الحبيب توقف لمدة ثمانى سنوات عن الاتصال به.

- «أشكرك يا عمى» قالها وهو يستدير تجاه الباب، وسمع رجل صناعة الدخان وهو يرد له تحيته قائلاً:

- «وأنا أيضًا أشكرك لأنك سوف تهتم بموضوع العم لوكاس».

استدار نيكيتاس ناحيته ولمح فى عينى خاراميس نظرة ودودًا بدلاً من النظرة الحازمة والقاسية التى اعتادها منه. ابتسم له بطريقة ذكرت أندونيس بجرأة كوستيس، موقظًا بداخله ولأول مرة بعد تلك السنين حنين الأبوة. عندئذ فكر أندونيس فى أن يرسل تلغرافًا إلى ابنه الأكبر فى نفس اليوم، لكن الوقت قد حان لعودته: ومع انشغاله بالعمل نسى إرسال التلغراف، ربما يكون قد ندم على ذلك، من يدر.

* * * * *

قبل أربعة أيام من إجراء انتخابات الرابع عشر من شهر سبتمبر لعام ١٩٣٠، ألقى هتلر خطاباً فى "قصر الرياضة" ببرلين أمام ستة عشر ألفًا من الجماهير. علم كوستيس أن ماخوس كان على مقربة منه، لكن الشقيق الأصغر تجنب لقاءه. بعد ذلك بقليل أدرك أن من كانوا يقولون إن هتلر هو نوع من " المرض المعدى" كان لديهم الحق فى ذلك، فعلى الرغم من أنه فى مرحلة ما قبل الانتخابات نادرًا ما كان يحمل أحدهم بشكل صريح على اليهود - على الأقل لم يقل عنهم فى برلين أى شىء - فإنه كان أثناء مروره عبر كل مدينة، يبث سم أفكاره التى كانت تعكر صفو النقاش الهادئ بين الناس.

وبعد مضى شهر، حدثت مصادمات فى شارع لايبتشيجر، حيث تظاهر بعض النازيين المتطرفين ضد اليهود. وشرعوا فى الاعتداء دون تفرقة على كل من له شعر أسود اللون وأنف معقوفة وقاموا بتحطيم واجهات المحلات المملوكة لليهود. وفى اليوم التالى أبلغ كارل كوستيس بضرورة الإسراع إلى القبو الذى يعيش فيه يعقوب، المفكر اليهودى. إلا أن الشرطة كانت قد وصلت قبلهم وأحاطت بالمكان. كل ما تبقى من هذا المخلوق الذى كان كوستيس يدعوه حتى هذه اللحظة يعقوب - حيث يقول كارل إنهم هشموا رأسه - فقد قاموا بلفه فى ملاءة وأبعدوه عن مكان الجريمة. أما كارل الشيوعى ضخم الجثة الذى لحق بالشرطة، فقد استطاع التقاط أحد المنشورات التحذيرية التى ألقاها القتلة فى الطريق وقدمها لكوستيس.

«كل اليهود سيموتون، وكذلك كل من يحمونهم» قرأ كوستيس هذه العبارة وشعر لوهلة أنهم كانوا يهددونه هو شخصياً، ربما لهذا السبب قال لكارل فيما بعد:

كوستيس: «يكفى هذا، أعتقد أن هذه المعركة تخصكم وحدكم - فلتجدوا لها حلاً وسوف نلتقى ثانية. سوف أرحل من ألمانيا فى أسرع وقت ممكن، " أعتذر عن هذا" (قالها بالألمانية)».

كارل: «أنت مخطئ فهذه المعركة تخص العالم بأسره، وسرعان ما سترى» ورغم ذلك فلم يستطع إقناعه بالبقاء، ربما بسبب خوفه وربما بسبب غضبه، وربما للسببين معًا، لم تعد لدى كوستيس الرغبة فى رؤية برلين أو الألمان. وفى العام الأخير رأى أن

شبح التضخم لعامى (١٩٢٢، ١٩٢٣) يعود من جديد. وقد أدى انهيار البورصة إلى انهيار الاقتصاد الألمانى. تحول الشعب الألمانى إلى شعب مشرد، وقرص الجوع الجميع. كان الناس يتساقطون فى الشوارع دون سابق إنذار. بالإضافة إلى ذلك تجد النازيين يقفون فوق رأسك وهم يهددونك! لقد أنهكته تلك المفارقة الغبية. أرسل تلغرافًا إلى أهله يقول فيه: «سأغادر برلين. هناك خطر حقيقى على حياتى. وجهتى التالية هى باريس». لكنه عاد وأيقن أن التلغراف الذى أرسله كان مبالغًا فيه وشعر بالخجل من نفسه، فقد أظهر أنه شديد الجبن.

من بين الجامعات المختلفة بالمدينة التى درس بها لبعض الوقت، لم يتمكن كوستيس من الحصول على شهادة دراسية واحدة، فقد كان هذا الأمر هو آخر شىء يمكن أن يشغل باله. قرر كوستيس مغادرة المدينة، حتى لو كان يعرف أنه سرعان ما سيشعر بالحنين لزحام "بوتسدامر" و "بلاتس" ومدينة " أودير دى ليدين" بمبانيها الشاهقة، والزحام الشديد فى محلات "كورفيستيردام" التجارية، وليالى برلين الخالدة وكل أصدقائه الذين حضروا لمحطة القطار يوم رحيله ليتمنوا له "رحلة سعيدة"(ذكرها بالألمانية) ـ كارل الشيوعى وماكس الرسام وصديقاته الثلاث: مارلين، أولريكى، روسا. كانت الفتيات الثلاث يرتدين ثياب العمل: الفساتين الحريرية، جواكت زرقاء ضيقة من ناحية الصدر وقبعات، تاركين جزءًا صغيرًا من قصة الشعر (á la garçon) تبدو من تحت القبعات. الشىء الوحيد الطويل فيهن هو فلتر السجائر الذى وصل طوله إلى أكثر من نصف متر.

«وداعًا!» قالتها الفتيات الثلاث معًا (بالألمانية) فى الوقت الذى كان القطار يتحرك فيه وقد رفعن معًا ثيابهن لأعلى ثم انخرطن فى بكاء وضحك فى نفس الوقت. لقد أغضب هذا القرار المفاجئ ماكس، الذى تسمر فى مكانه دون حراك بطريقة تحمل عندًا طفوليًا. أما بالنسبة لكارل، فكان كعادته متفائلاً، حيث قال: «سنقضى على هؤلاء النازيين» وكان قد تحدث بإصرار مع كوستيس منذ دقيقة مضت قائلاً: «سوف ترى. فخلال عام على الأكثر لن يكون هناك أى أثر للنازيين، عندها ستعود، أليس كذلك؟».

وعندئذ أجابه كوستيس وهو ينظر تجاه ماكس الذى كان يقف ممتعضًا على جانب رصيف القطار وقال (بالألمانية):

«أرجو ألا تكونوا غاضبين منى».

كارل: «بالطبع لسنا غاضبين منك. اكتب لنا بين الحين والآخر، تحيا الشيوعية!».

كان كوستيس قد ابتعد بشكل كافٍ عن برلين عندما بدأ يتذكر كيف كانت هذه المدينة التى عاش بها ما يزيد على ثلث سنوات عمره مدينة آمنة، وكأنها وطنه الثانى. على أية حال، لم يكن كوستيس مترددًا ولو للحظة واحدة فى القرار الذى اتخذه، وكان واثقًا تمامًا من أنه قد غادر برلين فى اللحظة المناسبة، لا قبلها ولا بعدها. وهو ما شعر أن صرير عجلات القطار فوق القضبان تقوله له.

* * * * *

كل مدينة تعد بمثابة المحرض الصامت الذى يوجه أفعال وأقوال الناس. فإذا كان هذا يسرى على أولئك الذين يعيشون فيها بشكل دائم، فما بالنا بمن يأتونها عابرين. بوصوله إلى باريس، استطاع كوستيس الإقامة فى أحد الفنادق التى تقع على الضفة الشمالية لنهر سيكوانا، كما استطاع فى نفس الوقت الإبقاء على " إيقاع الحياة "(ذكرها بالفرنسية) الذى كان قد تبناه طوال السنوات الماضية. لكن فجأة جال بفكره أنه ما زال يعيش فى نفس الغيبوبة التى كان يعيشها فى برلين، عندئذ قرر أن يبحث لنفسه عن غرفة فى قلب المدينة ليقيم بها.

فى البداية، عثر على غرفة فوق سطح أحد المبانى القديمة بالحى اللاتينى، وكانت تشبه عش الطيور أكثر من كونها غرفة يسكن فيها البشر. كان الفنانون فى شرفات المبانى المقابلة ينشرون الرسومات الزيتية على الأقمشة لتجف، مثلما تنشر ربات البيوت الثياب، فى حين كان الباعة الجائلون يصمون آذان الناس بأصواتهم العالية فى الشارع.

وكانت المرة الأولى التى يدخل فيها وسط زحام مدينة باريس عندما ذهب إلى سوق شارع " بيسى". وعندما أصبح أكثر جرأة بدأ يتجول فى شارع سان جيرمان، الذى كانت أصوات أبواق السيارات الهستيرية تصل إلى أسماعه داخل غرفته. كان جو "المقاهى" (ذكرها بالفرنسية) فى المنطقة يعطيه الإحساس بأن أفضل سنوات عمره قد مضت، وأنه بعد أن ظل حبيسًا فى برلين لمدة عشر سنوات وصل الآن إلى باريس بعد أن فعل – أو تقريبًا قد فعل – كل ما يحلو له. وسط رغبته فى التعرف على كل زاوية من زوايا هذه المدينة الساحرة، لم يدرك كيف أمضى عامه الأول فيها. وبمجرد أن بدأت رياح الشتاء فى الهبوب، اكتشف أن الحياة فى تلك الغرفة أصبحت لا تطاق، وعلى عكس الجميع، كان عليه أن يتشارك فى مكان الاستحمام مع بعض السكان ممن يقطنون الطابق الخامس، مما دفعه لمغادرة الغرفة دون أن يستعيد مقدم الإيجار الذى دفعه لصاحب الغرفة بعد أن اقتنع فى النهاية بحتمية الإقامة لفترة فى أحد الفنادق المجاورة، حيث كان الاستحمام يكلفه عشرة فرنكات بخلاف الإيجار المتفق عليه. ولا شىء أكثر من ذلك.

وعلى الرغم من أن " حنفية النقود " لم تغلق مطلقًا ـ وكان عليه الاعتراف بفضل أبيه فى ذلك – فإنه لم تكن لديه الرغبة فى الاستمرار كذلك فى إهدار ثروة أبيه، فسيطرت عليه فجأة حالة من البخل الشديد وفرض على نفسه لعدة أشهر نظامًا صارمًا للطعام." ليس معى نقود سائلة، لكنى أفضل أن أضعها تحت الفراش"، هكذا كان يجيب (بالفرنسية) على "الحسناوات "(ذكرها بالفرنسية) اللاتى كن يسخرن منه لعدم امتلاكه حتى عشرة فرنكات ليضاجعهن. ولم تكن مجرد كلمات، ولكنه أقدم على ذلك بالفعل: فكان يجمع النقود تحت مرتبته فينتابه شعور بالسعادة، وبخاصة فى الصباح وفى المساء عندما كان يقوم بعدها. استمر كوستيس على هذه الحال حتى فصل الربيع. وفى يومٍ من الأيام ـ يا له من بائس – اكتشف أن نقوده قد تبخرت وكاد أن يجن جنونه وتشاجر مع صاحبة الفندق وهددها بإبلاغ الشرطة، لكنها شرحت له أنها لم تكن مسئولة عن أية نقود أو أشياء ثمينة كان يخفيها دون علمها فى غرفته،

وفى الوقت ذاته ذكرته أن رجال الشرطة سيطلبون منه قبل أى شىء الاطلاع على" تصريح إقامته "(ذكرتها بالفرنسية) الذى لم يكن بحوزته، وسواء كانت لديه الرغبة أم لا، فقد أمسك لسانه وظل فى الفندق طوال الشهر الذى كان قد دفع مقابله مقدماً. ويبدو أن هذا الحادث المؤسف قد عالج للأبد نزعة "البخل"(ذكرها بالفرنسية) التى انتابته. وبالمبلغ التالى من النقود الذى تسلمه من والده، حرص على استخراج تصريح للإقامة، فى حين بدأ فى نفس الوقت يتجول بعينيه فوق تل مونمارترى البديع، الذى يشتهر جانبه الآخر بسمعته السيئة، حيث يمكنه الحصول على كل ما تتمناه روحه الملتاعه. وأخيراً، عزم على الإنفاق مرة أخرى، سيعقد صداقات جديدة، سيبدأ حياة بوهيمية جديدة، وسوف يثبت للجميع أنه لم يحصل على لقب «أمير برلين» مصادفة.

كان أول من تعرف إليه هو برندراك إيفيتس، وهو صربى، أشقر، بشع الملامح بأنفه الضخم، كان يعيش فى مدينة ثيسالونيكى باليونان، وبعد حريق عام ١٩١٧، انتظر حتى نهاية الحرب فى أوربا حتى يستطيع التوجه إلى باريس. الآن، وقد بلغ من العمر ثلاثين عاماً أصبح معروفاً باسم " ذو الأصابع السريعة "(ذكرها بالفرنسية)، بسبب مقدرته الفائقة على ملء صفحات عديدة مليئة بتاريخ البشر فى زمن قصير، بنفس قدرته على إفراغ جيوب السذج الذين يمرون من طريق "بوليفار دى كليسى". كان هذا الساحر القبيح، خلافاً للآخرين، يتحدث اليونانية وبعض التركية، كان يتمنى أن يصبح يوماً ما " هيمينجواى البلقان "، أما فى الوقت الحالى فقد كان مضطراً للعيش متكسباً رزقه بطرق غير شرعية. وطالما أنه فشل " باعتباره محتالاً" (ذكرها بالفرنسية) ـ وأيضاً بوصفه نصيراً للبؤساء الذين كان يكتب عنهم فى الشوارع المجاورة – فقد جرب حظة " باعتباره نشالاً" (ذكرها باليونانية وكررها بالفرنسية)، بعد أن تأكد من قدرة يديه على ذلك. ففى إحدى الأمسيات راهن كوستيس على سرقته سبع مرات دون أن يشعر به، وبالفعل نجح فى ذلك.

فضل إيفيتس أن يقوما بتعيين سائق سيارة قوى يدعى ميسكليه، وكان اسم عائلته هو: ميسا فوروبانوف. كان ميسا ضابطاً روسياً بالجيش الأبيض المهزوم، وقد

أصبح مفلسًا بسبب الثورة البلشفية، ولكى يستطيع أن يعيش أضطر لاستغلال قوته الجسدية غير الطبيعية، كأن يقوم ببعض العروض الأكروباتية فى شوارع باريس. هكذا أصبح الرجل مفتول العضلات ذو القبعة والجاكت الصوف هو ثالث تلك المجموعة غريبة الأطوار، التى أقدم بها " أمير برلين" المضطرب على أولى خطواته الحذرة تجاه عاصمة روحه الجديدة، بدءًا بالأماكن الكلاسيكية: مثل "مولان روج" و" كازينو دى بارى"، حيث تعمل صديقته القديمة من برلين - جوزفين بيكر- وتثير الحاضرين برقصاتها المثيرة للغرائز. وصلت الحال بكوستيس إلى حد استمتاعه بشراهة بالليل الباريسى ولا يأوى إلى فراشه إلا مع طلوع فجر يوم جديد على المدينة، وبعد أن تنتهى الراقصات العاريات من أداء رقصاتهن أمامه فى ملهى "فولى بيرزير"، مثيرين شهوته بطريقه تدفعه لإفراغها بين أحضان إحدى بائعات الهوى الرخيصات.

لكنه كان كلما غاص فى غياهب باريس، بما فيها من دورات مياه عامة ومخابئ لمدمنى المخدرات وكباريهات وبيوت بغاء، كلما ازداد تفكيره فى برلين، مدينته التى استمر فيها، لفترة طويلة، الأمير المتوج الوحيد وليس مجرد واحد من أمراء الليل الذين لا حصر لهم؛ وعندما يجلس فى السيارة بجوار ميسكليه - ذلك الرجل الصامت، بشاربه الحاد، والذى كان يدور به بسيارة بالية فى طرقات مونمارترى المرتفعة - كان يشعر بالحنين لثرثرة كارل المحببة إلى نفسه. فى كل خطاب يصله من صديقه الألمانى الشيوعى كان يتشوق لقراءة أخبار الجيش الأحمر، ويتمنى لو أنه قضى تمامًا على النازيين حتى يعود بأول قطار إلى برلين. وربما كان الشئ الوحيد الذى سيفتقده فى برلين هو؛ برندراك إيفيتس بيونانيته المؤثرة، لكن حتى هذا الشخص لم يكن يمثل له فى باريس سوى مصدر للمشكلات.

كان "هيمنجواى البلقان" قد وضع نصب عينيه مكتبة " شكسبير وشركاه " الشهيرة ببيع الكتب، وهو يحلم بأن صاحبة المكتبة - سكيلا بيتس - ستقوم يومًا ما بطباعة كتاب له. لكنها على أية حال، كانت تهدده فى كل مرة تراه أمامها باستدعاء الشرطة، وقد حذرته من أنه إذا ما رغب فى الحديث معها، فعليه أولاً أن يعيد كل الكتب

التى سرقها من المكتبة. أما إيفيتس فكان يصر، من ناحيته، على أن كل ما تقوله لا يعدو سوى مراوغات، وأن السيدة "سكيلا " - أى "المرأة البغى "bitch"، وهو يتلاعب هنا بالألفاظ مستخدمًا كلمة مشابهة لاسمها الذى يعنى "الشاطئ: beach" - كان عليها أن تتفرغ أولاً لأعمالها الانتقامية مثل جيمس جوس. أما كوستيس، فبعد أن شعر بالإرهاق من سماع شكواه، قرر أن يتبرع بتكلفة طباعة كتابه، عندئذ تقبلت السيدة "سكيلا" بطريقة سحرية أن تقوم بطباعة كتابه، ولكن من بين كومة الأوراق الضخمة التى قدمها لها، اختارت خمس روايات فقط، مؤكدة له أنه لا يعدو سوى أن يكون كاتب رديئًا. كان إحباط إيفيتس لا يوصف عندما شاهد كتابه فى واجهة المكتبة مطبوعًا بشكل ردىء، ثم ازداد إحساسه بالمرارة عندما اختفى كتابه من المكتبة بعد بضعة أيام، ولم يظهر أبدًا فى أية مكتبة أخرى بباريس. منذ ذلك الحين تحول برندراك إلى شبح. أما كوستيس، ففى محاولة منه للتخفيف عن صديقه، وجد أن الشىء الوحيد الذى يمكن أن يرفه عنه قليلاً، وأن يعيد السعادة إلى عينيه العسليتين مرة أخرى هو، حضور أحد عروض الكباريهات على الجانب الآخر من تل مونمارترى، وبخاصة كباريه " لابين أزيل". فى هذا الكباريه، على خلاف الكباريهات الأخرى، كانت الشاعرة فيرنارد أوليفيه - عشيقة بيكاسو السابقة - تُلقى قصائدها. ثم دأب الاثنان فى الذهاب معًا إلى هناك، وفى إحدى الأمسيات طلب الصربى العنيد من أوليفيه أن تسمح له بإلقاء بعض قصائدها، لكن أثناء محاولته إقناعها، يبدو أن شيئًا أكثر من مخيف قد حدث له، فأخذ يلقى على المسرح بالزجاجات وبالكئوس. خلاصة الأمر أن إيفيتس لم يكن يستوعب شيئين: الرفض والإسراف فى شرب الخمر. أرسلت إدارة المكان برجالها من أجل إلقائه فى الشارع هو ومن معه، ولحسن الحظ كان معهم فى تلك الليلة ميسكليه، وإلا لنالوا علقة ساخنة لن ينسوها أبد الدهر.

كانت مغامرات برندراك إيفيتس تشعر كوستيس بالسعادة، على عكس ما يمكن أن يتصور أى شخص، كما كان يشعر بنفس السعادة تجاه وجه الصربى العبوس، الذى كان يزداد عبوسًا بمجرد جلوسه على أحد مقاهى مونبارنا، حيث كان يقوم

بإحصاء عدد الأجانب الذين يمرون من أمامه، وقد لاحظ أن عددهم يتناقص فى كل مرة وبخاصة الأمريكيين، عندئذ صاح إيفيتس (بالفرنسية): «الفرنسيون خنازير حقيقيون، فهم يريدون طرد الأجانب من باريس، عاصمة الفن»، فاجتذب ناحيته نظرات ميسكليه الحائرة. لقد أصبحت لدى إيفيتس قناعة بأن " تحرير" باريس من المهاجرين الأمريكيين كان جزءًا من مخطط شيطانى للفرنسيين، ذلك المخطط الذى سرعان ما سيشمل باقى الجنسيات. لقد حاول كوستيس أن يبعد عن مخيلته تلك السيناريوهات التى يصنعها فى خياله، وأن يوجهه للتفكير فى كيفية معايشة تلك الحالة ؛ وعندما أخبره إيفيتس فى أحد الأيام، أنه قد وقع عليه الاختيار للعمل فى بيت شانيل للموضة، بدا له أمرًا شديد السخرية.

«وماذا ستفعل هناك؟» سأله كوستيس، ثم استطرد قائلاً: «ربما ستجرد الحضور غير المنتبهين من محافظهم أثناء عروض الأزياء؟». إلا أن الصربى كان يتحدث معه فى هذا الموضوع بشىء من الجدية وأخذ يشرح له أن لقب " ذو الأصابع السريعة " لم يكن يعبر فقط عن قدرته فى الكتابة بسرعة على الآلة الكاتبة أو فى النشل، ولكن أيضًا عن قدرته على رسم الاسكتشات. ولكى يثبت له صدق كلامه؛ أراه التصميمات الأولى التى وضعها. كان إيفيتس قد اتفق على تقديم بعض التصميمات، على أن يحصل على مقابلها فى حالة قبولها من الإدارة، إلا أن كوستيس قام على الفور بتحذيره من أن بيت الموضة قد يستحوذ على تصميماته دون أن يدفع له فرنكًا واحدًا، لكن إيفيتس أصر على أن شيئًا من هذا لن يحدث. ثم بدأ يتغزل فى "مديرته المتحررة" التى استطاعت أن تحرر المرأة بعد عام ١٩٢٠ وحتى عام ١٩٣٠، من طغيان الملابس الفضفاضة والمحتشمة التى كانوا يتخيلون أنها تحمى عفاف النساء لكنها جعلتهن مثارًا للسخرية فى الشوارع. أما كوستيس الذى سمع هذا الكلام من قبل، فلم يوافقه فى رأيه، موضحًا أن الموضة تمامًا مثل السياسة ليس من الصواب أن تسير وفقًا للأهواء الشخصية، مؤكدًا أن نزعة النساء فى ارتداء الملابس البسيطة بلونها الأسود المفضل هو خير دليل على ذلك، لكنه كان يرفض فكرة أن ذلك الاختيار يرجع إلى شخص بعينه أو حتى شخصين. ثم دار بينهما الحوار التالى:

- «لقد خرجنا للتو من حرب كبرى، "يا عزيزى"(قالها بالفرنسية)، لا تنس ذلك. وفى كل مرة يخرج الإنسان من حرب كبرى، يفقد جزءًا كبيرًا من تخيلاته».

- « ثم ماذا؟».

- «ثم إن المرأة فى عصرنا الحالى تعتبر أنه من السخيف أن ترتدى مثلما كانت أمهاتنا ترتدى: الريش المثبت فى القبعات والملابس المزركشة التى تجعلهن وكأنهن باقات من الزهور تسير بجانب الرجال. أما " الموضة الجديدة "(قالها بالفرنسية) فهى مطلب لكل المشاعر الضائعة التى خضعت لها كل بيوت الموضة طوعًا أو كرهًا».

- «شيء مشابه للساسة الذين تنازلوا عن حقوقهم السياسية، أهذا ما تريد أن تقول؟».

- «بالضبط » (قالها بالفرنسية).

فى هذه الفترة من اليوم – فترة ما بعد الظهيرة فى فصل الخريف – ترسل الشمس أشعتها الدافئة بسخاء فوق رؤوس الزبائن الجالسين بالمقاهى المفتوحة، وتصنع أشكالاً وظلالاً عديدة على جوانب الطريق. أخذت عين كوستيس تتطلع لوهلة إلى وجوه الناس غير المبالين، واكتشف أن الشخص الوحيد الذى يختلف فى ملبسه عن كل هؤلاء الرجال والنساء كان إيفيتس نفسه الذى كان يصر على أن يرتدى الملابس الملونة ووشاحًا متعدد الألوان.

- «بالمناسبة (قالها بالفرنسية)، إننى أتساءل؛ أين يمكن للمرء أن يجد اليوم ملابس مثل ملابسك».

- «لماذا تقول ذلك؟» سأله إيفيتس وهو يشعر بالإهانة إلى حدٍ ما.

- «انظر حولك. ألم تكن تحاول إقناعى بالملابس البسيطة باعتبارها موضة جديدة منذ قليل؟».

- «الفنانون العظماء يمثلون الاستثناء».

- هراء! (قالها بالفرنسية) أتمنى على الأقل أن تهديك مدام شانيل إلى فضيلة الاحتشام».

وفى النهاية، كان الشيء الوحيد الذى فعلته مدام شانيل هو؛ رفض تصميماته بإصرار وعاد إيفيتس حزينًا من جديد. أما كوستيس، فقد كانت لديه كل الأسباب لكى يبتسم، بعد أن خرج رابحًا من كل تلك القصة.

* * * * *

من الملاحظ أن الأشخاص الذين يؤثرون بشكلٍ واضح فى حياتنا دائمًا ما يدخلون حياتنا من الباب الخلفى لضمائرنا. ففى خريف عام ١٩٣٢، أبدى كوستيس اهتمامه لأول مرة بالآنسة هايكى رويسندال، فى أحد مقاهى مونبارنا، فى ذلك الحين بدت له كواحدة من عارضات الأزياء، حيث كان رداؤها البسيط المصنوع من الجيرسيه يكشف عن ذوق رفيع. أما إيفيتس، الذى كان يجلس بجوارها، فقد فسر ذلك بقوله: «إنها إحدى عارضات الأزياء لدى شانيل. إحدى الدمى المتحركة التى يدفع بها كل بيت للموضة من أجل نشر خطوط موضته». وكان هذا بالنسبة لكوستيس تبريرًا منطقيًا للهجتها الجافة الباردة وأوضاعها المختلفة فى الوقوف كالتماثيل. لم يكن كوستيس ينبهر بمثل هذا النوع من النساء، ولأنه اعتقد لوهلة أن هناك شيئًا ما بينها وبين الصربى، ففقد اهتمامه بها تمامًا. ثم تصادف أن التقيا مرة أخرى بعد شهرين فى إحدى الحفلات، ثم فى عرض مسرحى باسم " الصعلوك" على مسرح الكوميدى فرانشيز، لكن حتى ذلك الحين كانت تسيطر عليه فكرة " الدمية المتحركة "، فلم يعر رداءها المميز أية أهمية، وكان رداءً طويلاً أسود اللون، بأزرار لؤلؤية صغيرة وقبعة كبيرة تلف الرأس كأنها تحيط بأحد الأحجار الكريمة. ثم حدث أن التقيا بعد ذلك فى الملهى الليلى الصغير فى مونمارترى، حيث كان الشباب يقضون أوقاتهم فى أمسيات مليئة بموسيقى الجاز، وبعد أن تشاركا معًا فى خطوات رقصة السوينج عادا وافترقا

ثانية دون أن يتبادلا الحديث. ولكن عندما أقسم له إيفيتس بعدم وجود أية علاقة بينهما من قبل، بدأ كوستيس ينظر إليها بشكل مختلف، كما بدأ فى تطبيق خطته لحصار تلك "الزهرة الهولندية" (ذكرها بالفرنسية) حيث ولدت فى هولندا، ثم تبعت أمها وهى فى سن صغيرة إلى باريس عندما رفضت فى ذلك الوقت أن تتخلى عن ديانتها اليهودية وفضلت فى المقابل أن تهجر زوجها فى أمستردام. عاشت والدة هايكى باعتبارها موديل، بدءًا من كونها "مبتدئة "(ذكرها بالفرنسية)، حتى أصبحت "الموديل الأولى" (ذكرها بالفرنسية). وإلى جانبها وجدت ابنتها طريقة محترمة لكى تكسب قوت يومها، إلى جانب دراستها البيانو الكلاسيك، وكان ذلك مفاجأة سارة لكوستيس الذى وجد نفسه يتذكر من جديد صوته الرخيم وهو يغنى فى منزله بالإسكندرية، تذكر ذلك بينما كان يحاول إبهار الحسناء الهولندية اليهودية. وطوال كل تلك السنين لم تتعد علاقته الحقيقية بالموسيقى حضور الحفلات الصاخبة فى كباريهات برلين وهو مخمور، بعد ليلة فاسدة يكون قد قضاها، وكان جمهوره فيها هو الراقصات الناعسات والجرسونات المنهكين الذين كانوا ينتظرون اللحظة التى سيغادرهم فيها هو وصديقه كارل.

حتى لو لم يعد صوته الرخيم جميلاً، فإنه مازال رخيمًا، مما جعل عيناها الخضراوين تدمعان من فرط التأثر، ومن المقطوعات التى أنشدها: مقطوعة "بحر الوطن" (di provenza il mare) من سيمفونية "الجُزر" لفيردى أو مقطوعة "ماذا لو" (si quo) من سيمفونية "المهرجين" ليونكافاللو، لكن مثل هذه المقطوعات، من وجهة نظر كوستيس، لم تكن كافية كأسلحة قوية حتى ينال إعجابها. ولهذا فقد قام باستئجار جناح فى فندق " ريدز" لبعض الوقت، ولم يكن اختياره لهذا الفندق قد تم بمحض المصادفة، حيث كان يستطيع فى جناح " بلاس فاندوم" أن يبهر أية امرأة بما سيهديه لها من مجوهرات وملابس وعطور تم شراؤها من كارتييه أو سوميه. لكن لم تعد باريس فى حقبة الثلاثينيات مكانًا يرحب بالأمراء المزيفين، ولم تعد النقود مجرد أداة ورقية يستطيع أن يلعب بها أى شخص فى أثناء الحرب، مثلما فعل فى برلين إبان عصر التضخم.

كانت المطاعم الغالية واستئجار قصر من عصر لويس التاسع فى ضواحى باريس وليالى الأوبرا، جميعها بمثابة الأدوات المستخدمة فى خطة حصارها، مما أدى فى خلال شهر ونصف الشهر فقط إلى إرهاقه ماديًا وعاطفيًا فى النهاية. ومثلما قبلت هايكى هذه المبالغات، قبلت أيضًا ما قدمه لها من فحولة طاغية(*) استطاعت أن تثير مشاعرها الأنثوية مما كان له أثره فى تهدئة ضميرها الذى كان قد بدأ يوخزها، مثلما كانت تعرف ما الذى يعنيه أن يكون كوستيس ابنًا لأكبر رجال صناعة الدخان بالإسكندرية فى مصر. ولذلك فقد استيقظت على مفاجأة غير سارة، حيث جاء اليوم الذى انتهى فيه كل ذلك الحلم الذى كانت تعيشه من خلال ثلاث كلمات حُفرت فى ذاكرتها، ولم يكنْ هناك أى أمل فى أن تكون قد أخطأت فهمها، حيث ترك لها ورقة كتب فيها: «طريقنا ليس واحدًا» (كتبها بالفرنسية وكررها باليونانية).

عاد كوستيس مرة أخرى إلى أصدقائه الضائعين، وإلى لياليه الجامحة فى مونمارترى التى كانت تكلفتها فى كل الأحوال أقل بكثير مما كان ينفقه عليها. ثم مر ما يقرب من الشهر ولم تحاول الآنسة رويسندال أن تزعجه ثانية. وكان ذلك أمرًا جيدًا وسيئًا فى نفس الوقت، ففى تلك الفترة بدأت مشاعر الحب تتأجج مرة أخرى بداخله، بعد أن كانت شعلتها قد خبت لفترة من الزمن. كانت المشاعر الملتهبة تطرق بعنف جنباته، وأصبح يعانى فى محاولته لتهدئتها ولكن دون جدوى. وبدأت أول أعراض الحب السيئة تظهر فى حياته، فبدأ يشعر بالأرق! أما الشراب والأصدقاء والفتيات الحسناوات فلم يستطع أى منهم أن يمحوها من ذاكرته، وبالطبع كان السبب واضحًا.

مرت سنوات طويلة منذ أن وقع كوستيس فى الحب للمرة الأولى. حتى تلك اللحظة التى رأى فيها الآنسة هايكى رويسندال، كان على يقين من أن الناس قد أصدروا حكمًا على مشاعره بسبب تلك المرأة القبطية المتزوجة، وقاموا بنفيه إلى بلاد الهون [17] (ألمانيا). وبسبب مرارة هذا الحكم الجائر، ترك حياته تضيع فى فساد جامح بمدن أوربا،

---

(١٧) الهون شعب مغولى رحَّال، سيطر على جزء كبير من أوربا الوسطى والشرقية بقيادة أتيلا، نحو عام ٤٥٠م (المراجع).

تزحف غير عابئة فوق أجساد نساء لا هوية لهن، يتذوق قبلات مسروقة، ويقيم علاقات مضطربة، ويتذوق رحيق متع سرعان ما تزول، تاركة فراغًا فى روحه المضطربة. كان يواجه عقوبة نفيه طويلة الأجل باعتبارها نوعًا من العقاب، ولم يكن يخفف من حدته فى السنوات الأولى سوى سخاء والده المالى وخطابات أمه وأخيه. إلى أن صمت ماخوس فجأة واقتصرت أمه على إرسال كروت المعايدة اللطيفة من مدن أوربية مختلفة: مثل بودابست، براغ، فنيسيا، باريس - أثناء وجوده فى برلين، ومن برلين أثناء وجوده فى باريس، بعبارة واحدة كانت تكتبها له: «أتشوق لرؤيتك»، (دوّنها بالفرنسية وبالإنجليزية وباليونانية).

طوال تلك السنوات كان كوستيس يعتقد أن هناك من يعاقبه على حبه الفاشل فى سنوات المراهقة، بعد أن نجح أولاً فى قتل هذا الحب. وبعد هذا التدخل العشوائى من الآخرين، لم تعد هناك أدنى فائدة من استمراره. لقد سحق جمود التجاهل كل مشاعره. لم تعد هناك أهمية إذا ما درس الهندسة أو الفلسفة أو أى شىء آخر. لقد جاء وجوده فى برلين بمحض المصادفة، بل ومكث بها عشرة أعوام كاملة، وكان من الممكن أن يذهب منذ البداية إلى باريس؛ لكن هذا لم يكن ليغير من الأمر شيئًا، كما لن يتغير أى شىء لو عاد فى صباح اليوم التالى إلى الإسكندرية لكى يدير مصنع والده، أو لم يعد أبدًا إلى مصر ويستمر فى إهدار حياته هباءً.

لقد ظهرت تلك المرأة الهولندية اليهودية فجأة فى حياته بجمالها الأخاذ وشعرها اللامع وأنفها الدقيق وشفيها المرسومتين وقوامها الأوربى الشمالى، لكى تذكره بمن يكون. كان يتعجب من نفسه عندما يستمع إلى ما يقوله وهو بجانبها، فلأول مرة يتحدث عن مشروعات العائلة وعن خططه المستقبلية لتطوير مصنع أبيه، لم يكن ذلك فقط لإثارة إعجابها به، ولكن لأنه كان يرى فى عينيها الحالمتين تطلعاته للحياة التى كانت قد دمرتها قصة حبه الفاشلة. لقد عذبته جيهان بلا هواده. وكانت نفسه تعانى من لهيب حبه لتلك المرأة القبطية الشيطانة ؛ أما لقاءاته مع هايكى الرقيقة فكانت فرصته للشفاء، أخرج فيها كل مشاعره الملتهبة. نعم، لقد دفع الكثير من أجل هذا الشفاء

باهظ الثمن، وعندما أحس بالشفاء أخيراً، رأى أنه من الصواب أن يعود إلى حياته البوهيمية مرة أخرى، ولكنه لم يحسب الأمور جيداً.

لقد تمكنت " الآنسة " (ذكرها بالألمانية) رويسندال، من الاستحواذ على جانب كبير من روحه – وصدّق كوستيس بالفعل أنها كانت تمدحه من باب الاهتمام به – أما الآن فقد أصبح كل شيء فيه يبحث عنها. كانت مسألة وقت حتى ينهار أمامها، وكان كلما شعر بأقدامه تقوده إلى شقتها الفاخرة فى الحى الأرستقراطى بشارع " فومبور سانت أونوريه"، حيث كانت تعيش مع أمها اليهودية، ينحى نفسه جانباً ويدخل فى أول بار يقابله فى الطريق ثم يبدأ فى الشراب حتى الثمالة، متجاهلاً إحساسه بالمهانة. وحتى يهرب من حبه لهايكى، وصل به الأمر للتفكير فى العودة إلى برلين، لكن كانت الأمور هناك أكثر سوءاً عما تركها. فلا يبدو أن كارل وأصدقاءه استطاعوا التغلب على النازيين. «أعتقد أن قادتنا ما زالوا أكثر غباء وضعفاً من هتلر وصحبته» هكذا كتب لهم فى آخر خطاباته. فأجابه بأن كتائب الإمدادات قد وصلت إلى الحى الذى يعيش فيه –فى مساكن العمال " برلين– فيتيج" – وقاموا بتدميره عن آخره. هذا ما آلت إليه الأمور، ولذلك فقد كان يعتبر نفسه محظوظاً، عندما تسلم منها رسالة تحتوى على جملة واحدة ليس أكثر: «أنتظر طفلاً»، (قالتها بالفرنسية وكررها باليونانية).

«سوف نتزوج»، (دوّنها بالفرنسية وكررها باليونانية) هكذا كتب على ظهر الورقة، ثم أرسلها لها مع إيفيتس، دون أن يفكر ما الذى سيقوله والداه عندما يعرفان أنها أجنبية ومن ديانة مختلفة.

بكل تلك الأحداث وصل عام ١٩٣٢، إلى نهايته وكان قد مضى على كوستيس عامان فى العاصمة الفرنسية. وفى بداية العام الجديد وصله تلغراف عاجل من والديه يقولان فيه: «هناك أمر عاجل، أحضر فوراً إلى الإسكندرية. إنها مسألة حياة أو موت». لم يجد كوستيس مفراً من تلبية هذا الأمر وكان الشيء الوحيد الذى جال بفكره أثناء تجهيز الحقائب " أنها فرصة لكى نوضح الأمور قبل موعدها ".

* * * * *

«كان صعود هتلر للسلم يبدو بطيئًا ولكنه كان صعودًا ثابتًا، لكن تخيلى، يا أمى، كيف يشعر الآن وهو يتطلع إلى العالم من علٍ»، هكذا كتب ماخوس إلى ذافنى بحجة صعود نجم هتلر وتوليه القيادة فى يناير ١٩٣٣. وكان ماخوس قد تابع عن قرب ذلك الصعود المتدرج لهتلر، ويستطيع أن يتذكر تلك المراحل التى أدت إلى هذه النتيجة العظيمة فى مسيرة طويلة منتظمة. «لكن أن تعتقدى فقط أن كل شىء قد بدأ بإنقلاب عسكرى فاشل. هذا أمر كان الجميع قد نساه فى ذلك الحين. أما اليوم....». بتلك الكلمات استكمل ماخوس خطابه، وكان منطقيًا فى حديثه بشكل كبير. وفى الحقيقة، فقد بدأ كل شىء قبل أن يولد هتلر، تمشيًا مع نظرية المسيح المخلص الذى سيأتى ليحيى من جديد مجد الشعب الألمانى. لكن الشعب الألمانى نفسه لم يستطع أن يتعرف إلى منقذهم فى ملامح فنان فاشل أتى من النمسا، حتى لو كان قد عُرف برجولته التى اشتهر بها فى الحرب الكبرى. كانت الحياة نفسها عاقدة العزم على اختبار هذا الرجل المختار بعد معاناة، حتى تصبح على يقين من أنه الشخص الجدير بالثقة عندما تسلمه زمام الأمور بألمانيا والعالم بأسره. لكن حتى هتلر نفسه كان عليه أن يجهز بدوره أسلحة قوية، وكان من أهمها إيمان الآخرين به وإخلاصهم له. «أعلم أن البعض قد يعتقدون أنها مبالغة وجنون، ولكنها ثقة فطرية تلك التى تميز سلوكه غريب الأطوار " أوكد لكم ذلك "(كتبها بالفرنسية). هذا الرجل هو حالة صارخة للبطل الأسطورى وكل من لا يدرك ذلك فهو على الأقل أعمى وعديم الإدراك].

لقد أظهر ماخوس قدرة كبيرة على تبصر الأمور، وإدراك مدى عظمة هتلر وكل المحيطين به - مثل: إس صاحب التفكير العميق، والعبقرى جايبيلز، والنشط جايريك، والصارم ريم، والغامض هيملر - وجميعهم يمثلون انعكاسات للجوانب المتعددة لشخصية الزعيم. وكان ماخوس يشعر بينهم بالفخر لأنه يرى نفسه هو الآخر انعكاسًا ولو ثانويًا لهم. «وبالطبع، فهناك الكثيرون الذين يهمشون دور هتلر بسبب سلوكه العنيف ضد اليهود والشيوعيين، لكن ليس لهم الحق فى ذلك، يا أمى، وينبغى أن تعلمى أن القادة العباقرة لديهم من البصيرة ما يملكه الطبيب الجراح الذى لن يتردد

فى استئصال الجزء المصاب بالسرطان بهدف الحفاظ على توازن الحالة الصحية لأحد أعضاء الجسد. إننى على يقين من أنه مع بداية تولى السلطة، فسوف تبدأ القيادة الجديدة فى عمليات جراحية ضرورية من أجل تنقية الدم الألمانى من دماء أخرى غير مرغوب فيها. آه، كان ينبغى أن تعيشى معى هذه الحقبة فى ألمانيا، وأن تشعرى بهذه الحماسة وبتلك النزعة الرومانسية والنبل الطاهر الذى يتنفسه شعب ألمانيا!».

وبغض النظر عن إخلاصه المفروغ منه، لم يكن ماخوس نفسه مستمتعًا بمميزات اتصاله المباشر بهتلر، ولكنه كان يكتفى بأن يشيد بمجد هتلر من خلال مستشاريه المقربين. مع بعض من هؤلاء، وخاصة مع إس، كان ماخوس يحافظ دائمًا على علاقاته الودية بهم، وكان يصف لأمه تلك العلاقات على النحو الآتى. «لا أدرى ما انطباعك عن رودولف، يا أمى، لكنه يعد حالة استثنائية، فهو شخص عميق الفكر، مثالى، واسع المعرفة، صاحب قرار. نتحدث معًا بشكل مستمر عن الإسكندرية ونتبادل الدعابات، نشعر بالحنين لمدينتنا. وهو يكتب أيضًا إلى والديه بشكل مستمر. أحيانًا ما ألقى عليه بعض الكلمات العربية فأقول له: " إزيك! "، وعندئذ يجيبنى أيضًا بالعربية: "كله تمام "، لكن لا يزيد على ذلك كلمة واحدة. وإذا ما تماديت فى حديثى معه (بالعربية)، يرمقنى فى الحال بنظرة شرسة. وبالطبع لا أجرؤ على التحدث معه بالعربية إذا ما كان هناك آخرون. لكنه طيب القلب».

مضى أحد عشر عامًا منذ أن تفتق ذهن أندونيس بفكرة نفى ابنه الأصغر بعد الحادث المؤسف الذى لم يتوان المجتمع الثرثار بالإسكندرية فى تسميته " فضيحة قطار باكوس". وبدأ قلق ذافنى يزداد على مصير ابنها عامًا بعد عام، إلا أن الأب والابن لم يشاركاها هذا القلق. كان قلقها الأول بسبب علاقة ماخوس بالبارون شولتسير التى سرعان ما ستتقوض، لأنها كانت ترى بوضوح العلاقة التى ربطت ابنها بالنازيين – تلك العلاقة التى كانت تقلل من شأنها – إلى جانب ما اتبعها من كراهيته لليهود، التى تطورت بشكلٍ مخيف عما كانت تتوقع. ومن جهة أخرى، بدأت قصة ماخوس مع البارون تصل إلى نهايتها بعد شهور من صعود هتلر للسلطة، حيث بدت خيبة أمل

ماخوس واضحة فى خطاباته: «رأى الهر شولتسير أن الوقت قد حان لكى يتزوج، فليكن إذن. لست أنا من سيمنعه. إلا أننى على يقين من أنه سيعض أصابع الندم فى القريب العاجل».

فى ربيع عام ١٩٣٣، اضطر بنيامين خاراميس أن يغادر منطقة سفانبيج، حيث كان قد استقر بها لسنوات عديدة فى أحد المبانى الحديثة بشارع ليوبولد– فى قصر إيريك – مما تسبب فى شعوره بإهانة مضاعفة. أولاً، لأنه كان يعرف أن امرأة أخرى ستأخذ مكانه قريبًا، تلك التى أصبح وجودها فى حياته أمرًا حتميًا حتى لو لم تكن مهتمة به. وثانيًا، لأن منطقة سفانبيج لم تكن مثل أى منطقة فى ميونخ يستطيع أن يستبدلها بأخرى بسهولة، وإلا لم يكن ليحبها هتلر نفسه بهذا القدر.

عندما يغادر شخص ما شارع لوندفيخ بأبنيته الكلاسيكية، ثم يتوجه نحو الغرب والجنوب، إلى داخل سفانبيج، كان يشعر بأن هناك رياحًا مختلفة تهب، وكأن كل الطاقة الروحية لهذه المدينة تجمعت فى واجهات تلك الأبنية العظيمة بتناغم عظيم لطرزها المعمارية، مثلما كانت الحال بالنسبة للمقاهى الموجودة بالمنطقه التى كانت تتمتع بوجود نخبة من أبرز أعضاء الحياة الفنية والفكرية بألمانيا. وقد دار هذا الحوار بين ماخوس والبارون شولتسير فى آخر ليله له فى منزله:

ماخوس: «أهذا يعنى أننى لن أستطيع التردد على نفس الأماكن القديمة؟» كان هذا هو الشىء الوحيد الذى سأله ماخوس بينما كان ينظر غاضبًا من نافذة الصالون الضخمة إلى الحوائط متعددة الألوان فى الجانب الآخر من الطريق.

إيريك: «حاشا لله، يا بنى، لن أمنعك من الحضور إلى سفانبيج، لم تكن هذه رغبتى، صدقنى» قال إيريك ذلك وهو يلقى بعود الكبريت الذى كان قد أشعل به سيجارته منذ لحظات.

– «لا أعرف ما الذى أصدقك فيه، يا إيريك. ولا تطفئ سيجارتك التى قمت بإشعالها منذ برهة».

- «أنت تعرف عندما أكون غاضبًا، أشعر بالحاجة إلى إشعال وإطفاء السجائر. إنها طريقة أهدىء بها أعصابى».

- «السيجارة تحتاج إلى مجهود حتى تصبح سيجارة، يا إيريك، وليس من الصحيح أن تهرسها بهذه الطريقة. أما بالنسبة لأعصابك، فالخطأ ليس خطأ أحد غيرك. أنت من اتخذ هذا القرار».

- «أنت لا تفهم مدى الضغط الذى تمارسه ضدى عائلتى؟ ما الذى أستطيع أن أفعله؟ الحياة ليست متعًا فقط».

- «كنت تقول لى غير ذلك».

- «يجب أن تفهمنى، يا ماخوس».

ماخوس: «أنا أفهمك، يا إيريك، أنا أفهمك، وأفهمك جيدًا، لم يكن هناك حاجة لكى ترتدى بذلتك الرسمية وتضىء المنزل. ماسبب كل هذه الرسميات؟ يكفى القليل من الشمبانيا، وبعض الموسيقا وسيجارة، وهو كل ما يلزم صديقين لكى يغلقا حساباتهما».

- «لقد كنا أكثر من مجرد أصدقاء، أليس كذلك؟» هكذا أبدى إيريك ملاحظته، فى حين سمع من الغرفة المجاورة رنين الهاتف المتواصل وظهر خادم البارون العجوز حاملاً الهاتف الذهبى الثقيل، وهو يجر ورائه أمتارًا عديدة من السلك الأسود. استأذن إيريك وانسحب إلى الغرفة المجاورة، حيث كان ماخوس يسمعه وهو يتحدث ضاحكًا مع رجل أو بالأحرى امرأة على الطرف الآخر. شعر ماخوس بالاشمئزاز من لهجته المباشرة، وطرأت بذهنه فكرة أنه ربما كان هذا جزءًا من خطة إبعاده. وكان قد حرص منذ اليوم السابق على جمع متعلقاته، ولم يبق له سوى الرحيل دون أن يقول له وداعًا. وقبل أن يستدير تجاه البوابة الضخمة التى تحمل شعار البارونية، ألقى نظرة أخيرة على صديقه، حيث كان يظهر فى المرآة الضخمة بالصالون، تحت ضوء الثريا المضيئة. "برغم كل شىء، ما زلت أجمل مخلوق فى ميونخ " هذا ما جال بخاطر ماخوس،

ثم أشعل سيجارته الأخيرة فى هذا المنزل وتركها تشتعل فى نفس منفضة السجائر المليئة بالأعقاب المطفأة. وكان ذلك بمثابة نوع من التحذير من الحسابات المفتوحة التى لم تغب عن ذهن البارون. وقد اعترف ماخوس بعد ذلك بأنه كان تصرفًا بلا معنى، ذلك التصرف الذى دعم اتهامات عائلة شولتسير ضده عندما تم القبض على إيريك بعد عدة شهور، وكانت اتهامات ظالمة حيث لم تكن لماخوس يد فى ذلك. كل ما فعله ببساطة هو: إبداء ملاحظة أمام بعض الأصدقاء فى منزل إس، حسب ما يعتقد، بأن الطبقة الأرستقراطية بإقليم بافاريا لم تكن تشارك هتلر بشكلٍ مطلق تطلعاته، مشيراً، على سبيل المثال، إلى اسم إيريك. لكن كان من المضحك أن يؤكد أحدهم أن هذا هو السبب الوحيد الذى أدى إلى اعتقال إيريك. لكن أصدقاءه النازيين ليسوا بهذا الغباء.

* * * * *

فى حاجبى رودولف الملتصقين اللذين كانا قد تأثرا بذلك العصر الذى دخلت فيه الشيوعية باندفاع حتى وصلت إلى السلطة بألمانيا، كان ماخوس يتأمل دائمًا ذكرى والده القوى، تلك الذكرى التى كان يبحث عنها بتلهف هنا فى ميونخ، حتى ينساها. ولكنه كان أمراً غريبًا، لأن رودولف نفسه كان قد أفضى إليه بمشاعر مماثلة تجاه والده: «مما أتذكر، فإن فريتز العجوز كان لا يُحتمل، وكان هذا هو السبب الذى جعلنى أفضل التوجه للحرب بدلاً من العودة إلى الإسكندرية».

لكن يبدو أن إس قد نسى كيف يكون الأمر عندما يحكمك أب صارم. وإلا لما تبنى منذ البداية مثل هذا الموقف المتشدد تجاهه، الذى جمَّد أحيانًا الدماء فى عروقه وجعله يدافع عن أشياء كثيرة لم يكن يهتم بها من قبل مطلقًا. من ناحية أخرى، كان موقف الرجل الألمانى المصرى الصلب قد ساعده فى مسألة دراسته، على الرغم من أن ماخوس كان يتجنب لقاءه لفترات طويلة لأنه لم يكن يحتمل أن يسمع يوميًا جملة «ما أخبار رسالة الدكتوراه التى تعدها عن نيتشه؟» بدلاً من صباح الخير.

كان من النادر أن يتم تحديد موعد للقائهما، فقد كانا يدركان أنهما سوف يلتقيان إن عاجلاً أو آجلاً فى أحد المقاهى بسفانبيج. لقد اعتاد أن يبحث بين رؤوس الجالسين عن رأس رودولف الصلعاء. وعندما كان يعثر عليه، لم يكن ليذهب أبدًا ناحيته، وربما كان يتبع بذلك بروتوكولاً غريبًا ينص على أن الشخص الأدنى هو الذى يجب أن يذهب إلى الشخص الأعلى وليس العكس.

عندما يتمكنان فى النهاية من احتساء القهوة معًا أو يتناولان طعامًا خفيفًا وهما وقوف، كان إس يبدو ودودًا على غير المعتاد، ويستمر فى الحديث معه بشوق وحنين عن سنوات الطفولة والصبا بالإسكندرية، ثم يسترسل فى الحديث معه بسرد حكايات عن الحرب وعن انتصار ألمانيا، ذلك الانتصار الذى كان المنافقون يدعون قدرتهم على تحويله إلى هزيمة مخزية. كان إس يستعرض معه سنواته الدراسية الأولى، سنوات "القبضة الحديدية"، ويتباهى دائمًا بأنه دخل فى الحركة الشيوعية قبل أن يدخلها هتلر نفسه. ولأنه سبب لماخوس إزعاجًا شديدًا بسبب رسالة الدكتوراه، وبعد أن انتهى ماخوس من إعدادها بعد عناء كبير قدمها له لكى يقرأها، لكن لم يكلف نفسه عناء قراءتها، ربما لأن عنوان الرسالة قد منعه من ذلك: "نيتشه والمصادفة السعيدة لجنون العظمة"، واكتفى فقط بقوله: إن دكتور ماخوس قد قدم من خلال هذه الرسالة العلمية خدمات قيمة للحزب ولقائد الحزب، الذى يهتم شخصيًا بالفيلسوف الألمانى.

كان ذلك حتى عام ١٩٣٣، لأنه منذ اللحظة التى وصل فيها الحزب القومى الشيوعى للسلطة، فإن إس، الذى كان كثير التنقل بين ميونيخ وبرلين، أصبح نادر الظهور، وكان على ماخوس أن يواجه العديد من الصعاب لكى يلتقى صديقه السكندرى، الذى كان يتنقل متباهيًا بارتداء زى الحزب النازى العسكرى وبموقفه باعتباره وزيرًا ونائبًا لرئيس الحزب، مفتقدًا بهذه الهيئة ملامحه السابقة باعتباره واحدًا من الألمان المصريين المتميزين.

بعد القبض على إيريك، حاول ماخوس جاهدًا أن يستصدر من رودولف وعدًا بالعفو عنه، ولكن الشىء الوحيد الذى نجح فى تحقيقه فى النهاية كان توجيهًا صارمًا له بأن لا ينشغل بما لا يعنيه.

ماخوس: «أرجو أن تخبروني على الأقل كيف يمكن لمناقشة عابرة في منزلكم أن تحدد مصير البارون» هكذا قال ماخوس متوسلاً، معتبراً أنه كان من الواجب أن يحدثه بصيغة الاحترام منذ أن أصبح صديقه القديم عضواً في النظام الحاكم.

إس: «هل لذلك أية أهمية، يا صديقي الدكتور؟».

- «إن عائلته تتهمني بخيانته».

- «عائلته.. ما الذي يعرفونه. لو افترضنا أن ذلك النقاش كان له أثر على مصيره، فإننا بالطبع لا نستطيع أن نتحدث سوى عن تقديم خدمة عظيمة للرايخ الثالث فقط».

- «يمكنكم، ربما، أن ترتبوا لي لقاء مع البارون شولتسير، لكي أتحدث معه، وأحاول أن أعيده لصوابه. إنه مواطن عظيم، أؤكد لكم، أنه لا يستحق هذا المصير».

- «أخشى أنني لم أعد أستطيع عمل أي شيء» يا دكتور. وربما ينبغي عليك أن تتوجه إلى هيملر، لكن حتى هذا، باعتباري صديقاً، لم أكن لأنصحك به».

خرجت كلمة عربية من بين شفتي ماخوس بطريقة عفوية، فرمقه صديقه نائب رئيس الحزب بنظرة نارية. أراد أن يخبره بأنه لم يفعل ذلك متعمداً، لكن أحجم عن ذلك لأنه لم يكن ليغير شيئاً في مصير إيريك.

منذ اللحظة التي صعد فيها الحزب للسلطة، فكر ماخوس العديد من المرات في مغادرة ألمانيا، لكنه لم ينفذ ذلك القرار، على الرغم من أن خطابات والدته جعلته يدرك أنه كان ينبغي عليه العودة إلى مصر في تلك المرحلة التي تتعرض فيها مصالحه كلها للخطر. لكن حتى لو عاد إلى الإسكندرية لبعض الوقت، فكان سيفعل ذلك بشكل أساسي لأنه يرى بوضوح أن ما كان يبحث عنه أصدقاؤه القدامى طوال السنوات الماضية - وهو الوصول إلى السلطة - قد سلب ميونخ ريادتها وحرمها من رومانسيتها، وكذلك بسبب المبالغة في التعبير عن الحزب. فأماكن مثل ميدان " ماريين"

وميدان "أونيون" لم تعد قلبًا للنازية ولبرلين. فقد استأثرت تلك العاصمة المظلمة بعقليتها الريفية، بعظمة تلك الحركة التى كانت تؤول إلى مدينة أخرى. لم يكن دكتور ماخوس يعرف إذا ما كان هتلر قد احتل السلطة أم أن السلطة هى التى احتلته. حتى تلك الهمجية التى تعاملوا بها منذ البداية مع الآخرين لم تعط أية فرصة لتخيلها أكثر هدوءًا فيما بعد. لقد شعر ماخوس أنه مرتبط بمدينته الحبيبة برلين، وبوجوده الفعلى فيها، وكانت مشاعره تتضارب عندما يلتقى بأصدقائه القدامى فى إحدى طرقات المبانى الحكومية، لأنهم لا يستطيعون إخفاء مدى استيائهم من وجوده فى المدينة. كانوا يعرفونه بوصفه شخصًا حاصلاً على دكتوراه فى الفلسفة أكثر من معرفتهم له باعتباره رجلاً مكافحًا من أجل السلطة. أما إس فقد اقترح عليه، فى لحظة كرم غامر، العمل فى إحدى المؤسسات الجامعية ببرلين، إلا أن ماخوس رفض هذا الاقتراح.

كان رودولف صديقًا حقيقيًا له، وقد أثبت ذلك فى شهر يونيو من عام ١٩٣٤ . عندما أرسل له سراً رسالة لكى يغادر على الفور فندق " هانسلبوير" الذى يقع بالقرب من ميونخ، حيث كان يقضى وقتًا ممتعًا مع ريم وقادة آخرين من الحزب الشيوعى. وبعد وقت قصير اقتحم هتلر الفندق ومعه رجال الشرطة وبعض من أنصاره وألقى القبض على كل من بالفندق. وهكذا أفلت ماخوس من "كابوس ليلة السكاكين العظمى". كان ماخوس يتطلع إلى مستقبله فى ألمانيا فى حقبة الثلاثينيات بتفاؤل كبير. وكان إختفاء إيريك، الذى اعتبره فى مكانة وسط بين الأب والأخ الأكبر من حياته أمرًا محزنًا، لكن لحسن الحظ فقد وجد البدلاء المناسبين، لكن بعد هذا الحادث الدموى بفندق "هانسلبوير"، كان عليه أن يصبح أكثر حذرًا فى اختيار أصدقائه. أما بالنسبة للأمور الأخرى، فقد حرص أصدقاؤه النازيون أن يتعاملوا معه باحترام باعتباره عضوًا مميزًا فى ماكينة الدعاية النازية مقابل أجر زهيد. ولذلك فلم يستطع ماخوس أن يتحرر من اعتماده على دعم والده المادى له.

فى منتصف عام ١٩٣٥، أسندت إليه مهمة الترويج لدورة الألعاب الأوليمبية لعام ١٩٣٦. ربما لأن البعض اعتبره جديرًا بذلك أنه بسبب أصوله الإغريقية ومظهره الذى يشبه آلهة الإغريق، كما كان بمثابة دعاية حية لروح النازية المؤيدة للرياضة. لكنه بالطبع شعر بالإهانة لأنه، على الرغم من تعاونه القيم مع السلطة، قد أجبر على متابعة

تلك المسابقات من مقاعد المتفرجين العاديين وليس من المقصورة الرئيسية، حيث يجلس هتلر وإلى جانبه نخبة من أعضاء الحزب النازى. وربما كان ذلك أيضًا سببًا جعله يرفض مرافقه جايبيلز فى زيارته لليونان ومصر. وقد سبق ذلك تسلمه تلغرافًا من أخيه كوستيس من الإسكندرية، ينصحه فيه أن لا يفكر فى الظهور برفقة أحد رجال هتلر ؛ أما ماخوس، الذى كان حذرًا بطبيعته، فلم يشأ أن يعرض نفسه للخطر فى وطنه الأول والأوحد. ويبدو أن رفضه قد أصاب البعض بالضيق وعجل بشكل درامى بإنهاء إقامته فى ألمانيا.

فى بداية شهر أكتوبر استدعاه إس إلى مكتبه لكى يسلمه مظروفًا، وقال له:

«بهذا المستند سوف تتوجه إلى سفارتنا فى أثينا، وسوف يتولى رجالنا هناك وضعك فى المكان المناسب» قالها بطريقة غير مبالية، وكأنه يتحدث مع شخص غريب. بُهت ماخوس وأخذ المظروف بيد مرتعدة، ثم استطرد إس وسأله باندهاش: « سيدى الدكتور، ما الذى أصابكم؟».

ماخوس: «عذرًا، ياعزيزى رودولف، لكنى كنت أتمنى البقاء فى ألمانيا، إلى جانب هتلر. أما ما يحدث هنا اليوم، فماذا أسميه؟ إنه نوع من التخلص منى» هكذا علق ماخوس وهو فى شدة الحيرة.

إس : «أوه، أرجوك اهدأ، يا دكتور. فنحن نرسلك إلى اليونان، إلى وطنك. ماذا تريد غير ذلك؟».

- «لقد شرحت لكم. أريد البقاء هنا، بجانبكم».

- «للأسف، هذا أمر مستحيل».

- «ولكن لماذا؟».

- «لأن، لأن بعض الأمور التى كانت قد حدثت من قبل لا يمكن أن تستمر للأبد. فالظروف تتغير، وكان من الأحرى أن تكونوا قد تعلمتم ذلك».

- «أريد البقاء هنا».

- «دعك من هذا الهراء، بهذه الورقة ستقدم نفسك إلى سفارتنا.» قالها إس بجمود.

- «حسنًا، علُم» قالها ماخوس وهو يعطيه التحية النازية، وخرج ممتعضًا.

* * * * *

يمتلك السيد فاسيليس في مدخل شارع العباس بالزقازيق مقهى صغيرًا بالقرب من محطة السكة الحديد، ذلك الشارع الذى كان أهل المدينة يسمونه شارع البوسطة. استطاع هذا الرجل أن يتأقلم طوال ثلاثين عامًا قضاها فى مصر، وأن يحمد الله على أنه قد غادر اليونان فى بداية القرن العشرين، باحثًا عن حظ أوفر وحياة أفضل فى أرض النيل. رجل عجوز بلا أسنان، مقوس الساقين، أصلع الرأس، كبير الأنف، كانت له طريقة تجعل هيئته القبيحة تختفي تحت ابتسامته التى تعلو وجهه دائمًا. وكان لشريكة حياته السيدة سيفاستى رأى مخالف، لأنها لم تجد سببًا يجعل أى شخص يتسم بالعطف فى هذه الحياة المليئة بالحرمان والمعاناة. كانت محرومة من نعمة الأمومة، وكانت تعبيرات وجهها، على عكس زوجها، تحمل الكثير من الكآبة التى كانت تظلم شخصيتها النبيلة وتطفئ لمعان عينيها الحانيتين.

مرت عليها أعوام كثيرة منذ أن كانت تتشوق ليكون لها طفل، وذات ليلة اتبعت إحدى الوصفات الشعبية القديمة، حيث صعدت فوق قمة " تل البسطة " المجاور، واستحمت " بالقلة "(ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف إنجليزية)، ثم حطمتها بعد ذلك فوق بعض التماثيل الفرعونية. لكن ربة الخصوبة الفرعونية خدعتها، ولم تحدث المعجزة. وقد وجدت سلواها فى ولدهما بالتبنى فانيس، الذى جعل لحياتها معنى، أما الفضل فى ذلك فيرجع لابن عمها يورغوس يورغاس.

لكن لم يشاركها زوجها أبدًا هذا الرأى، فقد كان السيد فاسيليس يكن عداوة وكراهية غير مبررة منذ البداية تجاه ذلك الطفل اليتيم الذى أرسلته إليهم عناية

السماء، وكان يقول دائمًا: «لقد أعطانا ابن عمك شيئًا عديم القيمة، أؤكد لك ذلك!». وكلما مرت السنون، كانت السيدة سيفاستي ترى، وهى تشعر بحزن شديد، أن الهوة تتسع أكثر فأكثر بين هذين الرجلين فى المنزل. عندما وصل فانيس إلى سن يستطيع فيها التعبير عن نفسه بوصفه طرف مساويًا فى المنزل، بادر بالإعلان عن كراهيته لزوج أمه.

كانت المشاجرات والإهانات تصيب القهوجى فاسيليس بألم فى نفسه. أما بالنسبة لسر التبنى، فكان فانيس يشعر به بغريزته، حتى إن الصبى المراهق لم يتردد فى أن يعلنها صراحة: «من المستحيل أن يكون هذان الشخصان هما من أتيا بى إلى هذا العالم!» كان إحساسه بالعظمة دائمًا ما يجعله لا يفكر حتى فى المرور من أمام المقهى الصغير، مما يدفع فاسيليس للتذمر وإبداء رغبته فى أن يراه ولو لمرة واحدة مرتديًا مريلة القهوجى، يأخذ منه الصينية ويساعده فى عمله فى المقهى. كل تلك السنين كانت سيفاستى تقوم بالعمل بدلاً منه، وهى ترتدى رداءً من قماش "الشيت" (قالها بالعربية ودوّنها بحروف يونانية) الرخيص صيفًا وشتاءً، تعد القهوة والشاى على وابور الجاز، وهى تقف تحت صورة ملك اليونان، ثم تقدم هذه المشروبات لمرتادى المقهى من المسافرين الذين ينتظرون القطار للسفر إلى القاهرة أو إلى الإسكندرية. ومن كثرة العمل أصيبت بالدوالى التى تسلقت قدميها كنبْتة معترشة، كما أدت الزيادة المفرطة فى وزنها إلى عصبيتها وتذمرها المستمرين. ورغم كل ذلك، كانت تصر على أن العمل بالمقهى لا يتناسب مع قدرات فانيس، «سوف يصبح ابننا فانيس موظفًا، انتهى الأمر إذن، فلن أهدر حياته بالوقوف أمام الإبريق والوابور!» هكذا كانت تقول لزوجها فى كل مرة يتذمر فيها. كانت لدى سيفاستى خطط لابنها المدلل ولابد أن تحققها، فلم تتردد فى أن تطرق أبواب " رابطة التجارة اليونانية " صباحًا ومساءً، أو أن تطلب من كل ممن ينتمون لجزيرة سيمى اليونانية مساعدة ابنها، متمنية أن ترى فانيس يومًا ما جالسًا خلف أحد هذه المكاتب، وقد تمكنت فى النهاية من أن تجد له وظيفة صغيرة فى الشركة اليونانية للقطن، التى كانت تملك مصنعًا لحلج القطن بالمدينة، عندئذ أحست أنها قد حققت هدفها فى الحياة. أما فانيس فكان، على العكس من ذلك، يشعر أن

حظه الحقيقى ينتظره فى الجانب الآخر من العالم، ولذلك فقد أبدى عدم اهتمام بتلك الوظيفة. لكنه كان يولى أهمية أكبر، على سبيل المثال، لشعره الكستنائى الغزير الذى يقف بالساعات أمام المرآة ليصفقه بمشط بنى اللون مصنوع من عظم ظهر السلحفاة، ثم يبلله بماء النيل. وكان يحرص على عمل فارق شديد البياض فى الجانب الأيمن من رأسه، كما كان يهتم كذلك بإعادة خصلات شعره المتناثرة إلى مكانها.

كان السيد فاسيليس يقول له باستمرار: «لا تبلل شعرك باستمرار، يا بنى، فسوف تتسبب فى تساقطه».

«رأينا ما حدث لك وأنت حتى لم تكن تبلل شعرك» هكذا كان يجيبه فانيس، ثم يستمر فى الاهتمام بمظهره بشكلٍ مبالغ فيه، معلنًا بأسلوب وقح: «هذا هو حظى!» وكان يقصد أنه يفكر فى زيجة ناجحة، لكن يبدو أن عينيه البراقتين وشعره المصفف وشاربه الأشقر لم تكن كافية لتحقيق غرضه. من جهة أخرى، كان الناس فى الزقازيق يعلمون جميعًا أن ابن القهوجى قناص للثروات ولاعب للورق، ولذلك كان الآباء بالمدينة يحرصون على إبقائه بعيدًا عن بناتهم. فى بدايات عام ١٩٣٠، لو قام فانيس كوستاراس بمراجعة حياته حتى ذلك الوقت، لوجد بصعوبة شديدة شيئًا يبرر به وجوده. فقد قارب الخامسة والثلاثين من عمره، لكنه لم يتخذ قرارًا تجاه حياته التى تمر به بلا هدف فى هذه المدينة الصغيرة بمصر. ومن ناحية أخرى، فلم تكن لديه الجرأة لمغادرة الزقازيق والانطلاق إلى القاهرة أو إلى الإسكندرية أو إلى أية جهة أخرى خارج مصر. وعندما يوجهون إليه اللوم، كان يجد راحة فى تهديهم قائلاً: «سأرحل من هذا الجحر، لا أنتوى العيش مدفونًا هنا طوال حياتى!». إلا أن كل ذلك كان مجرد كلام فى الهواء. كان فانيس جبانًا ومدللاً أما سيفاستى التى كانت تعرفه جيدًا، فكانت تشعر بالقلق على مصيره من بعدها. وكأن ذلك لم يكن كافيًا، فقد ظهر فجأة فى أحد الأيام ابن عمها يورغوس لكى يزيد من متاعبها. كان يمكنك أن ترى فى وجهه ما تركه السجن من علامات على مر السنين، كما فقد الكثير من وزنه وشاخ قبل الأوان، لكنه كان يحاول أن لا يظهر ذلك:

يورغـوس: «ألن ترحبى بى إذن؟».

سيـفاستى: «لقد اتفقنا أنك لن تضايقنا أبداً».

- «أذكر ذلك جيداً، ولكن الأمور تغيرت. فهل كان هناك من يتصور أنى سـأدخل السجن؟».

- «نعم لديك حق».

- «ظلم العالم عظيم، يا ابنة الخالة» قالها معلقًا وأخذ يتأمل بعينيه المقهى القديم الذى كان يجلس فيه مع سيفاستى وزوجها. كانت بعض قطع البلاط محطمة، ومعظم الموائد المعدنية الصغيرة يعلوها الصدأ، كما تآكلت بعض الكراسى المصنوعة من الخيزران. كانت صورة ملك اليونان فقط تبدو جديدة، وهى محفوظة داخل بروازها الزجاجى.

- «تحافظون على الملكية كأعينكم!» قال ذلك يورغوس بشكلٍ عفوى.

- «أتقول لنا ذلك؟ أنت تعرف أنه فى اليوم الذى مر فيه علينا هذا البغيض (تقصد فينيزيلوس) وهو فى طريقه إلى الاسماعيلية، قام فاسيليس بإغلاق المقهى».

- «الإخلاص للملك هو الواجب الأسمى لكل وطنى». هكذا أبدى ملاحظته بطريقة آلية، وكأنه يلقى بخطبة كان قد أعدها من قبل. إلا أن سيفاستى سألته مقاطعة وقد تجاهلت لفظ "الإخلاص":

- «ما الذى أتى بك إلى هنا، يا يورغوس؟».

- «أرغب فى رؤية فانيس».

- «أنت تعلم أن هذا لن يحدث» أجابته بصوت جهورى.

- «لا تخافى. لم آت إلى هنا وأنا أضمر الشر. لكن هذا الولد يستحق حياة أفضل من العمل فى أحد المقاهى القديمة بالزقازيق».

- «هل تعى ما تقول! كيف واتتك فكرة أننى سأجبر ابننا على العمل فى مقهى أبيه. لقد أعطيتك وعداً من قبل ولم أخلف وعدى، أريد أن تعلم أن ولدنا لديه الآن وظيفة محترمة. ولو سألته فأنا على يقين من أنه سيؤكد لك أنه لا ينقصه شيء».

- «ولكنه ليس ابنكما، يا سيفاستى، لا تنسى ذلك. أنا الذى أستطيع أن أذهب به إلى والديه الحقيقيين».

- «إلى والديه الحقيقيين.! نحن والداه الحقيقيان. أما الآخران فأتيا به إلى الدنيا فقط. ولكن من الذى قام بتربيته؟».

- «هل تزوج؟» هكذا سألها، متجاهلاً انفعالها.

- «كلا».

- «عظيم، هذا يسهل الأمور».

- «أنت آخر إنسان كنت أنتظر أن أراه، يا ابن الخالة». سمع يوغوس من خلفه صوتًا انبعث على حين غرة، وعندما استدار رأى فاسيليس، وكان كل ما احتفظ به من أيام الشباب هو ابتسامته، لكنها كانت كافية لكى تجعله يدرك أنه سيستطيع أن يتواصل معه.

* * * * *

عندما فوجئ أندونيس بوجود فانيس كوستاراس أمامه، تذكر نفسه قبل خمسة وثلاثين عامًا. وبالنسبة له كانت مسألة ميلاد ابن غير شرعى له قد طواها النسيان تمامًا، حتى إن سماعه لكلمة " أبى " من شفاه شاب غريب عليه كانت تبدو كالمزاح السخيف، ولم يكن يدرى ما الذى ينبغى أن يفعله عند سماعها، أيضحك أم يغضب. كان أندونيس منهمكًا فى قراءة بعض الأوراق على مكتبه، واندهش فى البداية من استطاعة شخص غريب أن يقطع المسافة من مدخل المصنع حتى باب مكتبه، ثم يقف أمامه مباشرة أثناء ساعات العمل دون أن يعترض طريقه أحد. تصور لوهلة أن

ما يراه أمامه ما هو إلا مزحة ناتجة عن وحى خياله فأغلق عينيه، ربما يستطيع أن يطرد بهذه الطريقة ذلك الضيف غير المرغوب فيه، ولكن عندما فتحها مرة أخرى كان الضيف لايزال موجوداً، بشحمه ولحمه. كان النداء " أبى " الذى سمعه أندونيس مرة أخرى بحاجة إلى تفسير، تفسير ليس فى خياله ولكن فى الواقع، وتذكر أندونيس أنه ليس هناك سوى شخص واحد فقط فى هذا العالم كان باستطاعته أن يؤذيه بهذه الطريقة، وعاتب نفسه لأنه لم يمنعه منذ زمن، لكن يبدو أنه فى حقيقة الأمر قد نسى ما حدث منذ خمسة وثلاثين عاماً ولم يظن أبداً أنه سيؤثر على حياته الآن. سنوات طويلة إستطاع خلالها أن يعزل نفسه عن تلك المشاعر الزائفة، شعر أنه بمنأى عن الجميع، حتى عن ماضيه. كم كان أحمقاً! ربما مازال هناك وقت لكى يصحح خطأه. ربما كان من الأفضل أن يتصل بإلياس ويطلب منه الحضور فوراً. فهو الوحيد القادر على إيجاد حلا لمثل هذه المشكلات. فى تلك الأثناء، فكر أنه لابد أن يأتى من يلقى هذا الشخص الذى ظهر فجأة فى مكتبه إلى الخارج. لكن لم يظهر أحد. وكأن الجميع شركاء فى هذه المؤامرة المذهلة، وكأن هذا الثعبان يورغوس قد تمكن من إحياء أشباح الماضى، بل وأن يقوم بتنويم جميع موظفيه مغناطيسياً فى وقتٍ واحد.

امتدت يده تجاه التليفون، لكن فى اللحظة التى حاول أن يلتقط فيها سماعته، شعر بتنميلة فى أصابعه وسرعان ما انتشرت فى كل الجانب الأيسر من جسده. وفى نفس اللحظة بدا كل شىء حوله يدور: علبة السجائر الفضية، الصور المعلقة على الحائط، حتى النقوش المرسومة على قطع السجاد السميك فقدت تفاصيلها من هول هذه المفاجأة المذهلة وصدى كلمة " أبى" الذى كان يتردد بطريقة حزينة فى أذنه. وقبل أن ينهار تماماً بدأ شريط حياته السابقة يمر من أمامه، وكان يعتقد أنه قد نسيها. كان يتابع تلك الذكريات بنظرة غير عابئة كالمشاهد الذى يجلس فى قاعة السينما يشاهد فيلماً لا يخصه هو شخصياً، ولكنه يحكى قصة رجل أحب يوماً ما امرأة تدعى لورنا، وهى راقصة إيطالية تعمل بمقهى شانتان، عاش معها قصة حب بلا أمل، فذلك هو الحب الذى يمكن أن يشعر به أى رجل تجاه امرأة من هذا النوع.

* * * * *

«قام السيد فاسيليس القهوجي بالزقازيق وزوجته طوال تلك السنوات بتربية ابن خاراميس غير الشرعي!» بهذه الجملة المليئة بالكراهية بالفعل اختتم يورغوس رغبته في الانتقام من أندونيس، ولكي يسمعها من أفواه الناس يوم ما، تحمل السجن والخزي. وبعد ما عاد يورغوس إلى منزله بعد معاناة طويلة، وجد زوجته وقد أصبحت شبه المجنونة، وأن ابنته البدينة قد فاتها قطار الزواج بعد أن حملت على عاتقها إخفاقات الحياة، هذا بالإضافة إلى قبحها الذي أفقدها الأمل في الزواج. ومع وجود عائل الأسرة في السجن، واجهت السيدتان صعوبات كبيرة في تدبير أمور معيشتهما، كما لم تجدا في عودته بعد طول انتظار حلاً لصعوبات الحياة. لقد واجه المحاسب السابق ما كان يتوقعه. فكل الأبواب أغلقت في وجهه، كما تجمدت الابتسامات والمجاملات في وجوه كل من يعرفهم – في الطريق، في المقاهي، في المحلات، وحتى في المكاتب – وكان الجميع يتظاهرون بأنهم لا يعرفونه. لقد حدد خاراميس القاسي مصيره، فمن يجرؤ على مخالفة رغبته؟ حتى منافسيه كانوا يخافونه، وقد سمع أحدهم يقول ذات مرة: «من يخون عدوى فهو خائن مرتين». أشار البعض عليه بالعمل في المقهى اليوناني بالعطارين، لكن كان من المستحيل أن يفكر في ذلك، فكيف يقدم المشروبات لهؤلاء الذين كانوا ينحنون يومًا ما أمامه عندما كان يمر بهم. انغلق يورغوس على نفسه داخل بيته وشارك زوجته وابنته الجوع والفاقة. أثر الضعف والسجن على صحته، ولم يكن ذلك الألم الذي عاوده أخيراً في معدته مؤشراً جيداً، كما لم يكن هو نفسه مستعداً لأن يغادر هذا العالم قبل أن ينتقم.

عاش يورغوس يورغاس سنوات عديدة وهو يشعر بأنه قد ظلم في علاقته "بأخيه الكبير". وكان بعودته إلى تفاصيل هذه العلاقة يتذكر هذا الفأر[١٨] المذعور، تماماً مثلما وصفه من قبل، هذا الذي اختبأ في منزلهم من أجل أن ينجو بنفسه من أحداث هوجة عرابي. كيف كان حالت أندونيس في هذا الوقت؟ كان مشرداً في الشوارع بلا مستقبل،

---

(١٨) استخدم المؤلف لفظ "ابن عرس" ولكننا فضلنا استخدم لفظ "الفأر" عند الترجمة لاعتقادنا بأن لها وقعًا لفظيًا أفضل في اللغة العربية. (المراجع).

هذا السبارسجى الذى كان يجمع أعقاب السجائر من الشوارع، حتى إنه لم يسلم من سخرية المصريين. ما الذى كان سيصبح عليه أندونيس الآن لو لم يقدم له يورغوس يد المساعدة حتى يستطيع الحصول على قدر محدود من التعليم تحت ضوء لمبة الجاز، أو لم يضغط عليه من أجل أن يسجل نفسه فى إحدى المدارس المسائية للغات الأجنبية. وأخيراً، كيف كان سيستطيع أن يشق طريقه فى خضم مجتمع الإسكندرية؟ والأهم: أين كان سيوجد خاراميس العظيم المشهور الآن، لو لم تقم أسرته فى تلك السنوات العصيبة بالتقاطه من شوارع الإسكندرية؟

لقد عاش أندونيس وتعلم بفضل مساعدة أسرة يورغوس الذى رآه يتضخم باعتباره رجل أعمال. هذا الرجل القط الذى ينحدر من مدينة كافالا اليونانية تحول بين يوم وليلة إلى جنتلمان بالمعنى العالمى للكلمة. لكن كيف؟ لو لم يستكمل له يورغاس الأب ما كان يحتاجه من نقود ليتمكن من افتتاح مصنعه الأول، كيف كان سيتمكن بعد ذلك فى إنشاء مجموعة مصانع متكاملة؟ ولم تكن اهتمامات أندونيس تنصب على العمل فقط. فمنذ صغر سنه وهو يستمتع بجذب فساتين النساء لأعلى، وعندما كان يتحصل على المال كان أول ما يحرص عليه هو: إنفاق تلك النقود على نساء ساقطات. لقد كلفه حبه للورنا – الإيطالية، راقصة مقهى شانتون – ثروة طائلة، وفى النهاية هجرته بعد أن أنجبت منه طفلاً غير شرعى لم تكن لديها الرغبة فى تربيته على حساب مستقبلها الفنى. عندئذ استنجد أندونيس مرة أخرى بعائلة يورغاس لمساعدته. وكانت ابنة خالة يورغوس التى لم تنجب تقيم بالزقازيق، ففكرت والدته أن تمنحها هذا الطفل غير الشرعى ويبدو أن ذلك قد تم تنفيذاً لمشيئة الله. ربما يكون أندونيس قد نسى كل ذلك، أما يورغوس فلم ينسه مطلقاً، إلا أنه أحياناً ما كان يلوم والدته الراحلة لأنها قالت له فى أحد الأيام: «فلتعمل مع صغيرى أندونيس، يا يورغوس. اليد الواحدة تساعد الأخرى». لقد سمع كلامها وأطاعها ولكن ما الذى عاد عليه؟ أهدر قدراته فى خدمة رجل لا يعترف بالجميل، شخص متكبر كان حريصاً طوال تلك السنوات أن يحقر من شأنه وأن يسخر منه بشتى الطرق. لكن مهما علا شأن أندونيس خاراميس، فلم تكن لديه القدرة على محو ماضيه، الذى كان يورغوس على دراية به أكثر من أى شخص آخر.

بهذه الأفكار استقل يورغوس القطار فى صباح أحد الأيام متوجهًا إلى الزقازيق، وقد ارتدى بذلته القديمة المحفوظة فى النفتالين؛ وبعد أن تجرع بعض كئوس الخمر الردىء عادت إليه شجاعته من جديد، إلا أنه كان يشعر بوخزة فى معدته.

كان يشعر بالقلق الشديد، ولكنه أحس بالهدوء عندما التقى "وجهًا لوجه "(ذكرها بالفرنسية) مع فانيس كوستاراس. فقد أدرك أن إرادة الله غالبة فى كشف هذه البغضاء بعد أن جعل فانيس الابن صورة طبق الأصل من أبيه.

«إنك صورة طبق الأصل من أبيك!» قال يورغوس ذلك بحماسة، وكان بداخله سبب آخر جعله يشعر بالسعادة، لأنه لم يجد صعوبة فى اكتشاف أن ابن فاسيليس وسيفاستى بالتبنى وقد ورث صفات أندونيس، فقد كان صعلوكًا بمعنى الكلمة.

* * * * *

«عندما رحلت من هنا حملت معك فى حقائبك حربًا كانت قد انتهت. أتمنى أن لا تكون قد عدت وجلبت معك حربًا أخرى» قال ذلك إلياس لكوستيس وهو يستقبله خارج رصيف الميناء القديمة بالإسكندرية فى حديث يمزج بين الجد والمزاح، وفى نفس اللحظة ألقى نظرة ذات مغزى إلى تلك الحسناء الشقراء التى ترافقه وسأله: «ألن تقدمنى إلى صديقتك؟». لم يكن لدى كوستيس أى سبب يجعله يتعجل فى اعطائه أية تفسيرات، وفى نفس الوقت لم تعجبه الطريقة التى نظر بها صديق والده إلى هايكى وفكر أن لا يدع أية فرصة لسوء الظن، فقال له:

كوستيس: «نعم، اسمح لى أن أقدم لك زوجتى هايكى رويسيندال» (قال ذلك بالفرنسية).

إلياس: «حقًا؟ إذن فقد تزوجت، يا صغيرى» هكذا هلل اللبنانى مبديًا اندهاشه ثم استطرد قائلاً: «أرجو أن تعذرنى (قالها بالفرنسية)، لكننى لم أكن أعرف أنك قد تزوجت» ثم استدار ناحية السيدة الجميلة وقبَّل يدها، وهو يهمس قائلاً (بالفرنسية): «تشرفنا، يا سيدتى».

وبدورها تقبلت هايكى التحية بابتسامة مجاملة. تأملها كوستيس لوهلة ولم يكن للحمل تأثير واضح عليها. كانت تقف شامخة، وهى تلف جسدها برداء من موديلات شانيل، تداعبه الرياح، وكان لديها انطباع بأنها قد وصلت إلى الإسكندرية مرتدية أحدث خطوط الموضة. ولم تكن المسكينة تعرف أن كل خطوط بيوت الموضة العالمية قد وصلت بالفعل إلى الإسكندرية.

«فلننتهى إذن من هذه " الرسميات"(قالها بالفرنسية)» قال ذلك كوستيس وقد بدا عليه الضيق من أسلوب معاملة خورى لزوجته. وكانت السحب قد تجمعت فى سماء الإسكندرية لتنذر بسقوط المطر فى أية لحظة. أما هايكى، التى كانت تتخيل يومها الأول فى أفريقيا بشكلٍ مختلف، فقد أخذت تنظر إلى سماء الإسكندرية وهى فى شدة الإحباط. إلا أن كوستيس كان قد أعدها نفسيًا من قبل. ألقى التحية على محمود، الذى أسرع بفتح أبواب السيارة للزوجين، ثم نظر كوستيس خلفه فى قلق، وسأل إلياس:

– «أعتقد أنه لا ينبغى القلق بشأن الحقائب، "أليس كذلك "(قالها بالفرنسية)؟».

– «لا، لا تقلق. سوف يقوم محمود بعمل اللازم، وسوف يتم إرسال بقية الحقائب إلى المنزل مباشرة. "لا تقلق إذن" (قالها بالفرنسية).

جلس الزوجان فى المقعد الخلفى للسيارة، فى حين جلس إلياس فى المقعد المجاور للسائق. وكانت لدى كوستيس فرصة كافية لكى يتأمل بدقة التغيرات التى أحدثها الزمن فى صديق أبيه، ثم قال له مداعبًا:

– «لقد بلغت من الكبر عتيًا، يا إلياس. هل تدرك ذلك؟» تقبل إلياس ذلك، ثم أجابه:

– «آه، هذا أمر حقيقى، لقد نلت حظى من الكبر (قال ذلك بالفرنسية) لكن كلنا نكبر، أليس كذلك، يا صديقى؟».

شعر كوستيس بالندم لأنه كان جافًا مع إلياس وحاول أن يلطف موقفه بقوله:

- «معك حق، "على أية حال"(قالها بالفرنسية)، ولكنك مازلت من أكثر الرجال وسامة فى مصر. كنت أتأمل بذلتك، وصدقنى، أنا الذى كنت أجوب أوربا، نادرًا ما التقيت رجالاً مهندمين مثلك».

- «ربما تفسد السن "الأناقة" (قالها بالفرنسية). أنظر، إلى محمود على سبيل المثال هل ترى أى تغيير فيه؟».

- «لا شىء، إنه كما تركته تمامًا» عندئذ ضحك السائق المصرى البدين نو الرأس العريض، الذى كان يحاول طوال تلك السنين أن ينال رضا كوستيس.

- «أترى إذن، أما أنا فقد أخذ الشيب يغزو رأسى، وصدقنى فى كل صباح أدخل فى معارك مع التجاعيد المحفورة فى وجهى، أنفخ وجنتى، وأقوم بعملية شد لجلد الوجه حتى أذنى، ثم أضع على وجهى فوطًا ساخنة. ورغم ذلك فلم يتغير من الأمر شيئًا».

- «شىء جميل أن تقول لى كل ذلك. فسوف أستفيد بخبرتك هذه فى القريب العاجل».

- «لا! فما زلت صغيرًا».

- «لست صغيرًا إلى هذا الحد. فالعمر يجرى سريعًا».

- «نعم معك حق، وها أنت ذا قد تزوجت حقًا، هل يعرف والداك بهذا الخبر؟ أنا أسألك لأنى لم أسمع منهما شيئًا».

- «لا، إنهما لا يعرفان، "مفاجأة!" (قالها بالفرنسية) أليس كذلك؟».

- «آه، يا عزيزى (قالها بالفرنسية)، اسمح لى أن أخيِّب ظنك. فلسوء الحظ هناك مفاجآت أخرى فى انتظارك».

- «أى نوع من المفاجآت؟».

- «أولاً بالنسبة لى، ألم يثر دهشتك أننى من حضر لاستقبالك؟».

- «نعم، حقًا كيف لم أفكر فى ذلك أبدًا. "ما الذى يحدث؟"(قالها بالفرنسية)».

- «ما الذى يحدث؟ من أين أبدًا؟ إنه لأمر بالغ الصعوبة».

- «هل حدث مكروه لأبى أو لأمى؟ فقد شعرت فى التلغراف الذى وصلنى منها لهجة استعجال لحضورى».

- «حدثت أمور حزينة فى الفترة الأخيرة و..........».

- «وماذا....؟».

- «لا أدرى ما الذى سيضايقك أكثر. أن تعلم أن والدك مريض أم أنه قد أصبح لك أخ جديد؟»

أبرقت السماء بضوء مبهر، وتعالى صوت الرعد الهادر، ثم أتبعه صوت الأمطار وهى تسقط. ظن كوستيس أنه لم يسمع ما قاله إلياس جيداً وصاح (باللغة الإنجليزية) مندهشاً:

«أستميحك عذراً!».

بهذه الجملة الأخيرة كان إلياس يبدو وكأنه قد أخرج بالونًا كبيراً، وكان ينبغى عليه أن يملأه بالإجابات، أما محمود الذى كان على ما يبدو يفهم ما يدور، فكان يقود السيارة ببطء شديد تحت الأمطار الغزيرة حتى يمنح إلياس وقتًا كافيًا ليشرح لكوستيس، وعندئذ أدرك كوستيس أن اللبنانى الذكى أخذ يحدثه بمزيج من اللغات. فكل النقاط التى لم يكن من المفترض أن تفهمها هايكى كان يرددها باليونانية، حتى لو كان ذلك غير مقبول من جنتلمان مثله أن يتحدث بلغة أجنبية أمام إحدى السيدات. أخذ يحدثه عن الظهور المفاجئ لفانيس كوستاراس، وعن السكتة الدماغية التى أصيب بها

والده. كان إلياس يتحدث مع كوستيس بطريقة لاعب ورق محترف، فكانت لديه القدرة على إخفاء أوراقه الرابحة، محولاً تلك الأوراق إلى معلومات يمنحه إياها الواحدة تلو الأخرى، كما كان حريصًا أيضًا على أن يخبره بالتغيرات التى طرأت على المدينة، والتى كان كوستيس على علم بمعظمها من خلال خطابات والديه: فكانت لديه أخبار، مثلاً؛ عن استكمال طريق الكورنيش بالميناء الشرقية، مثلما كان يعرف ما الذى سيراه فى ميدان سعد زغلول، حيث اكتمل بناء الفندق الكبير الجديد بالمدينة – وهو فندق "سيسيل"(ذكرها بالفرنسية)– فقد سبق أن وصفته له أمه وأخبرته بأنه يشبه أحد قصور شمال أفريقيا، بواجهاته المربعة وموقعه المتميز على البحر. حتى تغيير اسم شارع رشيد إلى شارع فؤاد كان على علم به. ورغم معرفته بكل تلك التغييرات فإنه لم يقل شيئًا لإلياس، وكان يبدو سعيداً بخداعه ولم يشأ أن يصيبه بالإحباط.

«بكل صدق، كان الأمر مؤلمًا بالنسبة لى، أن أتولى إبلاغك بهذه التطورات المحزنة فى منزلكم. لكن كان لابد أن يفعل ذلك أحد. أفهم شعورك، يا بنى» قال ذلك إلياس بصوت يفيض بالحزن

كوستيس: «إنها بالتأكيد ليست أخباراً مفرحة..... هكذا......».

وعلى العكس مما قد يتوقعه أى شخص، فقد اعتبر كوستيس أن هذه الأخبار تدعم ما يخطط له، يكفى أن ينفذها بشكلٍ سليم. ولذلك فقد أجبر محمود للتوقف بالسيارة على بعد عدة أمتار من المنزل. ثم كتب فى عجالة رسالة إلى أمه، التى كانت تنتظره فى مدخلُ المنزل محتمية من الأمطار، وطلب من إلياس أن يسلمها لها. فى حين قام بعد ذلك مع هايكى بعمل جولة حول الحى لكى تشاهد حدائق الشلالات، وفى الوقت نفسه لكى يمنح ذافنى وقتًا كافيًا لقراءة واستيعاب محتوى رسالته. خرج "اللبنانى" من السيارة حاملاً مظلة سوداء ضخمة، وعبر الطريق بخطوات مسرعة. وكان يضع فى جيب البالطو اليسار خطاب كوستيس الذى يقول فيه:

أمى

لقد أخبرنى إلياس بكل التطورات التى حدثت فى بيتنا. لابد أن أبلغك أننى فى الإسكندرية مع زوجتى، إنها امرأة هولندية يهودية تدعى هايكى رويسيندال. تزوجنا فى باريس عندما علمنا بحملها. أرجو أن تحترمى موقفها، أما بالنسبة لأبى، فتعاملى مع الموقف كما تشائين. أتشوق لرؤيتك.

ابنك الأكبر

* * * * *

عندما أدخلت جوليا المفتاح فى باب مكتب أندونيس خاراميس، لم تتحمل الموقف وانفجرت باكية.

جوليـــا: «سامحنى، يا سيد كوستيس، سامحنى،" كان ذلك غباءً منى"(قالت ذلك بالإنجليزية)، لكننى لم أكن أتوقع أن يحدث شىء كهذا لأبيك. كان يبدو قويًا. وهذا الشخص كيف وصل داخل المكتب دون أن نلحظه؟ أوه، لن أسامح نفسى أبدًا».

كوستيس: «إهدئى، يا فوليا، كل شىء سيكون على ما يرام. كانت لحظة ضعف من أبى، ليست بالأمر الخطير. اهدئى فأنت لم تخطئى فى شىء» قال لها ذلك وهو يحاول أن يطمئنها. فى تلك اللحظة، ودون أن يدرى، جال بخاطره ربما كانت السكرتيرة العانس مغرمة بأبيه، وبالكاد منع نفسه من الضحك.

جوليـــا: «أتريد أن تقول، يا سيد كوستيس، إن السيد خاراميس سيعود إلى المصنع مرة أخرى، أوه، يا إلهى، سوف أعيش حتى أرى هذا اليوم صدقنى. لكى أراه وهو يدخل عظيمًا ووقورًا إلى مكتبه ولأمت بعد ذلك».

طوال الوقت الذى كانت جوليا تتحدث فيه، كانت نظاراتها تتراقص فوق أنفها المدبب من فرط ارتجاف عضلات وجهها وأذنيها اللتين كانتا تصعدان وتهبطان بشكلٍ مضحك. كان شعرها الخشن الذى جمعته فى ضفيرة واحدة يبدو وكأنه مجموعة من الأسلاك المربوطة إلى بعضها بعضًا. كانت جوليا من أولئك النساء اللاتى قد لا تمنحك السعادة بقدر ما تمنحك القوة. ومع الوقت كانت تذكره بربة منزل من برلين.

«فى النهاية فكل شىء مقدر (قال ذلك بالإنجليزية)، أليس هذا ما يقوله أصدقاؤنا الإنجليز؟ كل شىء سيعود كما كان، سوف ترى» هكذا أجابها كوستيس. وكم كانت رغبته شديدة فى أن يؤمن هو نفسه بذلك. كان انهيار والده المفاجئ قاسياً بالنسبة له. فمن ناحية، كان يشعر بأنه على استعداد أكثر من أى وقت مضى لإدارة المصنع، ومن ناحية أخرى، كانت المسئولية تخيفه. كان كوستيس يؤنب نفسه على إهداره كل السنوات الماضية فى أعمالٍ تافهة. كان أقل ما يمكن أن يفعله هو: أن يقوم ببعض الدراسات المتخصصة، مثل أبناء بعض المصريين اليونانيين العاملين بصناعة الدخان. الآن ستكون الأمور مختلفة وسوف يتعامل مع الآخرين بشكلٍ مختلف. شعر كوستيس بالخوف من المكتب الواسع. فقد قطع بداخله مسافة عشرة أمتار ولكنه لا يزال فى المنتصف، استدار تجاه جوليا من أجل أن يستمد منها بعض القوة، وقال:

«لو أن والدى، لا قدر الله، لم يعد مرة أخرى، ما رأيك وقد أمضيت هنا سنوات عديدة، هل تعتقدين حقًا أننى سأتمكن من إدارة المكان؟» وبمجرد أن أنهى حديثه انفجرت السكرتيرة العانس مرة أخرى فى البكاء، واختفت عبر الباب الضخم المصنوع من خشب الماهوجنى والمبطن بالجلد.

«حسنا، الجميع هنا يثق بك ثقة كبيرة» هذا ما قاله كوستيس لنفسه متهكمًا. وفى نفس اللحظة قام بتعليق الجاكت الخاص به والقبعة على الشماعة وفتح أزرار قميصه صائحًا بصوت عالٍ: «والآن إلى العمل ثم العمل!».

* * * * *

«يوم عسل يوم بصل» هكذا كانت ذافنى تجيب (باللغة العربية) كل من يسألها عن أخبارها مع هايكى، زوجة ابنها. لكن فى واقع الأمر، كانت العلاقة بين المرأتين أفضل بكثير مما كانت والدة كوستيس تتصور. ومن جهة أخرى شعرت كل واحدة منهما منذ اللحظة الأولى أنها بحاجة للأخرى. وبالطبع كان على ذافنى ليس فقط مواجهة انهيار أندونيس وانضمام شخص غريب إلى العائلة، ولكن أيضًا مواجهة الفضيحة التى تبعت

هذا الأمر. أما هايكى، التى كانت تنتظر مولودها الأول، فكانت تشعر بإحساس غير مسبوق بعدم الراحة: فهى وحيدة فى بلدٍ غريب وزوجة لرجل من جنسٍ آخر وديانة مختلفة، رجل لم تكن تعرفه جيداً.

كان التحالف بين هايكى وذافنى أمرًا ضروريًا إذا أراد أن ينعم كوستيس بالهدوء وعدم التشتت فى ذلك الصراع الصعب الذى وجد نفسه فيه، والذى كان من المهم أن يحافظ من أجله على هدوئه. كانت لدى كوستيس الرغبة فى أن يكون على ثقة مطلقة من ذلك التوازن بين الحماه وزوجة الابن، ولذلك فقد حرص منذ البداية على توزيع الأدوار التى تلعبها كل منهما فى الحياة اليومية. فبدأت هايكى من جانبها تلعب دور الزوجة المستسلمة، مع مطالبتها الدائمة بالاحترام ومراعاة ظروف حملها، ومن جهة أخرى كانت ذافنى تظهر بصورة الحماه المتسامحة التى تشعر بالفخر تجاه تلك الموديل السابقة فى بيت شانيل للموضة، والتى أغرقت المنزل بموسيقى باخ ورحمانينوف وشوبان، مخالفة بذلك نغمات البيانو التى كانت تعرفها الآنسة جابى، تلك المرأة التى لم تكن لدى كوستيس الرغبة فى رؤيتها أمامه أو رؤية أخيها، وكان يوجه كراهيته فى الوقت الحالى للعبة المفاوضات التى تدور بينه وبين أمه حولهما.

كانت ذافنى تتخيل عودة ابنها الأكبر بطريقة مختلفة. لكن طوال الثلاثة عشرة عامًا التى تغيَّب فيها، تحول كوستيس تحولاً جعلها تشعر بالرضا تجاهه. "فصعلوك الحى اليونانى" أصبح رجلاً ناضجًا، قويًا ذا شخصية، وأحيانًا مرنًا ودبلوماسيًا - وفقًا لما تقتضيه الحاجة. كان لوجوده فعل السحر فى عودة إحساسها بالأمان الذى كانت قد افتقدته بعد الأحداث الأخيرة، أما الرسالة التى أرسلها لها قبل وصوله وزوجته بمثابة الدليل على سعة أفقه ذلك، فقد كان يعرف كيف يستغل المواقف والمآسى التى واجهها فى حياته ويحوِّلها لصالحه. لم تكن الزوجة التى أتى بها معه هى ما كان يحلم به، لكنه كان من الصعب فى نفس الوقت أن تجد فى الإسكندرية كلها من يرى أن العروسين لا يناسب كل منهما الآخر، حتى لو كانت هايكى تخلق نوعًا من الإحساس الكاذب بأنها أكثر طولاً من زوجها من خلال ارتدائها حذاءً بكعب عالٍ، ذلك الطول الذى كان كوستيس يحاول التغلب عليه باحتفاظه بقامته منتصبة.

ومن جانبه، تولدت لدى الابن الأكبر لأندونيس خاراميس قناعة تزداد يومًا بعد يوم بأن عودته إلى الإسكندرية كانت حتميه، وبأن كل تلك الكوارث التى طرقت أبواب منزلهم كانت وسيلة يدعم بها حياته. لكن الآخرين لم يشاركوه وجهة نظره المتفائلة بشكلٍ مبالغ فيه. كان والده يتلقى العلاج فى مستشفى سان سوفرونيوس بعد إصابته بالسكتة الدماغية. وعندما أصبح المصنع بلا إدارة، بات منافسوه يهللون فرحًا، فى الوقت الذى كانوا يعربون فيه عن حزنهم ومساندتهم لآل خاراميس. أما الشاب الذى قدم نفسه فجأة على أنه ابن غير شرعى لأندونيس، فقد كان مصرًا على المضى قدمًا فى انتقامه قدر استطاعته. وقد حاول مرتين زيارة والده المريض بالمستشفى، لكن لحسن الحظ لم يسمح له الأطباء بذلك. كما واتته الجرأة للظهور فى منزلهم بالحى اليونانى، وعندما وجد الباب مغلقًا، ظل فى مكانه بالخارج لوقت طويل وهو يصيح بأنه ليس هناك من يستطيع أن يحرمه من حقوقه. وتحولت المسألة إلى كيفية التخلص من هذا المخلوق الذى يقول عنه كل من يراه: إنه يشبه والده بشكلٍ لا يصدق، مما لم يدع مجالاً للشك فى أنه من صلب أندونيس. وكان غياب ماخوس فى تلك اللحظات الحرجة بمثابة فضيحة إضافية تناقلتها الدوائر الاجتماعية بالإسكندرية.

وفى خضم كل تلك المواجهات والمشاكل المجتمعة، لم يجد كوستيس الوقت لإبداء اعتراضه على قطع الآثار المصرية التى جمعتها أمه. وفى الحقيقة، لم تعجبه فكرة أن السيدة ذافنى قد حولت المنزل إلى متحف فرعونى، بغض النظر عن الشائعات التى كانت تحيط به من كل جانب وتتعلق بنهب الآثار - وكانت بمثابة صداع آخر فى رأس كوستيس. كان اهتمام ذافنى بالحضارة المصرية القديمة يبدو أمرًا مشوقًا بالنسبة لها، وهو ما جعل ابنها لا يجد تفسيرًا للطريقة التى كان يراها بها، وقد أصبحت أصغر سنًا مما كانت عليه منذ خمسة عشر عامًا. كان كوستيس يفكر باستمرار فى احتمالية أن يكون لأمه عشيق جعلها أصغر سنًا، ولكن سرعان ما كان يرفض مثل هذا الاحتمال، ولذلك فقد وجد أنه من الأفضل أن يدعها تنشغل بتلك الآثار القديمة. الأمر الآخر الذى كان يشغل باله هو: هذا العدد الهائل من العاملين بالمنزل، لكنه كان يعتبره من الأمور الأقل ضررًا إذا ما وضع فى اعتباره أن أجورهم لم تكن ذات قيمة عالية.

اعتاد كوستيس أن يترك روح الكرم فى المنزل ولا يأخذها معه إلى المصنع أبداً. فمن أول يوم له فى المصنع نراه يفرض فلسفته الجديدة التى أعلنها أمام أندرياس سيستانيس عندما قال : «كل شيء قابل للتفاوض».

لقد أجمع كل الناس على أن المدير الجديد يتمتع بشخصية مستقله. وإلا فكيف يتسنى لهم تحديد شخصية إنسان لا يجلس أبداً فى مكتبه، يستبدل بذلته الفاخرة بملابس العمل البسيطة التى كانت تجعله كأنه واحد من عمال المصنع، حتى يستطيع أن يشارك بنفسه فى جميع مراحل التصنيع، وفى هذا كان يقول:

«لدى رغبة عارمة أن أتعلم التصنيع فى جميع مراحله. أهذا أمر سيئ؟» هكذا كان يسأل شركاءه بالعمل، ولكن الأمر لم يكن يتوقف على مجرد الكلام. إذا أراد أن يخلف والده، فكان لزاماً عليه أن يتبع خطاه فى كل شيء. كان أندونيس يردد دائماً أن صانع الدخان الجيد لابد أن يكون على صلة بالتبغ فى حقوله، بالطبع كان هذا مجرد كلام، خاصة بالنسبة لمصر، حيث لم تكن هناك زراعة للدخان، لكن ذلك كان يعنى أن مسئوليته تبدأ قبل أن يتم وضع بضاعته فى مخازنها. كان كوستيس يتذكر قلق والده فى كل مرة يتسلم فيها شحنة من التبغ. كان يراجع مراراً وتكراراً العلامة التجارية للمورد، الكمية، المنشأ، الجودة، المنتج، حتى تعبئة التبغ بالقدر الكافى فى السجائر. وإذا ما تصادف، وكان التبغ أقل من الكمية المطلوبة فى كل سيجارة فالويل للجميع، وفى ذلك كان دائماً ما يقول:

«التبغ هو الذى يصنع السيجارة، أما بقية الأمور الأخرى: مثل ورق السجائر والسائل اللزج والنكهة، فجميعها ليست سوى عوامل مساعدة لإعطاء المدخن الإحساس بالمتعة». كان هذا الخليط هو الشغل الشاغل بالنسبة لهم! ولذلك كانوا يقومون بفحص دورى للجودة، كما كانوا يتعاملون مع أكثر من مورد بغرض الوصول إلى أفضل عناصر تلك الجودة. وفى النهاية كان يتذمر من ذلك المخزون الضخم الموجود فى مخازنه فى حين كان يعلم أنه لا يوجد مفر من ذلك.

الآن أصبح على كوستيس الاهتمام بكل شيء بنفسه، طالما تمكن من توفير أنواع التبغ المختلفة مثل: باسما، سامبسوندوس، كامبا كولاك، ميروزاتا زميرني، وهي أنواع التبغ التي تصل من غرب مقدونيا وطراقيا وتركيا. كان عليه أن يحل محل والده في تعاقداته الموثقة التي أقامها بينه وبين مورديه. وعندما يضمن توفر أنواع التبغ المختلفة بالكمية والجودة المطلوبتين، كان عليه أن يتعلم كيف يمزج بينهما. في تلك المرحلة التي كانت تسبق وضع اللمسات الأخيرة في تصنيع السجائر. لكنه لم يكن يقف عند هذا الحد، فقد كان ينشغل حتى بماكينات التصنيع الآلي. كانت صيانة وتشغيل ماكينات تقطيع وتصنيع السجائر تمثل قطاعًا كاملاً كان والده يتجنب الانشغال به باستمرار. ولذلك لم يكن من الصعب أن يكتشف كوستيس قلة إنتاجية ماكينتين على الأقل بسبب الإهمال في صيانتها. كما اكتشف أيضًا أن قطع الغيار التي يقوم المهندس إيرنيستوس كالكانيس بتركيبها بمساعدة اثنين من المهندسين بالمصنع كانت قديمة ومتآكلة، عندئذ قام في اليوم التالي باستدعاء المهندس الإيطالي صديق والده، وأبلغه بإنهاء التعامل معه. وفي الوقت ذاته قام بمقاضاته بسبب الخسائر التي تسبب فيها للمصنع وعدم قيامه باعتباره مهندسًا بأداء عمله على أكمل وجه، كما قام بفصل المهندسين الآخرين. كان لهذا التصرف تأثيره القوي على السوق وربما كانت المرة الأولى التي يعترف فيها البعض بمدى جدية هذا الشاب العابث.

كان في كل لقاءاته مع رجال صناعة دخان آخرين، ومع أعضاء من الحكومة المصرية يبحث عن حلول للمشكلات التي تواجهها صناعة الدخان الراسخة بمصر، كما كان يبحث أيضًا عن علاقات وثيقة مع مصانع جديدة بالخارج، وعن تثبيت عمالقة صناعة الدخان الأمريكيين في مصر. إلا أنهم أعلنوا جميعًا عن فشلهم في إيجاد حل لتلك المشكلات. وعلى العكس منهم جميعًا، كان كوستيس متفائلاً بمستقبل المشروعات اليونانية، يكفي أن لا تقع حرب أخرى في أوربا، كما كان إلياس خوري يتوقع. في تلك الأثناء، كان العمال يمارسون ضغوطًا كبيرة من أجل توفير مناخ آدمي أفضل للعمل، وكان كوستيس هو أول من طالب اتحاد صناعة الدخان بالدخول في حوار مع نقابة العمال.

«لقد بلغنى، يا سيد خاراميس، أنه كانت لك علاقات قوية بالشيوعيين فى أوربا»
قال ذلك أحد أصحاب مصانع الدخان، ثم استطرد قائلاً: «وبصفتى صديقًا قديمًا لوالدك، ينبغى علىَّ أن أخبرك بالتالى: هنا تستطيع أن تتعامل مع" البيزنيس الحقيقى"(قالها بالإنجليزية). فالأمر يتسم بالجدية».

كوستيس:«سيدى الفاضل، علاقتى بالشيوعيين، كما تقولون، علمتنى أن هناك فارقًا بين كونك لينًا فى المفاوضات مع العمال أو أن تركب رأسك بغباء!».

كانت شئون الشركة الداخلية موضوعًا للنقاش فى "مجلس يوم الجمعة "، تلك الهيئة التى بدأت منذ الأسبوع الثانى فى تولى مهامها الجديدة. أما الماركتان الجديدتان اللتان دفع بهما والده إلى الأسوق الداخلية وإلى السوق الأوربية وهما " كليو إكسترا " و " أليكس سبيسيال "، فكانت لهما أهمية كبرى فى رفع شأن الشركة. وعلى الرغم من اتباع أندونيس لسياسة تقشفية فى كيفية دفع وعرض المنتجات الجديدة – مع تأكيدة على الجودة – كان كوستيس، على العكس من ذلك، فقد بدأ حملة إعلانية كبيرة فى الصحف والشوارع، معتبراً أن سلاحه الإعلانى الفاعل يكمن فى المعارض الدولية، التى كان والده يشجعها أيضًا. وكان كوستيس يعد العدة جيداً لكى يصبح حضوره قويًا فى معرض مدينة ثيسالونيكى الدولى فى السنوات القادمة، وأيضًا فى المعارض التى تقام فى كيب تاون وفى لندن وفى فيلادلفيا. فى نفس الوقت، كان يعتبر أنه من المهم أن يظهر باعتباره مورداً رئيسيًا للبيوت الملكية بأوربا. وبالنسبة للاتفاقيات الأخرى، فقد بدا وكأنه عاد إلى فترة ما قبل عام ١٩٢٠، حيث أنهى الاتفاقيات التى كان والده قد بدأها مع رجال صناعة الدخان اليونانيين – المصريين فى هامبورج، فى نفس اللحظة التى كان يستعد فيها لتوقيع اتفاق جديد مع سلاح البحرية الإنجليزية. ولهذا الغرض قام بالإعلان عن شراء وتركيب ماكينات جديدة لتقطيع ولف السجائر. كما قام بافتتاح منافذ جديدة للبيع القطاعى فى جميع أنحاء المدن الكبيرة بمصر تقريبًا؛ ولكى يواجه تلك المنافسة الشرسة قام بفرض وجود إعلان دائم عن منتجات مصنعه لدى تجار القطاعى. ولأنه أدرك صعوبة أن يتولى شخص بمفرده الإشراف

على كل تلك الأمور. فقد حرص على تعيين أشخاص آخرين محل ثقة مطلقة، إلى جانب أندرياس سيستانيس؛ وبعد أسابيع قليلة استقبل في الإسكندرية رفاقه القدامى بباريس: برندراك إيفيتس وميسا فوروبانوف. وكان الصربي صاحب الماضي القديم في ثيسالونيكي هو الأنسب للقيام بالسفر إلى كل من مقدونيا وطراقيا لإجراء المفاوضات الخاصة بشراء التبغ. وخلال فترة زمنية قصيرة أصبح الضابط الروسي مصدراً للخوف والرعب في المصنع، حيث عينه كوستيس مشرفًا على العمال، فكان يتعامل معهم بقسوة، ووضع نظامًا صارمًا لحضور العمال إلى المصنع كل صباح، كما كان صارمًا في نظام العمل. ويبدو أن اختفاء أندونيس المفاجئ كان قد تسبب في حدوث جو من التراخي في المصنع. ولذلك كان البعض في حاجة إلى الشدة، ولم يكن هناك من هو أنسب من ميسا للقيام بهذه المهمة. كان ميسكليه الباريسي يقف في الفناء المكشوف، معترضًا بأكتافه العريضة العمال المتأخرين ويعوقهم عن المرور، مما كان يضطرهم للعودة إلى منازلهم والحضور في اليوم التالي. كما كان الانقطاع بلا سبب عن العمل لمدة ثلاثة أيام يعني الفصل النهائي، طبقا لقانون العمل لعام ١٩٢٠، بعد كل هذا، من كانت لديه الجرأة على التأخير مرة أخرى.

في تلك الأثناء لم تكن الأنباء الواردة من ألمانيا تحمل أخباراً سعيدة ؛ فقد أكد صعود هتلر للسلطة مخاوف كوستيس، الذي أرسل بدوره تلغرافًا إلى كارل يطلب فيه حضوره إلى الإسكندرية. ولكن يبدو أن هذا الشيوعي الألماني كان مؤمنًا بأنه ومن يشبهونه هم الوحيدون القادرون على اقتلاع النازية من جذورها، ولذلك فقد قابل دعوة كوستيس بالرفض، وكتب له قائلاً: «ألا تخشى أن أتسبب في قيام العمال بثورة ضدك، يا عزيزي الرأسمالي؟».

عادت عائلة خاراميس مرة أخرى لتصبح مادة للحديث في حفلات الشاي وحفلات الاستقبال الخاصة بالجالية اليونانية والجاليات الشرقية الكبرى، ولكن في هذه المرة كانت الفضيحة تخص "رب الأسرة " (قالها باللاتينية) نفسه، ذلك الرجل العظيم الذي انهار لرؤية ابنه غير الشرعي، الذي كان قد ألقاه في الزقازيق. كان باستطاعة

كوستيس أن يتخيل خيوط المناقشات الدائرة حول تلك الفضيحة. فالسيدات كن يخفين وجوههن وتحمر وجناتهن لمجرد سماع تلك الفضيحة، أما الرجال المسنون الذين يضعون عيونًا زجاجية، صلع الرؤوس، فكانوا يهزون رؤوسهم بامتعاض؛ نفوس حاقدة لم تكن لتصبح راضية إلا بعد دمار أسرة خاراميس دمارًا كاملاً. ومن بينهم من تناول طعامه على مائدة العائلة مرات ومرات، لكنهم سارعوا بالابتعاد عن اسم خاراميس، الذى ارتبط بابن شاذ جنسيًا وأم من لصوص الآثار، وأب ختم أفعالهم بتلك القصة المفزعة عن ابنه غير الشرعى. حتى كوستيس لم ينج من شرهم، فلديهم العديد من القصص المحزنة التى تخصه: فقد تورط فى البداية مع امرأة قبطية فى جريمة زنا بشعة، وكان على وشك إثارة الأقباط ضد الأجانب، الذين لم يكفهم أن يسرقوا ثروات أرضهم، لكنهم أرادوا أيضًا أن يسرقوا نساءهم. ثم انغمس فى ملذات عواصم المدن الأوربية قرابة ثلاثة عشر عامًا وهو يبعثر ثروة والده. حتى لو غفروا له كل ذلك، فكيف يستطيعون أن يغفروا له عودته إلى مدينتهم ثم تحوله فجأة بعد كل هذا الماضى المخزى إلى منقذ ثروة آل خاراميس، فهل يستطيع أن يلعب دور أبيه أمام منافسيه؟ ولكن يبدو أن هذا الشاب غريب الأطوار ذا الطابع المغرور والزوجة المتميزة، التى كانت تبدو جميلة حتى فى حملها، قد عاد ليقود دفة عائلة خاراميس بمصانعها الكبرى لصناعة الدخان فى مصر إلى بر الأمان. وكان الشىء الوحيد الذى يستطيع أن يفعله هو: أن يستبدل بذلته بملابس العمال ثم يتجول داخل المصنع وهو يردد جملته السحرية: «كل شىء قابل للتفاوض».

لقد أصبحت تلك الجملة هى العبارة المتكررة، والشعار الأجوف المثير للسخرية بين الدوائر الأرستقراطية. كان الاعتقاد السائد بين رجال الأعمال بالمدينة، أن الابن المدلل لخاراميس لم يكن يعرف الفرق بين التبغ والدخان. كان شعور كوستيس بالخوف يدفعه كل ليلة، بعد يوم عمل شاق، إلى التوجه إلى غرفة والده فى مستشفى سان سوفرونيوس، والحديث إلى إنسانٍ غائب عن الوعى لم يكن لديه أى اتصال بمن حوله، لكن كوستيس كان يحدثه عما جرى من أحداث طوال اليوم، وكأنه ناقد محترف.

لقد سمح الأطباء بحدوث مثل هذه الكوميديا لاعتقادهم أن هذه الطريقة ربما تساعد المريض على العودة إلى وعيه مرة أخرى. وكانت ابتسامة الرضا المرسومة على شفتى أندونيس تمنحهم الدافع ليكون لديهم أمل. وفى تقريره اليومى لم يكن كوستيس يترك أدق التفصيلات حتى السيئ منها لإبلاغ والده بها. وفى إطار هذا الحوار الذى يتخيله، كان الابن فى كثير من الأحيان يصيغ بداخله اعتراضات أبيه، ثم يبدأ فيما بعد فى وضع الحلول التى كان سيصل إليها. ولأنه كان يرفع أحيانًا من حدة صوته أكثر من المسموح به دون أن يدرى، كانت المرضة الموجودة داخل الغرفة بصفة دائمة تنبهه لذلك.

وبعد شهر كامل عاد أندونيس خاراميس إلى منزله، لكن أصبح مشلولاً، بفم معوج، ذلك الذى كان لسنوات طويلة رمزًا للسلطة والتجبر، ولم يعد يخرج من هذا الفم سوى كلمات متلعثمة غير مفهومة. لقد أصبح أعظم رجل يونانى لصناعة الدخان فى مصر حبيسًا فى حديقة منزله، قعيدًا على كرسى متحرك، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة بلهاء، يمسك فى يده مضربًا للذباب. كان أندونيس ينتظر ابنه كل يوم بعد عودته من المصنع ليقدم له تقريرًا مفصلاً عما حدث طوال اليوم. وبقدر ما كان البعض يشعر تجاهه بالشفقة فإنهم كانوا يدركون أن أبسط الأشياء كانت تسعده، كأن ينفث أحدهم بدخان السجائر فى وجهه.

لكن حتى ذلك لم يجعل الحاقدين عليه يشعرون بنوع من الراحة، فقد سبب صعود نجم كوستيس فى تحطيم قلب يورغوس يورغاس، الذى كان يعتقد بعد انهيار أندونيس أنه قد نجح فى هدفه بطريقة لم يكن يحلم بها. أما بالنسبة لفانيس كوستاراس فعلى الرغم من أنه كان يشعر بالإحباط، فإنه وصل إلى الإسكندرية تحدوه أحلام كبيرة، ولكن يبدو أن الحظ لم يكن حليفه لتحقيقها. فمن ناحية، فقد أصاب أندونيس ما أصابه وانتهى الأمر، ومن ناحية أخرى، فقد أثبت ابنه الذكى، الذى كان يورغوس يطلق عليه "عديم الفائدة" و"المبذر"، أنه قادر بشكل كبير على إدارة الأزمة حتى دانت له اليد العليا.

«ربما لم يكن من الأفضل أن أترك الزقازيق» هكذا كان فانيس يردد دائمًا، فما زال يشعر بالضياع فى تلك المدينة الغريبة، ولم يحصل بعد على تلك المكاسب التى أخبره بها المحاسب السابق. لو أن أندونيس خاراميس هو والده بالفعل، وهو ما يؤكده ذلك التشابه الشديد بينهما، فإن الشيء الوحيد الذى يمكن أن يسعى للحصول عليه هو ثروة أبيه فقط. " ما الذى يمكن أن تطلبه غير ذلك من رجل ألقى بك بعيدًا عنه طوال تلك السنوات ولم يهتم أبدًا بمعرفة كيف حالك، وكيف تعيش، وإذا ما كانت أحوالك تسير على ما يرام؟ وبعد ذلك يمتلك الأغنياء القوة والوسائل للتخلص منك بالحسنى أو بالقوة، إذا استلزم الأمر. لم يكن فانيس على يقين من خطورة حالة الرجل العجوز. كان من الممكن أن يظل فى المستشفى حتى يثبت تلك الفضيحة، ولكنه ترك ابنه المجتهد ليجد حلاً لهذه الفضيحة بطريقته. هذا بالنسبة لأبيه المزعوم، أما بالنسبة لأمه الحقيقية، فالوضع لم يكن أفضل: مخلوقة لا يعرفها، عديمة الأخلاق تدعى لورنا، مرت ذات يوم من مصر مثل النجم فى السماء، ثم فرت بعيدًا حتى لا تتحمل مسئولية تربيته، وهى بلا شك تعيش اليوم مختبئة كالفأر العجوز فى أحد أحياء إيطاليا الفقيرة، تعيش مع الخوف من الموت الذى قد ينقذها مما هى فيه ".

بتلك الأفكار التى من الممكن أن ترد بخاطر أى إنسان عاقل، كان كوستاراس يستعد للتخلى عن كل شيء والعودة مرة أخرى إلى الزقازيق حتى ظهر على مسرح الأحداث شخص يعرفه جيدًا منذ زمن بعيد، إنه ميخيليس ستراتيس، الذى تنتابه هو الآخر رغبة عارمة فى الانتقام من أندونيس خاراميس، فتولى بنفسه خطة القضاء عليه. لقد تسبب السجن فى تحجر مشاعر المحامى اليونانى الذى ينحدر من جزيرة ميتيلينى، بل وقضى على أية لمحة إبداعية أو إنسانية فيه، تاركة له إحساسًا بالمرارة وبالرغبة فى تدمير الآخرين. لم يعد لديه اهتمام بالعودة للحياة الاجتماعية أو العملية، ولم تعد تعنيه أية مكاسب مادية جديدة، فقد كسب بالفعل الكثير من المال. كان كل ما يشغل تلك الرأس العريضة ذات الشعر الخفيف، وتلك النظرة البائسة التى تختفى داخل أكواب الشراب، هو إسقاط الآخرين. وكلما كانوا يقفون فى مكانٍ عالٍ كلما كان

سقوطهم مروعًا. وفى حالة أندونيس خاراميس كان لديه سبب إضافى للقضاء عليه، ولم يكن ينقصه المال لتنفيذ هذا المخطط. فقد بدأ بإعداد شقة فى الأزاريطة لإقامة فانيس كوستاراس، ثم ظهوره معه فى أنحاء كثيرة بالإسكندرية، مقدمًا إياه بالطبع على أنه ابن أندونيس خاراميس. كان يمر كل يوم تقريبًا من مطعم " أثينايوس" ومقهى "ديليس" و"باستروذيس"، ولم يفتهما أن يظهرا فى مطعم (thes dansants) وفى "جراند تريانون" وفى سبورتنج كلوب وفى النادى اليونانى للبحرية. كانا يذهبان كل مساء تقريبًا إلى الكباريه المعروف: "إكسيلسيور" الذى يقع فى الميناء الشرقية، بعد أن يكونا قد مرا فى البداية بكباريه "بيللا فيستا " الواقع على الكورنيش و"مونسييه" الذى اشتهر بفرقة الرقص البرازيلية. هكذا بدأ فانيس أخيرًا فى تذوق طعم حياة الرفاهية التى كان على وشك أن يحصل عليها من حقه الطبيعى فى ثروة أبيه، على الأقل هذا ما كان يعتقده، لكن حارسه الأمين كان له رأى آخر. لم يكن ميخيليس يبحث عن توفيق أوضاعه مع عائلة خاراميس وإرضاء كوستاراس، ولكن كان يبحث بطريقته عن الوسيلة التى تتم من خلالها هذه المواجهة القديمة، تلك المواجهة التى ستمكنه رويدًا رويدًا من تدمير العائلة. كان سقوط أندونيس يثبت أن كل شىء من الممكن أن يتحقق بالفعل، فقط إذا لم يتمكن كوستيس من إدراك نيَّاته.

* * * * *

فى اليوم الذى مر فيه فانيس كوستاراس من باب المصنع، مرحبًا به من قبل أخيه غير الشقيق، أطل كل العاملين بالمصنع من النوافذ وتطلعوا منبهرين وهم يظنون أنهم ينظرون إلى أندونيس خاراميس وهو يعبر الفناء بعد أن عاد به الزمن ثلاثين عامًا للوراء. بدأ العاملون المصريون، المأخوذون بذلك السحر والغموض، يتضرعون إلى "الله" لكى يمدهم بتفسير لتلك المعجزة. فى تلك الأثناء، كان فانيس قد وصل بالفعل إلى باب مكتب المدير، وكادت جوليا أن تصاب بانهيار عصبى بعد أن شاهدته، وعندما لاحظ كوستيس ردة فعلها خرج بنفسه لاستقباله.

«مرحبًا بك» قال ذلك كوستيس فرد عليه فانيس التحية، ولم يكن يتوقع مثل هذا الاستقبال الحار. كان فانيس فى حيرة من أمره، وقد أحس برغبة شديدة فى أن يعود أدراجه مرة أخرى.

«هيا، لماذا توقفت؟ أظنك لا تنتظر أن نتحدث ونحن وقوف عند الباب» هكذا تحدث كوستيس ثم أشار إليه بالجلوس. بعد ذلك، طلب من فوليا أن تعد لهما الشاى والفطائر، وعندما همت بإغلاق الباب، أصدر لها أمرًا بأن لا يزعجهما أحد، ثم دار بينهما هذا الحوار:

كوستيس: «والآن ها نحن الاثنان بمفردنا، يا فانيس، أنا أحدثك بلهجة بسيطة لأنى مضطر أن أعتبرك فردًا من العائلة، على الأقل بدرجة ما».

فانيس: «هذا ما ينبغى أن يكون عليه الأمر، يا كوستيس، سواء رغبنا فى ذلك أم لم نرغب، فنحن فى النهاية إخوة».

كوستيس: «هكذا تقريبًا» أبدى كوستيس هذه الملاحظة، تاركًا احتمالاً ولو صغيرًا لوجود خطأ، ثم استطرد قائلاً: «الآن وأنا أراك أمامى أشعر بالغيرة منك بعض الشىء، لأنى أصبحت الآن على يقين من أنك، كما يقولون، صورة طبق الأصل من والدى».

فانيس: «نعم، الحقيقة هى أنى أشبهه بالفعل».

كوستيس: «وهذا يجعل الأمور أكثر سهولة، لأنى بذلك أصبحت متأكدًا من أننى لم أقترف خطأ بالاقتراب منك، تفضل سيجارة ؛ أتعرف، هذه هى علبة سجائر أبى المفضلة».

اكتفى فانيس برفع حاجبيه مبديًا انطباعه. ولم يكد يأخذ السيجارة حتى أغلق كوستيس العلبة بعنف، وكأنه كان يريد أن يغلقها مطبقًا على أصابع يده.

كوستيس: «حسنًا، يا فانيس، الأمور بمنتهى السهولة. أنا أدرك مدى لهفتك لحصولك على حقوقك التى تؤول إليك بسبب نسبك لمؤسس هذا المصنع.

ومن الطبيعى جداً أن تشعر بكل هذا الظلم والتجاهل. لكن هذا لا يعنى على أية حال أن من الممكن أن تحصل على ما تستحقه من حقوق فى الحال، أليس كذلك؟».

فـانيـــس: «فلنقل إنه كذلك، ثم ماذا؟» هكذا سأله فانيس ثم انحنى تجاه القداحة المشتعلة التى قدمها ناحيته كوستيس.

نهض كوستيس من مقعده، واتجه ناحية فانيس، وربت على كتفه، وأشار إلى مقعد المدير وسأله:

«حسنًا، ما رأيك أن ترى العالم لبعض الوقت من هذا المكان. اجلس وأخبرنى. هل أنت مستعد لتتولى إدارة المصنع من هذه اللحظة؟ لو كانت الإجابة نعم، فأنا مستعد أن أترك لك المكان فوراً».

نهض فانيس بثقة واتجه إلى مقعد المدير، لكنه توقف فى اللحظة الأخيرة، ثم استدار تجاه كوستيس وقال:

«ما هذا المزاح؟».

كوستيس: «إننا لا نمزح فى مثل هذه المسائل، أؤكد لك ذلك» أجابه كوستيس ثم أشعل سيجارة لنفسه.

فـانيـــس: «على أية حال الأمر ليس هينًا. ما أريد قوله إنه لا يوجد من يستطيع أن يتولى هذا المنصب الكبير دون سابق خبرة».

- «أنا سعيد لتفهمك ذلك، يا أخى». قال ذلك كوستيس معقبًا وهو ينفخ دخان سيجارته بثقة، ثم استطرد قائلاً: «وبالطبع أعلم أنك تتألم لحال المصنع، وأنا على يقين من ذلك، وإلا ستكون أحمقًا. لأن هذا المصنع فقط هو الذى سيمنحك كل ما تهفو إليه».

- «ليست النقود هى كل شىء فقط، يا كوستيس» قال ذلك فانيس متبرمًا.

- «بالتأكيد، بالتأكيد (قالها بالفرنسية)، إلا أن النقود تعد عنصراً أساسياً، لابد أن تعترف بذلك. فلنفترض إذن أنك قد حصلت عليها فى هذه اللحظة على الأقل ما الذى سيعود عليك وفقًا لما تراه فى مصلحتك».

- «أعرف جيداً ما هى مصلحتى فى ذلك».

- «بالطبع أنت تعرف مصلحتك، وإلا لم تكن لتترك هذين الكلبين الهائجين يلعبان لعبتهما على حسابك».

- «أتعنى يورغوس وميخيليس؟».

- «وهل هناك أحد آخر؟».

- «إنهما ليسا بكلبين هائجين» قالها فانيس بهدوء ثم ابتسم، ربما لأنه وجد أن لهجة كوستيس بها شىء من المبالغة، ثم استطرد قائلاً: «إنهما من أصدقائى، كما كانا صديقين لعائلتك فى يوم من الأيام».

- «هل هذا ما تعتقده حقًا؟ إذن دعنى أخبرك أن كل ما يريدانه ويسعيان إليه هو الانتقام من والدنا، لأنه زج بهما فى السجن دون أن يتأكدا إن كان معه حق فى ذلك أم لا. لكن لتكن على يقين إذن من أنهما لن يترددا فى التضحية بك من أجل أن يحققا غرضهما».

خرجت زفرة غضب شديدة من كوستيس، مما أدى إلى اضطراب صوته الرخيم وجعلته يبدو محتداً بطريقة يشوبها الانزعاج.

وفى نظرة فانيس الراعدة إليه، رأى كوستيس نفس تلك النظرة الساخرة التى كان يراها فى عينى والده فى مواقف مشابهة. ثم استكمل كوستيس حواره بنفس القوة قائلاً:

«أريدك أن تفهم أن مصلحتنا واحدة. لابد أن تفكر أيضاً إذا ما كانت لديك الرغبة فى الاهتمام بالمصنع، لكن انتبه جيداً، لأن هذا يعنى أن تقوم بالدراسة لعدة سنوات

فى أوربا، ثم التدريب لفترة فى المصنع حتى يثق بك كل من يتعامل معنا، وفى نفس الوقت لكى يكون لك اعتبارك لدى منافسينا. لكن هناك حلاً أكثر سهولة، دون أن تتنازل عن حقوقك».

- «بما يعنى؟»

- «بما يعنى أنك من الممكن أن تحصل كل فترة زمنية محددة على مبلغ من المال يسمح لك أن تحيا حياة كريمة، بدون مشاكل أو إزعاج، شريطة أن تذهب لتعيش فى مكانٍ بعيد وتحيا الحياة التى تريدها. دون ضوضاء، أو فضائح يمكن أن يستفيد منها منافسونا».

- «لو أنك مكانى ماذا كنت ستختار؟».

- «أنا، يا صديقى، بعد أن تذوقت بالفعل طعم المسئولية الجميل، صدقنى، كنت سأختار الحل الثانى بعينين مغمضتين».

- «لابد أن أفكر فى الأمر» قالها فانيس مهمْهما، ثم نهض فجأة واقفًا فى مكانه. وكان فنجان الشاى الخاص به فى مكانه دون أن يمس. ألقى عليه التحية ثم أسرع تجاه الباب، وبينما كان يسير خارج حجرة المكتب الواسعة ذات الأثاث الضخم، والسجاد المفروش والنوافذ الواسعة، انتابه شعور بعدم فائدة كل هذا. لم يعد فى وسعه أن يدرك ماذا حدث له. ولو كان قد استدار للخلف فجأة، لرأى كوستيس وهو يفرك يديه، راضيًا عن المسرحية التى قام بأدائها أمامه.

* * * * *

حقيقة لم يكن كوستيس على يقين من انتهاء شتاء عام ١٩٣٢، بالإسكندرية. فعندما تعود بعد كل تلك السنين إلى المدينة التى نشأت وترعرعت بها، فإن أول ما ترغب فيه هو، أن ترى ثانية وعلى الفور كل ما كان ينتظر عودتك: أشخاصًا، أشياء، منازل، شوارع، أماكن، الحياة اليومية. ترغب فى تسجيل كل ما طرأ بها من تغييرات،

ثم تقارنها بما فى ذاكرتك، متمنياً ألا تكون قد وقعت أحداث مهمة أثناء غيابك، حتى لو كانت أسرتك حدثتك فى خطاباتها عن تلك التغيرات العالمية. بهذا فقط يمكنك أن تتسلل مرة أخرى إلى واقع الحياة بمدينتك وتشعر مرة أخرى بنبض الحياة فيها. لكن لم يكن لدى كوستيس هذا النوع من الرفاهية. فمنذ اللحظة الأولى التى وطأت فيها قدماه أرض الإسكندرية، دخل مباشرة فى تلك الحرب التى أعلنت ضد عائلته، ولكى يكون مستعداً لتلك المواجهة، كان عليه أن يتخلى عن كل ما يشغله من تفكير أو نشاط غير ذى فائدة. استطاعت المعارك التى كسبها فى تلك الفترة العصيبة أن تكذب الشائعات التى دارت حوله، فى حرب - بغض النظر عن جوانبها الأخلاقية والإنسانية - كان الدافع الأساسى لها اقتصادياً. لكنه لم يكسبها بسهولة كما قد يتخيل البعض، فلم تكن قليلة تلك الليالى التى جافاه فيها النوم، وهو يغير قراراته فى كل دقيقة بل فى كل لحظة. لم تكن قليلة تلك اللحظات التى شعر فيها بالحاجة للبكاء، والله وحده يعلم كيف تغلب على هذا الشعور واستطاع أن يتماسك. فكثيراً ما كان يحبس أنفاسه، يجز على أسنانه، يضغط على يديه المخضبتين بالعرق، يضع قدماً فوق الأخرى، يشعل سيجارة بينما ما زالت الأخرى مشتعلة أمامه فى منفضدة السجائر، لم يكن هناك من يستوعب كل ما يحدث! كانت أمه فى بعض الأحيان تتخيل معاناته وتقول له حانية:

«عزيزى كوستيس، لن تتحمل كل هذه الضغوط!».

إلا أنه كان يهدئ من روعها ويجيبها بقوله:

«يا أمى، لا تنسى أنى صعلوك الحى اليونانى، وصعلوك مثلى لابد أن يتحمل كل شىء»، يقول ذلك ثم يستدير للناحية الأخرى، حتى لا يراها وهى تهز رأسها بعدم الثقة.

وفى اللحظات النادرة التى كان يستريح فيها، يطير بفكره إلى برلين، حيث استولى النازيون على السلطة، وأيضاً إلى ليالى وأيام باريس الحالمة. وفى نفس الوقت كانت زوجته هايكى تواجه بعض متاعب الحمل التى جعلتها طريحة الفراش، وهو أحد الأسباب التى جعلته يتجنب العلاقات الاجتماعية والظهور فى الأماكن العامة. حيث

كان يعتبر أنه من الخطأ أن يذهب بمفرده إلى حفلات الكوكتيل المسائية أو إلى الحفلات الساهرة، ويجلس وسط النساء اللاتى يرتدين أجمل الثياب ويضعن أزكى العطور، وأن يصبح حبيساً لبذلة السهرات الرسمية، فى جو يبدو فيه وكأنه يخضع للاستجواب من خلال تلك الأسئلة الفضولية والتعليقات السخيفة التى تطرحها الأسئلة التافهة والنظرات التى تحمل الكثير من السخرية. فى هذه المرحلة، كان عليه أن يبتعد عن دائرة المهتمين به باعتباره جنتلمان، وأن يحرم نفسه من المتعة التى قد يحصل عليها من لعب مباراة للتنس فى سبورتنج كلوب، أو من ممارسة التجديف فى الميناء الغربية أو فى قضاء عطلة نهاية الأسبوع فى بحيرة المريوطية من أجل صيد البط. كان عليه أن يؤجل كل الرحلات العائلية التى كانوا يقومون بها إلى ضواحى الإسكندرية، وأن يمنع نفسه من قضاء أمسية هادئة بالنادى اليونانى، حيث يستطيع أى شخص أن يقضى وقته فى احتساء ما يتخيره من المشروبات، بينما يتناقش مع الآخرين فى موضوعات تخص العمل أو فى السياسة، كما كان عليه أن لا يهتم بالاستمتاع بالأمسيات الموسيقية التى تقدم فى منازل اليونانيين الأثرياء وعلية القوم بالمدينة، أو بالعروض المسائية بالمسرح أو بالأوبرا أو بالسينما أيضاً، مثلما هى الحال بالنسبة لحفلات التعارف التى قد يدعى إليها. لا، لم يكن هناك وقت لكل ذلك، فى حين كانت فضيحة فانيس كوستاراس ومرض والده الخطير ما زالتا هما الشغل الشاغل لأهل الإسكندرية.

كانت العزلة والسرية هما الطريقة الوحيدة التى تمكنه من تجنب المقابلات غير المرغوب فيها التى كان من الممكن أن تهز بعنف ذلك التوازن النفسى الذى حققه بصعوبة. كان يتجنب السير فى شوارع المدينة، ويفضل عليه ذلك الأمان الذى كان يشعر به وهو جالس فى المقعد الخلفى للسيارة، إلا أنه كان يفضل فى الوقت نفسه الانغماس فى قراءة الصحف، حتى يستطيع التعرف على ما يجرى فى العالم من أحداث: فى ألمانيا قام النازيون بفتح معسكرات مجمعة لمعارضيهم وقاموا بحرق كل الكتب الممنوعة، فى الوقت الذى هجرت فيه الأفكار التقدمية البلد، فى حين أصبح الرايخ الثالث هو المحرقة التى تغذى هذه النار. أخذ يتساءل عن رأى ماخوس فى كل

ما يدور، كما بدأ يشعر بالقلق الشديد تجاه كارل. فى مدينة فارس، العاصمة القديمة للفرس، اكتشف الأثريون قصر الملكين الفارسين كسيركسيس وداريوس، ها هو خبر سيحظى باهتمام أمه. فى الاتحاد السوفييتى زاد ستالين من تشدد موقفه، وفى الشرق الأقصى نشرت اليابان تطلعاتها الإمبريالية على حساب الصين ؛ وفى الولايات المتحدة حاول شخص يدعى جوزيبى زينجارا اغتيال الرئيس روزفلت أثناء زيارته لليونان، من قبل حركة التحرير التى كانت تساند فينيزيلوس. حتى فى الإسكندرية، قرأ كوستيس فى جريدة " تاخيذروموس"(أى ساعى البريد) التعليقات المقتضبة على موت قنسطنطينوس كفافيس، شاعر الإسكندرية العجوز لكن لماذا عجوز؟ ولماذا يدعى بشاعر المدينة؟ لم يعجبه هذا العنوان، هل تغير إلى هذا الحد موقف أهل الإسكندرية تجاهه؟ وهنا تذكر كوستيس بوضوح موقفًا حدث بإحدى الحفلات الساهرة عام ١٩١٨، حيث أحاطت بعض سيدات الطبقة الراقية بالشاعر كفافيس بهدف السخرية منه، حتى وصل الأمر لقول إحداهن: «يا سيد كفافيس، ألن تجلس جانبًا لتكتب لنا إحدى قصائدك؟».

هكذا إذن، من سخرية الدوائر الاجتماعية، وصلنا الآن إلى اللقب الرنان "شاعر المدينة " هذا ما يحدث الآن وهذا ما سيظل عالقًا بالذاكرة. وكان قد سمع أخيرًا أنه يرقد فى المستشفى اليونانى فى حالة حرجة. مات كفافيس فجر يوم السبت التاسع والعشرين من شهر أبريل، ودفن فى مساء نفس اليوم. طيَّب الله ثراه. عندئذ أخرج كوستيس من محفظته حفنة من الأوراق تتضمن بعض الرسائل الخاصة بكفافيس وقرأ منها:

سأذهب لأرضٍ أخرى سأذهب لبحرٍ آخر......

"الموت فقط هو الذى سيحررنا من هذه المدينة، أنت يا من تحمل نفس اسمى"، هذا ما جال بخاطر كوستيس.

فى كل الأحوال، لم تكن تلك الحياة الرهبانية لتستمر إلى الأبد. فقد أضاع عمرًا بأكمله فى الإسكندرية: فى الكرنفالات وفى الحفلات التنكرية وفى الرحلات الجماعية يوم عيد القيامة، فى احتفالات الجالية اليونانية فى الخامس والعشرين من شهر مارس.

أما الأسبوع الكبير الذى يسبق عيد القيامة فكان يفضل أن يتردد بين كنيسة القديس أنارغيروس وبين أبى قير، غريبًا بين غرباء. أما بالنسبة للأول من شهر مايو، فكان يكتفى بشراء إكليل من الزهور من أحد الباعة المصريين الذى كان ينادى على بضاعته بخليطٍ من اللغتين العربية واليونانية قائلاً:

«الـ... ستيفانيا، بتاع الـ.. كالا خرونيا (أى إكليل السنة السعيدة)».

أوشكت هايكى فى هذه الأيام على وضع مولودها وقد بث انتظارهم لهذا المولود شعورًا بالتفاؤل كانت العائلة كلها بحاجة إليه. وقبل الحادث السعيد بأيام قليلة، تجول كوستيس فى صباح أحد الأيام فى حجرة مكتبه، ووقف أمام إحدى النافذتين الموجودتين بالمكتب. وكان قد استيقظ وهو يشعر بانقباض فى حلقه وأنفه، وعندما تطلع إلى الأفق المعتم، توقع ما الذى يمكن أن يحدث، ولذلك فقد أسرع بالتوجه إلى المصنع، والدخول إلى مكتبه. فى تلك الأثناء، كانت السماء قد بدأت فى الغيوم كحاجب العين المعتم الذى يفتح ويغلق بشكلٍ مخيف. كانت الرياح التى تعصف بعض الأحيان والأمطار الخفيفة التى تسقط دلائل لا شك فيها على حالة الجو. اختفت المدينة كلها وأغلق الناس عليهم أبوابهم انتظارًا لرياح "الخماسين". كانت المراكب التى تبحر فى ترعة المحمودية وكأنها مراكب خيالية يقودها أشباح ملثمون. لم يكن هناك من يجرؤ على السخرية من قوة العواصف الرملية التى كانت ترسلها الصحراء الغاضبة على الناس فى المدن. وحيثما حاولت الاختباء، فلم يكن بوسعك النجاة من ذرات الرمال الدقيقة التى كانت تتسلل إلى كل مكان، إلى النوافذ والأثاث، إلى أدوات الطعام، إلى الشعر والشفاه، إلى الجفون. كانت تلك الذرات من الرمال التى تشبه البودره تغطى الريشة المستخدمة فى الكتابة، وتفسد كوالين الأبواب، وتغطى أوراق الكتابة. كان كوستيس يصاب بالذعر فى كل مرة يشعر فيها بازدياد حدة الرياح وهى تهاجم الأبواب والنوافذ المغلقة، وكان قد ابتعد لسنوات طويلة عن التعرض لرياح الخماسين، قام بالاتصال بالمنزل للاطمئنان على هايكى. فأجابته أمه بضيق قائلة: «دعنا فى حالنا، يا كوستيس "إنك تصعب علينا الأمور" (قالتها بالفرنسية)، إنها ليست نهاية العالم».

وكـأن ذلك لم يكن كافـيًـا، فـفى اليـوم التـالى جـاءه نبـأ حـزين: فـقد مـات الخـال ثاناسـيس فجـأة بسـبب أزمـة قلبـية. مـا هذا الذى يحـدث؟ وكان ثاناسـيس يعـانى فى السنوات الأخـيرة من مـرض السكر ومن المرابين. لقـد أصـبح مـحل البـقالة فـى حـوزة أشخـاص آخرين. ومنذ عامين اضطروا إلى بتر قدمه اليسرى لإنقاذ حياته. لم يتخيل كوستيس أنهم سيفقدونه بهذه السرعة، لذلك كان دائمًا ما يؤجل وعده بزيارته فى منزله بباب سيدرا، ربما لأنه كان يكره فكرة أن يراه قعيدًا، إلا أن هذه الحجة لم تكن بالقوة التى تجعله يخلف وعده. بأى وجه سيواجه الآن الخالة ماريا وأبناء خاله؟ حتى ذافنى كانت قد عنفته بقولها: «لماذا، يا بنى، لم تذهب ولو لمرة واحده لتراه؟ لقد اقترفت ذنبًا عظيمًا!». لكنه فى الوقت نفسـه لم تحضـر جنازته. حيث قررت البقـاء إلى جانب زوجة ابنها، بينما ظهر كوستيس بمفرده فى المقابر اليونانية بالشاطبى.

لم يكن ظـهـوره الأول أمـام النـاس إذن فـى حـفلة من الحـفـلات أو فـى إحـدى الأمسيات الراقصة، ولكن فى الجنازة الفقيرة لخاله ثاناسيس، تلك الجنازة التى اجتمع فيها عدد قليل من الناس. فيبدو أن مجريات الأحداث فى الأعوام الأخيرة تسببت فى إفسـاد سمـعتـه بشكلٍ لا يقـبل التـغـييـر. لم ترسل "رابطة الأحـرار بالإسكندرية" باقة زهور، أو حتى " جـمـعية إيسـخيلوس- أريون "، وفعل ذلك " اتحـاد سبـاقات الخـيول" بالإسكندرية. كان لزامًا على كوستيس أن يكون حاضرًا. اقترب من الخالة ماريا وقال لها فى حزن وأسى: «سـامحينى، يا خالتى، لم أكن أعرف أن حـالة خـالى بهذا السوء، ولم يتسن لى....». عندئذ وضـعت الخالة ماريا يدها النحيلة المرتعشة على فمه ومسحت بيدها الأخرى على شعره مسحة حانية، وقالت: «لا تثقل على نفسك، يا بنى! يكفى أنك حضرت لوداعه فى رحلته الطويلة!».

انفجر كوستيس فى البكاء، دون أن يدرك لأى سبب كان يبكى، ليس فقط لأن ذلك كان مقبولاً، لكنه أيضًا كان مطلوبًا فى مثل هذه المواقف، وقد شعر براحة حقيقية تسرى بداخله بعد فترة من الانفلات التى مر بها. عندئذ شعر كوستيس بيدٍ تربت على كتفه فاستدار وتطلع إلى ذلك الرجل الأشقر ذى العينين الخضراوين التى رأى فيهما ذكريات مرحلة المراهقة، فصاح قائلاً (بالفرنسية):

«ابن الخال!» هكذا صاح متأثراً بتلك الابتسامة التى تعرف عليها، تعرف على هذا الخليط من الطيبة والرجولة الذى كان قد تعلمها يوماً ما على يد نيكيتاس.

«اليوم فقدت أباً، ولكنى عثرت مرة أخرى على صديق حقيقى» قال ذلك نيكتياس، ثم استجمع بعض القوة ليبتسم من بين أحزانه.

كان كوستيس يحارب إحساسه بالذنب، ووجد أنه من الصواب الاعتذار لنيكتياس، فقال:

«لقد أسأت إلى الخال ثاناسيس، يا "ابن الخال"! (قالها بالفرنسية)».

نيكتياس: «أسأنا إليه، أساء إلينا. لا تشغل بالك. كانت أكبر حكمة قالها لى والدك: "الحياة أكبر من أن تعيشها بلا أخطاء"، بالمناسبة، أخبرنى كيف حال السيد أندونيس؟».

كوستيس: «إنه بين الأحياء حتى هذه اللحظة، لكن ما الذى يمكن أن تفعله من أجله، وهو نصف إنسان....».

- «لابد أن هذا قد كلفه الكثير».
- «فوق ما تتصور».
- «إنه أمر ليس بالهين. وماذا عن ابنه غير الشرعى القادم من الزقازيق؟».
- «كان له وقع الصاعقة عليه».
- «ووسط كل هذا تنتظر طفلاً فى أية لحظة» .
- «نعم».
- «أفكر فى البقاء بالإسكندرية لمدة أسبوع، هل تريد أن نتناول معاً الطعام فى أحد الأيام؟».
- «أهذا سؤال، ليكن من الغد. إن هايكى فى آخر أيام حملها، ويمكن أن تأتى لنا بالمولود فى أية لحظة».
- «عظيم، إلى الغد إذن» (قال ذلك بالفرنسية).

- «إلى الغد إذن (قالها بالفرنسية)، أريدك أن تعرِّفنى من جديد على المدينة مثلما كنت تفعل ونحن صغار» وكان كوستيس قد ألقى بهذه الجملة قبل أن يقاطعه إخوة نيكيتاس، أوليمبيا المتشحة بالسواد وزوجها الإيطالى الذى ترقى فى عمله وأصبح السكرتير الأول الذى ألقى التحية لكوستيس بطريقة عادية، بل بطريقة باردة. أما بالنسبة لنيكولاس، الذى يعمل فى أوركسترا بيلفينديرى، فقد بدا له شخصًا ودودًا. وبشكل عام كانت الأمور تسير بطريقة جيدة بالنسبة لكوستيس. وعلى أية حال، فقد كان هذا اليوم هو يوم جنازة أبيهم.

* * * * *

«الحياه عملة ذات وجهين. أحدهما يمثل الحياة والآخر يمثل الموت» هكذا كان المرحوم ثاناسيس يقول دائمًا. وبعد وفاته بثلاثة أيام وضعت هايكى مولودها من كوستيس. أنجبت طفلة أسمتها ذافنى. وقرر الأب السعيد أن يتبع التراث العائلى وقام بنفخ دخان السجائر حول الطفلة الصغيرة لكى يجلب لها الصحة والحظ.

لم يتم التعامل مع الدخان فى بيت آل خاراميس على أنه مصدر للرزق، ولكن بوصفه دواء له خصائص مدهشة، من ذلك: أن أندونيس كان يحتفظ ببعض من أجود الأنواع "التبغ" الناعم، واستخدامه كدواء "لأى مرض أو لأى تعب عارض" هكذا كان يقول. وكانت الجدة ذافنى تقوم بابتلاع كمية صغيرة منه عندما تشعر بالصداع. أما الخادمات المصريات فكن يسرقن بعض التبغ من العلبة بانتظام لابتلاعه فى المساء عندما يحل بهن التعب، كذلك كان يفعل العديد من الضيوف الذين كانوا يحضرون للمنزل خصيصًا لهذا الغرض. كانت ذافنى تؤكد أن هذا التبغ المعجزة قد عالج ضيق التنفس الذى عانى منه ماخوس، عندما أعلن الأطباء عن عجزهم فى علاجه. ولأن التبغ كان موجودًا دائمًا فى جميع مناسبات آل خاراميس، فلم يكن بوسع كوستيس سوى تقديمه إلى أصدقائه الثلاثة المقربين، إيفيتس وميسا ونيكيتاس، من أجل الاحتفال بمولد ابنته. ويبدو أن الدخان كان يحافظ على روابط الصداقة القوية بينهم، مثل

صداقة نيكيتاس مع إيفيتس، التى استمرت لفترة فى الإسكندرية فيما بين الحربين العالميتين وبخاصة فى حياة الليل بالإسكندرية.

فى الوقت الذى عادت فيها المياه إلى مجاريها بين كوستيس ونيكيتاس، لم يكن كوستيس على علم بتلك الصعوبات التى كان صديقه يواجهها فى العمل. لكن حتى ذلك لم يكن مفاجأة بالنسبة له، وبخاصة عندما علم أن ابن خاله أصبح من مؤيدى الشيوعية. لقد كلفته أفكاره هذه وظيفته باعتباره تاجر أقطان بعد قيام الاضطرابات فى حقول القطن. عاد نيكيتاس إلى كفر الزيات ببساطة لكى يجمع أغراضه، فى حين كانت أمه الملتاعة قد خرجت تشكو للجيران وهى تنوح قائلة: «يا لشقائى، ابنى كافر، تورط مع الشيوعيين!» فسارعت بعض جاراتها إليها لكى يقدمن لها النصيحة قائلات لها: «العلاج الوحيد للشيوعية يكمن فى الزواج». وهكذا عندما عاد نيكيتاس إلى الإسكندرية لم يكن يعانى فقط من البطالة، ولكن أيضًا من أمه السيدة ماريا التى كانت تصر أن ترشح له الفتيات الواحدة تلو الأخرى لكى يختار زوجة المستقبل. وفى حين كان يرفض ما تعرضه عليه أمه كل يوم، كان يبحث بكل جهد عن عمل فى الصباح، وفى المساء يقضى الوقت مع إيفيتس. "مونسينير"، "بيلفينديرى"، "إكسليسيور"، "فاليرون"، كانت تلك هى معابد الحياة الليلية فى الإسكندرية التى يرتادها الصديقان الكافران "المنغمسان فى الملذات" (قالها بالفرنسية). كانا كثيرًا ما يندسان فى الأزقة الضيقة والشوارع الخلفية بحثًا عن جحيم الرذيلة والبغاء الرخيص ومقاهى شانتان، حيث كان بالإمكان مشاهدة الراقصات التركيات وهن يتمايلن ببذلات الرقص، وكان ذلك بالنسبة لهما وكأنه مرحلة تطهير بعد الموت يحتاجها رجلان مذنبان مثلهما. وفى النهاية، كان إيفيتس السكير ينخرط فى الغناء وهو يحتضن بعض النساء اللاتى ينحدرن من جزيرة زميرنى ويقول:

«أمان، أمان يا سميرنى،

فليذهب الأتراك إلى الجحيم......».

وفى تلك الأثناء، كان نيكيتاس يتحدث فى محطة الرمل مع أحد المرابين القبارصة يدعى أندونيس خريستوفوريذيس بحثًا عن عمل. ولم تكن لدى نيكيتاس الرغبة فى الامتناع عن احتساء الخمر، تمامًا مثلما لم تكف أمه عن حلمها بإيجاد زوجة جميلة لابنها الأكبر. وربما لم تكن مبالغة إذا قلنا إن من أهم الأسباب التى دعت نيكيتاس لمصاحبة إيفيتس والتطوع معًا فى القيادات الدولية للجيش الإسبانى فى نهاية خريف عام ١٩٣٦، هى الهروب من معرض الزوجات الذى أقامته أمه له فى منزلهم بباب سيدرا.

توجهت ماريا البائسة إلى كوستيس لكى يجعله يعدل عن رأيه، لكنه لم يستطع أن يمنعه من السفر، على الرغم من عدم موافقة كوستيس على اتخاذه لهذا القرار. وفى نفس الوقت أرسل إليه كارل - المطلوب القبض عليه من النازيين - رسالة من إحدى الغرف الضيقة ببرلين جاء فيها: «المحطة القادمة إسبانيا، فقد تم نقل الاحتفال إلى هناك.. "وداعًا برلين"(كتبها بالألمانية)».

* * * * *

"الإسكندرية ما هى إلا باريس الصغيرة"(دونّتها بالفرنسية)، لا تتخيلى شيئًا أقل من ذلك، هكذا كتبت هايكى لأمها عن شهورها الأولى فى مصر، محاولة أن تهدئ من روْعها تجاه متاعب حملها من خلال تعليقات الإعجاب بالمدينة وأهلها. إنها مدينة مدنية متحضرة مليئة بالنور وكرم الأخلاق. إنها معجزة حقيقية أن يتجمع ويتعايش الجميع فى نفس المدينة على اختلاف توجهاتهم وأعراقهم ودياناتهم. لقد كان كوستيس "محظوظًا" (دونتها بالفرنسية) بالعودة إلى مدينته (كان حديثها هنا عن الجو العائلى) وأنا أيضًا، لأننى أشعر أننى "على الرحب والسعة"(دونتها بالفرنسية)، أما والدته فهى امرأة لها سحر خاص، رغم أنها ليست جميلة. إنها تتحدث أربع لغات بطلاقة، "ومتمكنة" (دونتها بالفرنسية) من الفرنسية. إنها قصيرة إلى حدٍ ما، ذات أنف مضحك، وعينين مستديرتين ضيقتين، ومن شدة حبها للفراعنة فقد حولت المنزل إلى

متحف فرعونى. إنه بالفعل إحساس غريب أن يعيش أحد فى مثل هذا المنزل. لكن لماذا أقول منزل! نحن نتحدث هنا عن" قصر"(دونتها بالفرنسية) حقيقى. منزل كبير مصنوع من خشب الماهوجنى والرخام فى أفضل " الأحياء"(دونتها بالفرنسية)، تحوطه حديقة مترامية الأطراف، يحتوى على غرف صالون واسعة وقاعات استقبال وإحدى عشرة غرفة نوم، نعم إحدى عشرة غرفة بالطابق الأول. ننام تحت ناموسيات كبيرة تغطى الفراش بأكمله. فى الصباح، على العكس من ذلك، لابد أن تمسك بمضرب الذباب بصفة مستمرة، إذا أردت أن يتركك الذباب تنعمين بالهدوء.

الأثاث فرنسى الصنع، بطراز الأرابيسك. وهناك صف طويل من الخادمات تلاحقك لخدمتك طوال اليوم: مربيات، طاهيات، بستانيون، سائقون، سفرجية. يمكنك أن تتناولى أنواعًا هائلة من الأطعمة فى أسبوع واحد، بداية من " قائمة المقبلات "(دونتها بالفرنسية) الغربية حتى الوصفات المصرية الغريبة، والتى من أشهرها ذلك النوع من الكفتة(١٩) التى يدخل فى عناصرها الفول والتوابل ويتم تحميرها فى الزيت المقلى وتقديمها فى أرغفة الخبز البيضاء. إنهم هنا يحبون اللحوم والدواجن، ولكنهم يفضلون عليها الحمام الذى يقدمونه محشوًا بالأرز، محمرًا فى الزبد الفلاحى. كما يأكلون بشراهة أسماك النيل والجمبرى الضخم الذى يتم صيده من البحر المتوسط. كما قدموا لى شرابًا من عيدان السكر (عصير قصب). شىء رائع! وقد تسألين عن الملابس؟ لديهم آخر صيحة فى الموضة! وأنا الحمقاء قد ظننت أننى جئت لأعلِّم المصريين الموضة. أوه إننى فخورة لأن طفلى سيولد ويترعرع فى هذا البلد. أما الأمر السيئ فهو أن والد كوستيس يعانى من مشكلة صحية حدثت له أخيرًا، لكنى أتمنى أن يتمكن من اجتيازها. آه، يا أمى، كم كنت أتمنى أن تكونى بجانبى، لكن صدقينى، أنا لا أشعر بأنى وحيدة. فمن المستحيل أن يشعر أحد بالوحدة فى الإسكندرية. هذا المكان المضياف الذى يتصف أهله بحسن الضيافة، دون تظاهر أو تكلف.

---

(١٩) المقصود هنا هى الفلافل. أشهر أنواع الأطعمة الشعبية فى مصر. (المترجم).

من خلال خطابات هايكى فهمت أمها راشيل أن ابنتها تعيش حياة محدودة إلى حدٍ ما فى بداية وجودها فى مصر، وكانت تسألها بشكلٍ دائم إذا ما كانت تواجه مشكلة مع الحمل، وعلى الرغم من أن الإجابات التى كانت تحصل عليها كان مطمئنة، لكنها لم تكن تصدق أن السبب الوحيد الذى كان يجعلها تقضى معظم وقتها داخل المنزل بالحى اليونانى كان هو انشغال كوستيس فى عمله.

أيًا ما كان الأمر، فقد ولدت حفيدتها بعد شهر ونصف الشهر، وتغيرت تمامًا رؤية هايكى فى خطاباتها، حيث انعكست صورة الإسكندرية بشكلٍ أكبر وقل حديثها عن المنزل وجدرانه:

"ستمائة ألف نسمة يعيشون هنا" يا أمى "(دوَّنتها بالفرنسية)، إنهم ليسوا قليلين، "أليس كذلك؟" (دوَّنتها بالفرنسية)، أشجار النخيل الشاهقة وآلاف المصريين الذين يرتدون الجلاليب والطرابيش الحمراء. أصواتهم المتداخلة تشبه الصلاة وبخاصة عندما ينادون على الفاكهة التى يبيعونها فى الشوارع. رائحة الياسمين النفاذة التى تعطر الهواء تعنى حلول فصل الصيف. الشطآن الرملية جميلة، الواحد تلو الآخر، تليها أماكن الاستحمام فى البحر، حيث يبدأ ذلك هنا مبكرًا. لقد قمت أمس ولأول مرة بالاستحمام فى البحر على شاطئ ستانلى، ذلك الشاطئ الذى يشبه كثبانًا من الرمال، حيث أبدعت القدرة البشرية فى ملئه بصفوف متراصة من الكبائن. به فرقة موسيقية تعزف موسيقى الجاز على مسرح مبنى من الأسمنت، حيث يجلس العديد من المصطافين أمام الموائد لاحتساء البيرة. البحر خلاب بأمواجه المتلاحمة التى يسرع حراس الشواطئ برفع الرايات السوداء عندما يرتفع منسوبها. وتظهر ملابس البحر مدى احتشام الناس، كما أوضح لى كوستيس أن خليج ستانلى معروف بأنه موطن اللواطيين.

غدًا مساءً نحن مدعوون على العشاء، ثم سنذهب بعد ذلك إلى الأوبرا. أما بالنسبة لليوم، فهناك دعوة لحضور حفل كوكتيل فى إحدى السفن الحربية البريطانية. حاملة طائرات، إذا كنت قد فهمت جيدًا. شىء جديد من نوعه، أليس كذلك؟ لقد فكر كوستيس كثيرًا قبل أن يوافق، لكن لم يكن أمامه اختيار آخر، فهو يستعد لعمل بيزينس مع

البحرية الإنجليزية وسوف يصحبنا رجل لبنانى محترم يدعى إلياس خورى الذى كلما تصادف والتقينا، يبالغ فى مدحه لى بطريقة تغضب كوستيس، يا له من أحمق!.

كانت هايكى بخطاباتها لأمها تدون بالتفصيل ما يحدث فى مجريات الحياة اليومية بالإسكندرية، وفى كل مرة كانت تذكر لها شيئًا يثير الاهتمام، أو تحدثها عن معارف جديدة وعادات جديدة وانطباعات جديدة، مؤكدة على سحر وجمال مدينة الإسكندرية، بالطريقة التى تراها بها بمفردها. ومن جانبها كانت راشيل، تقرأ وصف ابنتها للمدينة الأوربية بمصر، حيث كان كل ما يحتاجه أى شخص للتكيف بها هو معرفة اللغة الفرنسية، وشعرت بأنها لم تخطئ عندما احتفظت لنفسها باعتراضاتها وسمحت لابنتها بالزواج من رجل يونانى والحياة معه فى الغربة. وبالتركيز على عدد كبير من الكارت بوستال التى كانت راشيل تتلقاها بين الحين والآخر من هايكى، والتى كانت تصور: البورصة، ميدان محمد على، الحدائق الفرنسية، ميدان سعد زغلول والفندق الجديد بالمدينة (فندق سيسيل)، كازينو سان ستيفانو، خليج ستانلى، عمود بومبى، أعجبت راشيل بالمدينة وشعرت معها بالألفة من خلال ذلك الوصف التفصيلى الذى تقدمه لها ابنتها مع كل كارت، حتى إنها أصبحت واثقة من أنها أصبحت قادرة على معرفة ذلك الجزء من الحياة اليومية التى تعيشها الآن ابنتها مدام خاراميس.

عندما تصلين بالسلامة إلى الإسكندرية، لابد أن نذهب معًا إلى مقهى "باستروذيس" و" بودرو "، حيث توجد هناك " صفوة الصفوة "(دونّتها بالفرنسية) من المجتمع. وسوف أصطحبك إلى " جراند تريانون " وإلى " أثينايوس " حتى ترى "الرقى " بكل معانى الكلمة. يوجد فى المدينة كل ما تريدين: فنادق فاخرة، مطاعم كبيرة، محال تجارية، دور للسينما، مسارح، مضمار سباق الخيول، ملاعب تنس، نواد لليخوت. ومنذ وقت قريب قدمت فرقة " الكوميدى فرانشيز" عروضها لمدة أسبوع فى المدينة. شعراء مشهورون وموسيقيون من جميع أنحاء العالم يقدمون لنا المتعة بفنونهم. حتى الإسطوانات المسجل عليها أغانى بيج كروسبى، الذى يعشقه كوستيس، تباع هنا فى نفس الوقت تقريبًا مع أمريكا. لا ينقصنا هنا تقريبًا شيء. لك أن تتخيلى أنه عندما

نفدت عبوة أحمر الشفاه ماركة "ماكس فاكتور" الذى أستعمله، لم أجد أية صعوبة فى شراء عبوة أخرى من هنا. اتخذى قرارك إذن، يا أمى. لا تدعى شيئًا يخيفك. البواخر التى ترحل من مرسيليا بواخر فاخرة.

كانت الجمل الأخيرة تتكرر بشكلٍ واضح فى كل خطابات هايكى، ورغم ذلك لم تتخذ أمها القرار، على الرغم من كل تلك المغريات التى تدفعها لترك "عاصمة النور". حتى إنها لم تتأثر بالصور الأولى لحفيدتها متعللة بالرومانتيزم الذى يجعلها لا تستطيع أن تبارح باريس. على الأقل كانت سعيدة بأن ابنتها سعيدة فى زواجها وتحيا حياة كريمة. وكان يسعدها بشكل جوهرى أن تسمع عن زيارات ابنتها إلى معبد "النبى دانيال"(ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية).

هناك يجتمع " علية القوم "(دوّنتها بالفرنسية) من يهود الإسكندرية. كانت لليهود جالية قوية بالمدينة تتألف من عدة آلاف يعيشون متآلفين مع الجنسيات الأخرى. حاول كوستيس فى البداية أن يمنعنى (بتأثير من أمه على ما أعتقد) لكننى ذكّرته أننا قد وضحنا هذه الأمور من قبل، كما أن تحولى إلى ديانة المسيحية لم يكن سوى حبر على ورق لكى نتم زواجنا، ولكن لا نية لدى للتخلى عن عقيدتى. أعتقد أننا جميعًا فى المنزل سعداء بمولد الصغيرة ذافنى وكنا نحتاج إليه، مما يجعلهم يغفرون لى الأخطاء الأكثر جدية. كوستيس يفهمنى جيداً. ومن جهة أخرى، فإنه يعرف جيداً أن الإله الذى تعبده كل نساء "الطبقة الراقية"(دوّنتها بالفرنسية) هو إله طويل القامة، أنيق ذو عينين جميلتين وصوت رخيم. وإذا ما أراد كوستيس أن يختار بين هذا الإله وبين رب اليهود، فسوف يفضل بالتأكيد رب اليهود حتى يريح باله من هذا الموضوع.

كانت اعتراضات عائلة خاراميس من النوع الذى يمكن لهايكى أن تعرضها على أمها فى خطاباتها. فهى لن تكتب لأمها أبداً عن آلهة الإسكندرية من النساء الثريات، وما سمعته من حماتها وهى تخبر ابنها قائلة: «ستجلب لنا زوجتك اليهودية الكثير من المتاعب! إنها مثار حديث الإسكندرية. حقيقة، كنت أتمنى لو كانت لك عشيقة من بين عامة البشر بدلاً من تلك التى تتبع " يهوه "».

لكن لو أن الأمر يتعلق فقط بديانة هذه اليهودية، فإن زوجة كوستيس، معتمدة على المنزلة الاجتماعية لعائلة خاراميس، قد اعتبرت أن باستطاعتها أن تفعل ما كانت الجدة ذافنى تصفه " بالألعاب الصهيونية التى تمارسها على حسابنا ".

لقد أتيحت لى الفرصة للقاء حاييم وايزمان، هكذا كتبت هايكى إلى أمها، إنه جنتلمان حقيقى يشتغل بالسياسة، المثالية والروح العملية اجتمعتا فى هذا الرجل، إنه شىء لا يوصف، أؤكد لك أننى وجدت فى كلماته معنى لحياتى. فلم يهتم أحد بمشكلات جنسنا مثله. إنه يعتقد أن حصولنا على وطن، الذى لا يمكن أن يكون فى مكان آخر غير الأرض التى ولد فيها اليهود، لهو أمر عظيم الشأن الآن أكثر من أى وقت مضى. إنه يلهمنى وكأنه نبى!

أصابت تلك التعليقات الحماسية حول قائد الحركة الصهيونية، والدة هايكى بالحيرة، التى كتبت لها مراراً: لابد أن ينصب تفكيرك فى المقام الأول على زوجك، وطفلتك وبيتك. فالمشكلة اليهودية كبيرة ومعقدة، ولا أعتقد أن هناك من يستطيع أن يقدم حلاً سحرياً لها– مثل وايزمان – مستنداً على دعم بعض الصهاينة. سيظهر حل لها، مثلما سيظهر حل لكل المشكلات الأخرى، مع مرور الزمن. هكذا استطاعت راشيل من على بعد مئات الكيلو مترات أن ترى بوضوح تلك السحب التى بدأت تتجمع فوق حياة ابنتها، وبدلاً من أن تهدئ مخاوفها، أخذت تزداد بسبب ما تقرأه فى خطابات ابنتها المتناقضة.

كل شىء هنا يشع ضوءاً، من ذلك النوع الذى قد يصيبك أحياناً بالإرهاق. لون البحر الأزرق، الطقس الحار المشوب بالرطوبة، الزخارف، ومن ناحية أخرى صوت المؤذن وهيستيريا المآذن. إنه عالم مصنوع من الرمال والشهوة. أشعر دائماً بالحنين لباريس، أمى العزيزة، أتساءل كيف ستكون حياتى خلاف ذلك.

ولكى تخرج أمها مثل تلك الأفكار من دماغها، كانت راشيل تتذمر عن قصد من الطقس فى باريس الذى كان يزيد من معاناتها من الروماتيزم، فتقول: أحياناً أفكر كم أنك محظوظة لأنك تعيشين فى قارة شابة مثل قارة أفريقيا. لقد أصبحت أوربا

العجوز لا تطاق. فلم يعد هناك من يرضع من ثدييها الواهنين سوى من هم على شاكلة هتلر.

وفى أحيان أخرى كانت خطابات هايكى تعد مصدراً للسعادة، حيث تقول: استيقظت صباح اليوم ووجدت سيارة رولزرويس جديدة تنتظرنى أمام المنزل. حبيبى يا كوستيس! إنه لم يجد كلمات يقولها سوى: «هكذا لن يمنعوكِ من الدخول فى الصحراء». وكنت قد حاولت من قبل بمصاحبة بعض الأصدقاء الدخول فى مملكة الصحراء من إحدى البوابات الحجرية بضواحى الإسكندرية، لكننا عدلنا عن رأينا بعد أن اطلعنا بعض حرس الحدود المختصين على مرسوم ينص على أنه مسموح بالمرور فقط للسيارات من ماركة فورد وورلزرويس لأنها الوحيدة المناسبة للقيادة عبر الصحراء.

كما كانت تكتب لأمها فى أحيان أخرى عن المشكلات التى تواجهها: لا أدرى ماذا أفعل مع المربيات، يا أمى. لا أعرف كم واحده قمنا بتغييرها حتى اليوم، فكوستيس لا يشعر بالرضا أبداً عنهن. وفى الحقيقة أحياناً ما يصبح شديد المبالغة، وكلما أخبرته بذلك يجيبنى قائلاً «لا أعرف». ثم عرضت " أمه الطيبة "(دوَّنتها بالفرنسية) أن نحتفظ بمربية أطفالها القديمة، امرأة تدعى الآنسة جابى، التى تعمل باعتبارها سكرتيرة لديها. إنها ليست كبيرة فى السن كما تتخيلى، كما بدت لى شخصية "عطوفة جداً "(دوَّنتها بالفرنسية)، ولكن كوستيس ولسبب مجهول قد رفضها. بل إنه استطاع بعد مولد ذافنى الصغيرة إقناع أمه بطردها هى وأخيها، هذا الشخص التافه الذى كان يعمل باعتباره سائقًا خاصًا لأمه. اتهمها بسرقة تمثال صغير، وهو أمر لم يتم إثباته حتى الآن. وإذا أردت أن تعرفى رأيى، فقد حدثت مقايضة بين زوجى وأمه فى مقابل أن يمنح الطفلة اسمها. حالياً نقع تحت رحمة امرأة تدعى ميس جين وهى امرأة إنجليزية سمينة – فحماتى بوسعها أن تتقبل أى شيء شريطة أن تكون المربية إنجليزية – وهى دائمة الضحك، لكن لديها من الجرأة ما يجعلها تعبث بأدوات التجميل الخاصة بى. فلنأمل، على الرغم من كل ذلك، أن لا ترحل هى الأخرى، وإلا فلا أعرف ما الذى سيحدث لصغيرتى ذافنى التى تنمو وسط كل تلك الخادمات المصريات السمراوات.

استطاعت السيدة راشيل أن تشاهد بنفسها نتيجة تربية الطفلة ذافني أمام عينيها في صيف عام ١٩٣٦، حيث استقبلت ابنتها وحفيدتها في باريس، كانت ذافني الصغيرة قد أتمت عامها الثالث وبدت لها طفلة رقيقة بفيونكات شعرها وملابسها وردية اللون، وكأنها قطعة من الحلوى. ومنذ الحظة الأولى ارتمت في أحضانها وأحست الجدة في الحال أن قدمها المصابة التي كانت تعذبها في السنوات الماضية قد بدأت في الشفاء بمجرد رؤية حفيدتها. لكن للأسف فقد عجل موت حما ابنتها في ذلك الصيف بعودتها إلى الإسكندرية.

* * * * *

«هناك من يضع الزهور على قبر والدك» هكذا كانت ماريا تردد قائلة لابنها الصغير، في بدايات عام ١٩٣٦.

نيكتياس: «وهل هذا أمر سيئ؟».

ماريا: «إنها ورود مزهرة تتناثر في كل أرجاء المدفن، من يا ترى يمكن أن يكون مرسلها؟».

- «ليست لدى أدنى فكرة، هل يحدث هذا منذ وقت طويل؟».

- «منذ أن مات تقريباً، لكنه توقف في العام الأخير. ثم عاد فجأة واستمر حتى الآن. من يا ترى يمكن أن يكون؟».

- «هل تفكرين في شخص محدداً؟ لأن عقلي لا يفكر في أي شخص».

- «سأرابض هنا في الصباح الباكر، وسأحرص على معرفته» قررت ماريا ذلك ونفذت ما قررت.

مع تباشير فجر أحد أيام الشتاء بألوانه البرتقالية، وقبل أن تهب عاصفة مفاجئة تحملها السحب من ناحية دلتا النيل. شاهدت ماريا رجلاً ترتسم ملامحه وهو يسير

ببطء بين المقابر. وقد منحته قبعته السوداء والبالطو الأسود الطويل الذى يرتديه هيئة غامضة، لكن ماريا لم تجد صعوبة فى التعرف إلى ذلك الرجل الغامض الذى لم يكن سوى ابن أخيها كوستيس. كان يحمل باقة من الزهور، وعندما وصل إلى قبر ثاناسيس انحنى ونثر الزهور فوق شاهد القبر فيما عدا زهرة واحدة. ثم نهض واقفًا لبضع دقائق برأس منكسة، وهو يمسك بالزهرة بين يديه المعقوفتين. وفى النهاية وضع الزهرة بطريقة حانية فوق باقى الزهور واستدار ليرحل.

لم تكن زيارات كوستيس المستمرة لمقابر الشاطبى ذات علاقة بثاناسيس فقط بقدر ما كانت بسبب حالة والده الصحية التى كانت تتدهور، أو هكذا على الأقل كان يعتقد.

وفى الواقع، فقد استقرت حالة أندونيس الصحية منذ أن غادر المستشفى، ولكنها بشكل جوهرى لم تكن تتحسن، وقد أدى بقاؤه لمدة طويلة جالسًا على مقعده المتحرك إلى إعطاء إحساس خادع بتفاقم حالته الصحية لكل من اعتقد منذ البداية أن رجل الصناعة القوى سوف يسترد قدرًا كبيرًا من نشاطه القديم. ويومًا بعد يوم كان وجوده فى الفيلا الواسعة يجعله يشعر بالضآلة، وبعد شهورٍ قليلة بدأ كل من فى المنزل بالنظر إليه على أنه كائن بلا روح، ذكرى بعيدة لمخلوق اعتاد أن يخضع كل شىء لرغباته. وبمرور الزمن لم يعد باستطاعتهم حتى الشعور تجاهه بالشفقة، وتحولوا من الإحساس بالشفقة إلى التسامح المتبادل بعد ما خسر اسمه. حتى زوجته كانت تشير إلى زوجها القعيد بطريقة مهينة، عندما كانت تسأل: «هل ما زال فى الحديقة؟» أو «هل أعطيتم ماء للرجل العجوز؟»، ولم يكن كوستيس راضيًا عن ذلك، ودائمًا ما كان يصيح فيها قائلاً وهو فى شدة غضبه:

«لا تتحدثى هكذا عن زوجك!».

«حسنًا، حسنًا» هكذا كانت ذافنى تجيبه (بالفرنسية)، لكن بعد لحظة واحدة تنسى وتعاود الكرة مرة ثانية.

ربما كانت هايكى هى الوحيدة التى تظهر تجاهه نوعًا من التعاطف، وكم كان مؤثرًا عندما كانت الكلمة الأولى التى تعلمتها باللغة اليونانية هى "أبى " (نطقتها بلهجة فرنسية)، وكانت ترددها دائمًا بنفس الاحترام أمام حماها، على الرغم من صعوبة نطق حرف الراء الموجود باللغة اليونانية. أما كوستيس فقد استمر من ناحيته فى تقديم تقريره اليومى إلى والده العاجز، ولم يكن يشارك الآخرين وجهة نظرهم فى أنه كان يضيع وقته بذلك، فيما عدا إلياس خورى الذى كان يشاركه وجهة نظره. كان اللبنانى الذى أطلق عليه كوستيس لقب " ضمير الإسكندرية الحى " يأتى بانتظام بأناقته المعروف بها لزيارة صديقه القديم، وكان يحضر معه الحلوى من مقهى "باستروذيس" أو من " بودرو " إلى جانب آخر الأنباء من جميع أنحاء العالم. وحتى يدعم كوستيس هذه العادة، شيد فى وقت فراغه كشكًا بالحديقة حتى يجلسوا فيه وأسماه «كشك الصداقة».

«حتى لا يقول البعض إن دراستى للهندسة ذهبت هباءً» هكذا كان كوستيس يقول مازحًا.

كان إلياس يتمتع بفضيلة الصبر بينما يتحدث معه بمفرده، محللاً جوهر الأحداث، ربما لأنه لم يجد من يعيره اهتمامه فى ذلك الوقت. كان إعلان حالة التجنيد الإجبارى من قبل هتلر، على سبيل المثال، بالنسبة له بمثابة حرب أبدية فى أوربا. «ولكننا سنظل فى مصر، أليس كذلك يا أنطوان؟» كان يردد ذلك (بالفرنسية) باستمرار حتى يهدئ من روع نفسه أولاً. وقد أدى فشل حركة أنصار فينيزيلوس فى عام ١٩٣٥ إلى عودة الملك. «وما خفى كان أعظم» (قالها بالفرنسية)، وكان من المفترض أن يؤثر غزو الإيطاليين لإثيوبيا بشدة على الإنجليز المبجلين، الذين كانوا يستعدون لتوقيع اتفاقية لسحب قواتهم العسكرية من مصر.

«الجميع إذن يقع تحت طائلة دوتشيه!» هذا ما توصل إليه خورى، ثم أخذ ينفث دخان سيجارته الرمادى فى وجه أندونيس، وكأنه يمنحه قبلة الحياة. ومع دخان السجائر الباعث للحياة كان ينقل إليه بصوت هامس تحيات إيفيت، التى كان أندونيس

يتلقاها دون مبالاة. وعلى العكس من ذلك، فعندما تم الإعلان عن موت فينيزيلوس فى شهر مارس من عام ١٩٣٦، أحنى أندونيس رأسه فى حزن شديد، إنهمرت الدموع من عينيه وأخذت تسيل حول أنفه، وبدأت تدخل فى ثنايا التجاعيد وتسيل على وجهه. "اسمع. اسمع! (ذكرها بالفرنسية) ستخرج روحه أولاً ثم بعد ذلك تموت العادات الفينيزيلية"، هذا ما جال بفكر إلياس.

كان كوستيس يستعد للحظة الوداع منذ ثلاث سنوات خاملة، عقدت فيها الحياة مع الموت هدنة فوق جسد أندونيس المشلول، وكأنهما يعطيان لابنه الفرصة لقيادة فكرة أن "كشك الصداقة " سيصبح يتيمًا. ولكن من أين يستطيع المرء الاعتياد على فقدان من يحب، إذا لم يكن من حيث يرقد الأحبة أمواتًا؟

منذ اليوم الذى كانت العربة الضخمة التى يجرها ستة خيول، والستائر ذات اللون الموف، والتماثيل الخشبية واللجام الذهبى، تنقل جثمان أندونيس خاراميس بمنتهى الوقار إلى مثواه الأخير، أصبحت مقابر اليونانيين الأرثوذوكس بمثابة منزل كوستيس الثانى. أخيرًا أحس الخال ثاناسيس بالراحة بعد طول انتظاره لهم. هناك حيث كان قد تم إعداد الضريح الرخامى الذى يحمل فوقه اسم " عائلة أندونيس خاراميس "، حيث سيأتى اليوم الذى سيجتمعون فيه هناك، حتى أخاه ماخوس الذى اختار أن لا يظهر. وكلما أمعن كوستيس النظر فى الضريح، وجد أن مدخله المحاط بالأعمدة يذكره بمدخل منزلهم. وفى النهاية، ربما كان لدى إلياس خورى الحق فى إنهاء خطبته الجنائزية بعبارة: «لا تبحثوا عن أمواتكم فى المقابر. فلن يشعر بالراحة هنا سوى الواهمين بالحياة وبالموت». فى تلك اللحظة جالت عينا كوستيس بين الحاضرين الذين امتلأت بهم طرقات المدفن: أعضاء من الجالية اليونانية وعمال بسطاء، أثرياء وأشخاص بسطاء من عامة الشعب، قامت الجالية اليونانية بتكريم " كبير صناعة الدخان بمصر"، كما كانت تطلق عليه صحيفة " تاخيذروموس" يوم وفاته. تخيل كوستيس أن كل هؤلاء الأشخاص المعروفين وغير المعروفين سيذبلون مع مرور السنين: والدته، الخالة ماريا، نيكيتاس وإخوته، إيفيتس، ميسا، أندرياس سيستانيس، إلياس،

حتى تلك السيدة الغريبة التى كانت تضع نظارة سوداء على عينيها وتقف إلى جانب "اللبنانى " وهى فى شدة الحزن. إنها امرأة فى الخامسة والأربعين من عمرها، جميلة، ليست يونانية أو مصرية، كانت تبدو وكأنها جاءت تبحث عن نصيبها من المعاناة وسط الآخرين.

* * * * *

فى ذلك اليوم الذى انهار فيه أندونيس فى مواجهة ابنه غير الشرعى، كانت إيفيت تنتظره فى شقتها بشارع السلطان حسين حتى ساعة متأخر من الليل. كانت ليلة من ليالى الشتاء الباردة، هطلت الأمطار بغزارة فوق الإسكندرية كلها. أحاطت أفكارها بصمت غريب، يقطعها بين الحين والآخر صوت " جلابية البواب "(ذكرها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) الجالس على السلم وهى تتطاير، أو حركة المصعد أو هبوط شخص بسرعة متجهًا ناحية محطة الرمل. ثم نما إلى أسماعها مرة أخرى صوت وابل غزير من الأمطار وقد أحدثت مياه المطر صوتًا غريبًا وهى تسيل من المخرات القديمة الموجودة بالشرفة. دقت الساعة التاسعة وعندئذ اتخذت قرارها.

" لن يأتى الليلة، لابد أن شيئًا ما قد حدث له"، هذا ما جال بخاطرها. لفّت نفسها بالروب وأسندت رأسها على الوسائد الموجودة على الأريكة. أخذت تشم رائحة منديلها المعطر وهى بين النوم واليقظة، وعندئذ سمعت جرس الباب يدق باستمرار، لم تكن طريقة أندونيس فى طرق الباب، فتحت الباب فإذا بإلياس يقف أمامها وهو ينفض مظلته السوداء الضخمة.

إيفيت: «ألم يعلموك كيف تدق جرس الباب على الناس فى منازلهم؟» قالت ذلك ثم عادت وهى شبه نائمة إلى الأريكة. مضى وقت طويل منذ أن كان لزيارات " اللبنانى" معنى. وكان قد أدرك ذلك، وربما، لهذا السبب أسرع بدون مقدمات ليخبرها بالأنباء.

إلياس: «الرجل العجوز مريض» (قال ذلك بالفرنسية).

- «أنطوان؟ مريض؟» بدا لها الأمر وكأنه دعابة، ثم استطردت: «هل يعانى من نزلة برد أم ماذا؟» هكذا سألته (بالفرنسية)، ثم انخرطت فى الضحك.

- «أتمنى لو كانت مجرد نزلة برد. أخشى أن الأمور أكثر خطورة».

لم تكن لدى إيفيت الرغبة فى تصديق هذا الكلام، وكان من الواضح أن أنطوان يمثل لها كل ما تشعر به من أمان فى الحياة، وكأنه أبوها المخلص، العشيق الحنون، الصديق، درع الحماية.

- «ماذا يعنى هذا الكلام؟» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «هذا يعنى (قالها بالفرنسية) أنا قادم إليك مباشرة من مستشفى سان سوفرونيوس، حيث يتلقى أندونيس الآن العناية الطبية أثر إصابته بسكتة دماغية حادة. الأطباء ليسوا متفائلين

- «سكتة دماغية حادة؟ شيء مماثل لما حدث لأرابيذيس، "هذا أمر مريع" (قالت ذلك بالفرنسية)» هكذا همهمت.

- «أنا آسف، يا إيفيت. أنا جد آسف، أيًا كان ما كنت أقوله أحيانًا، إلا أننى أحب "هذا العجوز" (قالها بالفرنسية)، أنت تعرفين هذا. كما أنه هو أيضًا يحبنى».

- «أريد أن أراه» هكذا قالت إيفيت بكل إصرار. إلا أنه حاول إثناءها عن هذه الفكرة بقوله:

- «هذا أمر غير قابل للنقاش (قالها بالفرنسية) فزوجته تسهر بجواره طوال الوقت. وأعتقد أن فضيحة واحدة تكفى».

- «ماذا تقصد؟»

- «ماذا أقصد؟ لقد كنتِ على علم بأن حبيبك لديه ابن غير شرعى، ولكنك أخفيت الأمر عنا؟».

- «كلا بالطبع».

- «ماذا أقول، فأغرب الأشياء تحدث فى هذه المدينة».

- «انتظر لحظة. ما الذى تعنيه بكلمة ابن غير شرعى؟».

- «ابن غير شرعى " بمعنى " (قالها بالفرنسية) طفل يحصل عليه شخص بدون زواج. هذا ما تعنيه الكلمة على ما أظن».

- «لكن كيف. يعنى، أوه، لكنى وقتها وأنا التى كنت أظن أنه لا يوجد غيرى».

- «آه، لم تفهمينى، يا عزيزتى، إنها قصة قديمة جداً وقعت أحداثها قبل أن يتزوج حبيبك».

- «نعم، نعم (قالتها بالفرنسية)، وطوال تلك السنين؟».

- «طوال تلك السنين يبدو أنه قد وجد طريقة للتخلص منه بطريقة جيدة، حتى إنه هو نفسه قد نسى وجود هذا الطفل».

- «لماذا تقول ذلك؟».

- «لأن رجلاً مثل خاراميس لم يكن ليدع أحداً يفاجئه بهذه الطريقة».

- «والآن ماذا سنفعل؟».

- «لا يمكننا أن نفعل أى شىء على الإطلاق. سننتظر حتى نرى».

- «لكن هذا ليس من العدل، فلم أكن مستعدة لشىء مثل هذا» هكذا صرخت إيفيت.

- «كيف تفعلين هذا، أيتها المسكينة؟ وماذا سيقول أندونيس؟».

- «ليس لى أحد آخر فى هذه الدنيا، يا إلياس، هل تفهم ذلك؟».

عندئذ رفع اللبنانى كتفيه واستدار تجاه الباب، ولكنها صاحت خائفة:

«أين تذهب؟» (قالت ذلك بالفرنسية)، ثم جذبته من ذراعه.

- «إلى منزلى، أين سأذهب؟ لم يكن هينًا ما مررت به اليوم. " أحتاج لقسط من النوم "(قال ذلك بالفرنسية)».

- «انتظر (قالتها بالفرنسية)، أريدك أن تبقى معى الليلة».

- «أعتذر، يا عزيزتى (قال ذلك بالفرنسية)، فليست معى فرشاة أسنانى أو ملابس للنوم».

- «سوف نتدبر هذا، فهذه الليلة باردة بشكلٍ غريب. والمطر يزداد هطولا». تردد إلياس للحظة فبادرته بقولها:«أرجوك ابق معى».

- «وما الذى سيعود علىَّ من كل هذا؟».

- «حلاقة ذقن فى الصباح. لا يجب أن تترك ذقنك هكذا، فقد أصابها الشيب وأصبحت عجوزًا. احتفظ هنا بموس الحلاقة الذى حلقت لك به ذات مرة» قالتها له هامسة وأرخت الروب الذى ترتديه بطريقة لها مغزى.

- «طالما الأمر كذلك، إذن سأمكث الليلة».

- «رائع!» هكذا صاحت وأسرعت تخلصه من البالطو الذى يرتديه، وأردفت قائلة: «سوف أعد شيئًا خفيفًا لنتناوله» ثم توجهت مسرعة ناحية المطبخ.

- «ألديك شيء لنشربه» سألها بصوت مرتفع.

- «بالطبع» أجابته من الداخل «فما زلت أحتفظ ببعض الويسكى الرائع فى البوفيه تركه زبون يهودى فى منزل شارع مصطفى باشا. لا يمكن أن تكون قد تذوقت شيئًا مثل هذا، سأحضر الصودا».

في صباح اليوم التالى استيقظت إيفيت وهى بين أحضان إلياس بعد كل تلك السنين. أحضرت له طعام الإفطار فى الفراش، ثم قامت بعد ذلك بحلاقة ذقنه. وفى الوقت الذى كانت تستعد فيه لتضع ذلك العطر برائحة الليمون على وجهه الحليق، سمعت صوت صرير الباب الخارجي وظهر لها رمزى البواب ببشرته السمراء بمجرد أن فتحت الباب.

إلياس: «ماذا هنالك، أيها البواب؟» هكذا سأله إلياس باللغة العربية.

رمزى: «سمعت أن السيد أندونيس ليس على ما يرام» أجابه رمزى بخليط من الكلمات التى استخدمها ربما حتى تفهمه إيفيت.

- «وماذا فى ذلك؟».

- «السيد أندونيس مدين لى بمرتب ثلاثة شهور» قال ذلك ثم أخذت حدقتا عينيه تضيقان بشدة.

إيفيت: «أكاذيب!» هكذا صاحت إيفيت.

رمزى: «رمزى الحقيقة يقول!» قالها معترضًا وهو يشير لها بأصابعه قائلاً: «ثلاثة شهور».

كانت عيناه تفتحان وتغلقان بشكلٍ سريع. عندئذ هم إلياس وصفعه بشدة على وجهه وقال له بهدوء:

«الآن أنتما متعادلان».

عندئذ بدأ البواب يعود أدراجه إلى الخلف، وهو يضع يده على وجهه، منحنيًا تارة تجاه إيفيت وتاره تجاه إلياس. بعد ذلك استدار "اللبنانى" تجاه إيفيت وقال:

«لا تخافى، يا عزيزتى. الآن أنا بجانبك».

أما هى، فكأنها لم تسمع هذه الجملة الأخيرة، وسألته عن موقف رمزى قائلة:

«حقيقية، إلى متى نستطيع أن نجعلهم يخافوننا؟» وكان عليها أن تسأل نفسها هذا السؤال لسنوات قادمة دون أن تجد له الإجابة.

أحد هذه الأسئلة كان يتعلق بالضابط المعتدل فريد، " ذلك العاشق بسيفه المحدب أسمر اللون " الذى كثيراً ما أتعبها(*)، وقد حل محله الآن الضابط نور، ذو البشرة السمراء ورأسه العريض والملامح المنغولية، الذى يحمل أصولاً تركية- مصرية، والذى لم تكن إيفيت ترغب حتى فى رؤيته. وفى كل مرة حاول فريد أن يأتى به إلى المنزل بمصطفى باشا، كان يصطدم برفض إلياس القاطع «هذا أمر غير قابل للنقاش! (قال ذلك بالفرنسية)، إنه عدو للإنجليز»، لكنه لم يكن وحده فى البوليس المصرى. فقد كان ينتمى إلى جماعة من الضباط المتشددين فى عصر ما قبل جمال عبد الناصر، والذين بسبب تهديدهم العدائى لبيت البغاء بشارع مصطفى باشا تمكنوا من إدخال نور من أبوابه الخلفية.

بعد مفاجأة أندونيس غير المتوقعة، شعرت إيفيت بالإرهاق من إدارة بيت البغاء، ولكن يرجع السبب الأكبر فى إرهاقها لوجود بعض الفتيات اللاتى كن يتجسسن عليها ويلعبن دوراً قيادياً فى هذا البيت، إلى جانب بعض ضباط البوليس المصريين. وبدأت تشعر بالحنين لتلك الفترة التى كان بيتروس ثيميستوكليس يمدها بالفتيات، إلا أن ذلك القبرصى قد أصيب بالجدرى ولم تعد خدماته مطلوبة. وبالطبع فقد كانت الفترة التى عملت فيها روكسانى الجميلة وأختها ذانائى هى أجمل الفترات التى قدمت فيها أفضل الخدمات لعلية القوم من الوجهاء، لكنها أيام أصبحت فى عداد الذكرى. وبالنسبة لماريانثى – التى عرفت باسم " نيهير ذات القناع" – فقد ظلت حبيسه لسنوات فى تلك المصحة بجنوب فرنسا، قبل أن تقرر فى بدايات عام ١٩٣٠، أن تضع حداً لحياتها وتنتحر.

بدأت إيفيت، التى لم تعد تنتظر أى شىء، تفكر بشكل جدى فى ترك المدينة التى باتت تضربها بعنف موجات التغيير، كما أصبح الصاخبون من المصريين والإنجليز المتكبرين والأجانب المدعين يهددونها. ويموت أندونيس خاراميس شعرت إيفيت أن

الإسكندرية التى تعرفها قد ماتت معه. بدأ العفن ينبعث من جثة تلك المدينة العالمية ملوثًا هواءها، إن عاجلاً أو آجلاً، ولم تكن لدى إيفيت الرغبة فى الوجود فى ذلك الوقت حتى لا تشهد موت هذه المدينة.

فى صيف عام ١٩٣٦، قامت إيفيت برحلة كبيرة إلى أوربا، وعندما عادت مع بداية الخريف رأت أنه من الحكمة أن تطلع إلياس على قراراتها. لكنه فاجأها كالمعتاد بقوله، إنها لم تعد حرة فى ذلك الوقت على اتخاذ أى قرار بشأن حياتها، ولكى يقدم لها تفسيرات أكثر، قرر أن يصطحبها إلى مقر إدارة المخابرات التى تقع فى شارع يانج، فى منزل على طراز فنيسيا المعمارى، حيث تم إبلاغ إيفيت بأن السنوات الحالكة قادمة لا محالة، وهو ما وضح من خلال نبرة صوت مستر "فويس" (أى الصوت)، وهو المدير المجهول لإدارة المخابرات البريطانية بالمدينة. وقد سبق ذلك نوع من الطقوس فى غرفة الاستقبال المربعة، حيث تم زرع بعض الميكروفونات خلف النقوش الموجودة بالسقف. «من الآن فصاعداً أنتِ عضو رسمى فى منظمتنا. العائلة المالكة والشعب البريطانى يعبرون لك عن امتنانهم للخدمات التى قدمتيها لنا» بهذه الكلمات عبر لها "الصوت" عن امتنانه، ثم ازدادت فجأة حدة ذلك "الصوت" بعد ذلك عندما بدأ فى الإعلان بصوت جهورى عن الحرب التى تقترب، منتهيًا بأن القضية ليست إنقاذ الإسكندرية فقط ولكن إنقاذ العالم بأسره.

* * * * *

دخلنا إلى إحدى القرى الصغيرة من الطريق الدولى فى مدينة كورونيا قبل المعركة بوقت قصير. هذه الأرض البكر التى لم تمسها الحرب بعد. كان سكان القرية – وهم أناس فقراء يتمتعون بالهدوء – يعيشون حياتهم الطبيعية دون مبالاة بما يحدث. وقد انصب اهتمامنا على تحويل قريتهم إلى معسكر حقيقى للجيش مهما كان الثمن: جنود، أسلحة، مركبات حربية، وكل ما يحتاجه الجيش. بعد ذلك وصلت الطائرات وبدأت فى قصف القرية بالقنابل. هرب الفلاحون المذعورون فى اتجاهات مختلفة،

مخلفين وراءهم كل متعلقاتهم وكل حياتهم لنا ولأعدائنا. لم تتأخر معركتنا مع الفاشيين عن النشوب. حاربنا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ وحاولنا التماسك بكل ما أوتينا من قوة. في أوقات الهدوء لم يكن يخرج سوى ذلك المجنون الذى بقى وحده وهو يغنى ممسكًا بزجاجة نبيذ فى يده، متحديًا الفزع من هذه الحرب. لست أدرى إذا ما كنا سوف ننتصر، وإذا ما تمكنت من النجاة، فسوف أكتب عملاً أدبيًا رائعًا.

صديقك

هيمنجواى البلقان

كان ذلك هو أول خطاب يتسلمه كوستيس من أرض المعركة لجيش إسبانيا، وكان يعرف أن كلاً من إيفيتس ونيكيتاس أصبحا يخدمان فى الجيش الميدانى الحادى عشر.

* * * * *

بعد عدة أيام تسلم كوستيس خطابًا آخر تصادف أنه قد أرسل منذ وقت مضى، لكن فى تلك الظروف الطارئة لم تعد هناك أهمية للنظر فى مثل تلك الأمور. وهذا هو نص الخطاب:

وصلنا إلى مارسيليا وفى اليوم التالى ركب خمسمائة متطوع منا فى الباخرة "سيوداد برشلونة" (دونّها بالإسبانية). بعد يومين من إبحارها وصلنا إلى " أليكانتى " ومن هناك ركبنا القطار إلى" ألباثيتى " حيث مركز تجمع القوات الحربية. كادت الحالة أن تصبح سيئة للغاية لو لم يقم بعض الألمان الشيوعيين بتنظيف العنابر، ومن بينهم وجدت من يعرفك حق المعرفة. هل يذكرك اسم كارل جويتير بشىء؟ ذلك الرجل ضخم الجثة يرسل لك بالتحية. إنه المسئول عن تدريبنا. لقد منحونا زيًا عسكريًا، الله وحده يعلم من صنعه، فمن الصعب أن تجد لنفسك المقاس الصحيح. تخيل ابن خالك وهو يتجول مرتديًا الزى العسكرى. وبالنسبة للأمور الأخرى، يعد تدريب المبتدئين غاية فى

الصعوبة، فأغلبنا يمسك السلاح بيده لأول مرة فى نفس اللحظة التى نتوجه فيها إلى جبهة القتال. يقوم بعض الجنود الإنجليز الذين شاركوا فى الحرب العالمية الأولى بتدريبنا على حشو البنادق بالبارود. الأسلحة النارية التى لا تكفى الجميع نجدها غير مرتبة فى الصناديق، وحتى الآن يحاول المتطوعون المبتدئون عبثًا فهم أى شىء عنها، مما يجعل خطر الاشتباك والإصابة عظيمًا. وفى نهاية الأمر نحن نكن كل الاحترام للجنود الإسبان ونسعى لإقناعهم بأننا نمثل قوة تستطيع أن تتدخل فى اللحظة المناسبة لإنقاذ الموقف. ولحسن الحظ فإننا نتعلم الآن فى إسبانيا ماذا تعنى الحرب!

صديقك

هيمنجواى البلقان

فى تلك الأثناء، كان كوستيس قد حصل على خريطة لإسبانيا وكان يقوم فى أوقات فراغه بتحديد مواقع الخصمين ويتخيل كيفية تقدم العمليات الحربية كما كان يقراها فى الصحف؛ إلا أنه، فى واقع الأمر، كان يتخيل حربًا أخرى تخصه، تلك الحرب التى تعتمد فى تطورها على نزعاته ورغباته. مع الاعتقاد الثابت بأن الحرب هى الحرب دائمًا، سواء أكانت حربًا عسكرية أم حربًا اقتصادية، فقد نصَّب من نفسه قائدًا للديمقراطيين وأخذ يرسم بنفسه إستراتيجيتهم. وبهذه الطريقة كان يقاوم إحساسه بالأرق، مع الفارق بأن كل ما كان يصفه من خطط فى يقظته يصطحبه معه أثناء نومه، فيصيح أثناء نومه بأوامر متناثرة تنطلق من عقله المتقد. إلى أن وصله الخطاب التالى من إيفيتس ليعيده إلى الواقع المخيف للحرب:

أعتقد أن هذه الحرب فرصة لنا جميعًا نحن اليائسين. ولكى تفهم ما الذى أعنيه أعرفك أن فى وحدتنا العسكرية جنودًا سابقين من الجيش الأبيض الروسى أو أبناء الجيش الأبيض الذين يعانون من الحنين لبلدهم، يتمنون لو تمكنوا من تأمين عودتهم إلى الاتحاد السوفيتى. أين أنت يا فروبانوف!

هل تتصور كل واحد منا الآن لا يملك سوى حفنة من الطلقات، فى حين تعد الأسلحة النارية فى بعض المعسكرات الحربية نوعًا من الرفاهية.

كان كوستيس يتعامل مع هذه الحرب فى البداية باعتبارها لعبة، لكن مع استمرارها تأثر بشدة لحال مدينة " تيريل" التى لم تكن لها أية أهمية إستراتيجية، والتى أدت حماقة وتعنت القادة الديمقراطيين أن يجعلوا منها هدفًا غاية فى الأهمية، فأصبحت تلك المدينة مقبرة لاثنين من أصدقائه الثلاثة المحاربين. كانت البداية من نصيب كارل فويتير، وقد وصف إيفيتس موته فى معركه احتلال " تيريل " من قبل الديمقراطيين قائلاً:

قفز كارل إلى الأمام، وكان يقودنا بكل جرأة كما لو كان قائدًا لإحدى الرقصات فى أحد كباريهات برلين. لقد فقد هذا العملاق الطيب صوابه فى هذا الجحيم الذى سمُّوه بالحرب الإسبانية، حتى طلقات الرصاص لم ترحمه. مات كارل وهو يغنى النشيد الوطنى، أبقى الله حياتك، ولتتذكره.

ثم جاء الدور بعد ذلك على الصربى فى الثانى والعشرين من شهر فبراير لعام ١٩٣٨، وهو اليوم الذى تمكن فيه الوطنيون من احتلال المدينة. وقد تم إبلاغ كوستيس فيما بعد بنهايته، عندما عاد نيكيتاس - الناجى الوحيد من أصدقائه - إلى الإسكندرية. نجا ابن خال كوستيس من هذه الحرب المشوهة، وكان حاضراً لحظة مغادرة القوات الدولية من " نجرين" يوم الخامس عشر من شهر نوفمبر لعام ١٩٣٨، فى برشلونة. وبناءً عليه فقد تم تسريحهم من جبهة القتال وطلبوا منهم الرحيل عن إسبانيا.

عاد نيكيتاس إلى الإسكندرية فى نهاية نفس هذا العام. لكنه أصبح شخصًا آخر، حتى إن كوستيس اعتقد أنه قد فقد كل أصدقائه فى الحرب، وأن هذا الذى يدعى بأنه ابن خاله ليس إلا شخصًا غريبًا عليه، يحمل اسمه واستحوذ على مستقبله فى هذا العالم.

* * * * *

عندما توجه دكتور ماخوس إلى أثينا في خريف عام ١٩٣٦، تذكر مقولة والده له ولأخيه: «لابد أن تحبوا اليونان، بلدنا، ولكن من بعيد!» فكتب لأمه انطباعه الأول عن أثينا قائلاً:

أثينا، المدينة ـ الشبح، فمعظم زواياها معتمة وشوارعها قذرة، كما ينقصها الكثير من وسائل المواصلات. أما مدينة بيريه القديمة، فهي رمز للغلاء والجهل. علبة السجائر تكلف إثنتي عشرة دراخمة، وهي لا تضاهي سجائرنا. اليونان تعيش في القرن التاسع عشر. إنني أخجل باعتباري يونانيًا من النظر في عيون أصدقائي الألمان.

في البداية لم تعجب ماخوس فكرة الابتعاد عن "مركز العالم"، كما أطلق هو نفسه في إحدى مقالاته على ألمانيا في عصر هتلر، لهذا كتب لأخيه: المنفى الثاني لا يحتمل. منفى في البداية من قبل أبي الحقيقي، وأخيرًا فقد تم إبعادي عن أبي الروحي (رودولف إس) إلى عاصمة مظلمة بالقارة العجوز. تحزنني بربرية الجيش اليوناني على خلفية الآثار المرمرية. كم أشعر بالحنين للإسكندرية.

كانت العبارة الأخيرة تتردد كثيرًا في أذن كوستيس وهو يعدها بمثابة التهديد. فقد تمكن لمدة ثلاث سنوات – متبعًا في ذلك طريقة أبيه – أن يبقى ماخوس وفانيس بعيدين عن الإسكندرية، ممدًا إياهم بالمبالغ النقدية الطائلة. وكثيرًا ما كانت أمه تقول له:

«إنك تذكرني بأبيك، يا كوستيس، فكل من لم يرغب في وجوده يبعده بالمال. وخيرًا فعلت مع فانيس، لكن ماذا عن ولدنا ماخوس؟ ألا تظن أنه لا بد أن يعود إلى هنا يومًا ما؟».

إلا أن كوستيس لم تكن لديه الرغبة في التفكير في ذلك. فوجود أخاه المناصر للنازية في بلدٍ مثل مصر، التي لا تزال في جوهر الأمر ولاية إنجليزية، قد ينسف كل أعمال العائلة. وذات مرة ألمح له إلياس أن خطابات أخيه يتم الاطلاع عليها من قبل المخابرات البريطانية. هكذا إذن كان كوستيس على حق عندما كان يتساءل في نهاية الأمر عن أكبر فضائح العائلة: هل هو فانيس الابن غير الشرعي أم أنه ماخوس هتلري النزعة؟ ولحسن الحظ فكلاهما قد أعطى لنفسه أولويات أخرى في الحياة. وإذا كان

الثانى يخدم هتلر، فالأول لا يفعل شيئًا سوى الاستمتاع بحياته، ومن وجهة نظر اقتصادية فلم يكلف ذلك الأمر كوستيس الكثير من المال. لكن مطالب فانيس بدأ تزيد باستمرار مما أزعج كوستيس، بعد أن أصبح فتى عابثًا وكأنه قد حدد لنفسه هدفًا وهو تعويض كل ما فاته فى مدة ثلاث سنوات. كانت التلغرافات التى يرسلها طوال الوقت تدل على أنه لا يظهر أى نوع من التعقل. وكان كوستيس على دراية كافية بإغراءات الحياة فى مدن أوربا. حتى فى الإسكندرية كان البعض قد أطلق على كوستاراس لقب "خاراموفايس" - أى ذلك الذى يأكل ثروة خاراميس. إلى أن فاض الكيل بكوستيس، وقبل أن يغادر صديقه إيفيتس إلى إسبانيا بقليل ذكره بفوروبانوف، قائلاً:«إذا لم تكن لديك الرغبة فى دفع المال مجبرًا لفانيس فأرسل له ميسا ليريحك منه. إن أوربا اليوم تعد مكانًا خطيرًا. أليس من الطبيعى أن يقع بها حادث أو جريمة قتل؟ سوف يتولى الأمر ذلك الضابط الروسى، ولن يعرف أحد بذلك».

يبدو أن ذلك الصربى كان معه حق. وفى النهاية، فقد كانت الطريقة التى يحيا بها فانيس تعجل له بالموت. وقد دفع سماع خبر مصرع فانيس فى حادث سيارة بجنوب فرنسا فى بداية شهر نوفمبر من عام ١٩٣٦، البعض فى الإسكندرية للقول: «يا له من رجل محظوظ سواء أراد أم لا، فقد تخلص للأبد من هذا "الخاراموفايس"! أما كوستيس فكان ينام نومًا هادئًا، معتبرًا أن الحياة قد منحته حلاً عادلا.

فى تلك الأثناء، كان ماخوس فى أثينا يتلقى المفاجآت المحزنة الواحدة تلو الأخرى. فبينما كان يمنى النفس بمنصب المستشار الأول فى السفارة الألمانية بأثينا. سمع من فم هذا الرجل الضخم ذى النظارات الصغيرة الذى كان ينوب عن السفير، أنه قد تولى منصبًا فى وزارة الإعلام والسياحة بالحكومة اليونانية.

«كنت أظن أنكم قد أرسلتمونى لليونان لكى أخدم ألمانيا وهتلر» قال ذلك ماخوس معربًا عن حزنه.

نائب السفير: «لستم مخطئين فى هذا، فمن مكانكم الجديد يمكنكم أن تقدموا أكبر الخدمات للرايخ الثالث. إننى على ثقة من أنكم بخبرتكم بالقرب

من الهر جيبيلز ستقومون فى نفس الوقت بأداء عمل رائع لوطنكم الحقيقى الذى يحاول أن يلملم نفسه ويستعيد ماضيه العظيم تحت رعاية السيد رئيس الوزراء. وتتفقون معى أن كل شىء فى عصرنا الحالى يعتمد فى الأساس على الدعاية».

ماخـــوس: «بالطبع، لكن..........».

نائب السفير: «لا تدعوا المخاوف تحيِّركم، دكتور خاراميس. فلديكم عقل متقد. لتثقوا فى الفرص التى تقدم لكم. ولتثقوا بنا نحن. وفى النهاية أنا على يقين من أن ثقتنا بكم ستكون فى محلها».

ماخـــوس: «إذا كانت مسأله ثقة!».

نائب السفير: «بالطبع هى مسألة ثقة».

إلا أن ماخوس لم يكن على استعداد للثقة بأحد خاصةً بمثل هذا الرجل الذى كان لديه أكثر من سبب يجعله يقوض وجوده فى اليونان. ولذلك أرسل دون تردد تلغرافًا إلى إس قائلاً: «صديقى العزيز، لابد أن تعلموا أنهم قد خدعونى. دكتور ماخوس خاراميس».

كان ماخوس ينتظر على الأقل أن يقلب إس الدنيا حتى يسترد ماخوس حقه، لكن جاءته إجابة مفاجئة أخرى: «افعلوا ما تؤمرون به دون اعتراض. رودولف إس».

ومنذ تلك اللحظة أصبح لا شىء يبهجه داخل الحكومة اليونانية. فقد بدت له عربات الترام متهالكة، المطاعم قذرة، المسارح مزدحمة، محلات الحلوى الأرستقراطية بميدان سنداغما أصبحت شعبية. حتى طريق أتيكا السريع لم يعد يطل سوى على طرق ترابية وحارات ضيقة.

أما فى عمله فى الوزارة، فالأمور كانت أكثر سوءًا، وكان يصب جام غضبه فى خطاباته على نائب الوزير، فيقول: إن نيكولوذيس يقلل من شأنى، يا أمى. أتعلمى أنه قد مر فى أحد الأيام على الإسكندرية، دون أن يأخذ شيئًا من طباع أهل الإسكندرية.

إنه شخص مخادع بما تحمله الكلمة من معانٍ، وهو أحمق كما تقول عنه الشائعات. دائمًا ما يسألنى قائلاً: «دكتور خاراميس، ماذا نفعل إزاء الصحافة، ماذا نفعل تجاه الشباب؟». عندئذ أقدم له أفكارى ثم يعرضها بعد ذلك على أنها أفكاره.

أما عن زملائى فى العمل فإنهم أشخاص غير متزنين، عاجزين، متغطرسين، مروجى شائعات. إن مؤهلاتى تصيبهم بالرعب. ذات مرة سألنى أحد مديرى الأقسام: «أحقًا، أنكم تتحدثون خمس لغات يا دكتور؟» فأجبته «نعم» فقال: «يبدو لى أمرًا غريبًا، أتعرفون، فقد كنت أفكر فى أن الأشخاص متعددى اللغات هم أشخاص مضحكون. فهل من الممكن لذئب، على سبيل المثال، أن ينبح ويخور ويزأر ويزقزق» ولا أدرى كيف واتتنى الفكرة بأن أرد عليه قائلاً: «أفهم ما ترمون إليه جيدًا. فماذا تفعلون أنتم؟»، فسألنى: «ماذا تقصدون؟» فأجبته: «أقصد هل تنبحون، أم تخورون، أم تغردون، ما لغتكم الأصلية، يا صديقى؟» اللعنة لابد أن يقوم شخص بوضع هؤلاء الحمير فى مكانهم.

ولم تكن فكرته عن ميتاكساس أفضل. كيف تؤكد أنه يشبه العم يانيس؟ هكذا كتب إلى كوستيس: إنه قصير، سمين، يرتدى نظارة سميكة، يرتدى ملابس تفتقر إلى الذوق كما أنه يشعر بالغيرة منى. لقد قال إلى نيكولوذيس بالحرف الواحد:«لماذا أحضرتم هذا الرجل إلى هنا؟ هل ليذكرنى بأنى قصير، وقبيح ولا أعرف كلمة واحدة بالإنجليزية؟».

كان ماخوس يدخر أجمل لحظاته باليونان، ويدوِّنها فى مذكراته التى غالبًا ما كان يحملها معه فكتب يقول: قمت بإعطاء بعض المحاضرات عن نيتشه وعن اليونان القديمة. كان الحضور كبيرًا. أخيرًا، هناك شىء يشعرنى بالسعادة! اقترب منى شاب أمريكى طويل القامة ونحيف يشبه النخلة. اسمه أليكس بيرس، تسمع صوته وكأنه يهمهم. اكتشفت من خلال مناقشاتنا أننا نتفق فى الرأى بخصوص الحب فى اليونان القديمة.

وفى صيف عام ١٩٣٧، كتب فى نفس المذكرات بعد مرور وقت طويل: سأذهب للاستحمام فى شواطئ فاليرو التى تشبه شواطئ ستانلى بك بالكبائن الموجودة بها. فى محلات الحلوى الأرستقراطية بشارع " الجامعة " تنتشر النساء العانسات كالجراد

"التماثيل"، هكذا يطلق عليهن الشباب ساخرين. يمسكن بالمراوح فى أيديهن ويحركنها يمينًا ويسارًا وهن يتأففن من الحر. تقترب الذكرى السنوية للعيد الرابع من أغسطس، وقد تذكرنى فيها الجميع. نيكولوذيس يحاول إرضائى بقوله: "قل لنا أية فكرة يا دكتور" إلا أننى أتظاهر معه بالبلاهة. كنت أتمنى أن أكون بالإسكندرية إلا أن هذا الأمر يعد مستحيلاً فى الوقت الحالى. ربما فى الشتاء القادم.

وهكذا، فقد أمضى ماخوس كل فصل الشتاء محتجزًا فى أثينا، وقد شرح أسباب ذلك لأمه فى أحد خطاباته: "الخاطبة!"، نعم، رأيناها هنا فى الحكومة اليونانية. هذا الخنزير نيكولوذيس يريد أن يزوجنى ابنة أخته. لكننى أوقفته عند حده حين قلت له: «لقد عشتم فى الإسكندرية وتعلمون أن أهل الإسكندرية لا يتزوجون»، فأجابنى ذلك الأحمق: «لكن كيف ذلك!، فمما علمت أن أخاكم متزوج".

عندما قال ذلك أجابه ماخوس بأن أخاكم لم يتزوج من امرأة ولكنه تزوج من يهودية. لكنه رأى من الأفضل أن لا يذكر ذلك فى خطابه. كما لم يذكر بالطبع دهشة نائب الوزير. فى تلك الأثناء، فقد اضطر أليكس بيرس للعودة لأمريكا وكانت الوحدة فى شتاء أثينا لا توصف.

فى شهر مايو من عام ١٩٣٨، جاءته الموافقة أخيرًا، ووصف دكتور خاراميس لأمه إنتصار زابيوس قائلاً: فى القسم اليونانى للمكتب المركزى الدولى " متعة وعمل" وقد افتتح دكتور روبيرت مبنى زابيوس. آه يا أمى، كان الجميع هناك، لكن ما إن رآنى روبرت، حتى ترك الجميع، ومن بينهم ميتاكساس نفسه، وأسرع لتحيتى. ليتك استمعت إليه وهو يقول: «دكتور خاراميس، أنت هنا!» تناقشنا لمدة عشر دقائق باعتبارنا صديقين حميمين، وكان الوزراء المجتمعون يجلسون وهم ينظرون إلينا كالبلهاء. أتخيل كيف كان العم ثاناسيس سينفجر من الغيرة.

وفى خطابها التالى سألته ذافنى سؤالها المعتاد: ألا تعتقد أنه قد حان الوقت لكى تعود إلى مصر؟ لكن ماخوس، الذى كان يتمنى أن لا يتركه الألمان فى حيرته لمدة طويلة، لم يكن يرغب حتى التفكير فى ذلك.

ورغم كل ذلك، فقد كتب لها فى شهر نوفمبر من نفس العام قائلاً: يسعدنى أن أبلغك بقرب عودتى إلى مصر. سيكون لى عمل مؤقت فى السفارة اليونانية بالقاهرة. وإلى ذلك الحين، أتمنى عدم إبلاغ أحد حفاظًا على السرية. فليست لدى الرغبة فى الحضور إلى الإسكندرية. هذه المأمورية غاية فى الأهمية من أجل مصلحة الوطن. الصبر.

كان ماخوس يكذب للمرة الثانية. فقد كان فى طريقة إلى مصر لكى يلعب دوراً مزدوجًا، حيث يذكر خطاب النقل بوضوح: «سيكون دكتور ماخوس خاراميس القوة الدافعة للسفارة اليونانية بالقاهرة بشكل مؤقت تقديراً للأهمية السياسية لمصر واليونان» وفى نفس الوقت كان ماخوس يعمل جاسوسًا للمخابرات الألمانية. ها هم إذن أصدقاؤه الذين لم ينسوه. لقد بدت له كلمات الملحق العسكرى بالسفارة الألمانية مثل الإطراء:

«إذا ما استطعتم، فى إطار واجباتكم الدبلوماسية، أن تجمعوا معلومات عن وجود القوات الأجنبية فى شمال أفريقيا، فسوف تدعمون بذلك سبل زيادة حقوق الرايخ الثالث فى القارة السوداء».

وكان ذلك وصفًا مهذبًا لمهمة الجاسوسية القذرة، ولكن فى حالة الدكتور خاراميس لم يكن من الضرورى استخدام مثل هذا الوصف، فقد كان الرجل السكندرى الوسيم يشعر بالفخر وهو على وشك أن يصبح مكتشف العالم الجديد فى أرض مصر، ولذلك فقد أجاب الملحق العسكرى الألمانى بقوله:

«لابد أن تعرفوا أن أهل مصر ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذى سيحررهم فيه هتلر من القوات البريطانية». وعندئذ ابتسم كلاهما ابتسامة رضا.

لم تتم عودة ماخوس إلى مصر بالطريقة المعتادة. فبدلاً من ركوب الباخرة المتجهة من ميناء بيريه (باليونان) إلى الإسكندرية، فضل ماخوس أن يركب باخرة تجارية تصل به إلى بور توفيق ثم يتجه من هناك مباشرة إلى القاهرة. كان الشتاء قد حل

وفكر ماخوس فى أنه إذا ما ركب القطار فى الصباح فسوف يلحق بطعام الغداء مع العائلة، لكن كان وجود زوجة أخيه اليهودية يضايقه بشدة، مثلما كانت تضايقه نظرة محمود القذرة التى تحمل معانى خفية، تلك النظرة التى ذكرته بتجارب سابقة محزنة. وكان أكثر ما يخيفه هو؛ أن لا يتعرف على الإسكندرية التى كانت أمه تصفها له فى خطاباتها، مما جعله يشعر بأنه قد أهدر أجمل سنوات عمره فى مدن غريبة بين أناس غرباء. من يدرِ فربما أدى مرور كل تلك السنين إلى نسيان مشاركته فى فضيحة "قطار باكوس". لا لم يكن هذا هو الوقت المناسب للعودة إلى الإسكندرية.

ومن جهة أخرى، فقد استحوذت بعض الأحداث التى وقعت فى القاهرة على اهتمام الجميع، وكان أهمها زواج الملك فاروق من فريدة. فى العام الذى رحل فيه ماخوس منفيًا إلى ألمانيا، كان الملك فاروق يبلغ من العمر عامين. وفجأة، يعود ماخوس ليجده متوجًا على العرش، ويستعد للزواج ممن اختارها قلبه، وهى ابنة لباشا مصرى يعمل قاضيًا بالاستئناف بالمحاكم المختلطة. إن كبرياءه لا يتحمل ذلك، فمن ذا الذى ترك الوقت ليمر فى غيابه؟ متى بلغ فاروق سن الرشد، متى أصبح سباحًا من الدرجة الأولى ومصارعًا لا يضاهى، ومبارزًا لا يقهر وكذلك فارسًا متألقًا؟

كانت مراسم الزواج تشبه ما يكتب فى الروايات: سوف تنتقل العروس الشابة، بعد توقيع عقد الزواج، من منزلها إلى القصر داخل عربة زجاجية رسمية، مرتدية رداء فرحها باهظ التكاليف. فى ذلك اليوم، سوف يكون هذا هو الظهور الوحيد لها أمام الناس، لكن هناك من يقول: إن الملك والملكة سوف يختلطان بالمواطنين بعد عصر ذلك اليوم، وفى تلك اللحظة سيتم إشعال الألعاب النارية. سيقوم الطهاة بطهو مائة طن من اللحوم ثم تقدم مجانًا لآلاف الأسر. آلاف المراكب التى تبحر فى النيل والمليئة بالآلات الموسيقية النوبية ستعزف الأغانى الشعبية المصرية. كميات هائلة من الزهور تصل من كل أرجاء مصر، وأيضًا هدايا من كل أنحاء العالم، حيث يتولى الخدم والعاملون بالقصر العناية بها. وفى المساء سيقام أول عشاء يجلس فيه رئيس الوزارة جنبًا إلى جنب مع أعضاء مجلس الوزراء وقيادات الجيش من الضباط. وسوف يشارك دكتور

ماخوس في الوفد اليوناني الرسمي الذي سيقوم بتسليم الهدية المقدمة من اليونان - وهي عبارة عن تمثال من الفن اليوناني. لقد أظهر المستشار هتلر مرة أخرى مدى عظمته، حيث أهدى الملك فاروق سيارة فارهة.

وكانت حفلات الزفاف الملكية فرصة طيبة للقاء والدته التي حضرت خصيصًا من الإسكندرية لمتابعة مراسم الزواج. وكانت السيدة ذافني قد توقفت عن السفر خارج مصر بعد مرض زوجها، ولذلك فقد مضت أربعة أعوام منذ آخر مرة تقابلا فيها، وقد تناولوا معًا الطعام في منزل الخال لوكاس في مصر الجديدة. ذلك المنزل المتميز وسط صخب كل هذه الطرز المعمارية: فقد كان قصرًا له طراز معماري عربي تختلف واجهته عن طرز البناء الجريئة، وقد أدت صفوف الأشجار الطويلة المتراصة إلى حجب المنزل عن الشارع. كان ثراء لوكاس سينجوس باديًا في طبقات الرخام والكريستال المستخدمة وفي البلاط المزخرف، لكن ثراءه يبدو واضحًا وبشدة في تلك التحف الهائلة التي تنتمي إلى عصور ما قبل التاريخ والتي كانت تزين جنبات المنزل. وكان ذلك بالتحديد ما سبب لماخوس شعورًا غريبًا بالراحة.

ذافني: «إن ذلك لأمر مخز» (قالت ذلك بالفرنسية) كانت تلك الجملة الأولى لأمه بمجرد أن جلسوا على المائدة، ثم استطردت قائلة:«فأنت على بعد خطوات من منزلك ولا تحضر لزيارتنا. انظر لأخيك وزوجته وابنة أخيك. الناس تتحدث عنا».

ماخوس: «تعلمين أن ثرثرة أهل المدينة لا تهمني (قال ذلك بالفرنسية). أما بالنسبة لأخي، فإنه يفعل ما كان المرحوم أبي يفعله. إنه يغرقني بالنقود حتى يبقيني بعيدًا عن الإسكندرية، ربما لأنه يخجل من زوجته اليهودية التي أتى بها. أظن ذلك».

- «أنا لا أسمح لك أن تتحدث بهذه الطريقة عن زوجة أخيك» قالت ذافني ذلك، ولكنها تبدو في أعماق نفسها وكأنها توافق ابنها الرأي. أما ماخوس فقد استمد قوة من موقفها هذا، وأشار للخال لوكاس، الذي كان الصلع يزداد في رأسه بمرور السنين، ثم قال بكل فخر:

«هذا هو قريبى الوحيد الذى أملكه فى مصر. هذا الذى يقف اليوم أمام سطوة آل خاراميس. لابد أن تعلمى، يا أمى، أننى أنتمى بنسبة ثمانين بالمائة لعائلة سينجوس، وعشرين بالمائة فقط لعائلة خاراميس. أرستقراطى من الجيل الثالث ولست "مدعى نعمة" (قالها بالفرنسية) متبجحًا. لقد عانيت كثيرًا، كلنا عانينا من رب أسرة مستبد، يلوِّح طوال تلك السنين بأمواله أمام أعيننا ويتهمنا بأننا نقلل من مكانته بسبب جذورنا، حتى ثبت أن فضيحته هى الأكبر بين فضائح العائلة.

لوكاس: «عزيزى ماخوس، إنك تبالغ كثيرًا، أعتقد أن الأهم من ذلك هو احترام موتانا» قال ذلك خاله بهدوء، وبينما كان يداعب شاربه الحاد وهو يبدو سعيدًا من لهجة ابن أخته الساخرة، التى تصب فى صالحه. لكن ماخوس لم يتوقف فاستكمل قائلاً:

«دعنى، يا خالى، دعنى أرجوك، ففى النهاية لابد أن يتكلم أحد فى هذه العائلة» ثم استدار نحو أمه وقال: «أتعرفين لماذا لا أريد أن أطأ بقدمى الإسكندرية؟ لأن ظله ما زال جاثما عليها. أتريدون أن أخبركم بحقيقة أندونيس خاراميس؟ إنه شيطان فقير كبر وتحول إلى كائن آخر. لقد حط من قدرك، يا أمى. وطرد أخاك، وأرسل بابن أخيك للسجن، وحرمك من ولديكِ، وفى النهاية ظهر أن لديه ابنًا آخر غير شرعى! ضحية أخرى من ضحاياه، من امرأة أخرى. ومن يدر كم عدد النساء اللاتى خانك معهن».

دافنى: «لا تتحدث بهذه الطريقة، يا بنى!» قالت ذلك وهى تضع كف يدها على فمه. أنها تتقاسم مع ابنها شعوره بالغضب، لكنها لم ترغب فى أن تسمع منه المزيد. لقد أرهقتها أعمال أندونيس المشينة التى لا حصر لها، مخلفًا وراءه فضيحة أخرى لكى تصبح مثارًا لسخرية الناس. لكن الموتى مع الموتى والأحياء مع الأحياء. أما الآن فكل ما يقلقها هو حالة ماخوس، فربما كان لقاؤهم هذا فى وجود لوكاس الفرصة الوحيدة لكى تقنعه بتغيير مسار حياته، وكان عليها أن تفعل كل ما فى وسعها حتى تحقق هدفها.

ذافني: «ما حدث قد حدث، يا عزيزى ماخوس. وحان الوقت للم شمل أسرتنا. حان الوقت لتعود أنت أيضًا إلى حيث تؤول. لتساعد فى المصنع بإلغاء التسهيلات الضريبية، فقد أصبحت الأمور أكثر صعوبة، ومن الآن فصاعدًا سوف يتم فرض ضرائب على أرباح المشروعات التجارية. وأنت تعرف ما الذى يعنيه ذلك».

ماخوس: «الإنجليز الأشرار هم المسئولون فى ذلك. حتى يستطيعوا تأمين وجودهم العسكرى فى مصر، وقد تركوا جميع الرعايا الأوربيين معلقين».

- «يكفى هذا (قالتها بالفرنسية) الإنجليز ليسوا مسئولين عن كل خطأ، إلى جانب أن الكل يتحدث اليوم عن الحرب، فإذا نشبت فى النهاية، أخشى أنك ستتحول حينها إلى المعسكر الآخر».

- «فلتشتعل، فلتشتعل إذن الحرب، ولتصبح نارًا حارقة تأتى على الأخضر واليابس وتسقط الملوك من عروشهم. "فالمسيح الجديد" ليس سوى قزم هزيل لم يأت ليعلم الناس الحب ولكن ليعلمهم العدالة، لم يأت ليحتضن البشر البائسين ولكن البشر العظماء. لقد بدأت عملية فرز مدهشة للأوراق. حتى لا يصبح هناك بشر معاقون جسديًا أو نفسيًا يعيشون عالة على الآخرين فالعالم الجديد، العالم الرائع أمامنا الآن!».

قال ذلك ماخوس وقد غشى وجهه ظل شيطانى، حتى إن جمال وجهه الذى كان الجميع يتحدثون عنه بانبهار شديد، لم يعد له وجود. لقد أخذت الكراهية غير المبررة فى الازدياد داخل جنبات هذا المخلوق الجميل حتى ملأت كل المكان. استدار تجاه لوكاس فوجده وقد وضع شوكة الطعام من يده وهو ينظر إليه بذهول. تبعت ذلك لحظة من الصمت التام ثم نمت إلى أسماعهم بعد ذلك أصوات الألعاب النارية الملكية صادرة من جهة النيل. إلا أن أصواتها باتت تتردد فى أذن ذافنى وكأنها إعلان مخيف للحرب.

الفصل الثالث

أخطو بثقة السائر أثناء نومه

على الدرب الذى سمته لى العناية الإلهية

(هتلر، ١٤مارس ١٩٣٦)

«حسنًا، إنها الحرب» هكذا صاحت هايكى (بالفرنسية)، ثم تملكتها نوبة من الضحك والبكاء معًا. وبينما كانت تنحنى فوق المائدة، أوقعت دون قصد منها كأسها فوق مفرش المائدة الأبيض، لكن الأمر بدا كما لو أنها فعلت ذلك متعمِّدة، فاستداروا نحوها ورمقوها جميعًا بنظرة استهجان، فى حين كانت حماتها تهمهم غاضبة بقولها: «تمالكى نفسك، ياعزيزتى» (قالت ذلك بالإنجليزية) لكن نصيحتها ذهبت هباءً، لأن زوجة ابنها أبدت ضيقها بعض الشىء ولكنها لم تعرها اهتمامًا. فى تلك الأثناء، دب النشاط فى المكان كله وأسرعت الخادمات المصريات ورئيس الخدم بزيهم التقليدى فى حركة متناسقة لتنظيف المكان إلا أنهم تسببوا فى زيادة اضطراب الجالسين.

كان كل شىء يسير سيرًا حسنًا حتى اللحظة التى اعتقد فيها إلياس خورى، الذى دائمًا ما يتنبأ بالأخبار السيئة، أنه من الأفضل أن يتولى مهمة الإعلان مبكرًا عن تطورات الأحداث، وأن يخبر الحاضرين بدخول إيطاليا المتوقع فى الحرب. على أية حال، فقد كان أمرًا يتوقعه الجميع فى الإسكندرية منذ شهر مضى، حيث كانت ألمانيا قد احتلت الدول المجاورة لها، وكانت مسألة وقت حتى يقوم موسولينى بخطوة ما ضد مصر. إلى هذا الحد، لم يكن هناك من يرغب فى تصديق ذلك وبخاصة ذافنى، التى

شعرت بأن الحديث عن إعلان الحرب قد قضى على هدوء ظهيرة أيام الأحد من شهر يونيو، وربما كان آخر الأيام التى يشعرون فيها بالأمان. فجأة وصل إلى المائدة طبق ضخم يحتوى على وجبة من سمك "البلطى"(ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) الشهى وهو من أسماك النيل، والذى كانت ماريا قد تولت إعداده، ولكن كان الجميع قد فقدوا شهيتهم، ولم يمسوا كل ما تم وضعه فى الأطباق أمامهم من الطعام، وكذلك أسماك البربونى التى وضعت على المائدة بكميات كبيرة حتى انتهى المطاف بالطعام فى وقت لاحق إلى بطون الخدم الذين، مثلهم فى ذلك مثل كل المصريين، كانوا يواجهون الحرب بلا مبالاة.

ما الذى كان بإمكانهم أن يفعلوه غير ذلك؟ لقد أظلمت مصر بالفعل منذ بداية شهر مايو، واضطر الجميع إلى وضع قطع من الورق الأزرق على النوافذ، وفى كل مرة تنطلق فيها صفارات الإنذار مدوية، كانوا يهرعون إلى المخابئ. وفى يوم الأحد تجمعوا كالمعتاد فى الحديقة حول المائدة البيضاوية، متظاهرين بعدم اهتمامهم بنذر الحرب – فيما عدا أفراد الأسرة وإلياس خورى – وكان بصحبتهم نيكيتاس وأمه الخالة ماريا وأندرياس سيستانيس وزوجته وأبناؤهما (بأجسادهم الضخمة، وأطوالهم الفارعة، وبالمثل كانت السيدة سيستانيس امرأة بدينة) وكان معهم أيضًا نائب مدير بنك باركليز فابيو أدريانى، الإيطالى – اليهودى، وولده الذى يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا (ولم تحضر زوجته مارتا – الصديقة المقربة من هايكى – التى فضلت البقاء فى المنزل للعناية بطفلتهما التى كانت تعانى من مرض الجدرى)، وأيضًا ميسا ڤوروبانوف.

ذافنى: «عزيزى إلياس، فلنفترض أنكم على صواب، وأن إيطاليا ستدخل غدًا فى الحرب، هل هذا يعنى أنها ستتحرك "فى التو واللحظة"(قالتها بالفرنسية) ضد مصر؟». هكذا سألت ذافنى وقد رمقت زوجة ابنها بنظرة شرسة، حيث لم تكن قد تحسنت بعد.

إلياس: «بلا شك، يا مدام (قالها بالفرنسية)، وإلا فما المغزى من وراء كل هذا التعتيم وتلك الاحتياطات الأمنية التى فرضت منذ شهر، إذا لم يكن هناك خوف من الإيطاليين؟».

دافنـــى: «إذًا بداية من الغد......» كانت دافنى على وشك أن تقول شيئًا، ولكنها نهضت من مكانها بسبب انزعاجها مما تفعله هايكى بشكل يثير الاستفزاز، وألقت بمنديلها على المائدة بانفعال شديد، وصاحت: «هايكى، إنك صعبة الاحتمال».

عندئذ أضطر كوستيس للتدخل قائلاً لزوجته: «توقفى الآن، يا عزيزتى» لكن كان ذلك دون رغبة منه فى إيقافها، وكاد أن يضحك، الأمر الذى أثار غضب أمه. فى تلك اللحظة، أدار أحدهم جهاز الجراموفون، فانبعثت منه موسيقى الڤالس ولم يُضع كوستيس الفرصة فجذب أمه ووضع يده بطريقة حانية حول خصرها وبدأ يراقصها فى وسط الحديقة.

دافنـــى: «ألن تكبح جماحها أم تريدنى أنا أن أفعل ذلك؟» همست دافنى بذلك فى أذنه وهى فى شدة الغضب.

كوستيس: «الصبر (قالها بالفرنسية)، يا أمى. أعرف أن ما فعلته ليس "لائقًا" (قالها بالفرنسية) منها، ولكن تخيلى لو أنك فى مكانها، ففى اللحظة التى نتحدث فيها الآن احتل الألمان وطنها، فى حين أن أمها، التى تعيش وحدها فى باريس، توجد على بعد خطوات من النازيين، وهو أمر ليس بالهين، "أليس كذلك؟"(قالها بالفرنسية)».

- «على أية حال (قالتها بالإنجليزية)، هذا الأمر ليس مدعاة لكى تشرب فتاة فى سنها مثل هذا القدر من النبيذ».

- «أعلم أنها تفرط فى شرب الخمر (قال ذلك بالإنجليزية). سأتحدث معها، لا تقلقى».

- «إنها ليست الوحيدة التى تعانى من المشاكل. ما الذى ستقوله ماريا وزوج ابنتها. أما وقد دخل الإيطاليون الآن الحرب، فسوف تواجه مشكلة أكبر، لكن ينبغى أن تواجهها بهدوء».

- «أتقولين ذلك لى! انظرى إلى نيكيتاس كيف بدا شاحبًا منذ اللحظة التى أعلن فيها إلياس الأنباء السيئة. حتى فابيو بدا عليه الضيق بمجرد سماعه هذه الأنباء. "وبعد لحظات" (قالها بالفرنسية) سينهض ويغادر المكان، ولن أكون كوستيس إذا لم يفعل ذلك».

- «فابيو! لكن ما المشكلة التى ستواجه رجلاً يهوديًا معاديًا للفاشية بالإسكندرية؟».

- «يهودى نعم، ولكنه إيطالى صميم. على أية حال، الآن وبمجرد أن نعود إلى المائدة، سوف اصطحب ضيوفى من الرجال إلى الكشك. ومن جانبك حاولى أن تعيدى الأمور بينك وبين زوجة ابنك إلى مجاريها، أرجوك يا أمى، افعلى ذلك من أجلى».

- «سأحاول جاهدة. "أعدك بذلك"(قالتها بالفرنسية)، لكن هيا لنذهب الآن فقد أرهقتنى. فأنت صعب المراس مثل أبيك» قالت ذلك وضحكا معًا.

وحتى يتجنب كوستيس أية مفاجآت غير سارة، عرض على ضيوفه من الرجال أن ينتقلوا إلى " كشك الصداقة ". فى نفس اللحظة طلب فابيو، الذى كان يبدو عليه الاضطراب، قبعته وأشار إلى ابنه لكى يرحلا. وقد حاول أن ينقذ ماء وجهه، لكن كان واضحًا أن هذا النبأ أفسد عليه متعته أكثر مما سببه له مرض الجدرى الذى اصيبت به ابنته. أما الآخرون فقد غادروا جميعًا المائدة مرحبين، وتبعوا كوستيس إلى الجانب الآخر من الحديقة. حمل كل منهم كأس الشراب فى يده. بينما أسرع خلفهم الخادم المصرى بحركة مضحكة حاملاً زجاجة النبيذ فى وعاء به ثلج.

كوستيس: «ولماذا لم يقم دوتشيه بإعلان الحرب حتى اليوم، طالما أنه قد قرر ذلك كما تقول؟» كان هذا هو السؤال الأول الذى طرحه كوستيس على صديقه " اللبنانى"، بمجرد جلوسهم فى الكشك.

إليـاس: «أفى يوم من أيام الأحد؟ لابد أنك تمزح بالطبع! حتى الحرب لها أيام عمل رسمية، "يا صديقى" (قالها بالفرنسية)» أجابه إلياس بينما كانت الخواتم تتلألأ فى أصابعه مرسومًا عليها شعار النبل.

أخذ رجل صناعة السجائر اليونانى النبيذ من وعاء الثلج وصب لأصدقائه بادئًا بصديق والده، قائلاً:

- «وماذا تعنى هذه الحرب بالنسبة لنا، يا إلياس؟ ولا تنس أننا نمد البحرية الإنجليزية بالسجائر».

- «كيف يمكن أن أنسى ذلك، وأنا من أصر على إنهاء هذا الاتفاق مع الإنجليز؟» قال ذلك بينما كان يهز الكأس فى يده بشكل دائرى، ثم استكمل حديثه قائلاً: «فى حالتك فإن الحرب تعنى " نقوداً كثيرة "(قالها بالفرنسية)، كما كانت تعنى بالنسبة لأبيك منذ خمسة وعشرين عامًا مضت».

- «ولكننى فقط كنت أفضل الحصول على المال بطريقة أقل دموية».

- «الحرب والتجارة كلاهما صنوان، هكذا نقول فى بلادنا. كم هى غريبة هذه الحياة!» قالها اللبنانى موضحًا.

- « لماذا تقول ذلك؟».

- «أتذكر اليوم الذى أعلنت فى الحرب العالمية الأولى، كنت وقتها فى القاهرة مع أندونيس وسيستانيس، أتذكر ذلك اليوم، يا أندرياس؟».

- «وكيف يمكن أن أنساه؟» هكذا علق مدير المصنع.

- «فى ذلك اليوم توجهنا إلى القاهرة لتوقيع العقد مع الجيش الإنجليزى. وكنا شبابًا فى ذلك الوقت، حيث كان شعرى أسود شديد السمرة، مصففًا بزيت الشعر مما جعلنى أبدو كما لو كنت أرتدى خوذة مثبتة على رأسى؛ أتذكر، يا أندرياس، كيف حاول الإنجليزى المغالاة فى شروط العقد. لكن خاراميس استطاع أن يتغلب عليه»، وعندئذ ضحك الرجلان بعفوية ثم أكمل إلياس قائلاً: «ماذا تقول؟ فمثل هؤلاء الرجال خلقوا ليصبحوا رجال أعمال. لابد أن تكون فخورًا بأبيك، يا كوستيس».

- «أنا فخور به بالفعل، وأنت تعلم ذلك جيداً».

- «وهو أيضًا كان فخورًا بك».

وعندئذ فكر كوستيس فى شخصيتين شعر أنه يفتقدهما: والده المتوفى وأخيه، الذى أصبح وكأنه ميت، ولم يكن هناك من يذكره، ثم قال:

«أحقًا كان أبى فخورًا بى؟ هكذا أعتقد أنا أيضًا على الرغم من أن الأمر لم يبد لى كذلك».

إلياس: «نعم، وسأقول لك اليوم شيئًا كان قد ذكره لى من قبل، حيث قال: "لو أن الله قد حبانى بابن مثل نيكيتاس إلى جانب كوستيس!" إنها الحقيقة يا نيكيتاس، أقولها بكل صدق» قال ذلك إلياس بطريقته المسرحية التى تجعلك تتساءل إذا ما كان يسخر منك أمام الناس. ثم استكمل قائلاً: «أما بالنسبة لسيستانيس فلست فى حاجة لأن أقول شيئًا. فقد جعل منه خاراميس مديرًا للمصنع».

وهكذا لم يرغب إلياس أن يشعر أحد بالحزن، حتى إنه أعرب لميسا أن أندونيس لو كان قد تعرف إليه لأحبه بالتأكيد. فى تلك اللحظة تحركت أوراق شجرة الأكاسيا من فوقهم وأصبحت كالمروحة الضخمة تمنحهم نسمات من الهواء وهم جالسون فى الكشك. وجال بخاطر كوستيس كيف يمتلك هذا الرجل دائمًا تلك الموهبة التى تمكنه من جعل الآخرين يشعرون بالرضا عن أنفسهم. إلا أنه تذكر أيضًا كيف أنه يصر أحيانًا على مغازلة زوجته هايكى، فأراد أن يضايقه قليلاً وقال له:

«أتريد أن تعرف الآن رأى والدى فيك؟ أسوأ مما تظن».

إلياس: «لكنه لم يكن ليفعل أى شىء بدونى».

كوستيس: «بطريقة ما، نعم، لم يكن يستطيع» قالها كوستيس مؤكدًا على كلامه ثم ضحكوا جميعًا. بعد ذلك أحضر لهم كوستيس المنتج الجديد من السجائر التى ينتجها مصنعه، وهى ماركة "يوليوس قيصر"(ذكرها باللاتينية).

نيكيتاس: «إنها فعلاً سيجارة القياصرة».

سيستانيس: «غريب جدًا، لقد أبدى نفس الرأى خبير التذوق بالمصنع» هكذا علق سيستانيس، الذى صبغ النبيذ بشرته باللون الوردى.

كوستيس: «ها هو عمل يمكنك القيام به، يا نيكيتاس» قال ذلك مازحًا.

نيكيتاس: «نعم، وإلا سأحمل السلاح من جديد في الحرب التي تنبأ بها إلياس. لكن يبدو أن الأمور في هذه المرة مختلفة تمامًا. فنحن نواجه الفاشيين من ناحية، والرأسماليين من ناحية أخرى. فمن نؤيد؟ اللعنة إذن على هذه الحرب؟».

عندئذ نهض نيكيتاس وأخذ يتجول في الحديقة. فبعد عودته من الحرب الإسبانية كان وزنه يزيد من خمسة إلى عشرة كيلو جرامات في كل عام، ولو استمر بهذا المعدل، فلن يصبح كائنًا عاديًا.

شعر كوستيس أن في كلمات ابن خاله تلميحات ضده، وكان لزامًا عليه أن يعتذر له، وعندئذ قال: «إنه لم يعش في برلين التي أقامها هتلر، ولم يرهم وهم يتحولون شيئًا فشيئًا إلى حيوانات، لذلك تحدث بهذه الطريقة!».

إلى هنا انتهى جو المرح الذي كانت الصحبة تستمتع به، وكذلك نسمات هواء الصيف. فقد حاصر الحر والذباب الكشك. وسمع الجميع هدير صوت إحدى الطائرات فرفعوا بصرهم إلى أعلى.

«لا داعي للانزعاج، إنها مجرد طائرة استطلاع سوف تلتقط بعض الصور وترحل. لا يوجد ما يدعو للقلق» هكذا قال إلياس. ورغم ذلك، فقد استدار كوستيس قلقًا تجاه ابنته ذافني الصغيرة بردائها الأبيض المصنوع من القطن – وفكر كيف كبرت بهذه السرعة – كانت ذافني تلعب حول التماثيل في الحديقة وكانت مس چين، المربية مترهلة الجسم، تعدو خلفها وكأنها تحاول الإمساك بها. كانت ضحكاتهما وصرخاتهما لا تنقطع، وتشعر أنهما في منتهى البراءة، غير مباليتين بالخطر القادم. كانت ضفائر الطفلة الصغيرة الذهبية نسخة طبق الأصل من والدتها، كما كانت الطفلة نفسها شديدة الشبه بهايكي، وكان كوستيس سعيدًا لأن ابنته قد أخذت نفس جمال أمها.

أما ابنا سيستانيس، فكانا يستندان إلى شجرة الأكاسيا الضخمة ويأكلان الآيس كريم، غير مباليين بما يدور حولهما، في حين جلست النساء تحت "الشمسية" (ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) الضخمة، وقد انهمكن في لعب الورق.

أما الخادمة المصرية الشابة التى تدعى فاطمة الخامسة - وهو لقب أطلقه عليها كوستيس - فكانت تقوم على خدمتهم بتقديم القهوة فى فناجين فضية. وكان الأمر غريبًا من وجهة نظر كوستيس، فأغلب الخادمات اللاتى يعملن فى هذا المنزل على مر السنين كن يحملن اسم فاطمة أو اسم فوزية. ويبدو أنه قد أصبح على قناعة فى النهاية من أن هذا الاسم الشائع كان بمثابة الكود الثابت فى رابطة الخدم. كانت فاطمة ترتدى قرطًا ضخمًا على هيئة هلال يتدلى من أذنيها، وكان يهتز وهى تمشى كبندول الساعة، وتتسم فاطمة (الخامسة) بطول القامة، بيضاء البشرة، ذات شعر أسود وأسنان ضخمة وعيون عسلية، صدرها ضخم وجسدها ممتلئ؛ مما جعله يتذكر تجاربة الأولى مع النساء، حيث كانت نظراتها له تثيره بين الحين والآخر.

مع مرور الوقت تأقلمت والدته وزوجته فى حياتهما معًا، حتى صارتا تتبادلان النكات. "هاتان السيدتان ستنعمان دائمًا بالسعادة " هذا ما جال بخاطر كوستيس، مبديًا ارتياحه لذلك التفاهم بينهما، وقد لاحظ أن هايكى بدأت تتمايل قليلاً، وهى إشارة سيئة على أن النبيذ قد أثر فيها. كانت والدته على حق فيما فعلته من قبل، فلا ينبغى على زوجته أن تفرط فى الشراب. وكانت العلاقة الغريبة التى نشأت بينها وبين الخمر فى الفترة الأخيرة تقلقه.

«يقولون كذبًا إن الحرب هى مصدر المعاناة، حتى السلام يمكن أن يصبح مصدرًا للمعاناة» قال ذلك إلياس وكأنه يقرأ أفكار كوستيس. كان الضابط الروسى جالسًا بجواره وهو يتجرع كؤوس النبيذ الواحد تلو الآخر كما لو كان يشرب ماء.

استمرت طائرة الاستطلاع فى القيام بدوراتها الاستطلاعية من فوقهم، وعندئذ ألقى نيكيتاس بذلك التعليق الذكى الذى قال فيه:

«إذا ما استطاعت الطائرة أن تصور وجوهنا المرحة، عندئذ فربما يغير من يقومون بتحليل تلك اللقطات رأيهم فى الحرب التى يستعدون لها».

* * * * *

ويبدو أن أمنية نيكيتاس لم تتحقق، ففى اليوم التالى، يوم الإثنين، العاشر من شهر يونيو لعام ١٩٤٠، دخلت إيطاليا الحرب رسميًا بوصفها حليفًا لألمانيا، ومنذ تلك اللحظة تغيرت أشياء كثيرة فى المدينة. فقد أصبح مصير المواطنين الإيطاليين، الذين يسكنون فى المنزل المجاور، نفس مصير الألمان: فتحولوا جميعًا إلى أعداء. مشروعات وثروات تم مصادرتها، وأصبح الآلاف رهنًا لتحديد إقامتهم، تاركين أسرهم بالكامل تحت رحمة الظروف. كان دانييل (صاحب الحانة) وابنه من أوائل الناس الذين ألقى القبض عليهم، وتم التحفظ عليهم فى "المدرسة الفاشية" (ذكرها بالإيطالية) - وهى المدرسة الإيطالية بالإسكندرية التى تحولت إلى ثكنة عسكرية لتجنيد الإيطاليين، وتم تشميع الحانة، كما نال نفس المصير كل من أرنستو كالكانى- عامل الصيانة، وكذلك أبناء ماسيمو - صانع القبعات.

اضطر زوج ابنة ماريا إلى مغادرة البلاد هو وجميع العاملين الإيطاليين، تاركًا وراءه زوجته أوليمبيا وأبناءها الثلاثة. وعندئذ أصبح نيكيتاس متحاملاً على البريطانيين، وهو ما يظهر فى قوله:

«من غير المعقول أن يدفع أولئك الذين كانوا يعيشون بيننا حتى أمس فى تآلف ووئام ثمن حماقة دوتشيه» هكذا كان يصرخ دائمًا. إلا أنه كان على دراية من أنه لم يكن على صواب. ربما كانت الحالة الوحيدة المؤثرة فى الإسكندرية هى؛ حالة فابيو أدريانى، الذى وقع ضحية المبالغة فى الإجراءات التى تم اتباعها ضده، حيث تم وضع مدير بنك باكليز تحت التحفظ، ربما بسبب هذا الشبه القوى بينه وبين فالانتينو وبسبب شعره الخفيف الذى جعل الآخرين يطلقون عليه اسم "رودولف الأصلع"، وتم نقله إلى "المدرسة الفاشية" واحتجازه مع بقية الإيطاليين الفاشيين. أما زوجته مارتا أدريانى، أو "مارتا جميلة الإبراهيمية" (ذكرها بالإيطالية)، فكانت فى حيرة من أمرها، حيث تم فصلها من عملها، وعندئذ توجهت ومعها طفلاها ليقيموا بعض الوقت مع عائلة خاراميس، حتى قبل أن تشفى ابنتها من آثار مرض الجدرى، الأمر الذى جعل كوستيس يعبر عن غضبه لهايكى قائلاً: «لا مانع لدى، ولكننا لسنا بحاجة لأن تلتقط ذافنى الصغيرة عدوى من مرض الجدرى؟»

بوركت الجدة دافنى التى كانت تنظر للأمر من جانبه الإيجابى، فقالت لابنها: «إنه شر لابد منه (قالت ذلك بالفرنسية)، يا بنى، فتلك الأمراض دائمًا ما تصيب الأطفال، ماذا يمكننا أن نفعل؟» ومن ذلك الحين، لم يتذمر كوستيس مرة ثانية.

منذ صيف عام ١٩٤٠، كان لدى كوستيس توجهان يرى أنه لابد من القيام بهما في كل الأحوال: أن يستمع إلى الراديو بشكل مستمر وأن يدون مذكراته بشكل دائم.

كان أول ما قام بتسجيله فى مذكراته هو أحداث يوم الخميس الثالث عشر من شهر يونيو، حيث دون ما يلى: «مقابلة فى البحرية الإنجليزية، تناقشنا حول إمدادنا لهم بالسجائر. كان إلياس حاضراً، هذا "اللبنانى" دائم النفع. طلبوا منى تأكيدات إضافية. فمنحتها لهم، "فى تلك الأثناء" (دونّها بالإنجليزية)، أعلن الألمان أنهم سيدخلون باريس فى الخامس عشر من شهر يونيو، وربما يصلون إليها قبل ذلك. الأجواء فى المنزل تشبه الأجواء الجنائزية. هايكى تبكى على حال أمها طوال اليوم، فلتبكِ كما تشاء، يكفى أنها لا تشرب الخمر. أتجنب العودة إلى المنزل فى أوقات الظهيرة. أحتاج للهدوء فقد تستمر هذه الحالة لمدة طويلة. أشعر بالحزن تجاه فابيو المسكين، "سافعل ما بوسعى" (دونّها بالإنجليزية) كى أستبدله. على أية حال، دائمًا ما يصبح من يتولى منصب نائب مدير بنك باركليز شخصًا مفيداً».

بعد مرور يومين بدأ يدون الحالة الدرامية التى خلقتها الحرب: «"أصبحت باريس مدمرة "(دونّها بالإيطالية). لحسن الحظ أن هايكى قد استعادت هدوءها بعد أن علمت أن أمها قد غادرت العاصمة الفرنسية. هل ستذهب إلى إسبانيا؟ هل ستأتى إلى هنا؟ غالبًا ستفعل المتاح لها أن تفعله. الأمور ما زالت عصيبة " لعارضة الأزياء"(دونّها بالفرنسية) فالحرب ليست بيتًا من بيوت الموضة والنازيون لا يمزحون.

أخشى أن المزاح قد انتهى. الآن أصبحت الأمور معتمة. بالأمس مر رجل من قوات الدفاع الجوى للتأكد من قيامنا بلصق الورق الأزرق على النوافذ. ووزع علينا أقنعة مضادة للغازات السامة. فى المساء، تظل الشوارع مظلمة عدا القليل من أعمدة الإنارة التى تم دهانها باللون الأزرق، تمامًا مثلما حدث مع مصابيح السيارات. لا أحد

يسير بالشوارع. صفارات الإنذار التى تحذر من الهجوم بالطائرات تنطلق مدوية حتى أثناء النهار. بدأت عمليات الإنزال فى الميناء الغربية، البعض يتحدث عن القنابل التى سقطت على الإسكندرية فى منطقة كليوباترا. هل يمكن لأحد أن يتخيل أن الحكومة المصرية قد أعلنت القاهرة "مدينة مفتوحة ". إن ذلك يعنى أنها ستظل مضاءة كما هى حتى نهاية الحرب، كما ستظل المطاعم الكبيرة والكباريهات التى توجد بالطوابق العليا بالفنادق تتلألأ بالأنوار. كم هم محظوظون هؤلاء القاهريين!».

فى الثانى والعشرين من شهر يونيو يبدو أن الأمور ازدادت سوءًا، فدوَّن فى مذكراته قائلاً:

«يوم آخر مشئوم. العجوز المخرف بيتان اتفق مع هتلر، وإن كنت فى الحقيقة لا أفهم مضمون هذا الاتفاق. لم يكن فى وسع أحد أن يفكر فى ذلك الاتفاق إلا أن يكون مخرفًا أو مجنونًا. والآن ماذا أصبحنا، حلفاء للأوربيين أم أعدائهم؟ وما الذى سيحدث للأسطول الفرنسى بالميناء الغربى؟ فلن يتركهم الإنجليز يرحلون. حدث اليوم تسريح للجيش بالشاطبى. قبل ذلك تحدث المدير العام للمدارس. تم إعلان حكومة وحدة وطنية فى مصر بعد استقالة ماهر باشا».

فى الخامس والعشرين من شهر يونيو، لم تكن الأحداث بمثل هذه إثارة حيث دون فى مذكراته:

«كنت أقرأ دليل الإرشادات فى حالة الهجوم الجوى، وكان يحمل توقيع حسين باشا، القائد العسكرى بالإسكندرية. ومن بين ما ورد فى الدليل الإشارة إلى الاستعدادات الموجودة بالمخابئ ومنها وجود "دلو خلف ساتر". طوال يوم كامل كنت أحاول أن أفهم العلاقة بين هذا وذاك. وفى النهاية، فقد حلت لى أمى هذه المشكلة فى المساء حيث قالت: " لابد أن يكون هناك شىء يساعدنا فى قضاء حاجتنا، يا عزيزى كوستيس! فى النهاية، أنتم يا معشر الرجال ليس لديكم سوى عقولٍ صغيرة......" قالت ذلك ولم تستكمل حديثها، فقد حان وقت الطعام. "وبخصوص هذا الأمر" (دوَّنها بالفرنسية)، فقد اقترحت هايكى أن نصنع مخبأ خاصًا بنا فى الحديقة، أن نحفر –

كما تقول - حفرة ضخمة ثم نغطيها بالأخشاب والطين. الكل يفعل ذلك ويعتبرونه " أفضل الحلول. لكنى لست مهتمًا بذلك"(دونها بالفرنسية). أيكون لدينا العديد من المخابئ ونقوم بإفساد الحديقة؟ "يا لها من حماقة! " (دونها بالفرنسية).

فى تلك الأثناء، أضيف إلينا عبء أسرة فابيو، وبدأ الجميع فى المنزل فجأة يتحدثون الإيطالية. ربما يحدث بيننا سوء فهم؟ أتمنى على الأقل أن لا نكون مضطرين لنظهر لهم مشاعرنا المضيافة لفترة أطول. لقد قررت، وسط كل هذا، أن أخصص مساعدة شهرية لأوليمبيا. كان لابد أن يساعدها أحد. لكنى شعرت بالحزن للطريقة التى استقبلت به الخالة ماريا هذا القرار، فقد جثت راكعة على ركبتيها وأخذت تقبل يدى باكية. إنها فى حالة يأس تام، أعلم ذلك لكنى لست غريبًا عنها. كنت أريدها أن تعتبرنى كابنها فهل كانت ستفعل ذلك لو أنى نيكيتاس؟».

فى نهاية الأسبوع كتب كوستيس أولى تأملاته: «نسمع الكثير، لكن هناك شىء واحدًا مؤكدًا وهو؛ أن مصر معرضة للتهديد. الشىء الوحيد الذى يصيبنى بالتعب ليس الحرب أو العمل فى المصنع، لكن تلك الهيستيريا التى تصاحب المحاولات الدائمة للحفاظ على الحياة الاجتماعية بالمدينة. نحن فى حالة حرب، اللعنة على ذلك! ما الذى يجعلنا مجبرين للعب التنس فى نادى سبورتنج أو ممارسة رياضة التجديف فى الميناء الغربى بين أصوات القنابل. قالت لى صديقة قديمة لأمى أخيرًا: "إنكم تمارسون الرياضة منذ زمن طويل "(قالت ذلك بالفرنسية). ما زلت أذكر ذلك". وبالطبع لم أكن أمارس الرياضة، ولكن يبدو أنها خلطت بينى وبين أخى. كانت السهرات وحفلات الكوكتيل تقام كالمعتاد. النوادى مفتوحة، هل لدينا سبب للاحتفال ولا أعرفه؟ أما بالنسبة لباقى الأمور، فمن الأفضل أن لا تكون إيطاليًا أو أن تكون من المخربين. أخبرنى نيكيتاس بأن كباريهات الإسكندرية تطرد المجريات، لأنهن قد ينتمين إلى المخربين. وقد ذكر له أخوه نيكولاس، الذى وجد عملاً فى كباريه "إكسيلسيور" أنه حتى الآن ما زال الإيطاليون يعملون فى الفرق الموسيقية بالمدينة. فى الوقت الذى لا يجد فيه الموسيقيون اليونانيون ما يقتاتون به!».

فى الثالث من شهر يوليو، كتب كوستيس مرة أخرى بشكل خاص عن ذلك الارتباط المرفوض بين هتلر وبيتان، فقال.

«يتحدث الراديو عن ما يسمى بمشروع " مصر الكبير " (ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية)، لن يسعد البريطانيون بمثل هذا المشروع المفزع الذى كلف ألفًا ومائتين من الفرنسيين حياتهم، هؤلاء الذين كانوا منذ أسبوعين ماضيين حلفاءً لهم. وفى الإسكندرية يخيم الصمت على الجميع. ربما يكون هذا هو دور الأسطول الحربى الفرنسى الذى يرسو فى الميناء الغربية؟ إذا ما رأينا هذا أيضًا... لقد جن جنون جوندفروا – قائد الأسطول – بسبب المكاسب التى حصل عليها الأسطول الإنجليزى. إلى هذا الحد وصلت الأمور، فليساعدنا الله بمدد من عنده!"».

بعد يومين تواردت الأنباء كالتالى:

«بالأمس، تزوج ثونوريس كوتسيكاس من ذيسبينا بيناكى فى كنيسة إيڤانجيليزموس بحضور البطريرك. بالرفاء والبنين إذن. إن هذا يعنى أنه ما زال هناك أمل عند الناس. ولما لا. فشعار أمى دائمًا هو: «حذاء من بلدك يا بنى(٢٠)»، وأنا على قناعة بذلك. أصبحت أمى مغرمة بمبيد رش الذباب " فليت " بالمنزل، بتشجيع من زوجتى اللطيفة، إنهم يرشونه فى كل مكان بالمنزل، وإذا قلت لها:«بهذه الطريقة سنموت نحن أولاً قبل أن يموت الذباب» تجيبنى قائلة (بالفرنسية): «لا تشغل نفسك بما لا يخصك» ».

حتى منتصف شهر يوليو لم يكن قد وصلهم أية أنباء عن والدة هايكى، مما زاد من قلقها، وأيضًا من حاجتها لشرب الخمر. وعن ذلك كتب كوستيس:

«لا شىء جديد من جهة راشيل. "للأسف" (دوّنها بالفرنسية). ما زالت هايكى حزينة، حاولت إقناعها بالخروج من المنزل قليلاً حتى تستطيع النسيان. لكن من الغريب

(٢٠) "Παπουτσι απο τον Τοπο σου" حذاء من بلدك "، مثل يقوله اليونانيون للإشارة إلى أنه من الأفضل أن يتزوج المرء من إحدى فتيات بنى جلدته، أيًا كانت، بدلاً من أن يتزوج من امرأة أجنبية حتى لو كانت أفضل. (المترجم).

أنها لا تبدى أى اهتمام بحال أبيها! سواء أكان على قيد الحياة أم أصبح فى عداد الأموات. وعلى امتداد السنوات الماضية لم تشر إليه على الإطلاق. ويبدو أن وجود مارتا زوجة فابيو بجانبها يجعلها فى حالٍ أفضل. كما أصبحت لطفلتى الصغيرة صحبة طيبة من أبناء مارتا. ففى كل صباح نذهب جميعًا للشاطئ للاستحمام، ومن هناك تحضر لى " ذافنولا " (الصغيرة ذافنى) قطع الصخور الصغيرة والصدف من شواطئ سيدى بشر وكيلوباترا وجليم، حتى إنهم يصلون أحيانًا إلى شاطئ أبى قير! أول أمس ذكرت لى أمى أن هايكى تجرهم خلفها إلى الكازينوهات لكى تحتسى البيرة. ينبغى أن أتحدث معها لأنها ستتعرض للخطر. أنا على يقين من أن كبرياءها باعتبارها عارضة أزياء لم ينطفئ بعد وأنها لن تدع الخمر تذهب بجمالها. وفى حالة أخرى...».

فى تلك الأثناء كتب عن أحوال الناس قائلاً:

«بداية من الخامس عشر من هذا الشهر سيبدأ العمل بالتوقيت الصيفى لأول مرة بمصر. يا له من إحساس غريب! وكأننا لا نريد أن يضيع منا اليوم. أعتقد أنهم يفعلون ذلك بسبب قصف القنابل، حتى يشبع الناس من ضوء النهار ويعودون سريعًا إلى منازلهم، قبل أن تبدأ الطائرات الحربية الإيطالية فى عزف موسيقاها اليومية».

فى الخامس عشر من شهر أغسطس لعام ١٩٤٠، قام الراديو بإذاعة صوت المدافع من إحدى السفن الحربية اليونانية من ميناء جزيرة تينوس، هى تضرب طلقاتها احتفالاً بالسيدة العذراء، وعن ذلك كتب كوستيس فى مذكراته:

«كل من عاش فى هذه الفترة أصبح على يقين من أن البحر المتوسط لم يكن سوى بحيرة كبيرة مملوءة بالوحوش. فمن يدر كم عدد الغواصات الإيطالية التى تختبئ فى أعماقه، وهى تتأهب لالتهام فريستها الغافلة. "إن آجلاً أو عاجلاً" (ذكرها بالإنجليزية) سيصبح على الجميع الالتفاف بشكل اضطرارى لمسافة اثنى عشر ألف ميل حول رأس الرجاء الصالح. وسيصبح السفر أمرًا فى غاية الصعوبة. ستتزايد خسائر العمل. ولحسن الحظ أننى كنت قد توقعت ما سيحدث فى العامين أو الثلاثة القادمة. ولا أرى سببًا لاستمرار هذه الحالة أكثر من ذلك».

فى الحادى عشر من شهر سبتمبر، سجل كوستيس بعض العبارات التى وردت فى خطاب تشرشل بقناة الـ بى بى سى، ثم علق عليها بقوله:

«يعجبنى ذوق هتلر، ففى هذه اللحظة يبدو أن المدن الوحيدة التى يعتبر أنها تستحق أن يتعامل معها هى لندن والإسكندرية، وهو على حق فى ذلك. وبخاصة بعد أن أصبحت باريس فى قبضته، ولم يكن أهل لندن يبالون بأصوات القصف وكذلك أهل الإسكندرية. فاعتادوا العيش مع أصوات القنابل وفى المساء يخرجون إلى الشرفات لرؤية أضواء القنابل وكأنهم يتابعون عرضًا من عروض الألعاب النارية التى تضىء فوق الميناء الغربية. أعتقد أن هايكى هى الوحيدة التى تخيفها أصوات القنابل، لذلك أجدها تمسك بى ونحن فى الفراش. إننى أتساءل: ما الذى كان يمكن أن يحدث لو لم أكن موجودًا بجوارها فى مثل هذه الظروف. هل كانت ستلقى بنفسها فى أحضان أول رجل تقابله لكى تهدئ من مخاوفها؟».

بعد يومين لم يعد لديها نفس تلك الرغبة الطفولية.

«اليوم الخميس، الثالث عشر من شهر سبتمبر، نهاية الأكاذيب، فقد عبرت القوات الإيطالية الحدود الليبية وتقدموا مائة كيلو متر داخل الأراضى المصرية." آه، حسنًا، إنها الحرب"، كما كانت هايكى تقول ذلك (بالفرنسية). فى وقت متأخر من المساء اتصل بى إلياس قائلاً (بالفرنسية): "لا داعى للقلق طالما أن الأمر يتعلق بالإيطاليين". أيحاول أن يهدئ من روع نفسه؟ على الأقل كانت لديه أنباء سارة بخصوص فابيو. ويبدو أن معاناة مارتا على وشك أن تنتهى (ومعاناتنا نحن أيضًا!)».

مع نهاية هذا الشهر، لم يعد كوستيس منشغلاً بموضوع الحرب. فكتب فى مذكراته: «بالأمس عند الظهيرة، كانت جنازة ابنة يورغوس. ماتت "بمرض السل" (دونها بالفرنسية)، أصيبت أمها بانهيار، أما والدها فيصارع الموت فى مدينة كوتسيكيو. كيف وصلت الحال بهذه العائلة إلى هذه الدرجة؟ رغم كل ما حدث بيننا، فإنه أمر محزن. ما الذى جناه هؤلاء القدامى فى النهاية من إصرارهم على تقسيم الناس إلى فريقين مؤيدين لفينيزيلوس ومؤيدين للملك؟ لقد مات كل من أندونيس

وثاناسيس، وأصبح يورغوس طريح الفراش بالمستشفى، أما العم ستراتيس فقد أصبح نزيلاً في مستشفى للأمراض العقلية منذ صيف العام الماضي. وقد كتبت عنه جريدة تاخيذروموس قائلة: " إن المحامي القديم ستراتيس ميخيليس..... ". سنذهب يوم الأحد القادم لمشاهدة فيلم "ريبيكا " لألفريد هيتشكوك الذي تعتمد قصته على رواية تحمل نفس الاسم، كما اعتادت أمي أن تسمي ذافني دي موربيه عندما كانت تجلس معنا على المائدة منذ أربعة أعوام مضت. في ذلك الوقت كانت ريبيكا لا تزال مجرد فكرة في ذهنها».

كانت الملاحظات التي يدوّنها كوستيس مع بداية شهر أكتوبر تحمل نفس الطابع:

«منذ اللحظة التي أعلنت فيها الحرب، لا يصلني سوى أنباء الجنازات. يبدو أن الناس لم يعد لديهم سبب يجعلهم يقاومون الموت. منذ وقت قريب رحل عنا بابافينجوس- المدير السابق للمصنع - بأزمة قلبية. كان المسكين يعاني في السنوات الأخيرة من مشكلات في قدميه بسبب وزنه الزائد. وفي النهاية فهو، على الأقل، لم يتعذب كثيراً.

أول أمس رأيت چيهان بالسوق. تعرفت إليها على الفور من ردائها الأبيض (المودرن) وقبعتها. كانت تشبه الطائر الذي يستعد للتحليق بعيداً مع كل خطوة من خطواتها. كانت تسير على الرصيف المقابل توقفت لأنظر إليها. كان من الممكن أن أعبر الطريق وأن أتحدث معها. لكني لم أجرؤ على ذلك، فالناس هنا فضوليون. ستقول لي: "أبعد واحد وعشرين عاماً؟ نعم بعد واحد وعشرين عاماً"».

وبعد مرور يومين دوّن الملاحظات التالية:

«"قامت القوات الجوية للعدو بحملة مساء أمس على الحي اليوناني"، هكذا كتبت جريدة تاخيذروموس. كنا هناك أيضاً. بدأت الهجمات الجوية في نحو الساعة الثامنة واضطررنا للرحيل قبل موعدنا بساعة، وهكذا لم تستطع هايكي أن تشرب "كالمعتاد "(دوّنها بالفرنسية). عدنا إلى المنزل على الفور، وكان الآخرون قد نزلوا إلى المخابئ.

لكن زوجتى الهولندية "بطريقة رقيقة "(دونًها بالفرنسية) جعلتنا نصعد إلى غرفة نومنا. كانت أصوات القنابل تدوى وكأنه الرعد يغطى سماء الإسكندرية وكنت أسمع أصوات الشظايا الصغيرة وهى تسقط بالشوارع. كانت الأرض تهتز من تحتنا، والنوافذ تتخبط من حولنا، كان المنزل بأكمله يهتز من أساسه، واستسلمت أمام الشعور الخادع بأن كل ذلك كانت نتيجة إندفاعى الهائل فى علاقتى الحميمة معها(*). وفى أثناء استمتاعنا بادرت هايكى بإبداء رغبتها فى السفر إلى أوربا للعثور على أمها فقلت لها (بالفرنسية):" يا لسعادتى" فأجابتنى (بالفرنسية):" أنا لا أمزح ". هل جنت أم أنها تدعى الجنون؟ فأخبرتها أن تخرج هذه الفكره تمامًا من ذهنها. فقالت: " ألن تتركنى أسافر، إذن؟ "، فأجبتها:" لا، لن أتركك"، فقالت: "حسنًا، إذن سأذهب بعد الحرب لأعيش فى فلسطين"، وعندئذ بدا لى أسلوبها مضحكًا فانتابتنى نوبة من الضحك. لكنها أكدت لى مرة أخرى أنها لا تمزح. حقيقة، لقد قالت لى ذلك من قبل، لكن إذا ما سمعته مرة ثالثة فسوف آخذ الأمر مأخذ الجد».

فى الثامن والعشرين من شهر أكتوبر، انزلق كوستيس مرة أخرى للحديث عن الحرب، قائلاً:

«إنه أمر واضح (دونًها بالفرنسية)، سوف يبدأ دوتشيه كل حروبه فى يوم الإثنين. يا لها من عقلية موظف حكومى. لا أفهم هذا التفكير الذى يشبه تفكير ربة المنزل. وبغض النظر عن أى شىء آخر، اعتقد أنه لا ينبغى أن يضيع عنصر المفاجأة " دون مزاح"(دونًها بالفرنسية)، ها هى اليونان تدخل الحرب، ترى أين ماخوس الآن، وفيما يفكر؟

لدينا أخبار سعيدة بالمنزل. فقد خرج فابيو أخيرًا من السجن ومنحوه هوية شخصية خاصة، ولابد أن يقدم نفسه للسلطات كل يوم، إنها تفاصيل لا أهمية لها. فى المساء تناولنا العشاء معًا. قامت مارتا بطهو الإسباجتى الشهية كنوع من تعبيرها عن شكرنا. لكننا نشعر بالسعادة أكثر لعودة أسرة أدريانى إلى منزلهم. لقد اعتدنا عليهم، مثلما اعتدنا على لغتهم الموسيقية. بعد أن تناولنا الطعام، اصطحبت فابيو إلى

الصالون المصرى وقمنا بتدخين السجائر، بينما جلست هايكى على البيانو وقامت بعزف مقطوعات موسيقية لليست وشوبان. وكنت قد نسيت تقريبًا أن زوجتى عازفة بيانو بارعة، فقد عزفت عن العزف وقت أن كنا بحاجة لمهارتها. ثم جاء دورى بعد ذلك ولم أستطع الرفض. فقد طلبوا أن أغنى مقطوعتى المفضلة من أوبرا " البلياتشو" لليونكافاللو. لكن يبدو أننى لم أعد أمتلك موهبتى القديمة التى كانت تمكننى من أداء المقطوعات الصعبة ولم يستوعبوا شيئًا. وعندئذ نهضت هايكى بتأثر وطبعت قبلة حانية على وجنتى ثم قالت: " لو ظللت تغنى بهذا الشكل فلن أستمر فى حبك "، ثم رقصنا معًا رقصة الرومبا كما كنا نفعل من قبل فى باريس. عبرت من بين أقدامنا طفلتنا الصغيرة ذافنى. فهل نشبت الحرب فى مكان ما ولم يخبرنى أحد؟».

* * * * *

عندما لم تستطع إيفيت مغادرة الإسكندرية قررت على الأقل أن تترك شقتها الموجودة بشارع السلطان حسين، وانتقلت لضاحية محطة الرمل، حيث اختارت منطقة لوران التى تقع بعد سان ستيفانو لتشترى بها قطعة أرض بالقرب من البحر. وفى نهاية عام ١٩٣٧، استطاعت أن تستقر فى جنتها الصغيرة التى شيدها لها مهندس معمارى إيطالى. كانت فيلتها الجميلة صغيرة ومبهرجة وتشبه بيت الدمية. تستطيع أن تنظر من شرفتها الواسعة كل صباح إلى البحر الهائج، الذى يتشابه مع حالتها فى تلك الفترة. وفى واجهة المنزل توجد نافذتان كبيرتان على الطراز القوطى المحبب إلى نفسها، يحيط بهما نقوش مختلفة بأشكال النباتات والأصداف البحرية وجذور الأشجار والكائنات البحرية. كانت الألوان المتناقضة بالطابق الأرضى تشبه التجاعيد المرسومة على بناء حجرى، وتخلق تناقضًا كبيرًا مع بساطة بناء الطابق العلوى، وقد تفاوتت ألوانها بين الدرجات المختلفة للون البرتقالى. وفى حديقة الفيلا توجد نخلتان تقفان كحارسين عملاقين يحرسان المكان. ومنذ اللحظة الأولى لإقامتها بالفيلا بدأت إيفيت تفكر فى حلول فصل الربيع وامتلاء الحديقة بالزهور، وقد قام بزراعتها بستانى مصرى ذو وجه عبوس. لم تستطع إيفيت أن تحضر معها من شقتها القديمة بشارع السلطان

حسين سوى القليل من التحف والأثاث، فاحتفظت بمقاعد من طراز " لوى كينز" (لويس الخامس عشر)، إلى جانب بعض من قطع السجاد فاتح اللون، وقد اختفى الطراز الملكى الغربى أمام قطع الأثاث العربية التى أحضرتها معها. كان إصرار إيفيت على الاحتفاظ بذكريات شبابها التى ولت بلا عودة، واضحًا فى كل ركن من أركان المنزل؛ أما الشيء الوحيد الذى أوحى لها بالربط بين الماضى والحاضر فهو سيارتها الحديثة ماركة بيجو إكليبس ٤٠١، ذات اللون الكريمى، موديل ١٩٣٤، تلك السيارة التى كانت تفخر بأنها أول " سيارة رياضية مكشوفة "(ذكرها بالفرنسية) فى العالم.

كلما اقتربت الحرب كلما اتخذ البريطانيون الأمور مأخذ الجد، ولم تكن قليلة تلك المرات التى تم استدعاؤها فيها للحديث مع مستر " فويس " فى المنزل الكائن بشارع يانج، وهو أمر كان من الواضح أن إلياس قد فعله من قبل. وكان لديها انطباع أن "اللبنانى" قد وقع مكرهًا - قبل الحرب بوقت قليل - تحت ضغط المخابرات البريطانية بسبب أصوله العربية، مما تطلب قيامه بلعب دور مزدوج من أجل الحفاظ على مكانته. وكثيرًا ما طلب منها إلياس أن تشير إليه بطريقة إيجابية عند حديثها معهم، وهو ما جعل إيفيت تشعر بأن الاتزان فى علاقتها مع إلياس قد عاد عليها بالنفع. ولم تنس أبدًا أن شعورها بالوحدة بالإسكندرية فى عام ١٩٤٠، سيصبح لا يطاق بدون إلياس، فالآن لم يعد هناك خاراميس، كما لم يعد هناك من يستطعن أن يملأن الفراغ الذى تركته روكسانى وماريانثى، وفى نفس الوقت لم تعد لديها الثقة فى أى شخص يعمل فى بيت البغاء بشارع مصطفى باشا. كان عليها أن تقوم بتغيير الفتيات من وقت لآخر، لأن الغرض من وجود المنزل قد تغير تمامًا مع بداية الحرب، مثلما تغيرت نوعية المترددين على المنزل. فقد أصبح الهدف من وجود المنزل هو الترفيه عن ضباط الجيش الكبار بالقوات المتحالفة التى كانت تمر بالمدينة، فى حين كان جمع المعلومات يأتى فى المرتبة الثانية. ومن أجل مساعدة كل من الجيش والبحرية الإنجليزية، كان على إيفيت أن تضمن توفير الهدوء والأجواء الخالية من أية عناصر نسائية تقوم بالتجسس لصالح

الأعداء. ولهـذا السـبـب كان عليهـا أن تقلل مـن عـدد الفتيـات القـادمـات من المجر أو فنيسيا، أو من يمكن أن تكون عرضة للشبهات، كل هؤلاء الفتيات تم الاستغناء عنهن واستبدالهن بأخريات من اليونان وقبرص ومالطة، لكن حتى هؤلاء كان يتم استبدالهن كل فـترة لأسبـاب أمنية. قـامت إيفـيت كـذلك بزيـادة عدد الخـادمـات بالمنزل، لكن كن سريعًا مـا يزددن وقاحة مع مرور الوقت، فى حين أصبح جعفر عجوزًا، وفقد هيئته المهيبة. لقد أصبح وجود مدام إيفيت ضـروريًا أكثر من ذى قبل، حيث كثيرًا ما كانت تجد نفسـها فـى موقف صـعب، فـالضبـاط الكبار لم يعـودوا شبـابًا كمـا كـانو يظنون أنفسـهم، حتى إن بعضـهم قد لفظ أنفاسه الأخيرة على فراش المتعة. واقـتصـر دور الدكتور برايس على التأكد من وفاتهم. وكانت المشكلة تكمن فى كيفية تفسير الأمر لأسرهم وزوجاتهم، لكن بمباركة من القيادة العسكرية البريطانية كان يتم تشخيص موتهم بأنه حدث فى أرض المعركة.

وكأن ذلك لم يكن كافيًا، فقد طلبت منها القيادة البريطانية أن تتولى تنظيم نادى قوات الحلفاء فى " بالاى كارام "، ذلك البناء الضخم الذى يقع فى شارع كورينثوس، مما جعلها تتصل بإلياس تليفونيًا وتطلب مقابلته فى مطعم " باستروذيس " فى إحدى أمسيات شهر نوفمبر. ولكن "اللبنانى" أبدى اعتراضه قائلاً:

إلياس: «نعم لنتقابل، لا اعتراض على ذلك، ولكن فى "باستروذيس"! حيث يتواجد صفوة المجتمع بالمدينة و...».

إيفيت: «ومن الممكن أن يتحدثوا عنك!» هكذا أكملت إيفيت ما دار بتفكيره. وعندئذ تفوه بكلمة عربية مما زاد من ضيقها، وقالت: «ليس من الضرورى فى كل مرة تقع فيها فى مأزق، أن تبدأ الحديث باللغة العربية».

ثم ساد الصمت للحظات أخذت إيفيت بعده نفسًا عميقًا، وعندئذ أجابها إلياس متبرمًا (باللغة الفرنسية):

«حسنًا، حسنًا، غدًا فى الخامسة مساءً فى "باستروذيس" لقد دونت ذلك».

وفى اليوم التالى تأخر إلياس عن موعده، بينما كانت إيفيت تنتظره فى الجزء المخصص لتقديم الحلوى، وكانت تلقى نظرة بين الحين والآخر فى اتجاه المطعم - حيث كان يتم تقديم شاى المساء - فربما يكون إلياس قد أخطأ فى المكان. فى نفس الوقت كانت تتأمل اللوحات المعلقة والديكور الخشبى الحديث. وتذكرت إيفيت أن هذا المطعم كان قد افتتح بعد موجة هجرة اليونانيين من السواحل التركية، ومنذ ذلك الحين أصبح المكان المفضل الذى تلتقى فيه طبقة اليونانيين الأرستقراطيين.

عندما وصل إلياس كانت ساعة الحائط تشير إلى الخامسة والربع، فعاتبته إيفيت قائلة:

«لا أريد أن أظل فى الشارع حتى حلول الظلام».

إلياس: «هل مازلت تخشين الطيارين الإيطاليين؟ لقد أدرك الجميع أنهم عاجزون!». هكذا أجابها بينما كان يخلع البالطو الطويل الأسود والصديرى الحرير ليعطيه للعامل بغرفة حفظ الملابس.

إيفيت: «إنك مخطئ فى ذلك، فلأنهم عاجزون ينبغى عليك أن تخشاهم. ألم تر ما فعلوه فى اليونان؟ إنهم لا يحاربون سوى الشعوب المسالمة».

تظاهر إلياس وكأنه لم يسمع شيئًا وأشار للجرسون ليأخذ طلباته. كان المكان يعج بالناس فى ذلك الوقت. معظمهم من اليونانيين. وكأنها أجواء احتفالية. رفع إلياس قبضة يده المضمومة مرتين أو ثلاثًا وكأنه يرفعها تشجيعًا.

- «ظننت أن هذه الحرب كانت تخيفك، لكن تبدو وكأنك سعيد بكل ما حدث فى الشهور الأخيرة»

- «سيدتى العزيزة (قالها بالإنجليزية)، كل ما كان ينبغى علينا أن نفعله مع الإيطاليين يجعل هذه الحرب المخيفة تبدو وكأنها نوع من المزاح».

نظرت إيفيت إلى شاربه رمادى اللون، ثم انحنت تجاهه وهمست قائلة:

«إذا كنت تصر أن تصبغ شعرك، فلابد أن لا تنس شاربك. وإلا سيصبح شكلك "مضحكًا" (قالتها بالفرنسية)».

بدا وكأن إلياس قد تضايق للحظة ثم قام بحركة واحدة بإخفاء شاربه خلف كف يده وسألها:

«ما رأيك الآن؟» ثم انفجر ضاحكًا.

لكن إيفيت أكملت كلامها دون تردد:

«بالإضافة إلى ذلك (قالت ذلك بالفرنسية) فأنا أعتقد أن الخواتم التى بإصبعك ليست فى حاجة إلى خاتم آخر، يا عزيزى. إنك بهذا تتمسك بطابعك الشرقى».

- «أرجوكِ، يا إيفيت، إنك تصرين فى كل مرة أن تعكرى صفوى»، ثم فتح أزرار بذلته وبدا وكأنه يستعد للدخول معها فى نزال. "مهما يكن من الأمر " (قالها بالفرنسية)، فكل منا لديه ما يثير السخرية. أنت أيضًا فى كثير من الأحيان تعطينى الانطباع بأننا نعيش فى" الزمن الجميل "(قالها بالفرنسية). إصرارك على ارتداء الملابس الطويلة، والقبعات الكبيرة وكل ما يشبه ذلك يجعلك تتخطين حدود البساطة».

- «ربما يكون معك حق، يا إلياس. ربما تنتابنى دائمًا الرغبة فى العيش وكأننى مازلت فى الخامسة والعشرين من عمرى. لكن السنين مرت وأصبحت الآن على أعتاب...!».

عندئذ أسرع إلياس باستكمال حديثها قائلاً:

«الثلاثين» قال ذلك وقد علت وجهه ابتسامة لها مغزى، ثم أمسك يديها وضحكا معًا، وأخذا ينظران كل منهما للآخر نظرة عاشقين، وعندئذ علقت إيفيت قائلة:

«يا لك من رجل رقيق القلب» قالت ذلك (بالفرنسية) وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل. فى حين دبت فى وجهه نضارة الشباب، مما دفعه لأن يعترف لها قائلاً:

- «إنك المرأة الوحيدة التى مازالت تؤجج بداخلى الرغبة بعد كل تلك السنين».

- «أوه، كف عن هذا، يا إلياس» قالت ذلك (بالفرنسية) وهى تشعر بالإطراء، وكادت أن تلقى بنفسها بين أحضانه لكنها أسرعت وغيرت من نبرة صوتها بتلك القدرة التى تمتلكها النساء للهروب من مثل تلك المواقف وقالت: «أحتاج لمساعدتك».

- «هل حدث شيء بالفيلا؟» قال ذلك، ثم أخرج علبة السجائر من جيبه وقدم لها سيجارة وقداحة. لاحظت إيفيت أن تبغ السيجارة قوى، فسألته: «ما نوع تلك السيجارة؟».

- «يوليوس قيصر (دوّنها باللاتينية)، الإنتاج الجديد لمصنع خاراميس. إنها سيجارة للقياصرة».

بدى على إيفيت الإعجاب الشديد بالسيجارة بقدر إعجابها بالزوجين اللذين دخلا من باب المطعم، ثم قالت:

- «وها هو مبدع هذه السيجارة!» قالت ذلك بعد أن تعرفت إلى ابن المرحوم أنطوان.

- «أتعرفين كوستيس؟» تلعثم إلياس فى سؤاله وقد بدا عليه الانزعاج.

- «اهدأ، فأنا أتذكره منذ جنازة أبيه».

- «إنهم لم يرونا. سيجلسان فى القاعة الأخرى، "هذا أفضل بكثير"(قالها بالفرنسية)».

- «هيا إذن، لا تقل ذلك. فأنا لم أعد عشيقة أبيه. من تلك الحسناء التى بصحبته؟».

- «إنها زوجته، امرأة جميلة أليس كذلك؟ إنها عارضة أزياء سابقة ببيت شانيل للموضة».

- «هل هى أطول منه أم يهيؤ إلىّ ذلك؟».

– «لا، إن ذلك فقط بسبب تلك الوقفة المستقيمة التى اعتادت عليها الموديلات ويخدعونك بها»

– «لقد سمعت أن الابن الأصغر لأنطوان كان الطفل المدلل للأسرة».

– «نعم، إنه العنزة الجرباء» هكذا علق إلياس (بالفرنسية) ساخراً.

– «عذراً!».

– «إنه كالشاة الشاردة بالعائلة، فهو من مؤيدى هتلر، كما أنه شاذ جنسياً».

– «لقد سمعت شيئًا من هذا القبيل، مسكين أنطوان فمثل هذه الأمور تقتلك حقًا. ولكن أين هو الآن؟».

– «معلوماتى تقول إنه فى أثينا يعمل فى خدمة نظام ميتاكساس، لكنه فى حقيقة الأمر رجل الألمان».

– «إنها أسرة ملعونة بعض الشىء، ألا تظن ذلك؟ وأين ابنه الثالث؟ هذا الذى يقولون إنه شبيه أندونيس».

– «آه، لقد مات منذ سنوات. حادث سيارة فى الريفييرا بفرنسا».

– «نعم، بالطبع، الآن تذكرت شيئًا من هذا القبيل. لقد ألمح البعض أن كوستيس كانت له علاقة بموته».

– «هذا ليس صحيحًا على الإطلاق (قال ذلك بالفرنسية). ليست لكوستيس أية علاقة بهذا الأمر» هكذا أسرع إلياس بالتأكيد على ذلك.

– «يبدو لى أنك تحب الابن أكثر من حبك لوالده».

– «إنه شخص ذو قدرات جيدة ونشيط. حاد الذكاء! عندما تولى إدارة المصنع، كان الجميع يراهنون على أنه سيفسد الأمور. لكنه سار بشكل رائع».

- «لقد اختار شريكة حياته بنفس الطريقة الرائعة. هذه الفتاة تذكرنى بنفسى فى ريعان شبابى. "هذه حقيقة" (قالتها بالفرنسية)، فالابن يستحق التهنئة على اختياره. لقد حرص على الاستمتاع بشكل شرعى بما كان يستمتع به أبوه بشكل محرم. دائمًا ما يكون الجيل التالى أكثر ذكاءً من الجيل الذى يسبقه، أتخيل أنك تقوم بمغازلتها بإصرار، يا إلياس، أليس كذلك؟».

- «تعلمين أننى رجل رقيق القلب، "يا عزيزتى" (قالها بالفرنسية)».

- «ولأننى أعرف ذلك جيدًا، فقد قلت ما قلت، "لكن على أية حال" (قالتها بالإنجليزية) هناك غرض آخر من لقائنا».

- «هل أنتِ فى عجلة من أمرك؟» (قال ذلك بالفرنسية).

- «قلت لك إننى لا أرغب فى البقاء فى الشارع بعد حلول الظلام».

- «إذن فأنا أسمعك، هل حدث شىء ما فى الفيلا؟».

- «لقد سألت نفس السؤال من قبل. ما الذى يمكن أن يحدث فى الفيلا؟ المشكلة تكمن فى مستر "فويس"، أعتقد أنها ليست فكرة جيدة أن ألتقى به بشكل مستمر».

- «لقد قلت لك ذلك من قبل. فالكثير من الأنباء المسموعة تخلق العديد من المطالب».

- «بشكل لا تتخيله».

فى تلك اللحظة كان الجو الاحتفالى فى مقهى " باستروزيس" قد بلغ ذروته، وبدأ كل الزبائن يهللون مبتهجين، وقد رفع البعض منهم كأسه عاليًا وأخذوا ينقرون بعضها بعضًا وهم يصيحون " هواء ". تبع ذلك التلويح بعلم اليونان ثم التصفيق الحاد. كما اختلطت " الطرابيش" بالقبعات التى ألقيت عاليًا. وعندما توقف هذا العرض فجأة، أخذت إيفيت تشرح لإلياس كيف أنه بجانب كل تلك الأمور فقد كان لزامًا عليها أن تتولى الإشراف على نادى قوات التحالف، مما يعنى الإشراف على تأثيثه، وتجهيزه

بمكتبة صغيرة، وإعداد مكان لتقديم الشاى والقهوة للضباط، وأيضًا إعداد الحفلات. عندئذ أبدى إلياس اندهاشه من هذه الأنباء التى يسمعها لأول مرة، وقال:

- «هذا يعنى أن الإنجليز يعتمدون عليك بشكل كبير، يا إيفيت. "هذا ليس سيئًا، هذا ليس سيئًا"(قال ذلك بالفرنسية)، وبالطبع سوف يكون هناك مقابل لجهودك، "أليس كذلك!" (قالها بالفرنسية) إن "بالاى كارام" ليست مجرد شقة صغيرة بل قصر كبير. كيف تفكرين إذن فى إعداده؟».

- «لا أدرى، لهذا فكرت فيك، ومن لى غيرك، فجميع الإنجليز فى المدينة أصدقاؤك».

- «وأؤكد لك أنهم كثيرون، لكن هناك أندية كثيرة انتشرت بالإسكندرية فى الشهور الأخيرة. فبأى منها يمكن أن نبدأ؟».

- «هيا إذن، يا مستر خورى (قالت ذلك بالإنجليزية)، فلك أسلوبك، وسوف أحرص على أن يعلم أصدقاؤنا مدى تعبك من أجلهم. إنها فرصة لكى تبدو مفيدًا للقيادة».

- «سوف أرى ما الذى يمكننى أن أفعله. ففى مثل تلك الحالات لا يتأثر فقط العظماء من أهل الإسكندرية، ولكن تتأثر أيضًا نساءهم. لا تندهشى إذا ما رأيت علية القوم من النساء وهن يقدمن الشاى والمشروبات للجنود بل ويتعدى البعض منهن أحيانًا حدود الضيافة المتعارف عليها، هكذا ستشعرين أحيانًا أنك مازلتِ تعملين فى إدارة بيت البغاء».

فى تلك اللحظة كانت مشاعر اليونانيين الوطنية قد وصلت إلى أوجها، وكانت تلك هى أنسب لحظة لمغادرة المكان، فى نفس الوقت كان الظلام قد طمس ما تبقى من أشعة الشمس فى سماء الإسكندرية. عرض عليها إلياس أن يقوم بإعادتها للمنزل بسيارته. كانت الأجواء فى الشوارع المعتمة مختلفة تمامًا. وكأن الظلام قد ابتلع المارة واحدًا تلو الآخر، وبدا وكأن المدينة المعتمة أصبحت تشبه الأذن المنتبهة التى تسمع وترى.

* * * * *

بدأ نادى قوات التحالف فى العمل مع نهاية عام ١٩٤٠، وكانت أولى سيدات المجتمع الراقى التى عرضت خدماتها هى السيدة هايكى خاراميس رويسيندال. لم يهدأ بال كوستيس بسبب التفكير فى كيفية قيام زوجته الجميلة طواعية بالخدمة فى المبنى الذى يقع فى شارع كورينثوس، أمام تلك الأعين الجائعة للجنود الذين سوف تقدم لهم المشروبات والقهوة. لكنه كان يفضل أن يشعر وحده بالألم تجاه ذلك بدلاً من أن يمنحها العذر لكى تدعوه "غيورًا" (ذكرها بالفرنسية)، وأخذ يعض على شفتيه بكل غيظ. وفى الحقيقة، فقد ناقش الأمر مع والدته، لكنها حاولت بسذاجة أن تهدئ من روعه قائلة: «إن هذا أمر طبيعى. فكل سيدات "الطبقة الراقية" (قالت ذلك بالفرنسية) لابد أن يساعدن فى النوادى. فلمَ لا تشارك زوجتك أنت أيضًا فى ذلك. فكر فى مدى المعاناة التى يشعر بها الجنود البائسون فى جبهات القتال. إنهم بالتأكيد بحاجة إلى نظرة عطف أو إبتسامة حانية». لم يختلف كوستيس فى ذلك مع والدته، فالجنود العائدون من جبهات القتال بحاجة ملحة للرعاية. وبالتأكيد فإن نظرة أو ابتسامة من امرأه مثل زوجته كانت ستعطى معنى لبطولتهم وإنكارهم لذاتهم. لكن لماذا كان من الضرورى أن تتولى زوجته - شاء أم أبى - هذه المهمة؟ هو نفسه لم يتعرض لهذا الأمر المؤلم بالكتابة فى مذكراته. كانت هناك إشارة وحيدة وغير مباشرة قام بها فى ديسمبر من عام ١٩٤٠، بعد أيام قليلة من بداية هايكى فى الاشتغال بالنادى فى فترة المساء، حيث كتب:

«هذا ما يحدث دائمًا: إنها مشاعر طبيعية تمامًا تلك التى نحاول كبتها، لأننا نعلم أن الآخرين سيغيرون رأيهم فينا وربما لم يكن الأمر كذلك؟ ربما كانت فكرتنا عن أنفسنا هى التى تخيفنا؟ وفى الحقيقة أنا لا أدرى ماذا أفعل، فلدى ما يكفينى من المشكلات فى السنوات الأخيرة. لكن هل كان يجب أن تضاف إليها مشكلة أخرى؟».

لقد بدا واضحًا أن كوستيس قد فقد اتزانه، وإلا لم يكن ليتصل تليفونيًا بإلياس طالبًا منه النصيحة. كان يشعر أنه كالمريض البائس الذى يذهب من طبيب إلى طبيب طلبًا للمزيد من الآراء. على أية حال، فقد حاول "اللبنانى" تهدئته - مثلما فعلت أمه - قائلاً:

«لا تقلق (قالها بالفرنسية)، يا عزيزى. هناك العديد من السيدات اللاتى يقمن برعاية الضباط والجنود الشجعان. لو أن الأمر كما تظن، فسوف تغلق أغلب المنازل بالإسكندرية. فالشعور الخاطئ للرجال المحرومين هو الذى نقوم بدورنا بتغذيته. ولكى يهدأ بالك سأخبرك بالآتى: لى صديقة مخلصة تخدم فى نفس النادى، ولن يضيرنى أن أطلب منها أن تنتبه جيداً وأن تبلغنا بكل صغيرة أو كبيرة قد تحدث، وسأمر أنا بنفسى من وقت لآخر لمتابعة ذلك. لا داعى إذن للقلق، يا صديقى العزيز».

ورغم ذلك، فقد ازداد شعور كوستيس بالقلق، فعندما أنهيا المكالمة قال لنفسه:

«ما الذى فعلته، هل أتيت بالذئب ليرعى الغنم؟ فليسامحنى الله».

كان الشىء الوحيد الجيد فى هذا الأمر هو: ابتعاد هايكى بشكل مؤقت عن انفعالها تجاه قضية فلسطين، تلك القضية التى كانت تشغلها فى فترة ما قبل الحرب. كان كوستيس أيضاً يريد أن يصدق أن زوجته لم تكن تحتسى الشراب أثناء عملها فى النادى، لكن أمه نصحته بأن لا يكون على ثقة تامة من أنها أقلعت عن ذلك تماماً.

فى تلك الأثناء، كانت المشكلات التى سببتها الحرب تتضاعف يوماً بعد يوم، تتصدرها مشكلة نقص الورق، تلك المشكلة التى ظهرت منذ الشهور الأولى للحرب. وكانت الطلبات المتزايدة للبحرية البريطانية للسجائر سبباً فى زيادة مكاسب المصنع، لكن فى نفس الوقت بدأ مخزون الورق والدخان ينفد شيئاً فشيئاً، ثم جاءت حادثة اشتعال النيران فى أحد مخازن الورق لتزيد من حجم المشكلة. عندئذ قرر كوستيس أن يطلب المساعدة من عملائه، وعندما علم الأدميرال كانيجام بالأمر، طرق بقبضة يده على المائدة وقال معلناً: «بدون سجائر سوف نخسر الحرب. وإذا لزم الأمر فسوف نقوم بإرسال نصف الأسطول إلى البحر المتوسط لتأمين وصول الدخان لمحاربينا الشجعان». كان هذا ما قاله الأدميرال ونفذه بالفعل. فقد قامت مجموعة من السفن الحربية بحراسة الناقلتين البحريتين اللتين كانتا تنقلان شحنات الدخان والورق من شمال اليونان ومن السواحل الروسية. وقد تمت تسمية هذه العملية التى كللت بالنجاح فيما بعد باسم " يوليوس قيصر" تكريماً لآخر ماركات السجائر التى دفع بها

خاراميس إلى الأسواق. كان أصحاب هذه العملية يتبعون توقيتًا زمنيًا محدداً فى التنقل "من جزيرة إلى جزيرة" (ذكرها بالإنجليزية) فى محاولة منها لتجنب الخروج إلى البحر المفتوح والتعرض لخطر القصف من قبل الغواصات الإيطالية. وكانت الوجهة الأخيرة هى قناة السويس وميناء بور توفيق حيث تم تفريغ حمولة السفينتين ومن هناك تم نقل البضائع عبر السكك الحديدية إلى مخازن المصنع. ظلت عملية "يوليوس قيصر" سرية، وقد تعرض كوستيس بسببها فيما بعد لاتهامات من منافسيه الذين لم يجدوا تفسيراً لمخزونه الذى لا ينفد، واتهموه بأنه يقوم بتصنيع السجائر من التبغ اليابانى والصينى. عندها إضطر كوستيس للرد على هذه الاتهامات بردود نشرت فى الصحف التى كان ينشر فيها دائمًا إعلانات للترويج للسجائر التى ينتجها مصنعه، مؤكداً أن سجائره لا يوجد بها خليط من أى تبغ صينى أو يابانى. كانت ماركة "خاراميس" تقف دائمًا على قمة الهرم فى إنتاجه، حيث تباع العلبة الواحدة منها بسعر ثمانية قروش، يليها ماركة " كليو إسبسيال" ذات الفلتر الذهبى، وفى المرتبة الثالثة تأتى ماركة "يوليوس قيصر" التى تباع بسعر يتراوح بين ستة وسبعة قروش.

فى نفس الوقت، كان كوستيس يواجه مشكلات أخرى والتى كان على ثقة من أن وراءها منافسيه. فقد استغل البعض الهستيريا التى تسيطر على الإنجليز تجاه الشيوعية– تلك الهستيريا التى جعلت الإنجليز يأخذون احتياطاتهم الأمنية لمنع وصول هذا التيار إلى مصر– فاتهموا كوستيس بأنه عضو بخلية شيوعية تدبر للقيام بانقلاب ضد الملك فاروق وأعلنوا أن العقل المدبر لهذه المؤامرة الشيوعية هو الروسى ميسا فروبانوف! ولذلك فقد أصبح موقف ميسكليه – صعلوك باريس القديم– سيئًا.

فى وقت الحرب، لم يكن الإنجليز فى وضع يسمح بالمزاح، أما كوستيس الذى لم يكن يتردد فى اللحظات الحرجة من القيام بفعل ما لا يصدقه عقل، فقد أقدم على عمل مثيرَ للدهشة حتى يتجنب الوقوع فى أية مشكلة، حيث أجبر ميسا على إخراج زيه العسكرى الخاص بالجيش الأبيض الذى كان يحفظه فى النفتالين وارتدائه بكل ما يعلوه من أوسمة ونياشين أمام لجنة التحقيق. لكن يبدو أن هذه القضية كانت لها جذور

أعمق حتى إن إلياس، الذى تدخل لصالح كوستيس، اكتشف أن ذلك الاتهام الموجه لكوستيس بعضويته فى خلية شيوعية كان قد تم إعداده منذ عامين فى مكاتب السفارة اليونانية بالقاهرة على يد شخص كان يعرف كوستيس - رجل صناعة الدخان اليوناني- جيداً فى الفترة التى كان يعيش فيها فى أوربا. وهكذا علم الإنجليز بأمر علاقته بالشيوعى كارل فويتير، كما علموا بالطبع بأمر ابن خاله نيكيتاس وشريكه الراحل برندراك إيفيتس، اللذين " انضما للفكر الشيوعى وحاربا دفاعًا عن ستالين فى القوات العسكرية بإسبانيا ".

ثم جاء دور نيكيتاس، فقامت الشرطة المصرية بالقبض عليه فى شقته بعمارة باب سيدرا ووضعته قيد الحجز فى سجن كوم الدكة. طلب كوستيس للمرة الثانية مساعدة الأدميرال كانيجام. تقبل القائد البريطانى بكل سرور دعوة كوستيس لتناول الطعام فى شارع العباسيين، وقد لبى الدعوة مرتدياً زيه العسكرى الأبيض. كان الأدميرال رجلاً طويل القامة، ممشوق القوام، ذا خصر نحيل؛ وكان لا يكف عن الابتسام مظهراً أسنانه البيضاء دون أن يؤثر ذلك على هيبته ومركزه العسكرى. وبعد أن تناولا معًا الطعام اتجه الرجلان إلى الصالون المصرى الطراز ليتناقشا أثناء احتساء البراندى وتدخين السجائر. قام كوستيس بمصارحة " الزبون " (هكذا كان كوستيس يطلق على كانيجام) بأنه لو كان هناك شىء يخجل منه " فهو هذا الجو الملىء بالود بينهما "بقدر خجله من موقف أخيه ماخوس، الذى يعد من أنصار هتلر وتابعًا مخلصًا لرودولف إس؛ وكان كوستيس يتعجب كيف يصب البريطانيون الذين يعلمون "حقيقة الرجل "(ذكرها بالإنجليزية) كل اهتمامهم على تلك الشائعات المختلقة التى تهدف لتوريطه هو ومصنعه.

عند هذه النقطة قاطعه الأدميرال قائلاً:

«حسنًا (قالها بالإنجليزية)، لم تكن لدينا الرغبة أن يحدث ما حدث فى موقف كهذا. "وفى حقيقة الأمر "(قالها بالإنجليزية)، نحن نعتمد إلى حد كبير فى تحقيق النصر على ما تمدوننا به من سجائر». وقد ثبت أن هذا لم يكن هو السبب الحقيقى

الذى جعل الضابط البريطانى يستمع بدقة لمصارحة كوستيس، لأنه عاد مرة أخرى واستكمل حديثه عن التنس، حيث قال:

«لقد نما إلى علمنا أنكم بارعون فى لعبة التنس».

كوستيس: «ليس بهذه البراعة التى تظنونها(قال ذلك بالإنجليزية)، لقد أصبحت شهرتى فى لعبة التنس بالإسكندرية ضرب من الماضى».

كانيجام: «على أية حال(قالها بالإنجليزية)، البعض يرى " أنه من الممتع"(قالها بالإنجليزية) اللعب معكم مباراة فى التنس، مثل الأدميرال الفرنسى "على سبيل المثال" (قالها بالإنجليزية)»، قال ذلك وقد بدت عينيه الضيقتين وكأنهما تشعان بالخبث.

- «نعم، المسكين السيد جوندفروا. فلم يعد أحد يرغب فى اللعب معه. وفى ذلك ظلم حقيقى، أنتم تعلمون أنه يكن مشاعر خفية تجاه البريطانيين، كما أن زوجته، إن لم أكن مخطئًا، سيدة إنجليزية، ولهذا معنى كبير».

- «نعم، إلا أن السيد الأدميرال لم يحاول أن يثبت مشاعره بطريقة عملية ويضعنا دائمًا فى موقف حرج، ولعلكم تفهمون ما أعنيه».

- «بالطبع (قالها بالإنجليزية)، وهو أمر ليس بالهين بالنسبة له. فكيف يمكنه أن يتخذ قرارًا مهمًا وحده؟ لكن لماذا أشرتم إليه؟ ربما كان من الواجب أن أتوقف عن التعامل معه؟».

- «بالعكس (قالها بالإنجليزية)، فقد كنت على وشك أن أقترح عليك أن تجعل علاقتكما أكثر قربًا، فربما استطعتم بهذه الطريقة أن تقدموا خدمة عظيمة لمعركتنا ضد هتلر».

- «لحظة واحدة من فضلك (قالها بالإنجليزية)، هل تعنون أنه ينبغى علىّ أن....».

كانيجام: «لا، يا صديقى (قالها بالإنجليزية)، ليس من اللائق أن أطلب منكم أمرًا
كهذا» ثم ضغط برفق بأسنانه على شفته السفلى، وأضاف قائلاً:
«فالعلاقات الإنسانية ببساطة تدفئ القلوب بطريقه قد تنخدع بها. ولابد
أنكم لاحظتم أننا تحدثنا فى هذا الأمر أكثر مما ينبغى. إنها لحظة
ضعف عادة ما نندم بعدها. فإذا ما شهدتم يومًا مثل هذه اللحظة فى
حديث الأدميرال الفرنسى، سأكون فى غاية الامتنان لو أبلغتمونى بذلك».

كان كوستيس يتخيل بوابات سجن كوم الدكة وهى تفتح من أجل نيكيتاس، ولكنه
فضل أن يظل صامتًا إلى أن سمع من سير أندرو كانيجام تلك الجملة السحرية:

كانيجام: «وبالطبع، سيكون هناك مقابل لذلك!».

* * * * *

منذ اليوم الأول الذى انتقل فيه كوستيس وهايكى للإقامة بالإسكندرية، انتابها
انطباع دائم بأنه يتجنب الحديث معها، وقد أصابها الضيق لذلك. إلا أنها كانت فى
أعماق نفسها على يقين من أن زوجها يهتم بها، كما كانت على علم، أو ربما كانت
تظن، أنه كان مضطرًا دائمًا للدخول فى معارك كبيرة، فى محاولة منه للحفاظ على
إمبراطورية أسرته الاقتصادية التى كانت تواجه شبح الانهيار منذ اللحظة التى رحل
فيها أبوه عن عالم الصناعة قبل ثلاثة أعوام مضت. كانت هايكى قد استعدت نفسيًا
لمثل هذا الاحتمال من خلال كل ما ذكره كوستيس لها فى باريس، ربما من أجل
إبهارها؛ فواقع الثروة والرقى الذى وجدته فى مصر جعلها تشعر دائمًا بالحنين
لحياتها الهادئة فى العاصمة الفرنسية. حتى مولد طفلتها الصغيرة ذافنى لم يكن كافيًا
لمحو مثل هذا الشعور. قد يقول قائل إن امرأة مثلها كانت تعمل بوصفها موديلاً فى
كوكو شانيل، ربما تشعر بنوع من الإهانة. كان الحمل مفاجأة بالنسبة لها، فى وقت
كان الزواج وإنجاب الأطفال هما آخر ما يمكن أن تفكر فيه، مما تسبب فيما بعد فى
خلق نوع من العلاقة غير السوية مع زوجها. وكان ميلاد طفلتها بالنسبة لها حدثًا مهمًا

فى مسيرة حياتها. وبقدر حبها لابنتها الصغيرة بقدر ما كانت تتساءل دائمًا إذا ما كانت ذافنى الصغيرة مجرد وسيلة استطاع كوستيس من خلالها أن يقحم زوجته الهولندية - اليهودية فى أسرته. وعلى الرغم من تلك الخطابات الحماسية التى كانت كتبتها إلى أمها عن الإسكندرية وعن الحياة فيها فقد كانت تخفى دائمًا حيرتها وحزنها.

كانت هايكى فى وصفها المشوق لمدينة الإسكندرية فى العقد الرابع من هذا القرن (١٩٣٠ - ١٩٤٠)، وكأنها تؤلف قصة تحاول أن تخدع بها نفسها قبل أن تخدع أى شخص آخر. ليس لأنها لم تكن تحب كوستيس، أو لأنها كانت تفكر فى رجل آخر أو لأن هناك ما ينقصها فى القصر التى تعيش فيه فى الحى اليونانى: ليس لأنها لم تعشق بحر الإسكندرية الهادئ وسماءها الصافية، أو لأنها فى مدينة يختلط طراز الحياة الأوربى فيها بسحر المآذن والجلاليب. وعلى الرغم من أنها كانت تشعر بأنها تعيش فى مدينة مضيافة، يتعايش فيها أناس من أجناس مختلفة، وديانات ولغات بل ومهن مختلفة، فإنها لم تجد لنفسها مكانًا فيها. لم يكن يكفيها أن تكون مجرد زوجة لرجل صناعة السجائر أو أم لطفلة جميلة. كانت تتحرّق شوقًا للقيام ببعض الأنشطة، ولإظهار قدراتها وشخصيتها، ولأن تصبح لها وظيفة محددة تستطيع من خلالها أن تشعر بشىء من الرضا الذى يحتاجه كل إنسان من أجل العيش فى انسجام مع الآخرين. لكنها، على العكس من ذلك، كانت تشعر بأنها قد وهبت نفسها بشكل كامل إلى عائلة خاراميس، وأن دور العروس الجميلة والزوجة والأم المخلصة لم يكن سوى نوع من الإذلال بعد انتهاء الحرب، التى لم تكن تعرف أبدًا متى وممن نخسرها.

وبقدر ما كانت تعانيه من التفكير فى مصير والدتها، كانت تأتى عليها لحظات تحسدها فيها على قرارها بعدم زيارة الإسكندرية. كان يكفيها استسلامها هى دون شروط، ولم تكن هناك حاجة لأن تخضع هى وأمها لعظماء الإسكندرية.

كانت هايكى تعيش فى قلب أفريقيا، كالحقيبة الفارغة التى يقوم آخرون بإعداد محتوياتها. وفى هذا المنحنى الخطير فى حياتها كان الشىء الوحيد الذى يواسيها هو؛ أنها تنتمى لديانة مختلفة. وقد أدت زياراتها للمعبد اليهودى وحلمها الدائم بقيام

فلسطين اليهودية، إلى توتر علاقتها بأسرة زوجها وتحولها إلى علاقة شائكة. لكنها لم تكن على استعداد للتخلى عن صورتها بوصفها يهودية مخلصة. فى نفس الوقت، كان لانشغالها ببعض الأنشطة - مثل جمع التبرعات والأهتمام بدورالأيتام وإيجاد ملاجئ للمشردين وتنظيم حفلات خيرية - دور كبير فى إحساسها بأن لحياتها قيمة وسط هذا العالم. وكانت تحرص على التغلب على ما بقى بداخلها من فراغ بشرب جرعات صغيرة من الخمر - وبخاصة الكونياك - الذى تزايد حبها له مع مرور الوقت، مثلما ازداد شعورها بالاستقلالية. وبالطبع لم تدرك أنها قد أصبحت مدمنة للخمر. فى حين كانت توضح الأمر ببساطة بقولها: «عيبى الوحيد فى هذه الحياة يكمن فى رشفات من البراندى أتجرعها كل مساء».

وبالفعل، فى الفترة التى كانت تقدم فيه هايكى خدماتها إلى نادى قوات التحالف، لم يمر عليها يوم واحد دون أن تشرب فيه الخمر. كانت حماتها تردد بين الجدية والمزاح، أن هايكى اختارت أن تقضى أمسياتها فى المبنى الذى يقع فى شارع كورينثوس فقط من أجل أن تستمتع بشراب الخمر دون أن يعيقها أحد. وفى الحقيقة، كانت الأجواء داخل النادى تتسم دائمًا بالسعادة، بالإضافة إلى الأنشطة اليومية الممتعة وعروض الرقص التى تقدم يومى الأحد والإثنين فى المكان المخصص للرقص بالفناء أو بالقاعة المبهرة داخل المنزل. كانت هايكى تستمتع بكل ذلك، لكن خطيئتها الوحيدة هى احتساؤها لكأس أو اثنتين من الخمر فى الخفاء، دون أن يؤثر ذلك عليها فى شىء، فيما عدا ذلك اليوم فى بدايات عام ١٩٤١ عندما شعرت بقليل من الدوار على غير المعتاد، عندئذ طلبت فنجانًا من القهوة قدمته لها امرأة ممشوقة القوام قالت لها(بالفرنسية) قبل أن تعرفها بنفسها:

«السيدات الجميلات لا يشربن الخمر».

شعرت هايكى بالخجل، حتى إنها أفاقت ونهضت فى الحال لتكمل خدمة الضباط دون أن تسمح لنفسها بلحظة من الراحة. وفى النهاية عرضت عليها نفس السيدة التى

كانت تدعى إيفيت شانتون أن تقوم بتوصيلها إلى المنزل بسيارتها، لكن هايكى اعتذرت لها قائلة:

«لا داعى لذلك، فالسائق فى انتظار مكالمة منى لكى يحضر ويصطحبنى للمنزل».

إيفيت: «إذن لا تطلبينه» هكذا أجابتها إيفيت، ثم جلست السيدتان معًا فى السيارة، وقد يظن من يراهما أنهما أم بصحبة ابنتها.

هايكى: «لكن كيف عرفت أننى شربت الخمر؟»

- «إنه أمر يسير. فهناك من طلب منى الاعتناء بك أثناء متابعتى لسير العمل بالنادى».

- «أهذا صحيح؟» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «وأنت تعرفينه أيضًا».

- «هل أنت متأكدة؟».

- «كل أفراد " الطبقة الراقية "(قالتها بالفرنسية) فى الإسكندرية يعرفونه، إنه صديق لى من لبنان».

- «هل يدعى إلياس؟».

- «نعم إنه هو» (قالت ذلك بالفرنسية).

- «ولكن لماذا يفعل إلياس هذا؟».

- «فكرى قليلاً ربما كان زوجك قد طلب منه هذا؟».

- «زوجى! لا، لا يمكن أن يثق به فى شىء يخصنى».

فى تلك اللحظة أرادت إيفيت أن تشعل سيجارة، لكن هايكى منعتها قائلة:

«السيدات الجميلات لا يدخن أيضًا».

- «أنا لا أصدق ما أسمعه، أنت زوجة رجل صناعة الدخان، تجعلين زوجك يخسر واحدة من زبائنه».

- «لقد لاحظت بالفعل أنك تدخنين من ماركة سجائر مصنعه، لكن هذا لا يمنعنى من أن أخبرك بأن ما تفعلينه خطأ. ولاحظى أن هذا الكلام يصدر عن زوجة أكبر رجل صناعة للسجائر تشعر بالكبت».

أطفأت إيفيت سيجارتها ضاحكة ثم تحركت بالسيارة، وقد لاحظت أن هايكى تتأمل من حين لآخر القفازات البيضاء التى ترتديها، والتى كانت تظهر بوضوح فى الظلام الذى يغلف الشوارع، وعندئذ قالت هايكى:

«التعليمات واضحة: لابد وأن نرتدى الملابس البيضاء حتى نبدو واضحين فى الظلام، لكن يا له من حظ سيئ أن نعيش فى مدينة تقع تحت تهديد طائرات العدو».

إيفيت: «حسنًا، إنها الحرب» هكذا أجابتها إيفيت (بالفرنسية) وتذكرت أن تلك الجملة هى ما اعتادت أن تردده منذ بداية الحرب.

وعند أحد التقاطعات، استوقف السيارة ضابط شرطة مصرى، عندئذ أخرجت إيفيت ورقة يبدو أنها تصريح خاص يحمل توقيع القائد البريطانى. أمسك الضابط الورقة بأطراف أصابعه وأخذ يتفحصها وكأنه يستطيع بهذه الطريقة أن يتأكد من أنها ليست مزورة، ثم قام بالدوران حول السيارة ليتفحصها وقد احتفظ بالورقة فى يده وأخذ يطرق بها على يده الأخرى. عندئذ قالت له إيفيت جملة قصيرة باللغة العربية، التقط منها الضابط كلمة واحدة يبدو أنها كانت تشير لاسم ردده الضابط خلفها للتأكد من صحة الاسم. ثم أعاد إليها الورقة، وألقى لها بالتحية العسكرية وأفسح الطريق لتمر السيارة.

- «إن ما يزعجنى من المصريين أنهم لا يعرفون أبدًا متى يأخذون الأمور على محمل الجد. إذًا لم يكن هذا الرجل نموذجًا للإنسان المتخلف.....».

وعندئذ قاطعتها هايكى قائلة:

«هل تتحدثين العربية؟».

- «نعم قليلاً (قالتها بالفرنسية)، أقل مما يجب، إذا ما فكر أحد أننى أقيم فى مصر منذ خمسة وعشرين عامًا!».

- «خمسة وعشرون عامًا!».

- «نعم، عندما أتيت من باريس كنت وقتها فى مثل عمرك تقريبًا».

- «باريس، نفس العمر. ها هى إذن بعض النقاط المشتركة التى تجمع بيننا» قالت هايكى ذلك بحماسة.

فى تلك اللحظة قام شخص بتصرف متهور، حيث عبر الطريق المظلم دون سابق إنذار. ضغطت إيفيت فرامل سيارتها البيجو بقوة مما أحدث صوتًا مدويًا كالصرير، فما كان من الرجل إلا أن تلفظ بكلمة عربية بدت وكأنها نوع من السباب.

وبدخولها إلى شارع فؤاد كان هناك رجل من رجال المرور يقف كل مائة متر، حيث يقومون بتنظيم حركة المارة والسيارات فى أولى ساعات الليل.

لاحظت هايكى أن إيفيت تعرف الطريق لمنزلها دون أن تجهد نفسها بتوجيهها. كانت تتفحص جسدها وتتخيل أنها تخفى تحت ردائها الأبيض جسدًا جميلاً بالنسبة لسنها. وصلت السيارة أمام المنزل بشارع العباسيين، وعندما همت هايكى بالخروج من السيارة، استدارت وسألت إيفيت بصيغة الاحترام قائلة:

«وهل ذكر لكم إلياس أن كوستيس طلب منه أن تراقبوننى؟».

فأجابتها إيفيت بطريقة دبلوماسية قائلة:

«حتى لو كان الأمر كذلك، فلابد أن تنظرى إليه بوصفه دليلاً على اهتمامه الشديد بك».

بعد ذلك ضغطت إيفيت دوَّاسة البنزين بقوة واستدارت لتخرج تجاه حدائق "الشلالات" (ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية).

* * * * *

كان كوستيس يعيش بعد عودته إلى الإسكندرية منعزلاً فى هذا الجانب من المدينة الذى كان يسبب له الحزن عندما كان طفلاً صغيراً. وعندما ترك المدينة منذ عشرين عامًا فى بداية رحلته الطويلة إلى أوربا فى فترة ما بين الحربين، لم يكن يتخيل أنه سيعود إليها ليعيش حياة رجل الأعمال الناجح الرتيبة التى يفتقد فيها متع الحياة اليومية: فكان يتابع لقاءاته فى المقاهى الفاخرة، فى النادى اليونانى، فى نادى التجديف، وكان يتحين الفرصة لحضور أية مناسبة اجتماعية أو لمشاهدة الأوبرا أو لمتابعة العروض المسرحية لفياكيس ومينوتيس وخريستوفوروس نيزير وكيفيلى وكوتوبولى بشكل منتظم (حيث كان يحرص على طبع قبلاته على يد الممثلات اليونانيات، ثم يبحث جاهداً فى اليوم التالى عما إذا كان اسمه قد ذكر فى إحدى الصحف اليومية)، أو يستضيف فى منزله أدباء أجانب وبعض فنانى الأوبرا وضباط الجيش الكبار ودبلوماسيين. ولم تكن تلك هى الحياة التى كان يحلم بها لنفسه، لكنه كان يتقبلها بسعادة تمامًا مثلما كان يتقبل أن يقوم بتفصيل بذلاته من قماش الكشمير غالى الثمن. الشىء الوحيد الذى كان يخيفه هو؛ أنه كلما كبر كلما ازداد التشابه بينه وبين أبيه: نفس الاستبداد والمزاج الحاد أمام العمال فى المصنع، نفس الشخصية الناقمة المنغلقة أمام أصدقائه وشركائه فى العمل، نفس تجاهل التزاماته تجاه الجالية اليونانية، حتى موقفه تجاه بعض الناس مثل إلياس خورى كان ثابتًا لا يتغير. كان يتمنى لو أصبح لديه ولو صديق واحد مثل الأيام الخوالى. فقد انقطع ارتباطه بنيكيتاس للأبد، وكذلك بإيفيتس الذى كان يذكره بالزمن الجميل، إلا أنه يرقد الآن تحت ثرى إسبانيا؛ أما ميسا فلم ينظر إليه أبداً بوصفه صديقًا، بينما كانت علاقته بسيستانيس مجرد علاقة موظف برئيسه فى العمل.

كان كوستيس يفكر فى كل ذلك فى نفس اليوم الذى أرسل فيه السائق محمود بسيارته الرولزرويس لاستقبال نيكيتاس خارج سجن كوم الدكة، لكن ابن خاله رفض أن يركب السيارة، مفضلاً أن يعود إلى باب سيدرا " بالحنطور". وقد أرسل إليه نيكيتاس نصيحة بألا يشغل باله تجاهه، وبخاصة أن علاقته بمن لهم توجهات شيوعية

قد تؤدى به إلى ما لا يحمد عقباه. أما كوستيس الذى كان يعتبر أن إطلاق سراح نيكيتاس بالنسبة له أمر شخصى، فقد شعر بالإهانة فى أعماق نفسه. حتى لو لم تعد علاقته بنيكيتاس كما كانت، فإنه كان يشعر وكأنه مازال طفلاً صغيراً. وهو ما يفسر ذلك الخطاب الطفولى الذى أرسله إليه والذى ينم عن تساؤل برىء: «كيف يمكن لهذا الصبى الصغير المفعم بالحياة، والذى كنت أعرفه يومًا ما أن يتحول إلى هذا الرجل البدين المبالغ فى مشاعره؟». وقد أجابه نيكيتاس بنفس الطريقة الطفولية قائلاً: «لقد حدث ذلك بنفس الطريقة التى تحول بها صعلوك الحى اليونانى إلى " الفاكهة التى توضع فوق كريمة"(قالها بالفرنسية) المجتمع بالإسكندرية». ويبدو أن تلك النزعة العدائية التى نشأت بين الصديقين القديمين استمرت حتى تلك الليلة التى ذهب فيها كوستيس وهايكى إلى كباريه " أكسيلسيور" لكى يشاركا بنفسهما الطريقة التى كان اليونانيين بالإسكندرية يحتفلون بها إزاء انتصارات جيشهم الوطنى التى حققها على الحدود اليونانية الألبانية. وقد كتب كوستيس فى مذكراته لاحقًا: «كان لدخول هايكى إلى الكبارية أثر كبير، فقد استيقظت بداخلها روح عارضة الأزياء التى كانت تعمل فى كوكو شانيل. كانت ترتدى رداءً أسود (وهو الرداء المحبب إلى نفسى)، (دوّنها بالإنجليزية)، مرصعًا بالترتر، وزينت عنقها بصفين من الأحجار الكريمة، فانجذبت إليها أبصار الجميع من الرجال والنساء. لا يمكنك أن تشعر بالغيرة تجاه هذه المرأة، لكنك بكل بساطة تشعر بالإعجاب».

كان الجو بالفعل مفعمًا بالحماسية: فالفرقة الموسيقية تعزف من حين لآخر ألحانًا وطنية وكان الحاضرون – من المواطنيين ورجال الجيش – منهمكين فى رقص لا ينقطع. وكان كوستيس، كعادته، لا يخرج أبدًا للسهر دون أن يصطحب معه صديقه ميسا. وانضم إلى تلك الصحبة الحاضر دائمًا إلياس خورى، ثم ظهر بعد ذلك سيستانيس وزوجته. جلسوا جميعًا فى المقدمة على مائدة واحدة، ومن هناك كان كوستيس يشجع ابن خاله نيكولاس وهو يعزف على الجيتار ويشدو بالغناء، كان صوته الحالم من أشهر الأصوات فى ذلك الوقت. فى تلك الليلة أفرط كوستيس فى الشراب، على العكس من

هايكى التى كانت تكره الويسكى، ووجدت أن الفرصة باتت مواتية لها لكى تنفذ وعدها الذى أعطته لإيفيت شانتون بالإقلاع عن الشراب، وتأكد كوستيس لاحقًا أن الظروف لم تكن ملائمة لكى يتذكر ذكرياته فى برلين وباريس أيام شبابه.

منذ هذه اللحظة وما تلاها، كانت مشاعره تبحر فى بحار الخمر العميقة، ولذلك فلم يدرك إشارات نيكولاس التى أراد بها أن يحذره من أن نيكيتاس قد وصل إلى الكباريه. اعتقد نيكيتاس، الذى كان يقف بعيدًا، أن كوستيس يتجاهله، وعندما شرع كوستيس وصحبته فى الرحيل، أسرع نيكيتاس خلفه ليسأله عن سبب تجاهله له. تبادل الرجلان الألفاظ الحادة وقبل أن يفهم أى شخص ما الذى يحدث بينهما، كانا قد اشتبكا بالأيدى وبدآ فى العراك، حتى توجها للخارج صوب "الكورنيش". أسرع سيستانيس وميسا لكى يفرِّقا بينهما، لكن كان من الصعب التفريق بينهما لقوة الشجار، وفى النهاية تمكنا من ذلك، حينئذ كان الرجلان المتعاركان قد تمزقت ملابسهما وأصبح وجه وجسد كل منهما مغطى بالكدمات والخدوش.

وكأن ذلك لم يكن كافيًا، فقد انطلقت صفارات الإنذار، لكن كوستيس، الذى يبدو أنه لم يكن على وعى بما يدور حوله، رفض بإصرار أن يتبع الباقين إلى المخبأ. واتخذ نيكيتاس نفس الموقف غير المسئول الذى لم يكن يقل فى عناده عن كوستيس. وعندئذ قرر كل من حولهما أن يتركاهما بمفردهما ويسرعوا بالاختباء فى نفس اللحظة التى أضاءت فيها مدافع الطائرات سماء الميناء الغربية من فوقهم. استبقى كوستيس ميسا إلى جانبه وطلب من سيستانيس أن لا يدع هايكى تغيب عن ناظره ولو للحظة واحدة. كان الفجر قد حل عندما عاد كوستيس إلى المنزل، متجاهلاً طائرات العدو الأخيرة التى كانت تطير وتختفى تجاه الغرب مع انتهاء الليل. كان لونه شاحبًا من السهر والخمر، وقد دوَّن فى مذكراته ما يلى:

«كنت فى انتظار استقبال من نوع آخر، لكننى وجدت هايكى، التى كانت ترقد منثنية على الأريكة بغرفة المعيشة، ترحب بى بقبلة حارة، قائلة (بالفرنسية): "أحبك من كل قلبى". كان ثوبها قد تجعد من النوم على الأريكة، كما تركت الوسادة علامة على

خدها الأيمن. حمدت الله على نجاتها. يا لهؤلاء النساء! كم يتسمن بالجنون. لن أستطيع فهمهن على الإطلاق».

ارتمت هايكى فى أحضانه، وأشتمت منه رائحة السجائر التى تفوح من ملابسه بقوة واختلطت برائحة الخمر وعطور النساء الرخيصة، وبقدر الأحداث التى وقعت فى تلك الليلة الغريبة، بقدر ما كان تشبثها به واحتضانه بقوة وهمسها برقة فى أذنه بكلمات الحب. وبدلاً من أن يزيح همومه وإحساسه بتأنيب الضمير والاستمتاع بتلك اللحظات، أخذ يردد لها من وقت لآخر أن باستطاعته أن يشرح لها لماذا تأخر فى العودة إلى المنزل حتى طلوع الفجر. كم هم أغبياء هؤلاء الرجال! ولكنها كانت تهز رأسها رافضة أن تسمع منه أى شىء وهى تغرقه بقبلاتها. ولحسن الحظ أنها فعلت ذلك، لأنه لم يكن يدرى ماذا سيقول لها؟ هل يحكى لها كيف دفع بنفسه فى هذا الوقت إلى جحيم المدينة، بين الأحياء الفقيرة والبيوت القديمة والطرقات الضيقة المليئة ببيوت البغاء الرخيصة والمقاهى القذرة، التى توجد فى سراديب تحت الأرض ترقص فيها راقصات تركيات بلا انقطاع ليوقظن المصريين المساطيل، بينما يقدم لهم القهوجى الأعرج الخمر الرخيص فى أكواب قذرة؟ هل يحكى لها عن الأماكن التى ذهب إليها ليتعاطى الأفيون والتى لا تتعدى مجرد جدران سقفها من الصفيح وأرضها من التراب؟ فى مثل تلك الأماكن، حيث للشيشة مذاق مر، يلعب (القمار) بالنرد رجال وجوههم سمراء بلون الفحم، وعيونهم شديدة الاحمرار مستخدمين نقوداً ورقية مهترئة، وهم إما يتصايحون أو يمسك الواحد منهم بتلابيب الآخر أو يبصقون على الأرض. حتى إن بعضهم تحرش بهما بشكل يحمل نوعًا من التهديد، مما دفع ميسا إلى فتح جاكت بذلته لكيى يريهم المسدس الذى يحمله. وكانت بيوت البغاء تعج بنساء ذوات بشرة بيضاء، ناعمات كالزبد، يتحركن بطريقة مثيرة للغرائز، أجسادهن تلهب مخيلة العديد من العشاق، ولكنها تخفى أمراضًا تبحث عن فرصة لتنقض على أجساد الرجال الأصحاء. كل ذلك كان يجرى تحت القصف المستمر فى الميناء الغربية.

عبر كوستيس وسط كل هذه النيران وعاد إلى منزله لا يعتريه سوى بعض التراب على بذلته التى فقد أحد أكمامها، ورابطة عنق مدلاة حول عنقه وياقة قميص ممزقة من إثر مشاجرته على "الكورنيش". استقبلت هايكى فارسها غير المهندم بأحضان مفتوحة وقد ذكرته هيئته بعد مرور سنوات عديدة بذلك الشاب البوهيمى العنيد الذى أحبته فى إحدى ليالى باريس. وربما أحسن كوستيس صنعًا بإخفاء هذا الجانب من شخصيته عن الناس، ولو أنه قرر منذ البداية أن يشاركها هذا الجانب من حين لآخر، فربما أزال عنها هذا الشعور بالوحدة الذى تشعر به فى هذه المدينة.

* * * * *

كان أول أعباء كوستيس منذ توليه إدارة المصنع فى بدايات عام ١٩٣٣، هى تزويده بما يحتاجه من الورق. ولم ينس أبدًا كم كلف والده من ثمن غالٍ نتيجة علاقته أيام المراهقة بچيهان زوجة تاجر الورق المصرى. ولأنه كان من الخطر أن توجد هذه الكميات الكبيرة من المواد الحساسة فى مكان واحد بالمصنع، فقد قام بتوزيع الورق على مخزنين مختلفين بمينا البصل، خلف مخازن القطن. فى تلك الأثناء، قامت الحرب ولم تدعه القنابل التى قصفت الميناء الغربية يعيش فى سلام. كان يفكر فى نقل البضائع من المخازن إلى أماكن أكثر أمنًا، ولهذا السبب أسرع باستئجار مخزنين آخرين بالمحمودية، كانا يبعدان مئات الأمتار عن المصنع. وفى مساء أحد الأيام أمسكت النيران بأحد مخازن الورق بمينا البصل بعد قيام الإيطاليين بقصف منطقة الميناء القديمة. كان لدى كوستيس هاجس بأن ذلك الحريق الذى تسبب فى نقص كبير فى مخزون الورق لعدة شهور، قد حدث عن عمد ولم ينشب نتيجة شظية من قنابل الطائرات الحربية مثلما أشارت تحقيقات المخابرات البريطانية. كان " الغفير" (ذكرها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) الموجود بالمبنى فى تلك الليلة قد أبلغ عن بعض التحركات المشبوهة لثلاثة من الرجال، لكن جهات التحقيق لم تعتد بشهادته واعتبرت أن الحريق دليل دامغ على الوحشية الإيطالية.

وإلى أن تصل الشحنات الجديدة من الورق ـ التى ساعدته البحرية الملكية البريطانية فى تأمين وصولها ـ فقد تم نقل كل ما تبقى من كميات الورق فى المخزن الثانى بمينا البصل بالتدريج إلى مخزن المحمودية. وحتى يستطيع كوستيس أن يخدع المخربين، إن كان لهم وجود بالفعل، فقد قرر أن يدفع بورديات مضاعفة لحراسة مخزن مينا البصل الخاوى من الورق، وقد أكدت له الأحداث شكوكه. ففى إحدى الليالى قامت " إحدى الجهات الوحشية الإيطالية " بإشعال النيران فى المخزن الثانى. عندئذ أيقن كوستيس أن هناك من يشن عليه حربًا قذرة، وتم إبلاغ كوستيس أن الخسائر هذه المرة فادحة وأخذ ينتظر خطوتهم التالية. ولكى يستطيع أن يؤمن نفسه قام بالاتصال بنفس تجار الورق المعروفين من أجل التفاوض على شراء الورق. عندئذ أخبره أحدهم أن صديق والده القديم، بطرس عبد المسيح، قد مات منذ عامين وتولت زوجته چيهان وابنها يوسف إدارة مصنعه، فأصابه هذا الخبر بنوع من الاندهاش، لكنه فضل أن يتجاهله إلى أن وصله منها خطاب كتبت له فيه:

«علمت أنك تواجه مشكلة بخصوص الورق. أستطيع مساعدتك، إذا أردت أنت ذلك. حبيبتك القديمة جيهان».

لم يرد كوستيس على خطابها؛ على الرغم من علمه بأن بطرس لم يعد عائقًا بينهما ليحول دون لقائهما. فاستمر حصارها له وكتبت فى خطابها التالى:

«أعرف من أضرم النيران فى مخازن مينا البصل، لابد أن نلتقى بأسرع ما يمكن». لو أن كوستيس اتخذ قراره فى النهاية بلقائها، فكان لزامًا عليه أن يكون فى هذه المرة شديد الحذر، فإثارة أية فضيحة جديدة ستكون لها آثار مدمرة على حياته. ولذلك فقد أجابها قائلاً: «إذا كانت لديك رغبة صادقة فى مساعدتى، فمن الأفضل أن تفعلى ذلك من بعيد».

عندئذ أجابته جيهان بقولها: «هل تخاف منى إلى هذه الدرجة؟» وفى الحقيقة كانت إجابتها جريئة حتى وصل بها الأمر يومًا للاتصال به تليفونيًا. كان صوتها حزينًا وأحس كوستيس وكأنه يتحدث إلى شخص ميت. ودار بينهما الحوار التالى:

جيهـــان: «هل كان من الضرورى أن تقع حرب جديدة حتى يمكننا أن نتحدث معًا مرة أخرى».

كوستيس: «يبدو أن الأمر كذلك، رغم أن التعايش فى سلام هو الأفضل بالنسبة للجميع، "أليس كذلك؟" (قالها بالفرنسية)».

– «ربما (قالها بالفرنسية). وفى جميع الأحوال الحرب حربكم، إنها حرب الأوربيين ولا تخصنا».

– «حقًا! أتصور مدى سعادتك لو قام أحدهم بطردنا نحن والقوات البريطانية خارج البلاد».

– «ليست لدى أية مشكلة مع اليونانيين أو البريطانيين، الأمر ببساطة أن هذه الأرض ملكنا ونحن نتألم لحالها».

– «ولكن القنابل التى تسقط على هذه الأرض ليست بريطانية».

– «ليست لذلك أية أهمية، فقد قام الإنجليز بقصف الإسكندرية من قبل، وسوف يفعلون ذلك مرة أخرى إذا ما استلزم الأمر».

– «لن يؤدى هذا النقاش إلى أية نتيجة. لأننا لن نتفق فى النهاية».

– «لماذا تتحاشى لقاءنا؟ ألا يعد ذلك أمرًا طبيعيًا بالنسبة لشخصين مثلنا تقاسما معًا أشياءَ كثيرة منذ سنوات، أن يلتقيا مرة أخرى ولو لبعض الوقت؟».

– «لسنا وحدنا فى هذا العالم، يا جيهان» هكذا أجابها كوستيس، متحليًا بأكبر قدر ممكن من البرود.

– «أما أنا فأعيش وحدى، بلا زوج، لابد أنك تعرف ذلك».

– «نعم، ولكن لديك ابنك».

– «الابن فى مثل هذه السن لا يهتم بأمه، أنت أيضًا ما زلت ابنًا وتفهم ما أقول. تعالَ يومًا إلى "العزبة" لكى ترانى».

- «هل جننت؟» هكذا صاح فيها.

- «بعد مرور كل تلك السنوات، كنت أنتظر منك أن تكون أكثر رقة».

- «لديك حق، سامحينى، لكنك لم تهيمى على وجهك فى أوربا مثلى من أجل امرأة متزوجة» هكذا حاول كوستيس أن يتحدث بصوت مفعم بنبرة درامية، ثم أضاف قائلاً (بالفرنسية): «إن هذا لأمر مخيف».

- «لقد كنت أنا أيضًا هائمة بداخلى، ومازلت» هكذا أجابته ثم أضافت قائلة:

«كان بإمكانك على الأقل أن ترد على خطابى الذى أرسلته لك فى ألمانيا» ثم تنهدت بشكل عفوى.

- «فلندع كل هذا جانبًا. هل لديك ما تخبرينى به بخصوص مينا البصل؟».

- «بالطبع لدى، ولكن لن أخبرك به فى التليفون». وهكذا لم تتغير چيهان على الإطلاق، فمازالت نفس المرأة الفاسدة التى لا تفعل سوى ما يحلو لها.

- «لا تنتظرى منى الحضور إلى العزبة» هكذا أجابها كوستيس بطريقة جافة.

- «حسنًا، سأفكر فى شىء آخر وسأتصل بك مرة أخرى».

مر خمسة عشر يومًا وظن كوستيس أنها لن تزعجه مرة أخرى، إلا أنه كان مخطئًا، فقد اتصلت به قائلة:

«تأخرت فى الاتصال بك لأنى أردت التأكد من أمر ما قبل اتصالى».

- «حسنًا، وهل تأكدت الآن؟».

- «نعم، لابد أن أقابلك فى أسرع وقت ممكن».

- «فى عزبتك؟».

- «لا ليس فى عزبتى، "كان معك حق "(قالتها بالفرنسية)، فقد كانت فكرة غير صائبة».

- «حمداً لله أنكِ قد أدركت ذلك».

- «سنلتقى حيث اعتدنا أن نلتقى من قبل، فى عمارة القائد جوهر».

- «أين؟» (قالها بالفرنسية).

- «لقد سمعت ما قلته، إنك لست أصم. كانت الشقة خالية وقمت باستئجارها. يمكننا أن نلتقى هناك فى أى وقت تشاء».

- «ألم تعقلى بعد كل تلك السنين؟ ألا تفهمى أن هذا قد يؤذينا نحن الاثنين؟».

- «لا أحد يتذكرنا بعد كل تلك السنين، وبالإضافة إلى ذلك، فهناك أمور أكثر أهمية لينشغل بها الناس، فالحرب لن تجعل الناس ينشغلون بحدث وقع منذ عشرين عامًا» ثم قالت وقد بدا عليها الإصرار: «نعم، أريد أن أراك يا كوستيس، لدى الحق فى أن أراك مرة أخرى، باسم كل ما عشناه معًا فى هذا المكان. لقد دفعت أنا أيضًا ثمنًا كبيرًا، لا تنس ذلك. والآن تسمعنى وأنا أتذلل لك هل يعجبك هذا؟».

- «لا، لا يعجبنى» هكذا أجابها ولكنه لم يكن صادقًا. فقد كان سعيداً بسماعها وهى فى هذه الحالة: صوتها، سحر التوسل والإذلال، كل ذلك كان يشبع كبرياءه. كان يريد أن يراها متذللة. فقد كان ذلك هو أكثر الأشياء إمتاعًا بالنسبة له.

- «إذا لم يعجبك أن تسمعنى متذللة فداونى. امنحنى فرصة واحدة. قابلنى اليوم فى الشقة بعمارة شارع القائد جوهر».

- «اليوم؟ مستحيل. ربما غداً. نعم، يمكننى غداً».

- «غداً صباحًا إذن».

- «لا، لا، غداً مساءً أفضل، فى الخامسة».

جيهان: «اتفقنا إذن» قالتها (بالفرنسية) وهى تشعر بالسعادة، فقد أحست بأنه لم يعذبها كثيراً حتى وافق. وفى صباح اليوم التالى تحرك ومعه ميسا يقود السيارة ببطء. لم تكن لدى كوستيس أدنى رغبة فى العودة إلى مرحلة عام ١٩١٩، على الرغم من كل ذلك فقد أيقن أن كل ما يتعلق بشارع القائد جوهر قد تحول لصالحه. لم يعد بحاجة لانتظارها بالساعات وهو غير متأكد من وصولها إلى تلك الشقة، مثلما كان يحدث من قبل. الآن سيصل هو بعدها دون أن يتعجل، تاركًا إياها تتعذب بنفس الشك الذى عذبته به يومًا ما.

تسببت الأمطار التى ظلت تسقط حتى منتصف النهار بالإسكندرية فى هبوب الرياح التى جففت الأوراق على قمم أشجار النخيل، فى حين حلقت أسراب الحمام فى سماء الإسكندرية متخذة أشكالاً تشبه عروض الطائرات الحربية. وبينما كانت السحب الداكنة تتجمع فى السماء، كان كوستيس وميسا يغادران المدينة بعيداً عن أسراب الحمام التى بدت وكأنها تحمى المدينة، أخذ كوستيس يتطلع إلى الأفق الشاسع باتجاه الغرب، وفكر فى أن الأجواء أصبحت مفتوحة للطائرات الحربية الإيطالية. وفى اللحظة التالية – وكأن هناك من يقرأ أفكاره – انطلقت صفارات الإنذار وكأنها أجراس الساعات، انطلقت لتوقظ أهل الإسكندرية جميعًا، لتخرج سكان المدينة رغمًا عنهم فى هذا اليوم الهادئ. كان رد الفعل فى الشوارع غير سريع، فقد استمر المشاه لدقائق قليلة يسيرون فى طريقهم، متمنين لو أن هذا الإزعاج لا يستمر لفترة طويلة. كان العديد من الناس يعتقدون أن حدوث هجمات جوية فى ذلك الوقت هو مجرد خدعة من جانب الإيطاليين، وكأن هناك اتفاقًا خفيًا بأن لا يقوم الإيطاليون بالقصف سوى مع حلول الظلام. وقد احتاج الأمر لخروج إحدى سيارات الشرطة لكى تعلن فى الميكروفون بلغة فرنسية هزيلة "انتباه فليسرع الجميع "عندئذ بدأ الجميع يتفرقون، وبعد بضع دقائق لم يعد فى الشارع أحد سوى ميسا وكوستيس. عند الناصية التالية، سدت إحدى سيارات الشرطة الطريق واضطر ميسا للوقوف جانبًا. فى تلك الأثناء، بدأ سماع أول أصوات الانفجارات من جراء قصف المدافع المضادة للطائرات. قام أحد ضباط شرطة الدفاع المدنى بإشاردهما إلى أقرب مخبأ.

لم يستغرق كل هذا الأمر أكثر من ثلاثين دقيقة، لكن بمجرد أن تحركا تجاه شارع القائد جوهر، كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف. استولى على كوستيس شعور عارم بالقلق. كان يعرف أن المرأة القبطية لا تحب الانتظار. لكنه عاد وتذكر أنه لم يعد يعيش فى عام ١٩١٩، كما أنه ليس خطأه أن يقرر الإيطاليون فجأة قصف الإسكندرية، بدأت الحركة تزداد فى الشارع على الرغم من أن الناس كانوا ينظرون إلى السماء بقلق. فى تلك اللحظة، كانا قد وصلا إلى الميدان الصغير الذى توجد به كنيسة سانت كاثرين، أشار كوستيس لميسا أن يأخذ الشارع المتجه لأعلى. توقفا تماماً أمام كنيسة السيدة العذراء، وقبل أن يخرج من السيارة تأكد كوستيس أنه لن يصطدم فى طريقة بأحد يعرفه.

عندما هم كوستيس بالدخول إلى العمارة القديمة بدت له وكأنها لم تتغير، بمدخلها الواسع وبوابها غير الموجود. فربما أعطته جيهان نقوداً لكى يتركهما دون إزعاج، لكن ألم يكن البواب يفعل ذلك من قبل؟ صعد كوستيس على نفس السلم الواسع المظلم بدرجاته الرخامية المتآكلة والدرابزين الصدئ، وتأمل نفس النقوش ذات الطابع الغربى وأخذت نفسه تحدثه قائلة: " مرت إذن عشرون عاماً لكى أحضر إلى هنا وألتقى بها مرة أخرى ". ثم استدار لوهلة وكان على وشك أن يرحل، لكنه سمع فجأة بعض الصبية وهم يصيحون ويلعبون فى الطريق كما كانوا يفعلون منذ عشرين عاماً. "لم يتغير شىء إذن" هكذا حدثته نفسه وأخذ يصعد السلم ضاحكاً.

وصل كوستيس أخيراً إلى باب الشقة، أو ربما تكون بالفعل هى الشقة؟ ورغم طرقه على الباب لم يفتح له أحد. مستحيل أن يكون مخطئاً، هذه هى الشقة، لكن أين جيهان؟ ربما تكون بالداخل ولكنها غاضبة من تأخره، ربما أرادت أن تداعبه مثلما كانت تفعل معه من قبل، لكنه لم يجد كل ذلك مقبولاً منها. كانت الطرقة المظلمة تخفى قبح الحوائط القديمة والصدأ الذى أصاب الدرابزين المعدنى. ظن كوستيس لبرهة أنه دخل فى متاهة أحد الكوابيس. أخرج منديله ومسح به جبهته الغارقة فى العرق – على غير عادته – وسرعان ما أغرق العرق جسده بالكامل. "ما الذى أفعله هنا بعد عشرين عاماً؟".

هكذا حدثته نفسه، لكنه لم يحصل على إجابه من هذه الطرقة الواسعة، وعندئذ بدأ يهبط السلم مسرعًا ويقفز كل درجتين معًا وكأنه يريد أن يصلح ما ارتكبه من خطأ، إلى أن وصل إلى نهاية السلم وتنفس الصعداء.

لقد أغلقت حساباتى إذن مع هذا الجزء من المدينة، هكذا فكر كوستيس وقرر أن لا يعود لهذه المناطق الشعبية الفقيرة من أجل چيهان أو من أجل أية امرأة أخرى. وكأن هذه الأحياء الفقيرة هى التى تسببت يومًا ما فى تورطه مع المرأة القبطية العنيدة التى كادت تفسد عليه حياته مرة أخرى.

كان كوستيس يظن أن جيهان لم تظهر فى الأيام التالية بسبب غضبها منه وعنادها المعروف عنها. وعندما بلغته الأنباء بأنها قد قتلت وهى فى طريقها إلى موعدهما فى شارع القائد جوهر، أدرك أنها كانت فى طريقها إلى الشقة الكائنة بشارع القائد جوهر، ولكنها كانت متأخرة كعادتها عن الموعد. وعندئذ لم يكن يدرى هل يدين ذلك الطيار الإيطالى وجرأته بقتلها أم يدينها هى ويدين عنادها، الذى جعلها تتأخر للمرة الأخيرة عن موعدهما. وقد نشر خبر موتها فى الصحف وسط زحمة الأنباء الواردة من جبهات القتال عن الحرب، تلك الحرب التى كانت، كما تقول، لا تخصها.

* * * * *

«جاءت الحرب وقد أصبحتُ أرملة وحماة وجدة وينقصنى أحد أبنائى» كانت تلك هى إجابة مدام ذافنى خاراميس أمام القنصل اليونانى عندما زارها فى منزلها وشكرها على مساهمتها الكريمة فى كفاح الوطن. وكانت ذافنى، التى تسير على نفس خطوات ابنها، قد تبرعت بمبلغ كبير من أجل دعم القوات الجوية اليونانية من أموال "ثروة عائلتها "، وكانت على يقين من أنها لكى ترتقى لمستوى الأحداث، فقد كان لزامًا عليها التخلى عن قطعة من أثمن القطع فى مجموعتها من الآثار المصرية، التى كان منافسها الكبير صمويل عظيمان يحاصرها لسنوات طويلة للحصول عليها. كانت دوائر المجتمع الراقى وحدها تستطيع أن تشكك فى مصدر هذه النقود. وقد بلغ مجموع

ما تبرعت به أسرة خاراميس لقوات الدفاع الجوى اليونانى ما يعادل بل ويفوق ما قدمته بعض العائلات العريقة مثل عائلات خوريميس، بيناكيس، سالفاغوس، كازوليس. وكان المنافسون يرددون أن تلك هى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها أن تطهر عائلة خاراميس نفسها من عار تهريب الآثار ومن الابن النازى.

لقد أصاب ذافنى السأم من سماع مثل تلك الروايات. فهى دائمًا ما تتذكر أنها تضطر، أمام تلك المشاكل التى تضعها فيها الحياة، أن تواجه كلام الناس. هل يمكن أن تنسى عندما قدمتها إحدى سيدات الطبقة الأرستقراطية إلى أحد رجال المال الفرنسيين، وكانت تلك السيدة ترغب فى زواج هذا الرجل بابنة أختها، قائلة (بالفرنسية): «إنها ابنة أرستقراطى سابق». وكأن هذه السيدة تريد أن تخبره بأنها مفلسة ولا جدوى من الاهتمام بها. ثم تبعت ذلك السخرية من زواجها. فلم تكن ذافنى تنتظر أبدًا أن تسمع أقرب صديقاتها وهى تقول لها: «ما الذى تظنين أنك جنيت؟ لقد اشتريت مستقبله بماضيك». ثم صبوا بعد ذلك جام غضبهم على أخيها لوكاس. حتى أن عمها نفسه كان قد سألها كيف أصبح لوكاس بهذا القدر من الغباء، ثم أجابها فى نفس الوقت: «ربما لأنه كان يمشط عقله مثلما يمشط شعر رأسه». ثم جاء الدور على ابنها الأكبر من خلال قصة حبه للمرأة القبطية المتزوجة، التى اعتبرها البعض جريمة فى حق الجالية اليونانية. وكم كانوا أغبياء عندما كانوا يهزون رؤوسهم قائلين: «يمكن للمصريين أن يتقبلوا أى شىء، إلا أن نسلبهم نساءهم». وبعد عدة سنوات كان نفس هؤلاء الناس تقريبًا يروجون إحدى النكات فى حفلاتهم الاجتماعية على سبيل المزاح فيذكرون فيها اسم " قطار باكوس ". ربما كان قرار أندونيس قاسيًا عندما قام بنفى ماخوس إلى ألمانيا، لكن حتى لو لم يغادر الإسكندرية، فلن يكون أفضل مما أصبح عليه الآن، فقد كان الجميع سيعتبرونه ولدًا شقيًا لا أكثر من ذلك.

توقفت ذافنى، منذ ذلك الحين، عن إعطاء أهمية لأية اتهامات توجه إليها أو لأسرتها. وقررت أن تتبع سياسة خاصة بها، مشاركة منها فى فساد دوائر علية القوم،

فتعلمت أن تسكت أفواه الفضوليين عن طريق الحفلات والأطعمة الفاخرة التى كانت تقيمها فى منزلها، والتى ترددت أصداؤها فى كل أرجاء الإسكندرية فى فترة ما بين الحربين الأولى والثانية. ربما يكون ذلك قد كلفها الكثير، لكنها كانت على دراية كافية بأن "أفراد الطبقة الراقية" (ذكرها بالفرنسية) يقدرون دائمًا أرباب الأسر الأسخياء. ولم يكن هناك أدنى صعوبة فى أن يترجم ضيوفها المتخمون بضيافتها إعجابهم بها وبأسرتها بطريقة حازت رضاها. وهكذا فقد بدأ التعامل مع مرضها بداء السرقة على أنه خاصية تتمتع بها مدام خاراميس، التى استطاعت من خلال عشقها للآثار أن تجمع بين المتعة والتربح المادى، مما أدى إلى استقلالها ماديًا عن زوجها. حتى بعد أن بدأ زوجها القعيد يلين تحت وطأة تلك الفضيحة التى جاءت من ماضيه السيئ، استمرت ذافنى بمنأى عن أى خطر، مستمتعة بحماية أعضاء الدوائر الاجتماعية الراقية. اللعنة عليهم جميعًا، فطوال تلك السنوات كانت تقيم الولائم الفاخرة لهؤلاء المبتزين.

وبمجرد أن تمكنت من التغلب على كل العقبات الشخصية والعائلية التى واجهتها، لم تقف ذافنى عاجزة أمام زوجة ابنها الهولندية ـ اليهودية التى شوهت سمعة المجتمع الأرستقراطى بالإسكندرية بسبب زياراتها المتكررة للمعبد اليهودى، وأيضًا لأنها كانت تفوق زوجها فى الطول ببوصة أو اثنتين. حتى أولئك الذين كانوا يدعمونها، حتى ذلك الحين، قاموا بتبنى هذين البيتين الرقيقين من الشعر:

فى بيت آل خاراميس لديهم كل يوم عيد

يوم يحتفل فيه اليهود وآخر للمسيحيين.

أما بالنسبة لماخوس، فلم تكن فى حاجة لمساعدة من أحد، حيث كانت تستطيع التعامل معه بمفردها، على الأقل من أجل عيون الناس. لكنهم كانوا يسمعون صوتها فى كثير من الأحيان وهى نائمة تقول:

«مس جابى، دثرى ماخوس، وإلا سيبرد».

كانت سلواها الوحيدة فى تلك السنوات الصعبة هى مجموعتها الأثرية التى قامت بنقلها الآن من القبو خوفًا من قصف الطائرات الإيطالية. وقد دفعها حماسها تجاه انتصارات الجيش اليونانى فى ألبانيا لأن تطلق على كل قطعة من قطعها الأثرية اسمًا من أسماء المواقع الحربية التى تم الانتصار فيها: فقد أطلقت على العقد الذهبى المطعم بالأحجار الكريمة اسم "كالباكى" والأوعية المزخرفة أخذت أسماء "بريميتى" و"كليسورا"، أما الصحن المصنوع من القرميد الأسود والمرسوم عليه صور للحيوانات، فقد حمل اسم "تيبيلينى"، وأعطت للتمثال الفرعونى اسم "أرغيروكاسترو"، أما صندوق حفظ المجوهرات الخشبى المطعم بالذهب، فقد أخذ اسم "كوريتسا"، فى حين حمل التابوت الذهبى الذى يحتوى على أوعية صغيرة اسم "آغيى ساراندا".

لم تفقد السيدة خاراميس روح المداعبة التى تتحلى بها دائمًا، وبخاصة بعد أن جاءت حفيدتها الصغيرة ذافنى إلى الحياة. كانت تضحك من قلبها عندما يحاول المقربون منها إقناعها بأن ذافنى الصغيرة هى صورة طبق الأصل من جدتها. ولحسن الحظ فلم يعمها غرورها حتى الآن عن إدراك الحقيقة، وعندما كانت تنظر لنفسها فى المرآة كانت تقول: «يقولون إن حفيدتى تشبهنى، هذا ما كان ينقصنا!».

كان شقيقها لوكاس يسمعها باندهاش وهى تخبره فى التليفون بأن: «ذافنولا (أى ذافنى الصغيرة) تشبه أمها». كانت الجدة والحفيدة تقضيان معًا معظم أوقات النهار، وعندما بلغت سن دخول المدرسة، لم تكن ذافنى تتخيل كيف ستمضى وقتها بدون أن تعتنى بخصلات شعرها الذهبية وفساتينها الزاهية. ولهذا فكرت فى أن تحصل الطفلة الصغيرة على تعليمها فى المنزل، لكن كوستيس ضرب بفكرتها عرض الحائط، وأصبحت الصغيرة بين يوم وآخر تلميذة فى القسم الداخلى لمدرسة أفيروف للفتيات بالإسكندرية التى كانت تقع على ناصية شارعى سيزوستريس والمتولى. وأصبح الشىء الوحيد المتبقى للجدة الحزينة هو؛ أن تنتظرها عودتها إلى المنزل فى إجازة نهاية الأسبوع، وكانت تبحث فى الحديقة وفى الغرف وعلى درجات السلم عن صدى صوت أقدامها وهى تجرى نحوها، وعن رنات ضحكاتها البريئة. وفى شتاء عام ١٩٤٠، بلغت

ذافنى الصف الثانى الابتدائى، وقد تمنت جدتها أن تتعطل الدراسة بسبب الحرب، لكن لسوء حظها لم يحدث شىء من هذا القبيل. تضاعفت ساعات انتظار السيدة خاراميس بطريقة لا تطاق، وانتابها الخوف - دون أى شىء - من أن تسقط إحدى قنابل العدو فوق مدرسة حفيدتها الغالية دونًا عن الإسكندرية كلها.

* * * * *

فى البداية لم تكن الحياة فى اليونان بالنسبة للدكتور ماخوس سهلة، لكنه عانى بشدة عندما أصبحت الحرب العالمية الثانية قاب قوسين أو أدنى. ومع عودته إلى القاهرة فى بدايات عام ١٩٣٩، تم تكليفه بتولى منصب سكرتير ثالث. وقد استدعاه أليكوس كانيلوبولوس بنفسه، وهو العضو البارز بالحزب الحاكم، وقال له: «دكتور ماخوس، لقد خدمتم تحت إمرة جاييلز العبقرى، ولذلك فأنتم الأصلح لهذا المنصب.انتبهوا الآن، فمنصب سكرتير ثالث ليس منصبًا عاديًا لنقل المعلومات، ولكن لخلق الضمائر». أصاب التعب ماخوس من كثرة تغيير منصبه أكثر من مرة وفى أكثر من مكان، ولهذا السبب فقد رفض العرض بأسلوب مهذب وقرر العودة إلى عمله السابق، إلا أنه أدرك أن الجو العدائى الذى خلقه زملاؤه معه فى وزارة الإعلام والسياحة قد بلغ منتهاه. فالكثيرون ممن يلتقونه فى الطرقات كانوا يديرون وجوههم للناحية الأخرى أو يهمسون فيما بينهم بانتقادات لاذعة موجهة ضده. كان يعثر فى مكتبه على أوراق مكتوب عليها تهديدات مختلفة. وفى واحدة من هذه التهديدات كانت السخرية لاذعة من عنوان رسالة الدكتوراه التى حصل عليها. فتحول عنوان الرسالة من: " نيتشه والمصادفة السعيدة لجنون العظمة " إلى " دكتور خاراميس والمصادفة التعيسة لجنون العظمة ". وعندما حاول أن يعرض الأمر على نيكولوذيس نهره وكيل الوزارة بلهجة صارمة بقوله: «ماذا تقول، يا دكتور، إن هذا من وحى خيالكم. ولابد أن تركزوا على مصالح الوطن فقط». كان صدى تلك الجملة الأخيرة يتردد بداخله بطريقة جعلت ماخوس يتأكد من أنها صدى للشكوك المثارة حوله عن تعاونه مع النازيين.

حتى جريدة الحزب الشيوعى غير المعترف بها "ريزوسباتيس" (أى الثورى)، أشارت إحدى مقالاتها إليه بالاسم حيث قالت:

«قامت الفاشية الحاكمة ببيع وطننا إلى ألمانيا الهتلرية وحولتها إلى معسكر كبير لتجميع الجنود. والنموذج الواضح للعلاقة الودية تجاه ألمانيا هو ذلك اليونانى - المصرى الدكتور كاليماخوس خاراميس، المعروف بماضيه النازى».

لم يكن ماخوس نفسه يخفى مشاعره الودية تجاه ألمانيا، ولم يكن لديه أى سبب ليخفيها، فقد كان يؤمن بشدة أن هتلر لن ينقلب مطلقًا ضد اليونان، مهد الحضارة الأوربية، لهذا لم يكن يعتبر نفسه بأية حال من الأحوال خائنًا لليونان واليونانيين، مضيفًا إلى أصدقائه من النازيين صفات كان حلفاء الإنجليز والفرنسيين يعتبرونها صفات مرفوضة تمامًا، متمنين بهذه الطريقة أن يكشفوا تلك الكارثة حتى يدعموا بها موقفهم الوطنى. وفى مذكراته التى كان يكتبها بانتظام فى ذلك الوقت، أخذ ماخوس يشرح أسباب بقائه طوال هذه الفترة فى وطنه، على النحو التالى: «الفلاحون الفقراء هم فقط من يستطيعون العيش فى اليونان. وإذا ما بقيت أنا أيضًا فذلك لأن القادة المعتدلين لهذا البلد بمثابة المناخ الصحى الملائم للتعاون والتفاعل المستمرين مع قوات "المحور" العظيمة».

وطبقًا لمتطلبات هذا المناخ أو تلك الروح، فقد كان ماخوس يعمل على نقل معلوماته للمخابرات الألمانية، وكان يشعر بالسعادة عندما يتبين لهم صدق هذه المعلومات لاحقًا. وباشتعال الحرب كان قد أرسل تحذيرًا عن طريق السفارة الألمانية مشيرًا إلى مدى أهمية المحادثات التى تدور بين ميتاكساس والقائد الفرنسى فيئيجان. حضر قائد القوات الفرنسية فى الشرق الأوسط مرتين إلى أثينا لأهداف سياسية، من أجل مناقشة احتمال تأسيس جبهة البلقان، مثلما حدث أثناء الحرب العالمية الأولى، وعندما سقطت ملفات وزارة الخارجية الفرنسية فى أيدى الألمان، وتأكدوا من صحة ما كان ماخوس يرسله لهم، كان خطاب الشكر الذى أرسله له هتلر بمثابة أعظم تقدير يمكن أن يتخيله. وبالنسبة لماخوس فقد ثبت توقعه بعدم رغبة الألمان فى استكمال هذا الموضوع، مما يدل على مدى عظمة هتلر ورغبته فى أن يترك البلقان وأهلها لحالهم.

لكن لم يكن ماخوس يلقى الهجوم فقط من الناس. فعندما يستيقظ من نومه كل صباح فى شقته التى تقع فى شارع سكوفا، كان يرى فى وجهه ملامح الخيانة والاندفاع. ففى السنوات الثلاث الأخيرة بدأ يكتشف بعض الندبات فوق جبهته وكانت تزيد باستمرار، تلك الندبات التى تمثل له تذكاراً من مشاجراته مع أخيه وهما صغيران. ومنذ اللحظة التى اكتشف فيها بداية أصابته بالصلع، أصيب بهلع لم يشعر به من قبل، ولم تفلح معه جميع الوصفات الشعبية لعلاجه، وعندئذ حاول أن يحافظ على ماء وجهه باتباع عادات جديدة بالنسبة له، فقرر أن يمنح نفسه فرصة لتلبية الدعوات لحضور الأمسيات الساهرة وحفلات الكوكتيل. وبدلاً من أن يجلس فى تلك الحفلات ليتناقش بخصوص الحالة العالمية مع "هؤلاء المتأنقين أصحاب الكروش " – كما اعتاد أن يطلق على هذه الفئة من ضباط الجيش – كان يفضل أن يشرع فى مغازلة زوجاتهم الجميلات بشكل مشين، وقد ذاقت الكثيرات منهن " طعم الحياة الجميلة فى شقته بشارع سكوفا ". إلا أن تردده على هذه الحفلات بإستمرار كانت له نتائجه السيئة، حيث قامت إحدى عشيقاته، وقد نظرت إليه وهو يدخن سيجارته ويجلس القرفصاء عارياً فى الفراش، بالتلفظ بتعبير مرفوض، مزدرية من جماله الذى يشبه جمال آلهة اليونان القدامى، حيث قالت: «با.. با.. با.. ما هذا الذى أراه، هل أصاب الترهل جسدك؟». وكان هذا آخر ما قالته! وقبل أن تعى ما يحدث، وجدت السيدة نفسها شبه عارية فى الطرقة خارج الشقة، وتمكنت بعد توسل من الحصول على باقى ملابسها قبل أن تخرج إلى الشارع. منذ ذلك الحين قرر الدكتور ماخوس أن لا يقيم أية علاقة مع الجنس الناعم. وكثيراً ما كان يبحث فى نظرات الآخرين القاسية عن تأكيد بأن رأسه الذى يعانى من الصلع وجسده المترهل لا يمنعانه من أن يظل مخلوقاً جميلاً، وفى ذلك كان يقول: «لا تستطيع النساء أن تمنحنى شيئاً لا أملكه». هكذا كتب مدوناً فى مذكراته ثم انغلق على نفسه.

كان لزاماً على ماخوس أن يحارب بشجاعة شبح الوحدة الذى خيم على حياته. وقد دفعته شكوكه فى أن خطاباته إلى أمه وإلى خاله لوكاس تتم مراقبتها من قبل

المخابرات البريطانية إلى قطع اتصالاته بهما، الأمر الذى جعله يشعر بالانفصال حتى عن عائلته. وبسبب وجود أمور عديدة تضايقة، فقد بدأ فى كتابة خطابات كثيرة دون أن يرسلها، وكان يحتفظ بها فى حقيبة تحت فراشه. فى البداية كان يوجه تلك الخطابات إلى أمه وإلى خاله، ثم جنح به خياله إلى توجيه الخطابات حتى إلى الموتى: مثل إيريك شولتسير وإلى أبيه وإلى نيتشه. وكان يكتب إلى رودولف إس معبراً عن غضبه، ويبعث بتهنئته إلى مارتين هايديجير لدعمه العلمى للرايخ الثالث، كما عرض وجهات نظره على الأستاذ هاوسهوفير بخصوص الخريطة السياسية الجديدة لأوربا، وكتب لنيتشه محدثًا إياه عما آلت إليه حال أحفاد الإغريق، حتى إنه كتب لأدولف هتلر ناصحًا إياه بأن لا ينجرف خلف الدعاية البريطانية وينقل الحرب إلى البلقان. وفى بعض الأحيان كان يدخل فى حوارات مع كل هؤلاء، وكان يضبط نفسه متلبسًا بالدخول فى حوارات مع جدران المنزل حول العلاقة بين أفكار نيتشه والأفكار النازية العظيمة، وعندها كان يفزع من فكرة أنه قد يجنح إلى الجنون وعندئذ يغلق الباب مؤقتًا على عالمه الخيالى.

بدون تلك المساحات الشاسعة من الخيال كان على ماخوس أن يكتفى بواقع الحياة البائس فى أثينا عام ١٩٤٠، متبعًا منهجًا تقشفيًا، متجاهلاً أهمية ما يدور فى العالم من أحداث فى واقع الحياة. ولكنه فى حقيقة الأمر استمر فى الحياة مع ما يجول بخاطره من أشباح، ومع إحساسه بتأنيب الضمير تجاه صديقه الراحل إيريك، ومع حنينه للإسكندرية ولذكريات الطفولة المشينة فيها. كانت روحه المريضة تبحث عن شىء ذى قيمه للتشبث به، شىء إنسانى، ولم يجد أمامه سوى الحرب التى انفجرت فى جميع أرجاء القارة العجوز.

وفى الحقيقة، فقد بدأ ماخوس يتعايش مع الواقع بعد انفجار الحرب مساء يوم الأحد السابع والعشرين من شهر أكتوبر، وبعد عودته من إحدى الحفلات بالسفارة الإيطالية، كتب فى مذكراته: «أخيراً نشبت الحرب، إذا ما كنت قد فهمت بشكل صحيح ما قاله جراتسى». وكان السفير الإيطالى قد اقترب منه أثناء تلك الحفلة وقال له بثقة: «السفينة تغرق (قال ذلك بالإيطالية وكررها باليونانية) يا دكتور خاراميس».

كان ماخوس يتخيل الحرب بصورة مختلفة. كأن تكون نوعًا من العروض العسكرية للقوات الإيطالية فى الأرض اليونانية بمباركة من رئيس الوزراء ميتاكساس؛ وكانت تلك الملحمة الكوميدية قد بدأت بألبانيا. وكان ماخوس قد تنبأ بأن حماسة البعض سوف تتسبب إن آجلاً أو عاجلاً فى غضب هتلر، وعن كتب ذلك يقول: «ويمكنك أن ترى أن الشعارات المضحكة مثل: "فانلة "(ذكرهما باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) الجندى، أو "حزب الجوارب"، أو تلك الشعارات الجوفاء من نوعية: (موسولينى المغفل)، جميعها لن تجدى شيئًا. تعتيم تحت رحمة الطيران الإيطالى. يرعبنى صوت القنابل، يا أمى»، هكذا كتب فى خطاب لم تستلمه أمه أبدًا. كما كانت العروض الجوية تخيفة، وعندما تطلع فى شهر إبريل من عام ١٩٤١، إلى ميناء بيريه بعد أن تم تدميره انخرط فى البكاء مثل طفل صغير من شدة الخوف، وليس من الألم على حال وطنه كما كان البعض يظن. وبعد ذلك بعدة أيام، قام هو ومن يشبهونه بالتهديد بتقديم استقالة جماعية حال قيام حكومة تسوذيروس بمحاولة إجبار السفير الألمانى فون إيرباخ على الرحيل إلى كريت باعتباره أسيرًا، وقد كتب فى مذكراته: «إنه عمل يخالف القانون الدولى»، متجاهلاً بذلك أن الألمان أنفسهم قد انتهكوا ذلك القانون عندما قاموا بأسر دبلوماسيين إنجليز ويونانيين. ظل ماخوس فى أثينا يبحث لنفسه عن دور أكبر فى هذا الموقف الجديد. لكن حتى الآن لم يكن أسوأ الأمور قد وقع له بعد.

* * * * *

«أتمنى أن يكون عام ١٩٤١ عامًا سعيدًا عليكِ،"يا عزيزى"(قالتها بالفرنسية)» قالت ذلك إيفيت لهايكى وقبَّلتها من شفتيها.

فوجئت هايكى بهذا التصرف واصطبغ وجهها بحمرة الخجل ووضعت ظهر يدها على فمها، وكأنها تمسح القبلة وقالت:

«ألا تظنين أنك تتعجلين الأمور قليلاً؟» هكذا قالت هايكى بشكل صارم، ولكن بطريقة تخفى وراءها دلائل كثيرة.

إيفيت: «ماذا؟ هل سنجعل من ذلك موضوعاً؟ هل هذا معقول!» قالت ذلك وهى تداعب الخصلة المتدلية من شعر صديقتها.

هايكى: «فى أوقات الحروب لا تعرفين ما الذى يمكن أن يحدث من لحظة لأخرى» قالت ذلك هايكى وقد أعادت بيدها خصلة شعرها إلى مكانها.

- «لهذا، إذاً، لابد فى مثل هذه الحالات الطارئة أن تتركى لنفسك العنان» قالت إيفيت ذلك بطريقة ذات مغزى.

- «نعم، يكفى أن لا تندمى بعد ذلك» هكذا أجابتها هايكى وهى تفكر واستعدت لكى تبدأ فى تقديم المشروبات للجنود.

- «أين ستتناولين عشاء رأس السنة الليلة؟».

- «فى المنزل (قالتها بالفرنسية). سنكون كلنا فى المنزل مجتمعين، ولكى أكون صادقة فلست متحمسة لهذه الفكرة، ولكن أياً كان ما تفعلينه، فرأس السنة إحتفال مهم بالنسبة للمسيحيين».

- «أتصور أنكم ستحطمون العديد من الأطباق الزجاجية».

- «ها ها، بالطبع ستقوم حماتى بتحطيم أعداد كبيرة من أطباقها القديمة. ولكنى أتساءل: أين تجد كل هذا الكم من الأطباق الزجاجية كل عام. لابد أنها تقوم بشرائهما من بائع "الروبابكيا"(ذكرتها باللغة العربية ودوّنتها بحروف يونانية)».

- «العادة تحكم!».

- «نعم، ولو أنى اقتربت من إكمال عامى الأول فى هذه المدينة، لكننى لم أفهم بعد أهمية هذه العادة. ولكن كل ما أخشاه أنه ربما بسبب كل هذا التكسير فلن يحتاج العدو لإشعال الأضواء ليعثر علينا. أتخيل كيف أن صوت الزجاج المحطم سيصل بالتأكيد إلى آذان الطيارين الإيطاليين».

- «لكن، حتى فى الساعة التى يتغير فيها العام، هل سيكون لديهم الوقت ليضربوننا بالقنابل؟».

- «ولم لا؟ هل تعرف الحرب شيئًا عن رأس السنة؟».

- «أخبرينى حقًا، أنتم اليهود ماذا تفعلون فى رأس السنة الخاصه بكم؟».

- «أى شىء، عدا تكسير الزجاج».

- «ذكرينى متى تحتفلون».

- «إنه احتفال متغير(قالتها بالفرنسية) يقع فى الفترة بين الخامس عشر من شهر سبتمبر وبداية شهر أكتوبر، طبقًا للتقويم القمرى».

- «معك حق (قالتها بالفرنسية). هل ذكرت لك أننى أريدك أن تأتى يومًا إلى منزلى فى لوران؟».

- «نعم، سآتِ يومًا ما، لكن ليس اليوم. حقيقة ماذا ستفعلين؟ لا تقولى إنكِ ستبقين وحدك».

- «آه، يا صغيرتى، الجدة إيفيت طوال تلك السنوات فى الإسكندرية اكتسبت أصدقاء كثيرين، ولذلك فلن يتركوها وحيدة فى يوم رأس السنة».

- «توقفى (قالتها بالفرنسية) أرجوكِ عن وصف نفسك بأنك جدة. لا تكونى مثل حماتى. أم تريدين أن أذكرك دائمًا بأنك مازلتِ جميلة وشابة؟».

- «وما أدراكِ، فربما أكون بالفعل فى حاجة لكى أسمع منكِ هذا الكلام».

لم تجبها هايكى لكنها هزت رأسها موافقة وعادت إلى عملها، وهى تمسك بالصينية بسعادة.

بعد ذلك بعدة أيام، عندما فتحت المدارس من جديد، قررت هايكى فى صباح أحد الأيام أن تستقل "الترام" لزيارة إيفيت فى منزلها بلوران، متجاهلة همهمة حماتها التى كانت تقول: «"القطار"(فلا أحد يطلق عليه " ترام " فى الإسكندرية) لا يليق بامرأة فى مكانتك!».

صعدت هايكى الخط رقم (٥) بعد أن قامت بشراء بعض الشيكولاته من "إيفيت". ثم هبطت فى المحطة التى تلى سان ستيفانو، وهى تشعر ببعض الدوار بسبب اهتزازات القطار طوال الطريق.

كان منزل إيفيت عبارة عن " منزل صغير يشبه الأساطير!" (ذكرها بالفرنسية) كما وصفته هى نفسها، وكان يبعد نحو مائتى متر عن محطة "الترام"، خلف بلاج لوران، وكان يمكنها أن ترى من الشرفة مجموعة من الجنود من نيوزيلاندا وهم يسبحون فى مياه البحر الهادئة. كانت أجساد الجنود قوية البنيان تبدو وكأنها أجساد رخامية تحت شمس شهر يناير، ولم تكن أية امرأة لتشبع من النظر إليهم. كانت إيفيت قد أعطت إجازة للعاملين بالمنزل، ودعت هايكى لتناول عصير الليمون والحلوى معًا. تذوقت إيفيت إحدى قطع " الجاتوه بالشيكولاته"(ذكرها بالفرنسية) التى يصنعها محل "إيفيت" للحلوى وعندئذ تذكرت روكسانى قائلة:

«كانت بمقدور روكسانى أن تأكل كل هذه الكمية التى أمامك!».

– «ماذا كانت تمثل لك روكسانى التى تذكرينها بهذا الشكل دائمًا؟» تساءلت هايكى بعد أن سئمت من سماعها تتحدث عنها بشكل دائمًا.

– «آه، بعض القصص لا ينبغى أن تروى للفتيات المهذبات مثلك» هكذا أجابتها إيفيت ولمست أنفها الصغير بسبابة يدها اليمين.

– «الآن على ذكر ذلك، على أية حال، هناك أشياء أخرى لم تخبرينى بها. فعلى سبيل المثال، ما علاقتك بصديق الأسرة اللبنانى. إنك لم تتحدث عنه على الإطلاق، ومن جهة أخرى، فإنك تسألينى العديد من الأسئلة عن حياتى وعن – ماذا نأكل، كيف نعيش، كيف نقضى أوقات تسليتنا. لو أنك فى مكانى، ألم يكن ذلك يبدو لك أمرًا غريبًا؟».

– «هل تريدين أن أعد لك الشاى الآن؟ أم تريدين بعض الشراب؟».

- «شاى بالليمون؟ كونياك فى الصباح الباكر؟ ألم ترغبى فى أن أترك الشراب؟ حقًا، أنت غريبة بعض الشىء اليوم، يا إيفيت».

- «نعم، اليوم يمكن أن نقوم " باستثناء صغير"(قالتها بالفرنسية)».

- «لماذا، ماذا هنالك اليوم؟».

-: «لا شىء بالتحديد، ولكنه يوم جميل من أيام شهر يناير، الجنود يستحمون فى البحر ونحن نستمتع بالشمس. لقد عشت يومًا مشابهًا فى ميناء خانيا باليونان عام ١٩١٤، لكن كنا وقتها فى فصل الصيف وحينئذ بدأت حرب أخرى».

فضلت هايكى أن تستلقى على الأرجوحة حتى لا تسمح لإيفيت بالجلوس بجانبها. فلم تكن تروق لها فكرة وجودها وحدها فى المنزل مع إيفيت، وحتى هذه اللحظة كانت مجموعة الجنود لا تزال تجلس على الشاطئ، وعلى الرغم مما يسببونه من ضوضاء شديدة، فإن وجودهم كان يشعرها بشىء من الأمان. كانت ملابسهم تبدو وكأنها تلال بنية اللون متناثرة فوق الرمال. قام أحد الجنود بتعليق ردائه فوق الصارى الذى تعلق عليه الراية السوداء أو الحمراء فى الصيف، والتى كانت تشير إلى أن السباحة ممنوعة أو مسموح بها. كان الجنود الشبان يسبحون بقوة فى المياه الباردة ويتبادلون الألفاظ البذيئة فيما بينهم. أما إيفيت التى وجدت هايكى تتطلع إليهم طوال الوقت، فلم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقول لها:

«كيف يبدو لك الأمر لو أنك حصلت على واحد منهم فى كل ليلة؟ بأجسادهم القوية، الصلبة. حقًا إن الأمر يسير كما لو أنك تلتهمين حبة مانجو. يا لهم من مساكين! يصيبنى الجنون عندما يجول بخاطرى أن أغلبهم سيواريه الثرى قريبًا (فى الحرب). أليست تلك خسارة كبيرة، فما زالوا شبابًا! هذا ما أفكر فيه كل مساء فى النادى وأقول لنفسى: كم هن رقيقات هؤلاء النساء اللاتى يقمن بخدمتهم. فهم يستحقون أكثر من هذا. ثم هل توجد تضحية أجمل من أن تكونى فى أحضان رجل مختلف كل ليلة؟».

– «هذا يتوقف، أنا شخصياً لا أتأثر بهذا النوع من الجنود الشرسين».

– «نعم، ولكنك تتطلعين بلهفة إليهم منذ وقت طويل».

– «هذا لا يعنى أننى أرغب فى أى منهم. "بالإضافة "(قالتها بالفرنسية) إلى أن هناك العديد من الفتيات غير المتزوجات فى الإسكندرية قد يقبلن ذلك الأمر المحرم علينا نحن المتزوجات».

– «ربما يكون لديك حق، فقد استفحل الأمر، أمس الأول أمسكوا بواحدة من النساء اللاتى يخدمن فى النادى الخاص بنا، وهى تمارس الجنس مع أحد الجنود بالحديقة. و............ (*) تفهمين ما أعنيه، فقد أصبحنا نشبه كلاب الشوارع، وهذا لايعجبنى على الإطلاق، بالطبع قد تم تكتم الأمر».

– «بالطبع. ولكن أترين؟ هذا تصديق على ما أقوله لك. إذا ما بدأنا الآن بحكايات "قبلنى، يا مقبلنى" (قالت ذلك بالفرنسية)، إذا ما أصبحت هذه حالنا، فماذا ستفعل الفتيات فى بيوت البغاء؟».

"تُرى، هل تشك فى شىء؟" تساءلت إيفيت فى نفسها، ولكن لأن الأمر بدا لها مستحيلاً فقد انخرطت فى الضحك، بينما كانت هايكى قد رفعت فستانها بطريقة غير معتادة من أجل أن تداعب أشعة الشمس الساخنة قدميها، فاستثار ذلك إيفيت وقالت:

«خبئى قدميك» هكذا صاحت إيفيت بصوت قوى حتى إنها هى نفسها فوجئت بحدة صوتها، ولذلك فقد أسرعت بالاعتذار، وحاولت أن تشرح لها سبب حدتها فقالت: «بسبب النهم العاطفى الذى يتملك هؤلاء الجنود، فإنهم قادرون على قضاء اليوم بطوله فى البحر من أجل اختلاس النظر للنساء قليلاً».

لم تستجب هايكى لكلام إيفيت ربما لأنها تعتقد أن وجود الجنود يمنع إيفيت من الإقدام على أية فعل جرئ، لكنها كانت مخطئة، ففى تلك اللحظة، نهضت إيفيت وجذبت فستان هايكى لأسفل، قائلة:

«هكذا أفضل بكثيراً» (قالت ذلك بالفرنسية)

تردد صوت إيفيت بشكل حاد مثل نصل السيف، ولكن مدام خاراميس الشابة قامت وهى غاضبة برفع فستانها مرة أخرى بشكل أكثر من ذى قبل. عندئذ اقتربت منها إيفيت، لكنها كانت لديها نيَّات مختلفة فى هذه المرة. فمسحت بكفها الداكن الجاف المرتعش على الشعر الأشقر فى قدمى المرأة الهولندية، اليهودية الجميلة، ثم قالت إيفيت بلهفة:

«إن الشعر بأرجلك فى منتهى النعومة والاصفرار كما لو كنتِ فتاة صغيرة، يا لك من محظوظة، لأننى أحتاج كل حين لأن أقوم بإزالة شعر قدمى».

تسببت طريقة إيفيت المليئة باللهفة بشكل واضح فى استثارة هايكى. فى تلك اللحظة أرادت أن توقفها لكن شيئًا ما منعها. وربما تحت وطأة اللامبالاة الملحوظة أخذت هايكى تتطلع تارة إلى نفسها وتارة أخرى إلى إيفيت. وفجأة، تبادر إلى ذهنها تفسير منطقى لكل شىء: مثل عرض إيفيت أن تعيدها إلى منزلها كل مساء، الجولات الطويلة فى الشوارع المظلمة حول منطقة الحى اليونانى، لمستها اللاشعورية، أحضانها التى لا تنقطع، إيحاءاتها. يبدو أن كل ذلك كان جزءًا من الخطة من خلال ذلك الحصار المنظم الذى لا نهاية له.

لم تشأ هايكى أن تفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو لم ينتبه أحد الجنود إلى تلك المداعبات فى شرفة الفيلا، أو تفاجأت بدوى صفارات الإنذار قادمة مباشرة من جهة البلاچ تقريبا، محذرة بوجود غارات جوية، ثم أتبع ذلك قصف الطائرات من الجهة الغربية، ذلك القصف الذى كان يشبه دوى الرعد القوى.

عندئذ أدركت هايكى أن مدام إيفيت قد بدأت تضمها برقة إلى صدرها، فانتفضت هايكى مذعورة.

إيفيت: «اللعنة (قالتها بالفرنسية)، ألن تدعنا هذه الحرب نعيش فى هدوء؟» هكذا صاحت إيفيت وهى فى شدة الضيق، فقد أحست بأن صيدها الثمين سيفلت من يدها، ثم أضافت قائلة: «هؤلاء الحمقى ما الذى يظنون أنفسهم فاعلين بدوى صفارات الإنذار بشكل مستمر».

هايكى: «كنت أعتقد أنهم أولئك الجنود الشبان الذين ندين لهم بالكثير».

- «هم كذلك بالفعل، ولكن يكفى أن يكونوا فى المكان المناسب حتى يصبحوا ذا فائدة».

- «هكذا إذن! (قالتها بالفرنسية)، من الأفضل أن أرحل الآن، ألا تظنين ذلك؟».

- «لا.. لا، لا ترحلى، فقد أعددت نفسى لتناول الطعام معك».

- «لابد أنك تمزحين، تعلمين أنهم بانتظارى فى المنزل. لا أستطيع أن أتأخر كثيرًا». كانت هايكى تكذب فى ذلك، حيث كانت ابنتها ستعود متأخرة من المدرسة، ولم تكن على يقين من أن كوستيس سيأتى لتناول الطعام معهم.

- «ربما فى يوم آخر إذن، ستأتين مرة أخرى لنستكمل ما بدأناه، "أليس كذلك؟"(قالتها بالفرنسية)».

- «بلا شك» أجابتها هايكى (بالفرنسية) وهى ترغب فى مغادرة المكان بأسرع وقت ممكن.

- «وإذا ما دوت صفارات الإنذار، أو بدأوا يقصفون المدينة؟» قالت ذلك إيفيت فى محاولة منها لإقناعها بعدم الرحيل.

- «لا تشغلى بالك. فهناك الكثيرون ممن يأتون ويذهبون "بالترامواى "(قالتها بالإنجليزية). سأراك إذن مساء اليوم فى النادى».

قالت هايكى ذلك ثم خرجت مسرعة إلى الشارع. فى تلك اللحظة كان الجنود النيوزيلانديون قد خرجوا إلى الشاطئ وبدأوا يرتدون ملابسهم وهم يرتجفون من الهواء البارد الذى يهب عليهم من البحر.

* * * * *

كانت خاريتومينى هى الوجه الجديد فى منزل آل خاراميس، تلك المرأة التى تنحدر من جزيرة سيمى باليونان والتى كانت تعيش مع ابنها الوحيد أمام "باب ستة"(ذكر ذلك باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) بالميناء القديم، لكنها اضطرت بعد سنوات طويلة إلى مغادرة المنطقة التى تعيش فيها لأماكن أكثر أمنًا، من أجل أن تنجو بنفسها وبأسرتها من ذلك القصف المستمر الذى كان يطاردها حتى فى نومها المضطرب. كان زوجها المتوفى غواصًا ماهرًا يدعى بانديليس، إلا أنه لفظ أنفاسه الأخيرة فى قاع البحر بالقرب من بنغازى. ومنذ اللحظة التى كان ابنها المدلل يؤدى واجبه الوطنى باعتباره ابنًا حقيقيًا للجزر الاثنتى عشرة ثم تطوع بعدها فى الجيش اليونانى لمحاربة الإيطاليين المستعمرين، اعتبرت خاريتومينى أن الحرب قضيتها الشخصية، ولم يكن تغمض لها عين فى طوال ساعات الليل، ليس فقط بسبب القنابل التى كانت تسقط فوق رأسها، ولكن أيضًا، وبشكل أساسى، بسبب قلقها على مصير ابنها فوتيس.

لقد حولت خاريتومينى قلقها إلى العمل كطاهية فى منزل آل خاراميس. وكان كوستيس، الذى لم يبد موافقته على عملها فى المنزل، يحاول إقناع والدته بطردها من المنزل. لكن السيدة ذافنى كانت قد اتخذت قرارها بالفعل، ولأنها كانت تعتبر أنها قدمت تنازلاً كبيرًا عندما تخلت عن الآنسة جابى وأخيها، فقد طلبت منه عدم التدخل فيما يخص الخدم بالمنزل.

لم يكن كوستيس يرغب بالفعل فى طرد خاريتومينى، لكن ماذا يفعل معها وقد أصبحت دائمة الإزعاج، فأثناء سماعه إذاعة ال بى بى سى فى الراديو، محاولاً أن يتابع مايحدث فى الحرب، تسأله قائلة: «ماذا يقولون، يا سيد كوستيس، ماذا يقولون فى إذاعة ال بى بى سى؟ هل سيضع هتلر يده على اليونان؟ آه، يا صغيرى فوتيس». وكان التدخل الألمانى فى البلقان يبدو وكأنه لحن شاذ فى تلك المعزوفة التى تلعبها الانتصارات الحربية اليونانية على الإيطاليين. انهمرت دموع المرأة العجوز بشدة وحاول كوستيس تهدئتها على الرغم من شعوره بالاشمئزاز عندما يتخيل أن دموعها قد تنساب على الطعام الذى يتناولونه. أما بالنسبة للباقين فقد ذكر لهم منذ البداية أن هتلر لم يكن ليدع قوات الحلفاء بأية حال من الأحوال لتخدعه.

بدأ الغزو الألمانى لليونان فى السادس من أبريل. بعد ذلك بعشرين يومًا بث راديو أثينا الحر إذاعته للمرة الأخيرة، وفى ظهيرة اليوم التالى أعاد إذاعة برامجه ولكن بلغة مختلفة لم يكن كوستيس يعرفها تمامًا مثلما كان يعرف اليونانية: «Achtung Achtung.! (انتباه، انتباه.)». فى ذلك اليوم كادت السيدة خاريتومينى أن تفقد حياتها من هول الصدمة. فقد سقطت فوق أحد المقاعد الضخمة فى غرفة المعيشة، ممسكة بيدها أحد التماثيل المقلدة – لحسن حظها – وقد استمرت السيدة ذافنى والمربية ميس فين فى وضع الكمادات على رأسها لتهدئتها. وفى الأيام التالية عادت بعض الشيء إلى وعيها بعد إبلاغها بأن ابنها قد عاد سالمًا إلى جزيرة كريت، ولكن حتى تنتهى معركة كريت ويعود إلى الإسكندرية فى نهاية شهر مايو كان عليهم أن يعانوا ما عانوه.

لكنه لم يعد بمفرده.«لقد أحضر لنا فوتيس معه الملك وكل أعضاء الحكومة» هكذا كانت خاريتومينى تقول بلهجة مفعمة بالنصر، وعندئذ لم تتردد ذافنى فى أن تشدها من أذنها قائلة بلهجة حادة: «اسمعينى جيدًا، يا مدام خاريتومينى، نحن هنا جميعًا من مؤيدى فينيزيلوس،"مفهوم؟" (قالتها بالفرنسية) فلا حديث هنا عن الملوك وعن الحمقى!» ثم أرتها على الفور تلك الصورة التى التقطتها مع زعيم الأمة فينيزيلوس فى منزلها فى عام ١٩١٥ .

فلنتتبع الأمور منذ البداية كما وصفها كوستيس فى مذكراته:

«الخامس والعشرين من شهر مارس لعام ١٩٤١: عروض كبيرة فى احتفالات هذا العام. كلمات الثناء فى كنيسة إيفانجيليزموس، حفلة فى القنصلية ثم عرض عسكرى فى استاد الجالية يتبعه عشاء رسمى فى فندق " ويندسور". وسط تلك الاحتفالات يبدأ البعض فى الإشارة همسًا إلى غزو هتلر للبلقان. بدأت الحملة العسكرية لجيوش الحلفاء منذ أيام فى الرحيل بعد أن حددت وجودها على الحدود اليونانية البلغارية. تتردد تصريحات وخطب تشرشل بين الحين والآخر فى إذاعة الـ بى بى سى بشكل مستمر، حيث يظن البعض أنه يلقيها أمام مجلس الجاليات الأجنبية، لكنه فى حقيقة الأمر موجود فى كابينة إحدى الطائرات الحربية المتجهة إلى أفريقيا.

تشبه هذه الحرب لعبة الشطرنج بين تشيرشل وهتلر. فالتحركات غامضة والخصمان كلاهما قوى. فى تلك الأثناء، وردت أنباء طيبة إلى المنزل. فقد تمكنت والدة هايكى من العبور إلى إسبانيا فى نهاية شهر سبتمبر الماضى. ولأن البحر المتوسط مغلق، تأخذ الخطابات دورة كاملة حول أفريقيا حتى تصل إلى وجهتها بعد عدة شهور. لم تخبرنى هايكى بأكثر من ذلك ولم أسع لمعرفة المزيد. كل ما أتمناه الآن أن تقلل زوجتى الجميلة من إدمانها للشراب».

وبعد عدة أيام دون كوستيس ما يلى:

«أمسكت بهايكى وهى تشرب الخمر مرة أخرى. لقد توقفت منذ وقت طويل عن الذهاب للنادى. "لو أنكِ ستشربين الخمر، فمن الأفضل أن تقدميه للجنود " هكذا قلت لها. لكنها لم تجب. سألتها لماذا لم تعد تلتقى مارتا أدريانى. فلتلك السيدة تأثير إيجابى عليها. ولكنها لم تجب أيضاً. حقيقة لا أعرف ماذا أفعل.

لقد بذل فابيو كل ما فى وسعه، وستتم الموافقة على القرض بين يوم وآخر. هل سأحصل عليه بالفعل؟

فى تلك الأثناء، انتابت نزعة الشيوعية نيكيتاس مرة أخرى. لقد عانينا كثيراً لكى نخرجه من سجن كوم الدكة.

بات الاحتلال الألمانى لليونان أمراً متوقعًا بين يوم وآخر. ما زالت خاريتومينى بالمنزل لكى تصيبنى بالدوار مساء كل يوم، وعندما تسألنى: "هل سيلتهم هتلر اليونان فى نهاية الأمر؟" كنت أجيبها قائلاً: "ماذا تقولين، يا عزيزتى، وهل الوطن عبارة عن قطعة بسكويت؟" عندئذ يتملكها الضحك، يا لها من حمقاء! لكنها فى الطهو لا يضاهيها أحد. وبجهد قليل من الممكن أن تصبح السيدة خاريتومينى مثل الخالة ماريا. ما أروع الأرز بالخلطة الذى تصنعه! عندما يحل موسم البلح سوف تصنع منه الجيلى تماماً مثلما يصنعونه فى سيمى فى اليونان، فلنرى إذن.

السادس من أبريل، وقت الألمان، من ينقذ اليونان من همجية هذا الكافر؟ كانت خاريتومينى تقرأ الفنجان فى الصباح لوالدتى. وبالطبع بعد تناول الأرز بالخلطة،

الذى يعد من الأسباب المهمة التى تجعلها تحتفظ بعملها فى المنزل. لكن عندما علمت خاريتومينى بالأنباء، تبدلت الأدوار. أصبحت ذافنى هى التى تقوم بمواساتها طوال اليوم. بينما كنت أنتظر حلول موسم الأعياد لنتاول من يدها أنواع الحلوى والفطائر. لقد أيقنت الآن أننا سنقضى عيدًا حزينًا بسبب هذه المرأة البدينة التى أتت بها ذافنى إلى المنزل.

أمضيت بالأمس ليلة صاخبة فى ملهى كوباكير بصحبة نيكيتاس وميسا، حيث الشيشة والرقص البلدى وفتيات من كل الجنسيات. رقص ابن خالى طوال الليل، وهو يصيح: "آه يا إسكندرية، لن يأتى عليك الدهر أبدًا". تمنيت لو أن إيفيتس كان معنا. فلمن ضحى "هيمنجواى البلقان" بحياته؟».

وبعد عشرين يومًا تحققت التوقعات المشئومة: «أصبح الأمر حقيقى. لقد دخل الألمان أثينا. صحة وعافية على أبداننا! ولحسن الحظ تمكنت من الحصول على القرض. فى تلك الأثناء، كادت خاريتومينى أن تضيع منا، إضطررت لإستدعاء ستيفانوس باتيلوس، طبيب العائلة. لم أره منذ خمسة أعوام، وقد أرعبنى منظره. فقد أثر فيه الزمن بشكل واضح. قمت بمداعبته قائلاً: " أهذه هى ألمانيا التى حدثتنا عنها ونحن أطفال؟ ". عندئذ أخفض رأسه ولم يقل شيئًا. إنه إنسان محترم. أتخيل مدى حزنه. أعطى للطاهية حقنة مهدئة. وفى المساء تعافت خاريتومينى. وتوجهت نحوى فوجدتنى جالسًا فى الصالون ذى الطراز المصرى وألقت على قصيدة شعرية من تأليفها:

نأكل زيتونًا، نأكل زيتونًا

لكن البذرة لا نرميها

فمن أجل هتلر نحن نبقيها

عليه وعلى جنوده سوف نلقيها.

تُرى ما الذى أعطاه الطبيب للعجوز المسكينة! كانت أمها تطلق عليها لقب (أكلة الزيتون)».

تمر الأيام والمحنة تزداد:

«حتى الآن لم يملوا من قصفنا بالقنابل. أود أن أعرف ماذا سيفعلون لو كانوا فى مكاننا وأجبروا على سماع المصريين وهم يعلنون عن ضحايا القصف بشكل يومى. فى تلك الأثناء، كنا نشغل أنفسنا بجبهات القتال الأخرى ونسينا الحرب التى تطرق أبوابنا. فالألمان على الحدود، عند السلوم. إتصل بى صباح اليوم إلياس وقال وهو فى شدة الفزع: "إنهم يضغطون فى وزارة الحرب على تشرشل من أجل إخلاء مصر. ألا يوجد من يردع هذا الشيطان روميل؟ ماذا سنفعل؟". ماذا سنفعل؟ هذا هو السؤال. فاللبناني، فى كل الأحوال، قد وضع بيروت نصب عينه للسفر إليها، حيث قال: "ولكنهم مازالوا بعيدين، ولو استلزم الأمر، يكفى أن لا أقع فى أيديهم". يقول إنه قد سمعهم فى الراديو وهم يشيرون إليه بَالاسم. أعتقد أنه يبالغ قليلاً. لكن من يدرى؟ فالدعاية وأساليب نشر الخوف تتناقل كثيراً هذه الأيام. يبدو أن الحلفاء يخسرون حتى معركة كريت. وبعد كريت، على من سيحل الدور؟ فى كل الأحوال، على الرغم من خسائر البريطانيين المؤكدة فى البر والبحر والجو، أعتقد أنه من المبكر مناقشة فكرة الهرب من الإسكندرية. ولكن إلى أين سنذهب؟ لسنا جميعًا لبنانيون».

فى العاشر من شهر مايو كان لدى كوستيس - بخلاف أى شخص آخر - سببًا للكتابة عن حدث كان له تأثير عالمى: «نجا الأب الروحى لأخى بقفزة بالمظلة قبل أن تتحطم طائرته فوق أسكتلندا. هل طار رودولف إس حتى بريطانيا العظمى للتفاوض على السلام أم لتقسيم العالم إلى قارتين؟ يؤكد المقربون منه أنه مجنون، وفى بريطانيا يوافقون على هذا الرأى. بدى تشرشل منزعجًا. كم أود لو أعرف ما الذى يدور بخاطر ماخوس الآن».

مع استمرار الحرب، تتوارد أنباء سارة وأخرى سيئة. ولم يفوت كوستيس الفرصة ليذكرها فى مذكراته:

«انتهت معركة كريت. وعلى الرغم من إصابة الأسد البريطانى بجرح عميق فإنه مازال قابعًا هنا فى القرن الإفريقى منتظراً الصدمة التالية من العدو. تُرى من لديه القدرة على قلب الأمور؟».

يتحدث الجميع في الإسكندرية عن ظهور الملك وحكومة تسوذيروس في مصر. وعن ذلك دون كوستيس في مذكراته وجهة نظره على النحو التالي: «ما علاقتنا نحن بهذا الملك الأسطوري النحيف الذي يرتدي بذلة عسكرية وبنطالاً قصيراً، ويتجول هنا وهناك وكأنه مبعوث مجدنا الوطني؟ يجر من خلفه العديد من الأمراء الذين أصابهم السأم من كثرة الانحناء.

حتى أنصار ميتاكساس، نزلوا في كامل زينتهم. يقال إن شخصًا يدعى نيكولوذيس مرر من الميناء خمسين صندوقًا من" الحقائب " لا أكثر ولا أقل.

وبالنسبة لحكومة تسوذيروس، نمى إلى سمعي أن الحكومات أصبحت أكثر مما نحتاجه - لو كان الأمر كذلك – فسوف أشتري لنفسي حكومة أو اثنتين، يا أخي!

على أية حال، وقعت الكارثة الكبرى في صفوف جيشنا. فقد امتلأت الإسكندرية بضباط من الجيش اليوناني يبحثون جميعًا فيما بينهم ربما يجدون جنديًا واحدًا. تقوم القنصلية بجمع شبابنا داخل مدارس الجالية. إنه تجنيد عام. ويقوم ضباط الجيش باختبارهم من أجل توزيعهم على الأسلحة الثلاثة. تم استدعاء الشباب من مواليد عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٣. وكان من بينهم ثاناسيس ابن عم نيكيتاس. وقد تم توزيعه على سلاح الطيران. وهو موجود في الوقت الحالي في أحد المعسكرات الإنجليزية في منطقة كبريت التي تقع بين الإسماعيلية والسويس. كان الله في عونه!».

بعد أيام قليلة تم تحديد الأعداد الأولية للجيش اليوناني الذي يتألف من ثمانمائة جندي من اليونانيين المصريين، وكذلك من بعض اليونانيين؛ وقد بدأ كوستيس في رصد الأحداث على النحو التالي:

«أصحاب الجذور المصرية! نعم لقد سمعنا ذلك من اليونانيين (عن أبنائنا). ملازم ثان، صعلوك، وهو أحد أقارب مانياذاكيس، صوب سلاحه إلى أولادنا وهو يطلق عليهم لقب "أصحاب الجذور المصرية". وهنا كان لزامًا عليّ أن أقول إننا جميعًا قد انزعجنا

من ذلك. غدًا سوف نقدم طلبًا رسميًا لاستبعاد بعض الأشخاص من حزب ميتاكساس. آه، كم كان والدى على حق عندما كان يتحدث عن اليونان! يعرض حاليًا فى دور السينما فيلم كازابلانكا للبطل هامفرى بوجارت».

وسط كل تلك الأمور التى تشغله وجد كوستيس الوقت ليصف لنا ابن خاريتومينى فى مذكراته بقوله:

«من كان يتوقع أننا بعد أن رأينا الطاهية العجوز سوف نرى ابنها أيضًا! فبالأمس خرج من المعسكر بتصريح وحضر بزيه العسكرى لزيارتنا. بعد تناول وجبة "الغداء" (دوَّنها بالفرنسية) اصطحبته وجلسنا فى "كشك الصداقة". فلابد من الدعم النفسى لكل من يشارك فى الحرب. كادت أمه أن تفقد وعيها من فرط سعادتها! إنه شاب جاد، لكنه مغرور بعض الشىء بسبب زيه العسكرى، ويبدو أنه قد ورث البدانة عن والدته. تحدثنا لوقت طويل عن جبهة القتال فى ألبانيا وعن معركة كريت الخاسرة. حقائق كثيرة وأيضًا قصص خيالية كثيرة. بطولات حقيقية وأخرى مزيفة تختلط بين شفاهة. سوف تتقدم وحدته العسكرية فى القريب العاجل إلى جبهة القتال فى الصحراء. سألت خاريتومينى: " ألا تشعرين بالخوف عليه؟ " فأجابت بقولها: "طالما وطأت قدماه تراب مصر مرة أخرى وأصبح بجانبى فلا خوف عليه". كم يتصف سلوك البشر أحيانًا بالغرابة!».

* * * * *

مضى وقت طويل منذ أن ذهبت إيفيت إلى شارع يانج، وعندما تلقت إخطارًا للقاء مستر "فويس". كان ذلك فى نهاية شهر يونيو من عام ١٩٤١ . فى تلك الأثناء، كانت هناك أشياء كثيرة قد تغيرت فى حياتها. لقد ألقت الأقدار بهايكى بين أحضانها، فى حين لم تكن هايكى قد أدركت ذلك تمامًا، وكانت تعرف أنها ينبغى أن تستمتع بذلك تمامًا، لأنه أمر لم يكن ليستمر لفترة طويلة.

عندما وصلت أمام المبنى الكائن بشارع يانج، لاحظت صعوبة أن يلفت هذا المبنى انتباه أحد، وبخاصة لأنه يبدو مغلقًا ومهجوراً خلف سياج الأشجار التى تخفيه عن الطريق؛ ولكل من يعرف، كان هذا المبنى بمثابة قلب الحكم البريطانى وليس مقر الشرطة بالعطارين، أو فى المعسكرات الموجودة بشارع مصطفى باشا أو فى الميناء الغربية. لم تعد الإجراءات تضايقها، ومنذ اللحظة التى أعلنت فيها الحرب، أصبحت الأمور أكثر صرامة وكان لابد أن يتم وضع كلمة سر جديدة تكون مأخوذة أحيانًا عن عبارة من مسرحيات شكسبير المعروفة أو شعار إعلانى، وهو ما قرأه شخص فى إحدى حافلات الندن المكونة من طابقين. كانت لهجتها الإنجليزية تزعج الإنجليز المتشددين وكان مستر "فويس" دائمًا ما يعلق عليها.

والحقيقة، فبمجرد سماعها لهذا الصوت الرجالى الخشن يرحب بها، كان ينتابها إحساس بأنها تجلس بالقرب من صديق حميم، وكانت تتحرر من ذلك الشعور بالضيق الذى يسيطر عليها عند عبورها الباب الخارجى الذى يحمل شعارات غير مفهومة. فى البداية كانت تعتقد أن من يحدثها يراها من خلف إحدى المرايا الخفية، لكن بمرور الوقت أصبحت تعتقد أنه من المستحيل أن يراها من مكانه، وكان هذا بالطبع أكثر أمانًا للجميع. على أية حال، فلم تكن وظيفتها تتضمن نقل المعلومات، ولكنها اقتصرت على تلبية بعض الرغبات، من خلال إمكاناتها التى عرفت عنها بعد كل هذه السنوات، والتى تعتمد على قدراتها الكبيرة فى الإدارة.

فى هذا اللقاء فاجأها مستر "فويس" بالحديث فى موضوع غاية فى السرية، والتى لم تسمع عنه إيفيت من قبل سوى القليل دون أن تدرك أن هذا الموضوع يخص ظاهرة معتادة ذات أبعاد مختلفة. ففى الشهرين الماضيين لم تكن تمر ليلة دون العثور على جثة إحدى مجندات الجيش أو البحرية مذبوحة فى أحد المتنزهات بالإسكندرية أو على ضفاف ترعة المحمودية. لم تكن المجندات يحملن الجنسية البولندية فقط أو من الكومنويلث، ولكن كان من بينهن أيضًا مجندات إنجليزيات. ومما يثيرالقلق هو؛ عدم وجود أية علامات تدل على اغتصاب أى منهن، ولكنهن وقعن بمحض إرادتهن فى فم

الذئاب. فى البداية ظنت البحرية أن الأمر يتعلق بأحد المختلين عقليًا، يستمتع بهن ثم يقوم بذبحهن بعد ذلك. الآن أصبح بحوزتهم بعض الأدلة التى تشير إلى وجود جماعة إرهابية من المصريين المتشددين وراء هذه الجرائم تحت قيادة بعض عملاء العدو.

فويس: «لعلكم تقدرون مدى الفضيحة التى سوف تتفجر إذا ما انكشف أمر هذه الجرائم». هكذا علق مستر "فويس" بصوت قلق بشكل غير مسبوق عبر مكبرات الصوت المتناثرة بالغرفة.

إيفيت: «نعم أرى ذلك (قالت ذلك بالإنجليزية)، لكن كيف يمكننى المساعدة؟».

– «فى البداية لابد أن تكونى حريصة أثناء الليل».

أرادت إيفيت أن تخبره بأنها لم تعد شابة صغيرة لتصبح عرضة للتهديد المباشر من قبل جنون هؤلاء المتشددين، لكنها تداركت الأمر، لأنه إذا لم يكن حقًا يراها، فلا داعى لأن يكتشف سنها. ومن ناحية أخرى، حتى لو كانت فى الخمسين من عمرها، فما أهمية ذلك؟ هل أصبحت غير مرغوب فيها من قبل الرجال أو النساء؟ عندئذ أجابته بقولها:

«سأكون حريصة، "هذا وعد منى بذلك "(قالت ذلك بالإنجليزية). لكننى أتخيل أنكم لم تقوموا باستدعائى هنا من أجل تحذيرى فقط».

عندئذ قام مستر " فويس " بطريقة مهذبة بتصحيح لغوى فى لغتها الإنجليزية، ذلك التصحيح الذى لم تفهمه إيفيت، ثم أضاف قائلاً:

– «نحن بحاجة لتعاونكم المخلص معنا مرة أخرى».

– «نعم، ولكن كيف؟ كيف يمكننى مساعدتكم؟».

– «نحن نتعاون فى تحقيقات هذه القضية الغامضة بشكلٍ اضطرارى مع الشرطة المصرية. وهناك ضابط مصرى يدعى نور هو الذى يتولى التحقيقات. هل تعرفينه؟».

– «أعرفه جيداً».

– «وما رأيكم فيه؟».

- «هل تريدون أن أقول لكم رأيى فيه؟».

- «بالتأكيد، لهذا نسألكم».

تسبب لها مجرد التفكير فى الضابط نور فى حالة من الغليان. تذكرت المروحة التى تحتفظ بها فى حقيبة يدها، لكنها لم تستخدمها، كما لم تفكر فى أن تشعل سيجارة. كانت ترى أن فى عدم فعل ذلك دليلاً على الاحترام، وعندئذ أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تجيب قائلة:

- «حسنًا (قالتها بالإنجليزية)، لو أننى فى مكانكم، لم أكن لأثق فيه بشكلٍ كبير. تعلمون........».

- «أكملى، نحن نسمعكم جيدًا».

- «البعض يقول عنه وعن ضباط الشرطة المصرية إنهم ينتمون إلى الجيل الجديد من طائفة المتشددين. لا أريد أن ألمح لشىء معين، ولكن هل تجدون أنه من الصواب أن تتركوا الذئب ليرعى الغنم؟».

- «وأنتم كيف تعرفون كل ذلك؟ ما أريد أن أقول هو إن.......».

- «لقد قام الضابط فريد بترشيحه بوصفه خليفة له عندما تم سحبه من الخدمة فى الشرطة، ولكن صدق أو لا تصدق، من وقتها لم ألتق به إلا مرتين أو ثلاثًا. أنتم تعرفون موقف هؤلاء الضباط الذين "انشغلوا بأداء الواجب" وأصبح من الضرورى أن نتعامل نحن مع الواقع السيئ بخصوص مساعدة الشرطة المصرية».

«أعلم ذلك وأؤكد لكم أنكم قمتم بواجبكم بإخلاص تجاه عائلات هؤلاء الضباط».

- «إذن؟».

- «لنفس السبب أطلب منكم أن تضغطوا على أنفسكم بخصوص علاقتكم بهذا الرجل ومن حوله حتى نستطيع أن نحل هذا اللغز. ما رأيكم؟».

كان لدى إيفيت شعور دائم بأن مستر " فويس "، على الرغم من لباقته الإنجليزية، فإنه كان يعتقد أنها ساذجة. وفى هذه الحالة بالتحديد فقد أدركت أن

التعاون المطلوب من ناحيتها مع الضابط نور والوسط المحيط به هو السبب الحقيقى لستدعائها. وعندما قامت فيما بعد بمناقشة الأمر مع إلياس، عبرت له مرة أخرى عن اندهاشها بقولها:

«هل هم الذين لا يصرحون مطلقًا عما يريدونه منى بالضبط أم أننى أنا التى ينتابها دائمًا انطباع خاطئ بذلك؟».

أما إلياس، الذى كان على دراية أكبر بلعبة القط والفأر، فقد اقترح عليها تصورًا ثالثًا بقوله:

«ألم تفكرى أن بمعلوماتهم الناقصة يأملون أن تعملى بالطريقة التى يريدونها هم، متجاهلين فى النهاية إذا ما كنت ذات فائدة لهم أم لا؟».

وكان على اللبنانى أن يخبرها بنبأ غير سار:

- «أتعلمين أن الضابط فريد قد مات مساء أول أمس وهو نائم؟ أزمة قلبية. فى الوقت الذى كانت صفارات الإنذار تدوى. لقد تعجبوا من أنه لم يسمع دوى صفارات الإنذار وينهض، وعندما حاولوا إيقاظه تأكدوا من وفاته».

- «غير حقيقى!(قالتها بالفرنسية)، مات عزيزى فريد السمين!».

- «مهما يكن الأمر، فقد كان محظوظًا. الأمر السيئ هو محاولة البعض أن يعطى لجنازته طابعًا خاصًا بالهتافات االشعبية مثل: " تحيا مصر، يسقط الطغاة"، لقد حقق الضابط نور ورفاقه المعجزة مرة أخرى».

- «هكذا إذن!(قالتها بالفرنسية) وبعد ذلك يأتى مستر " فويس" ليطلب منى التعاون مع هذا النوع من البشر».

أيقظت أنباء جنازة فريد داخل إيفيت ذكريات أول جنازة رأتها لمصرى منذ خمسة وعشرين عامًا، والتى تصادف أن جاءت بعد عودتها من إسطنبول، الآن فكرت فى أمر ما مما جعلها تصاب بنوبة من الضحك، فقد تخيلت أن المرحوم وهو فى نعشه الخشبى

كان سيفضل أن يضع فوق النموذج الخشبى للرأس التى كانت تغطى النعش ما يدل على فحولته بدلاً من الطربوش(*).

الآن وقد مات فريد فقد أصبح موته سببًا لكى تلتقى صديقين قديمين من جديد: إلياس خورى وصمويل عظيمان. لقد قرر إلياس العربى وصمويل اليهودى أن يتجاوزا خلافاتهما بشكلٍ مؤقت. وبعد كل هذه السنوات عادا " للعب الورق "(ذكرها بالفرنسية) معًا من جديد، ولكن حتى هذا الوقت كانت المكائد السياسية تختبئ وراء الابتسامات والدعابات وتذكر الرجلين اللذين أصابهما الهرم الأيام الخوالى: إحتساء الخمر وتدخين السيجار ومداعبة الفتيات الصغيرات فى منزل اليهودى الثرى.

أخبر إلياس إيفيت أن "سامى"(يقصد صمويل) قام بنقل جزء كبير من مجموعته الأثرية إلى جنوب أفريقيا، ومع أول إشارة لدخول مصر فى الحرب سوف يغادر الإسكندرية. وعندئذ أشارت عليه إيفيت بقولها: «ولماذا لا تفعل ذلك أنت أيضًا».

لكن "اللبنانى" كان له خطط أخرى، على الأقل فى الوقت الحالى، لا تتعدى ذهابه لبيروت.

«سوف أصطحبك معى إلى بيروت» قال ذلك إلياس بطريقة ترددت صداها فى أذن إيفيت وكأنها تهديد. كانت على وشك أن يقول شيئًا، لكنه غيّر الموضوع قائلاً:

«حقًا، لم تخبرينى كيف تسير أحوال السيدة خاراميس منذ عودتها لأداء خدماتها فى النادى».

كانت إيفيت تخشى أن أية إجابة ستقولها، كانت ستفضحها أمام أعين إلياس، لذلك ردت عليه بطريقة جافة قائلة (بالفرنسية): «بشكل رائع، بشكل رائع» لكنها لم تكن واثقة إذا ما كان الاضطراب الذى سيطر عليها كان مكشوفًا أمام إلياس، ذلك الشيطان الشامى.

* * * * *

" كيف تواجه الإنسان ورغباته؟ "، هكذا كانت هايكى تتساءل فى كل مرة تفكر فى إيفيت. وكان تساؤلاً لم تستطع أن تستثنى نفسها منه، لأنه حتى لو كان الكحول قد جعلها تنسى مأساتها فإن هناك أوقاتًا كثيرة استطاعت خلالها أن تدرك مدى فداحة خطئها. نفس الشىء كان بوسعها أن تقوله عن إيفيت، فلم يكن من المقبول أن تكون نفس هذه المرأة الغامضة بهذا القدر من السوء الذى تحاول إظهاره، كان هناك شىء لا يمكن مقاومته فى الطريقة التى تنظر بها إليك، شيئًا لا تستطيع أن تراه إلا فى عيون البشر الأنقياء. إنه لأمر مدمر لمثل هذه الروح البريئة أن تعيش فى مثل هذه المدينة الخائنة، بهوائها الملوث الذى تتنفسه بما يحتويه من رغبات محرمة. فما الإسكندرية إلا امرأة لعوب! بسمائها وبحرها وصحرائها، كمشهد سينمائى به واجهة الكورنيش ذات الطراز الأوربى، مثل قشرة إحدى الفواكه الإستوائية التى لها مذاق " الإسلام "(هكذا ذكرتها). ما الذى تفعله هنا نساء مثلها أو مثل إيفيت؟ فقد أصبحت هى نفسها أسيرة لرجل يزداد بعده عنها يومًا بعد يوم، فى حين أن مدام شانتون وحيدة ويائسة، لا تجد لها سلوى سوى مداعبة من هن أصغر منها سنًا لعلها تجد فيهن شبابها الضائع.

لكن هايكى لا تزال شابة صغيرة وكانت تتمنى لو أنها استطاعت أن تفر يومًا ما من شواطئ الإسكندرية المغرية، ومن الجمال المصطنع للشوارع والمنازل، ومن بحر الإسكندرية الخالد ومن شمسها، الأمر الذى مكنها من أن تتسامح مع كل هذا الفساد الذى يحيط بها؛ ولذلك فقد تركت يدى إيفيت المرتعشة تعبث بها وبجسدها(*). لكنها بدأت بعد وقت قليل تتساءل وهى تشعر بالفزع: هل هذا يعنى أننى أصبحت مثلية؟ ثم انتابتها بعد ذلك مباشرة نوبة من الضحك لتلك الفكرة التى راودتها، فبالطبع لم تكن مثلية. وقد حاولت مرة أو مرتين فى فيلا لوران أن توضح لإيفيت خطأ ما تقترفه لكنها فشلت فى ذلك فقررت أن تعاملها بطريقة جافة وحادة. ولحسن الحظ فلم تكن هايكى تقف وحدها فى مواجهة أمواج البحر المتلاطمة. كان لديها أناس مقربون منها تهتم بحالهم، كانت لديها اهتمامات شخصية خاصة بها، أمور تشغلها، تطلعات ترغب فى

تحقيقها. لم تعد هايكى تذهب أيام السبت والثلاثاء إلى النادى. حيث كانت تفضل الاستمتاع بالأمسيات الموسيقية فى منزل أسرة ميناسيه فى شارع راصافا. لقد أتيحت لها الفرصة لكى تستمع إلى عزف جينا باهاوير على البيانو عزفًا ثنائيًا مع جورج دى ميناسيه، وأيضًا لكى تتناقش مع البعض من صفوة اليهود بالإسكندرية عن تطورات الحرب وسياسة البريطانيين المعادية للسامية فى فلسطين. وبعد كل تلك المناقشات كانوا يقدمون الشاى والأطعمة بوفرة، تلك التى كانوا يشترونها من "بودرو" أو من " باستروذيس".

كانت هايكى دائمًا ما تطلب من كوستيس أن يذهب معها، ولكنه كان يرفض قائلاً: «أوف، كم من المال سينفق جورج لكى يثبت لضيوفه مدى موهبته فى العزف على البيانو؟ ما كل هذا الغرور، يا إلهى!».

ورغم ذلك فقد قبل الدعوة مرة واحدة فقط، عندما أخذت هايكى مكان باهاوير وعزفت عزفًا ثنائيًا مع رب الأسرة، ولكن فى تلك الليلة غادر كوستيس فى منتصف الحفلة، وفى المساء كانت لديه الجرأة ليبدى لها انتقاداته، قائلاً: «لابد أن تتدربى باستمرار، يا حبيبتى. أعتقد أنك قد فقدت موهبتك منذ زمن».

وكانت هايكى تعرف السبب الحقيقى وراء هذه اللهجة. فلم يكن كوستيس راضيًا عن اختلاطها "بطبقة اليهود"(قالها بالفرنسية) فى الإسكندرية. حيث كان الناس يتهامسون منذ زمن عن قيام عائلة خاراميس بتمويل فكرة تأسيس وطن غير شرعى لليهود فى فلسطين، مما كان يتسبب فى تعرضه للعديد من المشاكل مع القيادة البريطانية حتى حانت اللحظة التى قال فيها كوستيس بصراحة:

«لقد اعتدت الذهاب بانتظام إلى المعبد. "ولا مانع لدىّ فى ذلك"(قالها بالفرنسية). لكن لابد أن تعرفى أنه من الخطورة الدخول فى مناقشات حول فلسطين. مما يجعلنى فى موقف حرج مع الإنجليز. والأمر هنا يتعلق بالعمل وليس بالأحلام».

كان الازدراء هو آخر ما كانت تتوقعه هايكى من كوستيس، ولذلك فقد بادرته بقولها:

«لا تضايق نفسك، يا سيدى (قالت ذلك بالفرنسية). أعلم كيف أهتم بمصالح بلدى دون أن أعرض مصالح زوجى للخطر».

عندئذ أخذ كوستيس يهمهم بشىء غير مفهوم باليونانية، ربما كان يسخر بوضوح بمُثُلها الصهيونية، ثم قال لها بشكل جاد:

«بدلاً من البحث عن أوطان ضائعة، ألا تظنين أنه من الأفضل لو أنجبنا طفلاً آخر؟ فذافنى الصغيرة بحاجة لأخ صغير، ولن تظلى شابة طوال حياتك».

هـــايـكى: «فلسطين ليست وطنًا ضائعًا بالنسبة لليهود، يا كوستيس».

كوستيس: «دعى الحرب تنتهى أولاً، وإذا ما ترك هتلر يهوديًا واحدًا على قيد الحياة فى هذا الكوكب، فسوف نرى وقتها عن أى وطن تتحدثين».

- «حتى أنت تتمنين فى أعماق نفسك أن يُمحى جنسنا» هكذا أبدت هايكى ملاحظتها وقد انتابها حزن شديد.

- «حاشا لله، لست معاديًا للسامية، "يا عزيزتى" (قالها بالفرنسية). لكن هنا فى مصر اعتاد اليهود أن يهتموا بشئونهم فقط دون الاهتمام بتعاليم صهيون، ولا أجد سواك وخمسة أو ستة أشخاص آخرين يهتمون بهذا الأمر، لابد أن تدركى هذا».

- «هنا سوف أختلف معك. كان يمكن لذلك أن يحدث قبل عشر سنوات، لكن اليوم يدرك الجميع بشكل كبير أن مصر ليست "أرض الميعاد" بالنسبة لليهود السفار ديم».

- «هل هذا ما تناقشونه فى منزل ميناسيه؟».

- «نعم، وإذا أردت أن تعرف، فالموضوع لا يتعلق فقط بالجالية اليهودية، ولكنه يتعلق بكل الجاليات الموجودة فى هذا البلد. فعندما يستيقظ المصريون يومًا ما من سباتهم فلن يفرقوا بين جالية وأخرى».

بمثل هذا المنطق كانت جيهان تتحدث باسم الأقباط، فهناك العديد من التشابهات إذن بين جيهان وبين زوجته: نفس التعصب ونفس الكراهية لإنجاب أكثر من طفل واحد قد يعرض رشاقتهما للخطر. كان أهل الإسكندرية يتهامسون لسنوات عديدة عن السيدة خاراميس، وعن أنها لم تتوقف لحظة عن التفكير فى أنها كانت عارضة أزياء فى بيت شانيل للموضة، وعن أن زوجها يرغب فى إنجاب طفل آخر، وعما إذا ما كان ينبغى عليه أن يحصل على طفل آخر من امرأة أخرى.

لكن هايكى أيضًا كانت تعلم جيدًا أن الإسكندرية مدينة للشائعات التى تعد بمثابة أوراق الاعتماد للانضمام للمجتمع الراقى بالمدينة. ولذلك فقد كان من المستحيل أن تصبح هايكى طوع بنانهم، حتى إن البعض قد حرص على تقديمها باعتبارها عشيقة لكوكو شانيل فى بداية الثلاثينيات. فى البداية واجهت هايكى تلك الشائعات الكاذبة بشدة، لكنها تعلمت بعد ذلك كيف تواجه النظرات الشائكة بابتسامة غامضة لم تكن تؤكد أو حتى تنفى تلك الشائعات التى تطاردها. إلى هذا الحد فقد كان مروجو الشائعات يتمكنون فى كل مرة من مفاجأتها بشائعات مدوية، مثل شائعة قيامها بعملية إجهاض على يد القابلة رومينا المشهورة بالإسكندرية. وكانت هايكى قد اكتفت بفكرة أنه حتى يأتى اليوم الذى ستغادر فيه الإسكندرية، كان لزامًا عليها أن تتحمل أكثر مما تحملت من أولئك الذين يحكمون على الأمور من تلقاء أنفسهم، ومن الذين كانوا يبحثون فى كل الأمور الخفية، أما الأمور الواضحة فلم تكن مثار بحثهم، ولذلك، من جهة أخرى، فلم تكن قلقة من علاقتها بمدام إيفيت.

حتى الآن، لم يكن بإمكانها أن تفعل شيئًا سوى أن تنتظر حتى تضع الحرب أوزارها، وبعدها قد تتمكن من البحث عن وجهة جديدة لها فى أوربا، حيث ما زالت مجالات الموضة والموسيقى مفتوحة أمامها؛ وقد تتوجه إلى فلسطين – ولم لا – حيث تحلم وتتطلع إلى وطن واحد لليهود من جميع أنحاء العالم. ولم تكن هايكى تعرف أن تلك الفرصة ستواتيها بأسرع مما كانت تتوقع، وأنها ستتمكن من اقتناص هذه الفرصة.

* * * * *

فى نهاية عام ١٩٤١، كان أهل الإسكندرية يتطلعون بلهفة تجاه الأفق الغربى من المدينة، محاولين سبر أغواره والتأكد من صدق ما سمعوه من هذا الرجل الذى صوره لهم خيالهم رمزًا للتهديد المميت. كانت حرب الصحراء تخفى العديد من المفاجآت غير السارة للحلفاء. من بين هذه المفاجآت خبر استبدال القائد العسكرى أويفيل بالقائد كلود أوكينليك. فقد بات واضحًا أن الإنجليز يبحثون بكل السبل عن رفع الروح المعنوية للجيش بقدر رغبتهم فى زيادة الشعور بالأمان لدى المواطنين العزل، وهو أمر بالغ الأهمية.

لم تكن مصادفة تلك الأنباء التى وردت عن وصول مؤسس اتحاد الترفيه عن القوات العسكرية الجديد والذى كان يستعد لإطلاق مشروعه الجديد تحت اسم ستافروفوروس (حامل الصليب) من أجل الترفيه عن الجنود فى طبرق حتى يتم الانتهاء من أمر روميل ورفاقه نهائيًا.

فى شهر نوفمبرمن عام ١٩٤١، كتب كوستيس فى مذكراته:

«عروض أوبرا مدام باترفلاى لبوتشينى على مسرح "ألامبرا" فى شهر نوفمبر ١٩٤١. إنه بكل تأكيد أكبر حدث فنى بالإسكندرية فى فترة الحرب.

قامت بدور تسو تسو سان (مدام باترفلاى) الفنانة أليس لوريميل التى سحرتنا بصورتها الفاتنة، وكأنها تعلن عن غدٍ أفضل، عندما تغنى قائلة: "سوف نرى يومًا أجمل". كان المشهد الذى تظهر فيه البارجة الحربية الأمريكية وهى ترسو فى نجازاكى يلقى بظلة على مشهد الإسكندرية فى أثناء الحرب. كانت تسو تسو سان تعبر بشكل مؤثر عن قوة العشيقة المخدوعة وكأنها تصور لنا الإسكندرية نفسها، كما كانت السوبرانو أليس لوريميل رائعة، لكن ذلك لم يكن يمثل رأى الجميع. فقد كانت هايكى تتفق مع رأى أولئك الذين يرون أن صوتها غير متزن فى المقطوعات الموسيقية العالية مما يجعلها نموذجًا فنيًا سيئًا. لكنى لا أتفق معهم فى ذلك، وأعتقد أن عدم الاتزان قد يجد صداه بشكلٍ مؤثر فقط فى أذن المستمع. ألا يعد ذلك كافيًا؟ قررت أن أحضر العرض القادم».

فى اللحظة التى كان كوستيس يكتب هذه السطور لم تكن لديه أدنى فكرة عن نوعية المشاكل التى سوف تسببها له هذه المرأة التى كانت تلقب باسم "العاصفة الرملية". فقد كانت ميس لوريميل، على عكس رواية مدام باترفلاى، تحرص بشدة على أن يكون لها عشيق فى كل بلد فى العالم تذهب إليه، متجاهلة إذا ما كان عضواً بارزاً فى المجتمع ومتزوجاً ولديه طفل، مثل كوستيس.

كتب كوستيس المعجب والمبهور بأدائها بعد يومين فى مذكراته:

«إذا ما كان الحب خالداً، مقدراً له أن يعيش فى حدائق الخلود المعلقة، عندئذ سيصيب كل هؤلاء المشوشين والعنيدين الدوار من شدة إبهاره ليقعوا بعد ذلك صرعى فتنة الحب، وربما يتوصلون إلى معنى يفوق ما يتصوره العقل، غير أنه لا يوجد من يؤكد لنا ذلك. وهذا ما يحدث فى الظواهر الكونية اليومية، حيث يحتفل كل من يعتمد على الواقع وعلى تعقله للأمور. ولكن مع استمرار تلك الحرب لمدة أطول، حيث تصبح بحاجة لأن تؤمن بشىء أعظم يفوق قدراتك، ترد على ذهنك العديد من الأسئلة المشابهة التى تؤرقك.

اليوم فى المساء سأتناول طعام العشاء مع السوبرانو الشهيرة. ماذا أقول لها: "إننى مسحور بصوتها" أم "أننى مسحور فقط"؟، وهل لى مقصد آخر غير ذلك؟ لو أستطيع ولو لمرة واحدة أن أستأثر باهتمامها......».

كان جون أدجوت صديقاً لعائلة أليس، وهو رجل كان يعمل من قبل فى "فيكتوريا كوليدج"، ويعمل الآن باعتباره محاضراً فى الجامعة التى تأسست حديثاً بالإسكندرية. اعتاد كوستيس فى الماضى أن يلعب التنس مع جون أدجوت فى نادى سبورتنج، ولذلك عندما ذهب كوستيس لهذا الإنجليزى الجنتلمان ذى الحواجب الكثيفة بهدف التوسط له للقاء ميس لوريميل تلقى إجابة واضحة (بالإنجليزية) حيث قال: "إنه أمر فى غاية السهولة، ولكن أرجو أن لا ينتهى بشكلٍ سخيف".

وفى الأيام التالية، أصبحت الرولزفويس السوداء تقف بشكلٍ دائم أمام فندق "سيسيل"، فى انتظار السوبرانو لكى تقلها للمسرح، ومن هناك إلى أحد المطاعم الفاخرة أو إلى

إحدى الحفلات المتميزة التى يقيمها أحد أعضاء الجالية اليونانية. لقد بدى على كوستيس فجأة وكأن أليس قد سلبته عقله، تلك الإنجليزية ذات الأصل الراقى والتى تنحدر من تشيلسى، أو "أليس فى بلاء العجائب"، كما كان يحلو له أن يسميها. كان يتابع بوصفه مشاهداً غير مهتم ردود أفعال الآخرين وكان يسجلها فى مذكراته:

«نحن الآن فى حالة حرب، وبينما كان العديد من الشباب يتأهبون ليلقوا بأنفسهم فى ويلات الحرب ويضحون بأنفسهم، كنت أقضى وقتًا سعيداً مع "أليس فى بلاد العجائب". لقد رآنا الناس معًا فى "سانتا لوتشيا" وفى "يونيون كلوب". ماذا كنت أنتظر؟ وكيف أستطيع الاستمتاع بوقتى بعيداً عن هذه المدينة الثرثارة؟ فى صباح اليوم وقعت أول مشاجرة بينى وبين هايكى، فغرست أظافرها فى ظهر يدى وأصابتها بندوب كثيرة. أرانى مضطراً للبس قفازات لبضعة أيام. كان لابد أن أتوقع منها ذلك. أصبحنا ننام منفصلين منذ يومين. هل ستسامحنى؟ لابد أن تسامحنى. إنها لحظة جنون. لابد أن يمر هذا الموقف. وإلا فماذا سيبقى؟».

يبدو أن تلك المشاحنات لم تكن كافية لتردعه عما يفعل. بعد ثلاثة أيام كتب كوستيس:

«رحلة إلى بحيرة مريوط، هدوء واستمتاع، نختبئ خلف أعواد البوص، بينما يقوم ميسا بحراستنا. هل أصابنى الجنون؟ لم يدر بخلدى أبداً إمكانية أن يلمحنا البعض من الجهة الأخرى للبحيرة».

ورغم كل ما كان كوستيس يفعله فإنه كان يجد لنفسه تفسيراً لأفعاله:

«لقد أصبحت كالقروى فى هذه المدينة. إذن ليس هناك أدنى مشكلة! رجل قروى ذو مال وفير تبهره المدينة على استعداد لأن يطيح بكل شىء من أجل أول امرأة يقابلها. بعد غد تسافر أليس إلى جنوب أفريقيا، تنتابنى رغبة شديدة فى الذهاب معها لكن صديقى الأستاذ الإنجليزى أكد لى أنها ستتركنى فى محطتها القادمة من أجل عشيق جديد من بلدٍ آخر. هذا الموقف يجعلنى أشبه "بنكيرتون" بينما هى تشبه "مدام باترفلاى". عد إلى رشدك، يا كوستيس. قبل فوات الأوان».

عندما رحلت " العاصفة الرملية " من الإسكندرية، لم تكن الجروح الموجودة خلف يده قد اندملت بعد، ولم يكن ذلك يزعجه. وقد أشار كوستيس لهذه الجروح فى خطابه الذى كتبه لها بعد أيام قليلة قائلاً: «رأيت اسمك وهو يبرق فى لوحة الإعلانات فى شارع ميسالا فخفق له قلبى. لحسن الحظ ما زالت العلامات التى سببتها أظافر زوجتى موجودة لتذكرنى بك، الآن وأنت فى أحضان رجل آخر».

* * * * *

فى شهر مايو من عام ١٩٤١، وبينما كان روميل يواجه صعوبات فى الصحراء، كان نيكيتاس يقوم بالتريِّض على الكورنيش، كما كان يقضى الساعات فى الجلوس متكاسلاً على المقاهى والكازينوهات الموجودة على الشواطئ منتظراً حدوث أمر ما لا يعرفه أحد سواه. لم يكن قد مر على عمله فى محل المرتهنات أكثر من شهر حتى طلب إجازة لمدة عشرة أيام. كانت أمه على وشك أن تنفجر من الغيظ، لكن كانت لدى نيكيتاس أسبابه. فى اليوم السابع، ومن بين الركاب الذين كانوا يستعدون للنزول إلى الميناء الغربية من إحدى سفن الشحن الإنجليزية، ظهر رجل نحيف ذو شعر رمادى وبشرة قمحية تحمل أوراق هويته اسم ثراسيفولوس هيراكليذيس، ترجع أصوله لجزيرة كريت. احتاج هذا الرجل لقضاء يومين آخرين فى الميناء حتى يستطيع المرور من "الغربال الإنجليزى" كما وصفه لنيكيتاس، فى حين قضى الليلة الثالثة فى معسكر للوافدين بالعجمى منتظراً الحصول على تصريح من إدارة شئون الهجرة المصرية. وكان هذا الرجل فى حقيقة الأمر يدعى أنجيلوس موئيزيذاكيس، ينحدر من جزيرة كريت، وكان معروفًا لدى دوائر أنصار ميتاكساس باعتباره عضواً فى الحزب الشيوعى اليونانى.

عندما تمكن أنجيلوس من إنهاء أوراقه، استقبله نيكيتاس وتوجه به إلى ضواحى المدينة، إلى أبى قير، فى منزل صغير كان قد أقامه أحد الإيطاليين المناهضين للفاشية ومعه اثنان من اليهود اليساريين. وكان أنجيلوس قد وصل إلى الإسكندرية مبعوثًا من الحزب الشيوعى بصفته مرشداً سياسياً. فر أنجيلوس هارباً قبل إعلان الحرب بقليل

خوفًا من حزب ٤ أغسطس الحاكم، ومنذ ذلك الحين يقضى وقته مختبئًا. فى البداية كان أنجيلوس فى صف أنصار ميتاكساس ولكنه أصبح بعد ذلك مؤيدًا لقوات الاحتلال. لقد جعلوا نيكيتاس يعتقد أنه أحد " الرؤوس الكبيرة " لكن مظهره المثير للشفقة بعد أيام قضاها فى معاناة فى معسكر اللاجئين جعلته يبدو غير ذلك. ولكى يعيد نيكيتاس صورة المرشد السرى لما كانت عليه، فقد تناولا معًا فى البداية الطعام فى أحد المطاعم اليونانية الشعبية فى العطارين حتى يستعيد بعضًا من قوته، ثم ركبا القطار إلى محطة فيكتوريا وتوجها إلى سيدى بشر، حيث كانت تنتظرهما سيارة عتيقة من الحرب العالمية الأولى لتقلهما إلى أبى قير. وصلا وقت الغروب وكانت الشوارع تكتظ بالبشر الذين يهرولون هنا وهناك قبل حلول الظلام.

دخل نيكيتاس مباشرة إلى عمارة صغيرة خلف كنيسة أغيى أنارغيرى، حيث كان على دراية بوجود سلمًا صغيرًا يؤدى إلى شقة مكونة من طرقة كبيرة وثلاث غرف. وكان عليه أن يذكر كلمة السر: " كان أغيوس أنارغيروس سيدًا مصريًا ". فى نفس الوقت كان الإيطالى جوزيبى موجودًا بالمنزل ومعه رجلاً بولنديًا. حوائط عارية، غرف خاوية بدون أثاث، ومروحة سقف تصدر صريرًا عنيفًا أثناء دورانها، ومصباح معلق عجيب يسقط بين الحين والآخر متدليًا أمامهم كأنه دمية معلقة، ملفوف بأوراق زرقاء مما جعله يشع ضوءًا غريبًا كأنه بيت من بيوت البغاء الرخيصة.

استلقى أنجيلوس على إحدى المراتب القطنية وراح فى سبات عميق. ولحسن الحظ أن نيكيتاس كان قد تولى إطعامه، فالمنزل كان خاويًا من أية كسرة خبز واحدة. أما رجل الحرب الإسبانية المحنك فقد استلقى على أحد الكراسى الضخمة ليقضى الليلة بطريقة أو بأخرى. وعند الفجر استيقظ نيكيتاس مغادرًا المكان متوجهًا إلى عمله فى محل المرتهنات، وقد ترك ورقة لليونانى الشيوعى يبلغه فيها بأنه سوف يمر عليهم فى مساء اليوم التالى لكى يصطحبه فى جولة بالمدينة. لكنه لم يستطع أن يفى بوعده حيث أصيبت السيدة ماريا بأزمة تنفسية مفاجئة. وعندما ذهب إليه فى ظهيرة اليوم

الثالث كان "الرجل المهم" ينتظره على أحر من الجمر. فقد عاش ثلاثة أيام من الكسل التام بدون سجائر، وبالقليل من الطعام وزجاجة من شراب الزبيب [٢١] (ذكرها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية). طلب شيئًا ليقرأه فأعطوه مجموعة من روايات تشيكوف المدونة باللغة الإيطالية لكنه لم يستطع أن يفهمها. ورغم ذلك فقد كان يمسك بالكتاب بين الحين والآخر لكي يتصفحه وحتى يتملكه الشعور بأن الوقت يمضي.

«لم نتلق مثل هذه الرعاية حتى فى المنفى» قالها لنيكيتاس ساخرًا، وكان يعلمان أنه سوف يرحل إلى القاهرة بين يوم وآخر، ومن هناك سيغادر إلى بيروت ومنها إلى أورشليم. وقد حاول نيكيتاس على الأقل أن يجعل وقته يمر بشكل طيب حتى رحيله.

لقد لاحظ نيكتياس منذ البداية لهجة أنجيلوس اللاذعة وفكر فى أن يذهب به لمكان سيترك لديه إنطباعًا جيدًا بالتأكيد.

وكان نيكتياس قد اكتشف فى الحى العربى بالإسكندرية مقهى ينتمى كل مرتاديه إلى جزيرة كريت، حتى الجرسونات - بزيهم الوطنى، وأحذيتهم السوداء العالية والبنطلونات الضيقة والصديرى الذى كان المصريون يسمونه جيليه - كانوا يقدمون القهوة، فى حين يعزف اثنان من المصريين على" الربابة "(ذكرها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية) التى تشبه القيثارة - وهى آلة موسيقية كريتية - كانا يعزفان ويغنيان فى نفس الوقت. مصريون يرتدون الجلباب ويجلسون على مقاعد متهالكة يستمعون فى نشوة إلى الألحان الغريبة. وعلى الموائد المعدنية الصغيرة تجد الشاى الساخن فى حين كانوا يضمون الشيشة بين أرجلهم كأنهم يحتضنون أطفالاً صغيرة. لاحظ نيكيتاس أن العازفين كانوا يتوقفون فجأة ويقولون للجمهور " فلتحضروا فى الغد لنكمل لكم العزف". وفى إحدى المرات قرر نيكتياس أن ينصت جيدًا لما يقولون، وعندئذ اكتشف مفاجأة مذهلة، وهى أن العازفين كانوا ينشدون أجزاءً من أسطورة "أريتوسا" و"إيروتوكريتوس" اليونانية باللغة العربية. اكتشف موئيزيذاكيس، الذى كان يتحدث

(٢١) أى شراب الأوزو (المعروف باليونان).

بحنين عظيم عن بلده المحتل، فى هذه الأمسية أن حضارة وطنه قد ازدهرت فى هذا الوقت فى منطقة شعبية لمدينة تجمع فى سمتها بين كريت ومدن البحر الليبى. لم تشبه القهوة التى طلبها من قريب أو بعيد تلك القهوة التى يصنعونها فى اليونان المحتلة. كانت القهوة داكنة اللون، وثقيلة وبها نكهة عين الجمل ذات المذاق الطيب.

وعندما غادرا هذا المقهى الغريب، كان أنجيلوس متحمسًا، حتى إنه كاد يرقص طربًا رقصة البيندوزالى – وهى رقصة شعبية كريتية – على أرصفة الطريق فى الحى المصرى.

«مرحى أيها الرفيق نيكيتاس»، هكذا صاح أنجيلوس ثم استكمل قائلاً: «آه يا كريت، لتبقى خالدة أبد الدهر». وعندما عادا إلى ذلك المنزل الحقير بأبى قير لم يكن لدى نيكيتاس نفس هذه الحماسة، وقد واجه الأسوأ، حيث كان لزامًا عليه أن يغير المخبأ، وأن ينتقلا إلى منزل صيفى فى منطقة السيوف، حيث اضطر أنجيلوس للنوم على "حصيرة" (ذكرها باللغة العربية ودوَّنها بحروف يونانية) فوقها مرتبة مصنوعة من أوراق الموز، داخل القبو الموجود بحديقة المنزل. فى الجانب الآخر من المدينة، كانت صفارات الإنذار تدوى، حيث كان من المعتاد أن تبدأ زيارات الطيارين الإيطاليين إلى الميناء الغربية مع حلول الليل. وكان على " الرجل المهم " ذى الشعر الأشيب أن يكون على الأقل ممتنًا لأنه سينام نومًا هادئًا آمنًا، حيث كانت الإضاءة خافتة، ولم يكن هناك ما يدعو لأخذ احتياطاته بإظلام المكان. عندئذ حدثه نيكيتاس قائلاً:

«سأحضر غدًا فى المساء لألقاك»، ولم يعر نيكيتاس اهتمامًا بالطريقة التى ودعه بها أنجيلوس فاتحًا ذراعيه، فقد كان متعبًا وكان كل ما يشغله هو طريق العودة لمنزله.

عندما ذهب نيكيتاس للقائه فى اليوم التالى، قالوا له إن أنجيلوس موئيزيذاكيس الذى يعرف باسم ثراسيفولوس هيراكليذيس قد رحل إلى القاهرة.

* * * * *

فى إحدى أمسيات نهاية شهر يونيو من عام ١٩٤٢، بعد منتصف الليل، دق جرس الهاتف بإلحاح فى الصالون، وتردد صدى صوته بعنف فى سكون الليل، وكانت صفارات الإنذار قد توقفت منذ النصف ساعة. كان بوسع جرس الهاتف أن يدق طوال الليل، لو أن ذافنى، التى كانت فى ذلك الوقت قد أغلقت على نفسها القبو بصحبة مجموعتها الأثرية، لم تسرع الخطى على السلم شبه المظلم لترد على الهاتف الذى استمر جرسه يدق أكثر من عشرين مرة. على الجانب الآخر من الخط كانت هناك واحدة من صديقات ذافنى اليهوديات تخبرها باعتزامها مغادرة الإسكندرية فى الصباح الباكر بأول قطار، ثم قالت:

«لقد وعد روميل بأنه سوف يتجول على كورنيش الإسكندرية فى غضون الأيام القليلة القادمة. يقولون إنه لا يحب اليهود. "هل المسألة تتعلق بالعِرق؟"(قالتها بالفرنسية)».

عندئذ أشارت عليها ذافنى أن تتروّى قليلاً، إلا أن صديقتها بدت عليها شدة اليأس ولم تكن وحدها من تشعر بذلك.

كان سقوط طبرق المدوى فى يوم الحادى والعشرين من شهر يونيو، قد ترك شعوراً بعدم الأمان لدى الناس، وجعل الجميع يهرولون للبنوك مذعورين. وقد ذكرت مارتا (زوجة فابيو أدريانى مدى بنك باركليز) أن المسئولين عن البنك قد اضطروا لوضع ماكينة تحديد الأدوار، وهو ما يحدث لأول مرة فى فرعٍ من فروع أحد البنوك فى شارع شريف باشا، الأمر الذى لم يكن مألوفًا لدى العامة. بعض موظفى البنوك الذين تحملوا عبء العمل فى مثل هذه الظروف كانوا على استعداد لطرد أى شخص يحاول أن يتخطى دوره. كما اجتاحت أيضًا حالة من الذعر أولئك الجنود الذين كانوا قد وصلوا إلى الإسكندرية فى إجازة قصيرة لا تزيد عن يوم واحد فقط، وأخذوا يروون قصصًا عن الحصار الطويل لطبرق، وعن الألغام التى تشبه الصناديق المربعة والتى تم زرعها فى الصحراء، تلك الألغام التى كان يقوم بحراستها من يدعون أنفسهم " فئران الصحراء ". معارك متلاحمة، جثث ممزقة من جراء انفجار الألغام تم دفنها سريعًا

خوفًا من انتشار عدوى التيفود، ليالٍ مخيفة شديدة البرودة، حيث كان الموت الحتمى يمثل طوق النجاة الوحيد من هذه الآلام المبرحة ومن تلوث الجروح التى تؤدى إلى الإصابة بالغرغرينا، هكذا كان الجنود يروون حكاياتهم التى تفوق الخيال.

فى يوم التاسع والعشرين من شهر يونيو سقطت مرسى مطروح، وكان جيش روميل يشبه الطوفان الذى يجتاح فى طريقه كل شيء حتى يصل إلى الإسكندرية. وقد دأب الراديو وكذلك الصحف على نقل الأخبار الحزينة: «ستظل مصر تكافح للنهاية انتظارًا لوصول الدعم الحربى».

فى ذلك اليوم كتب كوستيس فى مذكراته: «ساد الذعر مدينة الإسكندرية، الأسطول، البحرية، ... إلخ. جميعها يغادر المدينة، النوادى والمنتديات الحربية مغلقة. أما عن الأمور الأخرى، فالحياة تسير بنفس الإيقاع الروتينى. كل يوم تذهب هايكى مع ابنتنا للاستحمام فى شاطئ جليم أو فى سيدى بشر، أما أمى فتنعش نفسها بشرب عصير الليمون هى وصديقاتها اللاتى تستضيفهن. اليوم سافر صديق والدى القديم، رجل البنوك السويسرى إيميل شتايجر. وكان قد أخبرنا بأنه سيحاول، مع بعض أعضاء الهيئة الدبلوماسية الفويسرية، الوصول إلى بلاده عبر سويسرا والبلقان».

فى ذات المساء ارتعد كوستيس عندما سمع صوت إلياس خورى عبر الهاتف يقول له:

إليـــاس: «إنى راحل، يا صديقى كوستيس، إنى راحل، " قبل أن يصبح الوقت متأخرًا بالنسبة لى" (قالها بالفرنسية)» هكذا تحدث إلياس وهو يلهث من فرط قلقه. كان يتصرف وكأن روميل سيدخل الإسكندرية من أجله هو وحده، عند ذلك، لم ينس إلياس أن يسأل عن هايكى: «ماذا تفكر أن تفعل مع زوجتك؟».

كوستيس: «ما المفروض أن أفعله؟».

– «أنت تعلم أكثر منى أن اليهود ليسوا من المفضلين بالنسبة للألمان».

– «معك حق، ربما كان من الأفضل أن نبتعد قليلاً عن الإسكندرية حتى تهدأ الأمور مرة أخرى. لكن لو.......».

- «بالطبع لابد أن ترحل، إنني أتساءل كيف لم تفكر فى ذلك الأمر حتى الآن. اسمعنى جيداً، بيروت هى الحل المثالى فى مثل هذا الوقت. سأكون هناك أنا أيضاً. لن يكون هناك ما تخشاه».

شعر كوستيس بالقشعريرة تجاه فكرة أن يأمن على هايكى بين يدى هذا اللبنانى الفاسق الذى لم يعرف إذا ما كان صوته يرتجف بسبب الخوف أم بسبب إعجابه بزوجته. وعندئذ قال له:

- «لا أعتقد أن هذا الاقتراح مطروحاً».

- «لكن كيف ذلك!».

- «فلتذهب أنت فى سلام، يا إلياس، وإذا ما احتجت شيئاً فسوف أبلغك، لتكن واثقاً من ذلك».

هكذا أنهى رجل صناعة الدخان اليونانى المكالمة، بينما أغلق اللبنانى التليفون، وعندئذ شعر كوستيس بأن الإسكندرية لن تعود كما كانت بدون إلياس خورى.

فى بداية شهر يوليو، سرت شائعات حول بانايوتيس كانيللوبولوس كان مفادها؛ أنه أغلق القنصلية اليونانية بالإسكندرية من خلال حواره التالى مع ميكيس سالفاغوس رئيس الجالية اليونانية:

كانيللوبولوس: «أنتم تتناقشون، أما أنا فأتحمل المسئولية».

سالفاغوس: «نحن لا نتناقش. فحسب، بل نعيش هنا أيضاً» هكذا أجابه ميكيس سالفاغوس من موقعه بوصفه رئيس للجالية اليونانية.

عندئذ أكمل نائب الرئيس نيكولاس فاتيمبيلاس قائلاً:

«إنكم تتركوننا مكشوفين سياسياً».

كانيللوبولوس: «أنا لا أسمح لأحد أن ينتقد الحكومة».

فاتيمبيلاس: «أنا لست أى شخص أما أنتم........»

تلقى كوستيس مكالمة هاتفية بنفس هذه الروح المضطربة من القنصل اليونانى جاءت على النحو التالى:

القنصل: «نحن راحلون، يا سيد خاراميس، الجميع يغادرون. هل ستبقون وحدكم؟».

كوستيس: «نعم، وحدى، يا سيد فالتيس».

– «لكننى لا أجد السبب حتى........».

– «لابد أن يكون هناك شخص ما عندما يدخل روميل. لن يكون تصرفًا مهذبًا منا إذا وصل دون أن يجد منا أحداً».

– «لديكم حس ساخر، يا سيد خاراميس، لكنى لا أعتقد أن هذا هو الوقت المناسب للمزاح».

– «المزاح دائمًا هو رفاهية الأقوياء، يا سيد فالتيس» هكذا أجابه كوستيس وتخيل ملامح وجه القنصل اليونانى الذى صمت لبرهة وكأنه كان يريد أن يتأكد من المغزى من وراء هذه الجملة، وبعد ذلك قال له بطريقة قاطعة:

– «حظ طيب إذن، يا سيد خاراميس».

– «إلى اللقاء، سيد فالتيس».

انتشر الذعر بين الناس كالوباء، وشرع كل من لديه القدرة المالية فى مغادرة المدينة بأسرع ما يمكن، وكان من بينهم العديد من اليونانيين. أغلقت المشاريع الواحد تلو الآخر وأصبح العاملون فى تلك المشاريع محاصرين فى مدينة الإسكندرية التى لم توفر لهم أية فرصة للنجاة، وأصبح مصيرهم مجهولاً. وفى الفترة الصباحية فقط استقبلت ذافنى العديد من الأصدقاء فى منزلها وقد بلغ عددهم ما يقرب من الثلاثين فرداً على الأقل. البعض أتوا لإلقاء التحية فقط، وآخرون يطلبون قرضًا من المال حتى يتمكنوا من الرحيل. وكانت ذافنى تسألهم دائمًا: «أين تظنون أنفسكم ذاهبين؟».

كثير منهم كان يفكر فى الذهاب إلى القاهرة أولاً ومن ثم الهرب إلى أى من دول الشرق الأوسط أو السفر إلى جنوب أفريقيا. وعندئذ كانت والدة كوستيس تقول لهم بإصرار: «ولكن ألن يصيبكم التعب من لعبة الاستغماية هذه مع روميل؟».

أما كوستيس الذى كان منزعجًا من هذه الحالة برمتها، فقد دُعِيَ إلى اجتماع عاجل بالمصنع، حيث نقل إليه رئيس العمال المخاوف التى تراود عمال المصنع. وفى إحدى الطرقات أمسك بيده أحد الموظفين، الذى كان والد كوستيس قد قام بتعميده فكان له بعض من الدلال عليه، وقال:

«ماذا قررتم، أيها الرئيس؟» هكذا سأله وهو يرتعد من فرط القلق.

كوستيس: «لن يرحل أحد يا نيكولاس. المدينة بحاجة لنا جميعًا. لن يغلق المصنع. ولن يدخل الألمان أبدًا إلى الإسكندرية».

تأثر الموظف بشدة بكلمات كوستيس، الذى انحنى وقبَّل يده فى ردة فعل عفوية، لذلك لم ينزعج كوستيس ولكنه ربت على رأسه وقال:

«ألم يكن والدك الروحى ليفعل نفس الشىء، يا نيكولاس؟».

نيكولاس: «هذا ما كان سيفعله، يا سيدى».

فى نفس اليوم قام كوستيس بسحب مبالغ مالية ضخمة من البنوك تحسبًا لأى احتمال. لم يكن يفكر فى أسرته فقط، ولكنه كان يفكر أيضًا فى مصنع العائلة. لأن الألمان إذا ما دخلوا الإسكندرية، فسوف تكون أول مهمة يقومون بها هى إما إغلاق المصنع أو حظر العمل به لأنه كان يتعاون مع الإنجليز. وفى غضون يومين كان قد أعد مظاريف يحتوى كل منها على مرتب ستة أشهر لكل عامل بالمصنع. لكنه لم يقم بتوزيعها. فقد كانت لديه الرغبة فى استنفاد كل لمحة تفاؤل. كما وضع كوستيس فى اعتباره أيضًا أن القيمة المالية لمجوهرات والدته وزوجته يمكن أن تكفيهم لفترة زمنية طويلة. وإذا دعت الحاجة فسوف يضطرون للتصرف فى مجموعة الآثار المصرية. ولكن حتى هذه اللحظة لم يكن بوسعهم أن يفعلوا أى شىء سوى الانتظار.

لم يكن الجميع يفكر بنفس الطريقة. ففى يوم الثلاثاء الأول من شهر يوليو عام ١٩٤٢، كان نيكيتاس يتجول وحده فى شوارع الإسكندرية الخالية، وهو على يقين من أنه لو أراد أحد أن يرى شخصًا آخر فى ذلك اليوم، فما كان عليه سوى التوجه إلى محطة القطار حيث يحتشد الهاربون اليائسون. فى ذلك الأسبوع كانت الطائرات الحربية الألمانية تقصف الميناء الغربية بعنف، وأصبحت بمثابة الشبح الذى يطارد سكان المدينة كل ليلة. ولم تكن القنابل فقط هى ما يسبب لهم الذعرالشديد، فقبل يومين فر الأسطول البريطانى عبر البحر المتوسط هاربًا إلى موانئ أخرى. ما الذى يمكن أن يعنيه ذلك سوى أن بريطانيا قد فقدت سيطرتها على مصر؟ عندما عاد نيكيتاس إلى منزله، قام بالاتصال بابن عمته قائلاً:

نيكتياس: «يا ابن العمة (قالها بالفرنسية)، يخيل إلىَّ أنه فى غضون وقت قصير سوف نصبح وحدنا فى المدينة».

كوستيس: «ألا تسعد بهذا؟ ستصبح الإسكندرية كلها ملكًا لنا» هكذا أجابه وضحكا معًا، وربما كانا يضحكان حتى يشجع كل منهما الآخر.

– «الأمور ليست على ما يرام، " فصناع المكرونة " الإيطاليون يجهزون الأعلام، ويستعدون لاستقبال روميل، وفى العديد من المحلات تجد لافتة مكتوبًا عليها (بالألمانية)" مرحبًا روميل"».

– «عندما ينتهى كل ذلك لابد أن يعلقوا أصحاب هذه المحلات أنفسهم مكان كل لافتة من هذه اللافتات، حتى يصبحوا عبرة للآخرين».

– «حقًا، "يا ابن العمة" (قالها بالفرنسية)، هل ما زلت تعتقد أن الإنجليز سوف يوقفون روميل؟».

– «أستحلفك بربك، "يا ابن الخال!"(قالها بالفرنسية)، بالطبع أؤمن بذلك».

– «آه، عندئذ ستكون أنت الوحيد الذى يرى ذلك، ولكن إذا ما اشتدت الأزمة أكثر من ذلك، أرى أنه لابد من شراء اثنين أو ثلاثة كيلو جرامات من "الجوافة"

(قالها باللغة العربية ودوّنها بحروف يونانية) والبلح، ولا مانع من كرتونة كاملة من السجائر، ثم أهرع إلى الصفوف الأولى لتوزيعها على جنود جيش التحالف مثلما يفعل كل الإيطاليين فى مدينتنا. فربما ينظرون إلىّ نظرة عطف عندما يصبحون السادة الجدد لمصر».

– «يا للعار، يا ابن الخال (قالها بالفرنسية). أتقول ذلك ولك قريب فى الحرب؟».

– «دع جانبًا هذا المسكين ثاناسيس الذى يرغب الإنجليز الطيبون أن يجعلوه طيارًا، هكذا ببساطة. ماذا نقول إذن!».

– «وسنرى أمورًا أغرب من ذلك أيضًا، يا نيكيتاس».

– «بالمناسبة (قالها بالفرنسية)، هل تعلم أنه قد تم القبض على الآنسة جابى وأخيها بالقاهرة؟».

– «لا. لم يخبرنى أحد بذلك، من أين علمت ذلكم؟» قال ذلك كوستيس متلهفًا.

– «لقد قرأت ذلك فى جريدة " تاخيذروموس"، حدث هذا منذ عدة أيام، لكنى نسيت أن أخبرك بذلك».

– «لماذا إذن؟».

– «يبدو أنهم فى محاولة منهما للعثور على المال لمغادرة مصر قاما بمحاولة بيع تمثال فرعونى لرجل أرمينى. وعندما أدرك الرجل أن التمثال بلا قيمة قام بإبلاغ الشرطة. لقد وقعا فى ورطة كبيرة».

لم يسعد كوستيس بهذا الخبر الذى سمعه، فعندما أقنع أمه منذ سنوات أن تفصلهما، حرص الأخوان قبل رحيلهما على أن يأخذا معهما أحد التماثيل المصنوعة من العاج، والذى كان تقليدًا لأحد التماثيل التى تنتمى لعصر ما قبل الأسرات، كانت ذافنى قد رأته فى متحف تورينو. فقط شخص أحمق مثل الآنسة جابى هو الذى يمكن أن يختار مثل هذا التمثال جيد التقليد من مجموعة ذافنى الثمينة الموجودة فى شارع

العباسيين، وقد أحست السيدة خاراميس بالارتياح بعد سماعها هذه الأنباء. وكان كوستيس يشعر بالقلق تجاه هذا الحدث غير المتوقع.

ذافني: «من فضلك، يا كوستيس، العالم هنا يحترق وأنت تشغل نفسك بالآنسة جابى وأخيها!».

كوستيس: «يا أمى، ألم تدركى خطورة الموقف؟ لو أنهما تحدثا عن التمثال، فلن تسير الأمور بشكلٍ جيد بالنسبة لنا».

- «رائع، فليقولوا إنهم استوليا عليه من منزلنا، ثم ماذا بعد؟ "هذا أفضل بالنسبة لنا"(قالتها بالإنجليزية)».

- «لم أفهم مقصدك، يا أمى».

- «هذا هو الأفضل. لأن الجميع سوف يعلمون أن مجموعة والدتك الأثرية ذات السمعة العالية ليست سوى نماذج مقلدة».

- «أعترف بأنى لم أفكر فى الأمر بهذه الطريقة».

- «آه، يا عزيزى كوستيس! عادة ما تكون هادئًا وثابتًا، لكنك فى بعض الأحيان تغرق فى شبر مية!».

فى تلك اللحظة كان الراديو يذيع للمرة الألف الأنباء الملحمية للأيام الأخيرة:

«ستظل مصر تكافح للنهاية، انتظاراً للدعم العسكرى».

فقدت إيفيت صوابها عندما رأت هايكى فى النادى الواقع بشارع كورينثوس فى مساء يوم الأول من شهر يوليو. لقد ظهرت هايكى بشكلٍ أجمل مما كانت عليه، وهى ترتدى تاييراً بلون الكريم وقبعة، كان وقع حذائها ذى الكعب العالى يتردد صداه فى كل مكان وهى تسير على الأرضية الرخامية، كانت كأنها تقدم عرض أزياء فى الطرقة الضخمة للمبنى. وعندئذ صاحت إيفيت وهى تمسح على خدها بيدها:

إيفيت: «ماذا تفعلين هنا؟».

هايكي: «ماذا أفعل؟ أتيت للمساعدة فى إغلاق النادى».

- «أحقًا ما تقولين! (قالتها بالفرنسية). كنت أعتقد أنك قد رحلت. ربما تكونين اليهودية الوحيدة التى ما زالت حتى الآن فى الإسكندرية».

- «ربما (قالتها بالفرنسية). لكن زوجى ما زال يصر على أنه لا يوجد سبب يجعلنا نغادر المدينة».

- «ماذا تقولين! فالشائعات تنتشر بسرعة، لقد خسرت بريطانيا مصر. لماذا تعتقدين إذن أننا نغلق نادى قوات التحالف؟ إنهم يقومون بحرق أطنان من الملفات السرية فى كل المصالح الحكومية. أبحر الأسطول.. ما الذى يمكن لأى شخص أن يراه غير ذلك لكى يصدق ما حدث؟».

- «إن كوستيس يؤكد لى أن..........».

- «كوستيس ليس معرضًا للخطر مثلك، يا عزيزتى، قد يقومون باحتجازه فى أحد المعسكرات بأوربا. لابد أن ترحلى بأسرع ما يمكن من مصر، "بأسرع ما يمكن، هل تفهمين ذلك "؟ (قالتها بالفرنسية)».

- «وأين أذهب؟».

- «إلى أى مكان».

- «لا أظن أن كوستيس سيوافق».

- «لا، يا مسكينة، كوستيس. كوستيس، اهتمى بنفسك أولاً» هكذا صاحت إيفيت غاضبة.

- «لا تنسى أن هناك طفلة تربطنى به، ماذا سيكون مصير صغيرتى ذافنى بعيدًا عنى؟»

- «الطفلة جدتها وأبوها. لا ينبغى أن تقلقى بشأن أحد سوى نفسك. ففى نهاية الأمر أنت يهودية وسط العائلة».

- «حقًا، لا أعتقد أن كوستيس سيوافق».

- «فليذهب كوستيس إلى الجحيم،إهربى إذن دون أن يعرف».

- «ماذا تقولين؟ أنا لا أملك مليمًا واحد. أين سأذهب وأنا مفلسة؟» قالت هايكى ذلك متذمرة.

- «خذى مجوهراتك معك. امرأة فى مكانتك يمكنها أن تعيش لسنوات طويلة من عائد بيع مجوهراتها، ومن جهة أخرى، فأنا موجودة إذا احتجت شيئًا. هل تعتقدين أن إيفيت ستتخلى عنك؟».

- «ليس من السهل اتخاذ مثل هذا القرار».

- «أعلم ذلك (قالتها بالفرنسية)، لكن الأمور ستصبح أكثر تعقيدًا لو دخل الألمان إلى مصر منتصرين، وعندئذ أتمنى أن أرى كيف سيتمكن كوستيس من إنقاذك أيتها المسكينة هايكى».

عند ذلك الحد من الحوار وضعت إيفيت كفها على رقبة صديقتها، وحركت أطراف أصابعها لتلامس جسدها كله حتى نصفها السفلى، انتفضت هايكى مذعورة.

- «سامحينى، فأنا أحيانًا لا أستطيع أن أتمالك نفسى».

- «نعم، أنت أحيانًا ما تبالغين».

- «أتعدينني بأن تفكرى فى الأمر؟».

- «هذا وعد منى بذلك (قالتها بالفرنسبية)، والآن إلى العمل، هيا».

قالت ذلك مدام خاراميس ثم خلعت الجاكت بطريقة تنم عن ثقتها بنفسها، وكأنها كانت تدرك أن ضوء الظهيرة كان يزيد من جمالها المبهر.

* * * * *

بعد مرور يومين من هذا اللقاء، بحث كوستيس دون جدوى عن زوجته التى هجرته بعد أن تركت له خطابًا يحمل وعودًا غير واضحة بالعودة، لم يكن كوستيس يتخيل أنها تختبئ فى تلك اللحظة فى منطقة " غيط العنب، بالبر الثانى"(ذكرها بالعربية ودوّنها بحروف يونانية) فى الجهة المقابلة من ترعة المحمودية. كانت هذه المنطقة تتصل بالمدينة عن طريق أحد الكبارى المعلقة الذى يفتح فى أوقات محددة لعبور المراكب الشراعية من القناة. وهى منطقة شعبية يعيش فيها العديد من اليونانيين، ومن بينهم ذلك البستانى الذى كان يعمل فى فيلا إيفيت فى لوران، ويدعى مانوليس كوتسوكيس. تولى مانوليس عملية إخفاء هايكى فى مقابل مبلغ كبير من المال، على أمل أن يتمكن بمثل هذا المبلغ الضخم من مغادرة الإسكندرية مصطحبًا أسرته.

لم يكن قرار هايكى قرارًا مفاجئًا لإيفيت. فقد تسببت النزوة الغرامية التى وقعت بين كوستيس والسوبرانو القادمة من تشيلسى فى نوفمبر الماضى فى سقوطه من نظر زوجته، ومنذ ذلك الحين وهما ينامان منفصلين. كان الوضع بينهما قد أصبح متأزمًا لدرجة لم تتخيلها أمه، التى كانت عندما ترغب فى مداعبته تقول له: لو أن أندونيس مازال على قيد الحياة لشعر بسعادة بالغة وهو يرى أن هناك غرفة أخرى قد تم استخدامها من الغرف الإحدى عشرة بالمنزل. لقد سببت علاقة كوستيس بتلك الممثلة المسرحية فى وضع الأسرة كلها فى موقف حرج، تلك الأسرة التى لم تكن قط معصومة من الخطأ، والتى كانت تحاول دومًا أن تخفى عيوبها. وكانت هذه هى حال كوستيس الذى لم يدرك أن بعض الأمور ينبغى أن تظل فى الخفاء، ولذلك فقد دفع الثمن غاليًا.

الآن يجلس حزينًا أمام إحدى الصور العائلية الحديثة التى التقطت له ولزوجته ولابنتها فى أتيليه فيرونا تريخانذاكيس. كان يقف خلف زوجته وابنته، معلقًا إبهام اليد اليمنى خارج جيب الصديرى بكل ثقة. فى حين كانت هايكى تجلس جلسة عارضة أزياء وهى ترتدى فستانًا أسود وقبعة بيضاء، أما ابنتهما فكانت تقف أمامه مرتدية رداءً أبيض اللون ناعم الملمس، بينما تعلو وجهها ابتسامة رقيقة، ابتسامة تعكس مدى سعادتها. أين ذهبت إذن كل تلك السعادة العائلية؟ أم أنها كانت من صنع المصور، أو تخيلاً للحظة لا تمت لواقع حياته بصلة؟

كم كان يود أن يصدق وعدها بالعودة عندما كتبت له فى خطابها (بالفرنسية) «سوف أعود بكل تأكيد فقد أصبحت جزءًا من هذه المدينة». إلا أنه كان يشعر بداخله أنها لن تعود، ولأنه لم يكن مستعدًا لمثل هذا الاحتمال، فقد أخذ يبحث عنها فى كل مكان كالمجنون، حتى إنه طلب يومًا من خاريتومينى أن تقرأ له الفنجان لعلها تخبره بمكانها.

كان الشىء الوحيد الذى يواسيه فى موضوع اختفائها هو؛ أنها اختارت أن تهجره فى الوقت الذى كان الجميع يغادرون فيه المدينة بسبب الخوف من روميل، وكان هذا كافيًا ليبقى أفواه الناس مغلقة، ولكن إلى متى؟ وفى إطار الخوف الذى يجتاج المدينة، كان كوستيس يتعايش مع خوفه، حتى إن الأمر وصل به إلى أن يتمنى انتصار الألمان، يكفى أن يحدث شىء، أى شىء يغطى على خيانته باعتباره زوجًا.

ولكن فى ذلك الحين، بدت الأمور وكأنها قد اتخذت أبعادًا مختلفة. فعلى الرغم من أن معركة العلمين الأولى استمرت حتى السابع عشر من شهر يوليو، فإنه كان من الواضح أن روميل لن يستطيع الدخول إلى مصر. وبالفعل تمت إعادة فتح نادى الحلفاء مرة أخرى فى شارع كورينثوس، ومنذ الخامس من شهر يوليو حتى العشرين من نفس الشهر، نما إلى علمه عودة كل من كان قد غادر الإسكندرية إلى القاهرة منذ بداية الشهر.

فى تلك الأثناء، كانت هايكى المختبئة فى منطقة غيط العنب، تسمع أصوات المدرعات وأصوات القصف، الذى يحمله لها هواء مصر، مما جعلها تعتقد أنها مسألة أيام حتى يتحقق غزو الألمان للإسكندرية. وفى يوم الثامن من شهر يوليو، عندما التقت إيفيت للمرة الأخيرة فى المكان المتفق عليه للرحيل، أخفت عنها إيفيت أنباء عودة نادى قوات التحالف للعمل وتركتها ترحل، وهى تظن أن الأمور أصبحت فى غاية السوء. كانت هايكى تشعر أنها قفزت فى اتجاه المصير المجهول، وكان عزاؤها الوحيد هو تلك المشغولات الذهبية والفضية التى كانت تحملها معها فى حقيبتها. لقد حانت لحظة مغادرتها لهذه المدينة الملعونة أخيرًا، وبدأت تنمحى من داخلها بالتدريج ملامح المنازل، حتى أصبحت خيالات وأشباحًا لماضٍ تركته خلفها بلا عودة.

لم تكن هايكى قد تركت مجرد مدينة يعيش فيها مئات الآلاف من البشر، لكنها تركت أولاً وقبل كل شىء طفلتها الصغيرة ذافنى التى كانت تبحث عنها فى الأيام الأولى، وكانت تستيقظ من نومها فزعة وتجرى فى طرقة المنزل كالمجنونة، فى حين يعدو خلفها وأمامها كلبها الصغير كثيف الشعر، فريكسوس، الذى كان كوستيس قد أهداه لها فى محاولة منه لتعويضها عما لحق بها من أحزان، ومن خلفهما تجرى المربية ميس جين وهى شبه نائمة، محاولة تهدئتها. كما تركت هايكى أيضًا زوجها على حافة اليأس. فلم تكن قليلة تلك الأوقات التى قضاها كوستيس ساهرًا بعد انتهاء القصف الجوى وهو يدخن السجائر فى حجرة الصالون المظلمة، كما لو كان ينتظر حدوث شىء ما. كانت أمه ترقبه من بعيد لكنها كانت تعود أدراجها إلى غرفتها بعد شعورها بالإرهاق، عندئذ يبقى كوستيس وحده مع خيال خاريتومينى المندس فى الظلام، مستمعة إلى أصوات القنابل التى تسقط على منطقة العلمين وهى تفكر فى ابنها، ومن حسن الحظ أن فوتيس لم يكن يحارب روميل فى الصحراء.

* * * * *

بعد أن تلقى كوستيس صدمة الأيام الأولى؛ بدأ ينظر للأمور بشكل مختلف، فلم يكن حبه لهايكى أو حزنه على تلك المجوهرات التى استولت عليها قبل رحيلها يمثلان له شيئًا أمام كرامته الجريح؛ ولم يترك له خوفه من تشويه سمعته فى مجتمع الإسكندرية الفرصة لأية احتمالات أخرى. وكان عليه أن يفكر سريعًا فى كيفية تهدئة الأمور والنجاة من ألسنة اليونانيين بالإسكندرية، الذين بدأ معظمهم فى العودة مرة أخرى إلى المدينة بعد الذعر الشديد الذى انتابهم. ومع نهاية شهر يوليو أيقن كوستيس أن روميل لن يدخل الإسكندرية، كما أيقن أن هايكى لن تعود إليه مرة أخرى، بل ستعيش للأبد فى وطنها الجديد – فلسطين، عندئذ قرر تنفيذ ما خطط له بهدف إنقاذ كبريائه باعتباره رجلاً.

كانت البداية بخطاب أرسله كوستيس إلى إلياس خورى. كان " اللبنانى" موجودًا فى وطنه، وكانت عودته إلى الإسكندرية مسألة وقت، على الرغم مما كان يبديه فى

خطاباته من وجهة نظر مثالية تجاه بيروت. فوفقًا لما ذكره إلياس، لم تكن الحرب الشرسة فى شمال أفريقيا سوى صدى صوت ضعيف يتردد فى مدينة بيروت ذات الطابع الفرنسى، بل وتشبه باريس إلى حدٍ كبير فى عصرها الذهبى فى فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، إنها مجرد ميناء فى منطقة الحرب بالبحر المتوسط. كانت المدينة المتلألئة تمثل تحديًا متناقضًا مع مصر التى تعيش فى ظلام، كقطعة من الماس ينعكس وهجها على حياة الليل فى سماء لبنان. النساء، الأضواء، الكباريهات، فرنسيين ولبنانيين بثرواتهم الضخمة يمثلون إغراء ضخم لمواطن عالمى مثل إلياس خورى. وقد كتب إلى كوستيس قائلاً: «هنا من السهل لأى شخص أن يكتشف كيف يصبح ثريًا من خلال حرب دامية كتلك التى نعيشها». وهى نفس الجملة التى كان دائمًا ما يكررها فى خطاباته لإيفيت. ولم يكن بوسع أحد أن يصدق أن هذا الرجل الذى كان بمثابة ضمير الإسكندرية الحى، سوف يتخلى بسهولة عن المدينة التى احتضنته.

وهكذا كتب كوستيس، الذى أبدى اهتمامًا كبيرًا بالثرثرة اللامتناهية، إلى إلياس قائلاً: «إلى هنا يكفى، يا إلياس، إنها النهاية! لقد كنت محقًا عندما قلت ذات مرة "اليهود مع اليهود والمسيحيون مع المسيحيين". لا داعى لأن أدفع ثمن خطأ فعلته منذ سنوات بعيدة بالسباحة ضد تيار المجتمع. كانت نفسى تحثنى دومًا على التخلص منها بأى ثمن، على الرغم مما قد يسببه ذلك من تأثير نفسى على طفلتى. وقد يكلفنى الانتظار لفترة أطول الكثير، فى هذه الحالة، وفى كل الأحوال، فلا أشعر بالرغبة فى تربية طفلة يهودية طبقًا لرغبات وأمر مدام هايكى. كما لا يمكننى معاداة الأسد البريطانى من أجل تطلعاتها الصهيونية. لقد عوضتها عن " السنين الضائعة"، وأرسلتها قبل موعدها إلى وطنها الجديد، حيث كانت روحها تهفو للحياة به. وفى النهاية، حتى لو لم يعجبنا هذا، فالاختلافات الدينية لا سبيل لحلها، ولو أردت التفكير فى الزواج من جديد، فتأكد من أننى سوف أختار فى هذه المرة فتاة من مدينتنا: مسيحية يونانية "إن أمكن" (قالها بالإنجليزية)...».

انتشرت فى الإسكندرية الشائعات التى تقول بأن كوستيس قد استفاد من تهديد روميل لكى يتخلص للأبد من زوجته اليهودية بسرعة فائقة. هكذا وجد على الأقل تفسيراً لقصته الرومانسية الجريئة مع السويرانو الإنجليزية فى شهر نوفمبر الماضى. أما زوجته الهولندية اليهودية، فعلى الرغم من كل شىء، فقد نالت إعجاب رجال الطبقة الراقية، وكانت تهدد مصالح زوجها بتطلعاتها الصهيونية ونالت فى النهاية ما كانت تستحقه.

ورغم كل ما قيل، فقد كان هناك شخص واحد على الأقل فى الإسكندرية على دراية تامة بحقيقة الأمر، ولم يكن هذا الشخص سوى إيفيت، التى قرت عينها بهذه النتيجة، ولكن لم يكن باستطاعتها أن تصرح علانية بحقيقة ما حدث. ولم يتبق لها سوى تلك الذكرى الخالدة التى مازالت عالقة بأذهانها لتلك الليلة الممتعة التى عاشتها فى فيلتها بلوران مع تلك المرأة الفاتنة(*).

* * * * *

فى فجر يوم العاشر من شهر مايو لعام ١٩٤١، استيقظ دكتور ماخوس على حلم مزعج، وقد انتابه شعور غريب بأنه، لأول مرة بعد كل تلك السنين من الجبن، يفتح عينيه ليرى فجر ذلك اليوم. فهمس لنفسه بشكلٍ غير معتاد قائلاً: «أمى، أبى، إيريك!». وكان يعتقد أن أندونيس والبارون إيريك شولتسير قد وجدا سبيلاً للعودة من عالم الأحلام، وأن أرواحهما كانت تهيم داخل الحجرة شبه المعتمة. وقبل أن ينتفض من فراشه، رأى والده بوضوح وهو يعبر الضفة الأخرى من النهر، مرتدياً ملابس النوم البيضاء، حتى بدت كالقميص الذى يرتديه المحامون، وقد أشار إليه لكى يتبعه. كانت إحدى رايات النازية تخفق، وقد حلت صورة إيريك محل الصليب المعقوف. لقد ترك به هذا الحلم انطباعًا قويًا فى ضميره الناعس، وعندما أشعل سيجارته الأولى، بدأ يحرك عود الكبريت فى يده يمينًا ويسارًا، باحثًا عن ظل أبيه فى جنبات الغرفة المظلمة. لكنه لم يجد بالغرفة سوى أثاث بارد يلتهمه السوس طوال الليل محدثًا صوتًا كئيبًا يشق الصمت التام. أخذ ماخوس نفسًا عميقًا من السيجارة، وبدأ ما كان يشعر به يتبخر

فى الهواء مع سحابة دخان سيجارته الأزرق. لكنه فى نفس الوقت انزعج من التفكير قائلاً لنفسه: «كم عامًا مضت علىَّ وأنا نائم؟».

بعد ذلك مباشرة حاولت نفسه أن يقاوم هذا الفكر. وقد سمع صوتًا بداخله يقول: "أفق، هيا، فليس من المعقول أن تنام أعوامًا". وبالفعل فقد سيطر عليه إحساس بأنه قد استغرق فى النوم أعوامًا طويلة.

فى ذلك الوقت، كانت مدينة أثينا غارقة فى سباتها العميق، وقد مرت أيام قليلة منذ أن تولت قوات المحور قيادة هذه الدولة المتخلفة عن خطوات العالم المتحضر، وكان من الطبيعى أن تظل صيحات المعارضين تعلو، لكنها -لحسن الحظ- كانت أصوات قليلة تتردد فى الأفق كلحن شاذ وسط هذا التناغم الذى حاولت قوات الاحتلال أن تفرضه بكل صرامة. ووفقًا لما يراه دكتور ماخوس، فقد ولت الأمور السيئة، ورغم ذلك فقد أدت بعض العمليات الحربية إلى تورط العاصمة بقسوة وخاصة منطقة ميناء بيريه وضواحيها، وكان من الضرورى التعامل معها بطريقة تشبه التعامل مع العمليات الجراحية التى تتبعها بعض المضاعفات. وقد ساعده انشغاله بالفلسفة لزمنٍ طويل، بطريقة أو بأخرى، على التأمل فى مثل هذه المتغيرات والنظر إليها برؤية واضحة.

الآن وقد أصبح النصر مكتملاً، وعادت الحياة من جديد لإيقاعها الطبيعى، باتت الماكينة الألمانية المذهلة على وشك أن تضع نظامًا للمجتمع، معطية بذلك مثلاً لمحدثى النعمة من مواطنى هذا البلد. ساد قانون الأقوى، وهو أمر طبيعى، غير أن القوى فى هذه المرة قد جاء من أجل الإصلاح وليس من أجل القضاء على الضعيف. كانت اليونان بلا شك على وشك الدخول إلى عصرٍ ذهبى، عصر لم تعرفه اليونان منذ القدم. ولم تجد العظمة النازية مكانًا ملائمًا أفضل من إقليم أتيكا بحضارته التى ترجع إلى ما قبل التاريخ. لقد تقبلت مهد الحضارة الأوربية فى النهاية عظمة النازية - ألمانيا الجديدة- معجزة أدولف هتلر وأعوانه؛ وكان دكتور ماخوس، الذى يعد بجسده وروحه حفيدًا للإغريق القدماء، حاضرًا من أجل تسليم وطنه للمنتصرين. من الآن فصاعدًا سيسير الجميع فى ركب العالم الجديد، حيث سيتحقق نموذج نيتشه الخارق بطريقة

لم يتخيلها نيتشه نفسه. عندما كان ماخوس يعيش فى ألمانيا، تناقش مراراً حول هذا الموضوع مع الأستاذ هايديجير، وتوصل إلى أن النظريات الفلسفية ستظل مجرد أيديولوجية مصطنعة إذا لم يتوفر لها الوقت لتتحول إلى واقع بفضل تطلع بعض رجال السياسة العباقرة. ومن جانبه كان ماخوس قد كتب عن هذا الموضوع فى رسالة الدكتوراه التى قدمها بعنوان «نيتشه والمصادفة السعيدة لجنون العظمة»، حيث أثبت أن الفيلسوف الألمانى نيتشه ستتم مواجهته بتهمة الجنون إذا لم يحالفه الحظ ويجد فى شخصية أدولف هتلر القائد الذى سيطبق ويطور مبادئه للعالم وللإنسان.

لقد أصبح الدكتور ماخوس ينام بضمير مستريح بوصفه المفكر الذى كان واثقًا من صحة أفكاره، إلى أن جاء هذا الحلم الغامض لكى يعصف بهذا الثبات الذى اكتسبه فى حياته بصعوبة، ولكى يكدر عليه صفو نفسه بهذا الإحساس المخيف. وفى اللحظة التى خرج فيها إلى الشارع، كانت الشمس قد بدأت فى الشروق على شارع بيذيليس، وقد صبغت الأفق بلون وردى." إلى أين تسرع هكذا مبكرًا؟" هكذا حدثته نفسه، وكأن هناك من يسحبه من يده. وبينما كان يسير بلا وجهة محددة، كان يستحضر فى عقله الحلم. كان يحاول أن يفهم ما الذى أفزعه إلى هذه الدرجة من هذا الحلم وأقض مضجعه. وعلى الرغم من نفوره من فكرة رؤية والده الميت، فإن ظهوره فى أحلامه لم يكن مفزعًا. لا، لم يفزع ماخوس من رؤية والده بملابسه البيضاء بقدر ما أفزعه ارتياحه لرؤية والده. نعم، لم يكن يسمح لنفسه بشىء من هذا. فقد كان أندونيس خاراميس رجلاً طاغية، مجردًا من المشاعر تجاه أبنائه، ولم يشف موته غليلهم. وكان صدام ماخوس مع هذا الطاغية بمثابة حجر الأساس فى منهجية تفكيره. حتى لو استطاع دحض هذه العداوة، فقد كان لزامًا عليه أن يغير أمورًا كثيرة فيما يخص عالمه وأناسه. كان لزامًا عليه أن يعترف بأنه كان مخطئًا طول تلك السنين، وأنه تسبب فى ضياع نصف حياته سدى، وكم كان ذلك بالنسبة له أمرًا مفزعًا.

وبينما كان ماخوس يبحث لنفسه عن تفسير مقنع، مرت بذهنه فكرة أن هذا الرجل الذى رآه فى الحلم لم يكن سوى رودولف إس – وليس والده أندونيس– عندئذ

تذكر أن إس كان يمارس عليه نفس سلطات الأب. فإذا ما قام باستبدال أندونيس خاراميس بنائب هتلر، عندئذ سيصبح للحلم تفسير مختلف تماماً، إلا أنه لن يقل فى درجة فزعه. ففى الجانب الآخر من هذا النهر، ترفرف راية البارون شولتسير المعادية لهتلر، ولابد أنها إشارة لأمر عدائى، أمر معلن. أما إس وإيماءته فقد حثته بشكلٍ غير مباشر على أن يعيد التفكير فى موقفه واختبار ثقته. لكن لو كان من الضرورى أن يفعل ذلك، فهو بمثابة اعتراف صريح منه بأن كل محاولاته طوال تلك السنين قد ضاعت سدى، وأن اختياراته وتطلعاته قامت بتنبيه ضميره، مما جعله الآن يعانى من محاولة الاستيقاظ المؤلمة. كان هذا هو التفسير الوحيد لفكرة أنه نام لعدة أعوام. لكن لماذا يكون رودولف، المرشد الروحى الأول له، هو من يحثه فجأة على إعادة التفكير فى موقفه؟ هذا ما سوف يكتشفه على امتداد هذا اليوم الذى بدأ منذ قليل.

وفى تلك الأثناء، كان عليه أن يعيد التفكير فى العديد من الأمور. فلم تكن قد مرت أيام كثيرة على دخول الجنود الألمان بالموتوسيكلات والسيارات المغطاة بالتراب بردائهم الأخضر الفاتح إلى العاصمة، حتى بادر دكتور ماخوس فى البداية باستقبالهم باعتباره رجلاً محترماً، وكان حاضراً أثناء توقيع اتفاقية الاستسلام فى مقهى حقير بمنطقة أمبيلوكيبى. ومنذ ذلك الحين انخرط فى نشاط عنيف من أجل تأمين تأقلمهم مع الأوضاع الجديدة، فقد قام بتدبير أماكن الإقامة، وسائل المواصلات، إمدادات الطعام لقوات الاحتلال. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد قام بدافع المسئولية بتقديم اقتراحاته للقيادة الألمانية بخصوص إنشاء هيكل حكومى جديد تحت قيادة تسولاكوغلوس. ولذلك قام بزيارة رئيس الأساقفة خريسانثوس وطلب منه، فى حضور قائد الحزب النازى وقائد الحامية الألمانية بأثينا والملحق العسكرى بالسفارة الألمانية، أن تؤدى الحكومة قسم الولاء. ثم قام بعد ذلك باصطحاب المحافظ أمفروسيوس بليتاس إلى فندق "بريطانيا العظمى"، حيث استطاعا الوصول إلى حلٍ مرضٍ بمساعدة قائد الجيش الألمانى وقائد الحامية الألمانية بأثينا من أجل عودة المصالح الحكومية للعمل. «بدون مساعدتكم الثمينة لم يكن بمقدورنا تحقيق كل هذه الإنجازات فى غضون أيامٍ قليلة» هكذا حدثه القائد الألمانى فى النهاية وهو يشد على يديه. أهناك تقدير أفضل من ذلك؟

فى تلك الأثناء، كان عقله يعمل دون توقف لإيجاد حلول لكل مشكلة تطرأ على باله. فى أحد هذه الأيام التقى بالمصادفة فى شارع أكاذيمياس أحد زملاء الدراسة القدامى بالإسكندرية، وهو كيموناس فالساميس الذى يعمل موظفًا فى " شركة المياة ". إلا أنه لم يتذكره أو ربما تظاهر بذلك، فقام ماخوس بإمساكه من مرفقه وأجبره على الوقوف، وقال له:

ماخــوس: «فالساميس، بحثت عنك فى السماء فوجدتك فى الأرض أخيرًا، "إزى الحال" (قالها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)».

فالساميس: «الحمد لله» أجابه (باللغة العربية) وقد امتقع وجهه. ومن الواضح أن ماخوس لم يكن يعرف ماذا حل به ولكنها كانت مشكلته. وقبل أن يفهم ماخوس شيئًا، فقد عرف أن كيموناس هو المسئول عن الموافقة على منح تأشيرات الدخول للقيادة الألمانية. وكان لابد أن يكون ممتنًا لزميله القديم، لكن ماخوس كان يدرك أن زميله سيقدم تلك الخدمة التى قدمها للألمان رضى أم أبى.

وهكذا تزايدت مكانة الدكتور ماخوس يومًا بعد يوم فى النظام الجديد، وأصبح الابن الثانى لأندونيس خاراميس يحلم بتولى المناصب القيادية تحت السيادة الإيطالية، الألمانية على اليونان. وفى الواقع، لم يكن هناك من يستطع الوقوف فى طريق آماله العريضة، إلى أن حدثت مصادفة سيئة قللت من مكانته العالية.

فى يوم العاشر من شهر مايو لعام ١٩٤١، انتشر فى العالم خبر تحطم الطائرة التى كانت تقل نائب هتلر إلى سكوتلاندا للتفاوض حول السلام. ولم ينج من الحادث سوى رودولف إس بالقفز من الطائرة بالمظلة؛ وشعر ماخوس، الذى لم يكن يصدق ما حدث، أنه بعد هذا الحادث الذى يصعب تفسيره قد هبط إلى الحقيقة المؤلمة التى كان يتجاهلها لسنوات طويلة.

كانت تلك الرؤيا التى سبقت الحادث هى: أكثر ما أصاب ماخوس بالفزع، وبدأ يسأل نفسه لأول مرة بجدية إذا ما كان قد سلك طريقًا خاطئًا. لكنه لم يجد إجابة،

أو لم يجرؤ على إعطاء إجابة. ولكنه لاحظ فى الوقت الحالى تلك التغيرات المفاجئة التى مرت بحياته بما فيها محاولة رودولف اليائسة. لقد تجمدت المصافحات الحارة والابتسامات الحميمة مع ضباط الجيش الألمان بين عشية وضحاها. وأصبح الجستابو يراقبه عن كثب فى كل حين. كان الدكتور ماخوس معروفًا باسم "رجل إس"، ولذلك فقد كان عليه أن يتحمل عواقب علاقته القوية برودولف إس منذ العشرينيات. وقد أدرك أن الشك المتزايد من جانب قوات الاحتلال فى شخصه سيؤدى حتمًا إلى الاستغناء عن خدماته. كان كل ما يتمناه فى حياته أكثر من أى شىء آخر بعد خدمة القيادة الألمانية هو: أن لا تؤول به الحال ويصبح مجرد عميل سابق تم الاستغناء عنه، وهو من كان الألمان يعتبرونه فى الماضى رجلاً لا غبار عليه. كان الصعود أو الهبوط عند النازيين خاضعين لقوانين صارمة، وقد رأى بنفسه أناسًا كانت لهم قدرات وسلطات يتم إقصاؤهم دون سبب واضح. فى ذلك الوقت تذكر ما ذكره رودولف فى وقت سابق، حيث قال: «إن حب هتلر يشبه الرمال المتحركة. لابد أن تكون حذرًا وتعرف أين تضع قدمك فى كل لحظة، وأن تتبع خطواتى وتأخذ منها العبرة. نحن نعيش فى عالم يتبدل فيه دائمًا الحق والباطل، الحقيقه والكذب». ربما كان سقوط رودلف إس فوق أرض بريطانية أحد تلك الحركات التى كانت تخفى بداخلها رسالة موجهة له هو نفسه؟ ربما كانت لإيماءة إس (فى الحلم) أهمية كبرى؟ فى تلك الأيام ربما كان الصواب والخطأ يقفان على الجهة الأخرى من الجانب الذى يقف عليه دكتور ماخوس. لكن حتى التغيير لم يكن ليحدث فجأة ولكن يكتمل ببطء وبلا وعى، مثله فى ذلك مثل أى تغيير صادق. وكانت البداية هى التشكيك فى نتائج الاحتلال الألمانى العظيمة.

بدأ شبح الجوع ينشر جناحيه فوق العاصمة اليونانية فى الشتاء الذى حل. كان الناس يموتون جوعًا فى الشوارع. ولم تكن قوات التحالف هى وحدها المسئولة عن تلك المجاعة بسبب حصارها لهم، فقد كان ماخوس يعلم مسبقًا أن الحكومة الملكية فى المنفى قد سلمت للمحتل مخازن الطعام، إلى جانب مخازن السلاح. إلا أن الألمان قد خيبوا ثقته بهم. ومن بين أصدقاء حلفاء الألمان من سأل سؤالاً بدا صحيحًا: «أين ذهب الشرف الألمانى المعروف؟ لقد عشنا سنوات طويلة فى ألمانيا ولم يخدعنا فيها أحد.

"وبالنظام الجديد" ازداد فجأة عدد الأفاقين». كان الدكتور ماخوس يستمع إلى قصص مرعبة عن المنازل التى نهبت، وتلك التى سرق منها الألمان كل شىء حتى مقابض الأبواب.

لم يكن " النظام الجديد " الذى ذاعت شهرته سوى جحيم من الفوضى والتسلط يزداد يومًا بعد يوم، ويسحب معه المنتصر والمهزوم إلى أعماق الجحيم. لقد تسببت أعمال السلب والنهب فى إفراغ المحلات التجارية من محتوياتها منذ الأيام الأولى. طوابير ممتدة تقف أمام المحلات التجارية القليلة التى كانت تعرض بعضًا من المواد الغذائية، وقد تحدث أحد ضباط الجيش لماخوس قائلاً: «آه، إنكم لم تروا شيئًا، يا هير ماخوس، ففى بولندا يموت مائتا شخص كل يوم»، ثم ضحك هذا الغبى! وفى غضون شهور قليلة تم إخلاء أثينا من كل وسائل المواصلات العامة، واضطر الجميع للذهاب لأعمالهم سيرًا على الأقدام. حتى الحصول على السجائر كان يتطلب الوقوف فى طابور لعدة ساعات. لقد سبق أن شاهد ماخوس مثل هذه المشاهد فى ألمانيا فى أوائل العشرينيات عندما كان هتلر وأقرانه يصرحون بأن مثل هذه المشاهد لن تتكرر فى المستقبل.

وسط جحيم الاحتلال الألمانى لم يكن هناك من يحيا حياة إنسانية سوى القليل، أما الآخرون فلم يكن من حقهم الحصول حتى على جنازة تليق ببشر ماتوا بسبب المجاعة. لقد أصيب ماخوس بالضيق بسبب ما يشاهده من إهدار لكرامة بنى وطنه وشدة معاناتهم. ولم يقتصر الأمر على مرحلة التحول ولكنه تعداه إلى ما يفوق البشر، مما منحه الإحساس بأنه لم يكن سوى مصاص للدماء يعيش على حساب الآلاف من البشر. ومما يدعو للسخرية، أن الجالية الألمانية لم تكن استثناء من ذلك، ومن بين أعضائها فالتر فريندى الذى يتذكر ماخوس كيف كان فى قمة السعادة عندما دخل الألمان العاصمة اليونانية. وفى صباح أحد الأيام الباردة، فى بداية عام ١٩١٤، حضر هذا الرجل إلى منزل ماخوس وهو منكس الرأس، وكان يرجوه لإعطائه بعض قطع اللحم الطازج، ودار بينهما الحوار التالى:

ماخوس: «ولكن كيف، أنكم...» هكذا صاح ماخوس، مندهشاً.

فريندى: «نحن! يا صديقى، مازال هناك الكثير من العجائب التى ستراها فى هذه الحرب القذرة» هكذا أجابه فريندى، ثم أخذ منه شاكراً قطعتين من اللحم كان يحتفظ بهما لنفسه، ثم أضاف فريندى قائلاً: «هل أنتم متأكدون أن ذلك لن يسبب لكم نقصاً فى الطعام، يا عزيزى؟» سأله ذلك وكان صوته يرتعد من القلق.

– «لا تبال. فكلنا نشعر بالجوع فى هذه المدينة. دعنا لا نصبح نحن استثناءً من ذلك. على أية حال، لقد سئمت من رؤية أناس يبيعون أغلى ما يملكون لتجار السوق السوداء. تفضلوا لكى تروا بأنفسكم». قال ماخوس ذلك فاقترب الرجل الألمانى من النافذه، ثم أضاف ماخوس: «هؤلاء هم السكان الذين يستأجرون الشقة الموجودة فى الطابق السفلى».

عندئذ شاهد فريندى رجلاً فى الخامسة والخمسين من عمره ومعه زوجته، يرتديان الملابس الثقيلة، وكانا قد خرجا فى هذا الوقت إلى شارع سكوفا وهما يحملان حقيبة مليئة بالعديد من المتاع.

– «لا تتصورون كم الأشياء القيمة التى يتخلون عنها كل يوم لكى يشتروا بعض الطعام».

– «إننى أتفهم ذلك، ياعزيزى».

– «فى البداية تم إجبارهما على استضافة قائد ألمانى سمين من فيرماخت. وقد عبر عن امتنانه لهما بالتحرش بابنتهما. ولذلك فقد رأيت أن من واجبى أن أتدخل وأبلغ القيادة الألمانية. على الأقل فقد نجحت فى تخليصهم من هذا الخنزير الضخم».

– «إنه أمر لا يصدقه عقل».

– «تخيلوا كيف كان يعيش هؤلاء الناس قبل الحرب. كنت أحياناً ما ألقاهم عند الباب وكانوا ينظرون إلىَّ نظرة استعلاء، مما كان يصيبنى بالغيظ.

لكن "صدق أولاً تصدق" (قال ذلك بالإنجليزية)، فاليوم أشعر بالحزن حقًا تجاههم وأنا أراهم وقد سلب منهم استعلاؤهم» قال ذلك ماخوس وأخذ يعض على شفتيه لأنه نطق ببعض الكلمات الإنجليزية وهو يتحدث. أحس فريندى بذلك فابتسم له مهدئًا إياه بقوله:

- «لا تقلقوا، لن أعتبر أن كلمتين إنجليزتين دليلاً على المقاومة» بقوله:

- «أتعرفون، أننا اعتدنا ونحن فى الإسكندرية أن نتحدث بمزيج من اللغات: الإنجليزية، الفرنسية، الإيطالية» ثم أسرع وأضاف قائلاً «والألمانية بالطبع» هكذا حاول ماخوس أن يقدم تبريرًا لما ذكره.

- «أعلم، أعلم، يا عزيزى الدكتور. حقًا كيف لم تفكروا فى الهرب إلى الإسكندرية حتى الآن؟».

- «وما الداعى للهروب؟ إن مكانى هنا بجانبكم».

- «لست أدرى، يا هير ماخوس. أعتقد أنه لابد أن تبدأوا فى التفكير فى هذا الأمر. إلا إذا سبقكم روميل إلى هناك. لقد تغيرتم كثيرًا هل تدركون ذلك؟».

- «إن قناعتى لم تتغير وإخلاصى لهتلر ثابت لا يتزعزع».

- «لا أعنى قناعتكم ولا تهمنى من قريب أو بعيد. لقد تغيرت لهجتكم، هذا ما أقصد. فالإنسانية تبدو عليكم الآن أكثر من ذى قبل».

- «الإنسانية؟ من الطبيعى أن يظهر أى منا قدر من الإنسانية فى مثل هذه الأيام».

- «لكنكم تظهرون ذلك على أية حال. "إلى اللقاء"(قالها بالألمانية)، يا دكتور ماخوس، سأظل ممتنًا لك إلى الأبد».

ظل ماخوس شهورًا طويلة يعتقد أن روميل كان يتبع تكتيكًا خاصًا يختبر به قوة تحمل مدينة الإسكندرية، وكان لديه شعور ولو بسيطًا بالأمان فى هذا العالم. وفى تلك الأثناء

لم يتوقف عن القلق تجاه الوضع الحالى. لكنه قلق بعيد عن الفلاسفة والمفكرين، ومن ناحية أخرى، لم تكن المعلومات المخيفة التى ترد إليه تسمح له بأن يفلسف الأمور. لقد أفضى إليه أحد الضباط الكبار بالجيش الألمانى، أنه كان بحاجة ماسة للحصول على القمح الروسى، ليس فقط من أجل إطعام الجيش الألمانى، ولكن أيضًا من أجل أوربا الشرقية بأسرها التى كانت تحتلها ألمانيا. وقد علق ماخوس على ذلك قائلاً:

«إن هذا يعنى أنه لن يبقى شىء للروس أنفسهم».

«بالضبط! ومن المنتظر فى غضون الشهور القادمة أن تحل المجاعة بثلاثين مليون شخص فى الاتحاد السوفيتى. لا تنسوا كذلك أن هذه الحرب لا تتعامل بنفس القسوة مع دول الغرب المتحضرة، مثلما تتعامل مع اليهود والشيوعيين» هكذا أكمل الضابط الألمانى حديثه الأجوف.

وبدلاً من إجابة أخرى، تطلع إليه ماخوس بنظرة غامضة. لكن الضابط الألمانى لم يتوقف عند هذا الحد، بل أضاف قائلاً:

«إننا نتبع ببساطة نفس الطريقة التى قام بها ستالين فى الماضى بالتعامل مع الكثافة السكانية الشديدة فى الاتحاد السوفيتى. كما أننى شخصًا أتبع نظرية "الوجود الزائد"، تلك النظرية التى نشرها علماؤنا فى الاقتصاد. وكان البروفيسير ماينهولد يعنى بذلك أزمة الخمسة ملايين بولندى الذين يشكلون - لأسباب عديدة - "وجودًا زائدًا" (قالها بالألمانية)».

عندئذ أمعن دكتور ماخوس النظر فى هذا الضابط الألمانى. فقد كان رجلاً ضخم الجثة متوسط الطول يشبه الثور، وبدون رغبة منه، جال بخاطره كيف أن لحم هذا الرجل قد يكفى لإطعام قرية بأكملها.

وبدلاً من أن يقلق بشأن سكان الاتحاد السوفيتى، كان على ماخوس أن يفكر أولاً فى حالة هو. لقد وقع فى يده بالمصادفة أحد خطابات القيادة الألمانية، واعتقد أن هذا الخطاب يخصه هو شخصيًا، وعلى الرغم من أنه لم يكن يشير إليه بالاسم فإنه كان

يعنيه بالتأكيد. كان الخطاب يقول حرفياً: « لابد من إعادة تقييم تعاون قوات الاحتلال مع العملاء الأجانب وبخاصة مع أبناء هذا البلد؛ حتى لو لم تكن هناك أدلة تدينهم، فإنهم يعدون عديمي الفائدة، فمن الثابت أنهم يستفيدون من السخاء الألماني دون أن يقدموا ما ينبغي عليهم تقديمه. ومن ناحية أخرى، يستغل العديد منهم صداقته لألمانيا بوصفه غطاء للدفع بخططهم التآمرية من أجل هزيمة قوات المحور. ينبغي أيضًا الحذر.........».

لم يكن ماخوس بحاجة لقراءة المزيد حتى يفهم. لكن لحسن الحظ أنه في حرب كتلك، كان هناك من لم ينس ما قدمه ماخوس من أعمال جليلة لألمانيا.

من الممكن أن يكون قد مر يومان على جنازة بالاماس، وعندما عاد إليه فالتر فريندي مرة أخرى. كان يبدو في حالة أفضل، وكان لهذا التحسن انعكاس أكبر على موضوع الطعام. تحدث فريندي لماخوس قائلاً:

«هل تذكرون عندما نصحتكم بالهرب إلى الإسكندرية؟ أعتقد أنه قد آن الأوان لتفعلوا ذلك بدون تردد. لا تسألوني أكثر من ذلك، لأنكم سوف تضعونني في موقف حرج. لكن ثقوا في إنسان يعرف كيف يظهر امتنانه لأصدقائه».

كان من الطبيعي أن يصيب هذا الحديث ماخوس بالذعر. حتى لو كان باستطاعته الهرب إلى الشرق الأوسط، وهو أمر سهل، فكيف سيتم قبوله في أوساط المجتمع السكندري؟ لقد وضعه تعاونه مع قوات الاحتلال في اليونان في صورة سيئة للغاية، حتى لو كان يتمتع بالفطنة التي جعلته يحجم عن المشاركة في حكومة تسولاكوغلوس وأن لا تكون له مهام واضحة في القيادة الألمانية. إلا أنه كان مصنفًا باعتباره أحد النازيين، فلم يعد له مكان آمن في هذا العالم الملتاع من الحرب.

كانت آماله بالعودة للإسكندرية ستتحقق لو قام روميل باحتلالها، لكن هذا الأمر قد أصبح بعيد المنال، فقد هُزم القرن الأفريقي، وفي المعركة الثانية بالعلمين اضطرت قوات المحور للتراجع مدحورة إلى شمال غرب أفريقيا.

كم كان ماخوس متردداً، وله الحق فى ذلك، فى القيام بمثل بهذه المخاطرة، لكن تطورات الموقف كانت أسرع منه، فقد تورط عدد من كبار الضباط فى الشائعات المغرضة التى تتعلق بمحاولة اغتيال هتلر، بما فى ذلك من كانوا فى اليونان. وبدأ تطبيق الخدعة القديمة مرة أخرى. فكل من لم تعد لهم فائدة للقيادة الألمانية، يتم اتهامهم دائمًا بالمشاركة فى التخطيط لاغتيال هتلر. وكانت الحاجة لعناصر مخلصة هو الشيء الوحيد الذى جعلهم يبقون فقط على أى شخص يعتبر ذا أهمية كبيرة لهم. كانت المكائد ضد هتلر عديدة؛ فمنتصرو الأمس أصبحوا مهزومى اليوم.

لقد حانت اللحظة إذن لكى يعبِّر أحد هؤلاء المستفيدين من خدماته عن امتنانه له وهو كيموناس فالساميس، وفى الوقت نفسه لم يكن لدى ماخوس سعة من الوقت لكى يستحضر الامتنان الذى يشعر به تجاه زميل دراسته القديم، فقد كان يعلم علم اليقين أن كيموناس قد تأقلم فى وظيفته التى وضعه فيها، وكان يستمتع بالعطاء المادى الذى لم يكن ليحلم به مقارنة بما تعانيه الغالبية العظمى من أفراد المجتمع. طلب منه أن يلتقيا فى مقهى بعيد فى منطقة سيبوليا، وتطلع إليه ماخوس بانبهار وهو يشاهد أمامه رجلاً أنيقًا يرتدى بالطو من صوف الجمال وقبعة. كانت خطواته الهادئة الواثقة تجعله يبدو مختلفًا عن جموع المضطربين والمقهورين من عامة الناس. وفى اللحظة التى انحنى فيها لتحية ماخوس، همس ماخوس فى أذنه مبتسمًا:

«خلِّى بالك (قالها بالعربية ودوَّنها بحروف يونانية). فنصف ما أعرفه عنك، يا فالساميس، يمكن أن يتسبب فى فصلك من عملك غداً» عندئذ نظر إليه الرجل الألمانى المصرى مشدوهًا. حتى لو كانت دعابة، فإنها لم ترقه أبداً. تجول ببصره فى المكان مضطربًا، باحثًا عن احتمال وجود واشين بالمكان، فبادره ماخوس قائلاً: «لا تنزعج هكذا، فلن أفعل ذلك» ثم أضاف ماخوس باللغة العربية «يكفى فقط أن تعبر بشكل عملى عن عرفانك بالجميل الذى قدمته له».

اكتفى فالساميس بالنظر إلى ماخوس نظرة مفعمة بالتساؤل عن السبب الذى دفعه للخوض فى هذا الكلام. عندئذ بادره ماخوس قائلاً:

«أريدك أن تعيدني لبلدى بأوراق مزورة» هكذا تحدث ماخوس بهدوء شديد وكأنه يطلب منه أمراً يسيراً، ثم قدم له سيجارة، وعندما لاحظ تردده فى أخذ تلك السيجارة قال له موضحاً: «بالطبع لم يخطر ببالك أن شخصاً مثلى يدخن السجائر الرديئة. تأكد أن السيجارة التى أقدمها لك تضاهى السجائر المصرية. تفضل إذن».

فى تلك الأثناء، تم تقديم القهوة التى كانت تشبه الحمص السائل، مما دفع ماخوس إلى استدعاء القهوجى وتوجيه بعض التعليمات، ثم أخرج له بطاقته الخاصة وألصقها فى وجهه قائلاً: «خذ هذين الكيسين واصنع لنا فنجانين من القهوة». عندئذ أبدى القهوجى اعتذاره وهو يرتعد مع الوعد بإصلاح هذا الخطأ.

«حسناً إذن، أين كنا قد وصلنا؟» هكذا قال ماخوس ثم تظاهر وكأنه قد تذكر ما كانا يتحدثان فيه، فاستكمل حديثه باللغة العربية قائلاً: «لابد كما ذكرت لك أن تساعدنى فى السفر إلى مصر بأوراق مزورة. فموقفى أصبح فى شدة الحرج يا كيموناس. لقد ساعدتك، والآن حان الوقت لكى تساعدنى أنت أيضاً». لقد فكر ماخوس جيداً فيما سيقوله له، فكلما كان كلامه أقل كلما كان ذلك أفضل.

تضاعفت الدهشة على وجه فالساميس، لكنه لم ينطق بكلمة واحدة، حيث كان شديد الحذر. فى البداية فكر فى احتمال أن يكون ماخوس قد أعد له فخاً لكى يختبره به، فابتسم ابتسامة المرتاب وتحاشى الإجابة. لكن ماخوس لم يكن يمزح، فقد سرد له بالتفصيل أسماء أشخاص وأمور يقوم بها فى عمله. وسواءً قبل ذلك أم لا، فقد كان فالساميس يستغل بالفعل منصبه الذى أسند إليه لتسهيل هروب العديد من الأشخاص إلى الشرق الأوسط.

اعترف كيموناس، الذى بدا وجهه شاحباً، لماخوس بجميله عليه ووعده بأن يفعل كل ما فى وسعه لكى يساعده. إلا أنه طلب منه إمهاله بعض الوقت حتى يتمكن من الترتيب الجيد للموضوع وإعداد ما يلزم.

لم يختلف اليوم الذى غادر فيه ماخوس اليونان عن باقى أيام عام ١٩٤٣، التى كانت تنتشر فيها الكآبة فوق سماء هذا البلد. وقد حرص ماخوس على حرق الخطابات

التى كان يكتبها ولا يرسلها، تلك التى كان يكتبها وهو على حافة الجنون. ومعها قام بحرق خطابات إيريك التى كان يحتفظ بها لسنوات. فلو تصادف وحدث أى شىء فلن يكون من الحكمة أن يعثروا عليها معه. أما متعلقاته الشخصية: كتبه، ملابسه، أسطوانات الموسيقى الكلاسيكية، جهاز الجراموفون، الأثاث القليل، الطعام، أدوات الإسعافات الأولية، فقد أهداها جميعها إلى تلك العائلة التى تسكن بالطابق الأول، محتفظًا لنفسه ببعض المتعلقات المهمة: مثل بعض المعلبات التى تكفيه أثناء الرحلة، طبعة نادرة من كتاب "مضى وقت" للمؤلف مارتين هايديجير، التى كانت تحمل توقيع المؤلف.

بدأت رحلة هروب ماخوس من ذلك الخليج الصغير فى ميناء رافينا عند أحواض السفن، وقد رافقه إلى رحلة هروبه إلى الميناء الغربية بالإسكندرية رجل يدعى خارالامبوس لاذاس الذى تعهد بتهريب ماخوس لحساب فالساميس ومنحه اسمه، وكان يحدث نفسه قائلاً: «الحافة أمامنا ومن ورائنا الطوفان». لم يكن ماخوس قد قرر ماذا سيفعل عند وصوله إلى الإسكندرية، ولكنه كان يتمنى أن لا يتذكر وجهه أحد بعد مرور عشرين عامًا حتى يتمكن من التحرك بأمان بدرجة كبيرة. كان يعرف أن عودته إلى الإسكندرية بمثابة لحظة فاصلة أخطر من ذى قبل، حيث لم يكن فقط غير مرغوب فيه، ولكنهم كانوا يعتبرونه عدوًا. ومن وجهة نظره فهو يرى أنه لا يختلف عن غيره من الناس، وربما منحه هذا الشعور نوعًا من الهدوء الذى كان بحاجة إليه فى هذه الرحلة.

لم يكن الفجر قد حل بعد عندما تحركت المركب الخشبية لتشق بحر أتيكا، وكان ماخوس قد دثر نفسه ببطانية عسكرية ورفض بإصرار النزول للعنبر الذى يجلس به باقى الهاربين. أخذ يتطلع إلى الأفق المظلم فى اتجاه الشرق، وقرر فقط عندما رأى خيوط الفجر الأولى تبدو فى الأفق أن ينضم للباقين. لم تكن أحوال الرحلة جيدة، لكنه كان يشعر بسعادة عارمة، لأنه يعلم أنه لم يكن عائدًا فقط إلى الإسكندرية، ولكنه كان عائدًا إلى نفسه.

* * * * *

فى الثالث والعشرين من شهر أكتوبر لعام ١٩٤٢، وفى الساعة العاشرة مساءً، أضاء الأفق الغربى لميناء الإسكندرية بضوء مخيف. فقد انطلق ما يزيد على ألف طلقة مدفع فى نفس اللحظة التى كان فيها مونتجمرى يتفقد خط النار، تماماً مثلما حدث فى بداية معركة العلمين الثانية. ظهر شبح لشخص يتحرك داخل الصالون ذى الطراز المصرى فى منزل آل خاراميس، فى جانب الغرفة شبه المظلمة، تبدو عليه شدة القلق. كان وهج السيجارة المشتعلة فى يده يتحرك وكأنه حشرة من حشرات سرائج الليل المضيئة. دوى صوت الهاتف فى المنزل وكأنه دوى صفارات الإنذار. تحرك الشبح الذى لم يكن سوى كوستيس خاراميس وأجاب بصوت مرهق، معلقاً على ما كان يسمعه من محدثه على الناحية الأخرى بعبارات من نوع: «إنها مسألة وقت، لم يتحدد شيء بعد، "إلى الغد إذن" (قالها بالفرنسية)». وفى خلال دقيقة واحدة بدأت ملامح شخصيات أخرى تظهر قادمة من ناحية غرفة المعيشة وهى تحمل لمبة الإضاءة المغلفة بالورق الأزرق، وتجمعت هذه الشخصيات فى نفس الصالون ذى الواجهة الزجاجية. جرت الطفلة الصغيرة ذافنى وارتمت فى أحضان أبيها، ومن ورائها كلبها الصغير فريكسوس الذى أخذ يتمسح فى قدميه.

ذافنى: «من كان على الهاتف، يا كوستيس؟».

كوستيس: «إنه سيستانيس، يا أمى، كان يسألنى إذا ما كنا سنذهب غداً إلى المصنع، كما سبق وأن اتفقنا على ذلك، فأخبرته أنه لا يوجد سبب يدعو لإلغاء الموعد».

– «هل أنت متاكد؟».

– «هل تشعرين بالقلق، يا سيده ذافنى، أم يهيأ لى ذلك؟»

– «أيا كان الأمر، فقد قلت ذلك بنفسك من قبل. لم يتضح شيء بعد»

– «أنا واثق من شيء واحد فقط، وهو أن حفيدتك الصغيرة لا تخاف أبداً. هل تخافين يا صغيرتى؟».

– «بالطبع لا (قالتها بالفرنسية)، فقد أصبحت فى التاسعة من عمرى، هل نسيت ذلك، يا أبى؟».

- «إذن هذه الطفلة لا تخاف أبداً» قالت ذلك جدتها وهى تداعب بحنان خصلات شعرها الذهبى التى تنسدل على وجهها. ثم استدارت إلى ابنها وقالت: «لماذا لا نهبط قليلاً إلى البدروم، ونشعل بعض الضوء ونجلس مثل البشر. لقد سئمت أن أتحرك كالعمياء داخل بيتى».

لكن كان لكوستيس رأى مختلف حيث قال:

«اذهبوا أنتم، أما أنا فسأمكث لأتابع ألعاب مونتجمرى النارية». ثم استدار ناحية الطاهية وقال: «مدام خاريتومينى، أعدى لى فنجاناً من القهوة. فهذه الليلة ستكون طويلة».

خاريتومينى: «بن ثقيل، سكر زيادة؟» قالت ذلك بينما كانت تغادر غرفة الصالون.

كوستيس: «نعم، بن ثقيل، سكر زيادة» هكذا ردد كوستيس كلماتها ولم يتركها تبتعد دون أن يلقى عليها دعابته المعتادة: «أخبرينى حقًا، يا خاريتومينى، لماذا لا يحارب ابنك فى الصحراء بدلاً من جلوسه فى الصفوف الخلفية؟» وكان كوستيس على يقين من أنه سيحصل على إجابة غاضبة منها:

- «أوف، يا سيدى، كم مرة سأقولها لك؟ لقد حارب ابنى فوتيس كثيراً. فليحارب الآن أى شخص آخر».

- «أهذا هو ما يحدث حقًا، أم أن فوتيس جالس الآن يقبل أقدام الملك؟».

- «آه، يا سيدى كوستيس، لديك رغبة فى المزاح!».

كانت مشاعر خاريتومينى الغاضبة تداعبه. ربما كانت هى الإنسان الوحيد الذى كان يسمح له بأن يمازحه فى الآونة الأخيرة.

فى الفترة التى كانت تفصل بين معارك الصحراء فى شهرى يونيو ويوليو، والتى لم يكن هناك أمل فى انتهائها، كان كوستيس قد تغير كثيراً، لدرجة أن كل من كانوا يعرفونه لم يصدقوا أنه هو نفس الإنسان. هناك بالطبع العديد من الأسباب التى أدت

إلى هذا التغيير الجذرى، ولم تكن الحرب هى أهم تلك الأسباب بقدر ذلك القرار الذى اتخذه فى تلك الساعات العصيبة التى تمر بها الإسكندرية بالتخلص تمامًا من كابوس زوجته الصهيونية. كانت تلك هى الرسالة التى كان يحاول جاهدًا أن يجعل مجتمع الإسكندرية يستوعبها، ذلك المجتمع الذى عاد إليه جميع أفراده بعد الهزيمة الواضحة لقوات المحور، عاد الجميع ما عدا هايكى. وبدلاً من أن يتمنى سرًا انتصار روميل أو حتى أن يصب لعنته علانية على اليهود وعلى صهيونيتهم التى اختطفت منه أم طفلته، فقد فضل أن يؤكد للجميع أن التهديد الألمانى والتطلعات الصهيونية لزوجته الهولندية - اليهودية كانت بمثابة مفارقة ملائمة جعلته يتمكن من التخلص بكل سعادة من زوجته غير المرغوب فيها.

وفى الحقيقة، لو كانت هايكى حاضرة وتتابع ما يحدث، لما سرها هذا المشهد الحزين. فمنذ رحيلها منذ خمسة أشهر، أصبح من الصعب ملء الفراغ الذى خلفته وراءها، فى حين كان كل فرد من أفراد الأسرة يحاول، كل بطريقته، أن يضمد جراحه من جراء رحيلها المفاجئ.

ومن المؤكد أن حماتها كانت أقل فرد يشعر بالحزن فى العائلة. ومنذ اللحظة التى تمكن فيها كوستيس من إغلاق أفواه الناس، أصبحت كل الأمور الأخرى تحتاج لبعض الوقت، بما فى ذلك صدمة أمه وتأثير رحيل زوجته على نفس حفيدتها؛ ولذلك كانت الجدة دائمًا ما توجه حديثها لحفيدتها قائلة: «اطمئنى يا صغيرتى، فلن ينقصك شىء كان لديك فى يوم من الأيام». وبهذه الطريقة كانت تحاول تعويض غياب والدتها هايكى، تلك التى استسلمت لحبها للخمر ولصهيونيتها ولنزعتها النرجسية.

ويبدو أن ابنتها الصغيرة ذافنى قد تحررت من تعلقها بها، وأصبحت أكثر ارتباطًا بجدتها؛ كما أصبحت تلك الكوابيس التى كانت تلاحقها وتجعلها تجرى مذعورة فى طرقات المنزل ومن خلفها كلبها الصغير ومن ورائهما المربية ميس جين، أصبحت مجرد ذكرى من الماضى. ولم يكن هناك من يستطيع التنبؤ بمدى التأثير النفسى الذى يمكن أن يحدثه غياب والدتها عليها فى المستقبل، لكنهم كانوا جميعًا

يعتقدون أنه لم يكن من الممكن لأم مدمنة للخمر ويهودية متشددة أن تصبح هى النموذج الأمثل الذى تحتذى به ذافنى الصغيرة. ومن جهة أخرى، أصبحت العلاقة القوية التى نشأت منذ البداية بين الجدة وحفيدتها قادرة على سد الفراغ الذى سببه هروب الأم بشكلٍ كبير.

أما بالنسبة لكوستيس، فقد كان موقفه واضحًا منذ البداية. فعندما كتبت له هايكى لأول مرة من أورشليم فى منتصف شهر أغسطس، تاركة احتمال عودتها للإسكندرية مفتوحًا، أجابها بأنه ينبغى على الإنسان فى هذه الحياة أن يكون ثابتًا فى اتخاذ قراراته، وبما أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد، فلن يكون فى مصلحة أحد أن تعود إلى المدينة التى تركتها. كان من الصعب على هايكى أن تتخيل ردة فعل كهذه قبل عشرة أعوام عندما كان زوجها يهيم بها حبًا كالمجنون. وقد أنهى كوستيس خطابه قائلاً: «الآن أرى بوضوح أن الأسباب التى فرقت بيننا كانت أكثر بكثير من الأسباب التى جمعتنا، أقول لك بإخلاص إننى لا أؤيد فكرة عودتك مرة أخرى إلى وضع كان يشعرك دائمًا بالسأم ويدفعك دفعًا لتعاطى الخمور. أتخيل أنك الآن موجودة فى مكان تشعرين فيه بالانتماء، وأرى أن كل نشاط ستشاركين فيه هناك سيكون بمثابة شرف عظيم لك ولوطنك المأمول. أما هنا فستحظين دائمًا بمشاعر الكراهية، ولن تكونى سوى زوجة قامت دون قصد بإفساد الأمور على زوجها».

وفى واقع الأمر، لم تكن لدى هايكى أدنى رغبة فى العودة مرة أخرى لهذه المدينة الملعونة التى تجعل أهلها وكأنهم فاقدو الوعى، وتغطى مشاعرهم المزيفة بقناع الود. لقد حاولت لوقت طويل أن تواجه بطريقة يشوبها الشك إحساس زوجها بالعظمة. لم يكن هناك أحد فى الإسكندرية كلها يشعر بالأمان، ولم يكن تهديد روميل الذى كان يلقى بظلاله على أهلها هو السبب الوحيد لذلك، فالقائد الألمانى، إن تمكن من الدخول بجيوشه إلى الإسكندرية، لسقط هو نفسه تحت تأثير قوتها الشيطانية. كان الخطر الحقيقى موجودًا فى أفق ما بعد الحرب ـ فالحرب ستنتهى إن عاجلاً أو آجلاً ـ وكانت لديها القدرة على رؤية ذلك بفضل بصيرتها التى تتمتع بها وبفضل إيمانها الراسخ بإله

إسرائيل. كان أصدقاؤها الصهاينة يؤكدون لها أن الصحوة العربية هى التى ستغير خريطة الشرق الأوسط، وأنها ستغير بشكلٍ مذهل تلك الثوابت التى وضعها الأوربيون فى المنطقة، فحاولت أن تحذر كوستيس ولكن دون جدوى، فقد كان يعيش فى فترة ما بين الحربين بسذاجة لدرجة جعلته يصدق أن هذه الحرب لم تكن سوى فترة استراحة، مثل إجازة صيف مرت بحياتهم. ومع البدايات الأولى لعام ١٩٣٨، بدأت هايكى فى التفكير بشكل جدى فى مغادرة الإسكندرية والإقامة فى أى مكانٍ آخر تختاره، وبدت لها اليونان حينئذ ملاذاً أمناً. لكن كوستيس كان يضحك ويقول: «هل جُننتِ؟ أنترك تلك الجنة التى خلقها الله على الأرض؟ ألا تدركين كم نحن محظوظون بأننا نعيش هنا، وسط النخيل والصحراء الساحرة؟».

لكن كان عقلها يحدثها بشىء آخر. فقد كان من المستحيل أن تؤول تلك المدينة إلى كل تلك الأجناس والأديان. وفى يوم من الأيام سيظهر السادة الحقيقيون ويطالبون بحقوقهم. وعندئذ فلن يقبلوا أن يظلوا " عبيداً " مدى الحياة للأوربيين واللبنانيين. وهكذا ستصبح الإسكندرية كأية رواية تنتهى بنهاية مأساوية. حتى لو كان البعض قد تمكن من التأقلم وسط العاصمة العربية، فإنه كان لزامًا عليهم أن يجدوا سبلاً جديدة لمواجهة ذلك الوحش الذى ظهر بعد الحرب، لمواجهة أمريكا. وقد شرح لها أحد أساتذة الجغرافيا السياسية من اليهود منذ شهور فى منزل ميناسيه، التغيرات الاقتصادية التى ستطرأ بعد انتهاء الحرب. وحسب رأيه، فلن يتمكن الإنجليز من هزيمة قوات المحور دون مساعدة الأمريكيين، الذين سيتحركون إن آجلاً أو عاجلاً بعد الحرب من أجل ملء الفراغ الذى تركته الإمبراطورية البريطانية فى المنطقة. وسوف ينتشر عمالقة الصناعة بأمريكا فى كل مكان حتى هنا. «هكذا نستطيع أن نقول إن العالم الجديد تغلب بدوره على العالم القديم»، هكذا قالها بوضوح.

كان كل من تعرفهم هايكى يعيشون فى العالم القديم، ذلك العالم الذى كان يتألم من واقع الحرب المريرة. استمرت معركة العلمين الثانية لمدة اثنى عشر يومًا، وطوال تلك الفترة كانت سماء الإسكندرية تختفى خلف عدد لا حصر له من الطائرات الحربية،

فى حين كانت مياه البحر تغلى من جراء إطلاق الغواصات للصواريخ، ثم تعود أدراجها فى الصباح بعد إتمام مهامها الليلية. فى كل ليلة وبعد تناول وجبة العشاء، كان كوستيس يصعد شرفة المنزل ويرقب الأضواء الناتجة عن القصف المدفعى فى الصحراء الذى ينعكس على السحب الليلية فى السماء. وفى شارع باب سيدرا كان ابن خاله نيكيتاس يخرج إلى الشرفة ويدخن السجائر كما كان يتبادل التحية مع جيرانه. كانت الأضواء المبهرة للقصف تبدو كأنها قطعة من القماش اللامع مخيطة فى رداء المدينة الليلى، مما جعله يتذكر ابن عمه ثاناسيس الذى ربما يقوم فى هذا الوقت بقصف مكان ما بطائرته. وفى الجانب الآخر من المدينة، كانت إيفيت تعود مرهقة إلى فيلتها فى لوران بعد انتهائها من عملها فى نادى الحلفاء بشارع كورينثوس وبيت البغاء بشارع مصطفى باشا، ينتابها شعور بقليل من التفاؤل، على الرغم من تلك النيران التى تعكسها سماء الإسكندرية وتتطلع إليها من شرفتها. لقد غادر كل من كانت تحبهم وتثق بهم فى أصعب اللحظات التى مرت بها المدينة: مات كل من أندونيس وماريانثى، هجرتها روكسانى منذ أكثر من عشرين عامًا، وإذا كانت تعيش الآن فى باريس، فلابد أنها تحت وطأة الاحتلال الألمانى، أما هايكى فقد رحلت منذ شهور قليلة، باحثة عن الأمان فى فلسطين، وبالطبع كان إلياس غائبًا، ولكنه كان سيعود فى أى وقت. وكانت قد كتبت له من قبل خطابًا قالت فيه: «لن تستطيع الإسكندرية أن تحيا بدونك!». لكن حتى لو استطاعت المدينة أن تستمر بدونه، فكيف تستطيع هى أن تفعل ذلك؟ كانت عودته بالنسبة لها بمثابة المواساة فى تلك الوحدة التى أصبحت تحاصرها من كل جانب، ولكن يبدو أن إيفيت لا تقهر تمامًا مثل جيش روميل. وفى البدايات الأولى من شهر نوفمبر كان الموقف قد تم حسمه. حيث بدأ قائد الجيش الألمانى والجيوش بأفريقيا فى تنفيذ عملية الانسحاب، وقد تحدث تشرشل عن " بداية النهاية " لهذه الحرب اللعينة.

فى يوم الخامس عشر من شهر نوفمبر، عندما دوَّت أصوات أجراس الكنائس معلنة الانتصار فى الصحراء الغربية، شعرت إيفيت بأنها وحيدة أكثر من ذى قبل. وفى

وسط هذه الأجواء الاحتفالية شاركها كوستيس نفس الشعور. فقد انسحب بعد تناول العشاء كعادته وحيداً إلى الصالون ذى الطراز المصرى، لا تشاركه من أفكاره سوى سيجارته المشتعلة. كان يشعر بسعادة بالغة لم يشعر بها أحد مثله، ثم تنهد وأخذ يردد:

" لماذا حل الظلام ولم يأت البرابرة.

فى حين جاء البعض عبر الحدود

وقالوا إن البرابرة لم يعد لهم وجود.

والآن ماذا سنفعل بدون البرابرة

ولم يكن لنا حل سواهم ".

* * * * *

يبدو أن هزيمة روميل كان لها تأثير إيجابى حتى على مجريات الأمور فى عرض البحر. فعلى العكس مما كان يتوقعه الجميع، سارت رحلة ماخوس إلى الإسكندرية بشكل طيب، إلا أن عطلاً صغيراً فى المحرك كاد يهدد الرحلة. لقد ساعدت الساعات الطويلة التى قضاها ماخوس فى البحر على خلق شعور بأن كل هؤلاء المسافرين – المنهكين من السفر بعد أن تلاعبت بهم الأمواج فى البحر الليبى – قد تركوا خلفهم الحرب على سواحل اليونان، فإذا بهم يجدونها أمامهم عند الميناء الغربية بالإسكندرية. وصلت المركب فى منتصف الليل، وقد اضطرهم نظام الأمن بالميناء للانتظار فى عرض البحر طوال ثلاث ساعات. وفى الظلام الدامس الذى يفرضه قانون الحرب، كانت المظلات الحربية تشبه الأشباح التى تحوم حول القاعدة البحرية.

ويبدو أن "الله" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) قد أراد له أن يصل مع بشائر فجر اليوم وأصوات المؤذنين التى علت كما لو كانت إيذانا بعودة ماخوس أخيراً إلى مدينته بعد ثمانية عشر عاماً من السلم وثلاثة أعوام من الحرب؛ وبالطبع فلن يتعرف ماخوس على المدينة بسهولة. وفى النهاية تم فتح الحاجز، ولكن بدا واضحاً أن

الصعوبات على وشك أن تبدأ، مرت المركب على صف من البوارج الحربية المموهة وبدأت تبحث عن المرسى. فى هذه الغابة من المراكب الراسية، وجد ماخوس صعوبة فى تحديد اتجاهه فى هذه المياه التى كان يقضى بها فى الماضى ساعات طويلة فى ممارسة رياضة التجديف. كان يشعر بالضيق وهو يقف أمام الأسطول البريطانى، حتى إنه فكر لوهله أنه لا أمل لديه فى الدخول إلى المدينة تحت اسم " خارالامبوس لاذاس، الجندى بالجيش اليونانى".

وبينما كانوا يقتربون من اليابسة، شاهدوا راية الحجر الصحى الصفراء، وهى ترتفع. وبمجرد إنزال سلم المركب، انضم إليهم ضابط من الشرطة المصرية، فى حين صعد إليهم طبيب يتبعه رجلان آخران لإجراء الكشف الطبى عليهم.

لمح أحد الرجلين ما أصاب ماخوس من قلق، فأمسكه الرجل من مرفقه وهزه بعنف، ثم سأله (بالإنجليزية) قائلاً: «ما الأمر؟ هل أنت مريض أم ماذا؟». عندئذ استدار تجاههم الطبيب، وهو لبنانى يتحدث اليونانية، وقال: «ما الذى يحدث هنا؟» هكذا سألهم ثم أشار لماخوس لكى يتنحى جانبًا وينتظر.

بعد ذلك عثر الثلاثة على رجل ذى وجه شاحب، كان يعانى من سعال غريب وهذيان أثناء النوم طوال الرحلة، وبعد الكشف عليه، أثبت التشخيص أنه مريض بالسل، فقاموا بحجزه ومنعه من الدخول.

وعندما حان الدور على ماخوس، طلب منه الطبيب أن يقدم له وصفًا لتاريخه الصحى، بينما كان يدون بعض المعلومات على قطعة من الورق، ثم قام بعدها بفحص قرنية عينيه وحلقه، ثم قام بقياس نبضه، وفى النهاية قال له: «اضغط على يدى بقوة، أقوى!» ثم استدار تجاه الرجل الذى كانت لديه شكوك تجاه حالة ماخوس الصحية، واكتفى بالإشارة بطريقة تدل على عدم اطمئنانه، دون أن يفصح بالأمر.

وبمجرد إنزال الراية الصفراء، تم رفع الراية ذات اللونين الأبيض والأسود بدلاً منها، مما يعنى صعود بعض المسئولين لفحص أوراق سفر الركاب. فى المقدمة صعد

ضابط إنجليزى ثم تبعه ضابط من الشرطة المصرية ثم ضابط يونانى برتبة ملازم ثان. فى هذه اللحظة انزلق أحد الركاب بهدوء مستخدمًا السلسلة المعدنية للمرسى، ثم غطس بجسده داخل المياه المختلطة بالزيت بهدوء شديد دون أن يلحظه أحد منهم. شاهد ماخوس ما حدث من خلال وجوده فى مقدمة المركب، ولكنه لم يقم بالإبلاغ عنه، بل وتساءل إذا ما كان لديه أمل فى النجاة لو أنه فعل نفس الأمر. كان هذا يعنى بالطبع أنه لابد أن يطلب المساعدة من طاقم المركب، وأن يقدم مبلغًا محترمًا من المال إلى القبطان. إلا أنه لم يجد سببًا ليفعل ذلك طالما أن أوراقه سليمة. " أنا أوذيسيوس العصر الحديث العائد إلى وطنى، إيثاكى " هذا ما جال بفكر ماخوس فغمره بعدها إحساس مريح بالعظمة. وفى الدقائق التالية سيتضح إذا ما كان قد نجح فى التخفى مثلما فعل أوذيسيوس، بطل الملحمة الهومرية، أم لا.

انتبه الضابط الإنجليزى ذو الشارب الأحمر الذى كان يفحص أوراق الركاب، لما أصاب ماخوس من قلق، وعندئذ حدثه قائلاً:

«هل أنت خارالامبوس لاذاس؟» هكذا سمع ماخوس صوتًا صارمًا يأتى من خلفه جعله يعود لأرض الواقع مرة أخرى. وعندئذ استدار ماخوس ونظر فإذا بالملازم اليونانى ذى الرموش الكثيفة والعيون العسلية الجميلة يقول له: «لماذا تنظر إلىَّ هكذا؟ هل أنت خارالامبوس لاذاس أم لا؟».

- «نعم أنا» قال ماخوس ذلك وهو فى شدة الذعر.

- «حسنًا، هيا معى، أين حقائبك؟».

- «هذه الحقيبة فقط، تحت أقدامى، سيدى الملازم» أجابه بكل ما أوتى من قوة.

- «التقط حقيبتك وهيا بنا إذن».

- "ربما أكون قد نجوت بلا مشاكل " هذا ما جال بخاطر ماخوس، وعندئذ صاح فيه الضابط قائلاً:

- «تحرك إذن، فلن نقضى اليوم بطوله فى هذا المكان».

– «إلى أين ستذهبون بى الآن، سيدى الملازم؟» هكذا سأله، بينما كان يلهث خلف خطوات الضابط الشاب السريعة.

– «كان من المفروض أن تمر أولاً على أحد معسكرات الجنود العائدين إلى حين استخراج تصريح دخولك من الإدارة المصرية لشئون الهجرة. لكن هناك من ضمنك من اليونانيين ـ المصريين، ولذلك فسوف يصلك التصريح إلى المنزل».

– «أى منزل؟».

– «لا أدرى، حيث ستقيم، على ما أعتقد».

– «وأين يوجد هذا اليونانى ـ المصرى الذى تقولون عنه».

– «إنه ينتظرنا عند بوابة الخروج».

لم يصدق ماخوس أنه يسير على رصيف الميناء الغربية. وعند بوابة الخروج وجد صعوبة فى التعرف إلى ذلك الرجل ضخم الجثة الذى يخفى وجهه بقبعته. وفى المقابل لم يستطع ذلك الرجل التعرف إلى ماخوس على الفور. فقد مرت سنوات طويلة منذ أن غادر المدينة.

* * * * *

قد يقول البعض إنه لم يمر سوى يوم واحد منذ أن استقبلت ذافنى لأول مرة ابن عمها ثاناسيس فى منزلها. لكن كان قد مر بالفعل ثلاثون عامًا، ولم يكن ذلك الرجل الذى يجلس أمامها، على الرغم من أنه يشبه " بقال منطقة السيوف "، سوى ابنه نيكيتاس. وكان أغرب ما فى حديثهما أنها لا تزال لا تعرف أين تقع منطقة السيوف بالتحديد! فما علاقتها بهذه الضاحية الشعبية بالإسكندرية؟ وقد حاول نيكيتاس أن يشرح لها الأمر لكنها كانت ترى حتى هذه اللحظة أنه يحدثها بغموض.

ذافنى : «إذن، ماذا أقدم لك يا نيكيتاس؟» هكذا سألته، فى حين كانت الخادمة المصرية تقف منتظرة أوامر سيدتها.

- «أشكرك، يا عمتي، لكن يكفي الشاي» هكذا أجابها نيكيتاس، بينما كان يداعب الفنجان المصنوع من البورسلين الذي يمسكه به في يده.

- «لكن ماذا يفعل فنجان من الشاي دون شيء بجانبه؟ أنك مثل والدك صعب المراس».

- «حاشا لله، لا أريد أن أضايقك. لكني لا أستطيع تناول أي شيء الآن. ثم انظري إليَّ فقد أصبحت بدينًا. هل أبدو لك باعتباري رجل حرب؟».

- «أنت في أحسن حال. لكنك ببساطة أخذت الكثير من والدك. فقد كان ممتلئ الجسم وهو في مثل سنك». قالت ذافني ذلك بلهجة حزينة، ثم أشارت إلى الخادمة لكي تتركهما بمفردهما.

- «على أية حال، بالطبع لم نلتق حتى نتحدث عن بدانتي» قال ذلك وقد بدا عليه الضيق، ثم أضاف: «فهناك مشاكل أهم في هذه اللحظة».

- «نعم، لكنك لم تعطني تفسيرًا. كنت قد بدأت الحديث عن السيوف و....».

- «صدقيني، ليس من السهل على أن يخرج من فمي ما أريد أن أقوله لك».

- «أستحلفك بربك، يا نيكيتاس. أنت لا تريد أن تأكل بسهولة، ولا تريد أن تتكلم بسهولة. أليس لك فم مثل الآخرين؟».

ضحك نيكيتاس على مداعبة عمته، وأعتبر أن مداعبتها له كانت من الأسباب التي تجعلها تحتفظ حتى الآن، وقد بلغت السبعين، بشيء من نضارتها أيام الشباب. وكان كلما دخل بيتها في شارع العباسيين يحاول دون قصد أن يستوثق من صحة الشائعات التي كانت تدور حولها بالإسكندرية منذ زمن.

- «أترغب في تدخين إحدى السجائر الممتازة التي ينتجها ابن عمتك؟» وعندئذ قدمت له علبة السجائر الفضية التي تحمل شعار العائلة.

- «آه، سآخذ سيجارة من هذه. يقولون إن بداخل هذه العلبة أفضل أنواع التبغ بمصر. هل هذا صحيح؟».

- «اللعنة! (قالتها بالفرنسية) فعلى الرغم من كونى زوجة صاحب مصنع سجائر، لكنى لم أفهم تلك الرغبة التى تنتاب المدخنين».

- «كل منا له رغباته الخاصة، يا عمتى، أليس كذلك؟» هكذا عقب نيكيتاس بينما كان يشعل سيجارته.

هزت ذافنى رأسها بطريقة معبرة، فقد شعرت بأن طريقته تحمل نوعًا من التهكم، الأمر الذى لم يعجبها، فردت عليه ببرود قائلة:

ذافنى: «ما الذى سيحدث، إذن، هل ستخبرنى بما ترغب فى قوله؟».

كان نيكيتاس حساسًا - تمامًا مثل والده - ولذلك فقد احمر وجهه ومد يده ليغلق أحد أزرار بذلته، تنحنح قليلاً ثم بدأ فى الكلام. وفى أقل من خمسة دقائق، وبدون لف أو دوران، كان نيكيتاس قد أخبر ذافنى عن عودة ابنها الحبيب ماخوس.

كانت ذافنى تستمع إليه دون أن يبدو عليها أية تعبيرات، لكن عينيها كانتا تدمعان بين الحين والآخر، كانت تحاول أن تستوعب هذه الأحداث التى لا يصدقها عقل. قامت من مكانها مرتين أو ثلاثًا لتتأكد من أنه لا يوجد من يسمعهما خفية، وفى بعض المرات كانت تشير إليه ليخفض صوته. وفى النهاية سألته ذافنى بهدوء وكأنها تتفاوض معه بصرامة:

«والآن أين قلت إنكم تحتفظون به، فى السيوف؟».

اندهش نيكيتاس من لهجتها الباردة وقال فى نفسه: "برافو، يا لك من شجاعة، يا مدام خاراميس!"، إلا أن قلقها بوصفها أمًا قد فضح توترها فى اللحظة التالية، حيث قالت:

- «كيف حاله، يا نيكيتاس، كيف حال صغيرى ماخوس؟ أريد أن أراه. هل ستأخذنى إليه يا ولدى؟» وفجأة ظهر على وجهها العجوز العديد والعديد من التجاعيد، التى كانت وكأنها تنتظر أول فرصة لكى تظهر على وجهها.

أعاد نيكيتاس فتح أزرار بذلته وغاص بجسده فى المقعد الوثير الذى يجلس عليه، وقال:

نيكتياس: «مهلاً مهلاً، يا عمتى. فأى تصرف خاطئ قد يعرض حياته للخطر».

– «آه يا ولدى. أستحلفك بروح والدك أن تحرص عليه حتى لا يصاب بمكروه».

– «لن يصيبه أى مكروه، "هذا وعد" (قالها بالفرنسية). عندما أخبرنى زميله القديم فالساميس من أثينا أنه......، لكن لندع هذه التفاصيل جانبًا الآن» قال ذلك ولكنه ندم على ذكره اسم فالساميس.

– «ومتى سأتمكن من رؤيته؟».

– «فى أقرب وقت ممكن. لقد عبر لى ماخوس عن رغبته الشديدة فى رؤيتك. وستكون فرصة لكى تمديه بما يحتاجه».

– «بالطبع، لا جدال فى ذلك. طعام، نقود، ملابس، وماذا أيضًا؟ لابد أن أفكر فيما يمكن أن يحتاجه غير ذلك».

– «هذه الأشياء تكفى فى الوقت الحاضر. أما الباقى فنحن نتولى أمره. هل تظنين أنه يمكن تجهيز هذه الأشياء غداً فى نفس الوقت؟».

– «بكل تأكيد» (قالت ذلك بالفرنسية).

– «حسنًا، فى صباح الغد سآمر لأصطحبك معى». عندئذ أراد نيكتياس أن ينصرف، لكنها أمسكت بيده. كان وجهها قد امتلأ بالدموع، وقالت:

– «نيكيتاس، سأظل مدينة لك بهذا طوال عمرى».

– «هيا، يا عمتى، ماذا تقولين؟ نحن عائلة واحدة» وعند الباب الخارجى استدار تجاهها ثم قال: «نحن متفقون أن كوستيس لن يعرف أى شىء».

– «هل جننت؟ بالطبع لا».

* * * * *

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى تقابل فيها ذافنى ابنها ماخوس فى ظروف غريبة. لكن فى هذه المرة انتابها شعور غير مريح، وقد تضاعفت عصبيتها فى اللحظة التى رأت فيها أن ابنها الحبيب كان قد حل ضيفًا فى مخزن تجارى بأحد المنازل فى منطقة السيوف، خلف كنيسة القديسة باراسكيفى أمام محطة الترام فى شارع على هيبه. لذلك كان أول ما قالته له هو:

ذافنى: «سوف آخذك من هنا فى القريب العاجل، يا بنى».

أما ماخوس فقد شعر بالقلق بعد أن لاحظ أن أمه ترتدى ملابس بسيطة، تشبه تقريبًا ملابس الفقراء، وعندئذ قال:

ماخوس: «لماذا تلك الملابس يا أمى، ما الذى يحدث؟».

– «لقد طلب منى نيكيتاس أن أرتدى ملابس كتلك لكى أبدو" كامرأة فقيرة"(قالتها بالفرنسية) حتى لا أثير الشبهات أمام الناس فى تلك المنطقة. أما أنت، هنا........».

– «لا تقلقى بشأنى ياأمى. أنا هنا بخير. كيف حال كوستيس، وكيف حال ابنة أخى، وزوجته..........».

– «زوجته.....» أجابته ذافنى وهى تحرك كفها «إنها لم تعد معنا. لقد طردها أخوك. كنت أظن أن نيكيتاس قد أخبرك بذلك».

ماخوس: «طردها؟ "تصرف سليم "(قالها بالفرنسية). لا، لم يخبرنى شيئًا».

إذا كان من الضرورى أن يقلق أحد بشأن مظهر شخص آخر فلن يكون ماخوس، ولكنها أمه التى كان ينبغى أن تقلق عليه وهى تتطلع إلى ملابسه الرثة وذقنه الطويلة وشعره الكثيف وعينيه المرهقتين، وتساءلت أين ذهب جماله المشع خلال السنوات الخمس التى لم تره فيها. لكنها لم تقل شيئًا، لأنها تعرف مدى اهتمام ابنها بمظهره، إلا أنها سألته متأثرة:

- «هل أستطيع أن أفعل شيئًا من أجلك، يا ولدى؟».

- «الحقيقة هناك ما يمكن أن تفعليه من أجلى يا أمى، اسمعينى جيداً. أريدك أن ترتبى لى لقاء مع إلياس».

- «مع إلياس؟ لكن.........».

- «نعم مع إلياس.إنه الوحيد الذى يمكنه مساعدتى فى هذه اللحظات الحرجة».

- «إلياس؟ هل أنت متأكد؟».

- «متأكد تمامًا(قالها بالفرنسية) يا أمى، فلن أعيش فى السيوف طيلة عمرى ولن أنام على مرتبة من أوراق الموز حتى تنتهى الحرب».

- «ولا أنا، يا ولدى، لكن لماذا نثق فى هذا "الشامى"؟ (قالتها باللغة العربية ودونّها بحروف يونانية)».

- «لأن هذا الشامى سيساعدنى فى الوصول للإنجليز».

- «للإنجليز؟».

- «نعم، للإنجليز. لا أستطيع أن أقضى بقية حياتى مطاردًا من الجميع. لابد أن أنال العفو فى وقت قريب، ألا تظنين ذلك أنت أيضًا؟».

- «كل هذا عظيم يا ولدى (قالت ذلك بالإنجليزية)، لكن كيف سيتم هذا؟ ما أريد أن أقوله...........».

- «لا تقلقى بشأنهم (قال ذلك بالفرنسية)، فقد فكرت كثيرًا من قبل فى تلك اللحظة الحرجة. كل ما أريده منك أن تساعدينى فى الوصول "للبنانى"».

- «حسنًا يا ولدى، سأنفذ ما طلبته».

- «ولا تخبرى نيكيتاس بشىء».

- «ولكن لماذا لا أخبر نيكيتاس بالتحديد؟».

- «هيا، اذهبى الآن وأشكرك على كل ما أحضرتيه لى» قال ماخوس ذلك ثم قام بدفعها للخروج من هذا الجحر.

عندما حضرت ذافنى لمقابلة ابنها كان ينتابها شعور بعدم الارتياح، وعندما غادرت أصبحت على يقين من أن نهاية ما يفعله ابنها لن تكون طيبة. على الأقل فلن يعرف كوستيس أى شىء.

* * * * *

فى الخامس عشر من شهر نوفمبر لعام ١٩٤٢، على الرغم من دوى الأجراس فى الإسكندرية ابتهاجًا بالنصر، فإن عودة إلياس للمدينة كانت هى الدليل الصادق على انتهاء الحرب بشكل نهائى. استعد اللبنانى للاحتفال بأعياد الميلاد وبادر بالحضور لعشاء رأس السنة فى منزل آل خاراميس. لم يحضر معه هدية واحدة أو اثنتين، ولكنه أحضر ثلاثين قطعة من الزجاج لكى تحطمها ذافنى الكبيرة والصغيرة أيضًا بأيديهن، وفقًا لما تقتضيه التقاليد. ثم تغيَّب مرة أخرى لعدة أيام، وظهر فى نهاية شهر فبراير.

بدا إلياس فى قمة نشاطه وبدت فى وجهه النضارة التى عكستها عليه النهاية السعيدة لحرب الصحراء. ويبدو أن إيفيت هى الوحيدة التى لم تشاركه هذا الإحساس الجميل.

«ماذا، هل وجدت طريق العودة أخيرًا؟» كان هذا هو أول ما قالته إيفيت عندما فتحت له باب منزلها فى لوران. وكان ذلك فى منتصف نهار أحد الأيام فى نهاية شهر فبراير من عام ١٩٤٣، حيث كانت السماء ملبدة بالغيوم.

أما إلياس فبدلاً من أن يلقى عليها التحية، لمس ساقها بطرف شمسيته الفضى ووضع فى أحضانها باقة كبيرة من الزهور وعلبة من الحلوى. أسرعت الخادمة المصرية الشابة تحمل عنها هذه الهدايا. وعندما أصبحا بمفردهما، انحنى اللبنانى وقبلها فى شفتيها،

ثم همس فى أذنها قائلاً (بالفرنسية): «كم أشعر بالسعادة لرؤيتك مرة ثانية». كان إلياس يبدو أنيقًا حقًا، يضع عطرًا ذا رائحة جذابة وقد صفف شعره بنفس طريقة الممثل كلارك جيبل. لكن إيفيت لم تكن لديها الرغبة فى الاستسلام لفتنته. ساعدته على خلع البالطو الذى يرتديه، وسارا عبر الطرقة وقد لف كل منهما ذراعه حول الآخر، وكأنهما قد وقعا فى الحب لأول مرة فى هذه اللحظة.

إيفيت: «أيها المدعى! (قالتها بالفرنسية). لقد أصبحت أحفظك. "حتى إنك لم تهتم" (قالتها بالفرنسية) بالسؤال علىّ ومعرفة إذا ما كنت على قيد الحياة أم المنية قد وافتنى». قالت إيفيت ذلك بشىء من الدلال.

إلياس: «لكن لماذا تقولين ذلك؟ تعرفين أنى لا أستطيع العيش بعيداً عنك وعن الإسكندرية. فليحيا روميل».

– «حقًا، لن أنسى أبدًا وجهك فى اليوم الذى جئتنى فيه لتخبرنى بقرار رحيلك عن الإسكندرية. كنت ترتعد من الخوف "أيها الجبان "(قالتها بالفرنسية)» قالت ذلك ثم انفجرت ضاحكة.

– «آه، يا إيفيت، قولى ما تشائين. فأنت لا تعرفين كم كنت أفتقدك هناك».

– «بالطبع ذلك أمر معروف (قالت ذلك بالفرنسية)، ولابد أنك كنت تفكر فى ساعات الفجر فى حالى عند مغادرتك الكباريهات وصالات القمار، حيث كان ينتابك الشعور بتأنيب الضمير. إنك النفاق بعينه "أيها اللبنانى"! لقد كنت تستمتع بحياتك فى بلدك وتركتنى هنا أعانى وحدى. إنك حتى لم تسأل كيف استطعت وأنا ألهث كالمجنونة التوفيق بين النادى العسكرى وبين منزل شارع مصطفى باشا».

– «كلا بالطبع، فأنا أثق فى قدراتك. وكنت على يقين من أنك ستقومين بكل شىء على أحسن وجه».

– «اللعنة! (قالتها بالفرنسية)، بل كان الشىء الوحيد الذى أردت التأكد من عدم إلحاق الضرر به هو، نفسك فقط، فى حالة دخول الألمان الإسكندرية.

وإذا ما كان روميل قد وصل حتى السويس لوجدناك الآن فى أستراليا، أنا على يقين من ذلك. أقسم أننى لم أر من هو أكثر جبنًا منك فى حياتى».

– «على أية حال، أنا الآن هنا وهذا هو المهم، أليس كذلك؟ العم خورى هنا لكى يجد حلولاً لكل مشاكلك» قال ذلك إلياس ودس نفسه فى أحد المقاعد الضخمة، وهو يبتسم ابتسامة واثقة.

– «عظيم (قالتها بالفرنسية)، فلنبدأ إذن من منزل شارع مصطفى باشا» قالت ذلك إيفيت بينما كانت تعد بعض المشهيات، ثم استطردت قائلة: «منذ أن قرر الإنجليز طرد الفتيات المجريات والنمساويات باعتبارهن من المخربات، فقدت اتزانى. أحضرت فتيات سوريات – لبنانيات، مصريات، يونانيات، إنجليزيات، شرقيات، فرنسيات، روسيات. اللعنة، فأنا أقوم بتغيير الفتيات كل يوم تقريبًا: لولو، جيزيل، ديزى، ليلى، سامنثا، سيمون. أسماء، أسماء...... كيف يمكن لأحد أن يتذكرها. وبات من الصعب إرضاء الزبائن الذين أصبحوا دائمًا مخمورين. كم كنت أتمنى أن أعرف أين ذهبت صرامتهم العسكرية. يبدو، أنهم يتركونها خارج الباب، وما الذى يستطيع جعفر أن يفعله، لقد أصبح عجوزًا. بين الحين والآخر يسقط أحدهم ميتًا، ولا تتخيل مدى الورطة التى نصبح فيها وما الذى يمكن أن نقوله لأسرته؟؟».

– «كل ما تقولينه أعرفه بالفعل» قال ذلك وهو يتناول منها كوب الشراب.

– «نعم، لكنك لم تفعل شيئًا منذ بداية الحرب حتى تتحسن الأمور التى تعرفها».

– «ماذا يمكننى أن أفعل؟».

– «لا أدرى، أن تبدأ مثلاً بالحديث مع قائد البحرية البريطانية، تشرح له الأوضاع، يضع حدًا لما يفعلونه. لابد بأيه حال أن يفعل شيئًا مع هؤلاء الأجلاف الذين لا يقيمون أى اعتبار لنا، ويمتطوننا جميعًا».

– «ماذا تقولين. هذا لن يحدث» أجابها وهو يدنو منها بقداحته لتشعل سيجارتها. امتلأت غرفة الصالون بالدخان.

– «لقد طلبت منك أيضًا مرات عديدة أن تتحدث مع أصدقائك الأغنياء بخصوص النادى. فليضعوا أيديهم فى جيوبهم ويخرجوا بعض النقود. ففى نهاية الأمر، كل هؤلاء الشباب يحاربون ويضحون بأرواحهم من أجل حماية ثرواتهم. ألا يستحقون بعض الترفيه؟».

– «لكنك قلت إنهم ليسوا سوى أجلاف منذ قليل. هل يمكنك أن تصفيهم بطريقة أكثر تحديدًا؟».

– «عندما يتصرفون كالرجال سأقول إنهم رجال. وعندما يتصرفون كالأجلاف فهم ليسوا سوى أجلاف، ما الذى يمكننى أن أفعله غير ذلك؟».

– «والآن، لكى أكون صادقًا معك، فهناك سبب آخر لزيارتى اليوم. أنا مستعد لوضع حل لكل مشاكلك، لكن ليس اليوم. اليوم أريدك أن تساعدينى فى حل مشكلة تخصنى».

– «آه، حسنًا(قالتها بالفرنسية) أيها الأنانى. سنقضى حياتنا كلها لنحل لك مشاكلك».

– «لا تقولى ذلك. لأن هذه المشكلة تخصك أنت أيضًا».

– «ماذا، لم أكن أعرف أن هناك مشاكل تجمع بيننا».

– «مشكلة واحدة. فعليك التزام روحى تجاه أندونيس يجعلك تساعدينى».

– «لا تقحم أندونيس فى الموضوع؟».

– «ولكنه أمر يخصه هو أيضًا، مثلما يخص على الأقل والدًا يعمل على إنقاذ ابنه».

– «هل تتحدث عن كوستيس؟».

– «لا، بل أحدثك عن ماخوس».

– «ماخوس؟ لكنه يعيش بعيدًا جدًا عن هنا فى قلب الاحتلال الألمانى لليونان. ما الذى يمكننا أن نفعله لكى نساعده؟».

– «هل تحفظين سرًا؟».

– «أبعد كل تلك السنوات التى عرفتنى فيها تسألنى! كان لابد أن تكون على ثقة من ذلك».

– «حسنًا (قالها بالفرنسية)، كيف سيبدو الأمر لو أخبرتك بأن الدكتور ماخوس موجود الآن فى الإسكندرية، وليس بعيدًا عن هنا».

– «أحقًا هذا!» (قالتها بالفرنسية).

– «بالفعل هو موجود هنا. لقد إلتقينا وتحدثنا. يريد أن يتفاوض مع الإنجليز لينجو بنفسه».

– «وأنت من الذى أخبرك بوجوده هنا؟ أخوه؟».

– «بالطبع لا، فكوستيس لا يعرف بوجوده، ولا ينبغى أن يعرف. على الأقل فى الوقت الحالى. لقد جاءت إلىّ والدته وأخبرتنى بذلك، أرانى فى مأزق كبير، يا إيفيت. أعتقد أنه لابد أن أفعل شيئًا من أجله. باسم صداقتى لأندونيس».

– «لم أعد أعرفك يا إلياس، أأنت من يقول ذلك؟».

– «ربما لا تعرفينى جيدًا، يا إيفيت».

– «هذا ليس خطئى (قالت ذلك بالفرنسية)، أنت الذى لم تدعنى أعرفك جيدًا»

– «على أية حال. لنعد لموضوعنا. كنت أقول إننا يجب أن ننقذه، وهو نفسه يمتلك ورقه رابحة بين يديه، أو هكذا يقول على الأقل».

– «وما تلك الورقة؟» سألته وهى تشير للخادمة المصرية الصغيرة التى ظهرت ومعها الصنف الأول من الطعام.

– «الأمر يتعلق بشبكة من الشيوعيين التى لها نشاطات وتقوم بجلب المرشدين السياسيين من اليونان إلى الشرق الأوسط. والدكتور ماخوس يؤكد أن لديه قائمة طويلة من الأسماء».

- «هل من الضرورى أن تقول "دكتور" ماخوس؟».

- «نعم، فعندما ناديته باسم ماخوس، قام بتصويبى قائلاً: " دكتور ماخوس"».

إيفيت: «حسنًا. ولكن هل تصدق قصة الدكتور ماخوس؟».

- «لاتوجد أهمية لما أصدقه أنا. المهم أن يصدقه الإنجليز بكل تأكيد، حتى لو كان ماخوس يلعب بالنار - وهذا ما أعتقده- فيبدو أنه هو نفسه قد استخدم نفس الشبكة لكى يهرب من اليونان».

- «آه، يبدو أن الدكتور قد عقد الأمور».

- «الغريق يتعلق بقشة» (قال ذلك بالفرنسية وكررها باليونانية).

- «لكن بالنسبة لى كيف يمكننى المساعدة؟».

- «لدينا واجب تجاه أندونيس و............».

- «لقد فهمت ذلك. كيف يمكننى المساعدة، هذا ما أسأله».

- «لو أنك قمت بعرض الأمر على مستر " فويس"......».

- «ولماذا لا تقوم أنت بذلك؟».

- «سيكون للكلمات وقع مختلف لو أنها خرجت من فمك الجميل».

- «دعك من هذا، أيها " اللبنانى". ففى كل مرة تدفع الآخرين للمقدمة».

- «لكننا سننقذ بهذا العمل أحد أبناء الإسكندرية».

- «أنقذه وحدك. فقد لجأ إليك أنت،" مفهوم؟ " (قالتها بالفرنسية)».

نهضت إيفيت لكى تشرف على إعداد طعام الغذاء. أدرك إلياس أنها لم تكن مستعدة لسماع هذه القصة، وهو بدوره لم يلح عليها. كان يتابعها بنظراته بينما كانت تراجع

بعناية كل شيء موضوع على المائدة، وفكر فى أنه ربما لم يكن من الصواب أن يحرمها من أن يكون لها منزل وأطفال والاستمتاع بتلك المشاحنات العائلية المعتادة. لكن الوقت قد أصبح متأخراً ليعوضها عن ذلك. لم يدرك كيف واتته الفكرة ليقول لها:

«لقد كان قرار كوستيس بطرد هايكى قراراً صعباً. أتذكر كيف كان يهيم بها حباً من قبل».

استدارت إيفيت ونظرت إليه وكأنها تريد أن تقول شيئاً، لكنها عدلت عن رأيها فى اللحظة الأخيرة. استمر إلياس فى تدخين سيجارته فى هدوء، وهو يتطلع من نافذة الشرفة إلى تلك السحب الداكنة التى غطت البحر الهادئ على غير عادته بلونٍ رمادى.

* * * * *

كوستيس: «ما الذى تعنيه بأنك رأيتها تدخل أحد المنازل فى منطقة السيوف؟».
هكذا سأل كوستيس ميسا دون أن يرفع بصره عن الورق الموضوع أمامه على المكتب.

ميسا: «أعتقد أنى كنت واضحاً فى كلامى، أيها الرئيس (قالها بالإنجليزية). لقد دخلت أحد المنازل فى منطقة السيوف، إلا إذا كنت مخطئاً وأن المنطقة التى تقع قبل حى فيكتوريا لا تسمى بالسيوف ولها اسم آخر».

– «هل كانت وحدها؟» استكمل كوستيس أسئلته دون أن ينظر إليه.

– «نعم وحدها، وكانت ترتدى ملابس يمكن وصفها بأنها بسيطة».

– «بسيطة؟».

– «أعنى أنها لم تكن ترتدى مثلما اعتادت والدتك دائماً: ملابس فاخرة، مجوهرات، قبعة، قفازات، مروحة.......».

– «نعم، أعرف، ثم.....؟».

– «ثم ماذا؟».

– «هل هذا هو كل ما ترغب فى قوله؟».

– «لم أستطع أن أدخل خلفها إلى المنزل. فالمفترض أن لا ترانى».

– «مفهوم» أجابه كوستيس شاردًا وهو يعبث ببعض الأوراق.

– «أيها الرئيس (قالها بالإنجليزية)، هل تسمعنى أم أننى أتحدث إلى الهواء؟» هكذا بدا صوت ميسا منزعجًا، مما أدهش رئيسه وجعله يرفع رأسه.

– «ميسا!» صاح وهو فى شدة الضيق.

– «ماذا؟ إنه ليس خطئى. لقد تغيرت كثيرًا، أيها الرئيس (قالها بالإنجليزية)، لقد تغيرت منذ رحيل هايكى».

من الممكن وصف الطريقة التى يتحدث بها ميسا إلى كوستيس منذ تعارفا فى باريس بالحميمية لأبعد حدود. كان الروسى – الضابط السابق بالجيش الأبيض – يتحدث إلى كوستيس بوصفه صديقًا، لكنه كان حرصًا على أن يسبق كلامه دائمًا بلقب "رئيس"(ذكرها بالإنجليزية)، ولم يدعه أبدًا باسمه. وكان يتخطى حدوده فى بعض الأحيان، مثلما حدث الآن، ويعبر عن ضيقه بطريقة تزيل بينهما كل الفوارق. مما كان بالطبع يسبب الضيق لكوستيس، لكنه كان يعرف أن علاقاتهما ستعود سريعًا إلى سابق عهدها.

– «ألا تظن أنك تبالغ قليلاً؟ ما الذى تعنيه بأننى تغيرت؟».

– «أعنى أننى لم أعد أعرفك. لقد كنا أصدقاءً يومًا ما فى باريس، هل تتذكر ذلك؟ أنت، أنا، إيفيتس، هايكى. الآن لم يعد هناك سوانا نحن الاثنين».

– «هذا ليس خطئى».

– «أعلم ذلك، ولهذا لابد أن أهتم بك».

– «لم أطلب منك أن تهتم بى أنا بل تهتم بأمى».

- «عمل آخر لا قيمة له» هكذا همهم ميسا.

- «ماذا قلت؟».

- «الأمر كذلك، أيها الرئيس (قالها بالإنجليزية)، وأنت تعلم ذلك. منذ أن جئت بى من باريس وأنا أقدر لك ذلك، إلا أنك تكلفنى دائمًا بالأعمال التافهة الواحد تلو الآخر. هل تظن أن مراقبة والدتك من الأعمال التى تروق لى؟».

- «كنت أظن أن ذلك لن يضايقك. على أية حال، فأنت تفعل ذلك لصالحها».

- «لصالحها! لابد أن تخاف من الشخص الذى يعتقد أنه يعرف صالح الآخرين».

كوستيس: «سفسطة فارغة».

- «على أية حال (قالها بالفرنسية)، هذه هى المرة الأولى التى سأحدثك فى هذا الموضوع، لكنى لا أريد الاستمرار فى متابعة السيدة ذافنى كظلها. خاصة وأننى لا أرى سببًا لذلك».

ومع اشتداد حدة الحديث بدت عينا ميسا وكأنها تطلق شررًا وانتفخت أوداجه وكأنها على وشك الانفجار، حتى أن كوستيس تذكر ذلك الوقت الذى كان ميسا بعضلاته المفتولة يمتع فيه الجماهير الباريسية، بجذب السيارات بأسنانه فوق أحد المنحدرات بمنطقة مونمارترى. كانت ذكرى سعيدة جعلت كوستيس يبتسم.

- «أتضحك؟ لقد مضى وقت منذ أن رأيتك تضحك».

- «لم أقصد ذلك».

- «ربما (قالها بالفرنسية). لكن أخبرنى إذن، ما الذى أصابك فجأة وجعلك ترغب فى مراقبة والدتك؟».

- «ما الذى أصابنى؟ أنت تعرف أنها طوال الأسبوع الماضى لم تكن تصعد لتنام فى غرفتها قبل الخامسة صباحًا. وتجلس فى القبو باكية طوال الليل. أمس الأول سمعتها تهمس قائلة: يا إلهى أنقذ ابنى».

- «لابد أنها قلقة عليك. ولو كنتُ فى مكانها لفعلتُ مثلها».

- «ليس الأمر كما تظن يا ميسا. هناك أمر ما ولابد أن أعرفه. لابد أن نبادر نحن بالمفاجأة قبل أن يبادرنا بها الآخرون» هكذا تحدث كوستيس وقد أطلت من عينيه فجأة نظرة يملؤها الشر لا يُعرف لها تبريراً.

- «إنك تخيفنى، أيها الرئيس (قالها بالإنجليزية). ولم تكن هكذا من قبل».

- «هكذا، كيف؟».

- «لست أدرى، تبدو بوصفه شخصًا قد يقدم على قتل أى شخص حتى لو كان أخاه».

- «ما هذا الكلام الفارغ الذى تقوله. دع أخى هناك فى مكانه. وليظل على الأقل فى الوقت الحاضر بعيداً عن الإسكندرية من أجل مصلحته ومصلحتنا نحن أيضًا».

- «حقيقة، هل فكرت من قبل كيف ستكون ردة فعلك، إذا ما علمت أن أخاك موجود الآن فى الإسكندرية؟».

- «قلت لك دعك من هذه الحماقات واهتم فقط بأمر أمى. ألا يبدو لك غريبًا بعض الشىء ذهابها المتكرر إلى حى السيوف مرتدية تلك الملابس البسيطة باعتبارها امرأة عادية».

- «حقًا إنه أمر غريب. سأفعل ما بوسعى لأستجلى الحقيقة، وأرجو أن تنتهى هذه القصة على خير».

* * * * *

كانت الورقة تقول: «سوف أنتظرك عند خطوط السكك الحديدية، ناحية العصافرة اليوم عند منتصف الليل. سأمسك بمصباح أحمر. لدى أخبار من الإنجليز. لا تتحدث لأحد ولا حتى لنيكيتاس. إنهم يراقبونك. أنت فى خطر». كان كل ما استطاع ماخوس أن يراه هو طرف جلباب أبيض يخفق فى الشارع، قبل أن يختفى خلف أحد الحوائط. لقد قام شخص ما بدفع مبلغ من المال لأحد "الفلاحين" حتى يقوم بتوصيل الورقة إليه من أسفل عقب باب المخزن الذى يختبئ فيه ماخوس، ولم يكن ذلك الشخص سوى إلياس خورى. كان يمكنه التأكد من ذلك بسهولة لو أنه قام بالاتصال بالرقم الذى تركه له إلياس فى حالة حدوث أى شىء طارئ، ولكن أين يجد شخص يختبئ فى أحد المخازن بحى السيوف هاتفًا، إن ذلك يعتبر من ضرب المستحيلات.

"ماذا لو كان فخًا؟"، هكذا سأل ماخوس نفسه. وعندئذ قال على الفور لنفسه: "لو كان فخًا، فالويل لى".

كان عليه أن يفكر جيداً قبل مغادرة المخبأ الذى يشعر فيه بالأمان - على الأقل حتى وقت قريب - وربما كان كاتب الرسالة على حق، فربما يكون من قاموا بإخفائه قد أدركوا نيّاته، وعندئذ ستصبح حياته فى خطر محدق. ربما كانت رحلته قد تم التخطيط لها منذ البداية، وأن يكون فالساميس نفسه قد قاده من أثينا إلى هذا الفخ القاتل. لم تكن لديه أدنى رغبة فى مواجهة قدره. منذ اللحظة التى قرر فيها العودة إلى المدينة، كان يقول لنفسه دائمًا: "إذا كان مقدراً لى الموت، فلأمت إذن فى الإسكندرية". إلا أنه ما زال يقاوم حتى الآن باعتباره حيوانًا مفترسًا وقع فى الشرك، فقام بمحاولة يائسة لكى ينجو بنفسه بأية طريقة، لكن كانت خطواته المندفعة دائمًا سببًا فى أن يلقى نهاية مفجعة.

فى الفترة الأخيرة، لم يكن لدى ماخوس تلك الرفاهية التى تمكنه من التطلع للغد أو التخطيط للمستقبل. فكل يوم قد يكون هو آخر أيام حياته. وقد تفيده إعادة التفكير فى أسلوب حياته حتى يهجر هذا العالم الذى لا طائل منه بضمير مستريح، وعندئذ بدأ يسترجع تلك السنوات الصعبة التى قضاها فى ميونخ عندما تجمدت أفكاره ومعتقداته فى " العالم الجديد". كان يسترجع مناقشاته مع شخصيات مهمة، وبدأ

يتعايش من جديد مع رودولف إس من ناحية ومع إيريك شولتسير من ناحية أخرى. اثنان لا يستطع أن ينساهما أبداً. لكن فى النهاية واحد فقط من الاثنين كان له تأثير عظيم عليه وهو إيريك، صديقه الذى لم ينسه. لقد حرص ماخوس على الاحتفاظ بذكرى صديقه القديم داخل نفسه. ثم جاء دور إس ورحلته المشئومة فوق إسكتلاندا. فمنذ أقل من عامين اتبع نفس رحلته اليائسة إلى الإسكندرية. ما الذى جناه إذن؟ أين يكمن الخطأ الحتمى؟ من الذين خدعوه؟ هل هم البشر، أم أنها أفكارهم؟ لا، ليسوا البشر أو حتى أفكارهم. فقد جرفتهم الأحداث جميعًا إلى تلك النهاية البشعة، تلك الأحداث التى سخرت من الأفكار العظيمة وشوهت سمعة العظماء من البشر. كانت تطلعاتهم نبيلة، لكنها كانت مرفوضة من قِبَل ذلك المصير البغيض الذى شعر بالغيرة من تلك الخبرة العظيمة لمن هم فوق مستوى البشر.

غطرسة لا يتبعها عقاب. أين تردد ذلك من قبل؟ لم يكن الموت يفزعه، لكنه كان يشعر بالحزن لأنه قد يموت وهو يحمل اسم خارالاميوس لاذاس، ضحية روتين الاحتلال. هل كان لهذا الرجل وجود؟ وهل كان حقًا جنديًا بالجيش اليونانى أم أنه مجرد اختراع تفتق به ذهن فالساميس بهدف القضاء على زميل دراسته القديم؟

مع توارد كل تلك الأفكار فى ذهنه حل الليل سريعًا، ولم يأت اليوم أحد ليراه. ومع اقتراب منتصف الليل، كان ماخوس يتصارع مع نفسه بجنون. فى الواحدة صباحًا قال: «سوف أنام الآن». تمدد على " الحصيرة " فوق المرتبة المصنوعة من أوراق الموز ثم أغلق عينيه، محاولاً أن ينسى أمر تلك المقابلة. وعندما استيقظ بعد ذلك قال:«سوف أذهب الآن». ارتدى ماخوس معطفًا وحذاء، واستعد للخروج إلا أن هناك شيئًا جعله يتردد.

فى النهاية خرج إلى الطريق، متخذًا فى جنح الظلام الاتجاه الذى كان يتذكر أنه يؤدى إلى منطقة العصافرة. وعندما وصل إلى هناك، لم يجد سوى صحراء خاوية. وفجأة فقد إحساسه بالوقت: كم كانت الساعة، كم قطع من المسافة. كانت ليلة باردة، وقد أصابته الصحراء بهوائها البارد بقشعريرة سرت فى جسده. وصل إلى السكك

الحديدية حيث أصبح لا رجعة بعدها. هذا هو الفانوس الأحمر المعلق على الناحية الأخرى الذى أخبره به صاحب الرسالة، مازالت الفرصة مواتية له لكى يعود أدراجه، ولكنه لم يفعل ذلك. وبينما كان يعبر القضبان الحديدية شعر بوهن شديد يتملكه. أصبح الحلم والحقيقة بالنسبة له شيئًا واحداً. حاول أن يبقى عينيه مفتوحتين لكنه لم يستطع. شعر وكأنه يخوض فى مياه ضحلة، لكن ربما كان يحلم. امتدت إليه يد فى الظلام. هل كانت يد إس أم أنها يد أبيه؟ فى تلك اللحظة بدأ يعبر إلى الجهة الأخرى، وبدأ يهمس قائلاً: «أبى، أبى، إيريك؟». وعندئذ تلقى ماخوس ضربة موجعة على مؤخرة رأسه وشعر بروحه تهيم إلى اللاوجود، حتى إنه أراد أن يقول لذلك الرجل الذى ينهال عليه بالضرب بجنون، إنه لم تعد هناك حاجة ليجهد نفسه أكثر من ذلك، فقد مات ماخوس، مات فى النهاية.

* * * * *

فى كل مرة كان إلياس يدخل فيها مكتب رئيس الشرطة فى وسط المدينة، كان يسأل نفسه نفس السؤال: فيم يستخدم هذا المكتب الضخم؟ هل ليقوم الضابط المسئول بإلقاء الأوراق المتناثرة فوقه؟ ناسياً أن كل شىء فى هذه البلد كان ضخماً. لم يتغير شىء منذ أن كان الضابط فريد يجلس فى هذه الغرفة شبه المظلمة ذات الحوائط الصفراء، كانت رائحة دخان السجائر تملؤ كل ركن من أركانها. هذا الورق الأصفر الذى مازال يذكره بعد عشرين عاماً، ثقالة الورق، أجهزة الهاتف القديمة، لم يتحرك شىء من مكانه. كان الضابط نور يغمس سن ريشة الكتابة فى المحبرة ويكتب شيئًا فى الورقة التى أمامه، ثم يمرر فوقها الورق النشاف حتى يجف حبرها. وكان يجلس على مقعد خشبى ضخم ذى ظهر عالٍ مصنوع من خشب الجوز، ويشبه مقعد رئيس الأساقفة، أما صورة الملك فاروق المعلقة على الحائط فتوحى لك بأنها صورة رجل فاسد فى مجلة البلاى بوى أكثر من كونها صورة ملك، فى حين كان طربوش الضابط المصرى ذو اللون الأحمر الداكن يبدو وكأنه معلق فى الهواء، حيث تختفى الشماعة المعلق عليها بسبب ظلام الغرفة.

تشعر وكأن هناك نظامًا يسيطر دائمًا على هذا المكتب من الصعب أن لا يترك انطباعًا لدى الزائر. جلس "الشاويش"(قالها بالعربية ودونها بحروف يونانية) الذى قدم لهم الشاى عند الباب وهو يحدق بنظرة ثابتة تجاه الفراغ، منتظراً إشارة الضابط لكى يفسح لهما المكان. كان لدى إلياس سبب إضافى يجعله يشعر بالقلق، ففى مكان صديقه الضابط فريد يجلس الضابط التركى ـ المصرى، ذو البشرة السوداء، الداهية، نور. وبينما يحدثه كانت أسنانه البيضاء تلمع بشكل مخيف فى وجهه العريض، والتى تعد الشىء الوحيد المضىء فى هذه الغرفة إلى جانب أزرار بذلته اللامعة، يذكرك صوته الرفيع بصوت أحد الأبواب الصدئة وهى تفتح أو تغلق. أما اللغة التى يستخدمها فى حديثه فكانت تلك التى يطلق عليها إلياس "اللغة السوقية".

نـــور: «لقد أخبرونى أنك كنت متغيبًا لفترة طويلة عن مدينتنا، أيها اللبنانى».

إلياس: «نعم، ففى تلك الفترة لم تكن الإسكندرية آمنة لمن هم مثلى».

– «كان هذا متوقعًا طالما أنك حرصت طوال السنوات الماضية على أن يرتبط اسمك بالإنجليز».

– «أعتقد أنك لم تقم باستدعائى للحديث عن رحلتى إلى بيروت».

– «كلا، بالطبع. سيجارة؟».

– «شكراً، ولكنى أفضل أن أدخن من سجائرى».

– «لقد إستدعيتك هنا لكى نتعاون معًا فى حل لغز كبير» كان الضابط يتحدث وهو يرمقه بنظرة صارمة.

– «لو أن باستطاعتى مساعدة الشرطة فى عملها، فسأفعل ذلك بكل سرور».

– «لم أشك فى ذلك لحظة واحدة. هل يذكرك اسم خارالامبوس لاذاس بشىء؟»، كان نور يعرف القليل من اليونانية تجعله قادراً على نطق الأسماء اليونانية بسهولة، دون أن يدرك ذلك من يتحدث معه. تفاجأ إلياس بعض الشىء، لكنه لم يظهر ذلك، ثم استطرد الضابط نور قائلاً: «حسنًا، هل يذكرك بشىء؟».

- «تسأل إذا ما كان الاسم يذكرنى بشىء؟ ما هو الإسم مرة أخرى؟»

- «خارالامبوس لاذاس»

- «لا، لا يذكرنى بأى شىء» هكذا أجابه إلياس، وتذكر لو أن من يجلس خلف هذا المكتب هو المرحوم فريد لتغيرت الأمور تماماً.

- «يا للأسف لقد عقدت آمالى كلها عليك. الآن سيكون من الصعب العثور على أى دليل يقودنى إلى قاتله» قال ذلك الضابط المصرى وهو يضغط بشدة على آخر كلمة.

تظاهر إلياس كأنه لم يسمع هذا الخبر الحزين. إلا أنه شعر لوهلة بأن هناك من يسحب المقعد من تحته وحاول جاهداً إخفاء دهشته.

- «أرى أن هذا الحدث لا يثير دهشتك».

- «ولماذا ينبغى أن يثير دهشتى؟».

- «لأن موت أى إنسان يعتبر دائماً حدثاً جللاً».

- «نعم، ولكن إذا لم تكن تعرفه، فما الأهمية التى قد يمثلها لك؟ نحن فى حالة حرب ويموت الكثير من البشر كل يوم. لو أننا أظهرنا لكل واحدٍ منهم حتى ولو القليل من الاهتمام، عندئذ سيكون علينا ألا نفكر فى الحياة».

- «بالفعل، هذا إذا ما كان مجهولاً، لكنك تعرف لاذاس، أليس كذلك؟».

- «كما أخبرتك من قبل فهذا الشخص مجهول تماماً بالنسبة لى».

- «حسناً، إليك سيجارة. هل تريد بعض الشاى؟».

- «لا، شكراً. هل سيستمر هذا المزاح لوقتٍ طويل؟».

- «هل أنت فى عجلة من أمرك وتريد الرحيل؟ إنك لا تحضر كثيراً لمكتبى. بينما كنت تمر لتلقى بالتحية كل صباح عندما كان المرحوم فريد يخدم فى هذا المكتب».

- «لم يكن فريد يستدعينى للتحقيق».

- «أنا أيضاً لم أستدعك للتحقيق معك، كل ما أنشده هو مساعدة صديق».

– «بأن اعترف بمعرفتى لهذا المدعو لاذاس، أم من الأفضل أن أعترف بأنى من قتله».

– «لقد سرحت بخيالك بعيداً، أتراني أفعل شيئًا كهذا مع شريكى. فما زلنا شركاء، أليس كذلك؟ على الرغم من أنه لم يصلنى ولا " قرش"(قالها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) واحد مما يخصنى من منزل شارع مصطفى باشا منذ شهور».

– «ليس هذا خطأنا، هل تعرف أننا ما زلنا حتى الآن نعتنى بضباط الجيش؟ هل يستطيع أحد أن يجد سبيلاً مع الجيش؟».

– «أعرف، أعرف، ولذلك أتحلى معكم بالصبر حتى الآن». قال ذلك نور بطريقة تبدو كما لو كانت تحذيراً.

– «على أية حال، سيدى الضابط، حتى ننتهى من هذه القصة. لماذا ينبغى أن أعرف هذا الشخص؟».

– «لأننا عثرنا على هذه الورقة داخل جوربه».

– «وماذا بعد؟».

– «اقرأها إذن. ماذا تجد فيها؟».

– «بعض الأسماء وأرقام تليفونات».

– «ومن بين تلك الأرقام يوجد رقمك، أم تراني مخطئًا فى ذلك؟».

– «لا، لست مخطئًا».

– «إذن؟».

– «هذا لا يعنى أنى أعرفه».

– «سمعنى جيداً، يا عزيزى إلياس. أنت تعلم أننى لا أوجه إليك الاتهام بقتل أحد مرتادى بيت البغاء، حتى لو كنتُ على يقين من أنك من فعل ذلك. فاليوم تأتى العلاقات بين الناس فى المرتبة الأولى أكثر من حياتهم نفسها. يموت الكثيرون

فى الحرب، كما ذكرتَ مــن قبل، ولا يعنينا هذا فى شىء. أنا أحدثك باعتبارك عربيًا يتكلم مع عربى مثله. لا يهمنى إذا ما كنت تعرف هذا الرجل أم لا. بل لا يهمنى إذا ما كنت قد قتلته بنفسك. أريدك أن تعلم هذا جيدًا».

– «لماذا؟».

– «فلنقل إنى أقدر لكم عدم إقحام أنفسكم فى قضايا أجنبية».

– «نحن؟ نحن من؟».

– «أنت ومدام إيفيت، وأشير بذلك إلى شىء محدد. إلى حادثة المجندات اللاتى تم إغتصابهن وقتلهن فى حدائق وميادين الإسكندرية».

– «آه، نعم، أتذكر ذلك. لقد أخبرتنى إيفيت وأعتقد أن ذلك قد حدث فى الصيف قبل الماضى».

– «بالضبط».

– «لقد طلبت منها حينذاك أن لا تتدخل. فلم تكن مهمتنا أن نعثر على الجناة».

– «وكان قرارًا حكيمًا وعاقلاً من جانبكم، يا صديقى».

– «أنا لا أزرع فى أرضٍ ليست ملكى».

– «لذلك ليس هناك ما تخشاه. أما بالنسبة للرجل المدعو لاذاس، فسوف أحيل القضية إلى الشرطة العسكرية وليفعلوا ما يستطيعون. ومن جانبى فقد بذلت كل ما بوسعى. ولكن لتعلم فقط أن هذه القضية قد تم إرسالها من مركز شرطة فيكتوريا، حيث عثر على هذا الشخص مشوهًا بشكلٍ بشع على قضبان السكك الحديدية بالعصافرة. وقد حرص الجانى أو الجناة على أن يهشموا رأسه، وكنا على وشك أن نعرف هويته، لولا تلك الورقة التى كان يخفيها داخل جوربه ومعها تحقيق شخصيته. والآن كيف تبدو لك هذه القصة؟».

– «غير ذات أهمية» هكذا أجاب إلياس وهو يتثاءب متململاً.

* * * * *

لم يتم حل لغز مقتل خارالامبوس لاذاس، أو فى حقيقة الأمر، ماخوس خاراميس، تاركة ظلالاً من الشكوك تحوم حول كل من كانت لهم علاقة به. كان إلياس يتهم نيكيتاس والشيوعيين، بينما كان نيكيتاس يتهم إلياس والإنجليز، وفى نفس الوقت أشارت أصابع الاتهام أيضًا إلى فالساميس وشبكة التهريب. أما كوستيس فهو الشخص الوحيد الذى كان فوق مستوى الشبهات، إلا أنه لم يكن كذلك من وجهة نظر الجميع. فقد كان ميسا، الذى كان يعرف ما لا يعرفه الآخرون، يتساءل إذا ما أقدم رئيسه على استئجار شخص آخر ليحل له لغز السيوف. وإذا ما اكتشف شيئًا، فبالطبع لن يعرفه أحداً.

الشخصية الوحيدة التى عانت فى كل هذه القصة هى السيدة ذافنى التى أصيبت بالتعب من كل هؤلاء الذين يؤكدون لها حسن نيّاتهم، وكل أولئك الذين يؤكدون براءتهم، وبدأت تسعى جاهدة لكى تعثر على جثة ابنها التى كانت إحدى الهيئات الدبلوماسية قد تولت دفنه - دون علمها - باعتباره أحد المعدمين فى مقابر الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بالشاطبى، وهى على بعد أمتار من مقبرة العائلة. وقد اكتشف نيكيتاس مقبرته بمحض المصادفة بعد عدة سنوات. ففى فترة ما بعد الحرب كان نيكيتاس قد حصل على الشهادة من مدرسة سالفاغيوس التجارية، وعمل باعتباره محاسب فى إحدى شركات الطباعة الكبيرة بالإسكندرية. وقد أدى الموت المفاجئ فى ربيع عام ١٩٥١ لأحد عمال المطبعة إلى حضوره مراسم الجنازة بالمقابر اليونانية، حيث وقعت عيناه على شاهد أحد القبور المكتوب عليه "خارالامبوس لاذاس، جندى من أثينا"، إلا أنه لم يخبر أحداً بذلك، فقد اعتبر أن ابن عمته - بهذه الطريقة - يرقد فى سلام بالقرب من أهله.

لم يكن موت ماخوس يعنى نهاية الحرب. ففى صيف عام ١٩٤٣، عاد أنجيلوس موئيزيذاكيس إلى الإسكندرية، بصفته المرشد السياسى للحزب الشيوعى اليونانى. وكان مكلفًا بالإشراف على إرسال شحنة من الأغذية الصحية إلى اليونان، والتى كانت رابطة الأحرار الوطنية تقوم بالترتيب لها. وعندما علم بعض المنفيين من القيادة اليونانية بنشاطه، بدأوا فى مطاردته فى كل مكان، إلى أن وجد الرجل الهارب لنفسه

مخبأ فى حى السيوف. وفى هذا المنزل الذى يقع فى شارع على هيبه يمكنك أن تسمع أول ما تسمع أجراس كنيسة القديسة باراسكيفيس. ويمتلك هذا المنزل رجل يعمل فى الميناء يدعى بيتروس كاليزيس، ضخم الجثة، مفتول العضلات، ينحدر من كاستيلوريزوس، وكان قد بدأ نشاطه فى الحركة الشيوعية منذ الثلاثينيات بعد مصرع أخيه فى حادث مؤلم وقع له أثناء عمله، حيث سقطت فوقه حمولة ثقيلة لتقتله بعدما انقطعت الحبال فى أثناء إفراغ إحدى السفن. ومنذ ذلك الحين أعلن كاليزيس عداءه الأبدى ضد لأفراد الطبقات العليا، دون أن يتخلى عن عادته القديمة فى جمع العلب القديمة والاحتفاظ بأغطيتها. وقد جعلته تلك التصرفات الغريبة التى سيطرت على عقله نموذجًا للمقاومة المنظمة ضد جامعى الثروات، كما أدت إلى ثرائه قبل الحرب بقليل، حيث قام بشراء مساحة من الأرض وشيد فوقها منزلاً له حديقه خاصة به. ولكى يثبت إخلاصه للحزب الشيوعى، فقد حول المخزن الموجود بالمنزل إلى مأوى لبعض أعضاء الحزب الذين جاءوا إلى الإسكندرية هاربين فى الأعوام من ١٩٤١ حتى ١٩٤٤. وقد عانى كل الذين مروا على هذا المخزن من الظروف الصعبة، كالنوم فوق المرتبة المصنوعة من ورق الموز. ولم يكن يحتوى على أى من سبل الراحة، ففى الصيف الحر شديد وفى الشتاء البرد قارس والرطوبة القادمة من البحر تنخر عظام كل الهاربين المساكين. إضافة إلى ذلك، فقد كان نبات العدس الذى يزرعه حول المخزن الصغير يجلب إليه دائمًا الفئران التى كانت تهيم فى الحديقة. وكان الضيف دائمًا ما ينتفض من نومه فى منتصف الليل، منزعجًا بسبب وجود فأرين أو ثلاثة يحيطون به وقد شرعوا فى قرض المرتبة المصنوعة من أوراق الموز بنهم. فى النهاية، لم يكن على أحد أن يعتمد بشكل أساسى على مساعدة صاحب هذا المنزل. وفى نفس الوقت كان كاليزيس يحتفظ بمسافة بينه وبين هذا المخبأ، ولم يكن مسموحًا لنساء بيته بالاقتراب من المخزن. وفى الجهة الأخرى من الحديقة كان يربى الدجاج والأرانب، وكان يقوم بإحصائها فى كل مرة خوفًا من أن يكون أحد القاطنين بالمخزن قد التهم واحدة منها.

كانت زوجته ستراتيا - وهى من جزيرة ميتيلينى - تعد من أفضل الحائكات، وقد حافظت على جمالها حتى بعد بلوغها سن الخامسة والأربعين؛ أما عن ابنتها إيباكوى،

أو باكواكى كما كانت أمها تحب أن تناديها، فكانت فتاة جميلة تشبه أمها، وأثناء فترة الحرب كانت قد أكملت العشرين عامًا. جميلة، مرحة، صاحبة أصابع ذهبية، تملك روح دعابة نادرًا ما تجدها فى أحد، مما جعل أمها مضطرة لأن تستقبل كل يوم من يطلبون يدها، على الرغم من أنها قالتها بصراحه: «سوف أتزوج بمن أحب» وكانت تعنى ما تقول.

عندما اكتشف كاليزيس فجأة أن دجاجاته لم تعد تبيض مثلما كانت تفعل من قبل، لم يعرف ماذا حل بها، ولذلك فقد قام بمراقبتها، وعندئذ تأكد أن أغلب هذا البيض كانت تنتهى به الحال كطبق أومليت يتناوله المرشد السياسى، فقد هامت إيباكوى حبًا بموئيزيذاكيس وكانت تعد له الطعام بنفسها، مما جعل أباها يستشيط غضبًا.

كاليزيس: «بالله عليك، هل تظنين أن لدينا فائضًا من البيض لكى يتناوله هذا الشخص؟».

إيباكوى: «أبى، أنا أحبه».

– «هذا أمر لا يعنينى، كما أنه أكبر منك، أنا لا أوافق».

– «إنه رمادى الشعر، يا أبى العزيز. لكنه ليس كبير السن».

– «إنه رفيق. أى أسرة تلك التى سوف تؤسسينها معه؟ أيتها الغبية، أنا غير موافق، هذا هو رأيى».

– «قل لى إذن، ماذا كنت ستفعل لو كان فاشيًا؟».

فى الواقع، كان الوقت قد تأخر بشدة لكى يرفض كاليزيس، فقد وافقت الفتاة على إتمام الخطبة. أما زوج ابنته فى المستقبل فقد كانت السلطات قد وضعته تحت المراقبة. وكان يؤكد أنه ما زال لديه الكثير ليقدمه فى هذا الكفاح؛ أما الأب الداهية فكان لديه أمل خفى فى رحيل المرشد السياسى بلا رجعة، مثلما رحل العديد من أمثاله من قبل. وبالنسبة لموضوع إرسال شحنة الأغذية، فقد تمكنت رابطة الأحرار الوطنية من مواجهة احتجاجات تسونيروس وحكومة المنفى، وبعد عدة شهور بدأ التمرد فى صفوف الجيش اليونانى بمصر لأول مرة، مما يعنى اقتراب نهاية قصة كاليزيس مع ابنته.

* * * * *

«أى شخص يقول إن الأمور أصبحت على ما يرام سيكون كاذباً. ألم تكن الحرب كافية. لقد هبط علينا كل هؤلاء المتطفلين اليونانيين، ومنذ ثلاث سنوات ونحن نعيش فى فوضى! خبر تشكيل حكومة فى اليونان من رجال العصابات عشية الاحتفال بالعيد القومى. لقد ازداد جنون أنصار الملكية، فليساعدنا الرب!». هكذا كتب كوستيس فى مذكراته بتاريخ ٢٣ مارس ١٩٤٤ متنبئًا بالنتائج.

ولم يكن كوستيس هو الوحيد الذى يشعر بالقلق، ففى صباح اليوم التالى هاتفة إلياس قائلاً:

«من المتوقع حدوث اضطرابات ضد الحكومة عشية الاحتفال بالعيد القومى، لقد اتصل بى الضابط نور وهو فى شدة الغضب، فقد تم إبلاغه باحتمال حدوث إخلال فى النظام. الشرطة المصرية بأسرها تقف على قدم وساق. ولا يطلق عليكم الضابط نور لقبًا سوى الروم القذرين. ما الذى يحدث أيها الرومى؟».

كوستيس: «وأنى لى معرفة ذلك؟ فأنا مجرد صاحب مصنع للدخان محب للسلام ويعانى من ويلات الحرب».

إليـــاس: «وكأننى أستمع إلى أبيك منذ ثلاثين عامًا مضت» هكذا أجابه "اللبنانى" فجاءه صوت كوستيس على الجانب الآخر من سماعة الهاتف وهو يكاد ينفجر من الضحك.

– «على أية حال، أيًا كان ما يظنه نور أو أى شخص مثل نور بشأننا فعنده حق. وكان لزامًا علينا التخلص من كل هؤلاء المهاجرين الوقحين الذين أتوا إلى هنا ويظنون أنهم سوف يفعلون ما يحلو لهم دون أن يزعجهم أحد وهو ما كما كانوا يفعلون فى وطنهم. بهذه الطريقه فقط سنجد راحتنا من جديد» قال ذلك كوستيس وقد بدا غاضباً.

– «أنا على يقين من أننا سنعود مرة أخرى إلى العصر الذهبى».

– «العصر الذهبى؟ "هذا سخيف" (قالها بالفرنسية)، ليست لديك أدنى فكره عما تتحدث».

بعد يومين اتصل به "اللبناني" مرة أخرى وبدت فى حديثه نشوة الانتصار، بعد أن استشعر بأن توقعاته قد تحققت.

- أخبرتك بأنه لن يحدث شيء. "أليس كذلك؟" (قالها بالفرنسية)»، فقد مرت احتفالات الخامس والعشرين من مارس بدون مشاكل. إلا أن كوستيس أجابه:

- «على رسلك، فأنت لم تر شيئًا بعد»، وربما تكون أسئلة نيكيتاس الغريبة قد أثرت فيه، حيث قال:

- «لو أوقع بى الإنجليز مرة أخرى، فما زالت لدينا وسائلنا للفكاك منهم، "يا ابن العمة"؟ (قالها بالانجليزية)».

- «الزم الحذر، "يا ابن الخال" (قالها بالإنجليزية)، ودع التهور جانبًا، فالإنجليز لا يمزحون. احترم على الأقل ابن أخيك الطيار» قال ذلك كوستيس موجهًا له النصح.

وعلى أية حال، فلم يكن الأمر يتوقف فقط على نيكيتاس. فقد قامت حركة تمرد فى صفوف الجيش اليونانى يوم الخميس السادس من شهر أبريل، بدءًا من قيادة الجيش الأول اليونانى، واحتاج المتمردون مدة يومين للوصول إلى طاقم ثلاث من السفن البحرية اليونانية الراسية خارج ميناء السكندرية.

فى التاسع من شهر أبريل لعام ١٩٤٩، كتب كوستيس فى مذكراته: «فى الميناء الغربى ترسو ثلاث "خراف سوداء": "أبوستوليس" و"إيراكس" و"ساختوريس" - وهى سفن العصيان الثلاث. وعلى متنها يهدد المتمردون قائلين: "سوف نقصف الإسكندرية إذا ما حاولت السفن اعتراض طريقنا". هذا ما كان ينقصنا! مطلوب حل من روسوس، روسوس الذى ينتمى لنا، بدلا من تسوذيروس. "فلتقوموا إذن بتعيين حكومة يتولى تشكيلها السيد روسوس، وسوف يظهر تأثيره عندما يتولى زمام الأمور ولو لفترة قصيرة. فى خطوة جديدة محزنة"، هذا ما ورد فى اتصال تسوذيروس بيورغوس الثانى. لكن القائد الأعلى لم يعره أى اهتمام. فما الذى ننتظره من جندى يرتدى

بنطالاً قصيرا؟ إختفى نيكيتاس. وحتى الأمس كان يؤكد لى أن هذه الحركة كانت ستحدث بعيدا عن هنا، بعد أن تكون قيادة الجيش قد وصلت إلى إيطاليا. إفطار مع قادة الجيش فى "كشك الصداقة"». وكان كوستيس قد استجاب أخيراً لضغوط والدته وقام باستضافة الضباط المصابين وكذلك الذين تم تسريحهم. وكان فى الماضى يصاب بالذعر من فكرة تنقل هايكى بين رجال شبان وفاتنين. أما الآن وبعد هروبها فقد زال خطر مثل هذه الفكرة المضحكة، وضرب كوستيس أمثلة فى الوطنية والشهامة، وحصل بذلك على تقدير كبير من قبل الإنجليز. وعن هذا الموضوع دوّن كوستيس فى مذكراته بعد ذلك بيومين:

«أنا إنسان مقتدر مطيع للقانون ولكن لسوء الحظ فأنا محاط بأقارب يسببون لى المشاكل فالأخ نازى، وابن الخال شيوعى، وزوجتى السابقة صيهونية، وأمى مهربة آثار. والأسوأ من كل ذلك هو أن الجميع يعتبروننى أحمق ويحاولون – أو كانوا يحاولون – أن يخفوا عنى الحقيقة. وكانت آخر فاجعة هى قصة أخى. لو كانوا قد أبلغونى فى وقتها فربما تمكنت من عمل أى شىء لإنقاذه. أما الآن فقد مات، هذا ما قالوه لنا، وتسعى أمى جاهدة للعثور على جثته؛ فى حين يتبادل كل من نيكيتاس وإلياس الاتهامات تاركين تلميحات واضحة من الواحد ضد الآخر. وكلما حاولت الاعتراض على كل تلك الأمور غير السوية، يجيبوننى بأننى أذكرهم بأبى. وكأن ذلك خطأ يفوق أخطاءهم. نحن نعيش فى عالمٍ مجنون، لا يوجد تفسير آخر».

لهذا، ربما لم يستطع أحد فهم ذلك التحول الذى حدث فى الموقف تجاه الجيش اليونانى. وكان الإنجليز قد حاصروا معسكر الفرقة العسكرية اليونانية الثائرة فى برج العرب، مستخدمين الخطة الإنجليزية القديمة فى الحصار: وهى فرض الجوع، ذلك الخصم الذى لا يقهر.

كان كوستيس يتلقى فى " كشك الصداقة " تأكيدات من ضيوفه من الضباط الإنجليز بعدم إطلاق طلقة رصاص واحدة ضد قيادة الجيش اليونانى، تلك القيادة التى نالت الثناء خلال حرب الصحراء، تلك التأكيدات لم يقم كوستيس بالإفصاح عنها سوى

لعدد قليل من الناس ممن يثق بهم مثل "اللبناني"، الذى كان يقول له دومًا :«إنك تعرف الإنجليز لسنوات طويلة. ولذلك فلم يكن من الواجب أن تثق بهم».

ويبدو أن كوستيس لم يكن سانجًا، وإلا لم يكن ليكتب فى مذكراته: «ستعود حكومة المنفى مع الملك حتى لو اضطرت لقتل كل شباب العالم. خيانة! فى نفس الوقت أصبح منصب رئيس الوزراء كقطعة الحلوى التى يشتهيها الجميع. وفى الوقت الراهن يريد سوفوكليس فينيزيلوس أن يتذوقها. أخيرًا، وبعد كل ما حدث، حتى أنا بإمكانى أن أصبح رئيسًا للوزراء. بهذه الطريقة كان الناس يتحدثون». إلا أن كوستيس كان يحتفظ بهذه الآراء لنفسه، خاصة فى لقاءاته الصباحية مع ضباط الجيش فى "كشك الصداقة"، الذين كان من بينهم الملازم ثانى اليونانى، إلبينوفوروس تريانديس، "طويل القامة كالنخلة"، كما كانت تطلق عليه خاريتومينى وبعض الوطنيين. وكان يعالج من إصابة فى كتفه الأيسر. كان الضابط الشاب يبدو كالأسد فى قفصه، فلم يهدأ طوال اليوم فأخذ يجوب الحديقة ذهابًا وإيابًا وهو يهمهم قائلاً: «لقد ارتكب قادة الأسطول جرائم فى حق وطنهم». كان كوستيس معجبًا بمنطق هذا الشاب، وباعتباره رب أسرة فاضلاً لم يشأ أن يجعله يشعر بالإهانة. وكان يتفق مع آرائه، لكن لم يكن يعلن ذلك، وكان يفعل كل ما بوسعه حتى لا يقع بينهما أى خلاف، وكان يدون ما يدور أولاً بأول:

«اليوم قمت بدعوة الأدميرال أندرو كانيجام على الغداء، فلم أحظ برؤيته منذ أن انتقل من عمله. قام السير أندرو – الذى يعشق " الفلافل" (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) – بتوجيه مدافعه تجاه المتمردين وهو واضح فى حديثة (بالإنجليزية): "أريد أن أكون واضحًا مستر خاراميس، إما الطاعة أو الغرق". تلك هى الرسالة. لا يمكن أن يكون أكثر وضوحًا من ذلك. والآن أتخيل رجالنا فى قاع البحر. فليساعدهم الله».

فى العشرين من شهر أبريل اختفى إلبينوفوروس تريانديس، الذى كان دائم التجول فى الحديقة، وكان اختفاؤه عجيبًا. «هذا ليس بمؤشر طيب!»، هكذا دون كوستيس فى مذكراته فى مساء نفس اليوم.

عاد الضابط إلبيذوفوروس ترياندیس مرة أخرى للظهور فجأة فى صباح يوم الأحد فى "كشك الصداقة". كان مظهره رثًا، يرتدى زيًا مثل ذلك الذى يرتديه العمال، وجهه مغطى بالشحم، يبدو على وجهه قلة النوم والإرهاق، وقد أمسك بكتفه. لم يثر وجوده دهشة أحد حيث كان إلياس خورى قد حصل على تفاصيل ما حدث له مساء أمس من رفاقه.

وبمجرد أن رآه "اللبنانى" وهو يقترب من الصحبة، قال له متحذلقًا:

إلياس: «علمت أنكم والروم قد تشاجرتم فيما بينكم بالأمس. كيف استطعتم أن تفعلوها ثانية؟».

تریاندیس: «اذهب إلى الجحيم(*)» هكذا أجابه تریاندیس (بالإنجليزية) بشكل غاضب أمام أربعة من الضباط الإنجليز، وأمام كوستيس وسيستانيس، اللذين نظرا إليه واجمين. ثم انسحب إلى الداخل دون أن يعتذر.

لقد بدا الضيق واضحًا على كوستيس من هذه اللهجة، فى حين قام إلياس بالتعليق مداعبًا:

«ها هو ذا (قالها بالفرنسية)، ماذا قلت لكم؟» ثم أخذ يشرح ما حدث له من البداية: ففى مساء يوم السبت وصلت الباخرة البريطانية " أياس " ورست بين سفن المتمردين بالميناء الغربية فى نحو الساعة الثانية من بعد منتصف ليل يوم الأحد. فتحت مدافع السفينة البريطانية النار عليها وعندئذ قفز مائتا رجل إلى سفينة المتمردين وهم يرتدون زيًا كزى عمال المصانع ويغطى الشحم وجوههم وقاموا بالاشتباك معهم. وفى الثامنة صباحًا كانوا قد سيطروا على الموقف. فى نفس الوقت كان عشرة أفراد قد لقوا مصرعهم وأصيب نحو أربعين. هاجت الإسكندرية كلها حيث انتشرت شائعة تقول بأن اليونانيين يقتلون بعضهم بعضًا على السفن اليونانية.

فى نفس تلك الليلة، كتب كوستيس فى مذكراته: «المائتى رجل الذين قاموا بالسيطرة على السفن "أبوستوليس" و"إيراكا" و"ساختوريس" - فى صباح يوم

الاحتفال بعيد سان يورغوس - كانوا جميعًا ضباطًا يونانيين، جنود الأدميرال فولغاريس. وقد تم تأكيد هذه المعلومة من وكالة رويتر للأنباء. حتى ذلك الحين، كنت أتساءل: ما فائدة هذا الشحم على الوجوه؟ لو كانوا يعتقدون أنهم يؤدون واجبًا وطنيًا، فما السبب الذى جعلهم يخفون ملامحهم؟ إن طريقة إلبيذوفوروس التى تحدث بها فى الصباح تعبر عن نفسها.

فى مساء نفس اليوم أصبح من المؤكد استسلام اللواء الأول بالجيش اليونانى. كل من شارك فى التمرد سيتم تجريده من أسلحته وسيتم التحفظ عليهم مؤقتًا فى زنزانات السجون بالقرب من المدينة. ما زال نيكيتاس مختفيًا، ومازالت عمليات القبض على اليونانيين - المصريين مستمرة».

فى صباح اليوم التالى، وقبل أن يتحرك متوجهًا إلى المصنع، نادى كوستيس على إلبيذوفوروس تريانديس وطلب منه مغادرة المنزل قبل الظهيرة. «إن طريقة كلامكم بالأمس، أيها الملازم، وضعتنى فى موقف حرج» قال كوستيس ذلك وقد شعر بأن قامته قد قاربت قامة الضابط اليونانى فى الطول. أما تريانديس، وبعد أن شعر بالإهانة، فقد ألقى عليه التحية العسكرية، واستدار متوجهًا إلى خارج المنزل دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

فى مساء يوم الثلاثاء أصبح معلومًا للجميع أن سوفوكليس فينيزيلوس قد تقدم باستقالته، وتولى الوزارة بدلاً منه يورغيوس باباندريوس. فى المساء إتصلت به الخالة ماريا باكية، وقالت: «لقد تم القبض على نيكيتاس»، ثم أضافت: «ما الذى ستفعله؟» كانت كلماتها تخرج بشكل متقطع وبطريقة غير مفهومة. حتى إنه ظن أن التى تحدثه هى امرأة عجوز وقد أصابه الذعر لذلك. لم يكن يرغب فى التفكير فى أن هذه المرأة الجميلة المرحة التى يذكرها منذ كان طفلاً قد أصبحت كبيرة فى السن.

«توقفى، توقفى يا خالتى العزيزة عن البكاء، لا أستطيع أن أسمعك تفعلين ذلك» قال ذلك كوستيس وتعجب من نفسه. لقد بدا له أنه أصبح يتكلم مثلها، كانت له نفس الطريقة فى الكلام التى لم يسمح أن تتكلم بها امرأة فى مثل سنها. تفهمت أمه حزنها

على ابنها الضائع، فربما يكون من أكثر ما يعذب الإنسان هو سنوات عمره التى ينوء بها كاهله.

ماريا : «ما الذى سنفعله؟» قالتها ماريا، محاولة أن تنتزع منه وعداً بأن يفعل أى شىء.

كوستيس: «حسنًا، حسنًا، سأفعل ما بوسعى، لن أترك نيكيتاس وحده، لكن لا تبك».

فى تلك الأثناء، استمر كوستيس فى الإشارة فى مذكراته إلى "اجتياح الإسكندرية" الذى أدهشه بشكلٍ كبير:

«ذكر لى شخص أن أغلب هؤلاء الشباب الذين شاركوا فى هذا الاجتياح كانوا من طلاب مدرسة البحرية، وقد جمعهم فولغاريس وتحدث معهم بنفسه. هؤلاء الناس، الذين لم يكن لديهم أى وازع دينى! فقد دفعوا ضباط المستقبل لقتل اليونانيين. لقد سمعت بأذنى أحد هؤلاء الشباب وهو يعبر بشكلٍ مخيف عن مشاعره، وهو يسمع صوت الجنود اليونانيين فى ظلمات الليل وهم يصرخون: "آه لقد قتلنى". ولحسن الحظ فليس كلهم قساة القلب مثل إلبيذوفوروس».

كانت الأمور العائلية تشغل أيضًا بال كوستيس، وعنها دون فى مذكراته: «مرة أخرى دخل نيكيتاس سجن كوم الدكة، حيث وجهت له تهمة إيواء مرشد سياسى بالحزب الشيوعى اليونانى. ذلك المرشد الذى لم يكن له أثر. فهو إما يختفى فى مكانٍ ما بالإسكندرية، أو أنه قفز فى إحدى السفن هاربًا إلى إحدى موانئ شرق أفريقيا. "موعد" (دونها بالإنجليزية) فى البحرية. مفاوضات من أجل شحنات السجائر الجديدة. طالبت بالإفراج الفورى عن نيكيتاس. لا تكفينى تأكيدات الإنجليز بضمان سلامته. فى انتظار لقاء باباندريوس وممثلى المتمردين فى لبنان. شئ ما سيحدث أخيراً».

وبعد أسبوعين يكتب مدونًا إحساسه بالإحباط تجاه التطورات:

«لم يكن "الاتفاق الوطنى" الذى ذاعت شهرته بين باباندريوس وبين اليسار فى النهاية سوى مجرد إخفاق. فبدلاً من الوحدة الوطنية، تحول إلى محاكمات لأعداء

السلطة. جو يملأه الخوف بشكلٍ لا يصدق. اتهامات لا حصر لها توجهها الصحافة والحمقى من الضباط الذين يلوحون بعصاهم أمام كل من تسول له نفسه بالاعتراض. يتم الإعداد سريعًا للإفراج عن نيكيتاس. كان لدى خالتى الحق عندما انخراطت فى البكاء. فقد كانت غاضبة من نيكيتاس لما سببه من مشاكل لأولاد أخيه. فالابن الأصغر لنيكولاس، الذى يدعى سيموس، لم يكد ينضم للجيش اليونانى إلا وتم حبسه فى طابا. أما طيار العائلة، ثاناسيس، فقد أوقفوه عن العمل. أخطاء الكبار يدفع ثمنها الكبار. كم تنتشر سريعًا هذه الأخبار. الجميع فى المصنع يتكلم عنى. اليوم صباحًا فعلت شيئًا سيوقفهم عند حدهم، حيث التقيت فى الفناء الأمامى موظفًا من سيمى، يدعى خارالامبوس كاسترونيس، والذى يثأثئ فى كلامه، وهو الابن الروحى لكبير المحاسبين بالمصنع، يورغاس: " تفضلوا بدخول الحسابات، ياسيد كاسترونيس، لتحصلوا على باقى مستحقاتك. أنت مفصول ". " لكن لماذا؟" هكذا سألنى، " لا يعجبنى شكلك " وهكذا أجبته. وعلى الرغم من تلعثمه فى الكلام فإن هذا التعس عرف كيف يبث سمه ضدى أنا، (لدى معلومات أنه يفعل ذلك). إنه حتى لم يراع لقمة العيش التى كان يأكلها من عمله معنا».

ارتبط الإفراج عن نيكيتاس بحادث سيئ جعله يأخذه بعين الاعتبار.

«هناك شىء غريب يحدث بخصوص هذه الحرب: فمع انتهائها انتهت صلاحية بعض الناس المقربين منا، والذين اعتادوا أن يعيشوا بيننا لسنوات طويلة، مثل محمود، الذى أسندت إليه مهمة نقل نيكيتاس من السجن إلى بيته (وفى هذه المرة قبل نيكيتاس أن يركب سيارتنا الرولزرويس المتواضعة)، وبينما كان محمود يستدير بالسيارة يسارًا من تومبوسكو ليدخل إلى باب سيدرا، اصطدم بالترام رقم (٥) القادم من كارموز. وأتخيل سائق الترام وقد انتصب واقفًا وهو يدير مذعورًا ذراع المكابح، وقد تصبب منه العرق وهو يضغط بقدمه ليطلق النفير بلا توقف. كان مشهدًا مروعًا. نزل المحصل وبعض الركاب وقاموا بدفع السيارة بعيدًا عن القضبان. تجمع المارة من كل مكان. ونقل الاثنان إلى المستشفى. أصيب محمود برضوض فى صدره، وأصيب

نيكيتاس بكدمة فى يده اليسرى. وعندئذ اكتشفنا أن محمود يعانى من المياه الزرقاء بعينيه بشكلٍ متقدم. مما أدى إلى فقده الإبصار بشكل تام بإحدى عينيه. وكانت عينه الأخرى قد تأثرت بالفعل. كان لابد أن أتوقع أن يحدث له ذلك. فقد كان إحدى الأدوات التى اعتاد أبى أن يستخدمها، ولم يعد من الممكن استخدامها للأبد. كان من الممكن أن يقتلنا هذا الإنسان عديم القيمة بعماه. ربما ينبغى أن أعيد فحص كل من يعملون من أيام أبى الراحل أندونيس، فسيستانيس، على سبيل المثال، لم يعد صبيًا صغيراً، وكذلك جوليا -السكرتيرة العانس - لابد أنها تصغر أمى بقليل. يا إلهى! وما زالت تعمل ليل نهار كالحيوان......" شىء واحد مؤكد فى هذه الحياة "(دون ذلك بالفرنسية)، وهو أن عدم الإنجاب نعمة. فربما تضعف الأسرة والأطفال من قوتنا. ماذا أقول؟».

قبل حلول الخامس عشر من شهر أغسطس، وبينما كان الكثير من الناس يقضون الصيف فى بلدهم، تم نقل لواء الجيش اليونانى إلى إيطاليا، وكان يضم فى صفوفه العديد من اليونانيين ـ المصريين، مما جعل أقرباءهم يشعرون بالقلق الشديد عليهم. أما الجنود أنفسهم فقد كانوا فى منتهى السعادة، طبقًا لجريدة " فوس " (أى الضوء) القاهرية التى كانت تصدر منذ عهد الملك وحكومة المنفى: " كان من الواضح على الرجال الذين تم نقلهم إلى إيطاليا مدى سعادتهم وهم يغنون " هيا إلى يونانٍ جديدة " كما كانوا يغنون أغانى أخرى........".

وعند ذلك دون كوستيس ببساطة قوله:«خراف تستعد للذبح».

فى شهر سبتمبر من عام ١٩٤٤، تم إعلان " الوحدة الوطنية "، على الأقل على الورق، وسافرت الحكومة إلى إيطاليا. وقد وصف كوستيس، للمرة الثانية، فى سطورٍ قليلة شعوره الكبير بالارتياح وأيضًا بالمرارة التى تنتاب اليونانيين بمصر.

«بئس المصير (دوَّنها بالإنجليزية)، أيها الأشقياء، أيها اليونانيون! لقد وهبناكم مدخراتنا من أجل وطن جعلتموه قبيحًا مثلكم تمامًا، ومن أجل الشعب الذى تمتصون دماءه. جئتم إلى هنا، إلى أرض غريبة، ودفعتمونا لارتكاب أخطاء لا حل لها بسبب مشاكلكم القذرة. سمحنا لكم بدخول منازلنا فاختطفتم منا بناتنا، وتركتم نصفهن

حبالى. يا لكم من فاسقين متعددى الزوجات! قمتم بتحفيزنا، ثم سجنتمونا، وقبل أن ترحلوا عدتم مرة أخرى تتسولون باسم الوطن. فينيزيلوس، مؤيدو تسوذيروس والملكية، باباندريوس و..... ما الذى ستطلبونه منا بعد ذلك. أخرجوا من هنا».

فى نفس الوقت دون فى مذكراته:

«إذا كانت الحرب تنتهى بالنسبة للبعض، فإنها تبدأ بالنسبة للبعض الآخر. لم يكن ما عشناه مع الحركة فى الجيش اليونانى سوى الجولة الأولى. ها هم المتصارعون يعودون لليونان من أجل الجولة الثانية وربما الأخيرة. فى فلسطين، يستعد اليهود لتأسيس وطن وهنا فى مصر سوف يحاول الوطنيون ـ كما هو واضح ـ للمرة الثانية التخلص من الإنجليز المستعمرين. هل هناك منتصر فى هذه الحرب؟ لست أدرى».

* * * * *

لم تكن أجراس السلام المبهجة فى عام ١٩٤٥، سوى صدى للنصر الذى احتفلت به الإسكندرية منذ ثلاثة أعوام، عندما أكدت نفس تلك الأجراس على ذلك الانتصار فى موقعة العلمين. ومنذ ذلك الحين ابتعدت سحب الحرب بعيداً وتبعها الانسحاب المشين للقرن الأفريقى، وما تبقى من كل هذا لم يكن سوى ظل فى الحدود الغربية للمدينة. لقد كسبت الإسكندرية معركتها الخاصة واستراحت مزينة بأكاليل النصر، "مبحرة بعيداً عن العالم المتحارب". عاد الهدوء القديم مرة أخرى على أمل أن تعود هذه المدينة الأسطورية من جديد وتتبوأ مكانة تليق بها فى عصر ما بعد الحرب بمنطقة البحر المتوسط. حتى هذه اللحظة لم يكن بوسع سكانها سوى التذمر على استمرار إظلام المدينة الذى أصرت عليه السلطات العسكرية، طالما ما زالت كريت وباقى المدن اليونانية ترزح تحت نير الأعداء. ومن هنا، على الجانب الآخر، كان لابد أن تتحرر أوربا. فى شهر يونيو لعام ١٩٤٣، كانت المدينة مفعمة بانتصار التحالف، ترعى فى كنفها – فى خليج الميناء الغربية – سلاح البحرية العظيم تحت قيادة الأدميرال كانيجام الذى كان يدعم عملية الإنزال فى صقلية. فى تلك الأثناء، كان كل مواطن من أهل الإسكندرية،

بعد أن سيطر عليهم الإحساس باليأس من تلك الحرب، يستمتع قدر استطاعته بالبحر، بالحب، بألوان الطعام، حتى تملكتهم فى نهاية هذه المغامرة العظيمة مشاعر عديدة غريبة، متضاربة.

كتب كوستيس آخر ملاحظة له فى مذكراته فى شهر أغسطس لعام ١٩٤٥، وقد أشار تحديداً إلى ما يلى: «كم تخيفنى نهاية الحرب، حتى لو كان ذلك يبدو غريباً، فقد إعتدنا عليها. نشعر أننا جميعاً أبناء هذه الحرب بطريقة أو بأخرى، مخلوقات تستمد طاقتها من مشاعل هذه الحرب. الآن، ونحن فى بداية هذا السلام غير المفهوم نشعر بأننا خاوون، ضائعون، نعانى من مصائب وخسائر شخصية من المستحيل تعويضها، على الرغم من أننا لا نريد أن نعترف بذلك، لكن هذا الصراع العالمى يفزع شبابنا، هذا الشباب الذى يعد أمل المستقبل. أصابتنا الشيخوخة فجأة فى أحضان هذا السلام الإرهابى، وفى خضم هذا السلام الإرهابى – وليس فى الحرب – وقعت آخر عمليات الإبادة النووية. " عصر جديد " هكذا يصيح الجميع بحماسة. لم يبق سوى النظر إلى إمكانية العبور تجاه مستقبل محاط بحزام من الألغام وهو على وشك الانفجار. إلى هنا ينتهى تاريخ واحدة من الحروب التى أنهكت ما بقى لدى الإنسانية من رومانسية».

بمشاعر مماثلة استقبل العديد من أبطال هذه الرواية هذا السلام العالمى: إلياس الملقب "بروح المدينة"، كان ينتقل بلا هدف فى المقاهى والصالونات بالمدينة، معطياً الأولوية لنزعته فى البحث عن الثروة، تلك النزعة التى أصبحت كالملبس الذى لم يعد يليق به. استمر فى الحديث عن الأعمال، فى الشرب، فى التدخين بشراهة، فى سبر أغوار عالم المرأة اللامع هذا "العالم الذى خلفته الحرب من ورائها"، استمر فى التجول بسيارته الجديدة السريعة، فى لعب الورق، فى التأمل فى الصحوة العربية، كما لم ينس أبداً أن يغازل إيفيت بوضع زهرة فى مخدعها، ولم ينس أيضاً أن يقدم لها فى كل مرة وعوداً كانت تجعلها تغرق فى الضحك. أنزلت له إيفيت – مديرة منزل مصطفى باشا – قبعته حتى جبهته وهمست قائلة: «كم أنت رقيق،" أيها الرجل العجوز"(قالتها بالفرنسية)». كانت إيفيت تشعر بامتنان عظيم تجاه إلياس، لأنه استطاع بعد كل تلك

المغامرات أن يكون دائمًا على مقربة منها، كما كان حريصًا على التخفيف من وطأة وحدتها بجرعات من السعادة والحنان. ومما كان يواسيها شعورها بأنهما دائمًا معًا في هذه السن، وعندما كانت تكتشف تجاعيداً جديدة في وجهه، تصيح بكل حماسة (بالفرنسية): «أخبرني، أأرى تجعيدة جديدة، يا رجلي العجوز!». أما إلياس الذي لم يقتنع أبدًا بأنه قد كبر في السن، فكان يستقبل تعليقاتها بابتسامة رقيقة، مقتنعًا بأنه يرضي بذلك غرورها بوصفها امرأة. وبشكل أو بآخر، كان إلياس يشعر بأنه حريص على الإلتزام بوعوده التي قطعها على نفسه تجاهها يومًا ما في باريس، ولهذا كان يقول لها بطريقته الماكرة: «أرأيتِ (قالها بالفرنسية) أنني لم أخدعك. لقد سبق أن قلت لك بأننا سنظل معًا وأني سأحبك للأبد».

«لا تسريب عليك في ذلك» هكذا كانت تجيبه إيفيت ثم تنخرط في البكاء دون أن تدري لماذا تبكي. وبينما كان وهج الشباب ينطفئ بداخلها، استطاعت أن تحيا حياة هادئة، متطلعة إلى البحر الواسع، ولم يعد لديها سوى أن تتذمر من الضابط نور وطلباته المبالغ فيها. كان الضابط نور – خليفة الضابط فريد – ذو العنق الضخم والعينين الداكنتين اللتين كانتا تدورا في محجريها، هو أسوأ ما في الشرطة المصرية. فكان يأتي إليها في كل مرة بطلبات مختلفة، ولو تجرأت إيفيت بالاعتراض على طلباته الغريبة، كأن تحرك مروحة يدها بسرعة، كان يعقد يده وكأنه يصلي وهو يسب بصوته الرفيع الإنجليز و"القيادة الإنجليزية" – وهو الاسم الذي كان يطلقه على بيت البغاء في شارع مصطفى باشا – وعندما تفشل في إيجاد حل، كانت تحيل الأمر إلى "اللبناني"، وعندئذ يقوم الضابط الماكر بتهدئة الأمور. كان يهذب شعره الكثيف ثم يرمقها بنظرة مفعمة بالرغبة، ثم يهمس قائلاً " معلهش " (ذكرها باللغة االعربية ودونها بحروف يونانية)، لكنه يعود مرة أخرى في لقائهما التالي إلى حدته. كان الضابط نور يداعب مسبحته بشكل مستمر، تاركًا حباتها الصفراء بلون" الذرة " (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) تجرى الواحدة تلو الأخرى، وهو يحصي برضا أرباحه من الاتفاق الجديد. ثم تراه يتحدث بطريقة يشوبها التهديد معلنًا أنه سوف يغلق بيت

البغاء حتى لا يغضب "الله"، فى حين كان يغطى كأس الشراب الخمر " بطربوشه "، وكانت شرارة الانتقام تطل من عينيه.

مرت شهور عديدة منذ أن ودع مستر " فويس" إيفيت وهو فى شدة التأثر، شاكرًا إياها على مشاركتها فى صراع الأمة البريطانية العظيمة. وكانت كلما تصادف ومرت ناحية شارع يانج، ونظرت إلى حديقة المبنى الخضراء، حيث يقع مقر القيادة البريطانية، كانت تشعر بالعجز تجاه الوطنية المصرية المتأججة التى انتشرت فى كل أرجاء المدينة يومًا بعد يوم. بدأت تشعر بالحنين إلى تلك الأيام التى كانت قوات الجيش تقوم فيها بحماية الشوارع، إلى النوادى والمحلات وإلى الشراب والمتع الزائلة. الآن أغلقت نوادى قوات الحلفاء أبوابها، بل وقامت بنفسها بإغلاق أكبر هذه النوادى فى شارع كورينثوس. وفى الميناء الغربية حلت سفن السلام محل السفن الحربية الضخمة. كانت إيفيت تشعر بالحزن بالفعل تجاه انهيار قوات الإمبراطورية البحرية التى كانت تمثل أساسًا للعالمية. وكان إلياس محقًا عندما كان يقول: «قد لا يحب أحد الإنجليز، ولكن بدونهم لم يكن لأشخاص مثلنا أن يحالفهم التوفيق فى البحر المتوسط». وتحت وطأة شعورهم بتهديد ثرواتهم بسبب الأحداث الجديدة، بدأ آخر صفوة المجتمع العالمى بالإسكندرية يستجمعون قواهم أكثر من ذى قبل، ناشدين جوًا من التواصل فى الحفلات المسائية، وبخاصة فى "حفلات الشاى"(ذكرها بالإنجليزية) حيث كانوا يتبادلون نظرات القلق والصبر، متحدين ضد عدو مجهول يدمر عالم الماضى العظيم بكل دقة.

وفى واحدة من هذه التجمعات، حيث أقيم حفل وداع صموبل عظيمان استعدادًا لرحيله إلى الأبد عن المدينة التى منحته كل ما لديه من ثروة، تردد لحن الشجاعة الوحيد فى أذن إيفيت عندما قدم لها صاحب الحفل مستر أتجود، الأستاذ المساعد بجامعة فاروق بالإسكندرية. تعرفت إيفيت فى صوت هذا الرجل الجنتلمان على صوت مستر "فويس" الرهيب الذى كانت تلتقيه فى شارع يانج، وقد منحتها مصافحته الحارة لها شجاعة كبيرة. وجهه الحاد غير المعبر، شعره الرمادى المصفف، حاجباه الكثيفان،

أهدابه الداكنة، لم يكن هذا ما تخيلته عنه طوال السنوات الماضية. ولم يكن لزامًا على الأستاذ الجامعى أن يتفق مع ما تخيلته هى. فى نهاية الأمسية ألقت عليه التحية بكلمة من كلمات السر التى استخدموها فى آخر لقاء عمل واكتفى الإنجليزى البارد بالابتسام دون مبالاة. كانت الثقة التى منحها وجوده فى المدينة سببًا فى هدوء مخاوفها لفترة كافية بأنها لم تفقد شيئًا، وأن كل شىء سيعود رويدًا رويدًا إلى إيقاعه الطبيعى.

لكن كان صمويل عظيمان العظيم لم يشاركها تفاؤلها لسوء الحظ. وكان سامى شديد الثراء، المتأثر بمعتقداته الصهيونية، قد عقد اتفاقًا مع أشخاص مثل إلياس خورى، حيث استطاع فى وقت الحرب أن يقوم تدريجيًا بتهريب مجموعته الأثرية الأسطورية من مصر، والآن ها هو يغادر البلد مكتفيًا برد أربع قطع أثرية فقط أهداها للمتحف المصرى بالقاهرة. وكان هذا التصرف الحكيم بمثابة رسالة يبعثها لمنافسيه ليحذوا حذوه. وكان أهمهم على الإطلاق لوكاس سينجوس، الذى يعتقد أنه لا يوجد ما يخشاه فى مصر فى فترة ما بعد الحرب. وعندما سقط سيف عبد الناصر فيما بعد ليقطع رقاب الأبرياء والظالمين معًا، ظلت رأس لوكاس سينجوس فى مكانها بشكلٍ مثير للريبة، مستمرًا فى تكذيب أولئك الذين تسرعوا فى التخلى عنه. كان هذا الرجل ذو الطابع الغريب - الذى ظل يفرق شعر رأسه من المنتصف - يتحدث بخليط من اليونانية الفصحى والإنجليزية والفرنسية، وقد ظل ككل اليونانيين - المصريين القلائل منتعشًا ماليا حتى النهاية. وعندما مات فى أحد الأيام، ترك مجموعته الأثرية للحكومة المصرية، واعترافًا بما قدمه فى الحفاظ على تاريخ مصر العظيم، فقد منح اسمه وسامًا لتكريمه بعد وفاته.

على العكس من ذلك، فقد احتاجت أخته ذافنى لتكافح فى مواجهة شكوك مصلحة الآثار المصرية. وقد تم إجهاض محاولة اقتحام الشرطة المصرية لمنزلها فى اللحظة الأخيرة بواسطة إلياس خورى، إلى أن أجبرها كوستيس لقبول حل الإهداء للمتحف المصرى. فقامت مدام ذافنى، برغبتها أو دون رغبة منها، بإهداء المتحف المصرى جزءًا

كبيراً من مجموعتها الأثرية. غير أنها لم تفق أبداً من هذه الصدمة، مثلما لم تتمكن أبداً - على الرغم من محاولاتها المضنية - من تقبل نهاية ابنها الصغير المفجعة، حتى وصل بها الأمر إلى اعتبار أن محاكمة نوريمبرج تعد مسأله شخصية، حيث تمت محاكمة رودولف إس وإدانته على الدور الشيطانى الذى لعبه فى مسيرة حياة الدكتور ماخوس. وحتى تواسى نفسها فقد احتفظت لنفسها بأحد التماثيل الفرعونية وتابوت فرعونى. وكان الشىء الوحيد الذى طلبته هو أن تدفن هذه الأشياء معها بعد موتها. كان من الصعب عليها بعد موت ابنها أن تتقبل، دون شروط، خسارة أخرى فادحة فى غضون سنوات قليلة، والتى لم تكن تلوم عليها أحداً سوى نفسها، لكنها لم تكن الوحيدة.

وبينما كانت أوليمبيا شقيقة نيكيتاس تحاول الاعتياد على فكرة أن زواجها من الدبلوماسى الإيطالى قد تحطم تماماً، فقدت أمها - التى ماتت بسبب حدوث ارتشاح على الرئة فى ليلة رأس السنة لعام ١٩٤٦ (وهى تشعر بالحزن بسبب عدم قدرتها على العثور على زوجة لنيكيتاس) - وبعد أيام قليلة فقدت ابنها الصغير، الذى كان هو الآخر يدعى ثاناسيس. ولم تتوقف عن إلقاء اللوم على نفسها، لأنها لم تتمكن من إنقاذه من تلك الحمى الملعونة التى أصيب بها. كان موت السيدة ماريا يخفى مفاجأة سارة لكوستيس، فعندما شعرت خالته الحبيبة بدنو أجلها، فكرت أن تترك له خطاباً يحتوى على بعض الكلمات المؤثرة، وقد جاء فيه:

«كنت لى نعم الابن، مميزًا ومحبوبًا! أشكرك يا ولدى كوستيس على الحب الذى كنت تكنه للعائلة كلها بلا استثناء. وإذا كان هناك ما أرغب فى اصطحابه معى فى رحلتى إلى عالم الخلود، فهى ذكراك الجميلة. أرجو أن تذكرنى أنت أيضًا بين الحين والآخر. خالتك، عفريتة الحى».

لا يتذكر كوستيس أنه قد بكى فى حياته قط مثلما بكى فى جنازة الخالة ماريا، لدرجة أن والدته استدارت إليه قائلة: «سوف نرى (قالتها بالفرنسية)، أريد أن أعرف إذا ما كنت ستبكينى عند موتى بنفس الطريقة». فى ذلك اليوم حضر كل أبناء الطبقة

الشعبية بالإسكندرية إلى المقابر لحضور مراسم الجنازة، وتحدثوا جميعًا عن المستوى الرفيع لجنازة ماريا التى تكفل كوستيس بكل نفقاتها.

فى مشهد ما بعد الحرب، لم يكن نيكيتاس يتذكر سوى أنه كان جنديًا قديمًا بالجيش الإسبانى، وكان كثيرًا ما يتناول فى حديثه بعض القصص المخيفة عن شبه جزيرة أيبيريا، والتى لم تترك انطباعًا كبيرًا لدى من تشبع بحكايات عن الحرب من مستمعيه، ناهيك أن البعض منهم كان قد حفظ هذه القصص عن ظهر قلب، ولذلك كانوا يوبخونه قائلين: «مرة أخرى ستشجينا بهذه القصص، أيها الجندى السابق» إلا أنه لم يكن يتوقف أبدًا لأنه يعرف أن قصص الحرب دائمًا مخيفة، وأن العقل البشرى يعجز عن وصف بشاعتها. سبانى أ

أما بالنسبة للأمور الأخرى، فقد كان يتجنب الخوض فى صراع البروليتاريا العالمية، لكن بقدر ما كانت الحرب الأهلية مستمرة باليونان، بقدر ما كان الجندى الذى بداخله يستيقظ بين الحين والآخر، وعندئذ كان ينظر قلقًا تجاه الشمال، حيث كان مصير الوطن الأم فى مهب الريح، وكان على استعداد لأن يستقل أول سفينة والعودة إلى اليونان، إلا أن سنوات عمره الخمسين كانت تعيده إلى رشده، وعندئذ كان يحدث نفسه قائلاً: «الزم مكانك، يانيكيتاس!».

كان نيكيتاس يلزم بالفعل مكانه، وبخاصة بعد أن تسلم عمله فى الحسابات فى شركة الطباعة، كما استطاع أن يجد وظيفة أيضًا لابن أخته ثاناسيس، باعتباره مطبعجيًا، بذات الشركة. وعندما تم تجنيده فجأة بعد حركة ١٩٤٤، من قبل القوات المسلحة اليونانية، أصبح ثاناسيس قصاصًا مثل خاله، فكان يحكى باستمتاع عن المعارك الجوية التى خاضها فوق الصحراء، إلى جانب رحلات الاستطلاع الجوى التى قام بها فوق بحر إيجة، وهو يمشط البحر بحثًا عن غواصات العدو التى كانت تظهر فى مياه البحر الزرقاء كسمكة كلب البحر الضخمة السمراء، وبخاصة حول سواحل جزيرة "ميلو". ولكن لأن ثاناسيس كان خجولاً بطبعه، فقد كان يحتاج دائمًا إلى أن يقدمه نيكيتاس للمستمعين، وكان نيكيتاس يفعل ذلك بكل سرور، قائلاً: «أتدرون أن

ابن أختى قام بالخدمة فى سرب المطاردة الجوية ٣٣٦ بالشرق الأوسط. إنه الأول فى المطاردة وإطلاق النار. أخبرهم، يا ثاناسيس، وإلا سأخبرهم أنا» وعندئذ تنفك عقدة لسان ثاناسيس ويشرع فى حكاياته، بادئًا فى كل مرة من بالتعبئة العامة فى معسكر توسيتسا، ثم التدريب فى جنوب أفريقيا، لكن الخال نيكيتاس كان يحثه قائلاً: «هذا فقط؟ حدثهم عن العلمين» ومن ثم يبدأ ثاناسيس فى وصف المعارك الحربية التى خاضها فوق الصحراء: كيف أن المقاتلات هاليفاكس ولانكستر كانت تقصف وتحرق العلمين طوال الليل، وبمجرد أن تلوح تباشير الفجر فى الأفق، تبدأ طائرات بى ٥٢ فى عملها، إلا أنه كان يحتفظ بأفضل البطولات للفقرة الختامية، وذلك عندما يشير عليه الخال نيكيتاس بقوله: «هيا إذن، حدثنا عن رفيقك من جزيرة بيليوس الذى ألقى بخطاب الحب فى كنيسة قريته». عندئذ يسترسل ثاناسيس قائلاً: «كنا فى مهمة فى اليونان المحتلة، وأثناء طيراننا باتجاه ثيسالونيكى شاهدنا طائرات العدو تمر من فوق موقع كيسوس فى جزيرة بيليوس، وعندئذ قام أحد زملائه بخفض المدفع الرشاش وتصويبه تجاه حامل الجرس بالكنيسة. ثم رأيته يفرد شريطًا طويلاً يبلغ طوله المترين وفى طرفه، كما علمت فيما بعد، مقذوف فارغ من مدفع الطائرة. وقد أخفى بداخله خطابًا لخطيبته إفيجينيا ذيانيللوس. وكان يخبرها فيه بأن تتحلى بالصبر ويعدها بأنهما سوف يتزوجان فى نهاية الحرب. ولا نعرف أبدًا إذا ما كانت إفيجينيا قد تسلمت هذا الخطاب أم لا».

بعد انتهاء ثاناسيس من سرد بطولاته كان نيكيتاس يوضح للجميع المغزى الأخلاقى من هذه القصص قائلاً: «لعلكم قد فهمتم الآن الدرس، ففى البداية، ألقوا بأبنائنا فى النار، ثم أداروا لنا ظهورهم». وبالطبع كان يعنى بذلك الإنجليز، لكنه لم يكن ليجرؤ أن يقول ذلك بوضوح. كان كوستيس يتعامل معهم من خلال بعض مطبوعات المصنع، ولم يكن هناك داعٍ لأن يسبب له المشاكل، خاصة وأنه قد عين أنجيلوس موئيزيذاكيس –الأب الروحى له – فى مصنعه، وأيضًا غيراسيموس ابن اخته الصغير.

«أنجيلوس الثائر» أهكذا أطلق عليه نيكيتاس، متجاهلاً صاحب الاسم المستعار هيراكليس ثراسيفلوس وتوقعاته بتوتر الصراع فى أرض الوطن، بعد أن كان قد تم نفيه بالفعل من قبل حزب ميتاكساس. إضافة إلى ذلك فلم يقتل الألمان كل أفراد عائلة أنجيلوس من الذكور فى موقعة أميرا، فى قرية فيانوس بجزيرة كريت عام ١٩٤٣، وإذا كان قد مر بذهنه ولو للحظة واحدة أن يحارب مع القليل من رجال الجزيرة من أجل انتصار الحركة اليسارية، فقد مر بذهن الكابتن باندوفاس أن يسحق المتمردين من رجاله قبل أن يبدأ فصلاً جديداً من الحرب فى اليونان التى نالت استقلالها حديثًا.

هكذا إذن صارت الأمور، فقد كانت الحياة الهادئة بالإسكندرية بعد الحرب، إلى جانب إيباكوى الجميلة، بمثابة إغراء لم يستطع أنجيلوس أن يقاومه. فمنذ اللحظة التى وجد فيها عملاً جيداً باعتباره مساعداً على إحدى ماكينات تصنيع السجائر بمصنع خاراميس، أصبح كل شىء يسير بشكل طيب، على الرغم من تذمر حماه كاليزيس الذى كان يرتعد من فكرة أنه قد يعانى مثلما يعانى أولئك الذين قاموا بتزويج بناتهم لرجال متزوجين بالفعل فى اليونان، تلك الزوجات اللاتى كن يأتين إلى الإسكندرية مطالبين باسترداد أزواجهن المخادعين. لقد احتاج كاليزيس لمرور عدة سنوات حتى يتأكد من أن أنجيلوس – زوج ابنته – لا غبار عليه، وكان يقول بعدها باستمرار: «أيها التعس، لو أنك صادفت هذا الثائر الذى ترك رفاقه يموتون فى الجزر المعزولة، ولم تكن قد رأيته. لو أنك صادفت هذا الثائر».

«يا إلهى، ألا يعجبك شىء على الإطلاق!» هكذا كانت زوجته ستراتيا تقول له، ثم تضيف: «ألا يرضيك أن تكون ابنتك سعيدة». لكن كاليزيس كان يرى أنه من المستحيل أن تصبح ابنته سعيدة بالقرب من رجل لم يختره هو بنفسه. ولكى يجرح مشاعره فقد حرص فى كل تجمع عائلى أن يتحدث عن الهجوم على الإسكندرية، موضحًا أن الخسائر حدثت بسبب بعض الدخان الذى انتشر قبل الهجوم، فى حين استطاع البعض أن يعطل أجهزة الإرسال حتى لا يتمكن طاقم السفن الثلاث من الاتصال بالسفينة "هيفايستوس"، تلك السفينة التى كانت وكأنها "مصنع حقيقى" حسب ما يعتقد كاليزيس، والتى كانت تستطيع أن تدمر الإنجليز بصواريخها.

«أولئك الذين ماتوا هم الرجال الحقيقيون، أما الآخرون فموجودون بيننا اليوم ويدعون أنهم رجالاً» هكذا كان كاليزيس يختتم حديثه. ولم يكن أحد يلقى بالاً لما يقوله كاليزيس فقد كان مخموراً، وإذا ما تصادف وجود شخص أجنبى ليس محلاً للثقة، كانت ستراتيا تهمس فى أذنه قائلة: «الزم الصمت، يا سيد بيتروس، وإلا فسوف تواجه المتاعب». لكنه لم يكن يهدأ حتى رزق بأول حفيد له.

كانت السيدة خاريتومينى تتمنى أيضًا لنفسها حفيداً من ابنها فوتيس، لكنه أخبرها بأنه لن يحقق لها طلبها إلا بعد تحرير الجزر اليونانية الاثنتى عشرة أولاً. وفى صيف عام ١٩٤٨، استقرت الأم وابنها فى جزيرة رودوس، وكان ذلك مدعاة لكى تزور دير تاكسيارخى فى جزيرة سيمى بشكل منتظم. إلا أنها فى أول خطاب كتبته لذافنى، عبرت عن مدى إحباطها، قائلة: «لقد أصابونا بالعار، اللعنة على النازيين. لقد أصبحت سيمى كتلة من الأنقاض. من يمكن أن يصدق ذلك. أفكر أن أشترى بمدخراتى قطعة أرض فى" بيدى". إنهم يبيعونها بأرخص الأسعار. بل بلا قيمة تقريبًا، فوتيس يشد شعر رأسه مما يحدث، ويقول إن هذا يعد ضربًا من الجنون. قد يكون كلامه صحيحاً، إننى أتألم لحال هذه الأرض».

شعرت ذافنى لوهلة بالغيرة من خاريتومينى الطاهية لحبها لوطنها. فقد ولدت ذافنى فى أرض أجنبية، وتعلق قلبها بمدينة لا تنتمى لها، وعلى الرغم من أن أهلها ينحدرون من ميتيلينى، فإن إحساسهم بالحنين لجزيرتهم لم يكن كافيًا ليجعلها تحب وطنًا لا تعرفه. فالحياة بعيداً عن الإسكندرية بالنسبة لها تعد ضربًا من المستحيل، شيئًا يشبه المنفى. وكانت تعتبر الجالية اليونانية بالمدينة هى كل وطنها، فعلى سواحلها كبرت واكتسبت تدريجيًا شعورها بيونانيتها. وإذا كان هناك شىء تدين به لأنتونيس فهو تعليمه لها كيف تكون يونانية. لقد تعلمت فى مدارس الجالية، وكان تأثير الدراسة بالإنجليزية والفرنسية يجعلها تخجل دائمًا من أصولها اليونانية، إلا أن ضمير زوجها الوطنى اليقظ - إلى جانب معرفتها الجيدة بالتاريخ اليونانى - كانا يؤكدان لها العكس. كان معظم أطفال الحى اليونانى يذهبون إلى مدارس فرنسية أو إنجليزية،

وكانت ذافنى تعتبر هذا الأمر مرفوضًا تمامًا. ربما لأنها لم تكن تستطيع تغطية نفقات دراستهم في بعض المدارس الخاصة باهظة التكاليف: مثل "سان مارك كوليدج" أو "فيكتوريا كوليدج" أو "ليسيه فرنسيه" (ذكرها جميعًا بالفرنسية). وفى الحقيقة فإنها لم تكن ترى أن المدارس الأخرى تقدم تعليمًا يفوق ما تقدمه مدارس الجالية البراقة مثل: "أفيروفيوس"، "توسيتسايا"، "فاميليانيوس"، "سالفاغوس"، وغيرها من المدارس الأخرى. وقد تبعت نفس المنهجية مع حفيدتها " ذافنولا" في مدرسة " أفيروفيوس للفتيات" في سيدى متولى، ثم فى مدرسة " أفيروفيوس الإعدادية للفتيات" بالشاطبى، وسارت ذافنى الصغيرة على نفس منهج العائلة. كانت الجدة تتحين الفرصة دائمًا للافتخار بحفيدتها – فى حفلات العيد القومى[٢٢]، فى حفل رفع علم اليونان، فى العروض الرياضية، فى حفل التخرج عند نهاية كل عام دراسى. ومع نهاية حقبة الأربعينيات أصبحت ابنة كوستيس صورة طبق الأصل من والدتها الهاربة هايكى. وقبل أن تنتهى من دراستها الإعدادية، أصبحت أطول من أبيها، وكانت تقوم بتصفيف خصلات شعره الرمادية بيدها عندما يخرجان معًا. لقد أعاده هذا الشبه الكبير والمدهش لسنوات الثلاثينيات الجميلة، وكأن كل شىء يبدأ من جديد، وكأن الفرصة مازالت قائمة لعائلة خاراميس لكى تصلح من أخطائها وتعوض ما فاتها. كان كوستيس يشعر بأنه محظوظ بما منحته له الدنيا.

أما البعض الآخر فلم يكن يحظى بمثل هذا الحظ. وكان على إيفيت شانتون أن تعيش على ذكرياتها من "متحف الموتى"، كما كانت هى نفسها تقول وهى تسخر من نفسها. فإلى جانب موت كل من تحبهم أضافت إيفيت إلى ذكرياتها فقدان روكسانى. هذا الإحساس المؤلم الذى كان يوخز روحها. فلم تنس أبدًا أنها هى التى منعتها فى منتصف العشرينيات من أن تنتقل للعيش مرة أخرى فى الإسكندرية بعد موت زوجها الأرمينى، ومنذ ذلك الحين كانت روكسانى تتجنب الرد على خطاباتها، وفضلت هذه

---

(٢٢) فى احتفال اليونان بعيد الاستقلال، تقدم المدارس عروضًا طلابية، ويتقدم العرض الطالب الأول فى كل مدرسة حاملاً علم اليونان (المترجم).

الأرملة الثرية البقاء فى باريس. لم تفعل ذلك لمصلحتها، ولكن حتى لا تزداد علاقتهما قوة. وبعد خمسة عشر عاماً، عندما حطمت قوات هتلر فكرة أن مدينة النور مدينة آمنة، كان الوقت قد أصبح متأخراً بالنسبة لروكسانى للهرب إلى الإسكندرية. كان عمل روكسانى السابق فى المخابرات السرية البريطانية فى سنوات إقامتها فى إسطنبول، عندما كانت تواجه المد الألمانى، من الأمور التى يصعب أن تنساها. وفى الوقت الذى اكتشف فيه غزاة باريس تعاونها مع المقاومة الفرنسية، لم تجد بجانبها شخصاً مثل إيفيت لكى يساعدها على الهرب من المدينة. وهكذا نالت روكسانى نهاية مروعة لحياتها الشقية خريجة مدرسة زابيو التى تعلمت فى مقاهى شانتان بإسطنبول ومنها إلى بيت البغاء بالإسكندرية حتى تزوجت من الثرى الأرمينى، ثم إقامتها فى باريس فى فترة ما بين الحربين. لقد أصاب إيفيت الذهول عندما علمت الطريقة التى انتهت بها حياة روكسانى بعد أن عذبها النازيون ثم قتلوها فى نهاية الأمر. وفى العديد من المرات، وبينما كانت إيفيت تجلس فى صالون منزل مصطفى باشا تتخيل أنها تراها وهى تهبط السلم كعادتها مسرعة وهى شبه عارية، تسمع ضحكاتها تجلجل فى أرجاء المكان، ولم تكن تتخيل أن تلقى مثل هذه النهاية المأساوية.

وعندما تحدثت مع إلياس عن ذلك أجابها قائلاً، بينما ينظر إلى الحجر الكريم اللامع المثبت فى خاتمه:

«ليست لديك أدنى فكرة عن معنى نهاية مأساوية، يا عزيزتى. سأخبرك بشىء قد يبدو لك غير معقول. فقد لقى صديقى فابيو أدريانى وزوجته ماريا وأبناؤهم الثلاثة مصرعهم جميعًا فى حادث تحطم طائرة خارج مرسى مطروح. أثناء عودتهم من روما».

إيفيت: «ولماذا قد يبدو لى ذلك غير معقول؟».

إلياس: «حسنًا، إليك بالسبب (قالها بالفرنسية)، فقد كان بإمكانهم أن يستقلوا باخرة، مثلما فعل الآخرون، أو كان من الأفضل أن لا يذهبوا إلى روما التى تعج بالكثير من الإيطاليين واليهود».

* * * * *

مـرت سنوات عـديدة منذ أن تطلع كـوسـتـيس إلى "عـالم البـاب الخلفى" مـحـاولاً متابعة مظاهر الحياة اليومية المصرية. كل ما تبقى من هذا العالم الساحر منذ سنوات طفـولته كـان عـباره عن خليط من الذكريات والسـحـر، بعـد أن خرج منه الموتى وغيـر المرغوب فيهم والمتـخلفون من البشر بعد مرور كل تلك السنين. لهذا أصبح " عالم الباب الخلفى " بمثـابة مـتنفـسـون لروحـه، طريقـة يغض بهـا الطرف عن الواقع الذى كـان يتصارع فيه لكى يسيطر عليه بكل مشاعره.

لكن عندمـا انتشر وباء الكوليرا فـى مصـر فى عام ١٩٤٧ . أدرك كوسـتيس لأول مرة أن ما كان يتابعه فى وقت ما فى شوارع هذه المدينة بسذاجة المشاهد العابر، ربما لم يكن مـجرد كرنفال من الألوان، ولكن عالمًا يتكون من مزيج من الفقر ومن الانحطاط البشـع الذى كان يعذب أناسًا كثيرين. كان السؤال وقتها هو: لماذا لم يستطع كوستيس فى ذلك الحـين أن يتبـين حـجم هذا الفقـر الذى يئن به الآخـرون: هل بسـبب طفـولتـه البريئة وهو صـغير، أم أن الفقر عيب لا ينبـغى إظهاره، سـر يختبئ جيداً وراء آلاف الأبواب المغلقة؟

حتى لو كان الأمر كذلك، فقد كانت هناك أعباء ثقال كان يسـمع عنها من والدته حيث كانت تقول:

«الناس جوعى، يا كوستيس، فـالفقر الذى يعذب النـاس يفوق الاحتمال» قالت ذلك فى اللحظة التى كان يلتهم فيها البسكويت مع الشاى.

- «ولمـاذا تقـولين لى ذلك الآن يـا أمـى، هـل أخـرج إلى الشارع وأقوم بتوزيع البسكويت والشاى على الفقراء؟».

- «آه، يا كوستيس، أنت لا تفـهم. لقد عشنا سنوات طويلة فى عـالم ملىء بالبذخ والترف والمظاهر، متجاهلين معاناة الآلاف من الناس حولنا».

- «لم نتجـاهل هذه المعاناة، "بل على العكس"(قالها بالفرنسية)، فنحن نفتح بيوتًا كثيرة، لا تنسى ذلك».

- «نفتح بيوتًا كثيرة! لماذا إذن أشعر بأننى اشتريت سعادتى بتعاسة المئات من البشر؟».

- «هذا رأيك!».

- «تقول ذلك. ولكنك لم تر مثلما رأيتُ أنا فى زيارتى لمنازل الجالية مع لجنة مكافحة الكوليرا. ربما يصبح التطعيم ضد الكوليرا نوعًا من أنواع الرفاهية، مقارنة بأولئك المهددين بالموت جوعًا».

- «ألهذا الحد؟» (قالها بالفرنسية).

- «تجمع كل هؤلاء الفقراء فى أرض أجنبية بسبب غياب الأمان. وعندما تكون الأحوال جيدة نستخدمهم باعتبارهم أيدى عاملة رخيصة، وفى السنوات العجاف نتركهم يواجهون مصيرهم ويلقون حتفهم " دون أن نهتم بحالهم"(قالت ذلك بالإنجليزية)».

- «أمى، أصبحت لا أعرفك! ما الذى حدث لك اليوم؟ وكأننى أسمع نيكيتاس. أتساءل عن الخير الذى يمكن أن ينتظره رجل صناعة مثلى عندما تلوِّح أمه بالمطرقة والسندان فى وجهه».

- «هل تمزح يا كوستيس؟ لكننى أشعر بأننا قد أجرمنا فى حق العديد من الناس، والأسوأ من ذلك هو؛ أننا لن ندفع أبدًا ثمنًا لذلك. بالكاد سوف نجمع قوائم بأسماء هؤلاء الذين ينالون المساعدة من الجمعيات الخيرية. " يا إلهى!" (قالتها بالفرنسية)- ما هذا النفاق».

- «هذه هى الحياة. فالغنى غنى والفقير فقير. كل واحد منا يسير فى الطريق الذى رسمه له القدر».

- «يا له من قدر سعيد».

- «آه، أرجوكِ يا أمى، لا أدرى ما الذى أصابك اليوم. "اهتمى بشئونك فقط" (قال ذلك بالفرنسية). توقفى عن الاهتمام بهذا الصراع ضد مرض الكوليرا.

الشيء الوحيد الذى ستتمكنين منه فى النهاية هو، أن تنقلى مرض الكوليرا إلى منزلنا. ألا تفكرين فى حفيدتك؟».

- «لا تقلق، يا ولدى (قالت ذلك بالإنجليزية) فالكوليرا بالنسبة لنا مازالت مجرد شائعة، على العكس من الفقر. اللعنة على الهمجية».

- «لا تقولى ذلك، فالكوليرا منتشرة فى كل مكان. هل تعلمين أننى قد أعطيت تعليمات صارمة فى المصنع بأن لا يعبر أى شخص من بوابة المصنع قبل أن يغمر يديه فى مطهر "البرمنجانات" (قالها باللغة االعربية ودونها بحروف يونانية). ويقوم ميسا بالإشراف على التطبيق الصارم لتلك القواعد الصحية دون كلل».

- «نفس الأمر يطبق فى مدرسة ذافنى، ولكن لابد أن لا نخدع أنفسنا. فالكوليرا مثل الشجرة التى تحتاج إلى أرض خصبة لكى تنمو بها. أرى أن هذا الصيف سيكون عصيبًا علينا، ولذلك فكرت فى اصطحاب حفيدتى والقيام برحلة».

- «فلتذهبا إذن، سوف يفيدك ذلك. فى الماضى كنتِ تسافرين كثيرًا» قال ذلك، فى الوقت الذى أخذت فاطمة الخادمة تساعده فى ارتداء الجاكت القطنى فاتح اللون كما أحضرت له القبعة. وعندئذ استطرد قائلاً:«لتسافرا إلى سويسرا، على سبيل المثال، فهى الأفضل فى هذا الوقت من العام».

- «لا تتعجل. أنا لم أقصد رحلة إلى أوربا» قالت ذلك وهى تعتدل.

- «لكن؟» أجابها كوستيس وهو يمد يده حتى تنفرد أكمام الجاكيت.

- «كنت أتساءل، فربما قد حان الوقت للذهاب إلى جبل محمد».

- «جبل محمد! "ماذا يعنى هذا الكلام؟" (قالها بالفرنسية)».

- «هذا يعنى؟ (قالتها بالفرنسية) أن نذهب إلى فلسطين».

- «أرجو أن تخرجى هذه الفكرة من رأسك» هكذا أجابها كوستيس ببرود.

- «كوستيس..........».

- «لابد أن تنسى هذا الأمر تماماً».

- «يا بنى، لا يمكنك أن تحرم أمًا من طفلتها للأبد. هذا ظلم».

- «لم أحرمها من طفلتها وأنت تعرفين ذلك. هى التى حرمت نفسها منها. تعرفين أننى لا أحب الحديث فى هذا الموضوع».

- «عدم الكلام لا يحل المشكلة، عندما يفرضه شخص ما».

- «أنت لا تتحدثين بطريقة منطقية اليوم، يا سيدة ذافنى. "لقد نبهتك لذلك" (قال ذلك بالفرنسية) وهو يشير لها بإصبعه محذراً.

- «أنا أخبرك بما ينبغى أن تسمعه، ولا تهددنى» أجابته بنفس الطريقة ثم أضافت: «إلا إذا كنت تفكر أن تبعد والدتك عنك».

- «اللعنة! (قالها بالفرنسية) هل تفضلين امرأة يهودية على ابنك؟ الحقيقة أننى لم أكن أتوقع أن يأتى اليوم الذى أسمع منك فيه هذا الكلام» أجابها منفعلاً.

- «وأنا من كنت أعتقد أن لدينا نازيًا واحداً وقد مات» هكذا أجابته وقد أصاب الغضب وجنتيها بالاحمرار، وكأنها عادت شابة من جديد.

لم يتوقف كوستيس عند هذا، فقد غادر المنزل غاضبًا، ودفع الباب من خلفه، مثلما كان يفعل فى كل مرة يكتشف فيها خطأه. وبعد خروجه قامت فاطمه بجمع ما تبقى من طعام الإفطار على الصينية النحاسية الضخمة.

* * * * *

عندما خصصت مجلة " لايف" عدد شهر مارس عام ١٩٤٧، لهايكى فويسندال، وقدمت تقريراً مفصلاً عن حياتها المثيرة، وأيضًا عن نشاطها فى المقاومة فى العام الأخير ضد الاحتلال الألمانى، كانت إيفيت هى الوحيدة من بين أهل الإسكندرية التى لم تندهش لما تقرأه. وكان قد مر عام على هروب هايكى عندما تسلمت خطابها من

فلسطين فى نهاية صيف عام ١٩٤٣. لكن حتى ذلك الحين كان من الواضح أنها تكتب لإيفيت بسبب عدم وجود أى شخص آخر يبادلها كتابة الخطابات. أما خطابها الأخير لكوستيس فكتبته فى شهر أغسطس عام ١٩٤٢، والذى كانت قد ألمحت فيه بوضوح إلى احتمال عودتها، لكن موقفه الرافض كان كافيًا لأن يجعلها لا تلتفت مرة أخرى تجاه أفريقيا. منذ ذلك الحين كان كل تغير ملفت للنظر يعقبه تغير آخر فى حياتها، وكانت تشعر أحيانًا بالحاجة للتحدث مع شخص ما عن كل ما تسبب فى تغيرها بهذا الشكل الذى يستحق الإعجاب، بداية من إقامتها فى فندق "الملك داود".

عزيزتى إيفيت:

بعد عام من الصمت الاختيارى الذى حاولت من خلاله التأقلم على الحياة فى أرض الوطن دون سندى السكندرى، جاءت اللحظة التى أبوح لك فيها بالسر عما يجعلنى أكثر سعادة عن ذى قبل، متحلية بالإيمان وبالثقة فى مستقبل يصعب التنبؤ به، مستقبل غير آمن.

وإذا كان لى أن أروى عن أيامى الأولى فى فلسطين، فأنا مضطرة لأن أبدأ من غرفتى فى فندق " الملك داود" التى أقيمت فيها فى نفس الوقت تقريبًا مع ملك اليونان يورغيوس وحكومته فى المنفى. يبدو أن اليونانيين يطاردوننى فى كل مكان! وبالنسبة لسيدة أفسدتها الحياة الرغدة فى منزل آل خاراميس فلم يكن مسموحًا لها بشىء أقل من الفندق الفاخر الذى يقيم فيه الكثير من الأثرياء والمشهورين. كان الشعور بالأمان الذى توفره الفنادق الفاخرة فى جميع مدن العالم شيئًا مفقودًا لامرأة منفية مثلى، ولا أخفى عليكِ كيف أننى فى الأوقات الأولى كنت أفكر فى استبدال جزء كبير من مجوهراتى بما يعادلها من سنوات الإقامة هنا. وفى الحقيقة (دونتها بالفرنسية)، كان لدىَّ أو ظننت أن لدىَّ حرية الاختيار فى العودة، لكن لم تكن الأمور قد إتضحت تمامًا ولم يكن الكثيرون قد عادوا إلى الإسكندرية بعد. وعندما صرح لى كوستيس بأنه "لا سبيل لعودتى مرة أخرى" (دونتها باللغة بالفرنسية)، وهو ما ذكره لى حينئذ حرفيًا، اعتبرت أنه يمنحنى القدرة على فعل ما كنت أريد فعله حقًا، ولذلك بادرت باقتناص الفرصة.

وبعيداً عن أفق البشر العاديين في الجليل وفى سارون وفى الوديان، يوجد فتيان وفتيات أوربيات، صغار وكبار، يتطلعون اليوم لتحقيق حلم حياتهم، ينحنون على الأرض ويلمسونها بأيديهم، يتعلمون فن السلام والحرب أيضًا، يقرأون الشعر والفلسفة، يعزفون الموسيقى، يعشقون ويحلمون، ينقشون بأيديهم نشأة مجتمع المستوطنات.

الواقع أننى لا أكتب لك اليوم من فندق " الملك داود"، ولكن من واحدة من المستوطنات، (كفار جالاندى، التى تقع فى الشمال، إذا كنتِ قد سمعتِ عنها)، وأنا مدينة بذلك لاثنين من الجنود الذين تعرفت إليهما بالمصادفة أثناء جولاتى فى المدينة مثل المعابد اليهودية، حائط المبكى، وكل ما هو طبيعى بالنسبة ليهودى. وبالمناسبة (دونتها بالفرنسية) لابد أن تعرفى أن الغالبية هنا ليسوا متديين، فهم لا يذهبون للمعبد سوى فى " يوم كيبور" (عيد الغفران)، كما يذهبون أحيانًا فى "سيمحاتورا "(يوم عاشوراء)، وهناك من اليهود من يضىء شمعة مساء كل سبت. أما هذان الجنديان فهما من الرواد، حيث كانا من أوائل الناس الذين أيدوا الحياة الرهبانية على أرض فلسطين. وكانت مناقشتهما معى سببًا فى أن تتفتح عينى على أمور كثيرة. هنا نقوم بإنشاء وطن من بدايته، حيث يوضع نظام للناس، ويتم تخطيط مجتمع جديد، تعرف فيه جمال المكان، وشعبًا من المحاربين العباقرة المستعدين للرد على نيران العرب الهمج.

أنا على يقين من أنك لن تتعرفى إلى ذلك المخلوق الجديد الذى تحولت إليه مدام خاراميس، تلك المرأة الرقيقة القادمة من الإسكندرية. فساعات طويلة تحت الشمس تحول الألباستر إلى نحاس. والأيدى الناعمة الرقيقة تصيبها الخشونة من العمل فى المزارع. حتى مجرد جمع الفاكهة يعد من الأعمال المرهقة بالنسبة لعارضة أزياء سابقة بشانيل. يأتى عليك المساء وقد أصابك الإعياء الشديد، لكن هذا التعب اللذيذ يمدنى بالطاقة وبالوعود لليوم التالى. هكذا يتم الشفاء بفضل الأعمال اليومية المعتادة التى تعطى لروحك الهناء وتقتل السأم.

أعيش حياة حقيقية دون قيود. تعلمت أن أتحمل الوحدة والعمل الشاق، والحياة في المزارع وفي العراء، لكن حتى ذلك لا يكفيني. ففي مكان بعيد في أوربا، يوجد عالم حقيقي مصنوع من طين التشدد والخداع الاجتماعي. وحوش بشرية ترتدي أزياء خضراء داكنة وتضع الصليب المعقوف يهددون جنسنا. أما نحن فماذا نفعل؟ نتدرب. نتحول إلى آلهة وربات حرب حاليين، وسوف نرد عليهم، سنطير فوق السحب السوداء للقارة المحتلة لنضيء شعلة المقاومة في جميع أرجائها. فالغد ملك لكل من يحلم به. يحيا الغد!

وبالعودة إلى هذا الخطاب بعد أربعة أعوام، استطاعت إيفيت أن تكتشف كل هذه المعلومات التي جعلت من هايكي، حسب كاتب المقال في مجلة " لايف"، " بطلة حقيقية"(دونها بالإنجليزية) لحرب حقيقية. بدأ المقال برحلة صعود أمها، راشيل فويسندال، البطولية في موجة الهجرة في سبتمبر ١٩٤٠. كانت راشيل تنتمي إلى تلك المجموعة الصغيرة من المهاجرين التي بدأت في فجر يوم السادس والعشرين من شهر سبتمبر رحلة صعودها البطولية إلى المعسكر الحدودي عند " بورت بو "، حتى تم إبلاغها بعد مسيرة اثنتي عشرة ساعة أن الحدود الفرنسية الإسبانية قد تم إغلاقها. وقد أدى انتحار واحد من رفاقها، يدعى فالتر بنيامين، إلى إنقاذ حياتها في ذلك الحين عندما قررت السلطات الحدودية تحت وطأة اندهاشها من هذا الحدث أن تفتح لهم الحدود لعبور إسبانيا. وبعد أربعة أعوام، في ربيع عام ١٩٤٤، اتبعت الابنة نفس طريق الهروب، في محاولة منها للنجاة من النازيين الذين كانوا يبحثون عنها في فرنسا. تدربت في " الكيبوتس" (ذكرها بالعبرية ودونها بحروف يونانية) (المعسكرات) في فلسطين على حرب العصابات وعمليات التخريب، وكانت قد قفزت بالمظلة فوق فرنسا المحتلة من أجل إعداد بعض الفرق اليهودية للمقاومة قبل أن يبحروا جميعًا بالباخرة نورماندي. وكان عبورها الحدود الإسبانية حافزًا جعلها تحترق شوقًا للقاء أمها. لكنها لم تتمكن من ذلك، لأنها عندما وصلت إلى نقطة الالتقاء المحددة، علمت أن أمها قد ماتت منذ أسبوع مضى بسبب إصابتها بالتهاب رئوي. عادت هايكي مرة أخرى إلى

فلسطين وتفرغت للموسيقى ولفكرة الوطن اليهودى. ولكى تقوم بالدعاية للتطلعات الصهيونية، كانت تقيم العديد من حفلات العزف على البيانو فى كل بلدان العالم. لم تكن أصابعها السحرية قد فقدت مرونتها، واستطاعت أن تمتع عشاق موسيقى باخ وليشت وشوبان ورحمانينوف، تلك الأصابع التى كانت تستطيع فى نفس الوقت وبكل مهارة أن تستخدم الأسلحة النارية والقنابل اليدوية ضد النازيين. لقد تعلم هذا الجسد الذى لا يزال يحتفظ برقته كيف يسبح فى الهواء، ثم يهبط إلى أرض معادية مستخدماً الباراشوت. هاتان العينان اللتان سحرتا الرجال والنساء، واللتان كانتا فى بعض الأحيان هائمتين من تأثير الخمر، أصبحتا الآن صافيتين كالأحجار الكريمة، تشعان بالنور والقوة، وتملآن بإشعاعها غلاف المجلة.

لقد أحست ذافنى أيضًا بتلك الحيوية التى تشع من هاتين العينين. واستطاعت بخبرتها، وقد بلغت السبعين من عمرها، أن تقرأ فيهما خطوة بخطوة تلك الرحلة المثيرة لزوجة ابنها المطاردة، وشعرت بداخلها بإعجاب لم تستطع البوح به، ذلك الإعجاب الذى نشأ فى فترة إقامتهم معًا - جدة وأم وحفيدة - فى جناح فندق" الملك داوود". كانت هايكى تشبه الحيوان المفترس داخل قفصه. وقد أصرت - كنموذج لفلسفتها الجديدة - على رد المجوهرات التى كانت قد أخذتها معها أثناء هروبها إلى كوستيس. لكن حماتها لم تقبل بذلك، قائلة: «احتفظى بها، فأنا على يقين من أنها ستستخدم فى شيء مفيد. فربما بهذا العمل تنال روح ماخوس المغفرة». كانت أيام السلام جميلة، قبل أن تبدأ فى عام ١٩٤٨، حرب جديدة، تلك التى شارك فيها الجيش المصرى مع القوات العربية ضد دولة إسرائيل حديثة التأسيس.

للمرة الثانية يتم وضع هايكى فى مصاف الأبطال، وكانت صورتها وهى تركب إحدى المدرعات قد تداولتها صحف العالم من جديد فى رأس السنه لعام ١٩٥٠. أما فى مصر فقد أصبحت من الأعداء، ووصفتها الصحف العربية بأسوأ الصفات. ولأن الطباع السيئة ليس لها حدود، كتب أحد الصحفيين المصريين بعد عدة أيام قائلاً: "لا تتزوجوا من اليهوديات أبدًا، فسوف تضطرون لطردهن فى يوم ما، وربما تدركون

عندئذ أنكم قد أدخلتم فى بيوتكم عدوًا قاتلاً للبلد الذى يستضيفكم، عندها أين ستخفون وجوهكم من الخجل؟».

عندما قرأ كوستيس ذلك شعر بغصة فى حلقه، وعلى الرغم من أنه حل رابطة عنقه بقدر المستطاع، إلا أن شعوره بالإختناق لازمه طوال اليوم. عاد إلى البيت فى وقت متاخر من المساء وهو يتأبط الصحيفة، مدركًا أن أمه وابنته ستكونان فى انتظاره كالمعتاد ليتناولوا معًا طعام العشاء. كان يشعر بعصبية غير مألوفة. لم تكن ابنته عند الباب فى استقباله، وبدت له الإضاءة بالمنزل شديدة. كان كل شىء يزعجه، حتى عطر والدته التى بادرته بقولها:

ذافنـــى: «ماذا حل بك، هل انزعجت من رائحة عطر والدتك بعد كل تلك السنوات؟».

كوستيس: «أين ابنتى؟» سألها ببرود.

ذافنى : «صعدت لبعض الوقت إلى الطابق العلوى. سأرسل الفتيات ليستدعونها. لكن ماذا حل بك؟ فوجهك يبدو مصفرًا كاليمونة. "ما الذى حدث لك!"(قالت ذلك بالفرنسية)».

أطل كوستيس برأسه من الباب ليتأكد من عدم اقتراب ابنته وبدلاً من أن يجيبها، ألقى بالصحيفة فوق مائدة الطعام وصاح بحدة: «لا أريد أن يتحدث أحد هنا عن هذه اليهودية الفاجرة». نظرت إليه والدته بدهشة، لكنها لم تقل شيئًا. فى تلك الأثناء، أدخل كوستيس أصابعه فى شعره وكأنه على وشك أن يقتلعها من جذورها، ثم ألقى بنفسه فوق أحد المقاعد. بدأت والدته تحرك الهواء أمامه بالجريدة التى كان قد ألقاها على المائدة. وأخذت تنادى قائلة: «كوستيس!»، «ذافنى»، «كوستيس!»، «فاطمة!»، «أيتها الفتيات!». فى النهاية لم تكن تدرى ماذا تقول. لقد فقدت صوابها تمامًا. أسرعت بالاتصال بالطبيب، ستيفانوس. كان صوت الجدة يسمع من غرفة الطعام وكانت الطفلة ذافنى تصيح: «أبى! أبى!». أسرعت واحدة من الفتيات تجرى وفى يدها كوب من الماء. لقد ذكر هذا المشهد ذافنى بحالة الإغماء التى كانت تنتاب خاريتومينى منذ تسع

سنوات عندما سمعت بغزو الألمان لليونان، وحينئذ قاموا باستدعاء الطبيب ستيفانوس، وبسبب خبرته بهذه الحالة كان هادئًا وأعطاها حقنة مهدئة. لكنه الآن فى حالة كوستيس، لم يكن بنفس الهدوء.

- «إن ابنك فى سن خطرة، مدام ذافنى، ولابد أن يكون حريصًا». قال ذلك وهو يغادر المنزل.

- «أتقول لى ذلك؟».

- «لقد شرحت له مدى خطورة الموقف، لكن لا ضرر من أن تعرفى أنت أيضًا لابد أن يبتعد عن التوتر والقلق، وأن يستريح. المطلوب هو الهدوء والراحة التامة».

- «الكلام سهل (قالتها بالفرنسية)، لكنك تعرف كوستيس».

- «بالطبع أعرفه، ولهذا أقول لك ذلك. لو استمرت الضغوط. سوف نضطر لنقله إلى مستشفى كوتسيكيو بلا تردد. فلم نعد شبابًا، يا مدام ذافنى».

كان بإمكانها أن تتقبل ذلك من أى شخص آخر عدا ستيفانوس، حتى لو كان قد مر زمن طويل منذ أن ظهر فى الإسكندرية لأول مرة، وهو شاب وطبيب لامع بعد أن درس فى ألمانيا. قد ننسى أشخاصًا بعينهم، فى السنوات الماضية، على الرغم من أنهم لا يفارقونا ويكبرون معنا.

- «كم عامًا يعرف كل منا الآخر، يا ستيفانوس؟» هكذا فكرت أن تسأله فجأة.

- «لم أعد أذكر، مدام ذافنى. لكن لابد أنها قد تخطت الثلاثين عامًا» هكذا أجابها وهو يثبت نظارته فوق أنفه.

- «اعلم إذن أنك ملاكنا الحارس، تتابع أمراضنا، صغارًا وكبارًا. أشكرك على كل ما قمت به من أجلنا طوال تلك السنين». قالت ذافنى ذلك وبدون قصد دمعت عيناها.

- «ماذا هناك، مدام ذافنى، ما الذى أصابك الليلة؟ كفى أحزانا. هيا لتستريحى ودعينى أرحل، فالبرد قارس. سأتصل بك فى الصباح. وكما اتفقنا، أخبرى كوستيس أن يحرص على نفسه. فلم نعد شباباً».

كانت ذافنى تتابعه وهو يتجه ناحية البوابة المعدنية، وقد أدركت ما الذى يعنيه.

لقد حان الوقت إذن لكى تسمع ذلك. فلم يعد ابنها شاباً بعد أن بلغ الخمسين من عمره، وبسبب سوء صحته لم يعد له الحق فى أن ينفعل تجاه أى شىء. أخذت ذافنى الجريدة بين يديها لكى ترى بعينها سبب ما حدث، لكنها لم تتمكن من قراءة المقال المشئوم، فقد كانت الكلمات المكتوبة باللغة العربية تصيبها بالإعياء. ما الفائدة إذن؟ نادت على فاطمة لكى ترفع الطعام، فلم تعد هناك شهية لأحد فى ذلك المساء. تساءلت عن عدد الفتيات اللاتى يحملن اسم فاطمة وقمن بالعمل فى هذا المنزل، تلك الوجوه المخزية التى كانت تسرقك تحت بصرك، وبمرور السنوات كانت ذافنى تتظاهر بأنها لا تعرف. فقد كانوا، على أية حال يسرقون أشياء عديمة القيمة. لم تمتد أيديهن أبداً لسرقة شىء ثمين. وربما كان ذلك نوعًا من الإصلاح تجاه تصرفاتهن الوضيعة. كانت وجوههن تلمع من فرط إحساسهن بالرضا فى كل مرة يخدعنها فيها أو يظنون أنهن قد تمكن من ذلك، الأمر الذى كان يثير إعجابها. فقد كانت ذافنى، على أية حال، تعلم ما الذى يعنيه أن يقع شخص ما أسيراً لمرض السرقة.

ربما كانت المربيات أفضل حالاً منهن؟ عندما رحلت ميس جابى فى المرة الأخيرة مع أخيها، استولت خلسة على تمثال صغير - وكان مزيفًا لحسن حظ ذافنى - لكنها اعتقدت أنه يساوى ثروة. أما ميس جين، تلك الشابة الإنجليزية البدينة التى كانت تضحك وتصيح مع ذافنى الصغيرة، فقد اختفت فجأة بعد وفاة ماخوس بقليل، وقد ألمح خورى إلى احتمال أنها كانت عميلة للإنجليز، "العميل المزروع "(قالها بالإنجليزية)، كما تم وصف العائلة بأنهم من مؤيدى النازية. وربما كانت ميس جين هى أول من أماط اللثام عن جريمة قتل ابنها.

أمام نموذج كهذا، فقد كانت الخادمات المصريات السارقات جديرات بثقة أكبر، وبخاصة فاطمة، التى كان كوستيس يطلق عليها اسم، فاطمة الخامسة، إنها كنز حقيقى. فعندما حضرت فاطمة لأول مرة من دمنهور عام ١٩٣٩، كانت طفلة صغيرة، أما الآن وبعد مرور أحد عشر عاماً فقد أصبحت شابة، لم تكن من الخادمات الثرثارات الماكرات، ولذلك كانت ذافنى تفضلها عن باقى الخادمات.

" ربما تكون فاطمة هى آخر خادمات العائلة "، هذا ما جال بخاطر ذافنى وأحست بالرعب. ويبدو أن الطبيب كان محقًا، فقد أصابها مرض ابنها المفاجئ بحالة من الذعر. أين ذهبت ثقتها بنفسها؟ هل تخلت عنها مثلما تخلت عنها مجموعتها الأثرية؟ لم يكن من الضرورى أن تستجيب لكلام كوستيس، فقد كان إهداؤها الإجبارى لمجموعتها من الآثار الفرعونية للحكومة المصرية بمثابة إشهار بإفلاسها. لقد حرمت فجأة من ثروتها الفنية التى كان بإمكانها أن تحولها لنقود سائلة قد تحتاجها فى أوقات الشدة، تماماً مثلما فعلت لتدعيم وطنها أثناء الحرب. كان الاستقرار فى الإسكندرية أمراً غير مؤكد. فقد شاهدت أسراً كثيرة فى الإسكندرية تغرق بين ليلة وضحاها فى مستنقع الدمار الاقتصادى. يكفى أن يموت أحد أو أن يصاب بالعجز أو بعدم القدرة على إيجاد حلول بديلة، وعندئذ تذهب مشقة ثمانية عشر عاماً هباء. وإذا ما أصيب ابنها، لا قدر الله، بمكروه فمن ستكون لديه القدرة على إدارة المصنع؟ قد تصبح ذافنى الصغيرة – بلا شك – امتداداً للعائلة، فقد أعادت دورة الحياة لمنزلهم فى شارع العباسيين، ولكن هذا هو كل ما فى الأمر. كان المصنع الذى يقع بالمحمودية بمخازنه وفروعه فى مصر كلها يشبه الماكينة المعقدة ذات التروس المتشابكة، وكانت ذافنى تكن إعجاباً خفياً لزوجها ولابنها من بعده لأنهما تمكنا، كل بطريقته، من إدارته ببراعة. فمثل هؤلاء البشر لا يقف أمامهم عائق فى سبيل تحقيق أهدافهم.

"لماذا كانت هايكى يهودية؟" هكذا حدثتها نفسها. لكنها أسرعت تصحح نفسها بقولها: "ما هذه التفاهات". وعندئذ استحضرتها فى ذهنها، وهى مرهقة بعد نهاية يوم عمل فى الكيبوتس (المعسكر)، فخورة، مبتسمة، واثقة فى نفسها. لكن ذافنى لم تكن

تشك فى أن الرجل الذى أحبته هايكى يومًا، ورأته يكبر بجوارها قد أصبح على حافة الانهيار، ولذلك فقد كانت تلعنها لهذا السبب. سمعت دافنى حفيدتها وهى تقول لها:

«هيا يا جدتى، لقد نام أبى. هيا لكى تستريحى أنت أيضًا» وعندئذ تأبطت دافنى ذراعها وصعدا السلم. حاولت أن ترفض فى البداية مساعدتها، وعلى غير المعتاد. حيث كانت ترى أنها لم تكن بحاجة لمساندة أحد، لكنها فكرت فى أنه ليس من الصواب أن تجرح مشاعر حفيدتها الحبيبة دافنى. ولذلك فقد استسلمت لها، وهى تهمس: «هيا بنا إذن يا بنيّتى». وفى تلك اللحظة أحست بالإرهاق وحاولت مقاومته فى ذلك الوقت بضراوة، إلا أنه كان يسيطر على كل جزء فى جسدها. ولم يكن ذلك هو الإرهاق اليومى المعتاد، ولكنه تعب السنين، فقد حل عليها التعب الجميل الذى لا يقاوم.

"لقد صرتُ عجوزًا إذن!" هكذا كانت تفكر وهى تعبر الرواق وتقترب من السلم الرخامى. شاهدت الكلب الصغير فريكسوس وهو نائم على الكنبة الصغيرة فى غرفة المعيشة. ولم تكن لديه القدرة حتى على تحريك ذيله، ربما بسبب مطاردته للقطط طوال اليوم.

«كل شىء يكبر هنا» قالت ذلك وهى تهمس بيأس، فقد رأت فجأة رؤية وكأن الفيلا خاوية والحديقة مهملة والتماثيل محطمة. هل كان ذلك مجرد خيال أحمق أم كان توقعًا لمستقبل مخيف آت؟

* * * * *

«فى حرب ١٩٤٨، كان جمال عبد الناصر يخدم فى إحدى كتائب الجيش المصرى الثلاث التى كان يحاصرها الإسرائيليون منذ أسابيع عند الفالوجا» هكذا كان إلياس خورى يقول عندما يسألونه عن رأيه فى الزعيم المصرى فى بداية الخمسينيات. أما عن باقى الأمور فقد كان يترك الإجابة عنها لنظرته الحزينة وهو يتطلع إلى منزل صامويل عظيمان المغلق الذى كان يقع فى حى رشدى. ويبدو أنه قد نسى أنهما منذ منتصف العشرينيات وهما ينهشان بعضهما بعضًا حول القضية الفلسطينية، والآن

أحس فجأة بالألم تجاه حديقة المنزل المهملة والنافذتين شبه المفتوحتين فى الطابق الأرضى التى لم يهتم أحد من الخدم - كما كان ينبغى - أن يغلقها بعد أن وضع قفلاً ضخماً على الباب الحديدى بالخارج.

فى كثير من الأحيان، كان بعض اللبنانيين من أهل الإسكندرية القديمه يتحدثون عن الملك المخلوع، إلا أن إلياس كان يفاجئهم بقوله:

إلياس: «أتذكر (قال ذلك بالفرنسية)، أنه فى يوم حار من أيام الصيف تم نفى فاروق الفاسد العاجز لقد جمع ما استطاع جمعه، واستقل مركب "المحروسة" (قالها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) واختفى».

إيفيت: «لم تكن فى جانب فاروق، ولستَ فى جانب عبد الناصر، فى جانب من أنت؟» هكذا سألته إيفيت ذات مرة.

- «أنا فى جانب الإسكندرية».

- «لقد كبرتَ، يا عزيزى اللبنانى، ولا تدرى ما تقول».

- «أنا لم أكبر، لكن المدينة هى التى كبرت».

هكذا قال إلياس بإصرار رغم أن ملامحه قد بدت عكس ذلك. فبشرة وجهه البيضاء الملساء التى تشبه الخبز اللبنانى تحولت إلى اللون الداكن، وكأن الزمن قد غير من لونها. وملأت التجاعيد وجهه ورقبته وجبهته وحول عينيه. لقد ترك الشاب المتأنق من العشرينيات والثلاثينيات مكانه لرجل غامض يرفض أن يصير عجوزاً، وكان يستخدم عكازه المصنوع من خشب الأبنوس ذى المقبض الفضى وكأنه رمز للعظمة والحكمة.

أما إيفيت فكانت تصب عليه أحياناً اللعنات قائلة:

«أيها العجوز الوغد! (قالت ذلك بالفرنسية) أخبرنى بالله عليك، ما الذى فعلته لك حتى تهدر حياتى فى هذه المدينة اللعينة؟» هكذا كانت تصيح وهى تضم قبضة يدها وكأنها ستلكمه فى كتفيه.

عندئذ كان يمسك بيدها، ويفتح كفيها ثم يقبلهما وهو يربت عليهما بيديه قائلاً:

«اهدئى، يا عزيزتى (قال ذلك بالفرنسية)، فأنتِ تعرفين أننا قد خُلقنا لهذه المدينة وأن هذه المدينة قد خُلقت من أجلنا. أخبرينى إذن، فى أى مكان فى العالم يستطيع اثنان من المدعين أمثالنا أن يجدوا لأنفسهم مأوى؟».

جاهدت إيفيت لكى تهرب من رقته، وألقت بنفسها على أول مقعد وجدته أمامها ومسحت دموعها بكفيها ثم قالت (بالفرنسية) بصوت مرتفع به مسحة من الشباب:

«وعود كثيرة، وعود كثيرة».

لكنها فى حقيقة الأمر كانت تعرف أنه ليس لها الحق أن تتذمر، فقد كان هذا الشيطان الصغير الذى أغرقها بالوعود أكثر من ملتزم فى حساباته. فذهب بها إلى حيث تستطيع أن تشبع رغباتها وتجنى نقوداً وتنهل من السعادة فى مجتمع البحر المتوسط العالمى، كان كثيراً ما يصل إلى قناعة بأن هذه المدينة العالمية لم تكن سوى وعاء يحتضنه، ولم تكن لديه الرغبة فى أن يتركه بين يدى عبد الناصر أو من يشبهه حتى لا يدمره.

وكان يقول لها: «أترين أننى لم أتركك، وظللت إلى جانبك حتى النهاية». وفى الواقع، ليست إيفيت التى لم يتركها. ولكنه لم يترك الإسكندرية. وفى النهاية، أثبت إلياس العجوز أنه أكثر شجاعة من أى الشباب، ففى هذه المرة لم يكن العدو يقف على الأبواب مثل روميل ولكنه دخل إلى المدينة وأخذ يعبث بتاريخها العالمى. حاول "اللبنانى" أن ينقذ ما يمكن إنقاذه، ولكن بلا جدوى. فكان يخسر المعركة تلو الأخرى - حيث قامت السلطة الجديدة بإغلاق بيت البغاء فى شارع مصطفى باشا، وبدأت تطرد بطريقتها نبلاء الإسكندرية الواحد تلو الآخر - لكن كان يعتقد أنه سوف يخرج فى النهاية منتصراً فى الحرب. عجوز، منهك من حياته المشتتة، يقف فى مواجهة سلطة قوية يقودها رجل صلب، ساحر وعبقرى، يصغره بأربعين عامًا. ربما تكون هذه هى الشجاعة.

كان إلياس يعرف أن لديه سلاحًا مهمًا فى يديه، يجعله قادرًا على مقاومة القوة الناصرية التى لا تقهر: وهو حلم كل العرب وعداؤه الشديد للصهيونية. وأمام نقاط القوة تلك، التى لم يكن يتردد فى إعلانها أمام الجميع، كان إعجاب الضابط نور به يزداد، ويقول له مؤكدًا:

«لا تنس أنك منا، ولا يوجد ما تخشاه».

عندئذ كان إلياس يبتسم ابتسامة غامضة، لكنه بداخل نفسه كان يصب اللعنات على عبد الناصر الذى طالب عام ١٩٥٢، بشنق الملك ثم شارك فى عام ١٩٥٤، فى الانقلاب على الضابط المعتدل محمد نجيب.

أصرت إيفيت على تكرار سؤالها:

- «فى جانب من أنت؟».

- «فى هذه السن، لحسن الحظ، لم أعد مضطرًا لأن أكون فى جانب أحد. ربما لو عدت إلى الثلاثين من عمرى مرة أخرى، لأصبحت فى الجانب الأمريكى، إنهم إنجليز العصر الحديث».

فى البداية كان إلياس يتطلع بقلق تجاه عبد الناصر الذى كان يسير وفقًا لما خطط له. كانت علاقته بالأمريكان ممتازة، على الأقل، طبقًا لما تنشره الصحف بالقاهرة.

«إننا نعيش فى عصر الحرب الباردة، ولكن أيضًا فى عصر ازدهار هوليوود. رجل مصر الأول، الشاب القوى، يتابع باهتمام السينما الأمريكية. يعجبه بشكل خاص فيلم " حياة عظيمة " للممثل جيمس ستيوارت. وبناء على ذلك فقد حرص أصدقاؤه الأمريكان أن يرسلوا له نسخة خاصة من الفيلم بترجمة عربية».

«لن يستمر هذا الوفاق لمدة طويلة» هكذا تنبأ إلياس. وبالفعل، فى السابع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٥٥، وصلت أولى شحنات الأسلحة الروسية التى تسلمها عبد الناصر من خروتشوف.

«إذن، الآن سيواجه المشاكل ابن ساعى البريد الذى يعيش فى باكوس» هكذا علق إلياس وهو يفرك يديه من السعادة.

لقد تعجل نيكيتاس فى إظهار فرحه، معتقداً أن رفاقه من الشيوعيين سوف يخرجون من السجون، لكن "اللبنانى" قدم وجهة نظر مناقضة تماماً لكوستيس، حيث قال: «قل لابن خالك أن لا يفرح. فعبد الناصر ليس شيوعيًا، الأمر الوحيد الذى قد يحدث هو بعض المحاولات لقتله، والتى، إن كان محظوظًا، سيخرج منها سليماً».

وفى الشهور التالية تعرض عبد الناصر لمحاولات مختلفة لقتله، تارة بالمسدس، وتارة بالسم فى القهوة أو بغاز الأعصاب فى نظام التكييف فى مكتبه. وفى النهاية شاهد "البكباشى ذو العينين الناريتين" حلمه فى بناء السد العالى بأسوان يتهاوى. ففى التاسع عشر من شهر يونيو عام ١٩٥٦، أعلنت أمريكا عن عزمها إلغاء تمويل المشروع.

«حتى يتعلم (قالها بالفرنسية)، هذا ما كان يسعى إليه» قال ذلك اللبنانى متشفياً، فمنذ البداية كان معارضًا لهذا العمل الضخم، وقال: «ده مخ صعيدى (ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية). إنه ليس سوى رجل طوله ١,٩٠ سم ووزنه ٩٠ كيلو جراماً، ويفكر فى الاستحواذ على مياه النيل حتى يذكره التاريخ فقط».

إلا أن خصمه لم يقل حتى الآن كلمته الأخيرة. فقبل حلول يوم السادس والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٥٦، بأيام قليلة، أى فى العام الرابع للاحتفال بخلع فاروق عن سدة الحكم، اتصل به الضابط نور، وقال:

نــــور «سيأتى الكبير لكى يلقى خطابًا فى المنشية. سوف يسعده وجودك. إنه يقدرك بشكل خاص، أنت تعرف ذلك».

إلياس: «أبلغه تحياتى. "ولكننى رجل مسن "(قالها بالفرنسية) لا أحتمل مثل هذه الأمور. وسوف تأتى الأمة العربية كلها لكى تسمعه. هل تتخيلنى بينهم كذبابة وقعت فى قدر من اللبن؟ دعك منى، سوف أستمع لخطابه فى الراديو».

نــــور: «كما تحب» هكذا أجابه الضابط نور (بالفرنسية) بطريقته المضحكة فى الكلام ثم وضع السماعة.

فى هذا الطقس الخانق الذى خلفته رياح الخماسين الحارة، كان ناصر يرتدى بذلته الرمادية، ويقف فى سيارته المكشوفة، محاطًا بحرسه الخاص. كان الموكب يتحرك ببطء فى شوارع الإسكندرية، مستمتعًا برائحة هوائها الزكية المعبأة بروائح الفل والياسمين. كان وسيمًا وكأنه نجم سينمائى، ومن خلفه تظهرالمساجد والعمارات بالمدينة، يبدو دائمًا واثقًا من نفسه وهو يعبر الشوارع المؤدية إلى ميدان محمد على. أما الجماهير فكانت منتشرة فى كل مكان: فى الميادين، فى الشوارع، فى الشرفات، فى المقاهى، الكل يهتف له بحماسة. ومنذ الساعات الأولى من الصباح لم يكن هناك موضع لقدم فى الميدان الكبير: فقد كان البطل العربى له سحره الذى يؤثر فى "الجلابية والطربوش والطاقية"(ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية).

كان نيكيتاس وثاناسيس من بين الأوربيين القلائل الذين نزلوا إلى الشوارع وأصابتهما الدهشة من هذه الحشود الغفيرة. وعندئذ صاح ثاناسيس قائلاً:

ثاناسيس: «فى هذه اللحظة، لابد أن عدد المصريين يفوق المليون فى المنشية».

نيكيتاس: «ليس إلى هذا الحد، يا ثاناسيس».

- «إذن كم تعتقد، يا خالى؟».

- «ما يقرب من المائتى ألف على الأكثر».

- «ولماذا مائتى ألف فقط؟».

- «هيا الآن، هل سنهتم بهذا الأمر التافه؟».

"يا لهذا العدد من المصريين. لو استيقظ هذا الجمع من الناس، فسوف يقضون علينا"، هكذا حدثته نفسه، ثم عاد نيكيتاس بذاكرته إلى الاضطرابات التى حدثت عام ١٩٢١، ثم عاد إلى الوراء أكثر حتى وصل إلى أحداث هوجة عرابى، تلك

التى كان قد سمع عنها من بعض كبار السن. وعلى غير العادة فقد خلع قبعته وأخذ يلوِّح بها فى الهواء.

فى ذلك الوقت كان إلياس قد أغلق على نفسه حجرة مكتبه، فى شقته بحى رشدى، ومعه مروحته التى تصدر صريرًا منتظمًا، وقد أنصت للراديو وهو فى حالة من القلق، مرتديًا روبًا حريريًا وأخذ ينتظر خطبة عبد الناصر. فى ذلك اليوم لم تكن لديه الرغبة فى إضاءة الكثير من الأضواء. وكان قد طلب فى الصباح من أحمد، الخادم، أن يغلق النوافذ التى تدخل منها الشمس، إلا أن ما تبقى من أشعة الشمس كان يترك انعكاسًا برتقاليًا على الأثاث الخشبى وعلى جهاز الراديو. كان إلياس يغوص بجسده فى المقعد الجلدى ذى المسند الضخم، حتى لم يظهر منه سوى شعره الأبيض. وكان هناك عمود من الدخان يصعد إلى أعلى حتى يصل إلى مروحة السقف، فينتشر فى كل مكان. لم تكد السيجارة تنطفىء حتى أشعل غيرها، وكان السعال يلهب حنجرته. ولم يكن إلياس قد انتهى بعد من شرب الشاى، بينما كان يلتقى العديد من المكالمات الهاتفية من عدد كبير من الأوربيين واللبنانيين من أصدقائه، ساعين إلى معرفة رأيه مرة أخرى فى هذه اللحظة الحرجة. وفى النهاية أصابه الإرهاق من الإجابة عليهم وقرر أن يرفع سماعة الهاتف.

فى تلك الأثناء كان عبد الناصر قد بدأ فى إلقاء خطابه من شرفة البورصة أمام هذه الجموع المحتشدة. كانت طبقة صوته تحمل ذلك الرنين العربى الغاضب - هذا الصوت المألوف لمواطنى هذا البلد - وكان إلياس يتخيل ذلك المشهد الذى يراه القائد المصرى، فقد وقف إلياس فى نفس الشرفة مرات عديدة. حيث رسمت أشعة الشمس فى ساعات النهار الأخيرة خلفية درامية فى الأفق، وانعكست ألوان أشعة الشمس الذهبية على السحب المتناثرة، فى حين كان المشهد فى الميدان بكل هذه الجلاليب البيضاء والطرابيش الحمراء لا يقل تأثيرًا.

كانت سيطرة المتحدث على غضبه واضحة منذ اللحظة الأولى. لكن ذلك لم يكن واضحًا لمن يخاطبهم. كان كل الذين احتشدوا ليستمعوا له ينتظرون شيئًا أكبر من

مجرد حصر الإهانات التى عانى منها الشعب المصرى بسبب الأوربيين فى القرون الأخيرة، وأيضًا من غضب عبد الناصر بخصوص مشروع السد العالى فى أسوان الذى بات مهددًا بأن يظل مجرد حلم. ومن حين لآخر كانت أصوات هتافات الناس الذين تخطوا حدود الميدان الكبير واحتشدوا فى الشوارع المحيطة به، تصله عبر الأثير من خلال الراديو، مرددين فى حماسة: «جمال، جمال». كان هتافًا يهز أرجاء الإسكندرية. ولم يكن جمال عبدالناصر يتوجه بخطابه إلى جمهوره فقط. فقد كان مضطربًا وغامضًا. وكانت هناك أمور أخرى تدور فى عقل الخطيب المتحدث. ربما كان لمعاناة السنوات الأخيرة أثر على ثقته فى نفسه، وربما كان رفض البنك الدولى القيام بتمويل بناء السد العالى بمثابة صفعة على كبريائه. وبعد نحو ساعتين من الثرثرة التى أصابت الجميع بالسأم. وبينما كان إلياس، الذى كان سعيدًا من حضور عبد الناصر الباهت، يستعد لأن يغلق الراديو، رنت فى أذنه جملة محددة قالها جمال: «لقد تخيلت أننى رأيت فيرديناند ديليسبس». عبارة ملقاة بشكل عفوى بين كلماته، ليس لها معنى وغريبة فى نفس الوقت. كان اسم الرجل الذى قام بتصميم قناة السويس يتردد كأنه كلمة سر فى أذن إلياس. وسيطر عليه قلق بالغ. فى النصف ساعة التالية ردد عبد الناصر هذا الاسم أربع عشرة مرة. ولم يعد هناك شك! ففى مكان ما بمصر هناك من تلقى كلمة السر من القائد لكى يبدأوا فى تنفيذ الخطة. لكن من هم هؤلاء، وأين يوجدون؟

بعد دقائق قليلة، كان عبد الناصر قد أجاب عن أسئلة إلياس، مفاجئًا الجميع، عندما صاح فى الجماهير قائلاً: «بعض إخوانكم من المواطنين تولوا الآن السيطرة على قناة السويس» بعد حالة الهياج التى حدثت، احتاج "اللبنانى" بضع ثوانٍ حتى يستوعب هذا التصريح الموجز، ثم أخفى وجهه بين راحتى يده وصاح مذعورًا (بالإنجليزية): «يا إلهى».

* * * * *

«لتمت واقفًا وأنت تعمل» هكذا اعتادت أن تقول المرحومة الخالة ماريا، وكان كوستيس يكرر كلماتها فى كل مرة كانت أمه أو الطبيب ينصحونه بأن يستريح قليلاً. لكن السيدة ذافنى كانت تؤكد له قائلة (بالفرنسية): «إنها ليست مزحة، وطالما تعمل فلن تدرك أبدًا كيف مرت حياتك». وفى الحقيقة فقد مرت حقبة الخمسينيات سريعًا، ولكن لم يكن ولع كوستيس بالعمل فى المصنع هو السبب الوحيد. لقد بلغ هذا العمر بعد أن عاش حياة مديدة بشكل يجعله لا يتعجب من أى شىء، وكان كل الناس يبدون معروفين بالنسبة له، ليس بالضرورى لأنه قد التقى بهم من قبل، ولكن لأن ملامح الناس تبدو له وكأنها تتكرر، ولكن فى وجوه جديدة. هكذا كانت الأيام تمر دون أن يكترث بما يحدث من حوله، إلى أن وصل به الأمر إلى احتساب الوقت بالأسابيع ثم بالشهور ثم بالسنين، حتى بلغ الستين من عمره.

على أية حال فلم يُضِع النشاط المحموم فى تلك الحقبة هباءً. كانت حركة مميزة تلك التى قام بها الضابط محمد نجيب، قائد الضباط الذين قاموا بالانقلاب العسكرى ضد الملك فاروق، عندما قام فى خريف عام ١٩٥٣، بتحية الملك فى عشاء رسمى بالإسكندرية، قائلاً: «أيها السادة، هذا هو الملك الجديد!». لقد تحولت هذه المزحة إلى حقيقة واقعة اضطر خصومه للاعتراف بها فى نهاية الأربعينيات.

تعد الفترة التى نشبت فيها الحرب هى الفترة التى ازدهرت فيها أعمال كوستيس خاراميس بحصوله على نصيب الأسد لمد الجيوش المتحالفة مع القيادة البحرية فى الإسكندرية بالسجائر، وقد توقع كوستيس حينئذ زيادة الطلب على السجائر الإنجليزية والأمريكية فى مصر فى فترة ما بعد الحرب. إنه يتذكر جيداً ما قاله الأدميرال كانيجام فى لقائهما الأخير أيام حركة التمرد فى البحرية الملكية اليونانية: «لا تفكر فى تغيير نكهة السجائر بعد الحرب. حتى لو لم نعد نحن الإنجليز موجودين هنا، وهو بالطبع أمر مستحيل، حيث سنكون قد تركنا إرثًا فى مصر، وهى "التوليفة الإنجليزية للسجائر" (قالها بالإنجليزية)». فى عام ١٩٤٤ . وبينما كان كل شىء يشير إلى نهاية الحرب، استغل كوستيس الظروف وقام باستيراد كميات هائلة من التبغ الأمريكى من

نوع "فرجينيا"، فى ذلك الحين قال الجميع إن ابن أندونيس قد أصيب بالجنون، وأنه خلال شهور قليلة، عقب رحيل سفن الحلفاء من الشرق الأوسط، سيقوم وحده بتدخين هذه السجائر" ذات النكهة الإنجليزية"(ذكرها بالإنجليزية). إلا أن نبوءة السير أندرو كانيجام كانت صادقة، وكان رجل صناعة السجائر اليونانى يشعر بالامتنان له على ذلك.

واستمر الحظ محالفًا لكوستيس، ففى ربيع عام ١٩٥٢، حدثت بينه وبين الدوائر الملكية خلافات، وفضل أن يخسر لقب المورد الرسمى للقصر الملكى بمصر على أن يخسر مبلغًا كبيرًا من المال يستحوذ عليه بعض الأشخاص من حاشية الملك فاروق بدلاً من أن يدخل جيبه. وبعد عدة شهور تم تقدير موقفه هذا من قبل الثوار (الأحرار) واعتبروه رمزًا فى إعادة تشكيل الدولة المصرية. كان ذلك الود الذى أظهره له محمد نجيب قد انعكس على تعاملاته مع خليفته، الضابط عبد الناصر. فى نفس الفترة كانت الماركات الجديدة من السجائر" بيرفكت، مودرن تايمز، ماى بليسير"(ذكرها بالإنجليزية) قد اكتسحت السوق وأخذت تحصد الجوائز الواحدة تلو الأخرى فى جميع المعارض التجارية العالمية.

وفى مصنع المحمودية، قام كوستيس بإنشاء ملحقًا جديدًا حتى تتعاون أقسام فصل الألوان مع التعبئة. لقد حول هذا الملحق فى شكل بنائه من حرف T إلى حرف H، وقام محافظ الإسكندرية بافتتاحه فى عام ١٩٥٥، لكن كوستيس، الذى أصبح أكبر رجل صناعة بشكل غير مسبوق فى مصر، كان يشعر بأن مستقبله قد أصبح مجهولاً فى ظل وجود هذه السلطة. ولهذا السبب لم يكن يستمع إلى اعتراضات أصدقائه وشركائه الذين كانوا لا يشاركونه حماسيه فى التطورات الأخيرة، وكان أول هؤلاء هو أندرياس سيستانيس الذى كان يضغط عليه لفترة طويله لينقل جزءًا كبيرًا من نشاط مصنعه إلى خارج مصر، فقدم له عروضًا ورسومات لإنشاء مصنع فى جنوب أفريقيا أو فى دولة إسرائيل حديثة التأسيس، لكن كوستيس رفضها جميعًا دون نقاش.

فى العام التالى تم إجلاء آخر جندى بريطانى عن مصر، لكنهم عادوا بعدها بشهور قليلة رغبة منهم فى الحرب. كانت شائعات قصف الإسكندرية وعملية إنزال

الجنود على شواطئها تتردد بعد إعلان تأميم قناة السويس. وكان الناس يتساءلون - ومعهم الحق فى ذلك - لماذا غادر الإنجليز مصر طالما أنهم قادرون على العودة مرة أخرى. وفى المصنع ارتبطت مغادرة سيستانيس بمشهد مؤثر. فقد كان الرجل العجوز الذى ينحدر من جزيرة إيبيروس باليونان يصعد السلم الرخامى - الذى يؤدى للمكاتب- بصعوبة بالغة، حيث باتت سنه ووزنه الزائد يؤثران فى قدرته على التنفس، وكانت الحشرجة التى يصدرها فى كل مرة يصعد فيها السلم تصيب الموظفين بالحزن. ولذلك قام كوستيس بإعفاء مديره من واجباته، عندئذ انتابه شعور بالسعادة، لأنه شعر بالتحرر من آخر ظل لسلطة أبيه. تكفى الشائعات التى أراد سيستانيس لسنوات طويلة أن يحمى بها كوستيس بنفس الطريقة التى كان يتبعها مع أندونيس خاراميس مع أى نوع من المشكلات التجارية. اختار كوستيس مديراً جديداً للمصنع، ووفقًا للمستجدات، كان رجلاً أمريكيًا ذا أصول عريقة، وبشرة وردية وشعر أشقر كثيف يرفعه دائمًا فوق جبهته، يرتدى الملابس الوقورة، ويملأ المصنع بدعاباته وضحكاته. فقد تعاقد فى وقت سابق مع المدير العام لشركة إيستيرن كومبانى (الشركة الشرقية للدخان)، وهى الشركة المنافسة لكوستيس فى فترة ما بعد الحرب. وقام كوستيس، كاستعراض للقوة، باقتناصه من بين أيديهم. وكان على دراية كافية بالتكنولوجيا الحديثة، ولذلك فقد كان خير تجسيد للاتجاهات الحديثة لمصانع خاراميس التى استطاع بها مواجهة الأمريكان الأقوياء الذين استقروا فى مصر فى السنوات الأخيرة.

فى تلك الأثناء، تغيرت خطة الغزو الإنجليزى الفرنسى لمصر فى آخر لحظة. وعرفت الإسكندرية نوعًا جديداً من الحرب عبر الهواء. عادت المخابئ والإظلام وصفارات الإنذار ضد الغارات الجوية من جديد، وقام الغزاة بقصف المطارات ومحطات الوقود حول المدينة. بدأ الهجوم الفعلى من بورسعيد، إلا أن التفاف الشعب المصرى حول عبد الناصر كان جديراً بالإعجاب، كما التحمت الجالية اليونانية أيضاً معهم. ظهر غيراسيموس، ابن شقيق نيكيتاس، فى صباح أحد الأيام فى مكتب كوستيس وأظهر له، وهو يشعر بالفخر، بطاقته باعتباره عضواً فى لجنة "المقاومة الشعبية"

(ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية)، وقال له: «لن يفلتوا منا يا خالى». تأثر كوستيس بذلك، حتى إنه أعطاه مبلغًا كبيرًا من المال "بقشيشًا"(ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية). كان الأمر حقيقيًا، فقد اندست إسرائيل مع الغزاة الأوربيين فى نفس الوقت، مما استدعى فى مخيلته ملامح هايكى، وكان ذلك كافيًا بالنسبة له لكى يدين الغزو.

وعلى العكس من ذلك، طار إلياس فرحًا عندما سمع بقيام قوات التحالف بغزو بورسعيد، وقال: «فى أربع وعشرين ساعة سيحتلون السويس، "كل شىء سيعود إلى سابق عهده "(قالها بالفرنسية)»، هكذا تنبأ إلياس، إلا أن "إيدين" أمر بوقف إطلاق النيران فى منتصف ليلة السادس من شهر نوفمبر، فأخذ " اللبنانى" يشد شعر رأسه قائلاً: «مخلوق غبى(قال ذلك بالفرنسية)، لو كان تشرشل العجوز فى مكانه، لما فعل هذه الحماقات. الآن انتهى كل شىء».

كان انتصار عبد الناصر السياسى فى أزمة قناة الفويس، الذى هلل له كوستيس فرحًا كأنه انتصار شخصى له، يزيد من ثقته بشدة فى دقة قراراته ووجهات نظره. وفى تلك الأثناء، كانت الجالية اليونانية بمصر تمر بأوقات عصيبة، فقد أدى التجاهل الذى تعرض له اليونانيون بشأن ما قدموه للقضية المصرية إلى شعورهم بالإحباط الشديد. ألم يكن المرشدون اليونانيون السبعة هم من بيَّضوا وجه قائد مصر فى قناة السويس مع زملائهم من المصريين؟ ألم يسارع اليونانيون واليونانيات للتطوع والذهاب إلى مراكز التبرع بالدم للتبرع بدمائهم؟

وكان عدم شعور كوستيس بالألم تجاه هذه المواقف قد أثار تعليقات المواطنين اليونانيين. حتى إن البعض منهم قد عزا ذلك إلى كونه طبعًا متأصلاً فى عائلة خاراميس، وهو ما يظهر فى قولهم: «فالمرحوم أندونيس اعتاد أن ينقذ نفسه دائمًا وليذهب العالم للجحيم. إنهم ليسوا منا!». هكذا شكا أحد المواطنين اليونانيين، ويدعى ماركيذيس، من أصدقاء والده فى اجتماع طارئ للجالية بالإسكندرية. فى الحادى والعشرين من شهر مايو لعام ١٩٥٧، أى فى صباح يوم الاحتفال بعيد ميلاده، تلقى

كوستيس مكالمة هاتفية من ذيموليتساس، المستشار القانونى للجالية اليونانية، وبعد أن هنأه بعيد ميلاده، طلب منه أن يلتقيه فى اليوم التالى فى المصنع.

كوستيس: «هذا أمر صعب للغاية!(قالها بالفرنسية)، ففى الغد سأقوم بوداع الآنسة جوليا، سكرتيرتى التى عملت بالمصنع لسنوات طويلة، ولك أن تتخيل أننى قد ورثتها عن أبى. وهى خريجة المدرسة الألمانية، تتحدث ست لغات... إلخ. لم تتزوج بعد، كما أنها متفانية فى عملها. وبالطبع تدركون مدى أهمية هذا الموضوع، يا سيد ذيموليتساس».

ذيموليتساس: «نعم، يا سيد خاراميس، نعم، لكن الموضوع الذى نريد أن نراكم بخصوصه يتسم بأهميته الوطنية».

- «هل سيكون معكم أشخاص كثيرون؟».

- «أنا فقط ومعى رئيس الغرفة التجارية».

- «حسنًا، يوم الثلاثاء صباحًا».

- «كما تشاؤون، يوم الثلاثاء صباحًا، يوم الثلاثاء صباحًا».

وفى اللقاء الذى تم يوم الثلاثاء صباحًا، كان لكل طرف وجهة نظر مختلفة. حيث كان ذيمولتيساس ومعه خريسوفيرجيس يصران على أنهما التقيا بجمال عبد الناصر آخر غير الذى عرفاه من قبل، يتحصن خلف مكتبه الفخم، لكن كوستيس كان يردد على مسامعهم دائمًا قوله: «أنا رجل أعمال "أيها السادة" (قالها بالإنجليزية)، ولست رجل سياسة». وكان كوستيس قد أفصح لبعض المقربين منه أنه يعتبر كل ذلك نفاقًا، وأن الجالية اليونانية كانت تصارع من أجل مصالح الكبار الاقتصادية. ولذلك رفض أن ينضم إلى الوفد اليونانى الذى قام بزيارة عبد الناصر يوم السادس والعشرين من شهر مايو، قائلاً:

«أنا لست أسوأ من هؤلاء الذين تعبوا لأنهم يكسبون نقودًا، وفى نفس الوقت يجمعون العملة الصعبة التى يجدونها لتهريبها عندما يضطرون للرحيل عن هنا،

فلا يتهمونني إذن بأنني محب لنفسي فقط» قال ذلك كوستيس في حفل العشاء الذي أقيم لوداع " اللبناني " في " بودرو " في بداية شهر يونيو.

إليـــاس: «قل لي إذن (قالها بالفرنسية) أتريد أن تقنعني بأنك لا تضع نقودك في حسابات بالخارج؟».

كوستيس: « "ولا مليم" (قالها بالعربية ودونها بحروف يونانية)، أؤكد لك ذلك (قالها بالفرنسية)».

عندئذ نظر إليه "اللبناني" وكأنه لا يصدق ما سمعه، ثم علق على ذلك بقوله: «أمر سيئ».

تظاهر كوستيس بأنه لم يسمع شيئًا. وفي تلك الأثناء وصلت أطباق الطعام الرئيسة - "سمك فيليه أخضر، وشريحة من لحم هنري الخامس"(ذكر ذلك باللغة الفرنسية) - بعد ذلك أسرع خوري لتقديم كوستيس للسيدة التي كانت تجلس على الطرف الآخر من المائدة، والتي كانت تعبث طوال الوقت بمشبك حزامها، كانت ترتدي رداءً أسود، ضيقًا، مصنوعًا من الحرير، لا يليق بسنها، مطرزًا بشريط فضي وبه الكثير من الترتر على الجانب الأيسر، تضع على رأسها قبعة تعلوها ريشة لطائر اللقلق.

- «كوستيس خاراميس، إيفيت شانتون، سأرحل أنا وإيفيت غدًا إلى بيروت».

نهض كوستيس من مكانه ليحيّي تلك السيدة وقال لها:

«أعتقد أننا نعرف بعضنا بطريقة ما. فأنا أتذكرك منذ جنازة أبي».

- «ولكن كيف تتذكر هذا (قالت ذلك بالفرنسية)، لقد مر عشرون عامًا منذ ذلك الحين»، هكذا تساءلت إيفيت وبدا صوتها مبحوحًا.

- «واحد وعشرون عامًا بالتحديد، لكن ما الذي يعنيه هذا؟ بعض الناس يظلون في ذاكرتنا لأسباب مجهولة» قال ذلك كوستيس معقبًا ثم أخرج منديله ومسح به جبهته، ثم استطرد قائلاً (بالفرنسية) وقد بدت عليه شدة التأثر: «الجو اليوم حار، أليس كذلك؟ فالحر أصبح يضايقني في الفترة الأخيرة».

- «إن هذا لأمر غريب.....».

- «ماذا؟».

- «كنت أعرف جيداً والدكم وزوجتكم.....».

- «كانت إيفيت تدير نادى قوات التحالف فى الحرب» هكذا أسرع إلياس بالتوضيح لكى ينحى أندونيس بعيداً عن تلك المناقشة.

- «لقد علمت أن ابنتكم تشبه والدتها، لابد أنها رائعة الجمال بلا شك».

- «نعم هى كذلك» هكذا عقب كوستيس بكلمات مقتضبه. وإذا لم تكن الطريقة التى تحولت بها المناقشة قد أزعجته، لعبر لها عن رأيه، فلابد وأنها هى أيضاً كانت جميلة فى صباها: نظرتها الحالمة، جسدها النحيف، خطواتها الرشيقة لابد أنها تخص امرأة لم تنس أبداً كيف كانت رائعة الجمال فى صغرها.

شعر إلياس أنه ليس من الصواب أن تتحول المناقشة لتدور حول هايكى، ووجد الفرصة سانحة ليذكر شيئاً من الأيام الخوالى:

- «غير معقول! (قالها بالفرنسية)، لقد مر أكثر من أربعين عاماً منذ وقع والدك اتفاقه مع الإنجليز لتوريد أول شحنة من السجائر، وقد تم ذلك بالقرب من حانة "دانييل" التى كانت تقدم أفضل أنواع البيرة فى الإسكندرية، التى كانت يستوردها مباشرة من ميونخ. وفى أحد الأيام كنت ماراً من أمامها وشعرت بالرغبة فى النظر بداخل الحانة، فربما استطعت أن أرى ذلك الشاب "اللبنانى" المندفع الذى تركته بها منذ سنوات».

- «وماذا حدث؟».

- «ماذا تظن. "أولاً" (قالها بالفرنسية) لم تعد حانة دانييل موجودة، وفى محل الملابس الذى حل مكانها لم يعد هناك مكان لهذا البطل الشاب».

عندئذ انخرط ثلاثتهم فى الضحك، وكانت تلك هى المرة الوحيدة التى يضحك فيها أحد فى تلك الأمسية، ثم ردد إلياس قائلاً بنبرة حزينة، بينما كان يثبت نظارته على أنفه: «أمسيه كهذه تجعل المرء يظن أن شيئًا لم يتغير».

أبدى كوستيس ملاحظة عن ملابس إلياس الأنيقة " فهو دائمًا متأنق فى ملبسه"(دونها بالفرنسية). كان هذا الأمر هو أول ما يتحدث عنه الجميع فى المدينة بشأن إلياس. والليلة لن تكون استثناء: بذلة رسمية، نظارة، ساعة جيب بسلسلة فضية وخاتمين فى يده اليمنى، أحدهما كبير بشكل يثير الإعجاب وكأنه عنكبوت ضخم بحجر كريم لونه أحمر. وفى اللحظات التى يشعر فيها إلياس بالاضطراب كان يطرق بخاتمه برقة على المائدة. فكر كوستيس فى كل ما قدمه الشامى للعائلة وأعتبر أن أقل شيء يمكن أن يفعله هو أن يقول له مجاملاً:

- «كيف تستطيع أن تكون دائمًا بهذا الشباب، يا إلياس؟».

- «صدقنى، إنه أمر متعب للغاية. وبخاصة الآن، وقد أصبح لى هذا الجسد العجوز. ثم، ماذا تعتقد، كلما كبر أحد فى العمر فلابد أن يبتكر أدوات جديدة لمواجهة الشيخوخة. خذ النظارة على سبيل المثال، هل سبق ورأيتنى أرتدى نظارة؟ "شيء محزن، لأنها تجعلنى أبدو أبلهًا" (قال ذلك بالفرنسية)».

- «بالعكس، أعتقد أنها تضفى عليك بهاءًا».

- «يا لك من جنتلمان» (قالها بالفرنسية).

- «لكن لماذا ترحلان وتتركاننا؟» قال ذلك كوستيس معاتبًا.

- «نحن لا نرحل، ولكنهم يطردوننا. وربما نكون آخر الرعايا الفرنسيين الذين لا يزالون بالإسكندرية، ثم، لك أن تتخيل أننى فى الأصل لبنانى المنشأ».

- «ألم يرد بخاطرك ماذا سيحدث للإسكندرية بدونك؟».

– «لا تشغل بالك. فعندما رحلت من قبل فى عام ١٩٤٢، تعاملت المدينة بشكل جيد مع روميل. ربما يحدث شىء مماثل الآن»، هكذا أجابه اللبنانى متأثراً بهذا الإطراء.

– «أتريدنى أن أصدق أننا بدونك سنصبح بحال أفضل؟».

– «لو أننى فى مكانك لما صدقت ذلك. نصيحتى لك هو أن تقوم ببيع كل ما تملك، وأن ترحل إلى أى بلد بعيداً عن مصر» هكذا نصحه إلياس وهو يثبت نظارته مرة أخرى على أنفه.

– «هذا الحديث مبالغ فيه، يا إلياس، "أليس كذلك؟" (قالها بالفرنسية)».

– «إستمع إلى إلياس العجوز، يا كوستيس. فقد كان والدك يستمع إلىَّ دائماً ولم يخسر أبداً».

– «كان كذلك بالفعل، كان كذلك. ولكنى أحاول طوال الوقت أن أتذكر أى ممثل تشبهون. هل قال أحد لكم من قبل إنكم تشبهون الممثل لورنس أوليفيه؟».

– «هذه أول مرة يذكر لى أحد هذا الأمر، أؤكد لكم ذلك».

– «لكنكم بالفعل تشبهونه. الآن وأنا أفكر فى ذلك، فإن والدكم أيضاً كان يشبه أحد الممثلين، لكنه، بخلافكم، ظل يحتفظ بشاربه حتى النهاية».

أخذ كوستيس يتخيل إلياس وإيفيت ومعهما أباه منذ أربعين عاماً مضت. وبدون أن يقصد تخيل وجود رابطة عاطفية تجمع بين ثلاثتهم. هل كانت عشيقة لأندونيس فى يوم من الأيام؟

– «حقيقة، طوال كل تلك السنين، يا إلياس، لم نتعرف إلى أحد من أقربائك» أبدى كوستيس ملاحظته وكأن ذلك سوف يجيب عن تساؤله السابق.

– «تعالى إلى بيروت وسوف أعرفك على جيش من عائلة خورى. لقد فقدت والدى منذ الصغر، لكن بالنسبة للأعمام والأخوال وأبنائهم وأبناء الإخوة، فهم كثيرون».

– «ستعود مرة أخرى إلى الإسكندرية، أليس كذلك؟».

– «الآن أصبح من المستحيل أن تعود حياتنا لسابق عهدها. على الأقل فقد سارعنا ببيع ممتلكاتنا. وهناك آخرون غادروا وتركوا ثرواتهم من خلفهم. حقًا، لم أذكر لك من قبل أن منزل إيفيت يقع فى منطقة لوران. فيلا رائعة، لابد أنها كانت ستعجبك».

– «وكيف واتتك فكرة أننى أرغب فى شراء منزل في ضواحي الإسكندرية؟».

– «هذا أفضل من أن تستأجر شقة صغيرة فى شوتس.....».

– «شقة صغيرة لى أنا؟» هكذا سأله كوستيس متعجباً.

– «فى شوتس، "نعم بالتأكيد" (قالها بالفرنسية)».

– «لابد أنك مخطئ (قالها بالفرنسية) لابد أنك تخلط بينى وبين شخص آخر».

إلياس: «مخطئ؟ ماذا تقول؟ لقد رأيتك بعينى رأسى وأنت تدخل هناك».

– «أنا؟ "هل أنت متأكد؟" (قالها بالفرنسية)».

– «بالتأكيد (قالها بالفرنسية). حتى لو أننى خلطت بينك وبين شخص آخر، هل تظن أن هناك العديد من سيارات الرولزرويس مثل سيارتك بالإسكندرية؟».

فى تلك اللحظة شعر كوستيس بغصة فى حلقه وبشكل عفوى وضع يده على البابيون الذى يرتديه.

إيفيت: «كفى، يا إلياس، طالما أن الرجل يؤكد لك أنه لم يستأجر شقة هناك» هكذا تدخلت إيفيت فى الحوار، ثم سألته وهى تشعر بالقلق عليه: «لكن ما الذى حل بك؟ (قالت ذلك بالفرنسية)، لماذا اصفر وجهكم فجأة، مسيو كوستيس؟»

كوستيس: «حقيقة، لست أدرى. فأنا أعانى من هذا فى السنوات الأخيرة. ربما يكون الحر هو السبب».

- «هذا احتمال وارد (قالت ذلك بالفرنسية). لكن إذا كنتم تشعرون بذلك كثيراً، ربما كان من الضرورى أن تفحصوا قلبكم».

- «هذا ما يقوله لى الطبيب» أجابها كوستيس ثم جلس مرة أخرى فى مكانه.

بعد عام ١٩٥٧، أصبحت الأصوات التى تنصح كوستيس بالاهتمام بصحته قد تناقصت عما كانت عليه من ذى قبل، وكانت البداية مع السيدة ذافنى. فعندما قرر كوستيس الذهاب مرة أخرى إلى باريس بعد أربعة وعشرين عاماً، لم يكن مقدراً له أن يظل بها أكثر من أربع وعشرين ساعة بعد أن وصله تلغراف عن تردى حالة والدته الصحية ويطالبه بالعودة فوراً إلى الإسكندرية، فى ظروف تشبه كثيراً تلك التى حدثت عام ١٩٢٣، عندما مرض والده. أسرع كوستيس بالعودة على أول طائرة متوجهة إلى الإسكندرية، ليتأكد بمجرد وصوله أن أمه قد فارقت الحياة بالفعل. لقد ماتت أثناء نومها فى واحدة من ليالى شهر أغسطس الحارة المشبعة بالرطوبة، والتى كانت كثيراً ما تشكو منها منذ طفولتها.

أخذت ذافنى خاراميس مكانها فى ضريح العائلة بمقابر الشاطبى وأدرك الجميع أنه قد مر وقت طويل منذ أن رأوا تلك العربة التى تجرها ستة خيول والمقاعد الداكنة والتماثيل الخشبية وغمامات الخيول الذهبية، وكل ما يمكن أن يدل على أن هذه الجنازة لشخص من أفراد الطبقة الراقية. حتى موت الناس لم يعد ينال تقديراً كما كان من قبل. لقد تذكر كوستيس غيرة والدته أثناء جنازة الخالة ماريا، وحاول أن يفعل أقصى ما يستطيع فى النحيب عليها، لكن لم يستطع، فقد بادره الطبيب ستيفانوس بالكثير من الحبوب المهدئة، ثم خطف منه الأضواء بعد ذلك خاله لوكاس الذى بلغ الثمانين من عمره، ولكنه كان يبدو فى صحة جيدة بأهدابه الكثيفة وذلك الفارق المشهور به فى منتصف ما تبقى من شعر أبيض فى رأسه. وصل لوكاس إلى المقابر بسيارته السوداء اللامعة، وكأنه أحد رجال السياسة فى فترة ما بين الحربين الأولى والثانية، مرتدياً بذلته السوداء وقبعته، ممسكاً فى يده بعكاز، وقام بإلقاء الخطبة الجنائزية نيابة عن العائلة، لكنه لم يتحدث عن أخته المتوفاه بل استرسل فى حديث متواصل عن عائلة سينجوس

التى لم يعد أحد يذكرها، وتذكر العداوة بين أنصار فينيزيلوس وأنصار الملك، ودق ناقوس الخطر محذراً من المد الشيوعى، ثم أشار إلى السلطة الحاكمة الجديدة. الأمر الذى دفع الناس للسخرية والضحك مما دفع كوستيس ليطلب من نيكيتاس أن يوقفه. وفى النهاية شد العجوز المخبول على يد ابن أخته وبدلاً من أن يقول له كلمات يواسيه بها، قال له: «تصرف سليم، يا ابن الأخت (قال ذلك بالفرنسية)، أنا ملم بأخبارك. فنحن الاثنان نحافظ على الشعلة اليونانية مضيئة فى مصر». بعد ذلك، وكأنه كان يتابع جنازة شخص غريب، غادر المكان على عجل مستنداً على سائقه المصرى.

«يا له من مغفل وسيبقى كذلك حتى آخر عمره» قال ذلك نيكيتاس معلقًا ووافقه كل الحضور من أقربائه على ذلك.

وجد كوستيس نفسه فى موقف حرج بسبب تصرف خاله، لكن، على العكس من ابنته التى كانت تشعر بغضب شديد، كان يعذره بعض الشىء لأنه ربما ظن أن الجنازات باتت الفرصة الوحيدة التى يجتمع فيها كل أفراد الأسرة بل والجالية اليونانية، وليس من الضرورى أن تتحول إلى ساحة من النواح والصراخ.

" إلى اللقاء إذن فى جنازة أخرى، أيها الأقارب والأصدقاء "، هكذا حدَّث كوستيس نفسه، ثم استكمل قائلاً: " ولكن فقط أتمنى أن لا تكون جنازتى» ثم ضحك بدخله.

كان كوستيس يتذكر الموت كلما التقى إحدى الفتيات اللاتى كان يحضرهن له رجل يدعى عباس من أحد الأحياء المصرية بالمدينة. «إنها أحياء لا يعرف خباياها سوى القليل من الناس، أما الآخرون فيسيرون فقط فى الشوارع الرئيسية المضيئة» هكذا كان نيكيتاس يحدثه عن تلك الأحياء عندما كانا صغيرين«إننا نسمى هذه الأحياء بأسماء، يمكننى - لو أردتَ - أن أذكرها لك اسمًا اسمًا. إنها أسماء تخص أشخاصاً، ولكن الشىء المهم هو حياتهم الخفية التى تسير ببطء داخل الأسواق القديمة بمحلاتها القليلة والإضاءة التى تنبعث من لمبات الجاز، وهى تنشر ضوءها على الوجوه الشاحبة العابسة. فأولئك الذين يدخنون الشيشة يكادون لا يرونك».

كانت تلك الأحياء – كما يذكر كوستيس – تقع فى مكان ما بالقرب من الأنفوشى وكرموز، وهى مناطق توجد على أطراف الأحياء الأوربية، ولم يكن أى أوربى يجرؤ أن يطأ بقدمه هناك. ويعتقد كوستيس أن عباس كان ينتقى له تلك الفتيات من هذه الأحياء ويرسلهن إليه.

ربما لم يندمل جرحه من رحيل هايكى بعد، لكنه طوال تلك السنين كان يجد بعض الراحة فى مداعبة أجساد تلك الفتيات، وفى ارتشاف رحيقهن وإشباع رغبته، الأمر الذى جعله يعود بذاكرته إلى سنوات المراهقة وإلى عمارة كامب شيزار وإلى الغوص فى أحضان عزيزة بخسة الثمن، التى تعلم على يديها ممارسة الحب. أما الآن فكل ما فعله هو استبدال البدروم فى تلك العمارة بشقة جيدة فى شوتس كانت توفر له قدراً من الراحة والخصوصية. وفى حين غاب نيكيتاس وثق فى عباس، هذا الرجل المصرى الطويل النحيف الساذج، الذى كان عمله فى المصنع مثار سخرية الجميع، ولكن كانت له طريقته فى الدخول إلى الأحياء الشعبية واختيار أجمل الفتيات. لقد جعل كوستيس عباس يقسم بأنه سوف يحفظ سره. «لو نطقت بكلمة واحدة، أيها المسكين، فسوف يقتلك الغفير بسلاحه» هكذا حذره كوستيس وأغلق بذلك فمه للأبد. ولأنه لم يكن هناك من يعرف أى شىء عن هذا الموضوع لسنوات طويلة، ولا حتى ميسا، فقد اعتبر كوستيس نفسه محظوظاً لأنه حين انكشف أمره أمام إلياس – أكبر ثرثار فى الإسكندرية – استطاع أن يقنعه بأنه منزل صيفى يهرب إليه من قيظ الحر.

كان ولع كوستيس بالفتيات الصغيرات قد بدأ منذ الأربعينيات، ولم يكن أمراً يفخر به رجل صناعة الدخان اليونانى، وفى بعض الأحيان كان يحتاج إلى جرعات كبيرة من الخمر أو من الشيشة التى كان عباس يعدها له بشكل جيد، حتى لا يطارده الشعور بالذنب، ثم يعود بعدها إلى حياته اليومية، تلك الحياة المتقشفة تقريباً، مما جعله يتعجب من نفسه. فى بعض الحالات كان يشعر بقلبه يخفق بطريقة غير طبيعية عند رؤيته لجسده الرياضى تحت شمس الإسكندرية فى المسابقات والعروض الرياضية فى الاستاد الوطنى، فى حين كان يتجاهل نفس هذا الجسد الرياضى وهو يتمدد فوق شواطئ

المدينة الرملية، أو عندما يتصبب عرقًا من ممارسة رياضة التجديف فى الميناء الغربية فى يوم الأحد أثناء فصل الربيع. كان يدرك بداخله أن عشقه الجديد هو بمثابة السم اللذيذ، والذى كان لابد أن يتناوله فى جرعات صغيرة حتى لا يقضى عليه قبل أوانه.

كان نشاطه المحموم فى فترة الخمسينيات نوعًا من محاولة التأقلم مع الموت. وكان كل ما يفعله فى أى مكان يحل به هو تخصيص بعض الوقت للاستماع إلى قلبه، وهو الأمر الذى سيؤدى به حتمًا إلى الموت. هكذا تعلم بالتدريج أن يتعرف على صوت قلبه، وأن يحل شفرة لغة نبضاته، حتى وصل إلى إدراك كل تفكير، كل شعور أو تجربة، رابطًا بينها وبين نبض قلبه، الذى مهما بدا متألمًا، فإنه إستمر فى إطاعته فى أداء ما عليه من واجبات. تعلم كوستيس كذلك كيف يفرق بين العديد من التغيرات فى التى تطرأ على مشاعره معتمدًا على دقات قلبه. فكان يشعر بسعادة غامرة أثناء الاحتفال بكرنفالات الزهور أو احتفالات أول مايو، وبسعادة مختلفة عندما يكون موجودًا فى إحدى حفلات التخرج فى مدرسة أفيروفيوس الإعدادية، وسعادة أخرى عندما يعد حقائبه للقيام برحله إلى أوربا، أو هكذا كان إيقاع دقات قلبه يؤكد له. وكم كان شعوره بالحزن على وفاة أمه مختلفًا عن حزنه عندما يشاهد العرض المسرحى لمسرحية " أجاممنون " للشاعر أيسخيلوس التى قدمتها فرقة ماريكا كوتوبوليس المسرحية فى شهر يوليو من عام ١٩٥١، فى حدائق أنطونيادس، أو عندما يشاهد أحد أفلام هوليوود الدرامية فى الخمسينيات التى كان يتابعها بانتظام فى دور السينما بالإسكندرية. حتى قلبه كان يستطيع أن يعبر بدقات غير منتظمة عن مشاعره المتضاربة، التى لم تكن تندرج تحت نوع معين، مشاعر متضاربة كتلك التى يسببها أناس مختلفون، مثل إلياس أو ذكرى أخيه الراحل أو موقفه هو تجاههم: ففى الحالة الأولى كان لزامًا عليه أن يقنع نفسه دائمًا بأنه لم يكن ليثق فى إنسان يكن له حبًا، وفى الحالة الثانية كان يتذكر شخصًا ما أحبه ولكنه لم يثق فيه يومًا ما.

وإذا ما أراد حقًا أن يشعر بقلبه ينبض بكل قوته، كان عليه أن يتطلع إلى لقاءاته الحميمية عندما كان يلقى بنفسه فى أحضان فتيات عباس الغضة. تلك الفتيات

الجميلات صغيرات السن، ذوات الأجساد المشوقة. كان يشعر بأنه قد وقع فى شلال من الأجساد بنية اللون الملفوفة، ذلك اللون الذى يعطى تناقضًا مع الملاءات البيضاء المفرودة. نورا، فريدة، فايزة، نبيلة، صافيناز - كلهن شاركن فى منحه المتعة والنشوة معا. وفى كل مرة يلتقى بهن تختلط دقات قلوبهن بدقات قلبة فتخفق قلوبهم معًا فى تناغم وإبداع، ولكن فى نهاية الأمر لا تتبق سوى دقة قلب واحد - اللعنة! إنه ليس قلبه(*) وعندئذ كان يسترق السمع وهو يشعر بالغيرة إلى دقات ذلك القلب فى الجسد الآخر كان يفكر متأملا: هل أموت الآن؟ ليكن إذن، فمثل هذه الميتة الجميلة لم أكن أتخيلها. ولكن فى اللحظة التالية، يبدأ قلبه الضعيف فى الخفقان وفى منحه الحياة من جديد. ولكن إلى متى؟

كان قلب كوستيس يعتصر وهو يرى المدينة تتضاءل من حوله. لقد تحولت الإسكندرية فجأة إلى مدينة مليئة بالأشباح. كان كل شىء يكاد ينفك. «وصل روميل - رجل السلام - ولم يجد معركه مثل العلمين لكى توقفه» هكذا كان نيكيتاس يردد محاولاً الحفاظ على هدوئه وسط هذا الذعر الذى يصيب الجميع: فلم يكن أمام مواطنى الجاليات الأجنبية سوى جمع أحلام عمرهم فى صناديق، وأثناء ركوبهم البواخر التى سوف تقلهم إلى منفاهم، بدأوا يلعبون لعبة القط والفأر مع رجال الجمارك المصريين. أصحاب المحلات التجارية ينظرون بلا أمل إلى البضائع وهى تنفد من محلاتهم، موظفون أصبحوا بلا عمل بعد أن تسبب التأميم فى منع توظيف الأجانب، أما عن مأساة العاملين باليومية الذين لم يكن لديهم ما يمكنهم من تغطية نفقات مغادرتهم للبلاد، فحدث ولا حرج. كان البعض يعتمد على ارتباطه بمصير المدينة المجهول، والبعض الآخر يستعد للرحيل من جديد إلى بلد أخر غريب - أستراليا، أمريكا، أى مكان آخر. كانت مصر، أو إن شئت فقل جمهورية عبد الناصر العربية المتحدة، تبدو بالنسبة لليونانيين - المصريين قضية خاسرة. فى تلك اللحظة كانت القنوات الدبلوماسية تحاول جاهدة التحكم فى موجة الهجرة حتى لا تخرج عن السيطرة. تبادل عبد الناصر وكارامانليس وجهات النظر، ولكن يبدو أن كل ذلك كان على سبيل التسلية، حتى رسالة التفاؤل التى أرسلها البطريرك الأعلى بأثينا أثناء زيارته لمصر كانت محل ريبة.

وقد شارك كوستيس البطريرك الأعلى بأثينا فى التفاؤل بشكل مطلق، وصرح قائلاً: «سوف نظل فى حصوننا! تماماً مثلما حدث فى صيف عام ١٩٤٢». عندما أدرك نيكيتاس أن كوستيس لم يقم بتأمين نفسه، حاول مراراً إقناعه بأن الوقت مازال قائماً لكى يفعل ذلك ولكن دون جدوى، وكان يجيبه بقوله:

كوستيس: «لن يزحزحنا أحد عن هذا البلد، يا ابن الخالة».

نيكيتاس: «نعم، لا أختلف معك فى ذلك، فهكذا تبدو الأمور حتى الآن. ولكن إيداع بعض النقود فى الخارج لن يضر أحداً، كما أنه ليس من السليم أن تضع كل نقودك فى بنوك عبد الناصر المؤممة، فكر فى ذلك جيداً».

كوستيس: «ولماذا أفعل ذلك، وأنا أقول لك إنه لن يزحزحنا أحد عن هذا البلد، سنرحل فقط إذا رحل المصريون عنها». هكذا كان كوستيس يتحدث بثقة زائدة أثارت دهشة نيكيتاس، وكأنه يحلم بمدينة فاضلة تخصه وحده، ولذلك كان يقول: «فى النهاية سيبقى منا الصالحون».

مما جعل نيكيتاس يتساءل: «أمن الممكن أن نكون محظوظين إلى هذه الدرجة؟».

فى تلك الأثناء، ازدادت الشائعات عن اتساع رقعة التأميم فى صيف عام ١٩٦١، وكان البعض يرون أن شهية ناصر للتأميم سوف تهدأ إذا ما حقق أكبر مآربه. بعد منتصف ليلة العشرين من يوليو، كان كوستيس عائداً إلى منزله، وهو يقود سيارته فى شوارع تفوح منها رائحة الياسمين. كانت أشجار النخيل تتمايل فى زهو وهى تحمل ثمارها، وكان بعض النسيم يزيد من تمايلها فتصدر حفيفاً يبدو حزيناً لمن ينصت إليه جيداً. فى تلك الليلة كان اليونانى، صاحب مصانع الدخان، يستمع فقط إلى قلبه الذى كان يدق بهدوء وبانتظام، مانحاً إياه نوعاً من الثقة فى الغد.

كانت السيارة الرولز رويس القديمة التى تشبه سيدة متأنقة من عصر مضى، تتابع السير فى نفس الطريق القديم الذى كان كوستيس يعرفه باسم شارع رشيد، والذى كانت تزعجه تسميته باسم شارع فؤاد، ثم أصبح لزاماً عليه أن يعرف اسمه

الجديد هو "شارع الحرية". هنا، فى داخل أعماق المدينة حيث تصل بالكاد نسمات البحر. كانت طبيعة الكورنيش الرطبة تلطف من حرارة الصيف المصرى. وفى كل مرة يقطع فيها كوستيس الطرق التى اعتاد السير فيها ليلاً للتوجه إلى وسط الإسكندرية، كان يلحظ أنها قد فقدت بعضاً من مجدها القديم، وكأن أضواء العالمية قد بدأت تنطفئ الواحدة تلو الأخرى. كانت " الإسكندرية "(ذكرها باللغة العربية ودونها بحروف يونانية) تتوسع من حوله بسكانها من المصريين. وبالرغم من أن ذلك كان يحزنه، إلا أنه كان على يقين من أن استرجاع الذكريات لن يؤدى به إلى شىء. وأصبح لزامًا عليه أن يحدد لنفسه وجهة نظر محددة فى الأفق الناصرى، وأن يتوقف عن رؤية أشباح الأوربيين واللبنانيين الذين يحملون جنسيات أوربية تحوم حوله.

وعندما يبلغ هذا الحد من الأفكار يجد نفسه وقد وصل إلى بوابة المنزل المعدنية الضخمة فى شارع العباسيين، والتى ما زالت تفتح بنفس الطريقة حتى يتمكن صاحب المنزل من الدخول، فخلال الخمسين عامًا الماضية يقف نفس الشخص خلف هذه البوابة، وكأن كل من ماتوا أو غادروا لم يذهبوا بعيدًا، لكنهم أصبحوا جزءًا من حياة كاملة، وأصبح كل واحد منهم تمثالاً من تماثيل الحديقة، تلك الحديقة التى خرجت منها الآن ابنته مذعورة وهى تصرخ قائلة:

ذافـنـى: «أبى! أين كنت؟ لم يتوقف الهاتف عن الرنين طوال الليل، هل تعرف ذلك؟».

كوستيس: «ماذا حدث؟ (قال ذلك بالفرنسية) من الذى يبحث عنى؟».

– «بل قل من الذى لا يبحث عنك» هكذا أجابته ذافنى وقد إصطبغ وجهها بحمرة جعلتها تبدو أكثر جمالاً.

– «هل المائدة معدة؟».

– «منذ وقت طويل. فقد أخبرتنى بأنك ستعود فى العاشرة مساءً، وعندما تأخرت أصابنى القلق».

- «العمل، يا فتاتى، إنه العمل الذى لا يسمح لك بالانضباط فى مواعيدك حتى مع ابنتك».

- «لا تشغل بالك (قالتها بالإنجليزية) يا أبى. فابنتك تعرف جيداً طبيعة الأعمال التى تبعدك عنها».

أدرك كوستيس لوهلة المعنى الخفى الذى تعنيه ابنته، لكن ابتسامتها الجميلة جعلته يشعر بالراحة. كان دائمًا ما يشعر بتأنيب الضمير لأنه قد احتفظ بهذا المخلوق الجميل فى مدينة تصبح يومًا بعد يوم أكثر تعقيداً. لو أنه لم يستمع إلى كلام المرحومة والدته، لكان قد أرسلها إلى أوربا لدراسة أحد العلوم الحديثة بدلاً من دراسة الآثار فى جامعة فاروق بالإسكندرية لإرضاء شغف جدتها بالآثار، وإصرارها على أن تكون بالقرب منها حتى تموت.

- «هيا إذن لنأكل شيئًا ونحن نتحدث. أنا لست راضيًا عن بقائك محبوسة بالمنزل، صدقينى».

- «يا أبى، فى الصيف يقضى الجميع أجمل الأوقات بالإسكندرية، وكذلك فى الشتاء».

هكذا كانت ذافنى تمازحه ثم ضحكت بتلقائية جعلته يتذكر هايكى فى أول سنوات لقائهما. لكنها كانت تذكره بأمها بشكل أكبر من خلال ذلك الرداء الأبيض القصير المصنوع من القطن الذى كانت ترتديه، بياقته الصغيرة والمنقوش بالعديد من أشكال الزهور، كان ثوبًا يتسم بالبساطة والأناقة تمامًا مثل ذوق أمها.

- «هيا بنا نذهب» (قال ذلك بالفرنسية).

- «وماذا عن المكالمات الهاتفية؟».

- «فلندع ما هو مهم للغد. اطلبى من الفتيات أن يحضرن الطعام».

- «وماذا لو كان الأمر مهمًا وعاجلاً؟».

- «وماذا عساه أن يكون هذا الأمر المهم الذى يحدث فى مثل هذا الطقس الحار؟».

- «أتقول لى ذلك؟».

- «على أية حال. هذه الليلة ستكون لك أنت فقط» قال ذلك كوستيس وكان يعنى ما يقول. ففى كل مرة يعود فيها من تلك الشقة المستأجرة فى شوتس تكون لديه شهية مفتوحة لتناول الطعام، لكن ذافنى لم تكن تسمح له بالتهام ما يحلو له.

- «لا يا أبى، ليس كل هذا الطعام، هذا ليس مفيداً لقلبك!».

- «ليس بقلبى شىء. هل أبدو لك شرهاً؟ إذن فأنا .... أنا عبد الناصر، انظرى كيف سأقوم بتأميم شركة أخرى فى معدتى» قالها كوستيس ضاحكًا ثم التقط بالشوكة قطعة من الكبد فى الطبق الذى أمامه.

- «لقد أتعبتنى، يا أبى؟ (قالت ذلك بالفرنسية). الناس هنا تخسر أموالها وأنت تستمر فى مزاحك».

- «هكذا كانت الإسكندرية دائمًا، يا بنيتى." مدينة المقامرة "(قالها بالإنجليزية)، نقامر بالكثير من المال، نكسب الكثير أو نخسر كل شىء. إنها كالبورصة........».

- «وبالمناسبة، ما الذى سيحدث للبورصة؟».

- «من السابق لأوانه أن نضع التوقعات. فالإعلان الرسمى يتحدث عن إرجاء العمل فيها لمدة شهرين. هذا ما لدينا».

- «يقولون إن عمل البورصة من الممكن أن يوقف زحف التأميم. أشعر بالقلق يا أبى».

- «تتحدثين كأنك رجل أعمال، يا صغيرتى ذافنى، لم تكن دراسة الآثار تناسبك إذن، لكن لا تقلقى. لقد اهتم والدك بكل شىء. حقًا، أريد رأيك فى أمر ما.

منذ وقت وأنا أفكر فى الحصول على الجنسية المصرية. سيكون هذا بمثابة تأمين مهم بالنسبة لنا، كما تفهمين فنحن، فى كل الأحوال، نعيش الآن وسوف نعيش دومًا فى هذا البلد. إنه وطننا الحقيقى. وتسمح لنا القوانين اليونانية بحمل الجنسية المزدوجة. ما رأيك فى ذلك؟».

– «لا أعرف يا أبى، القرار لك. لقد التقيت منذ وقت قريب فى الطريق بمورفو زميلتى من مدرسة أفيروفيوس. وذكرت لى أنهم قد حصلوا على الجنسية المصرية منذ الشتاء الماضى. فأبوها لا يريد أن يخسر فجأة محله الضخم فى شارع شريف».

– «هل تزوجت؟».

– «كيف ذلك! وقد فكرنا فى أن نسجل أنفسنا فى رابطة " ر. ع. أ. "».

– «وماذا تعنى " ر. ع. أ. "؟».

– «رابطة عوانس أفيروفيوس».

– «هذا أمر لا يقبل المزاح (قال ذلك بالفرنسية)، يا ذافنى. لابد أن تتزوجى يومًا ما. أريد أن أطمئن عليك قبل أن أموت».

– «كل شىء فى أوانه. لكننى فى الحقيقة أجد فى مورفو دليلاً صارخًا على العنوسة. لقد بدأنا نشعر بالحنين للمدرسة وهذه ليست علامات طيبة. تذكرنا كيف كنا نسخر من روسيذيس، مدرس الموسيقى. كنت أجلس أمام البيانو وأهمس لها بالنوتة الموسيقية. المسكينة! كانت تتمتع بصوت جميل، لكنها لم تكن ملمّة بأصول النوتة الموسيقية».

– «أنت أيضًا تتمتعين بصوت جميل. لقد ورثتيه عن أبيك».

– «نعم، ولكن بى أيضًا عرق موسيقى ورثته عن أمى» هكذا أجابته ذافنى ثم صمتت قليلاً وكأنها قالت شيئًا لم يكن ينبغى أن تقوله.

وفجأة، قطع كلامها صوت رنين الهاتف المتواصل بطريقة مستفزة.

- «مـن ذلك الشقى الذى يتصـل فى هـذا الوقـت من الليل؟» قال ذلك كوستيس لنفسه، وبدلاً من أن ينتظر ليحضروا له الهاتف، فضل الذهاب بنفسه للغرفة المجاورة.

- «أين أنت، يا ابن العمة. فأنا أبحث عنك فى كل مكان منذ المساء».

- «بيزنيس، ماذا بك يا نيكيتاس؟ لماذا أسمعك تتحدث بهذه الطريقة؟» هكذا سأله بصوت يغلبه النعاس.

- «لماذا تسمعنى أتحدث بهذه الطريقة؟ ألم تصلك أنباء ما حدث؟ لقد ذاع الخبر فى المدينة كلها».

- «ماذا تعنى؟».

- «لقد عقد على صبرى الليلة مؤتمراً صحفيًا. أين أنت؟ لقد قاموا بتأميم كل شىء حتى الأحجار فى الشوارع».

- «أنك تبالغ (قالها بالفرنسية)، بالطبع كانت هناك بعض عمليات التأميم المتوقعة بعد إغلاق البورصة؟ "ولا داعى للذعر"(قال ذلك بالفرنسية)».

- «ماذا تعنى "بلا داعى للذعر"(قال ذلك بالفرنسية)، لقد قاموا بتأميم مصنع عشيقتك الأولى».

- «جيهان؟».

- «من أولى الشركات التى تم تأميمها مصنع ورق يوسف عبد المسيح، أليس هذا هو؟».

- «نعم».

- «المسكينة».

"إذن فقد تم تأميم مصنع ابن جيهان"، هذا ما دار بذهن كوستيس، ثم تذكر رغبتها العارمة فى أن ترى الأوربيين وقد رحلوا يومًا ما عن مصر. لو أنها ترى الآن ما يحدث من مرقدها، كيف سيكون رأيها فى كل ما يحدث؟

– «هل سمعت أسماءً أخرى؟».

– «هناك الكثيرون. يقولون بأنهم قد قاموا بتأميم الإسكندرية بأسرها. قد تدخل الحكومة فى بعض الشركات بوصفها شريكًا. لكنك تعرف أنهم يفعلون ذلك من أجل خاطر الناس، وهذا لن يغير من الأمر شيئًا».

– «لهذا كان جرس الهاتف يرن طوال المساء».

– «لقد اتصلت بك ما يقرب من عشر مرات. فى المنزل وفى المصنع. لكن أين كنت، يا ابن العمة؟».

– «بيزنيس، يا نيكيتاس، بيزنيس. دعك الآن من هذا، انتظر حتى يطلع النهار وسوف نعاود الحديث».

أغلق التليفون، لكن قلبه بدأ يدق بقوة وبسرعة، كأنه أراد فجأة أن يقفز من بين ضلوعه. لقد تمكن نيكيتاس من أن ينقل له إحساسه بالقلق، وكان لزامًا على كوستيس أن يستعيد هدوءه من جديد. عاد إلى المائدة وهو يجر قدميه، ثم جلس وهو يصيح:

«أريد شرابًا، أريد شرابًا بالصودا».

ذافنى: «ما الذى حدث، يا أبى، من الذى كان يحدثك فى الهاتف؟» هكذا سألته وهى فى شدة القلق.

– «شخص ما أراد أن يفسد علىَّ متعتى. لا تعيريه اهتمامًا وأحضرى لى كأسًا، ثم قومى بعزف مقطوعة جميلة على البيانو من أجل أبيك».

– «أبى، إنك تخيفنى».

– «الشراب، يا ذافنى الشراب فى كأسى الملكية، ثم اعزفى لى شيئًا من موسيقى ليشت».

– «ليشت؟».

– «نعم، الأنشودة المجرية الثانية، إنها المفضلة لدى كما تعرفين».

– «بمفتاح دو ذى النغمة الحادة؟».

– «نعم، بمفتاح دو ذى النغمة الحادة».

جلست ذافنى أمام البيانو القديم الألمانى الصنع من ماركة ماكس بيكير، الذى سطرت ألحانه تاريخًا موسيقيًا لهذه العائلة، وقد تلونت أصابعه من كثرة الأيادى التى لامسته. بدأت ذافنى تتحسس بأصابعها لوحة المفاتيح فى البداية وكأنها تريد أن توقظ أصابع البيانو من سباتها، بعد ذلك، بدأت فى العزف وكأن أصابع يدها تتحرك منفصلة عن باقى جسدها. لم تنظر أبدًا إلى النوتة الموسيقية وكأن لأصابعها ذاكرتها الخاصة بها. منذ بداية "اللحن" (ذكرها بالإيطالية) الهادئة حتى "نهايته الصاخبة "(ذكرها بالإيطالية)، كانت الألحان تنساب بمزيج من السعادة والحزن معًا، استطاعت من خلالها أن تدغدغ مشاعره. وفى الدقائق الإحدى عشرة التى استغرقتها فى عزف اللحن من أوله حتى آخره، استطاع كوستيس أن يسترجع شريط حياته كلها، وكان يتعايش فى كل جزء من أجزاء هذه المقطوعة الموسيقية مع ما مر به فى مراحل حياته المختلفة. من الإسكندرية، إلى برلين، من السلام إلى الحرب ثم إلى السلام مرة أخرى. هكذا ببساطة، وكأن بإمكان هذه التغيرات التى طرأت على فترات حياته أن تساعده على فهم البناء البسيط لهذه الوحدات الموسيقية التى تعزفها ابنته على البيانو. كل لحن موسيقى، كل إنسان، كل رمز، كل تجربة، كل مغامرة عاطفية، والديه، أخيه، جيهان، عزيزه، كارل، إيفيتس، الخالة ماريا، وآخرين كثيرين، فإلى جانب ابنته، هناك ميس جابى وهايكى – جميعها – تعد نماذج عقلانية. كانت أصابعهم الخفية تتشابك مع أصابعها وتعطى صدى غريبًا لعزفها. عاد قلبه مرة أخرى لإيقاعه الطبيعى. وبينما كان

مستلقيًا على الأريكة بالصالون، كان وكأنه قد أطفأ مرة واحدة تلك الثريا المضيئة بمجرد أن أغلق عينه. ألقى عليه النوم بشباكه، لكنه كان يسمع دقات قلبه الضعيفة. إستمرت ابنته فى العزف على البيانو لوقت طويل. ثم سمعها وهى تبتعد فى هدوء، وتركته لينام فى الظلام، فى أكثر الأماكن برودة فى المنزل.

استيقظ كوستيس فى الصباح وبداخله ثقة الإنسان الذى فاز بليلة حالمة وسط كل هذا الصراع النفسى، على الرغم من نومه على الأريكة. وكان على يقين من أنه حتى لو كانت الليلة الماضية قد انتهت بطريقة غير مرضية، فلديه القدرة دائمًا على إصلاح ذلك فى اليوم التالى. تلك القدرة التى استمدها من نومه الهادئ جددت ما بداخله من قوة. كانت العصافير المغردة تملأ الدنيا بتغريدها، وهى تتجمع على أغصان شجرة الأكاسيا بالحديقة. فى صباح ذلك اليوم الصحو نما إلى سمعه صوت الفأس وهى تقلب الأرض، حتى ظن كوستيس أنه استيقظ فى أحد أيام العشرينيات، وأن الذى يحرث الأرض هو محمد البستانى وليس ابن أخيه نبيل.

وفى الحقيقة، فلم يكن ذلك اليوم الذى ينذر بصعوبته يعنى بالضرورة أن يكون فى عجلة من أمره. كان السير لوى، كما كانوا يطلقون على الحلاق القبرصى لويزوس الذى خلف الحلاق السابق كيكينوس فى تلبية رغبات علية القوم بالحى اليونانى، ثرثارًا ومقامرًا. جلس السير لوى فى " كشك الصداقة " وبدأ فى سن أمواس الحلاقة. وعلى الجانب الآخر من المنزل شرعت إيمان وسميرة الخادمتان المصريتان المتزوجتان من رجل واحد يعمل بوابًا فى إحدى عمارات الأزاريطة، فى الشجار، فإن فاطمة قد تدخلت لتفرق بينهما. كانت الأساور الكثيرة التى يرتدينها تصدر رنينًا عاليًا أثناء الشجار، والتى كانت كل واحدة منهما تحاول أن تثير بها الأخرى. كانت أصواتهن، التى تتشابه مع صوت هديل الحمام، تسبب إزعاجًا شديدًا، فما كان من ذافنى إلا أن فتحت نافذتها وقامت بنهرهن. ثم سارت الأمور على طبيعتها دون أدنى تغيير: الحلاقة، الشاى، السجائر، ثرثرة سير لوى، كل شىء كان يحظى باهتمامه حتى حان الوقت الذى ارتدى فيه بذلته فاتحة اللون ووضع قبعته على رأسه، ثم أخذ حافظة الأوراق فى

يده وترك من ورائه روائح الحديقة العطرة ومتاعب الحياة اليومية التى لا تنتهى، ثم هم بركوب سيارته الرولزرويس متوجهًا إلى محرم بك.

استقبله ميسا بالتحية قائلا (بالفرنسية): «صباح الخير، أيها الرئيس». لقد أصبح ميسا عجوزًا، ضخم الجثة – وكأنه يشبه سيارته الرولزرويس القديمة. وقد تحول بمرور السنوات إلى عجوز الإسكندرية الشعبية القوى: مرتديًا بذلته، وخاتمًا فى إصبعه الصغير، تاركًا أحد أظافره طويلاً. وكان دائم التردد فى المساء على محلات البقالة بالعطارين حيث يعدون بعض الأطعمة الخفيفة والمشهيات ويستقبلون بعض عشاق لعب الطاولة وشرب البيرة.

فتح ميسا الباب للرئيس ثم جلس على المقعد المجاور للسائق. لم يكن السائق الجديد من أبناء البلد، حيث قام كوستيس بتغيير ثلاثة سائقين مصريين أخيرًا متشككًا فى أن يكونوا تابعين لبوليس عبدالناصر السرى. ولذلك طلب كوستيس من نيكيتاس أن يرشح له سائقًا يونانيًا، على أن لا يكون شيوعيًا، لكى يتقاسم القيادة مع ميسا الذى لم تعد لديه القدرة على القيادة الجيدة مثلما كان فى الماضى. أرسل إليه نيكتياس شابًا مفتول العضلات ينحدر من جزيرة خيوس باليونان، يدعى باندليس أرميناكيس، وقد تعلم هذا الشاب العزف على البوق كما تعلم إصلاح الأحذية فى دار كانيسكيريوس للأيتام. كان وجود الضابط السابق بالجيش الأبيض أمرًا ضروريًا حتى يبدأ اليوم بداية طيبة، فقد اعتاد ميسا قبل خروجه أن يحظى بتناول الإفطار مع رئيسه فى "كشك الصداقة" حيث كانا يستعيدان، فى تلك الأثناء، ذكريات الأيام الخوالى أيام الحرب الجميلة عندما كانت صحبة الرجال تجتمع معًا لتناول " طعام الإفطار" (ذكرها باللغة الإنجليزية ودونها بحروف يونانية).

فضل كوستيس أن لا يذكر شيئًا عن التأميم، وعندما هم السائق أرميناكيس بالسؤال قاطعه متنحنحًا، وأجابه بخشونة «هذا لا يعنينا». ثم تحدث ميسا بعد ذلك كالمعتاد عن أيام باريس، ذلك الحديث الذى كان يضعه على قدم المساواة مع رجل صناعة الدخان اليونانى. ولم يتردد أن تتطرق رواياته الحديث عن هايكى، حيث اعتاد

منه كوستيس ذلك دون أن يبدى تذمره أو ضيقه من ذلك، فقد تولد لديه انطباع دائم بأنهم كانوا يتحدثون عن امرأة أثقلته بالأحزان وحطمت كبرياءه بطريقة لم يقم بها أحد سواها.

فى تلك الأثناء، كانت السيارة تقطع طريقها المعتاد باتجاه ترعة المحمودية، من خلال المرور، كالمعتاد، عبر شارع راصافا الذى يقع فيه قصر البارون ميناسيه المهجور. وأمام منظر القصر المهجور شعر كوستيس بقلبه وكأنه جنين صغير يركل بقدمه داخل بطن أمه. عندئذ توارد إلى ذهنه عدد هائل من العائلات السكندرية التى ضاعت بمرور السنين، أشباح مخيفة لعديد من النبلاء تهيم فى حدائق المنازل المهجورة، وقد سيطرت كل هذه الأشباح على تفكيره فجأة. وفى لحظات معدودة انهارت كل معانى رباطة الجأش بداخله، فحاول جاهداً أن يقيم جداراً فاصلاً بينه وبين هذا الذعر الغريب.

«لم يكن من الضرورى أن تقودنى عبر تلك الشوارع المليئة بالأشباح» هكذا صاح كوستيس بشدة فى سائقه. لم يكن صوته عاديًا، ولكن كان له صدى مخيف مما جعل الرجلين اللذين يجلسان فى الأمام يستديران فى دهشة. لن ينسى ميسا أبداً هذا المنظر الذى رآه فى المقعد الخلفى للسيارة، صاح ميسا قائلاً: «أيها الرئيس»، وكأنه كان يبحث عن صديقه القديم فى مكان آخر غير هذا المخلوق الذى يجلس أمامه.

«يا إلهى، انظر أنت أمامك واستمر فى القيادة» هكذا صاح ميسا فى بانديليس واستمر فى النظر لهذا الوجه الحزين الذى تجمد وأصبح بلا ملامح، وكأنه تمثال أصم يرتدى رداءً أبيض اللون. «أيها الرئيس» نادى ميسا مرة أخرى. لكن كوستيس لم يعد موجوداً.

لم تكن يده المرفوعة لتحيى هذا الجمع من الناس خارج المصنع هى نفس اليد. لم يكن صوته الذى تردد صداه بشكل مخيف، قائلاً: «الأشباح! الأشباح» هو نفس الصوت. كان وكأن ضميره المعذب هو الذى يتذكر تلك الأشباح التى ترتدى الجلاليب البيضاء من المواطنين المصريين من عمال المصنع، وهم يتدافعون فى حديقة المصنع.

وعند البوابة الرئيسية للمصنع كان هناك جنديان مسلحان من الجيش. لهما مظهر مهيب بزيهما العسكرى، يحمل البيريه الذى يرتديانه فوق رأسهما ذلك النسر الذى يرمز لعبد الناصر. كانا يسدان المدخل بجسديهما الضخم.

«تأميم!» هكذا صاح أرميناكيس ولم يكن بحاجة لانتظار الضابط المصرى الذى خرج فى تلك اللحظة من البوابة الحديدية الضخمة واتجه نحوه وإلى جواره مدير المصنع الأمريكى الجنسية. كان الضابط رجلاً أسود البشرة، يرتدى قبعة عسكرية، ضخم الجثة، ذا شارب ضخم، له كفان عريضان كان يستخدمهما وكأنهما مجاديف ليفرق بهما العمال الذين أحاطوا بالسيارة معبرين عن سخطهم. أمسك الضابط فى يده بإعلان التأميم وأسرع لكى يسلمه إلى من يهمه الأمر. أحنى رأسه تجاه نافذة السيارة المفتوحة، وألقى التحية العسكرية، وترك الورقة بلا مبالاه على المقعد الخلفى للسيارة، دون أن يعطى أهمية ليد كوستيس، الباردة الثابتة، ولم يلحظ أنه قد مات منذ لحظات.

المؤلف فى سطور:

ذيميتريس ستيفاناكيس

ولد عام ١٩٦١ بالعاصمة اليونانية أثينا، ودرس الاقتصاد فى جامعة أثينا.

ترجم بعضًا من مؤلفات سول بيلو، وجون أبيداكيس، ومارجريت أدجوت، وج.م فورستر، وبروسبير بيريميه.

وتعد رواية "أيام الإسكندرية"، والتى نشرت عام ٢٠٠٧، هى إنتاجه الأدبى الرابع.

من أعماله :

- "ΦΡΟΥΤΑ ΕΠΟΧΗΣ"، فاكهة الموسم". دار نشر أوكيانيذا، أثينا ٢٠٠٠ .
- "ΛΕΓΕ ΜΕ ΚΑΪΡΑ"، لتدعونى كايرا". دار نشر أوكيانيذا، أثينا ٢٠٠٢ .
- "ΤΟ ΜΑΤΙ ΤΗΣ ΕΠΑΝΑΣΤΆΣΗΣ ΕΧΕΙ ΑΧΡΩΜΑΤΟΨΙΑ"، عين الثورة تعانى من عمى الألوان". دار نشر أوكيانيذا، أثينا ٢٠٠٥ .

المترجم فى سطور:

د. محمد خليل رشدى

من مواليد القاهرة عام ١٩٧٢

- حصل على ليسانس الآداب، جامعة القاهرة. قسم الدراسات اليونانية واللاتينية عام ١٩٩٥.

- حصل على درجة الدكتوراه فى الأدب المقارن من كلية الآداب، جامعة أثينا باليونان عام ٢٠٠٢ .

- يعمل منذ عام ٢٠٠٥، مدرسا للدراسات الكلاسيكيه بكلية الآداب، جامعة أسيوط.

- شارك فى أعمال الترجمة الفورية، من اليونانية للعربية وبالعكس، فى العديد من المؤتمرات الدولية.

- شارك فى ترجمة كتاب الإسلام عن اللغة اليونانية.

المراجع فـى سـطـور:

أ.د. عـادل سـعـيـد الـنـحـاس

- أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية المساعد بكلية الآداب – جامعة القاهرة.

- حصل على الدكتوراه فى الأدب اليونانى من كلية الآداب – جامعة القاهرة ، عام ١٩٩٥.

- له عدد من الأبحاث فى مجال الأدب اليونانى منها: الرقص: فن التعبير الحركى وأهميته فى الدراما اليونانية، بين الصداقة والملق، الوضع القانونى للمرأة الأثينية فى ضوء كوميديات مناندروس، الاتجاهات الحديثة فى الدراسات حول الكوميديا الإغريقية الوسطى والحديثة (خلال العقدين الأخيرين)، مظاهر الحب والكراهية بين تكريم باتروكلوس والتنكيل بهيكتور، جمهور مناندروس بين الاستقبال والتوقع .

- شارك فى ترجمة ملحمة "الإلياذة" للشاعر اليونانى هوميروس فى المشروع القومى للترجمة، عام ٢٠٠٤؛ كما شارك فى ترجمة الجزء الثانى من "موسوعة كمبريدج فى النقد الأدبى،" النقد الأدبى فى العصور الوسطى"، تحرير آلاستير مينيس ويان جونسون، (بالاشتراك مع آخرين)، (المشروع القومى للترجمة)، (تحت الطبع) .

- قام بمراجعة وتحقيق موسوعة ويكيبيديا البريطانية (أوربا القديمة)، مكتبة الشروق، عام ٢٠١٠ .

التصحيح اللغوى : وجـيـه فـاروق

الإشـراف الفنى : حـسن كـامل